

بسم الله الرحمن الرحيم

الثقافة التقليدية
في المملكة العربية السعودية



1

الآثــــار

دار الدائرة للنشر والتوثيق
THE CIRCLE FOR PUBLISHING & DOCUMENTATION



الثقافة التقليدية
في المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

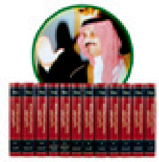
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية
ط١.- الرياض.
٥٢١ ص ١٨ × ٢٥سم
ردمك: ٤-٢٧-٨٤٢-٩٩٦٠ (مجموعة)
٢-٢٨-٨٤٢-٩٩٦٠ (مجلد ١)
١- السعودية - الثقافة
ديوي ٣٠١,٢٩٥٣١ ٢٠/ ٣٧٢٥

رقم الإيداع: ٢٠/ ٣٧٢٥
ردمك: ٤-٢٧-٨٤٢-٩٩٦٠ (مجموعة)
٢-٢٨-٨٤٢-٩٩٦٠ (مجلد ١)

الناشر: دار الدائرة للنشر والتوثيق
ص. ب ٨٦٧١٣، الرياض ١١٦٣٢
المملكة العربية السعودية
فاكس ٤٥٠٤٩٧٥

Traditional Culture of Saudi Arabia

Published by The Circle for Publishing & Documentation
P. O. Box 86713, Riyadh 11632
Kingdom of Saudi Arabia
Fax. 4504975



تم إنجاز هـذا الـعـمـل وطـبـاعـتـه ونـشـره

بـتـوجـيـه ورعـايـة مـن صـاحـب الـسـمـو المـلـكـي

الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز آل سعود



الثقافة التقليدية
في المملكة العربية السعودية

المشرف العلمي ورئيس هيئة التحرير

د. سعد العبدالله الصويان

المشاركون في التأليف

د. أحمد بن حمد الفرحان (الحيوان، النبات)

د. أحمد بن عمر الزيلعي (الآثار، الحرف والصناعات، المواقع الأثرية)

د. أسامة بن محمد نور الجوهري (العمارة)

د. جابر بن سالم موسى (الطب والعطارة)

د. حميد بن إبراهيم المزروع (الآثار، المواقع الأثرية)

د. خليل بن إبراهيم المعيقل (المواقع الأثرية)

د. سالم بن أحمد طيران (الآثار)

د. سعد بن عبدالعزيز الراشد (الآثار، المواقع الأثرية)

د. سعد بن عبدالعزيز السعران (الألعاب)

د. سعد العبدالله الصويان (الإبل، القنص والصيد)

د. سعود بن سليمان ذياب (الآثار، المواقع الأثرية)

سلطان بن خالد بن أحمد السديري (الإبل، الحيوان، القنص والصيد، المعارف الجغرافية، النبات)

د. سليمان بن محمد الذييب (الآثار، المواقع الأثرية)

د. صالح العلي الهذلول (العمارة)

عبدالرحمن بن زيد السويداء (الإبل، القنص والصيد)

د. عبدالرحمن بن سعود الهواوي (الإبل، القنص والصيد)

د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري (الآثار، المواقع الأثرية)

عبدالرحمن بن عبدالعزيز المانع (الإبل، الطب والعطارة، العمارة)

د. عبدالرحمن بن محمد العسيري (الألعاب)

د. عبدالرحمن بن محمد عقيل (الطب والعطارة)

د. عبدالعزيز بن سعود الغزي (الآثار، المواقع الأثرية)

د. عبدالكريم بن عبدالله الغامدي (الآثار، المواقع الأثرية)

د. عبدالله بن إبراهيم العمير (الآثار، الحرف والصناعات، المواقع الأثرية)

عبدالله بن أحمد السيف (الإبل، المعارف الجغرافية)

د. عبدالله بن آدم نصيف (الآثار، المواقع الأثرية)

د. عبدالله بن حسين الخليفة	(الألعاب)
د. عبدالله بن حمد الخلف	(الفلاحة)
د. عبدالله بن عبدالرحمن الدوسري	(الآثار، المواقع الأثرية)
د. عبدالله بن سالم الزهراني	(الفلاحة)
د. عبدالله بن محمد الشيخ الأنصاري	(الحيوان، النبات)
د. عبدالله بن ناصر الوليعي	(المعارف الجغرافية)
د. عبدالله بن يوسف الغنيم	(المعارف الجغرافية)
د. عساف بن علي الحواس	(المعارف الجغرافية)
د. علي بن إبراهيم حامد غبان	(الآثار، الثقافة البحرية، الحرف والصناعات)
م. علي بن محمد الشعيبي	(العمارة)
د. عوض بن متيريك الجهني	(الحيوان، النبات)
د. فوزان بن عبدالرحمن الفوزان	(الفلاحة)
د. محمد بن حسن صالح البراهيم	(العمارة)
د. محمد بن خالد السعدون	(الحيوان، النبات)
محمد بن سعود الحمود	(المواقع الأثرية)
د. محمد بن عبدالعزيز اليحيى	(الطب والعطارة)
محمد بن عبدالله الشواطي	(المواقع الأثرية)
د. محمد بن عبدالله الصالح	(العمارة)
د. معراج بن نواب مرزا	(المعارف الجغرافية)
د. منصور بن سليمان السعيد	(الطب والعطارة)

المراجعون

إبراهيم بن عبدالله الخميس
أحمد بن حامد الغامدي
د. حسن بن عايل أحمد يحيى
د. خليل بن إبراهيم المعيقل
راشد بن محمد الحمدان
سعد بن عبدالله البراك
د. سعيد بن فالح الغامدي
سلطان بن خالد بن أحمد السديري
سلمان الأفنس ملفي الشراري
سلمان بن سلامة محمد الهلالي
صالح بن عبدالله العبودي
صالح بن محمد الخليفة
عبدالحميد بن مهدي أبو السعود
عبدالرحمن بن زيد السويداء
د. عبدالرحمن بن فريح العفنان
عبدالرحمن بن عبدالعزيز المانع
عبدالرحيم بن مطلق الأحمدي
عبدالعزيز بن جار الله الجار الله
د. عبدالله بن أحمد سعد الطاهر
د. عبدالله بن محمد البداح
عبدالله بن محمد المنيف
علي بن صالح السلوك الزهراني
علي بن محمد الحبردي
د. لويزا بولبرس
محمد بن إبراهيم الميمان
محمد حسين بنونة
د. محمد الصالح الربدي
د. محمد الصالح الشنيفي
محمد بن صالح البليهشي
د. محمد بن عبدالله النويصر
محمد بن عبدالله الحمدان
محمد بن علي حسن آل ناصر
د. مشلح بن كميخ المريخي المطيري
هزاع بن عيد الشمري
د. يوسف بن محمد فادن

استشارات علمية وفنية

د. إياد عبدالوهاب نادر
د. سعيد زغلول البسيوني
د. شوكت علي شودري
صالح بن عبدالله العزاز
عثمان لولن
د. مصطفى عبدالله شيحة

الرسامون والمصورون

بسام مصطفى أحمد
حمزة عبدالله النميري
روبرتو ميدينا
رولاند ميدينا
صلاح الدين الأمين
عبدالرؤوف محمد جمعة
غالب خاطر
محمد بن حسين بنونة

مصادر الصور

- **دار الدائرة للنشر والتوثيق**
- **المشاركون في التأليف**
- **الهيئات:**

شركة أرامكو السعودية
مكتبة الملك فهد الوطنية
الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض
الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها

- **المطبوعات:**

أطلس المياه، وزارة الزراعة والمياه
الغطاء النباتي للمملكة العربية السعودية، وزارة الزراعة والمياه.
الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارة وتاريخاً، مجموعة بن لادن السعودية.

- **الأفراد:**

بسام مصطفى أحمد
سلطان بن خالد بن أحمد السديري
صالح بن عبدالله العزاز
عبدالعزيز بن جار الله الجار الله
عبدالله بن محمد المنيف
عثمان لولن
د. محمد بن عبدالله الصالح
محمد بن حسين بنونة
د. يوسف بن محمد فادن

تنبيه

هذه هي الطبعة الأولى من مشروع الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية. لقد بذلت دار الدائرة للنشر والتوثيق كل ما في وسعها لتخرج مجلدات المشروع على الشكل الذي يرضى عنه القارئ. إلا أن الثقافة ميدان فسيح من ميادين المعرفة وموضوع متداخل متشعب يصعب الإلمام به وحصره بين دَفّتَي مجلد أو عدد من المجلدات. إن مشروعاً بهذه الشمولية وهذا الطموح وهذا التعقيد يحتاج إنجازه بالشكل الصحيح إلى عقود عديدة وأجيال متعاقبة وطبعات متوالية لسد النقص وردم الثغرات وتصحيح الخطأ وتطوير المنهج وتلافي مختلف أوجه القصور. وأياً كان الأمر، يبقى عمل الإنسان ناقصاً مهما بذل من جهد لإتمامه، فالبدايات دائماً صعبة وشاقة. لذا فنحن بقدر ما نستدر عطف القراء ونأمل منهم الصفح عن الهفوات والأخطاء، فإننا، في عمل ضخم كهذا، بأمس الحاجة إلى آرائهم ونرحب بكافة ملاحظاتهم وتصويباتهم حتى يمكن الاستفادة منها في طبعات لاحقة.

كما نلفت الانتباه إلى أننا أوردنا في نهاية كل مجلد قائمة بالمصادر ذات الصلة بموضوع المجلد والتي تم الاعتماد عليها والتي يمكن للقارئ الرجوع إليها للاستزادة. لكننا، جرياً على العادة المتبعة في تأليف الموسوعات، حاولنا التخفيف قدر الإمكان من الإحالات إلى المراجع داخل النص واقتصرنا في ذلك على الحد الأدنى والضروري. أما تلك المصادر التي ترتب مادتها هجائياً مثل كتب الأمثال ومعاجم البلدان والقواميس فإننا أغفلنا الإحالة إليها داخل النص لعدة أسباب أهمها تعدد طبعاتها واختلاف الناشرين وسنوات النشر لكل طبعة ولأن مادة هذه المصادر مرتبة ترتيباً هجائياً يجعل من السهل على القارئ تتبع موادها والعثور على بغيته فيها دون أن نشير له إلى رقم الصفحة.

مقدمة عامة

بقلم صاحب السمو الملكي
الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز

كلما ارتقى الإنسان درجات على سلم التطور الحضاري وسار خطوات في طريق التقدم العمراني كلما تشعبت ثقافته وازداد تركيبها تعقيداً. وفي عالمنا المعاصر، تعددت مصادر الثقافة، وتفرعت قضاياها، وتباينت مظاهرها، وتداخلت مكوناتها، المادية منها والقولية والروحية والمعنوية، وأصبح لكل أمة ثقافة عامة شاملة، تنضوي تحتها ثقافات فرعية تقليدية، لكل منها وسائلها، التي تعبر بها عن تميزها وخصوصيتها.

العناية بالثقافة التقليدية ظاهرة حضارية تدل على مستوى وعي الأمة، ورقيها الثقافي، ونضجها الفكري. فالدول المتحضرة أنشأت المعاهد والجامعات، وأسست المتاحف والأرشيفات، وألفت المعاجم والموسوعات لجمع مأثوراتها الشعبية وتوثيقها وتصنيفها على أسس سليمة، وذلك لما رأته من الفائدة العلمية والقيمة الفنية لها. وما من أمة تعتز بمكونات ذاتها، وتحرص على أصالة كيانها وتقويته وتعزيزه، وتطمح أن يكون لها شأن بين بقية الأمم، إلا وتبذل قصارى جهدها في رصد المكونات التقليدية، والمظاهر الشعبية من ثقافتها، والمحافظة على مأثوراتها، جمعاً وتوثيقاً ودراسة؛ ذلك لأن مأثورات الأمة هي الخيط الحضاري الذي ينتظم عقد الأجيال عبر القرون، والسداة التي تشد مختلف فئات الشعب وطبقاته في حلقات مترابطة وصفوف متراصة من التواصل والمحبة والعطاء. مأثورات الأمة هي الروح التي تعيش بها، والسمة التي تميزها، ووجهها الذي تطل به على العالم. ومن دون التعرف على هذه المأثورات، وإبرازها بالشكل الملائم، فإنه يصعب إدراك كنه الأمة، وتمييز نكهتها، وتحديد شخصيتها ومكانتها بين الشعوب الأخرى.

وإذا كان المجتمع يمر بمرحلة تطور سريع وتغير مفاجىء، كما هي الحال بالنسبة إلى بلدان مجلس التعاون الخليجي والجزيرة العربية، فإن العناية بالثقافة التقليدية وجمع المأثورات الشعبية وتوثيق مادتها يصبح أمراً لا يستحسن إرجاؤه. من هذا المنطلق، جاء مشروع <u>الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية</u>، هذا المشروع الوطني الطموح، الذي استغرق إنجازه عشر سنوات من العمل الدؤوب والجهد المتواصل، وشارك في إعداده مجموعة مختارة من المؤلفين والمراجعين والمحررين والفنيين.

إن الهدف الأول من المشروع، هو توثيق الثقـافة التقليدية والتراث المادي، كمرآة تعكس البناء الاجتماعي والتقاليد والأعراف والقيم الثقافية ووسائل التكيف مع الظروف الطبيعـية والإنسانية في المملكـة العربية السعودية. ويشـكل كل مجلد من مجلدات المشروع جزءاً مرتبطاً مع الـبقية، ولكن، يمكن في الوقت نفسه، اعتباره عـملاً قائماً بذاته، يتناول حقلاً محدد المعالـم من الحقول الرئيسية في ثقافتنا الشعبية. فالمجلـدان الأولان يتناولان الخلفية الأثرية والأساس التاريخي للـموضوعات، التي تتناولها بقية المجلدات، مثل الحرف والصـناعات اليدوية والعمارة التقلـيدية والزراعة، وذلك من أجل ربط حاضرنا بماضينا وتأكيد الاستمرارية الحضارية والثقافية للملكة العربية السعودية.

وتتحدث بقية المجلدات عن المهن التقليدية والحرف اليدوية، وتقدم وصفاً شاملاً ودقيقاً لها. كما تم جمع المعارف الشعبية التي تدور حولها، ويشمل ذلك التركيز على المصطلحات الفنية التقليدية والمسميات الدارجة والتعابير الشائعة، في كل بيئة محلية، مما يستخدمه عامة الناس وأصحاب المهن والحرفيون التقليديون عند الحديث عن مهنهم، وما يتـصل بها من نـشاطات ومهارات. كـما يشمل ذلـك، أيضاً، حصر الأدوات والتقنيات المستخدمة، وأساليب الإنتاج والتوزيع، وما يصاحب ذلك كله من عادات وتقاليد وطـقوس وأهازيج، وما يدور حوله مـن حكايات، وما يتصل بـه من أمثال ومرددات وأشعار شعبية وفنون قولية.

وكان لا بد من التطرق إلى المواد الخام المستخدمة في مختلف النشاطات، ومصادرها المحلية، ودورهـا في تحديد نماذج الثقافـة المادية وأشكالها وكـيفية تطويعـها، للوفاء بالأغراض المطلوبة، وسد الحاجات الضرورية. كما قُدمت نماذج من الثقافة التقليدية والتراث المادي، كوسائل لتكيف الإنسان مع بيئة الجزيرة العربية، وتم تحليل بعض هذه النماذج، ليتضح للـقارئ كيف تختلف أنماطها وتوزيعاتها، حـسب اختلاف الطبيعة والمناخ السائد والمواد الخام المتاحة، وحسب اختلاف العادات الاجتماعية. ويتم تدعيم ذلك وتوضيحه عن طريـق توثيق بعض الحالات والنماذج النادرة في مخـتلف أنحاء المملكة، من الصناعات والأبنية، وما شابه ذلك من الآثار المادية الشاخصة.

وإضافة إلى مجلدات الآثار والحرف اليدوية والعمارة التقليدية، هناك مجلد الفلاحة، الذي يشتمل على حصر لمختلف فنون الزراعة ونشاطاتها، وطرق الحرث والري، وما إلى ذلك. هذا بالإضافة إلى تقسيم المملكة إلى مناطق زراعية، مع توضيح مميزات كل

منها، من النواحي التضاريسية والمناخية، وتوفر المياه، وطبيعة التربة، ونوع المحاصيل المزروعة. وهناك أيضا مجلد الطب والعطارة، الذي يوثق مختلف الطرق التقليدية المتبعة، والممارسات الشائعة في الطب الشعبي، من التداوي بالأعشاب إلى الكي، إلى طرق التجبير. ومجلد آخر لتوثيق الألعاب الشعبية في مختلف مناطق المملكة، بكل ما تتضمنه هذه الألعاب من حركات وأهازيج ومرددات لفظية.

وبالإضافة إلى المجلدات التي تتناول الثقافة المادية، هناك مجلدات تركز على البيئة الطبيعية من وجهة النظر الشعبية. ويتضمن ذلك المعارف الجغرافية، بما فيها من مسميات شعبية لمختلف الظواهر الطبيعية والتضاريسية من وهاد ونجاد وسهول ومرتفعات ومجاري السيول من تلاع وشعاب وأودية، ومصادر المياه من ثمايل وثمد وامِشّا ودْحُول، وكذلك الأنواء والظواهر المناخية من نجوم وسحب ورياح وأمطار، وكل ما يتعلق بذلك من مصطلحات ومسميات محلية.

وهناك مجلدات تتناول الحياة الفطرية، بما في ذلك جمع وتحليل المعارف الشعبية التي تدور حول مختلف فصائل الحيوانات والنباتات. وكذلك المعارف التقليدية المتعلقة بغرائز الحيوانات والطيور وطبائعها، وطرق تزاوجها وتوالدها، وهجرتها، وتغير أطوارها مع تغير الفصول، وما يدور حول ذلك من حكايات وأمثال. هذا بالإضافة إلى دراسة مختلف أجناس الحيوانات والنباتات، وسبل تكيفها مع المناخ الجاف والبيئة الصحراوية، إضافة إلى تكيف الإنسان نفسه مع الحياة الفطرية الموجودة في بيئته وعلاقته معها ونظرته إليها وطرق الاستفادة منها. ونظراً لما للإبل من أهمية خاصة بالنسبة لابن الجزيرة العربية، فقد حظيت بمجلد مستقل.

والمنهج الذي يقوم عليه المشروع هو أن يكون شاملاً، ما أمكن، لجميع جوانب الحياة التقليدية والثقافة المادية في جميع مناطق المملكة، على أن يراعى في ذلك دقة التصنيف، وجودة التبويب، مع عمق التحليل وشمولية المعالجة، موضوعياً وجغرافياً.

ويشتمل المشروع على إثنا عشر مجلداً لا يقل عدد صفحات كل منها عن ٥٠٠ صفحة، تشكل الصور والمواد التوضيحية فيها نسبة ٣٠-٤٠٪. وكان حرصنا شديداً على أن تكون الصور والرسومات نماذج عالية الجودة، وذات قيمة حقيقية، فنياً وتاريخياً، وأن تخدم أغراض التوثيق والتوضيح. كما يجب أن تتكامل النصوص والرسومات والصور، ويفسر بعضها البعض الآخر.

ولقد قام على تأليف هذه المجلدات ومراجعتها طاقم سعودي من أساتذة الجامعات والمختصين وذوي الاهتمام. وسعى المؤلفون إلى جمع كافة المعلومات والبيانات الضرورية من المصادر المكتوبة، العربية منها والأجنبية، كما قاموا بإجراء جميع المسوحات اللازمة، والأعمال الميدانية، ومقابلة الإخباريين والحرفيين التقليديين وأصحاب المهن والصناعات اليدوية، من أجل استكمال المادة التي جمعت من المصادر المكتوبة، وتصحيحها وتحديثها، وسد ما تعانيه من نقص في المعلومات، كي تأتي النصوص مشتملة على معلومات وصفية دقيقة وجديدة، وعلى تحليلات جيدة ومفيدة. وتضمن ذلك التقاط المئات من الصور الفوتوغرافية، إضافة إلى الرسومات التوضيحية، وبعض الصور ذات القيمة التاريخية والجمالية. وقد انصب الاهتمام على إبراز النواحي الجمالية، لجذب القارىء وشده إلى تصفح المجلدات، ومحاولة الإلمام بأسرار الثقافة التقليدية. هدف المشروع، هو توفير معلومات وافية، وإعطاء صورة صحيحة عن مختلف جوانب حياتنا التقليدية، إضافة إلى كونه تحفة فنية تليق بتراث الأجداد، وتعبر عن حبنا لهم، وبرنا بهم، وتقديرنا لكفاحهم.

أما الأساس الذي بني عليه اختيار أعضاء فرق التأليف وطاقم هيئة التحرير، فهو السمعة الأكاديمية والكفاءة المهنية التي يتمتعون بها، وكونهم ممن لهم اهتمام بارز بقضايا الثقافة التقليدية ومادة المأثورات الشعبية، ومن لهم باع طويل في ميدان البحث والكتابة والتوثيق. ويمثل المؤلفون والمراجعون والمحررون توجهات علمية مختلفة، مما يضمن التكامل العلمي فيما بينهم، كما أنهم ينتمون إلى مختلف مناطق المملكة ومؤسساتها العلمية، مما يعطي العمل طابعاً وطنياً شمولياً، ويضمن، في الوقت نفسه، تغطية جزئيات الثقافة التقليدية بعناصرها المختلفة، على امتداد ساحة هذا الوطن الحبيب.

ولقد قام فريق من المحررين بتحرير نصوص المجلدات وإعدادها بعناية فائقة، وكتابتها بلغة عربية جيدة مستقيمة، وبأسلوب واضح مفهوم. وتتبنى المجلدات أسلوباً وسطاً يجمع بين الدقة والوضوح، وتقديم المعلومات بلغة سلسة تجتذب إليها القارىء، وتحبب إليه الموضوع، وتنمي ثقافته بهذا الجانب من جوانب المعرفة الإنسانية، خصوصاً أجيالنا الناشئة، التي كادت تنقطع صلتها بماضيها، وما سطره الأجداد من قصص الكفاح، وما تحلوا به من صبر على الشدائد ومواجهة التحديات، والتكيف مع ظروف الحياة الصعبة.

المحتويات

تمهيد 23-28

علم الآثار والجهود الآثارية في المملكة العربية السعودية 29-62

علم الآثار 29

الجهود الآثارية في المملكة 38

دراسات ما قبل التاريخ.............................. 38

عصور ما قبل الإسلام.............................. 41

العصور الإسلامية.............................. 47

جغرافية المملكة.............................. 51

الاستيطان في العصور الحجرية 63-90

العصر الحجري القديم 64

العصر الحجري الوسيط 69

العصر الحجري الحديث 70

نهاية الألف الرابع حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد 80

حضارة هيلي.............................. 81

حضارة أم النار.............................. 83

حضارة دلمون.............................. 85

حضارة مدين.............................. 88

الممالك العربية القديمة.............................. 91-110

الممالك العربية المبكرة.............................. 92

أدوم – الأدوميون.............................. 92

عمون – العمونيون.............................. 93

الممالك العربية الوسيطة 94

سبأ.............................. 94

معين.............................. 97

حمير.............................. 98

الأنباط.............................. 100

الممالك العربية المتأخرة 103

كندة الثانية (نجد وما حولها) 103
الغساسنة 106
المناذرة 109

طرق التجارة والحج 111-144

طرق التجارة 111
طرق الحج 114
طريق الحج الشامي 114
طريق الحج الكوفي 122
طريق الحج البصري 128
طريق الحج المصري 131
طرق الحج اليمني 140
طريق الحج العُماني 144

العمارة في العصور القديمة 145-178

العمارة السكنية 146
العصور الحجرية 146
عصر الممالك العربية 155
العمارة الدينية 164
المعابد 164
الكعبة المشرفة 168
المقابر 170
المقابر الركامية 172
المقابر الرجومية 174
المقابر المحفورة 175
المقابر المنحوتة 176

العمارة في العصر الإسلامي 179-234

مدخل تاريخي 179
العمارة الدينية 188
المساجـد 189
المدارس 205

الأربطة 209
العمارة المدنية 214
القصور 214
الأسواق 215
الحمامات 222
العمارة الحربية 227
الآطام والحصون والقلاع 227
الأسوار والأبراج 233

المنشآت المائية 262-235
القنوات والعيون 235
الآبار 245
السدود 248
سدود الحَجَّاج بمكة المكرمة 250
سدود الطائف 251
سدود المدينة المنورة 252
سدود خيبر 254
سدود أخرى 257
البِرَك 258

المصنوعات الفخارية والخشبية 306-263
الفخار القديم في الجزيرة العربية 265
فخار العصر الحجري الحديث 266
فخار الألف الثالث قبل الميلاد 270
فخار الألف الثاني قبل الميلاد 272
الفخار في عصر الممالك العربية 276
الفخار والخزف الإسلامي 284
الفخار في العصور الإسلامية المبكرة 285
الفخار المزجج والخزف الإسلامي المبكر 291
الفخار في العصور الإسلامية المتأخرة 298
المصنوعات الخشبية 300

في عصر ما قبل الإسلام 300
في العصر الإسلامي 303

التماثيل والمصنوعات الحجرية والرسوم 307–330

التماثيل 307
التماثيل الحجرية 310
التماثيل الفخارية 313
التماثيل المعدنية 315
المصنوعات الحجرية 317
الأدوات الحجرية 318
الأواني الحجرية 321
المصنوعات الحجرية في العصر الإسلامي 323
الرسوم 325
الرسوم الصخرية 325
الرسوم الجدارية 328

الزجاج والحلي 331–362

الزجاج في العصور القديمة 331
صناعة الزجاج في العصور القديمة 335
الزجاج في العصر الإسلامي 337
صناعة الزجاج في العصر الإسلامي 339
أدوات الصناعة والزخرفة 340
طرق صناعة الزجاج 341
طرق زخرفة الزجاج 344
العناصر الزخرفية 347
الأواني الزجاجية 348
الحلي 351
الحلي في العصور القديمة 352
الحلي في العصر الإسلامي 356

المجامر والمسارج 363–388

المجامر في العصور القديمة 363

المجامر في عصر الممالك العربية 365
المجامر الحجرية 366
المجامر الفخارية 372
المجامر في العصر الإسلامي 375
مجامر الحجر الصابوني 375
المجامر الفخارية 376
مجامر المرمر والبرونز 377
المسارج في العصور القديمة 378
المسارج في العصر الإسلامي 383
المسارج الفخارية 384
مسارج الحجر الصابوني 386
المسارج الزجاجية 388

أدوات الصيد والأسلحة 389-414

أدوات الصيد 389
العصور القديمة 390
عصر الممالك العربية 394
العصر الإسلامي 397
الأسلحة 402
السيف 405
الرمح 407
القوس 408
الترس 409
الدبّوس 409
الفأس 409
الخنجر 410
الدرع 410
البيضة 410
المنجنيق 411
الدبّابة (الضَّبْر) 412
النفط 413

البارود. 413

المسكوكات والأختام 415-432
المسكوكات القديمة 417
النقود البيزنطية. 417
النقود الساسانية. 418
النقود الحميرية. 420
المسكوكات الإسلامية 421
الأختام 428
الأختام في العالم القديم. 429
الأختام في المواقع الأثرية في المملكة. 430

النقوش القديمة 433-456
اكتشاف النقوش ودراستها 433
نقوش المسند 437
النقوش الثمودية والصفوية 442
النقوش اللحيانية 445
النقوش الآرامية 447
النقوش النبطية 452

الخط العربي: نشأته وتطوره 457-486
الكتابات في عصر الرسول والخلفاء الراشدين 460
الكتابات في العصر الأموي 463
الكتابات في العصر العباسي 468
الكتابات التأسيسية. 468
الكتابات الشاهدية. 474
النقوش الصخرية. 477
الكتابات في العصر المملوكي 479
الكتابات في العصر العثماني 482

تمهيد

الآثار سجل حضاري مهم لكل شعب من الشعوب، لأنها تُعبر عن أصالته، وعن امتداد تاريخه، وعن تراثه الذي يتوارثه الأبناء عن الآباء، فقد حملت لنا آثار الجزيرة العربية في مجالي العمارة والفنون، في العصرين القديم والإسلامي، كثيراً من دلائل التقدم للبشرية جمعاء. فكانت هذه الآثار خير دليل على توضيح جوانب الغموض التي صاحبت تحديد أصول الخط العربي. كما كانت هذه الآثار هي مصدر العمارة والفنون الإسلامية في مختلف بلاد العالم الإسلامي. فعمارة المسجد النبوي الشريف -على سبيل المثال- هي المصدر الرئيسي بل النواة الأولى التي قدمت تخطيط المسجد ثم تطور بعد ذلك في العصور المختلفة؛ لذلك حرصنا في هذا المجلد على تناول ذلك التراث الحضاري في العصرين القديم والإسلامي، مظهرين التنوع في مادته العلمية بين الآثار والفنون، حتى وإن كان على نحو موجز في بعض الأحيان.

وقد تتبعنا في هذا المجلد التطور التاريخي قدر الإمكان بدءاً من العصور الحجرية القديمة حتى بدايات هذا القرن. فالجهود الآثارية كثيرة ومتواصلة، وفي كل يوم يجري كشف جديد وتسجيل لأثر جديد، والعناية مستمرة بالمواقع الأثرية القديمة والإسلامية؛ لذلك كان حرصنا على أن يكون هذا المجلد متضمناً موضوعات متنوعة تجمع بين الآثار والفنون والتاريخ، فاكتملت هذه الرؤية في عدد من الفصول.

تضمن الفصل الأول منها تعريفاً بعلم الآثار وأهميته وفروعه، وتعريفاته المختلفة لدى العلماء. ثم فكرة موجزة عن الحضارات الأولى وكيفية تأريخ الآثار، اعتماداً على النظريات العلمية الجديدة

القائمة على التقنية الحديثة. ثم أتبعنا ذلك عرضاً موجزاً للجهود الآثارية في المملكة العربية السعودية من خلال عرض تاريخي شمل دراسات ما قبل التاريخ، ثم عصور ما قبل الإسلام، فالعصور الإسلامية. ثم ختمنا بعرض موجز لجغرافية المملكة وحدودها وبيئتها الطبيعية وأقاليمها وتضاريسها وموارد مياهها، لارتباط ذلك بمواقع الآثار.

بعد ذلك عرضنا للاستيطان في العصور الحجرية، حسب التقسيمات المتعارف عليها لتلك العصور: الحجرية القديمة والوسيطة والحديثة، إذ كان الإنسان في هذه المراحل يعتمد على الصيد وله أدواته الحجرية التي تخدم حياته وتعينه على البقاء. وقد دلت أماكن الاستيطان في الأزمنة القديمة على انتشار الإنسان في مواقع عديدة من أرض المملكة، في الصحاري الرملية والسهول الساحلية وعلى قمم الجبال ومنحدراتها وعلى حواف الأودية ومصاطبها وعلى ضفاف البحيرات.

وقد أشرنا إلى ما عثر عليه من أدوات وأسلحة حجرية وبقايا من منشآت المساكن. ثم تناولنا بعد ذلك الحضارات القديمة، كحضارة هيلي وأم النار ودلمون ومدين.

انتقلنا بعد ذلك للحديث عن الممالك العربية القديمة المبكرة كآدوم وعمون ومعين، والوسيطة كمملكتي حمْير والأنباط، ثم الممالك العربية المتأخرة كمملكة كندة الثانية ومملكتي الغساسنة والمناذرة.

وقد كان لهذه الممالك جميعها شأن تاريخي مهم في سلسلة التطور الحضاري في الجزيرة العربية، وكان لملوكها شهرة عظيمة حتى إنّ الدولتين الساسانية والبيزنطية كانتا تخطبان وُدَّ هذه الممالك والدول في أحيان كثيرة، لتجنب ما يمكن أن يحدث من صراعات أو احتكاكات معها.

كما تعرضنا للحديث عن الطرق التجارية وطرق الحج إلى الأماكن المقدسة، إذ توافرت للجزيرة العربية عوامل عديدة ساعدت على جعلها في مقدمة الأسواق التجارية في العالم، سواء كانت طرقاً برية أم بحرية.

وقد كانت الطرق الممهدة التي يرتادها الحجاج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة أو مسجد الرسول ﷺ، في مقدمة ما يعتني به الخلفاء والملوك والأمراء طوال العصور الإسلامية، بغية التسهيل على الحجاج، السالكين طريق الحج الشامي من الكوفة أو البصرة، أو من

مصر أو طريق اليمن وعمان أو غيرها. وكان الحرص بالغاً على تعبيد هذه الطرق وحراستها والعناية بآبارها وبركها وتزويد الحجاج بما يحتاجون إليه من مؤن حتى يصلوا إلى الأماكن المقدسة ويعودوا منها سالمين.

وقد زودنا المجلد بعدد كبير من الصور والأشكال والرسوم حتى تكتمل الفائدة ويتضح للقارئ ما قد يكون غير واضح عند قراءة النص وحده.

وأفردنا فصلاً للحديث عن العمارة في العصور القديمة، فتناولنا العمارة السكنية منذ العصور الحجرية القديمة، وفي عصر الممالك العربية القديمة، والوسيطة، والمتأخرة، من خلال مساكن الحضر وتخطيطها، وكذلك مساكن الأعراب. ثم أتبعنا ذلك بالحديث عن العمارة الدينية، التي شملت المعابد ومقامات الشعائر الدينية وتقديم القرابين بممارسة طقوس خاصة بذلك لاسيما في قرية الفاو أو ما يتصل بالكعبة.

ثم تناولنا بعد ذلك المقابر كنوع من أبنية العمائر الدينية، وهي متعددة الأنواع مثل المقابر الركامية والرجومية والمحفورة والمنحوتة.

وتحدثنا بالتفصيل عن العمارة في العصر الإسلامي. وقدمنا لها بمدخل تاريخي، أوضحنا فيه أثر بزوغ فجر الإسلام على الجزيرة العربية، وما تبع انتشار الإسلام من ازدهار الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية ونشاط حركة التعمير في مناطق عديدة من أرض الجزيرة التي تسمى الآن المملكة العربية السعودية، لاسيما خلال عصر الدولة الأموية، مع ذكر لأهم الآثار المعمارية التي تعود للقرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة، وخاصة مدينة الربذة التي كشفت الحفائر الأثرية فيها عن أجزاء من نسيج المدينة العمراني. وقد تناولنا أنواع المباني الدينية كالمساجد، خاصة المسجد النبوي الشريف.

ثم عرضنا بإيجاز للمدارس الإسلامية وللأربطة. وأشرنا بعد ذلك إلى العمارة المدنية متمثلة في القصور والحمامات والأسواق. ثم العمارة الحربية بعناصرها وأنواعها في ضوء المكتشف في مواقع مختلفة من المملكة.

ولم نغفل الحديث عن المنشآت المائية التي كانت لها أهمية خاصة في الجزيرة العربية فذكرنا معرفة العرب قديماً بكيفية استنباط المياه والحصول عليها بطرق علمية أكدتها خبرة أهل الجزيرة. وتحدثنا عن القنوات والعيون وما كان لها من أثر

بارز في استقـرار الناس، وظهور المدن والقرى والواحات الزراعية. ثم عرضنا بعد ذلك للآبار التي اعتمد عليها السكان في الري والزراعة، إذ إنها انتشرت في بطون الأودية وعلى امتداد طرق التجارة والحج. وقد تتبعـنا السدود التي كانت العناية بها واضحة في الجزيرة العربيـة، وذكرنا أمثلة عديدة منها كسدود الحَجَّاج بمكة المكرمة وسدود الطائف وسدود المدينة المنـورة وخيبر وغيرها. وتنـاولنا البرك التي انتشرت في الجزيرة العربية.

وخصصـنا فصلاً لموضـوع الفخار والخزف في الجزيرة العـربية منذ الألف السادس قبل الميلاد، متتبعين فيه العصور الحجرية الحديثة فعصر الممالك العربية. ثم تطرقنا إلى الفخار والخزف في العصر الإسلامي منذ العصور المبكرة لـلإسلام حتى نهايـة العصر العثماني. والـفخار والخـزف في الجـزيـرة الـعربـيـة مـن الموضـوعات الفريـدة بين مواد الفـنون القديمـة والإسلامية. وقـد عالجنا هـذا الموضـوع من حـيث طـرق الصـناعـة وأساليب الزخرفة، وهي كثيرة ومتنوعة. ثم أتبعنا ذلك بالحديث عن مادة الخشب واستخداماتها.

وتطـرقنا إلـى التمـاثيل والأدوات الحجـرية والـرسوم، إذ كان لـصناعـة التماثيـل أهمية دينية في عصـر ما قبل الإسلام في الجـزيرة العربية، فـعرضنا لنماذجها وخصائصها وأساليبها ومدارسها الفـنية سواء كـانت هذه التـماثيل مـن الأحجار أم الفـخار أم المعدن. وكانت الأحجار من أهم المواد التي اعتمد عليها الإنسـان القـديم إذ صنع مـنها أدواتـه وأوانيه، وظلت هذه الأواني والأدوات معروفة خلال الـعصر الإسلامي. وقد أشرنـا أيضـاً إلى الـرسوم الـصخريـة والجدارية التي رسمها الإنسان في تلك الحقبة التاريخية.

كما تطرقنا لصناعة الزجاج والحلي، إذ كانت صناعة الزجاج من الصناعات المعروفة في الجزيرة العـربية قبل العصر الإسلامـي، وقد تـقدمـت الصـناعـة وأحرزت تطوراً كبيراً في الجزيرة العربية خلال العصر الإسلامي، شمل أساليب الصناعة وطرق الزخرفة بأسلوب لافت للنظر. كذلك اهتم سكان الجزيرة بالحلي فاستخدموا منها أشكالاً عديدة صنعت من مـواد مختـلفة، وهـو الأمر الذي تـعرضـنا لـه في الـعصـرين الـقـديم والإسلامي.

وعرجنا بعد ذلك إلى الحديث عن المجامر والمسارج، فالمجامر استخدمت في الجزيرة العـربية منذ أقدم العصور

بسبب استخدام الدخون والمواد العطرية الأخرى، واستمر استخدامها خلال العصر الإسلامي، وكذلك كان شأن المسارج التي أنتجت منها أعداد كبيرة ذات أشكال وزخارف متعددة، كوسائل للإضاءة، وقد صنعت من مواد مختلفة.

وتناولنا بالتفصيل صناعة الأسلحة وأدوات الصيد. ولا تخفى أهمية السلاح الذي تعلق به العربي منذ أقدم العصور مستخدماً إياه في الدفاع عن نفسه وبلده. وكان السيف من أهم الأسلحة في عصر الممالك العربية، واستمر استخدامه في العصرين القديم والإسلامي. هذا عدا أسلحة أخرى عديدة أشرنا إليها. أما أدوات الصيد فكانت هي أيضاً من الأهمية بمكان بالنسبة لسكان الجزيرة، لتعلقهم بالصيد، وهو ما أفردناه بحديث منفصل متضمناً الأدوات وطرق الصيد.

وتناولنا في هذا المجلد المسكوكات والأختام، إذ كان التعامل قبل الإسلام بعدة عملات ذهبية وفضية ونحاسية وبرونزية، كما تداول أهل الجزيرة النقود البيزنطية والساسانية والحميرية. ولكن منذ حركة التعريب التي قام بها الخليفة عبدالملك بن مروان جرى التعامل بسكة إسلامية خالصة وهو الأمر الذي تعرضنا له بإيجاز.

وفي موضوع الأختام تحدثنا عن أهميتها في العالم القديم لما لها من أهمية في الملكية الخاصة.

وتطرقنا لموضوع النقوش القديمة. وقد تفرَّد موضوع النقوش القديمة بأهمية خاصة، نظراً لما تحتويه مواقع المملكة من كتابات عربية قديمة كتبت بخطوط متنوعة، مثل المسند الجنوبي بفروعه والمسند الشمالي بفروعه أيضاً والآرامي والنبطي وأقلام أخرى. وقد تحدثنا عن هذه النقوش باستفاضة متتبعين مجهودات علماء اللغات والدراسات الخاصة بها في هذا المجال. وقد تناولنا أنواعاً عدة من النقوش أو الخطوط، كنقوش المسند والبادية والآرامية والنبطية. ثم تحدثنا بإيجاز عن الرسوم الصخرية والجدارية.

وتناولنا الكتابات الإسلامية مبتدئين بمدخل موجز عن النظريات المختلفة التي طرحت حول نشأة الكتابة العربية التي كان مصدرها الأساسي الخط النبطي في ضوء النقوش المكتشفة حالياً. ثم أشرنا إلى الكتابات العربية التي اكتشفت في المملكة وهي تعود إلى عصور مختلفة، بدءاً بعصر الرسول

ﷺ ثم الخلفاء الراشدين خاصة كتابات جبل سلع، ثم عرضنا للكتابات في العصر الأموي فالعصر العباسي ثم العصرين المملوكي والعثماني من خلاله.

والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

علم الآثار والجهود الآثارية في المملكة العربية السعودية

نهضت الدراسات الآثارية في المملكة العربيــة السعودية نهضــة كبيرة فكانت أعمال المسح الأثري وإجراء الحفائر في مناطق عديدة من المملكة، شملت الفترة الممتدة من عصور ما قبل التاريخ وخلال العصر الإسلامي. وقد تنـاولنا في هذا الفصل موضوعات عدة شملت التعريف بعلم الآثار، ومدخلاً للدراسات الآثارية بالمملكة، ثم عرضنا للجهود الأثرية في المملكة ومنـها الدراسات في عصور ما قبل التاريخ، وما قبل العصر الإسلامي ثم تناولنا الدراسات الأثرية في العصور الإسلامية.

ولما كانت جغرافية المملكة بأقاليمها وتضاريسـها ومناخها وموارد مـياهها وسكانـها ونشاطهـا الاقتصادي ذات أهمية كبيرة تساعد في توضيح المعرفة الآثارية؛ فقد عرضنا بإيجاز لمثل هذه الموضوعات.

علم الآثار

ليس من السهل تعريف علم الآثار لا سيمـا أن كلمة archaeology، التـي يشـار بهـا لدراسة هـذا العـلم، غيـر واضحة. فهي كلمة يونانية الأصل تتألف من كلـمتين arche، ومعنـاها البداية، وlogie ومن معانيها علم؛ مما حدا ببعض الباحـثين إلى القول بأنـها تعني: علـم القـديم أو علم الآثـار. ويشير بـعض الدارسـين إلى أن أول استـخدام لهـذه الكلمة arche كان في عـهد الإمبراطور الروماني أغسطس قيصـر، حيث أطلق المؤرخ دنـيس داليكـارنس على كـتاب يتضمن معلومات عن الحروب التي دارت بين روما وقرطاجنـة اسم الآركيولوجيا الرومانية. وتجدر الإشـارة إلى أن اللغة اللاتينية لم تذكر كلمة آركيولوجيا بمعنى علم الآثـار، أو آركيولوج بمعنـى عالم آثار. وبعث هذه الكلمة في القرن السابع

عشر الفرنسي جان سبون الذي كان يتردد بين شكلين: آركيولوجيا وآركيوجرافيا. ولكن المصطلح الذي استمر هو كلمة آركيولوجيا؛ إذ كان لـه حظ في معظم اللغات الحديثة.

وعلم الآثـار كان في البـدء وصفاً للعادات القديمة قبل أن يصبح علماً، أي قبل أن يخضع لقواعد منهجية معينة تعيننا على سبر أغوار الماضي بصورة دقيقة ومنظمة. وهو أحد الوسائل المهمة لدراسة الماضي، لأنه علم يهتم بالأشياء والأشكال المادية.

ويعرّف علم الآثار بأنّه العلم الذي يعنى بالحضارة الإنسانية في مختلف عصورها، وبدراسة مخلفاتها المادية والثقافية، وتتبع مراحل تطورها وازدهارها. لذا فإن علم الآثار يُعنى بدراسة كل ما خلفه الإنسان من مواد ثابتة؛ مثل العمارة والمدن القديمة والمنشآت المائية، والمواد المنقولة مثل الفخار والخزف والمسكوكات والتماثيل والأدوات الحجرية والمعدنية والحلي والأسلحة وأدوات الصيد ومواد النسيج والأخشاب والعاج، وكذلك النشاط الزراعي والصناعي، بالإضافة إلى المخلفات المادية الثقافية، مثل الكتابات والرسوم والمخطوطات القديمة.

ودراسة هذه المواد لا تهدف إلى تهيئة مادة علمية لدارسي التاريخ فقط بل الوصول إلى فهم حقيقي لواقع الحضارات القديمة، وإلى بناء صورة أقرب إلى حقيقة واقع الحياة اليومية التي كانت تعيشها المجتمعات الإنسانية القديمة، بعلم منظم له نظرياته وطرقه وأساليبه العلمية.

وهناك عدة موضوعات تمثل البحث الآثاري، مثل أسماء السكان ودراسة هذه الأسماء من الناحية اللغوية والتاريخية، ودراسة العمارة الدينية والمدنية والحربية وهندسة المدن. إلى جانب الموضوعات المتعلقة بالمعثورات (وهي المواد الأثرية التي عُثر عليها خلال الحفريات والاكتشافات) مثل الفخار، والمسكوكات والمخطوطات القديمة والبرديات والأدوات الحجرية والمعادن والحلي وأدوات الزينة وغيرها. ومع أن علم الآثار وسيلة من وسائل دراسة التاريخ إلا أن الاتجاه الحديث في هذا العلم لا يكتفي بتهيئة المادة الأثرية للمؤرخين ودارسي التراث بل يعمد علماء الآثار أنفسهم إلى دراسة المادة الأثرية أيضاً.

وهناك فروع عديدة لعلم الآثار: فعلم آثار ما قبل التاريخ يمتاز عن فروع دراسات الآثار الأخرى بامتداد مجال درسه إذ يتناول آلاف السنين، وشموليته

التي تغطي الكرة الأرضية كلها. ويدخل في دائرة هذا الاهتمام دراسة آثار الإمبراطوريات والممالك التي ظهرت بعد معرفة الكتابة في نهاية الألف الرابع ق.م أي سنة ٣٢٠٠ ق.م. تقريباً. ويهتم علم الآثار الكلاسيكي بفترات الحضارة الإغريقية والرومانية. ويهتم علم الآثار الإسلامي بالتراث الإسلامي في الفترات الإسلامية المختلفة منذ بزوغ فجر الإسلام في القرن السابع الميلادي. وهناك أيضاً علم آثار الشرق الأدنى وعلم الآثار الحديث في الأمريكتين وأستراليا.

وثمة إشارة هنا، وهي أن تفسير أي أثر يدفعنا لمعرفة الحضارة التي ينتمي إليها. ولابد أن يبني عالم الآثار تفسيراته وأحكامه للظواهر والمعثورات الأثرية على معطيات، فلا يسير في بحثه إلا من المعلوم إلى المجهول. فمن واجبه ألاّ يدرس الآثار بصورة منعزلة وإنما على شكل مجموعات وظواهر، فيجمع الأدلة والظواهر، يصنفها ويفحصها بعقلية نقدية. وعند تقويم المعطيات عليه أن لا يقبل سوى الحقائق، أو على الأقل أقرب الأدلة إلى اليقين الممكن في العلوم الإنسانية.

ولعلم الآثار أهداف عدة، يكاد يتفق عليها دارسو هذا العلم، منها أن علماء الآثار لا يتعاملون في أبحاثهم



نشاط ميداني

مع حقائق اجتماعية بقدر ما يدرسون حقائق مادية ملموسة. وهناك ثلاث غايات لعلم الآثار؛ أولها: أنه يعيننا على تفسير مظاهر السلوك البشري الحالي، كيف ومتى تشكل هذا السلوك؟ وذلك استناداً إلى المعثورات المادية، ثانيها: أنه يدلنا على ماهية التطورات الكبيرة في التاريخ الإنساني، مثل اكتساب اللغة ومعرفة الزراعة والتعدين والاستقرار في القرى والمدن، وثالثها: أنه وسيلة لا غنى عنها لمعرفة أطوار الحضارة الإنسانية.

ويسعى علماء الآثار إلى تحقيق ثلاثة أهداف:

أولها: أنه يسهم بقدر وافر في إثراء معرفتنا بالتراث الحضاري الإنساني.

ثانيها: أن له استخدامات معنوية، إذ يعمل على تنمية الحس الوطني وإذكائه.

ثالثها: أنه علم اجتماعي يساعدنا على فهم البيئات سواء كانت طبيعية أم ثقافية.

ففي مجال البيئة الطبيعية يمدنا بمعلومات عن تشكيل الأراضي والمستوطنات والعلاقة بينهما. كما يمدنا بمعلومات جيولوجية وبيولوجية (حيوية) ومناخية تضيف كثيراً لمعرفتنا بالعالم الذي نعيش فيه. فضلاً عن إمدادنا بمعلومات عن الحياة الثقافية بجوانبها المتعددة.

وجدير بالذكر أن كثيراً من المجتمعات في دول العالم الثالث قد هجرت أساليب حياتها التقليدية في مواجهة التقدم العلمي والتقني المتسارع، لذا فإن علماء الآثار باتوا حراس التراث حتى لا ينسى، وذلك بعملهم في توثيق التراث المندرس (الآثار) والحي (الفولكلور) وإذكاء روح العمل الجماعي لحفظه والاهتمام به. ليس لأنه يمثل جانباً من واقع المجتمع الثقافي والحضاري فحسب، بل لما يتضمنه من قيم اجتماعية ومفاهيم جمالية جديرة بالعناية والرعاية وأن نقتبس في أعمالنا ورؤانا الإبداعية. وفوق ذلك كله لا تغيب عن البال الفوائد النفسية في استخدام هذا الإرث سنداً معنوياً لمجابهة التحدي الحضاري والثقافي المعاصر منه والدخيل على تراثنا العربي-الإسلامي.

ويعنى علم الآثار بدراسة التراث المادي لماضي البشرية، ومهمة الباحث هي دراسة الأدوات والمخلفات الحضارية التي صنعها أو عدلها الإنسان، وهي تتراوح بين أدوات بسيطة، مثل الأدوات الحصوية والألدوانية والشيلية، إلى الموجودات الحضارية الكبيرة والفخمة



نشاط ميداني

كالمقابر والمعابد والقلاع والحصون والأهرامات... إلخ. ومهمة عالم الآثار، كما يرى براون، معرفة أوجه العلاقات القائمة بين الأدوات والمعتقدات الحضارية بصورة منتظمة وتفسيرها.

وقد تطور علم الآثار، كمجال للبحث، بصورة كبيرة خلال المائة عام الماضية على يد هواة الآثار من جامعي العاديات والتحف والمقتنيات الفولكلورية إلى علم له أصوله وقواعده العلمية. ومن أجل دراسة الماضي طور علماء الآثار أساليب وأنظمة عديدة بغية اكتشاف الآثار والمحافظة عليها وتفسيرها. ويضع علماء الآثار نصب أعينهم عدة أهداف من أهمها:

أولاً: معرفة أشكال الحياة في غابر الأزمنة، وذلك بوصف الأدلة المادية وتصنيفها وتحليلها لإعطاء صورة جلية عن توزيع الموجودات الحضارية للمجتمعات القديمة في بعديها الزماني والمكاني.

ثانياً: التعرف على أغراض المعثورات الأثرية من أدوات أو أوان أو مبان أو حليّ وغير ذلك، باكتشاف العلاقات المبثوثة في هذه الأدلة الأثرية.

ثالثاً: تفسير مظاهر السلوك الإنساني وآليات التغيير الثقافي والحضاري مما يمكن العلماء من الإجابة عن التساؤل: كيف ولماذا حدث هذا التغيير عبر الأزمنة؟

ويمكن أن نضيف لذلك ثلاثة أهداف أخرى، هي:

أولاً: اكتشاف العلاقة بين الثقافة المادية والسلوك.

ثانياً: رصد التغييرات الاجتماعية للمجتمعات.

ثالثاً: اختبار بعض الفرضيات والنظريات استناداً إلى الموجودات الأثرية.

ويهتم علم الآثار بدراسة تاريخ أفكار الإنسان وكيفية تنظيمه لحياته واستغلاله لبيئته. كما يتقصى إنجازاته، ويتعرف على معتقداته وأساليب تواصله مع الآخرين.

وقد أماطت المسوحات والحفريات الأثرية اللثام عن العديد من الاكتشافات والتطورات الحضارية البالغة الأهمية التي تمثل منعطفاً مهماً في التاريخ الإنساني، مثل معرفة الزراعة والتعدين. ولعل من أبرز النظريات عن أصل الزراعة نظرية الواحات Oasis Theory لغوردون شايلد، وفحوى هذه النظرية أنه بنهاية العصر الجليدي الأخير (١٠٠٠٠-٩٠٠٠ ق.م) فإن معظم الكائنات الحية، بما في ذلك الإنسان، بدأت تتجمع حول أودية الأنهار. فأدى الاستغلال الجائر للبيئة الطبيعية إلى نقص حاد في المواد الغذائية مما دفع الإنسان إلى تدجين كل من النبات والحيوان (Childe 1951: 35-36).

وهناك فرضية النواة Nucleus Theory القائلة بأن ظهور الزراعة مرده إلى توافر بعض المحاصيل البرية، مثل الشعير والقمح، في منطقة الشرق الأدنى وعندما بلغ الإنسان درجة من التقدم التقني أدى به تفكيره إلى تدجين هذه المحاصيل. وبالرغم من أن هذه الفرضية هي أكثر الفرضيات رواجاً عند كثير من الدارسين، إلا أنها لا تجد سنداً مادياً يعضدها.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى فرضية التوازن والضغط السكاني التي تزعم أن هناك توازناً بيئياً طبيعياً بين الإنسان من جهة والحيوان والنبات من جهة أخرى، فلما زاد عدد البشر اختل هذا التوازن، لذا اضطر الإنسان إلى إنتاج الغذاء بالاستفادة المتوازنة من المصادر الحيوانية والنباتية مما مكنه من إعادة التوازن الطبيعي لمكانه.

وفي مجال التعدين أدت معرفة الإنسان بصناعة الفخار (١٠٠٠٠-٨٠٠٠ ق.م) إلى إحداث تغييرات جوهرية في حياته، لأنها مهدت للكثير من الصناعات الأخرى. فعملية حرق الأواني الفخارية جعلت الإنسان قادراً على أن يتحكم ليس فقط في كمية الحرارة واستخدامها الأمثل في الحرق، بل أدرك دورها في تغيير خواص المواد فسخرها لصهر كثير من المعادن كالنحاس والحديد.

وربما كان ذلك -في البداية- مصادفة. ولكن هذه المعرفة فتحت آفاقاً أرحب لتقنية المعادن، بل مهدت لكثير من التطورات التقنية اللاحقة.

وعلى الصعيد المنهجي شهد علم الآثار تطورات وقفزات نوعية كبيرة على مر السنين. وكانت أولى المحاولات لإيجاد منهج علمي لدراسة الآثار، أو بالأحرى دراسة المعثورات، ما قام به تومسون في متحف كوبنهاجن (الدانمارك) في القرن الماضي عندما صنف المعثورات الحضارية القديمة الموجودة فيه إلى ثلاثة أقسام، هي: الأدوات الحجرية، والبرونزية، والحديدية؛ اعتماداً على نوع المادة. واعتمد هذا التصنيف التقني في دراسات عصور ما قبل التاريخ على نطاق العالم باعتبار أنه يمثل فترات تاريخية متتالية (Childe 1951:35, 41-42).

ومع أن هذا التقسيم خاص بالمواد الحضارية الأوروبية إلا أنه بات يطبق في دراسات حضارات عصور ما قبل التاريخ في كل أنحاء العالم، مع التنبيه إلى أن هذه التراتبية التقنية التاريخية التي ينطوي عليها هذا التصنيف لا تنطبق على بعض حضارات ما قبل التاريخ في العالم. وعلى سبيل المثال فإن منطقة شمال أفريقيا لم تمر بفترة العصر البرونزي، إنما شهدت نقلة حضارية-تقنية من العصر الحجري إلى الحديدي مباشرةً.

أما المنهجية الخاصة بالمواقع والفترات الحضارية استناداً إلى التسلسل الزمني فإن العمل الرائد لفلندرس بتري وهو مثال معروف لدارسي آثار الشرق الأدنى القديم، قَسَّم حقبة ما قبل الأسر في مصر -اعتماداً على التاريخ النسبي لفخارياتها- إلى ثلاث حضارات، هي:

١) البداري Badarian.

٢) نقادة الأولى Nagada 1.

٣) نقادة الثانية Nagada II.

وثمة تنويه هنا وهو أن التوصيفات المختلفة لأساليب صناعة الموجودات الحضارية والدراسات المقارنة لها، كانت ذات أهمية قصوى في الدراسات الآثارية خلال القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين. وأعقب ذلك مباشرة ابتكار أساليب لدراسة المعثورات الأثرية أكثر تقدماً وإيجابية طبقت في عدة أماكن في العالم، لا سيما أوروبا والأمريكتين. وتعتمد هذه الطرق الجديدة في مجال التصنيف على تصنيف المادة الأثرية في عدة أنماط، وكل نمط تحدده عدة معايير أو متغيرات، مثل: الشكل والبنية والصناعة والزخرفة، والمعالجة السطحية أو واحد من تلك المعايير لتجنب

الازدواجية. ومن ثم تتباين وضعية هذه الأنماط وتوزيعاتها في الموقع الأثري وإيجاد العلاقات المتبادلة (إن وجدت) بينها باستخدام أساليب إحصائية حديثة بالحاسوب، أهمها الحزم الإحصائية المعروفة باسم SPSS و SAS. ويستطيع الباحث استناداً إلى هذه الطرق الإحصائية معرفة أوجه التغييرات النمطية التي طرأت على المعثورات الحضارية التي يصعب معرفتها بشكل دقيق بالأساليب الإحصائية التقليدية.

ولا يختلف علم الآثار عن غيره من العلوم في أن الباحث فيه لا بد أن يضع عدة فرضيات يحاول الإجابة عنها، كما أن تصنيفه للمعثورات الأثرية يرتكز على هذه التساؤلات أيضاً. لهذا فإننا لا نجد في علم الآثار منهجاً تصنيفياً واحداً، بل أنواعاً متباينة من التصنيفات الأثرية تقررها طبيعة البحث، وخلفية الباحث ونوعية الأسئلة التي يحاول الإجابة عنها.

ومما يجدر ذكره أن التيار الجديد في علم الآثار، بشقيه النظري والعملي، نقل منهجية البحث الآثاري من مجالاتها التقليدية المعروفة إلى مضمار العلوم المعاصرة. ففي الجانب النظري أخذ علم الآثار طرفاً من فلسفة العلوم، وبخاصة العلم الذي يعنى بنقد المناهج؛ وذلك من أجل توقير الآثار فلا نفسرها بطريقة آلية حسب القوالب التي نستعيرها، إنما نعمل على استيعاب هذه المناهج داخل تراثنا الأثري، ومن ثم التحدث من داخل إرثنا الحضاري بهذه المناهج والأساليب العلمية.

وبسبب التقدم المذهل والمتسارع في مجال العلوم الطبيعية، فإن نجاح المنهج التجريبي Empirical Approach بات يمثل تحدياً دائماً للعلوم الإنسانية بوجه عام. وأكدت الإنجازات اللافتة في القرن الحالي في مجال العلوم الطبيعية والتطبيقية ضرورة الالتزام بالمنهج العلمي التجريبي في مجال الإنسانيات لا سيما مجال علم الآثار الذي وصل الآن إلى مرحلة النضوج وأصبح مطالباً بالتكيف مع إشكالياته الخاصة. لذا فإن التوجهات الجديدة في دراسة المعثورات الحضارية أصبحت تعتمد إلى حد كبير على التحليلات العلمية التطبيقية، سواء كانت فيزيائية (حرارية وإشعاعية) أم كيميائية.

ويلاحظ أن الكثير من الأبحاث العلمية المبكرة تركزت على التحاليل الكيميائية، كما أنها انحصرت بشكل رئيسي في الموجودات المعدنية ويليها الزجاج فالفخار. ويبدو أن الفخار هو أكثر المعثورات الأثرية التي وجدت فرصة

في التحليل بالطرق الفيزيائية والكيميائية، وذلك منذ نهاية الثلاثينيات لهذا القرن. ويعد العمل الرائد الذي قامت به أنَّا شفرد وفردريك ماتسون في الولايات المتحدة من الأعمال المتميزة في هذا المضمار، إذ استُخدِم المجهر البترولوجي في دراسة مصدر الشوائب المضافة للفخار، فضلاً عن معرفة ظروف حرقه بشكل عام. أما رائدا هذا المنحى العلمي التطبيقي في الدراسات الفخارية في أوروبا فهما ديفيد بيكوك في بريطانيا والإيطالي تيزيانو مانوني.

وأما تاريخ المعثورات الأثرية، فهناك العديد من الأساليب العلمية المستخدمة التي من أبرزها كربون ١٤ المشع الذي يستفاد منه بشكل واسع في تحديد أعمار المعثورات الحضارية، استناداً إلى كمية المادة العضوية (الكربون) المختزنة في اللُّقَى والمواقع الأثرية.

وتطورت أساليب تحديد التاريخ المطلق بكربون ١٤ المشع اعتماداً على مطيافية الكتلة ونظام المسارعات.

والتأريخ بكربون ١٤ المشع هو الطريقة الرئيسية التي يضع بها علماء الآثار والأنثروبولوجيا تقويمهم لحقبة خمسين ألف سنة ماضية. وربما لأكثر من ثمانين ألف سنة حسبما جاءت به الأبحاث الحديثة. وتتطلب هذه الوسيلة استخدام كمية كبيرة نسبياً من العينات من أجل الحصول على نتائج موثوق بها، في حين أن كثيراً من المعثورات الأثرية لا توجد إلا كبقايا صغيرة جداً. والطريقة التقليدية في تحديد الأعمار بكربون ١٤ المشع قاصرة في تطبيقها، فهي تقتصر على تحديد أعمار الأشياء بدرجة موثوق بها إذا كانت تقل عن ٥٠٠٠٠ سنة. وهذه القصور -دون شك- محبط لعلماء الآثار. لذا تم تطوير طريقة جديدة للتأريخ باستخدام طريقة المسارعات ومطيافية الكتلة إذ تمكن من إعطاء تواريخ أكثر دقة من كربون ١٤ المشع.

وثمة طرق أخرى للتأريخ بالإشعاع، مثل طريقة أرجونات - البوتاسيوم التي تستخدم لتأريخ المعثورات الأثرية لأحقاب سحيقة تمتد لملايين السنين. وتوجد طريقة التوهج الحراري الالكتروني Thermoluminscence التي تستخدم في تأريخ الأواني والأدوات الفخارية. أما طرق التأريخ العلمية التطبيقية الأخرى فتشمل التأريخ المغناطيسي، ويستند إلى قياس اتجاه وكمية المجال المغناطيسي للموجودات الأثرية العضوية والمصنوعة من الطين كالأفران ومواقد الطبخ. أما التأريخ بالعظام فهو أسلوب كيميائي

يعتمد على قياس العناصر، لاسيما الفلورين وأيونات اليورانيوم، التي اكتسبها العظم أثناء دفنه في تربة الموقع. وهناك أيضاً أسلوب التأريخ بالسَّبج أي الزجاج البركاني الأسود Obsidian ويعتمد على قياس سمك الطبقة المائية المختزنة في معدن الأوبسيديان أثناء وجوده في طبقات الموقع الأثري.

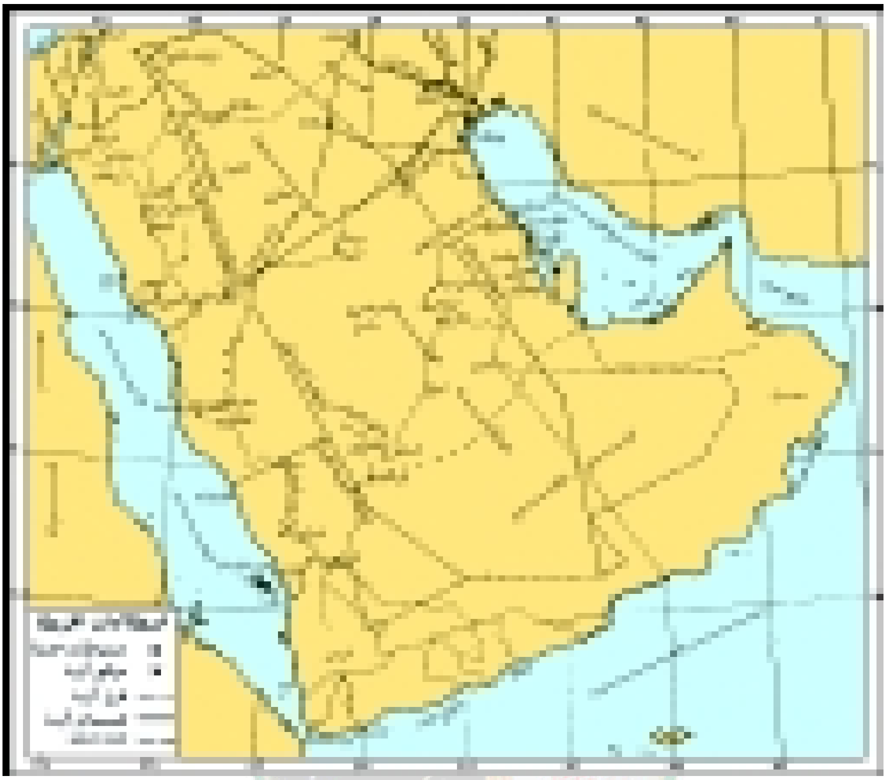
ويستخدم بعض علماء الآثار طريقة قياس الطبقات الموجودة على سطح قشرة الآنية الزجاجية في التأريخ.

إنّ ما أوردناه آنفاً ما هو إلا غيض من فيض مما تحفل به الأدبيات العلمية والآثارية عن علم الآثار، مع تبيان المناهج والأساليب التي تضيف كل يوم الجديد إلى معارفنا بخطى متسارعة أفضت إلى تطور هذا العلم بصورة جعلته من أكثر فروع المعرفة الإنسانية نضجاً وثراءً في أدواته المعرفية.

الجهود الآثارية في المملكة

بدأ النشاط الآثاري المنظم في الجزيرة العربية بوجه عام والمملكة العربية السعودية بوجه خاص بالمسوحات العلمية الميدانية للعديد من الباحثين، إذ غطت هذه الأعمال في البدء حقل دراسات ما قبل التاريخ قبل أن تنداح اتساعاً في الفترات اللاحقة لتشمل العصور التاريخية التي سبقت الإسلام والفترات الإسلامية. وفيما يلي موجز بأهم معالم هذه المجهودات في مجالي المسح والتنقيب.

دراسات ما قبل التاريخ. بدأت الدراسات الآثارية لهذه الحقبة في المملكة بأعمال المسح الميداني لعدد من الباحثين الأجانب أمثال هنري فيلد Henry Field الذي تتالت رحلاته العلمية خلال الأعوام ١٩٢٧م، ١٩٣٤م، ١٩٦٠م و١٩٦٩م. وكان من نتائج هذه الرحلات عدة مؤلفات لهذا الباحث، من أبرزها كتابه الإنسان قديماً وحديثاً في جنوب غرب آسيا (١٩٥٦م-١٩٦١م)، ومقالاته عن الأدوات الحجرية في منطقة الربع الخالي. وهناك أعمال أخرى لباحثين في هذا المجال منهم، على سبيل المثال، هـ. أ. مكلور H. A. McClur في مؤلفه المعروف شبه الجزيرة العربية وسكان ما قبل التاريخ. وقامت البعثة العلمية لكل من جامعتي تورنتو الكندية وكنتكي الأمريكية برئاسة الفريد وينت A. Winnett ووليم ريد W. Reed بمسوحات علمية في شمال المملكة عام ١٩٦٢م ونشرت نتائج أعمالها في المجلد المعروف باسم وثائق قديمة من شمال



التقسيم الآثاري، وبعض المواقع والطرق الأثرية في المملكة العربية السعودية

الجزيرة العربية عام ١٩٧٠م. وفي فترة لاحقة أنجز كل من بيتر بار P. Parr و ج. ل. هاردنج J. L. Harding وج. أ. دايتون J.E. Dayton من معهد الآثار بجامعة لندن مسحاً أثرياً للجانب الشمالي من ساحل البحر الأحمر بالمملكة العربية السعودية. ونشرت نتائج أبحاثهم بعنوان مسح استطلاعي لشمال غرب الجزيرة العربية ١٩٧٠م.

وكشفت المسوحات في شرق المملكة عن ثلاثة أنواع من المنشآت، هي: مقابر الواحات، والتلال، والمنشآت المعمارية، وهي في آلاف من النُصُب الركامية، فضلاً عن بعض رؤوس الرماح التي يرجع تاريخها إلى فترة ما بين العصر البرونزي الوسيط والمتأخر حول منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

وهناك أبحاث وحفريات عبدالله حسن المصري في مواقع حضارة العُبيد في المنطقة الشرقية التي تكشف عن العلاقات الحضارية بين شرق الجزيرة العربية وبلاد ما بين الرافدين خلال



نشاط ميداني

الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد. وكانت هذه الدراسة في البدء أطروحة للدكتوراه باللغة الإنجليزية نشرت بعنوان عصر ما قبل التاريخ في شمال شرق الجزيرة العربية: إشكالية التداخل الدولي.

وأظهرت الأبحاث التي أجرتها الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية خلال السنوات الأخيرة مجموعة من المستوطنات يعتقد أنها من بين مستوطنات العصر الحجري القديم (٢٠٠,٠٠٠-٣٠,٠٠٠ ق.م). وهناك مناطق تتركز فيها المواقع المبكرة على الحدود الشمالية الشرقية من الربع الخالي حول واحات يبرين الطبيعية، وفي جنوب نجد، وجنوب عسير، والهضبة الوسطى لشمال نجد، ووادي السرحان، وغيرها.

وقد عثر على عشرات من المستوطنات التي ترجع للألف الرابع والثالث قبل الميلاد في مناطق عديدة من المملكة، خاصة في الهضاب العالية وأسفل التلال. ولعل من أبرز المكتشفات الأثرية لهذه الحقبة المنشآت الحجرية التي تشمل الدوائر، والمسيجات، والنصب الركامية، والأحواض والبنايات على



نشاط ميداني

شكل مصائد ومقابر التلال. وهذه المنشآت كثيرة العدد وثابتة وارتبطت بمجموعات سكانية شبه مستقرة ومتداخلة حضارياً. ولهذه المنشآت ما يناظرها في المناطق المجاورة في بلاد الشام والرافدين وشبه جزيرة سيناء.

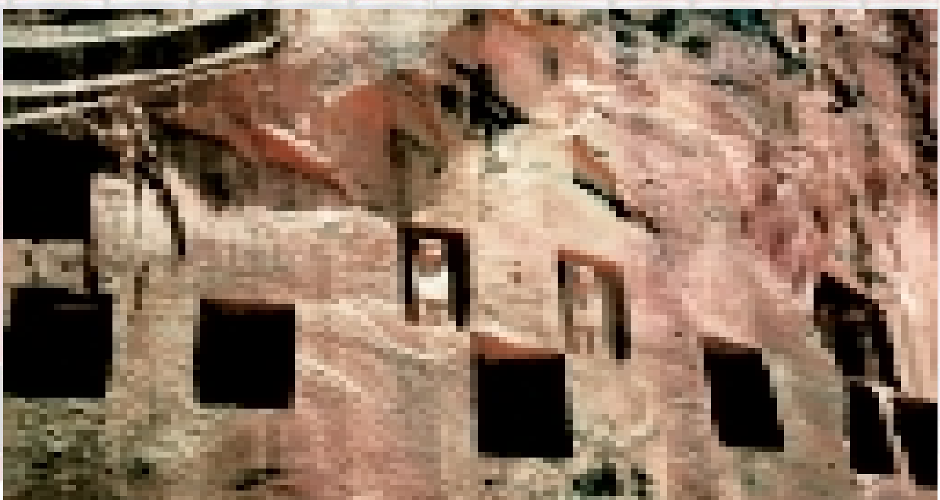
عصور ما قبل الإسلام. أبانت المسوحات وأعمال التنقيب الأثرية لحقبة ما قبل الإسلام في المملكة كثيراً من المعالم الحضارية. فظهرت إلى حيز الوجود مواقع العلا (ديدان)، ومدائن صالح (الحجر)، وتيماء في الجزء الشمالي الغربي من البلاد، ودومة الجندل في الشمال (الأنصاري ١٩٧٥) وقرية الفاو في الجنوب (الأنصاري ١٩٨٢). وقد سكنت في كل هذه المناطق مجموعات من القبائل العربية استطاعت أن تنشىء ما يمكن تسميته دول مدن يرجع تاريخها إلى الفترة بين القرن السادس ونهاية القرن الثالث قبل الميلاد.

ومن أهم معالم العلا موقع الخريبة، فضلاً عن عديد من الكتابات والرسومات المنقوشة، دادانية كانت أم لحيانية، تشتمل على أسماء ملوك وأعلام وتمدنا بمعلومات ثرَّة عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية.

وهناك مدائن صالح، وهي تبعد ١٥كم عن مدينة العلا. وقد اشتهرت بمقابرها المنحوتة في واجهات الجبال وتجمعت فيها عناصر فرعونية وإغريقية ونبطية وعربية تحمل بعض التأثيرات الفرعونية والإغريقية.

أما تيماء فقد كان لها شأن مهم في تاريخ شمال الجزيرة العربية سياسياً واقتصادياً، لوقوعها على الطريق التجاري بين الشمال والجنوب. ووجدت بها مسلة تيماء الشهيرة التي كتب على وجه منها بالخط الآرامي وعلى الآخر نقش عليه رسمان ربما لملك أو كاهن. ومن معالم تيماء المهمة أيضاً قصر السموءل (القصر الأبلق) غرب تيماء وهو مربع الشكل وفي وسطه بئر. ويرجع تاريخه إلى الفترة التي حكم فيها الغساسنة وعاصرها السموءل.

وموقع دومة الجندل في منطقة الجوف، من أهم المواقع التي تقابل المهاجمين من الشمال والشمال الشرقي للجزيرة العربية. وكانت مركزاً تجارياً ودينياً مهماً للقبائل العربية، وكان لها علاقات وطيدة مع الآشوريين والبابليين أحياناً وتناصبهم العداء في أحيان أخرى. ومن أشهر معالمها قصر مارد وهو بمثابة حصن وينسب إلى قبيلة السكونية العربية الكندية، ومن أشهر معبوداتها (ود).



مقابر الأسود بالعلا



واجهة أحد المقابر في مدائن صالح

وموقع قرية الفاو من أهم مواقع الآثار القديمة في البلاد، حيث أبانت الحفريات في هذا الموقع صورة زاهية للحضارة العربية قبل الإسلام. وتبعد قرية الفاو ١٥كم إلى الجنوب من مدينة الخماسين عاصمة محافظة وادي الدواسر. وسمي هذا الموقع بالفاو لأن المنطقة التي يتداخل فيها وادي الدواسر ويتقاطع مع جبال طويق عند فوهة مجرى قناة تسمى الفاو. واكتسبت الفاو أهميتها الاستراتيجية لوقوعها على طرق القوافل المتجهة جنوباً إلى اليمن وشمالاً بشرق إلى الخليج العربي، وشمالاً عبر الصحراء.

وأثبتت الأدلة الأثرية أن هذه المدينة من أكبر مدن القوافل، لاسيما المعاصرة لها سواء في داخل الجزيرة العربية أو ما جاورها. فطولها من الشمال إلى الجنوب ٥كم، وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو ٢كم بما في ذلك الأراضي الزراعية.

ويمثل العمل في قرية الفاو بداية الحفريات المنظمة والرائدة في المملكة العربية السعودية. ويضم هذا الموقع قطاعات عدة: السكن والسوق والمقابر والمعابد والمنطقة الصناعية. وقد حفل بمعثورات وفيرة شملت النقوش والكتابات والفخار المحلي والمستورد (الفرثي والنبطي والسجلاتا)



منظر عام لموقع دومة الجندل بمنطقة الجوف

والحجر الصابوني والزجاج والحلي والزينة والمشغولات الخشبية وغير ذلك.

ومما يجدر ذكره أن التنقيبات في هذا الموقع استمرت لمدة اثنين وعشرين موسماً (مدة كل موسم شهران) وكانت نتائجها ذات أهمية بالغة في مسار فهمنا لحقبة مهمّة من تاريخ بلادنا وفي ضوئها يمكننا النظر في مراجعة وإعادة كتابة التاريخ الحضاري للجزيرة العربية وأثرها المهم في محيطها الثقافي.

ومن الجهود الآثارية البارزة في البلاد مشروع برنامج المسح الآثاري الشامل الذي نفذته إدارة الآثار والمتاحف السعودية في الفترة ما بين ١٣٩٥-١٣٩٦هـ، الموافق ١٩٧٥-١٩٧٦م إلى نهاية ١٣٩٩-١٤٠٠هـ، الموافق ١٩٧٩-١٩٨٠م. وقد شمل المسح مواضع في مناطق شاسعة تصل مساحتها إلى ما يزيد على مليوني كيلومتر مربع، ويغطي هذا المسح معظم المواقع الأثرية للمملكة. لذلك قسمت المملكة إلى ستة أجزاء تتوافق تقريباً والتوزيع العام للأقسام الإدارية من الناحية التاريخية والجغرافية. واستعين، بالإضافة إلى الكوادر الوطنية المؤهلة، بخبرات دولية من الباحثين وغيرهم من الاختصاصيين من عدة جامعات ومؤسسات عالمية مثل جامعات شيكاغو وكاليفورنيا وهارفارد وساوث ويسترن وإيست تكساس ولندن.



نقش بالخط المسند الشمالي

وسبق هذه الخطوة القيام بمسح وثائقي وخرائطي لكافة ما نشر حتى ذلك الوقت من معلومات حول تاريخ وآثار الجزيرة العربية. وقد تقرر بعدها ولأسباب عملية أن البحث الميداني يجب أن يبدأ من أماكن يتوافر فيها عامل المقارنة الأثرية أكثر من غيرها؛ لذلك استهل برنامج المسح نشاطاته في المنطقتين الشمالية والشرقية في آن واحد.

وعند بداية الموسم الثالث طرأ تغيير في استراتيجية المسح الشامل، بسبب التغييرات الإنمائية التي شهدتها مدن المملكة والتطور العام في كافة أنحاء البلاد. فبدلاً من اتباع خطة محددة للمسح الإقليمي، غدا من الضروري أن تركز الجهود حول عدد من المدن التاريخية التي ظهر أن ما تشهده من تطور سريع يهدد ما تحويه من ثروات تاريخية وأثرية؛ لذا ففي الوقت الذي كان يعمل فيه فريق آثار متكامل في بعض محافظات منطقة الرياض، كان فريق آخر في منطقة العلا في الشمال الغربي يعمل على تحديد حجم وأبعاد كافة الظواهر والموارد الأثرية التي تضمها واحة العلا وما حولها.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن المسح الأثري في البلاد اشتمل أيضاً على مسح للنقوش والرسوم الصخرية والكتابات منذ الخمسينيات، حيث تمكنت بعثة فيلبي Philby وريكمانز Ryckmans وليبنز Lippens من مسح عدة مناطق في وسط

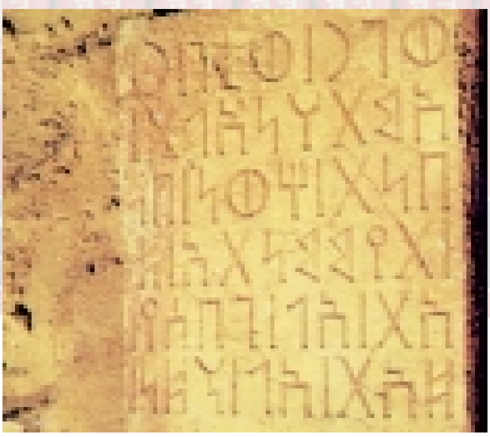


آثار الأخدود بنجران

وجنوب غرب الجزيرة العربية. وكشفت هذه المسوحات عن مخلفات حضارية تشمل نقوشاً وغيرها. وكانت هذه المادة هي الأساس الذي انطلق منه أناتي (Anati 1968/1972) في دراسته للرسوم الصخرية التي حواها كتابه فن الرسوم الصخرية في أواسط الجزيرة العربية.

وتناول المسح الأثري لإدارة الآثار والمتاحف في موسمه الخامس ١٤١٠/ ١٩٩٠م دراسة الرسوم الصخرية لمنطقة جبال السراة، الممتدة من رنية حتى الطائف. وشمل كتابات ثمودية ونبطية وكوفية ومسنداً جنوبياً. وفترة هذه الرسوم والنقوش الصخرية بين العصر الحجري الحديث (النيولثك) والفترة الإسلامية.

وتواصلت الأبحاث في مجال النقوش والرسوم الصخرية إذ وثق ما يربو على ٣٠٠ موقع شملت نقوشاً تعود إلى عصور الكتابة، مثل الثمودية واللحيانية والإغريقية والنبطية وغيرها. وأبانت هذه الأعمال الميدانية أيضاً أكثر من ٨٠٠ موقع لفن الرسوم الصخرية وهي تمثل في الغالب كافة العصور ومنتشرة في مختلف مناطق البلاد.



نقش بالخط المسند

العصور الإسلامية. أظهرت المسوحات والتنقيبات الآثارية كثيراً من المعالم والآثار في مناطق عديدة من المملكة. وموقع الربذة من أبرز المواقع الأثرية الإسلامية في البلاد في شمال غرب وسط المملكة، وتواصل جامعة الملك سعود أعمال التنقيب فيه منذ ثماني عشرة سنة (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م-١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

موقع الربذة إلى الجنوب الشرقي من المدينة المنورة بحوالي ٢٠٠كم، على خط الطول ١٨َ ٤١ْ شرقاً ودائرة العرض ٤٠َ ٢٤ْ شمالاً على طريق الحج العراقي الرئيسي من الكوفة، المسمى درب زبيدة، إلى مكة المكرمة. وكان وقوع الربذة في قلب الجزيرة العربية وفي موقع وسط بين نجد والحجاز وتتوسط مناطق المناجم الشهيرة في الجزيرة العربية (النقرة وبني سليم) سبباً في ازدهارها، إذ استفادت بشكل رئيسي من مرور قوافل الحجاج والمسافرين على مدار السنة.

وكشفت حفريات جامعة الملك سعود عن مبانٍ مهمة؛ فبالإضافة إلى الكشف عن المسجد الذي سمي المسجد الشرقي، تَعَرَّفَ المنقّبون على تفاصيل معمارية مهمة، مثل السور الذي يحيط بالوحدات السكنية والمرافق الأخرى. كما أبرزت أعمال التنقيب عدداً من البرك والآبار والمستودعات، فضلاً عن كميات كبيرة من المعثورات الحضارية التي اشتملت على نقوش وكتابات ومسكوكات وحلي وأدوات زينة وأوان فخارية وحجرية وزجاجية وعظمية وغير ذلك.

وقد قامت إدارة الآثار والمتاحف السعودية بعملية المسح الأثري لدرب زبيدة الذي يربط الكوفة بمكة المكرمة وطوله حوالي ١٤٠٠ كم. وعُمل مسح وتصوير ومخططات تفصيلية لسبعة وخمسين موقعاً أثرياً من درب زبيدة على طول ٩٤٠ كم، بدءاً من مكة المكرمة وإلى جنوب محطة العشار، شمال موقع العرائش الشمالي وإلى الحدود السعودية-العراقية، إلى موقع العثامين جنوب غرب الكوفة.

وكشفت أعمال المسح والتنقيب في هذا الطريق عن التحسينات والتجديدات التي طرأت عليه خلال العصور الإسلامية المختلفة، خاصة في العصر العباسي، إذ أقيمت المحطات والعلامات الميلية والمنارات على طول الطريق. كما كشفت الدراسات عن مبانٍ عديدة، هي وحدات سكنية ومساجد وقلاع وحصون ومراكز تجارية وأفران وقنوات وبرك وسدود

(معظمها داخل حدود المملكة العربية السعودية) أقيمت على امتداد هذا الطريق.

وهناك طريق الحج الشامي الذي يبدأ من دمشق ويمر بعدة منازل في سوريا والأردن ثم يدخل حدود المملكة ماراً بعدة مناطق، أهمها العلا، وينتهي في المدينة المنورة. وعثر على عديد من المحطات والقنوات والبرك والمنارات والنقوش والكسر الفخارية على امتداد هذا الطريق.

وأظهرت أعمال المسح الآثاري في مكة المكرمة، التي اقتصرت على طرق الحج التي تصب بالقرب من مكة، العديد من المعالم والمعثورات الأثرية (طريق الحج العراقي، وطريق الحج الشامي-المصري، وطريق الحج اليمني)، فضلاً عن عشرات الدور والبرك والآبار والكتابات والنقوش والفخاريات في عدد من المواقع القريبة من المشاعر المقدسة، لا سيما وادي حَرَمان والخلاص وأم الرين وجبل الشعراء وغيرها.

وأمدتنا الأعمال الأثرية في محافظة الطائف بمعلومات جديدة عن العديد من السدود القديمة التي ترجع إلى العصر الإسلامي، لا سيما العهد الأموي، إذ تم التعرف على ثلاثة عشر سداً مبنية من الكتل الحجرية المقطوعة المصقولة. وتحمل العديد من هذه السدود نقوشاً إسلامية بالخط الكوفي المبكر. وأبرزت المسوحات والمجسات الاختبارية لعدد من المواقع في منطقة عسير العديد من الأبنية الحضارية، وبوجه خاص العمارة التقليدية والإسلامية من الدور والمساجد.

ويشار في هذا المقام إلى الجهود المقدرة لكثير من الباحثين السعوديين، المتمثلة في المسوحات والتنقيبات الآثارية الاختبارية للعديد من مواقع العصور القديمة والمواقع الإسلامية في أجزاء متفرقة من البلاد. وقد شكلت تلك الأعمال أجزاء أساسية في أطروحاتهم الجامعية لدرجتي الماجستير والدكتوراه. ووجدت بعض هذه الرسائل العلمية طريقها للنشر في أوعية النشر المحلية والأجنبية. وكانت نتائج هذه المسوحات والحفريات ذات أهمية كبيرة، إذ أماطت اللثام عن جوانب خفية من التاريخ الحضاري للبلاد.

وبإلقاء نظرة عامة على الجهود البحثية للكوادر العلمية السعودية في مجال الدراسات الآثارية، سواء من جامعة الملك سعود أو غيرها من



نقش إسلامي من الأحسبة الشمالية

الجامعات في المملكة أو من الآثاريين في إدارة الآثار والمتاحف، نجد من الأعمال الرائدة في حقل النقوش والكتابات القديمة لحقبة ما قبل الإسلام العمل الذي قام به عبدالرحمن الأنصاري.

وأبرز أبحاث عبدالله حسن المصري وحفرياته أطروحته للدكتوراه، التي نشرت لاحقاً بعنوان: عصر ما قبل التاريخ في شمال شرق الجزيرة العربية: إشكالية التداخل الدولي وقدمت نتائج مهمة فيما يخص

حضارة العُبيد في المملكة العربية السعودية وعلاقتها الحضارية ببلاد الرافدين.

وهناك دراسة مقارنة لفخاريات ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية (٥٠٠ ق.م-٦٠٠م) شملت أجزاء متفرقة من المملكة العربية السعودية بالإضافة إلى بعض الأقطار المجاورة (البحرين واليمن). اضطلع بها محمد قزدر في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه.

واهتم عبد الكريم الغامدي في بحثه للدكتوراه بتأثير المناخ على التنظيم الاجتماعي لحضارات عصر ما قبل الإسلام في جنوب غرب المملكة.

وأمدنا حامد أبو درك بدراسة نقدية ومقارنة لبعض المعالم الأثرية في تيماء (١٣٠٠ ق.م-١٠٠٠ ق.م) بشمال غرب المملكة من خلال نتائج الاكتشافات الأثرية.

وقام عبدالله آدم نصيف بمسح آثاري وتاريخي لمنطقة العلا في شمال غرب المملكة وذلك بالتركيز على أنظمة الري فيها.

وأجرى عبدالعزيز الغزي دراسة مقارنة لفخاريات حقبة ما قبل الإسلام في منطقة الخرج، مع بيان التحول الاستيطاني الذي طرأ على هذه المنطقة

في هذه الفترة، استناداً إلى المجسات الاختبارية التي قام بها.

وشملت أعمال عبدالله السعود آثار العصر الهلينستي في أواسط الجزيرة العربية بالتركيز على موقع العيون في منطقة الأفلاج جنوب المنطقة الوسطى للمملكة.

وقام سليمان الذييب بدراسة تفصيلية للنقوش الآرامية والنبطية في شمال الجزيرة العربية.

واهتم سالم طيران بدراسة النقوش السبئية في الجزيرة العربية في حين أفرد سعيد السعيد بحثاً أيضاً للكتابات المعينية في المنطقة ذاتها.

وفي الآثار الإسلامية قدم سعد الراشد دراسة مفصلة ذات منحى آثاري-تاريخي وحضاري لطريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة (درب زبيدة). وشملت دراسته مسحاً للمنشآت والمحطات التي أقيمت على طول هذا الطريق بغية توفير وسائل الراحة لحجاج بيت الله الحرام.

وأجرى أحمد الزيلعي دراسة لإمارة جنوب مكة المكرمة (القرن الثالث-السابع الهجري / التاسع-الثالث عشر الميلادي) تضمنت مسحاً شاملاً لتاريخ وآثار وكتابات (نقوش) هذه المنطقة.

وأجرى علي حامد غبان مسحاً تفصيلياً ومجسات اختبارية على امتداد طريق الحج الشامي-المصري إلى المدينتين المقدستين، وأبان ما اشتمل عليه هذا الطريق من منشآت معمارية وموجودات حضارية.

وقام عبدالله الدوسري بمسح آثاري ومجسات اختبارية في عدة مواقع في المنطقة الشرقية، تعود إلى العهد الإسلامي الوسيط، وشملت دراسته تصنيفات للمعثورات الحضارية.

واهتم عبدالله العمير بدراسة المعادن الإسلامية في الأندلس إذ أجرى دراسة شاملة لهذه الموجودات مبيناً أهميتها الحضارية.

وأفرد خليل المعيقل أطروحته للدكتوراه لآثار منطقة الجوف، فأجرى مسحاً لآثار هذه المنطقة، فضلاً عن قيامه بمجسات اختبارية للعديد من المواقع في هذه المنطقة.

وكانت دراسة محمد الثنيان عن طريق الحج اليمني إلى مكة المكرمة، وعالجت ما اشتمل عليه الطريق من محطات ومنشآت معمارية مختلفة، إضافة إلى كمية وافرة من المعثورات.

وبما أن الآثار ذات أبعاد ثقافية-حضارية ولها أهداف تعليمية وتربوية

وإبداعية فقد اهتمت المملكة بهذا الجانب. ومنذ عام ١٣٨٦هـ عرضت الموجودات الأثرية لمختلف الحقب التاريخية في جناح بمبنى معهد العاصمة النموذجي. وأعقب ذلك صدور المرسوم الملكي الكريم بإنشاء الإدارة العامة للآثار والمتاحف، ثم أعلن افتتاح المتحف الوطني عام ١٣٩٦هـ، الذي نظم حسب الفترات التاريخية بدءًا بالعصور الحجرية فالإسلامية، وألحقت به فيما بعد قاعة للتراث الشعبي.

ومما يلزم التنويه به أن التنقيب في الموقعين المهمين قرية الفاو والربذة أمد الدراسات الأثرية بكميات كبيرة من المعثورات الآثارية ذات الأهمية، من نقوش وقطع معدنية وفخارية وحجرية وعملات... إلخ. وكانت هذه المعثورات مورداً للمتحف الجامعي الذي



نقش إسلامي – الصويدرة

تم إنشاؤه في قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، وقد أصبح على الرغم من صغر حجمه، ذا أهمية ثقافية في خدمة الجامعة والمجتمع وزوار البلاد بعد أن شهد تطوراً ملموساً في طريقة العرض وحفظ المعروضات على أحدث الطرق المتحفية في العالم. وقد افتتح متحف وطني في الرياض في عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. ولعل الصلة الوثيقة بين علمي الآثار والجغرافيا غير خافية؛ فالبيئة الطبيعية والمناخ وموارد المياه وما إليها، هي عوامل ذات تأثير كبير على توزيع السكان وضروب النشاط الاقتصادي الذي يمارسونه. وفيما يلي لمحة موجزة عن جغرافية المملكة تهيئ القارئ لتتبع الجهود الآثارية التي تكشف عن أنماط الحياة التي كانت سائدة في المملكة عبر الحقب الزمنية المتعاقبة.

جغرافية المملكة. المملكة العربية السعودية دولة شاسعة مترامية الأطراف، وتبلغ مساحتها ٢,٢٥٠,٠٠٠ كم^2 تقريباً أي حوالي ٨٠٪ من مساحة الجزيرة العربية التي هي هضبة قديمة من صخور نارية ومتحولة وطبقات رسوبية أحدث، تتكون من الحجر الرملي والجيري. وتبدو الصخور القديمة ظاهرة في نطاق

المرتفعات المشرفة علـى البحر الأحمر. وهذا النطاق هو أكثر أجزائـها ارتفاعاً، وهو يمـثل الأخدود (هـورست) الـذي يشغله البحر الأحمر.

وتنفتح حـدود المملكة على ثمانـي دول، فمن الـشمال الكـويت والعراق والأردن، ومن الشـرق قطر والبحـرين والإمارات وعمان ومن الجنوب والجنوب الشرقي اليمن وعمان. وتطل على الخليج العربـي من جهة الشـرق وعلى البحـر الأحمر من جهة الغرب.

البيئة الطبيعية: نشير هنا إلى جانبين بارزين من جوانب هذه البيئة الطبيعية، أحدهما البـنية والتركيب الجيـولوجي، والآخر أنواع التكوينات الصخرية.

البنية والتركيب الجيولوجي: تُقسـم البنية الجيولـوجية للمملكة إلى قسمـين كبيرين هما إقليم الدرع العربي، أو الكتلة الصلبة القديمة وإقليم الرف العربي، أو كتلة الصخور الرسوبية.

أما إقليم الدرع العربي فيـقع غرب المملكة على شكل نصف دائرة مفتوحة على ساحل البحر الأحمر. وهو صفيحة قشرية متعريـة وإن كانت محلياً مغطاة بطـبقات صـخور بركـانية من الـزمن الجيولوجي الثالث. ويغطي هذا الإقليم مساحة ٧٧٠,٠٠٠ كـيلاً على شكل شبه منحرف يقع في الجـزء الغربي من الجزيرة العربية.

وأما إقليـم الرف العربي فيقع إلـى الشرق من الإقليم السابـق، ويمتد حتى الخليج العربي، وذلك من حدود المملكة مع الأردن والعراق شمالاً، حتى حدود اليمن جنوباً، وسلطنة عمان في الجنوب الشرقي. وهذا الإقليم جزء من قاع بحر (تشس)، إذ كان رصيفاً قارياً أو رفاً قارياً لكتلة الدرع العربي. ويمتاز عن الإقليم الأخير باحتوائه على غطاء من الرسوبيات ذات أصل بحري ضحل. وحجر الجير الفـتاتي أهـم أنواع الصـخور في هذا الإقلـيم. أما الحجـر الرملـي والطفْـل فكثيرة. أما صخور المتبخرات فهي أقل شيوعاً.

ونظراً لتفـاوت صلابة صخور هذا الإقليم، ثـم تفاوت مقاومتـها لعوامل التعرية فـقد كوَّنت حافات مرتفعة مـن صخور أصلب يتجه جرفها نحو الغرب، لا سيما أن اتجاه ميل الطبقات يميل بشكل عام نحو الشرق. وأهم هذه الحافات حافة جبل طويق.

أما أنواع التكوينات الصخـرية فهي أربعة تكوينات:

تكوينـات الزمن الأركي (عصر ما قبل الكمبري): تنتشر في منطقة الدرع

العربي، وهي تتكون من صخور نارية متبلورة ومتحولة ومسكوبات بركانية.

تكوينات الزمن الأول: وهي أول الترسبات فوق القاعدة الأركية القديمة، وهي مساحة ضيقة على الخرائط الجيولوجية حول إقليم الدرع العربي كشريط ضيق من الجهة الشرقية.

تكوينات الزمن الثاني: يتكون هذا الزمن من ثلاثة عصور، هي: الترياسي (حجر رملي مع صلصال)، والجوراسي (حجر رملي ورخام ودولوميت)، والكريتاسي (حجر كلسي ورملي وطفْل). وتنتشر صخور هذا الزمن في مساحة كبيرة مقارنة مع التي تنتشر فيها صخور الزمن الأول. وهي تظهر على شكل شريط قوسي عريض يلي منطقة صخور الزمن الأول من جهة الشرق، وترتكز عليها منطقة الحدود السعودية-الأردنية حتى الربع الخالي.

تكوينات الزمن الثالث: وتنتشر في شمال وشرق المملكة فيما وراء رمال صحراء الدهناء والنفود الكبير، كما توجد في غربها على شكل تكوينات محلية قارية أو بحيرية. ومن اللافت للانتباه أن تكوينات الزمن الثالث ذات ثلاثة أنواع، هي: الأيوسين (حجر كلسي قشدي بني أو رمادي)، والمايوسين (مزيج من الصلصال والحجر الكلسي والرملي والمرل)، والبلايوسين (المرل الرملي والكلس الرملي).

التضاريس: وهي ذات أهمية قصوى لأنها تؤثر بصورة مباشرة وغير مباشرة على وجود الإنسان، وعلى نشاطه وتطوره، بالإضافة لتأثيرها على العوامل الجغرافية الأخرى، كالمناخ والموارد المائية والتربة والثروات الطبيعية. وتنقسم الأقاليم التضاريسية في البلاد إلى سبعة هي: السهول الساحلية على البحر الأحمر والخليج العربي، وجبال الحجاز، والهضاب الغربية، وهضبة نجد، والهضاب الشمالية والشرقية، وبحار الرمال الكبرى.

السهول الساحلية: للمملكة سهلان ساحليان أولهما سهل تهامة على ساحل البحر الأحمر. وثانيهما السهل الساحلي على ساحل الخليج العربي. وهما صحراويان قاحلان قليلا التعاريج والفجوات.

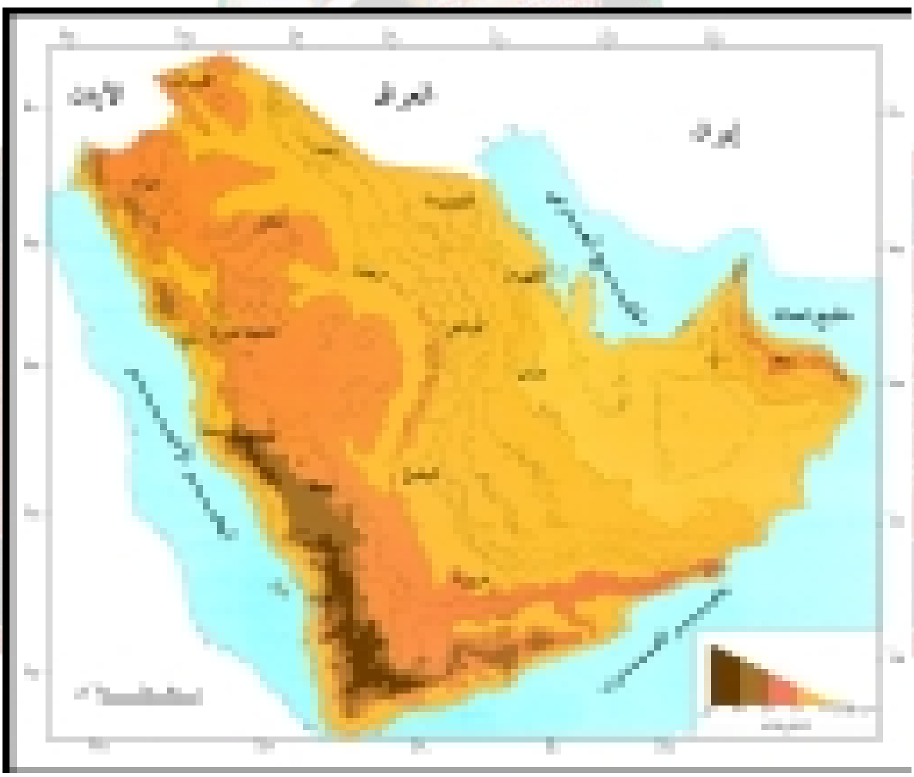
جبال الحجاز: ويطلق على جزئها الجنوبي جبال السروات، وهي كتلة مستطيلة الشكل ممتدة بمحاذاة البحر الأحمر والسهل الساحلي بطول ١,٧٠٠ كيلٍ تقريباً من الحدود مع الأردن شمالاً إلى اليمن جنوباً.

الهضاب الغربية: وتقع إلى الشرق من المرتفعات الغربية، وتمتد من الحدود السعودية-الأردنية شمالاً إلى نجران جنوباً، ويتراوح ارتفاعها من ٧٠٠-١٦٠٠م تقريباً. وهي تشمل العديد من الهضاب مثل: هضبة حسمى شمال البلاد، وهضبة الحجاز التي تقع إلى الجنوب الشرقي من الهضبة السابقة، وعالية نجد، وهضبة عسير وتقع شرق مرتفعات عسير، وهضبة نجران وتقع نهايتها عند الحدود مع اليمن في الجنوب.

هضبة نجد السفلى: وهي تمتد من إقليم الهضاب الغربية غرباً حتى صحراء الدهناء شرقاً. ومن النفود شمالاً حتى الربع الخالي جنوباً.

هضبة الصمان: تمتد هذه الهضبة من الدهناء غرباً، حتى السهل الساحلي للخليج العربي شرقاً. ومن وادي الباطن شمالاً، حتى أطراف الربع الخالي جنوباً، وهي تتشكل من عدة أشكال تضاريسية.

الهضاب الشمالية: وهي جزء من هضبة بادية الشام، وتضم الأجزاء



مظاهر السطح في المملكة العربية السعودية

الشمالية من المملكة. وهي تمتد فيما بين النفود الكبير في الجنوب، والحدود العراقية والأردنية والكويتية من الجهات الثلاث الأخرى.

بحار الرمال الكبرى: تشمل الربع الخالي وهو أكبر بحر رملي متصل في العالم وتبلغ مساحته ٦٤٠,٠٠٠كم٢. وصحراء النفود الكبرى في الشمال، وتبلغ مساحتها ٥٦,٣٢٠كم٢، وهي محصورة بين حواف الهضاب في الغرب والشمال وبين جبل شمر في الجنوب. وهنالك صحراء الدهناء وهي أطولها امتداداً من الشمال إلى الجنوب، وتمتد على شكل قوس يصل ما بين رمال النفود الكبير والربع الخالي.

المناخ: تقع المملكة في غرب آسيا وشرق أفريقيا، وهي ليست بعيدة جداً عن أوروبا، لذلك فإن مناخها يتأثر بالظواهر التي تأتيه من تلك القارات.

وترتفع درجات الحرارة صيفاً إذ تصل النهاية العظمى لدرجة الحرارة ٤٨ْم في الداخل. ويتميز الشتاء بدفئه نهاراً، وتنخفض في الليل درجة الحرارة كثيراً وهي أخفض في الجهات الداخلية منها في الأجزاء الساحلية، وذلك لتأثير البحر عليها. وتزداد درجة الحرارة بوجه عام من الشمال إلى الجنوب.

موارد المياه: تعتمد المملكة بشكل أساسي على المياه الجوفية ومياه الأمطار، فالبلاد خالية من الأنهار والبحيرات العذبة. وهذه الأمطار على قلتها لا يستفاد من مائها كله، بل إن قسماً كبيراً منها يضيع بسبب التبخر الشديد الذي يعقب سقوط الأمطار مباشرة. لذلك تقتصر الموارد المائية في المملكة على نوعين:

المياه السطحية: وتنشأ من انحدار المياه إلى الأودية والشعاب عقب سقوط الأمطار مباشرة. وهي عرضة للضياع بسبب التبخر الذي يصل أحياناً إلى ٧٠ ٪ من كمية المياه. وتختلف الوديان في أحجامها، وبعضها يشابه الأنهار في جيومورفولوجيته. وأهم هذه الأودية وادي الرمة الذي يبدأ من مشارف المدينة المنورة باتجاه السفوح الشرقية لجبال المدينة ماراً بمنطقة القصيم، ووادي حنيفة الذي ينحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ما بين حافة جبل طويق الوسطى وهضبة العرمة وجبال الجبيل في الشرق التي تقع على مقربة منه مدينة الرياض. وهناك أودية أخرى مثل وادي الدواسر الذي يتجه نحو الشمال الشرقي، بعد عبوره جبال طويق نحو السليل. ووادي السرحان الذي يقع في أقصى شمال المملكة في منخفض

حوض يوازي الحدود السعودية-الأردنية، أما وديان البحر الأحمر فهي ذات تصريف داخلي، وينحدر نحو ٢٤ وادياً منها باتجاه تهامة غرباً، وتنتهي كلها في البحر الأحمر. ومن أهمها وادي جازان ووادي ضمد في الجنوب، ووادي صبيا ووادي بيشه إلى الشمال قليلاً.

المياه الجوفية: التعرف على معلومات وافرة عن المياه الجوفية كان منذ عام ١٩٣٦م. أما قبل ذلك فلم نكن نعرف شيئاً ذا بال عنها إلا ما يتعلق ببعض العيون التي تظهر تلقائياً، وبعض الآبار المحفورة بصورة تقليدية. وزاد الاهتمام بالمياه الجوفية في أواسط الستينيات والسنوات اللاحقة حتى يومنا هذا. وجدير بالذكر أن التكوينات الحاملة للمياه في المملكة تنقسم إلى قسمين هما التكوينات السطحية (المياه الجوفية السطحية) والتكوينات العميقة (المياه العميقة).

فالتكوينات السطحية تحتجز التكوينات المتسربة في التكوينات المسامية القريبة من السطح، بعيدة عن التبخر والتسرب حتى يحصل الإنسان على الماء بحفر الآبار أو يظهر على السطح في المناطق المنخفضة على شكل عيون. وتختلف كمية الماء من مكان لآخر تبعاً لاختلاف كمية هطول الأمطار. أما التكوينات العميقة فهي تنحصر في الطبقات الرسوبية وتتميز بظاهرتين إحداهما أنها تنحدر من الغرب إلى الشرق، والأخرى أنها تحتوي على أحواض عميقة تقوم بمهمة المصائد.

السكان: السلالة الرئيسية التي ينتمي إليها سكان الجزيرة العربية، بما في ذلك المملكة العربية السعودية، هي سلالة البحر المتوسط وهي أحد الفروع الرئيسية للمجموعة القوقازية. وتتميز هذه السلالة باستطالة الرأس أو توسطه، وضيق الأنف، وسمرة البشرة، والشعر ذي التموج البسيط في شكله، والقامة المتوسطة أو دون المتوسطة بقليل. وينتمي إلى سلالة البحر المتوسط مجموعتان هما المجموعة الآسيوية العربية والمجموعة الأفريقية العربية. وهذه السلالة لم تبق نقية عرقياً سواء في الجزيرة العربية أو في غيرها من الأقطار العربية، بل اختلطت فيها الدماء خلال فترات التاريخ المتلاحقة.

وعملت الهجرات، سواء كانت عربية أم أجنبية، على خلط السلالة الأساسية لسكان الجزيرة العربية بالعناصر الجديدة الوافدة. وكانت هذه الهجرات تحدث على موجات بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وقلة الموارد الإنتاجية لحاجة

السكان في مناطقهم الأصلية. وتعد الموجات البشرية التي صحبت الفتوحات الإسلامية، ودامت لما يزيد عن قرن، أهم موجات الهجرة التي لم تكن ذات تأثيرات سلالية فحسب بل كانت ذات أبعاد ثقافية ولغوية واجتماعية ودينية.

ويعد إقليما السروات ونجد أقل أقاليم المملكة اختلاطاً بسبب بقائهما في شبه عزلة عن المناطق المجاورة. لذا فقد بقيا يمثلان أكثر سلالة البحر المتوسط نقاء، وهي التي تتصف باستطالة الرأس وسمرة البشرة، وتوسط القامة وانتصابها، وضمور الجسم ودقة الأنف واستطالته، وسواد العيون وتموج الشعر.

وازدادت أهمية الحصول على البيانات الإحصائية لسكان المملكة لاسيما بعد أن أنشأت الدولة المجلس الأعلى للتخطيط عام ١٩٥٨م، الذي تحول عام ١٩٦٤م إلى الهيئة المركزية للتخطيط. وازداد سكان المملكة خلال العقود الثلاثة الفائتة زيادة واضحة، وذلك لسببين هما زيادة التناسل وزيادة الهجرة.

زيادة التناسل: وهي الزيادة الناجمة عن الفرق بين عدد الولادات والوفيات، وتحسب نسبتها عادة إلى الألف من السكان كل عام. وبلغت نسبة الزيادة الطبيعية في عدد السكان خلال السنوات الماضية ما بين ٢٠٪-٢٥٪ وهي في سبيلها إلى الزيادة تدريجياً في المستقبل. ويبلغ عدد سكان المملكة حسب التقديرات الحديثة ١٦,٩٠٠,٠٠٠ نسمة (إحصاء ١٩٩٢م). وتعزى الزيادة الملاحظة في عدد السكان إلى التطورات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التي شهدتها المملكة وتوافر الرعاية والخدمات الصحية العالية المستوى في كافة أرجاء البلاد.

زيادة الهجرة: وهي الزيادة الناجمة عن هجرة سكانية إلى داخل المملكة من خارج حدودها، أكثر بكثير من الهجرة من داخلها إلى خارجها. وتشير الإحصائيات الحديثة إلى وجود ٤٦٠٠,٠٠٠ نسمة من مختلف الجنسيات تعمل في كافة الأنشطة في البلاد. وقد بدأت هذه الهجرة منذ ظهور البترول في المملكة في الثلث الأول من القرن الحالي، وما تزال مستمرة حتى الآن. ولم تكن سرعة هذه الهجرة على وتيرة واحدة خلال هذه الفترة بل ازدادت كثيراً خلال حقبة السبعينيات والثمانينيات. ثم فترت نسبياً خلال السنوات القليلة الماضية بسبب الزيادة المطّردة في الكوادر الوطنية المؤهلة التي احتلت مواقعها في جميع الأنشطة التعليمية والاقتصادية والاجتماعية.

وينقسم سكان المملكة حسب نمط حياتهم إلى قسمين رئيسيين هما:

١) الرحل: وهم المتنقلون من مكان لآخر.

٢) المستقرون: وهؤلاء أيضاً يتفرعون فرعين هما سكان الواحات أو الريف الزراعي، وسكان المدن.

وقد أنشأت الدولة العديد من المشاريع لتوطين البادية وذلك باستصلاح مئات الآلاف من الهكتارات من الأراضي الصالحة للزراعة. من ذلك على سبيل المثال أراضي واحة يبرين في الربع الخالي لتوطين قبيلة بني مرة، واستصلاح مساحات مماثلة في وادي السرحان في شمال البلاد لتوطين بدو المنطقة الشمالية، ومشروع إنعاش القنفذة في المنطقة الغربية. أما عمليات التوطين التلقائية فقد بدأت مبكراً وذلك قبل استثمار البترول. فانتشرت الحياة المستقرة المعتمدة على الزراعة بدلاً من الرعي. وساعد على ذلك توافر المياه كما هو الحال في مناطق عديدة من المملكة، لاسيما المنطقة الشرقية.

وتدل الإحصائيات السكانية الأخيرة أن نسبة الذكور تفوق نسبة الإناث إجمالاً. وأهم المناطق التي توجد بها نسب عالية للذكور مقارنة بالإناث هي تبوك والقريات، على الرغم من صغرهما وبعدهما عن المراكز العمرانية الكبيرة. ويعزى ذلك إلى ما يوجد فيها من المخافر والمعسكرات التي تقتضي تجمع العزاب فيها. أما الرياض والمنطقة الشرقية ومنطقة مكة المكرمة فهي مناطق التنمية الرئيسية، وتستضيف عشرات الألوف من العاملين على الدوام، كما يلاحظ وجود هجرة داخلية من الريف والبادية إلى المدن كما هو حادث في جميع البلاد العربية. وقد أسهمت هذه الظاهرة في حدوث بعض الأزمات مثل الإسكان وارتفاع أجوره، وازدياد كثافة المرور في بعض المدن، علاوة على هجر بعض الأراضي الزراعية كما هو الحال في عسير وسهول جازان. وتجدر الإشارة إلى أن المناطق التي فيها نسبة الذكور مقاربة لمعدل الإناث هي إمارة الحدود الشمالية، ونجران، والجوف، والمدينة المنورة، والقصيم. وهناك مناطق تقل فيها نسبة الذكور بشكل لافت للانتباه، وهي جازان، وحائل، وعسير، والباحة؛ إذ يهاجر قسم كبير من شبابها للعمل في مناطق أخرى من البلاد فيها أسواق للعمل.

وتدل البيانات الإحصائية أن معدل سكان المملكة من صغار السن والشباب ممن هم دون العشرين يبلغ نسبة ٥٨٪

من السكان، وغالبيتهم من غير المنتجين وممن هم تحت رعاية آبائهم.

والأسرة السعودية أسرة كبيرة الحجم بالقياس العالمي، فقد كان النمط السائد في المجتمع نمط الأسرة النووية أو الممتدة التي يكون فيها الأب وأبناؤه المتزوجون وأسرهم تحت سقف واحد، ويكون للابن الأكبر مكانة في رئاسة الأسرة. ويساعد على كبر حجم الأسرة الزواج المبكر وتعدد الزوجات وكثرة النسل. وقد تغير ذلك النمط وبخاصة في المدن؛ إذ صار الاتجاه إلى استقلال الأبناء المتزوجين.

النشاط الاقتصادي: على الرغم من غلبة الصحراء على أرض المملكة العربية السعودية؛ فقد اشتغل أهلها بالزراعة وإنتاج الحيوانات في واحاتها المتناثرة ومراعيها، حتى اكتشف النفط فنقلها نقلة نوعية أثرت في نشاطات سكانها تأثيراً كبيراً، ونجمل الكلام على ذلك في ما يأتي:

الزراعة: تعد من أهم القطاعات التي تستند عليها التنمية الاقتصادية في المملكة، إذ إن أكثر من ٤٠٪ من القوى العاملة في البلاد تعمل في الزراعة أو أعمال تتعلق بها. وتنتشر الأراضي الزراعية في الواحات وجوانب الأودية وسهولها، وعلى المدرجات الجبلية في جبال الحجاز (تهامة وعسير)، بسبب توافر المياه والتربة الجيدة. ويلاحظ أن هناك ست مناطق زراعية مهمة في البلاد تشمل:

١) حوض النفود الرسوبي الكبير في شمال المملكة ووسطها، ويضم القصيم وحائل والنفود الكبير وتبوك والعلا والمناطق الشمالية.
٢) الحوض الرسوبي الجنوبي بين نجران وتثليث من جهة، والربع الخالي من جهة أخرى.
٣) هضبة الأودية الستة في جنوب غرب المملكة (الحجاز وعسير).
٤) المنطقة الشرقية، وتمتد من الدهناء حتى ساحل الخليج العربي.
٥) الجزء الرسوبي من هضبة نجد (سدير والمحمل والشعيب ووادي حنيفة).
٦) حوض البحر الأحمر، ويشمل: جبال مدين، تهامة الحجاز، وتهامة عسير، والجبال الساحلية الجنوبية.

وتشمل المنتجات الزراعية لهذه المناطق الحبوب بأنواعها (القمح والشعير والذرة والدخن) والخضراوات والفواكه والبرسيم.

الإنتاج الحيواني: في المملكة مساحات شاسعة من المراعي تربو على ١٠٠٠٠٠٠كم². ولكن هذه المساحات الواسعة لا تتناسب مع الكم القليل من

الحيوانات التي تعيش فيها. وسبب ذلك قلة الغطاء النباتي الطبيعي، ونقصان كميات المياه، وتآكل التربة وازدياد ملوحتها، وزحف الرمال وتغطيتها لبعض المناطق الصحراوية، فضلاً عن دور الإنسان واستخدامه للأدوات الحديثة في قطع الأشجار والشجيرات. وتجدر الإشارة إلى أن هناك خمس مناطق رعوية حسب غناها بالأعشاب تشمل كلاً من إقليم عسير والحجاز الجنوبي، والهضاب الداخلية، والإقليم الشمالي وشمال غرب المملكة، وإقليم الخليج العربي.

وعلى الرغم من عدم توافر إحصائيات دقيقة وحديثة عن أعداد مختلف الحيوانات، إلا أن بعض هذه الإحصائيات دلت على وجود ثروة حيوانية كبيرة في المملكة قوامها ما ينيف عن ١٠ ملايين رأس من الأغنام والأبقار والجمال. وتتركز معظم هذه الثروة جنوب غرب المملكة عن غيرها في الأقاليم الشمالية والشرقية.

النفط: أصبحت المملكة في بداية الثلاثينيات من هذا القرن، إحدى أبرز الدول النامية تقدماً في المجالين الاقتصادي والاجتماعي بعد اكتشاف البترول واستغلال عائداته في خطط التنمية الطموحة. وقد أثرت عائدات البترول في مستوى حياة المواطن ودخله بصورة مباشرة وغير مباشرة. وارتقت البلاد حتى باتت الآن من ضمن الدول ذات الدخل المرتفع في العالم. فهي المصدر الأول للنفط في العالم. ويُسهم البترول حالياً بنحو ٦٣٪ من إجمالي الدخل الوطني. وترتفع هذه المساهمة إلى٦٥ ٪ إذا حسبنا الصناعات المرتكزة على البترول، كالمصافي ومعامل التكرير والأسمدة وغيرها. وهذا يعني أن جميع مجالات الإنتاج والخدمات الأخرى تسهم بنسبة ٣٥٪ من جملة الناتج المحلي في المملكة.

التعدين: أثبتت أعمال المسح الجيولوجية أن المملكة غنية بالعديد من المعادن، مثل الذهب والرصاص والحديد والكروم والفورايت والبارايت وأكسيد الباريوم والمغنسيت وكربون المغانسيوم والفوسفات والجبس والإسمنت والملح الصخري والصلصال والرمل الزجاجي والكبريت والرخام والأسبستوس والزيت والغاز الطبيعي. وتستغل هذه المعادن بصورة جيدة، كما أصبح بعضها مرتكزاً للعديد من الصناعات.

الصناعة: بدأت الصناعات القديمة في المملكة منذ أمد طويل في المدن والواحات القديمة. وكان الإنتاج قليلاً وهو لسد حاجة الاستهلاك المحلي من

السلع المصنَّعة، مثل صناعات المنسوجات الصوفية والمناثر وبيوت الشعر والأواني الفخارية والمعدنية والأحجار والجص وطواحين الغلال وصناعة السلال والمراوح والأقفاص من جريد وسعف النخيل والصناعات الخشبية والجلدية وصناعات الحلي والأدوات النحاسية وبعض الصناعات الحديدية وصناعة الأدوات الزراعية.

وقد تطورت الصناعات في المملكة بدرجة كبيرة من صناعات استهلاكية بسيطة، إلى صناعات تستخدم أحدث الآلات التي انتجتها التقنية الحديثة. كما أدخل الحاسوب في كثير من هذه الصناعات. وارتفع عدد الشركات والمؤسسات الصناعية في كافة أنحاء المملكة، وشملت أكثر من ٢٥ مدينة. ومن أهم هذه الصناعات: الألبان والغلال والحلويات والثلج والمشروبات الغازية والأحذية والأثاث والطباعة والتجليد والإسمنت والبلاط والبلك والرخام والأدوات الحديدية والنحاسية وتركيب الأدوات الصحية والحدادة والسمكرة والخراطة والمسابك والآلات الكهربائية وغير الكهربائية وشحن البطاريات وإصلاح السيارات وصياغة الذهب والفضة. ويمكن إضافة ما يربو على مائة مؤسسة للكهرباء والماء والغاز إلى العدد السابق.

وثمة إشارة هنا وهي أن معظم هذه الصناعات تتركز بصورة رئيسية في مدن قليلة في ثلاث مناطق في المملكة هي:

١) المنطقة الغربية (جدة وينبع ومكة المكرمة والمدينة المنورة).

٢) المنطقة الوسطى (الرياض).

٣) المنطقة الشرقية (الدمام والخبر والجبيل ورأس تنورة والهفوف).

وتعد صناعة الزيت عصب الاقتصاد السعودي. ومنذ ظهوره في أواخر الثلاثينيات أخذت المملكة تخطو خطوات كبيرة على كافة الأصعدة الاقتصادية. ولا غرابة في ذلك فالمملكة وحدها تسهم بما نسبته ٢٢٪ من الاحتياطي العالمي الثابت للنفط. وهذه النسبة آخذة في الارتفاع بسبب الاكتشافات الجديدة لحقول البترول في عدة أماكن من البلاد.

ومعظم حقول البترول في المنطقة الشرقية، وأهمها: الغوار وبقيق والسفانية والخفجي. وهناك حقول أخرى في منطقة الرياض مثل خريص والقرضي وأبو جفان وحوطة بني تميم. وفي منطقة الربع الخالي حقول قصان والشيبة.

وتتولى إنتاج البترول الشركة العربية السعودية للبترول (أرامكو) حيث تقوم

بتصديره لمختلف دول العالم، خاصة أوروبا وأمريكا ودول الشرق الأقصى.

التجارة: عرف سكان المملكة التجارة منذ آجال موغلة في القدم. وكانت التجارة في الماضي ملاذاً لاستغلال ميزة موقع البلاد الجغرافي بين أقاليم مختلفة في طبيعتها وإنتاجها. ولكن منذ اكتشاف البترول في الثلاثينيات بدأت المملكة، وما زالت، تطور اقتصادياتها وحجم تجارتها حتى باتت من أكثر دول العالم نمواً ومتانة في الاقتصاد. وأدى تزايد الصادر من البترول والصناعات البتروكيمائية وغيرها من المنتجات إلى أن يكون الميزان التجاري إيجابياً باستمرار، أي في صالح المملكة. ومن جهة أخرى تستورد المملكة حاجاتها الأساسية من كثير من دول العالم، لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية واليابان، إذ يأتي منهما ما نسبته ٥٥٪ من جملة الواردات، ودول أوروبا ٤٠٪ من جملة الواردات. ويلاحظ أن إسهامات دول أفريقيا، وأمريكا اللاتينية عدا البرازيل، ودول إقيانوسيا ما عدا استراليا، ضئيلة للغاية إذ لا تتجاوز ٢٪ من واردات المملكة.

الاستيطان في العصور الحجرية

بدأت معرفتنا بآثار الإنسان في العصور الحجرية بالمملكة العربية السعودية منذ بداية أعمال الرحالة الأوروبيين، مثل: ولستد J. Wellsted وتشارلز داوتي C. Doughty وهنري فيلد H. Field وجون فيلبي J. Philby وغيرهم، ثم ما تلا ذلك من أعمال لاحقة، بخاصة أعمال البعثة البلجيكية فيما بين عامي ١٩٥١-١٩٥٢م، وكذلك أعمال البعثة الدانمركية الثانية عام ١٩٦٨م في المنطقة الممتدة من ثاج في الشمال حتى وادي الفاو في الجنوب وبعض الجزر الواقعة في الخليج العربي. وإلى جانب ما ذكر يأتي ما أنجزته وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف من أعمال مسح وحفريات آثارية.

وقد ساعدت الأدوات الحجرية المكتشفة على معرفة تاريخ وجود الإنسان في المنطقة وذلك بناءً على استخدام عدة طرق، من أهمها البوتاسيوم آرجون، وتتبع الانشطار، والحدود المغناطيسية القديمة، وبناء عليه عُرف أن زمن أقدم إنسان ترك آثاراً دالة على وجوده، إما عن طريق استخدام الأدوات الحجرية بشكلها الطبيعي أو بعد أن يصنعها، يعود إلى حوالي مليوني سنة قبل الميلاد. ولأن المادة التي استخدمها الإنسان ومن ثم صنع منها أدواته وأسلحته وأوانيه هي مادة الحجر، فقد أطلق على الامتداد الزمني الذي يبدأ بالتاريخ المشار إليه آنفاً وينتهي بسنة ٤٢٥٠ قبل الميلاد اسم العصور الحجرية. وتشمل العصور الحجرية، استناداً إلى تطور تقنية صناعة الأدوات ووظائف تلك الأدوات واختلاف أساليب معيشة الإنسان، ثلاثة عصور رئيسية. كما يقسم كل عصر من تلك العصور إلى أدوار فرعية، وكل دور منها يقسم إلى فترات ثقافية قد تحتوي الواحدة منها على مراحل ثقافية فرعية.

وتسمى كل فترة من تلك الفترات أو مرحلة من المراحل الفرعية باسم مشتق من اسم أول مكان وجدت فيه الأدوات الحجرية، تمييزاً للفترة أو المرحلة. وفي أغلب الأحوال، فإن أسماء الفترات والمراحل مشتقة من أسماء مواضع تقع في القارة الأوروبية، وفي حالات قليلة في القارة الأفريقية أو القارة الآسيوية.

وهذه العصور هي:

العصر الحجري القديم

يمتد هذا العصر من مليونين إلى ١٢,٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وينقسم هذا العصر إلى ثلاثة أدوار فرعية، هي: العصر الحجري القديم الأسفل، والمتوسط، والقديم المتأخر.

ويمتد دور العصر الحجري القديم الأسفل من حوالي مليوني سنة وحتى ١٢٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويشتمل هذا الدور على فترتين ثقافيتين، الأولى هي فترة الثقافة الألدوانية، وتمتد أكثر من مليون سنة، وتشتمل على ثلاث مراحل فرعية هي: المرحلة المبكرة، (من ١,٩ حتى١,٦ مليون سنة)، والمتطورة (أ)، (من ١,٦ حتى١,٣ مليون سنة)، والمتطورة (ب)، (من ١,٣ حتى مليون سنة). وقد عاش خلال الفترة المعنية الإنسان الذي يعرف باسم أسترالوبيثيكس Australopithecus، ومن بعده إنسان هومو هابيليس Homo Habilis. أما الأخيرة فهي فترة الثقافة الآشولية وتمتد قبل مليون سنة وتنتهي قبل ١٢٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وتشمل ثلاث مراحل فرعية هي: المرحلة المبكرة، والمتوسطة، والمتأخرة.

وتفيد الدراسات الأثرية أن إنسان العصر الحجري القديم الأسفل كان في هذه المنطقة خلال الزمن الواقع بين فترة الثقافة الألدوانية المتطورة (أ) وفترة الثقافة الألدوانية المتطورة (ب) بعد أن هاجر إليها من القارة الأفريقية إما عبر ممر سيناء في الشمال أو من خلال باب المندب في الجنوب. ويقدر عمر المادة الأثرية الدالة على وجود أول إنسان في هذه المنطقة بمليون ونصف المليون سنة، كما تدل على ذلك الأدوات التي وجدت في شعيب دحضة في وادي نجران وما وجد على ضفاف وادي الدواسر. وربما يكون العمر أقل بقرن أو قرنين إذا عددنا مواقع قرية الشويحطية، الواقعة إلى الشمال من مدينة سكاكا، أقدم المواقع التي ترجع إلى هذا العصر، إذ إن الأدوات الحجرية المكتشفة توافق فترة الثقافة الألدوانية المتطورة (أ). وتجدر

الإشارة إلى أن وجود الإنسان خلال تلك الفترة كان بين زيادة ونقص يعتقد أن سببها تقلبات مناخية حادة تعرضت لها أماكن وجوده ومنطقة الجزيرة العربية بشكل عام.

وقد شكلت منطقة الدرع العربي، الثلث الغربي للجزيرة العربية، مكان وجود إنسان تلك الفترة. ويعزى ذلك إلى توافر مصادر الأحجار المستخدمة في صناعة الأدوات، ومصادر المياه، ومصادر الغذاء المتمثلة في الأشجار الكثيفة والحيوانات البرية المتنوعة، والكهوف الطبيعية التي ربما استخدمها الإنسان في أوقات الكوارث البيئية. ومن أماكن وجوده شعيب دحضة في نجران، وعلى ضفاف وادي تثليث في حوض وادي الدواسر جنوب منطقة نجران، وفي وادي تثليث نفسه، وبالقرب من قرية الشويحطية في الجوف.

وكان حجر الكوارتز هو مادة صناعة أدواته التي من أوضحها السواطير غير المصقولة، والسواطير اليدوية الصغيرة البيضية التي تظهر على شكل قلب، والأدوات المتعددة السطوح، والأدوات الخشنة الثنائية الوجه، وأدوات كروية، وأدوات شبه كروية، والمكاشط الثقيلة والخفيفة.



نماذج من أدوات العصر الحجري القديم الأسفل (ألدوانية) - مواقع متعددة بالمملكة

وتفيد دراسات الأدوات الحجرية التي وجدت في المواقع، حدوث تطور في نوع الأدوات. كما أن أدوات جديدة ظهرت في نهاية فترة الثقافة الألدوانية المتطورة مما جعلهم يفترضون بداية ظهور فترة الثقافة الآشولية.

وخلال فترة الثقافة الآشولية ازدادت كثافة وجود الإنسان في هذه المنطقة من الجزيرة العربية فشملت جميع أجزائها تقريباً. ومما يدل على ذلك أنه اكتشف في وادي فاطمة ثلاثون موقعاً على الضفة الشمالية للوادي المذكور، وبالقرب من

قرية خمرة الواقعة بمحافظة جدة، تعود إلى الفترة المعنية بالحديث.

ومن أهم الأماكن التي وجد فيها الإنسان آنذاك، الجزء الشمالي من الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ومحافظة الطائف، وبالقرب من مركز عشيرة حول الطائف، وجنوب غرب جدة، وبالقرب من مدينة بحرة الجديدة، وعلى الجوانب الشمالية لوادي فاطمة، ومنطقة تثليث، ومرتفعات عسير، وظهران الجنوب، ووادي ثعبان، وجنوب خميس مشيط، وبئر حِمى، ووادي ترج، والوديان الساحلية الشرقية للبحر الأحمر وخاصة تلك التي تقع جنوب البرك وشمال الشقيق وشرق أبي عريش، وشرق الرياض بالقرب من مطار الملك خالد الدولي على سلسلة الجبال المطلة على وادي المخر، وهضبة العرمة، ووادي العتك، ومحافظتي الدوادمي وعفيف.

ويتبين أن الإنسان استخدم في صناعة أدواته خلال هذه الفترة أنواعاً من الصخور من أهمها حجر الكوارتزايت الحديدي، والبازلت، والريوليت، والأندسايت، والأقنيس الناري، والحمم، والجرانيت. ومن أهم أدوات الإنسان المكتشفة: المفارم، والمعاول،



نماذج من أدوات الفترة الآشولية
مواقع متعددة بالمملكة

والأدوات الثنائية الوجه كالفؤوس اليدوية، والأدوات المتعددة السطوح، والمكاشط، ونُوَيّات الأحجار، والرقائق الكبيرة، والسكاكين، والسواطير، والمناقيش، والمسننات.

وفي نهاية هذه الفترة بدأت فترة جفاف طويلة سادت هذه المنطقة قبل مائة وعشرين ألف سنة تقريباً، وتركزت حدتها في مناطق الصحاري. ونتيجة لذلك حدثت هجرات بشرية أدت إلى تركز وجود الإنسان في مناطق الأطراف.

وخلال الجزء المتوسط من هذه الفترة،

حدث تغير مناخي نتج عنه حدوث فترة مطيرة تركزت على منطقة الربع الخالي والإقليم الأوسط مما أدى إلى حدوث زيادة في كثافة وجود الإنسان، فظهر على أثر تلك الزيادة دور جديد.

أما دور الاستيطان في العصر الحجري القديم المتوسط الذي يمتد من ١٢٠,٠٠٠ سنة حتى ٣٤,٠٠٠ سنة، فإنه كان يشتمل على فترة الثقافة الموستيرية التي تقسم إلى خمس مراحل، هي: مرحلة الثقافة الموشولية، والموستيرية، والموستيرية ذات الأسنان الدقيقة، والليفالوايز الموستيرية، والموستيرية ذات الرؤوس الدقيقة.

وتتركز مواقع وجود الإنسان في هذه الفترة فوق المرتفعات والروابي القريبة من الجبال التي تطل على الوديان والسهول، وتنتشر في الوديان الشديدة الانحدار في منطقة عسير وظهران الجنوب، وعلى سطوح المصاطب التي تطل على وادي تثليث، وعلى المسطحات المحاذية للوديان، أو في الأخاديد الصغيرة في بئر حِمى، ووادي الدواسر، وشمال صحراء الربع الخالي، ومنطقة يبرين شرق المملكة، ووادي السهباء، ووادي حنيفة، ووادي المخر، ومحافظة المجمعة، ومحافظة الطائف، وجوانب وادي فاطمة، وفي جنوب الكهيفة في حوض سكاكا، وفي جنوب سكاكا.

كما اكتُشف موقع على حافة جبل شاهق في وادي تثليث، وموقع آخر في منطقة جبة بالقرب من حائل. ويعد هذا النمط من المواقع الأول من نوعه إذ لم تُكتشف مواقع من الفترات السابقة على حواف الجبال الشاهقة. وموقع حرة شما الواقعة في منطقة الطائف من أهم المواقع التي ترجع إلى هذه الفترة، إذ تبلغ مساحته ٤٠٠٠م٢، ووجد فيه أدوات حجرية كثيرة جداً تؤرخ لفترات زمنية مختلفة، قد تمثل استمراراً لتقنية صناعية لسكان أقدم من سكان هذا الدور، وآخرين أحدث منهم خلال العصور الحجرية. كما وجد موقع آخر إلى الشمال من الجموم في وادي فاطمة، وتبلغ مساحته ١٥,٠٠٠م٢.

ويتبين من الأدوات الحجرية المكتشفة أن الإنسان قد صنع أدواته من صخور متنوعة، أهمها: حجر الأندسايت، والكوارتز، والبازلت، والبازلت الأخضر، والحجر الأخضر، والريوليت، والشيرت. وتشتمل الأدوات الحجرية التي تعود إلى هذه الفترة على المفارم، والأنصال، ورقائق الليفالوايز، والمكاشط ذوات الأنصال المستعرضة الطرفية، ونويات الأحجار

القرصية، والرقائق المصقولة، ونُويَّات الأحجار المحدبة كظهر السلحفاة، والأنصال الليفالوايز، والأنصال المسطحة، والأنصال المصقولة، والأدوات المسننة، والمناقيش، والسكاكين، والمعاول، والمخارز، والمثاقب، والأزاميل.

ويعتقد أن فترة مطيرة حدثت في أواخر فترة الثقافة الموستيرية في هذه المنطقة. فقد دلت تحاليل الكربون المشع C14 على مواد التقطت من قيعان بعض البحيرات الجافة في الربع الخالي على حدوث فترة مطيرة، بدأت من ٣٤,٠٠٠ سنة قبل الميلاد واستمرت حتى ١٧,٠٠٠ سنة قبل الميلاد. كما دلت أيضاً على حدوث فترة جفاف دامت من ١٧,٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ولم تبدأ بالتغير إلا مع بداية حقبة الهولوسين، أي قبل ١٠,٠٠٠ سنة. وعليه فإن فترة الثقافة الأورقينيشية، من دور العصر الحجري القديم الأعلى، وفترة الثقافة المكدلينية، هما فترتا جفاف مما أدى إلى انخفاض كثافة الوجود البشري. ولذا يعتقد الباحثون أن فترة الثقافة الموستيرية قد استمرت دون تطور بسبب الهجرات التي قادت إلى تفريغ المنطقة، إلى حد كبير، من العنصر البشري. لذلك لم يحدث تقدم في تقنية صناعة الأدوات الحجرية نظراً لعدم حدوث هجرات بشرية إلى المنطقة، بينما قلت فيها الكثافة البشرية.

أما دور العصر الحجري القديم المتأخر فيمتد من ٣٦,٠٠٠ سنة وحتى ١٢,٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ويشتمل على ثلاث فترات ثقافية، هي: فترة الثقافة الأورقينيشية، وفترة الثقافة السولتيرينية، وفترة الثقافة المكدلينية.

وقد عثر، على الرغم مما ذكر عن المناخ، على عدد قليل من المواقع التي ترجع إلى العصر الحجري الوسيط في وادي تثليث، ومنطقة بئر حمى، وجنوب عسير وشرقها، والدوادمي، ومنطقة الطائف، ووادي السرحان.

وتتمثل الأدوات الحجرية المكتشفة في المواقع المذكورة بنُويَّات الأحجار ثنائية القطب، والمناقيش المزدوجة الطرق، والأنصال الصغيرة الرقيقة.

ويبدو أن الصناعات الموستيرية قد استمرت في المنطقة حتى حلت فترة الجفاف منذ عشرين ألف سنة ولم تتعدل إلا مع بداية حقبة الهولوسين. ويستدل على ما ذُكر بنتائج تحاليل الكربون المشع C14 التي أجريت على مواد أخذت من قيعان بعض البحيرات في وادي الدواسر والربع الخالي، وكانت نشطة آنذاك فأصبحت جافة في الوقت الحاضر. وقد

أفادت النتائـج أن تلك البحيرات كانت تفيض بالمياه الناتجة عن ازدياد كثافة الأمطار مما أدى إلى توافر غطاء نباتي أعان الإنسان على البقاء، وجعل من المنطقة مكاناً مناسباً لجذب جماعات بشرية أخرى.

العصر الحجري الوسيط

ويمتـد من ١٢,٠٠٠ سـنة حـتى ٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويعد هذا العصر هو المرحلـة الانتقالية بـين عصر إنسان الصـيد والجمـع والالتقـاط والتـجوال والتنقل، وعصر إنسان الاستقرار والزراعة وتربية الحيوان.

يتميز هذا العصر بشكل عام بالإقامة في الكهوف وبظهور الشفرات الصغيرة، والأدوات الدقيقـة، والمشاعل الحجريـة المقـعرة، وظهـور القوس، والسـهام، وقاذفات الرماح، والمثقب الدوار، وتماثيل الحيوانات الطينية، ودمى العظم والعاج، والتمثال الأنثوي (تمثال الأمومة)، وأعمال فـنيـة مـحزوزة عـلى عـظـام وقرون الحيوانات. ويعتقد أن فتـرة هذا العصر فترة جفاف وهو ما تؤكده قلة المادة الأثرية التي تنسب إليه.

وقد عـثر على مـوقع في مـحافظة المجمعة وجد فيه هلال مكروليثي محدد. كما اكتشف موقع آخر بالقـرب من بلدة مرات في منطقة الرياض عثر فيه على رمح قزحي صغير الحجم. ويجب أن نذكر أيضاً أنه قد اكتشـف حديثاً عدد من الكهوف تحتوي على رسوم ملونة باللونين الأسود والأحمـر وفي بعـض الأحيـان باللـون الأصفر. ففي منـطقة بئر حمى اكتشف كهف يحتوي على رسوم لأشخاص آدمية شديدة الشبه بما نشاهده في كهوف فرنسا من ناحيـة الألوان المستخدمة، وأحـجام الشخصيات المرسومة. كما اكتشف كهف في القويع في محافظة حوطة بني تميم، يحتوي على ثلاث وعشرين لوحة مرسومة



رسوم ملونة باللونين الأسود والأحمر
كهف بمنطقة بئر حمى

بأشكال هندسية وملونة بالأسود والأحمر والأصفر، وهي تشبه ما يوجد في الكهوف الأوروبية من حيث إن اللوحات منفذة على السطح الداخلي للكهف. وعثر أيضاً على عدد من الكهوف بالقرب من مدينة أبها في منطقة عسير وجد فيها رسوم ملونة لبشر وحيوانات، مثل الجمل والوعل بالحجم الطبيعي والمضاعف، وعلى أشكال هندسية متعددة.

العصر الحجري الحديث

ويمتد من ٩٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ويعد آخر العصور الحجرية. وهو يمتاز بخصائص عامة، هي: الاستقرار والإقامة في أماكن معينة فيها مقومات الإنتاج، وممارسة الزراعة، وظهور أدوات حجرية أكثر تقدماً مما سبق، واستئناس الحيوانات الداجنة، وظهور صناعة الأواني الفخارية، وإقامة المنازل وأماكن التعبد والمقابر. ويقسّم هذا العصر إلى دورين رئيسيين، يعرف الأول منهما بالعصر الحجري الحديث قبل صناعة الفخار ويمتد من ٩٠٠٠ وحتى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويمتاز هذا العصر بازدياد في نسبة أماكن إقامة الإنسان خلال العصر الحجري الحديث،



أحد مواقع العصور الحجرية في شرق الرياض

فقد اكتشف في شرق مدينة الرياض ثمانية وخمسون موقعاً من بينها ثلاثة وعشرون موقعاً من هذا العصر.

وعثر على آثار لإنسان هذا الدور في جميع مناطق المملكة العربية السعودية، ولكن المواقع تتفاوت في الحجم والموقع الجغرافي والنشاط البشري. ويتبين أن منها المستوطنات الضخمة التي تحتوي على بقايا منازل وأماكن تعبد ومقابر، ومنها المواقع الصغيرة التي يدل ما وجد فيها على أنها أماكن للإقامة القصيرة، ومنها أماكن مخصصة لتصنيع الأدوات أو ما يعرف باسم المحاجر، ومنها الأماكن التي يعتقد أنها كانت ملاجئ مؤقتة لرُعاة ذلك العصر، أو ما يعرف باسم أماكن الإقامة الموسمية.

وبشكل عام تنتشر مواطن الاستيطان في الصحاري الرملية، وعلى قمم ومنحدرات الجبال، وفي الفجوات الواقعة بين السلاسل الجبلية، وعلى حواف الأودية ومصاطبها، وبجوار جوانب البحيرات التي جفت في الوقت الحاضر، وقد عثر على مواقع تعود إلى هذا العصر في مواطن منها: الجلدة، وشرورة، وجنوب المتبطحات، والمندفن في الربع الخالي، وأبها،



رسوم صخرية على مدافن دائرية في جبل براقة بالدوادمي



رسوم صخرية – جبل البيضتين – الدوادمي

ورنية، وبيشة، وتربة، والطائف، وخيبر، وسواحل البحر الأحمر الشرقية، وظلم، ووادي فاطمة، ووادي الدواسر، والسليل، والدوادمي، وضرما، وسدوس، والقصيم، وأماكن متفرقة في وادي حنيفة وعلى جوانبه، ومحافظة المجمعة، وشرق مدينة الرياض بالقرب من مطار الملك خالد الدولي، والثمامة، وعروق بنبان، ونفود السر، وعريق البلدان، وشمال سكاكا، والنفود الكبير، وجبة، وكلوة، وعين دار، والظهران، وواحة يبرين.

ومن أهم المواقع التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث (قبل صناعة الفخار) في الإقليم الشمالي يأتي موقعان في منطقة كلوة وجد فيهما رسوم صخرية ودوائر حجرية، وأدوات حجرية يعتقد أنها استخدمت في تنفيذ الرسوم الصخرية.

ويعد موقع وقير في محافظة الطائف من أهم المواقع لأنه يحتوي على دوائر حجرية ضخمة، ودوائر حجرية متداخلة، وأدوات حجرية تتميز بصغرها، ورأس سهم مشذب الوجهين وذي سيلان.

وفي منطقة تربة، على حافة حرة النواصف، غرب الطائف يوجد أحد المواقع المهمة، وقد وجدت فيه دوائر حجرية يعتقد أنها أساسات لمبان كانت تعلوها، ومشيدة من مواد قابلة للتلف، ووجد حول تلك الدوائر وفي داخلها أدوات وأسلحة حجرية ترجع إلى ستة أنواع من الصخور، وعظام متكلسة، وأصداف بحرية مستوردة، ورؤوس سهام ذات سيلان، كما وجدت ثلاثون مقبرة ركامية ضخمة لها ذيول.

وهناك موقعان في الإقليم الأوسط من المملكة يعدان من أهم المواقع لأنهما يجمعان نماذج من الرسوم الصخرية



بقايا مبنى من العصر الحجري الحديث – موقع الثمامة – شرق الرياض

وأدوات صوانية، يبدو أنها استخدمت في تنفيذ الرسوم الصخرية. وهناك موقع آخر في الثمامة شمال شرق مدينة الرياض، عثر فيه على بقايا لمساكن تظهر بتصاميم متنوعة، وأماكن تعبد، وآبار، ورسوم صخرية، ورُحِيٍّ حجرية، وأدوات وأسلحة حجرية تدل على درجة من التقدم في الصناعات الحجرية في ذلك العصر.

وعثر في منطقة سدوس شمال غرب مدينة الرياض، وكذلك بالقرب من محافظة ضرما، على عدد من المواقع وجدت فيها قطع مصنعة من الحجر الجيري المحلي، وتضم نويات الأحجار والأنصال والرقائق والسنون والمثاقب والمكاشط ومخلفات التصنيع. وفي محافظة الدوادمي يوجد موقعان وجدت فيهما أدوات حجرية إلى جوار منشآت مواجهة للغرب.

وفي جنوب المملكة عثر بالقرب من مدينة أبها على عدة مواقع تشتمل على رسوم يظهر فيها القوس والسهم من بين الأسلحة التي استخدمها الإنسان خلال ذلك الزمن المبكر، بالإضافة إلى موقعي الجلدة، وجنوب المتبطحات في صحراء الربع الخالي، حيث عثر على

بقايا منازل وحطام عظام ورُحِيٍّ حجرية. ومن المواقع المهمة يأتي موقع الحمّة في وادي بيشة، وخشم شهيل في حرة النواصف، جنوب رنية، وموقع مسجل برقم ٢١٠/٦٩ في سجلات إدارة الآثار والمتاحف السعودية في منطقة مهد الذهب.

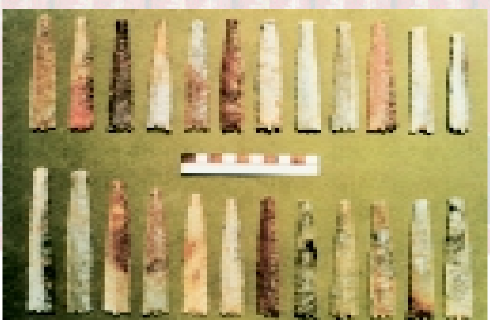
وجمعت مادة أثرية ضخمة من مواقع هذا الدور أغلبها من الأدوات الحجرية، وتوضح هذه المادة الأثرية استخدام الإنسان لعدد من أنواع الصخور التي من أهمها الحجر الرملي الحديدي، والشيرت، والشيرت الأسود، والكوارتزايت، والكوارتزايت الحديدي، والكوارتز الأبيض، والحجر الأخضر، والصوان.

وتشتمل الأدوات والأسلحة الحجرية على رؤوس الحراب، ورؤوس السهام، ومجارف، وأدوات مسننة، ومناخس، وأنصال ذوات أكتاف مشحوذة الوجهين، وشظايا ورقية، وشظايا ثنائية الوجه وكبيرة الحجم، وأنصال ذوات سيلان، ومقاشط، وقواديم حجرية مصقولة ومشحوذة، وفؤوس حجرية مصقولة ومشحوذة، وشظايا من الزجاج البركاني، وشظايا مدببة ذوات أطراف طويلة لها شكل شبيه بشكل الساق، وأطراف معينية الشكل، وقطع تشبه ورقة النبات، وشظايا ورقية على شكل معين، وقطع رمحية الشكل، وأنصال، وشظايا مصقولة، ومثاقب، ومفارم قرصية الشكل.

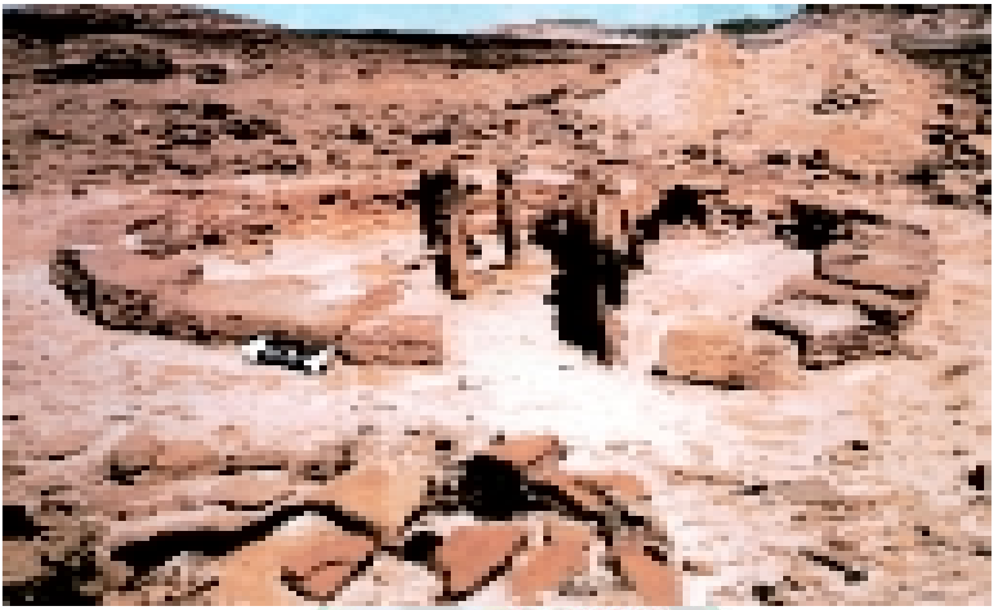
كما تكشف المادة الأثرية المكتشفة عن بقايا منشآت المساكن التي شيدت باستخدام قطع حجرية ضخمة، تظهر على شكل ألواح مسطحة أو كتل قد تكون مستطيلة أو مربعة. وتظهر تلك



رؤوس سهام من حجر الصوّان
موقع الثمامة – شرق الرياض



مجموعة من الحراب الصوّانية
موقع الثمامة – شرق الرياض



بقايا مبنى دائري الشكل من العصر الحجري – موقع الثمامة – شرق الرياض

المنشآت بتصاميم متنوعة، منها الذي له شكل الشعبان، والشكل الدائري، والشكل البيضي، والشكل المستطيل. وكذلك المقابر الحجرية التي تعرف باسم الرجوم الحجرية والتي وجدت منها أعداد كبيرة في مواقع مختلفة. وتكشف أيضاً عن الرسوم الصخرية التي تحتوي على مناظر متنوعة، منها ما يخص الإنسان، ومنها ما يخص الحيوان، ومنها ما يخص البيئة. وكذلك أصداف بحرية، وحجر السحن، وكسر بيض النعام، والخرز، وأدوات من الحجر الصابوني.

وقد كشفت هذه المادة الأثرية أن الإنسان كان ما يزال يعتمد في حياته على الصيد وتربية الماشية، وربما الزراعة الموسمية أو جني المحاصيل البرية، ذلك لأن جميع معثوراته التي اكتشفت تدل على ما ذكرنا، لأنه لا يوجد من بينها أدوات ذات صلة بالزراعة. كما يتضح أن الإنسان بدأ يعتمد على استغلال البيئة، ويتجه تدريجياً نحو الاستيطان. وخلال نهاية هذا الدور بدأ الإنسان يقيم في أماكن معينة، مما أدى إلى ظهور صناعة الآنية الفخارية التي وجدت في مكان واحد مع الأدوات الحجرية في الطبقات الاستيطانية السفلى في موقع عين قناص في المنطقة الشرقية، والتي أُرخت ببداية الألف السادس قبل الميلاد.

أما الفترة الثانية فتعرف بدور العصر الحجري الحديث (عصر استخدام الفخار)، وتمتد من ٦,٠٠٠ إلى ٣٤٠٠ سنة قبل الميلاد. ويبدو أن الإنسان في هذه الفترة قد اتجه إلى السواحل حيث توصل إلى معرفة صناعة الآنية الفخارية، أو أن سكان السواحل من دور العصر الحجري الحديث (قبل صناعة الفخار) هم الذين توصلوا إلى تلك الصناعة، وبعد ذلك انتشرت في الأجزاء الداخلية. فقد عثر في المواقع الأثرية على بقايا أوانٍ فخارية بين أكوام من الأصداف البحرية تقع على سواحل البحر الأحمر بالقرب من جازان، أُرخ لها بالألف السادس قبل الميلاد تقريباً. كما يتبين من تدرج المادة الأثرية في الموقع الواحد أن الإنسان واصل إقامته في أماكنه التي كان يقيم فيها في الدور السابق، وأن كل ما حدث هو تطوره في تقنية صناعته الحجرية، وإدخاله مادة حجر الزجاج البركاني ضمن مواده الخام، ومعرفته صناعة آنية الفخار، وآنية الحجر الصابوني، وظهور أدوات كالمنجل تدل على ممارسته الزراعة الحقلية، ومواد أثرية تدل على سعة الانتشار.

أما المواقع الأثرية التي ترجع إلى دور العصر الحجري الحديث الفخاري، فيبلغ عددها المئات. ولعل من أهمها مواقع فترة العُبيد التي يبلغ عددها أربعين موقعاً، وجميعها تقع في المنطقة الشرقية، ويعد موقع عين قناص من أهمها، إذ نقّبت عن أجزاء منه أثبتت نتائجها أن هناك تدرجاً استيطانياً يربط بين دور العصر الحجري الحديث (قبل صناعة الفخار) ودور العصر الحجري الحديث (عصر استخدام الفخار). كما وجد في الموقع ما يثبت استخدام الأسيجة الدائرية، والمواقد المشيدة، والمونة الطينية والجصية المستخدمة في تبطين أسيجة كانت مشيدة من مادة قابلة للتلف كالأخشاب.

وفي المنطقة الشمالية من المملكة ظهرت بعض الدلائل على وجود هذا الدور. فقد عثر في جبة بمنطقة حائل على موقعين وجد في كل منهما كسرة



كسر من فخار العُبيد
موقع الدوسرية – المنطقة الشرقية

آنية فخارية، إلى جانب اكتشاف الأدوات الحجرية التي تنسب إلى العصر الحجري الحديث (عصر استخدام الفخار).

وهناك عدد من المواقع في المناطق الجنوبية الغربية، من أهمها موقع عند قاعدة الحرة، فوق مصطبة غير مرتفعة ينتشر فوقها حصى البازلت عند لسان خليج وادي الغرس الضيق، وجدت فيه أدوات حجرية متميزة، وكسر فخار، وأسيجة دوائر حجرية تنتشر بينها كومات منخفضة من الأحجار، وأرضيات يعتقد أنها بقايا أرضيات أفران، ودائرة حجرية صغيرة يبلغ قطرها ٧م، وركام مدفن يقع فوق منحدر أكثر انخفاضاً على حرة تطل على الموقع من الشمال، ويبلغ عرض المدفن خمسة أمتار وارتفاعه متراً ونصف المتر.

وثمة مادة أثرية ضخمة من مواقع ذلك العصر، وهي تشتمل على المادة الثابتة كالعمارة والآبار والرسوم الصخرية، وأخرى منقولة مثل آنية الفخار وآنية الحجر الصابوني والأدوات والأسلحة الحجرية بأنواعها المختلفة. ويمكن حصر المادة الأثرية المنسوبة إلى هذا الدور في الرُّحِيّ الحجرية، وهي مصنوعة من حجر الجرانيت، والحجر الرملي، وحجر البازلت، والشيست الأخضر. وتظهر الرّحِي بأشكال متعددة وأحجام مختلفة، ففيها الدائري، والمحدب، والمسطح، والبيضي، والمربع؛ أما من ناحية الحجم فوجد من بينها الضخم جداً، والحجم الشبيه بالحجم الذي كان مستخدماً قبل وقت ليس ببعيد. كما يظهر منها المصقول على وجه واحد أو على الوجهين، ومنها الخشن الذي يتفاوت في درجة خشونته. وكذلك في بقايا الأفران التي تتمثل بمصاطبها والحجارة المستخدمة في بنائها. وبقايا الهياكل البشرية والحيوانية. والأصداف البحرية والأدوات الحجرية المصنعة من مادة حجر السحن. والخرز الذي يشمل خرز القنوس، وخرز الصدف، والخرز الحجري، وقشور بيض النعام، وبيض النعام المتحجر، والأواني المصنوعة من الحجر الصابوني التي وجد بعضها غير مكتمل الصنع. وكذلك أدوات مصنعة من الحجر الصابوني، وأصداف سنية، وأصداف مزخرفة بالنحت الغائر. كما عثر على كميات من الآنية الفخارية التي تحتوي على أنواع خشنة، وأنواع جيدة، بأسلوب صناعي متنوع، فمنها ما هو صناعة يدوية، ومنها المصنوع بالدولاب الفخاري. وتتنوع الزخرفة وعناصرها، فيظهر المزخرف باستخدام الألوان،



أربعة نسور محفورة على حجر صابوني – موقع تاروت – المنطقة الشرقية

والمزخرف بإحـدى طرق قطع العجـينة الصلصالية.

كما عثر أيضاً على بقايا أماكن التعبد التي اسـتخدمت الحـجارة في بنـائها، وكانت تتجه ناحية الشرق أو الغرب.

أما بقايـا المساكن فقد اختلـفت في تخطيطها، وتباينت في أحجامها ومادة بنائها. فنجد التخطيط الدائري والمستطيل الذي يشبه شكل نـعل الفرس. أما من ناحية الحجم، فهناك المنزل الذي يتكون من غرفة واحدة، والمنزل الذي يحتوي على غـرفة واحدة وأمامه فـناء واسع، والمنزل الذي يتكون من عدد من الغرف.

وأما مادة البناء، فإما أن تكون من قطع الحجارة الضخمة، التي يقـوى تماسكها بتشقيصها بشقوص حجرية صغيرة، أو أن تكون من مادة قابلة لـلتلف كعسب النخيل وجذوعها وكالأخشاب التي تبطّن عادة بمادة الطين أو الجص.

وواضح أن الإنسـان قد اعتمد فـي حياته على أربـعة موارد رئيسية، أولها الزراعة. فقد اكتشف عدد من الأرحية الحـجريـة ذوات الأشـكال المـتـنوعـة والأحجام المختلفة فـي كثير من المواقع التي تعود لهذه الفترة. وهناك كثافة لهذه الأرحية في مواقع الربع الخالي، فمثلاً

اكتشف في موقع شـرورة وحده إحدى عشرة رحى. وما ذكرنا يدل دلالة شبه مؤكدة علـى أن الزراعة كانت متـطورة وذات عائد إنتاجـي أكثر من ذي قبل. وتدل سطوح تلك الرحي، التي تكـون أحياناً خشنة وأحياناً مصقولة، على أن الإنسـان كان يسـتخدمـها في الجـرش والطحن. كـما وجد في بعض المواقع بقايا منازل بدائيـة، وكسر فخار، وآبار مطوية ومـطمورة في الوقت الحـاضر، وبذور حبوب القمح والشعير.

والمورد الثانـي تجارة المقايضة، فقـد اكتـشفت أدوات مـصنوعة مـن حجر الزجاج البركاني في مواقع الربع الخالي، ومواقع شرق الرياض، ومواقع فترة العبيد في المنطقة الشرقية، وموقع في بئر حمى، وآخر إلى الشمال من نجران، وموقع في منطقة تثليث؛ ويعرف أن تلـك البيئات لا توجد فيها مـصادر المادة الخام لحجر الزجاج البركاني، ولذا فمن البديهي أن الإنسان قد جلبـها من أماكنها الأصلية ليقـايض بها. كما عـثر على مادة من الأصداف البحرية في مواقع تقع في قلب المملكة العربيـة السعودية كمواقع شرق الرياض، وقد وجد أيضاً في أحدها خرزة من الـقنوس، وفي مـوقع آخر صدفـة سنية. وبعد دراسة كل منهما ثبت أنهما لا يوجدان إلا في الخليج العربي أو البحر الأحمر، ولذا كان من الواضح أنهما قد جلبتـا من تلك الأماكن ليقـايض بهما سلعـة أخرى. ويشكل فخـار العُبيد، بزخـرفته المـميزة، شـاهداً على سـعة الاتصال التجـاري. فقد وُجد في بلاد فارس والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة، وجنوب وشمال بلاد الرافدين وشمـال سوريـا والأردن. ومن الأدلة الأخرى مجموعة من الـرحي التي عثر عليها في الموقع المسجل بـالرقم ٢٠٧/ ٧٩ في سجلات إدارة الآثار والمتـاحف السعودية في شرق الرياض مصنوعة من حجر الجرانيت الذي يبعد أقرب مصدر له من الموقع حوالي ١٥٠كم. ويضاف إلى ما سبق من أدلة، مجموعة من آنية الحجر الصابوني التي وجدت في مواقع الربع الخـالي وكذلك شـرق الرياض، وموقعين في تثلـيث. ومن المعروف أن الحجر الصابونـي لا يتوافر في الأماكن التي ذكرناها، وعليه فالمادة مجلوبة من مكان آخر.

والمورد الثالث هـو الرعي، إذ تفيد التحـاليل العـلمية الـتي أجريت علـى مجموعات من العظام التي التقطت من بعض المواقع، أن الماعز والأغنام والأبقار والخيول كانـت من الحيوانات الموجودة

بصفتها الأليفة أو غير الأليفة إلى جوار إنسان هـذا الدور من العـصر الحجري الحديث. وتدل مناظر الرسوم الصخرية على وجود الحيوانات التي أشرنا إليها، بجانب حيوانات أخرى مثل النعام والماعز الجبلي والأبقار الضخمة والجمال وكلاب الحراسـة وكلاب الصـيد، وحيـوانات متوحشة كالأسود والنمور والذئاب. كما وجدت أدوات حـجرية، مـثل المخارز والمفارم والمثاقب في مواقع الدور المعني، وتفيد أن الإنسان قد استخدمها في تصنيع أدوات من عظام وجلود وأصواف تلك الحيوانات.

والمورد الرابـع هو الثروة البحـرية، خاصة لإنسان المواقع الساحلية كأغلـب مواقع فترة العُبيد التي وجد بها سنارات لصيد الأسماك وكميات كبيرة من المحار المستهلك. ولا شك أن موقع أبي خميس على رأس خـليج الزور، على سـاحل الخليج العربي، خير مثال بما يحتويه من المحار المستهلك.

وقد تعرضت حياة إنسان دور العصر الحجري الحديث (عصر استخدام الفخار) إلى تقلبات مناخية، جفت بسببها موارد المياه الدائمة وشبه الدائمة، فبدأت حياة إنسان ذلك العصر بالتحول. فأخذ يستقر في الأماكن التي يسهل عليه أن يحصل على الماء فيها بـحفر الآبار، وتتوافر له فيها أرض صالحة للزراعة، وحولها أماكن مناسبة لرعي حيواناته. وبدأ أيضاً بممارسة صناعة التعديـن الذي كانت مصنوعاته من أهـم السلع الـتي يمكـن أن تصدر ويقـايض بها. ولـذلك تغـير أسلوب الاستيطان في الجزيرة العربية عندما أصبح الإنسان يقيم في أماكن تقع قرب مصادر المياه، والتربة الجيدة، والمـراعي الغنية، وأماكن التعدين، ونقاط عبور التجارة، سواء في البحر أو البر.

نهاية الألف الرابع حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد

يبدأ من ٣٤٠٠ حتى ١٠٥٠ قبـل الميلاد. والواقع أن نهايـة الألف الرابع تعد النهاية الفعلية لما يعرف باسم العصور الحجرية، إذ يبدأ العصر التاريخي عندما عرفت الكتابة في كثير من بلدان الشرق الأدنى القديم. أمّا الجزيرة العربية، فإن الحد الفاصل بين العصر الحجري الحديث وما تلاه من عصـور غير واضح، لأن تاريخ معرفة الكتابة فيها مسألة خلافية بين البـاحثين. ولكن يمكـن عدّ نهاية الألف الرابع قبل الميـلاد تأريخاً لنهاية دور العصـر الحجري الحديـث (عصر اسـتخـدام الفـخار) وبـداية لـعـصر

الحضارات المميزة التي أمكن تمييزها بمادة أثرية خاصة بكل واحدة منها، لوجود عدة مبررات يأتي في مقدمتها اكتشاف مستوطنات رئيسية تشتمل على جميع المظاهر اللازمة لحياة الإنسان المستقر والمنظم. وكذلك اكتشاف مواقع في وسط المملكة العربية السعودية وشمالها الغربي تحتوي على بقايا أفران وخبث معادن. ويدل اكتشاف ما ذكرنا على أن الإنسان قد بدأ فعلاً بصناعة التعدين. فضلاً عن اكتشاف بقايا النحاس والقصدير وخبثهما والأدوات المصنعة منهما، مثل المخارز وأنصال السكاكين في جميع الفترات الثلاث التي عاشتها مستوطنة هيلي (٨) والتي يعود أقدمها إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

واستناداً إلى الأدلة الآنفة الذكر، فإن نهاية فترة العُبيد، التي تؤرخ إلى ما بين ٣٥٠٠ و ٣٤٠٠ قبل الميلاد، تعد الحد الفاصل بين ما يعرف باسم دور العصر الحجري الحديث (عصر استخدام الفخار) وعصر الحضارات المميزة الذي يشتمل على أربع حضارات تعرّف عليها الدارسون بدقة، هي: حضارة هيلي، وأم النار، ودلمون، ومدين. وسوف نستعرض تلك الحضارات بإيجاز على النحو التالي:

حضارة هيلي (٣٤٠٠-٢٧٥٠ سنة قبل الميلاد). حضارة هيلي أقدم الحضارات المميزة التي ظهرت بعد اختفاء فترة العُبيد. واسمها مشتق من اسم منطقة هيلي في الإمارات العربية المتحدة حيث وجدت مخلفاتها الحضارية لأول مرة. ويعد موقع هيلي (٨) الموقع المميز لهذه الفترة نظراً لتنفيذ عدة مواسم من أعمال ميدانية كشفت عن مستوطنة تحتوي على ثلاث فترات استيطان رئيسية، تعود أولاها إلى الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد وتستمر حتى نهايته. وتبدأ ثانيتها من بداية الألف الثالث وتستمر حتى نهاية الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. أما ثالث تلك الفترات فتعاصر الحضارة التالية لحضارة هيلي (أم النار) وتندرج تحت اسمها، إذ إنها أقل شهرة منها.

ويتضح من الدراسات الآثارية أن هذه الفترة تشتمل على مستوطنات إقامة دائمة مارس فيها الإنسان الزراعة وصناعة الأدوات الحجرية والمعدنية، واستخدم في عمارة المنازل مادة الحجر بالإضافة إلى الطين. وتتميز مستوطنات تلك الفترة بصغر حجمها وتقاربها، واحتواء كل مستوطنة منها على مقبرة خاصة بها تقع بالقرب منها. ووجد، بالإضافة إلى ما

ذكر، آبار عديدة في مستوطنات هذه الفترة وحولها، ويعتقد أن الإنسان استخدمها في ريّ أراضيه الزراعية بنظام لمّا تُعرف تفاصيله بعد.

وتتكون المادة الأثرية لهذه الفترة من مجموعات من الآنية الفخارية، يظهر من بينها المزخرف باللون الأسود، وآنية بعضها مزخرف ومصنوع من عدة أنواع من الصخور، أكثرها شيوعاً حجر الكالسايت. كما عثر على مواد مصنوعة من النحاس، مثل أنصال السكاكين والمخارز والمثاقب. واكتشف أيضاً أدوات تدل على مزج القصدير بالنحاس. ووجد أيضاً ما يدل على ممارسة صناعة الحُصُر والسلال، إذ تظهر طبعاتها على قطع الطين



إناء فخاري من حضارة هيلي
٣٤٠٠-٢٧٥٠ سنة ق.م.

المتساقطة من سقوف المنازل. واستخدمت الأصداف في صناعة الحلي مثل الخواتم والخرز، بالإضافة إلى مواد أخرى.

ولا شك أن الاقتصاد اعتمد على دعامتين بالإضافة إلى تربية الماشية. أولى الدعامتين هي الزراعة التي كانت تروى من الآبار المحفورة. وقد اتضح في ضوء التحاليل العلمية التي أُجريت وجود زراعة شجر النخيل وبعض الفواكه مثل الشمام، وبعض الحبوب كالشوفان والقمح والشعير والذرة.

والتجارة هي الدعامة الثانية لاقتصاد هذه الحضارة إذ تدل كتابات بلاد الرافدين، من أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، على أن السلع كانت تستورد من الجنوب. ويدل وجود القصدير في مستوطنة هيلي (٨) على أنه كان يجلب من منطقة أفغانستان حيث توجد مصادره، ثم يصنع ويعاد تصديره. وتمثل المعادن شاهداً على التجارة، ويبدو أنها كانت تجلب من مناجم عمان، التي كانت تعرف قديماً باسم ماجان، وتصدر إلى بلاد الرافدين التي لا توجد بها مصادر للمعادن وكانت الحاجة إليها ماسة وأساسية.

أما الحياة الرعوية فقد عثر في الأماكن التي نقّبت على بقايا عظام لحيوانات

استخدمت في الحياة اليومية، كالماعز والأغنام والأبقار. وعثر أيضاً على بقايا لعظام الجمال، التي لم يثبت بعد أنها كانت مستأنسة في هذه الفترة.

وتفيد الدراسات الأثرية أنه قد ظهرت في نهاية الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد حضارة أخرى لم تلبث أن طغت على حضارة هيلي فانتزعت منها القيادة، علماً بأن الاستيطان في منطقة هيلي استمر حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

حضارة أم النار (من ٢٧٥٠ إلى ٢٤٠٠ قبل الميلاد). خلال الفترة الثانية في هيلي بدأ ظهور حضارة جديدة عرفت باسم حضارة أم النار نسبة إلى جزيرة أم النار الواقعة في الإمارات العربية المتحدة على بعد ٢٠كم من مدينة أبو ظبي. وقد عُرفت هذه الحضارة بذلك الاسم لأن جزيرة أم النار هي أول مكان وجدت فيه المادة الأثرية المميزة لهذه الحضارة. ويبدو أن العناصر البشرية التي أحدثت تغيراً في الاستيطان قدمت إلى الجزيرة العربية من الشرق، نظراً لأن المخلفات الحضارية لتلك الفترة، وخاصة آنية الفخار، تُظهر تأثيرات شرقية تتضح بمقارنة عناصرها الزخرفية مع العناصر الزخرفية التي تظهر على فخار مستوطنة بمبور في الهضبة الفارسية. وقد أُرخت هذه المجموعة التي تظهر عليها عناصر زخرفية مماثلة للعناصر الزخرفية في مجموعة أم النار بالنصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد.

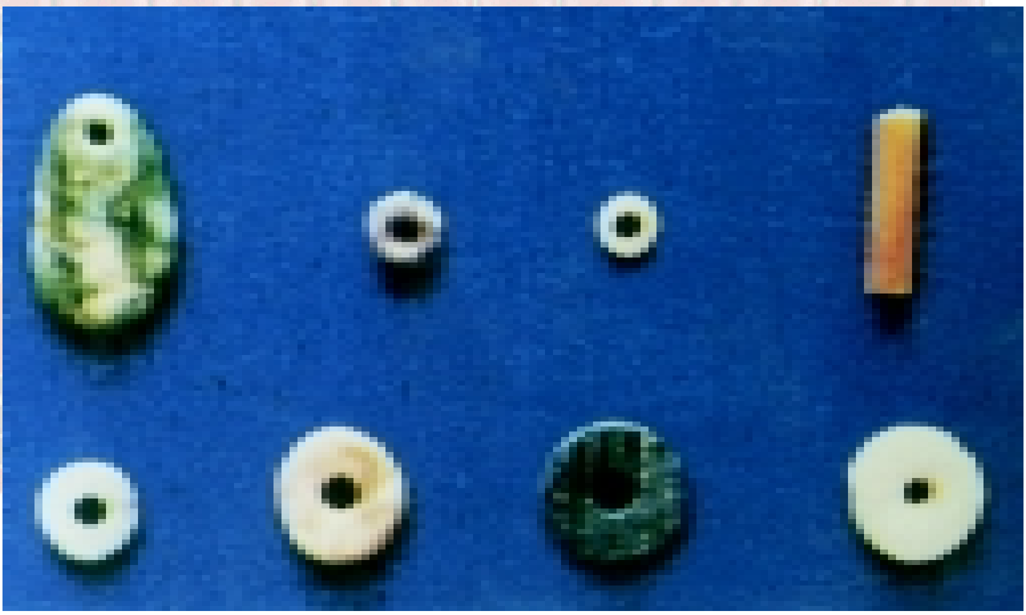
ومن أبرز المواقع التي ترجع لهذه الفترة في المملكة العربية السعودية موقع تل تاروت، ومواقع جنوب الظهران، وموقع الرجاجيل في الجوف، وعدد من المواقع المتناثرة في مختلف أقاليم المملكة.

وقد اشتملت المادة الأثرية التي عُثر عليها في مواقع فترة هذه الحضارة على الأختام والتماثيل والنقوش والآنية الفخارية وآنية الحجر الصابوني وآنية المرمر الأبيض. كما عثر أيضاً على مواد أثرية ثابتة، كعمارة المنازل في المستوطنات وعمارة المقابر التي تحتوي واجهاتها على رسوم حيوانات منحوتة كالغزلان وبعض الزواحف مثل الثعابين.

ويبدو أن انتشار هذه الحضارة وصل إلى أرجاء الجزيرة العربية المختلفة، فقد وجد في المناطق الجنوبية الغربية للمملكة خرزة من نمط خرز أم النار الحجري، كما عثر على مجموعة من الخرز أسطواني الشكل في موقع ركام ساحلي كبير يقع إلى الشمال من البرك. وتوجد مقابر في

وسط المملكة يوضح تخطيطها شبهاً مماثلاً لتخطيط مقابر أم النار. وفي المنطقة الشرقية اكتشف الفخار المميز لهذه الفترة في الطبقات السفلى في تل تاروت، وكذلك في بعض المقابر التي حفرت في حقل جنوب الظهران. كما اكتشف في المنطقة نفسها ستة أختام من طراز أختام أم النار، وجد واحد منها في جزيرة تاروت، واثنان في شمال الظهران، وثلاثة في جنوب نادقان. وعثر أيضاً في مقابر جنوب الظهران على كمية من الأدوات النحاسية التي تعود إلى هذه الفترة، وتشتمل على خاتم وأجزاء من أسورة وخلخال وسهم. وعثر في الإمارات العربية المتحدة على عدد من المثاقب النحاسية وشفرة حلاقة وأزاميل ومخارز وصنارات لصيد الأسماك وأختام.

وقد وجدت كميات كبيرة من الخرز صنعت من مواد مختلفة شملت الحجر الصابوني والعقيق والأصداف واللؤلؤ والحجر البركاني والصوان والصلصال. أما ما وجد خارج المملكة من المادة ذاتها فيحتوي على كميات ضخمة ومتنوعة، سواء من ناحية الأشكال أو المادة الخام أو الزخرفة، ومن ذلك ما عثر عليه في إحدى مقابر منطقة هيلي في الإمارات العربية المتحدة، حيث عثر على ثلاثة آلاف خرزة دفعة واحدة.



نماذج من الخرز المصنوع من مواد مختلفة، ترجع إلى حضارة أم النار ٢٧٥٠-٢٤٠٠ ق.م.

وفي نهاية منتصف الألف الثالث يبدأ ذكر مركز حضاري آخر في الكتابات المسمارية في بلاد الرافدين، مما يشير إلى أن تحولاً في حركة السكان قد حدث ولم يلبث أن ظهرت على أثره الحضارة التالية.

حضارة دلمون (من ٢٤٠٠ إلى ١٧٠٠ سنة قبل الميلاد). استمر الاستيطان في الجزيرة العربية خلال الجزء الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن كثافته تحولت إلى جزء آخر من شرقي الجزيرة العربية. ونتج عن ذلك التحول ظهور حضارة جديدة عرفت باسم حضارة دلمون. وهو اسم أطلقه سكان بلاد الرافدين على الأراضي الواقعة إلى الجنوب من بلادهم، وكانت تربطهم بها صلات تجارية. وعندما حاول الباحثون تحديد هذه الأرض ظهرت عدة آراء خلال القرن الماضي، آخرها رأي للعالم جفري بيبي G. Bibby يعتقد فيه أن المقصود بهذه التسمية هو منطقة الساحل الشرقي للجزيرة العربية والأراضي الداخلية حتى اليمامة في الوسط. كما أشار إلى اعتقاده أن جزيرة البحرين كانت المركز الرئيسي لذلك التجمع البشري. ولكن هناك من يرى أن جزيرة تاروت في شرقي المملكة كانت هي مركز الاستيطان.

وهذه الحضارة من أقدم الحضارات في الجزيرة العربية التي اقترنت بذكر في الكتابات التي أمدتنا بمعلومات عن معبوداتها، وقواربها البحرية، وتجارتها، وصادراتها، ووارداتها، وملوكها، وإدارتها، وأهميتها للعالم القديم. ويعتقد أن سبب التغير الذي حدث ونتج عنه تحول مركز الثقل الاستيطاني في الجزيرة العربية، ومن ثم ظهور حضارة دلمون، كان سببه هجرات بشرية قدمت إلى المنطقة من قلب الجزيرة العربية. وكان سبب تلك الهجرات هو تغير مناخي عم وسط الجزيرة العربية، وكذلك تغير حدث في معابر التجارة الدولية مما جعل التحرك للسيطرة على تلك المعابر أمراً حيوياً. ويستدل على ذلك بظهور أنواع من الآنية ذات طابع عملي أكثر منه جمالي، مما يعني أن الهجرات المذكورة جاءت من منطقة لم تكن ذات حضارة راقية.

ويتضح من الانتشار الجغرافي لآنية الفخار والمخلفات الحضارية الأخرى لحضارة دلمون أن جميع أجزاء الجزيرة العربية كانت عامرة بالاستيطان خلال تلك الفترة. وقد اكتشف عدد من المستوطنات من زمن حضارة دلمون،

في جزر فرسان، وعلى ساحل البحر الأحمر الشرقي في المناطق الجنوبية الغربية للمملكة. وفي المنطقة الوسطى وجد عدد من المواقع بالقرب من مطار الملك خالد الدولي، وموقع الخضرمة في الخرج. وفي الإقليم الشمالي يعود موقع جبة بمنطقة حائل إلى هذه الفترة، بالإضافة إلى عدد من المواقع الأخرى التي لم تدرس بعد. ومن مواقع المنطقة الشرقية التي ترجع إلى هذه الفترة تل تاروت، ومواقع جنوب الظهران، ومقابر بقيق، وأم الرماد في الشمال الغربي من واحة الأحساء، وأم النيص في واحة يبرين، والرفيعة، والربيعية، وفاروق الأطرش في جزيرة تاروت في شمال المملكة، وجزيرة المسلمية في الخليج العربي. وفضلاً عن ذلك، تذكر تقارير المسح الشامل لآثار المملكة العربية السعودية لعامي ١٩٧٦م و١٩٧٧م الخاصة بالإقليم الشرقي أن هناك عدداً من المواقع التي تعود مادتها الأثرية إلى زمن هذه الحضارة، إلا أنها لم تدرس بعد.

وأما المادة الأثرية لهذه الحضارة، فهي متنوعة وتشتمل على الثابت، مثل المنازل وما يتصل بها والأسوار والآبار المطوية والمعابد والمقابر المتنوعة في تصاميمها ومساحاتها. أما المادة المنقولة فهي متنوعة أيضاً، وتشمل بشكل عام المصنوعات المعدنية مثل التماثيل الحيوانية والآدمية والأوزان وأدوات الزينة وأمواس الحلاقة والمرايا البرونزية والأسلحة المعدنية. وهناك مجموعات من الأختام والآنية الفخارية، ومجموعات من الآنية الحجرية المصنوعة من عدة أنواع من الصخور، مثل الحجر الصابوني والحجر اللين والمرمر الأبيض.



مصنوعات معدنية، تعود إلى حضارة دلمون ٢٤٠٠- ١٧٠٠ ق.م.

اعتمد اقتصاد حضارة دلمون على دعامتين أساسيتين، هما التجارة والزراعة. أما التجارة، فاقترن اسم دلمون في الكتابات القديمة في بلاد الرافدين باسمين لمكانين، أحدهما عرف باسم ماجان الذي يعتقد أنه الاسم القديم لعُمان أو الركن الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية، وعرف الآخر باسم ملوخا الذي يعتقد أنه الاسم القديم لبلاد السند. فمن ماجان استوردت دلمون المواد المعدنية والثمار النباتية والمواد العطرية، ومن ملوخا استوردت الأحجار الكريمة والأخشاب النفيسة وسلعاً أخرى. كما يرد في كتابات بلاد الرافدين منذ زمن أُورك، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، أن السلع المصدرة إليها من دلمون تشتمل على الذهب والبرونز والنحاس والفضة والعاج ومصنوعات من العاج، والأخشاب والمرجان الأبيض والعقيق الأحمر واللازورد وعدد آخر من أنواع الأحجار الكريمة ومحار اللؤلؤ والتمور والبصل والعطور وبعض الحيوانات.

ويتضح من المادة الأثرية المكتشفة في مواقع هذه الحضارة أن التجارة كانت مورداً أساسياً، خاصة تجارة المعادن والأواني المصنوعة من الحجر الصابوني، وكان موقع تل تاروت من أهم مراكز تصنيعها. كما عُثر على حجر اللازورد في الرفيعة في جزيرة تاروت، وأم الرماد، ومعروف أن مصدر اللازورد في مدخشتان، وعليه فهو مجلوب من هناك للاستخدام المحلي والتصدير. وعثر على النحاس في مدافن بقيق ومدافن الظهران وفي أم النيص وجزيرة تاروت، ومن المعروف أن مناجمه في عُمان، وعليه كانت هناك تجارة مع تلك الجهات. ووجد العقيق الأحمر في مدافن بقيق ومدافن جنوب الظهران، ويعتقد أنه مستورد من شبه القارة الهندية. كما وجدت كميات من المغرة في مدافن جنوب الظهران، وهي ربما كانت تجلب من جزيرة هرمز للاستخدام المحلي والتصدير أيضاً.

كانت الزراعة، وخاصة زراعة النخيل، إحدى موارد الاقتصاد الرئيسية، إذ تدل المصادر المكتوبة على أن شجر النخيل ينتشر في المنطقة بشكل كثيف، وثمرته أحد الصادرات المهمة.

وتتبين القوة الاقتصادية للحضارة الدلمونية في عمارة المعابد الضخمة، مثل معابد قرية بربارا الأول والثاني والثالث، ومعبد دراز، ومعبد سار. كما أن عمارة المقابر الركامية التي اكتشفت في جنوب الظهران وسدوس وحوطة بني تميم

والخرج وليلى والأفلاج والسليل ووادي الدواسر ومرات والزلفي والشماسية ومواضع أخرى، تدل على قدرة اقتصادية هائلة. وظهور المدن المسورة، كالمدينة الثانية في قلعة البحرين، يدل على وجود ثروات اقتصادية يخشى عليها. ويدل على الشيء نفسه وفرة الحلي، وتنوع الصناعات الفخارية، والأختام، والمجسمات المعدنية، والأوزان.

وبنهاية الربع الأول من الألف الثاني بدأ ذكر أمة عرفت في المصادر التاريخية باسم أمة مدين. فأخذت القيادة من مراكز الحضارة الدلمونية في شرقي الجزيرة العربية لتشكل الحضارة التالية.

حضارة مدين (من ١٧٠٠ إلى ١٠٥٠ قبل الميلاد). يبدو أن الثقل الاستيطاني لأسباب لا نعلمها تحول ابتداءً من نهاية الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد إلى الشمال الغربي من الجزيرة العربية. فالأبحاث الأثرية تشير إلى اكتشاف مستوطنات كبيرة تحتوي على مادة أثرية ترجع لذلك الزمن. ومن أهم تلك المستوطنات مستوطنة قُريَّة الواقعة على بعد ٧٠كم إلى الشمال الغربي من مدينة تبوك، وقد شخصت من خلال معثوراتها الأثرية على أنها مركز حضارة أمة مدين، تلك الأمة المعروفة في المصادر التاريخية.

ومن أهم المواقع التي تعود إلى تلك الحضارة تيماء، ومغائر شعيب، والبدع. وتمثل قريّة مستوطنة يحيط بها سور حجري تهدم في مواضع وما يزال قائماً في مواضع أخرى، ويظهر أنه كان مزوداً بأبراج مراقبة على امتداده. كما يحتضن الموقع قلعة قائمة على رأس هضبة مرتفعة وتنتشر حولها الحقول والمزارع والمنشآت المائية، ويعتقد أنها المركز الرئيسي لتلك الحضارة ومركز إنتاج الآنية الفخارية التي بموجبها عرفت المادة الأثرية لهذه



منظر عام لموقع قرية تظهر فيه بقايا السور
منطقة تبوك

الحضارة. واكتشف حديثاً في المنطقة الشمالية الغربية ما يقرب من عشرين موقعاً تحتوي على المادة الأثرية المميزة لحضارة مدين.

وتفيد الأبحاث الأثرية أن الاستيطان استمر خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد متمركزاً في شرق المملكة ووسطها. فقد كشفت حفريات ومقابر جنوب الظهران وتل تاروت عن مادة أثرية تعود إلى الفترات التي تلت فترة ازدهار حضارة دلمون، وتعرف تلك الفترات في الدراسات الأثرية بأسماء تستخدم في التأطير الزمني لحضارة بلاد الرافدين، مثل الفترة الكاشية. ومع اختلاف التسميات إلا أنها تعود زمناً إلى فترة مدين

وفي نهاية النصف الأول وبداية النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد استمر الاستيطان في شرق المملكة العربية السعودية في موقع تل تاروت، ومواقع جنوب الظهران، وموقع مقابر بقيق. كما أن هناك دلائل تشير إلى استمراره في وسطها في موقع زبيدة، حيث تؤرخ الطبقات السفلى في الموقع بموجب تحاليل الكربون المشع C14 إلى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد وجد ما يثبت استمراره في الجزء الجنوبي الغربي في موقع سهي بالقرب من مدينة جازان، حيث أثبتت تحاليل الكربون المشع C14 أن استيطان الموقع يعود لما بين القرن السادس عشر والقرن الثاني عشر قبل الميلاد.

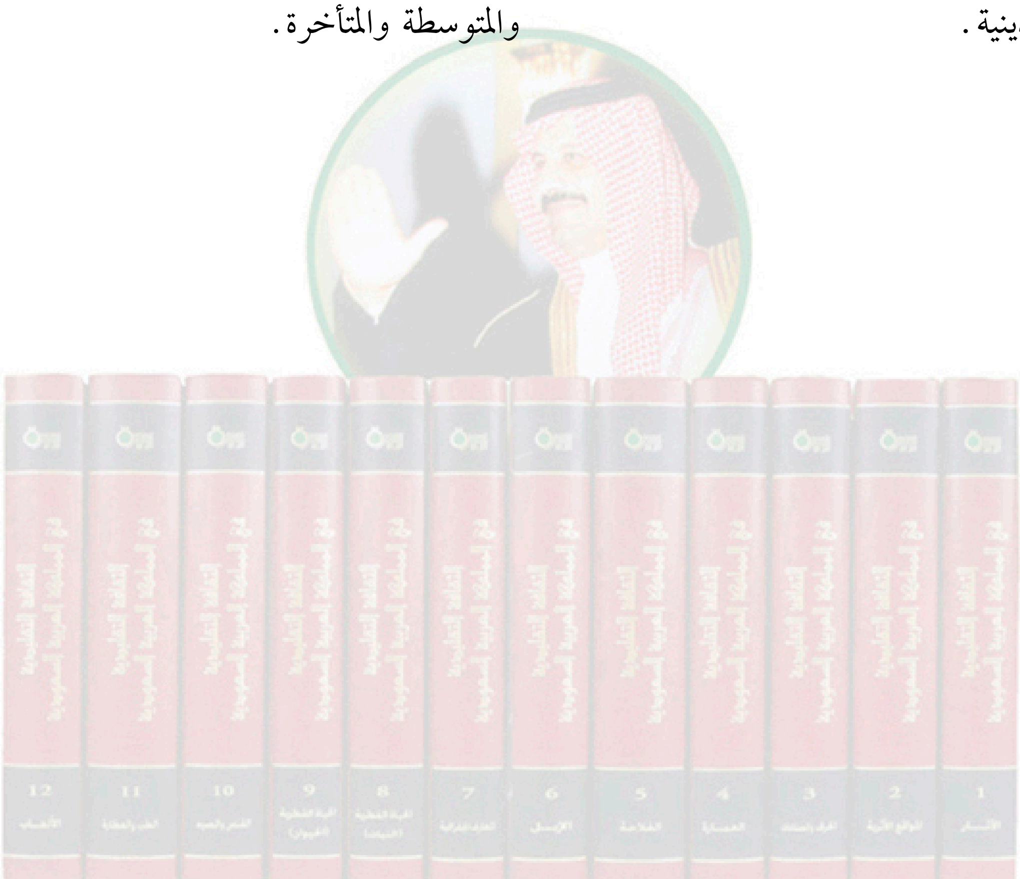
واعتمد الاقتصاد خلال هذه الفترة الحضارية على التجارة والزراعة والرعي. أما في مجال التجارة فقد وجدت المادة الأثرية المميزة لهذه الفترة في مواقع تقع في قلب فلسطين والأردن، وعليه فإن هناك صلات تجارية مع تلك الجهات عن طريقها وصلت المادة الأثرية. ويلاحظ أن الجمل يظهر كأحد العناصر الزخرفية التي يزين بها فخار مدين، ولذا فمن المحتمل أنه كان الوسيلة التي نقلت التجارة بها.

أما الزراعة فيدل على ممارستها ما اكتشف من أحواض زراعية، وسواق لريها، وآبار، وسدود أو حواجز لمياه الأودية والشعاب. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك أخبار تاريخية تدل على أن أمة مدين أمة زراعية، بل تدل على أن المنطقة كانت زراعية قبل ظهور هذه الأمة.

أمّا الرعي فإن الرسوم الصخرية في تلك الفترة تحتوي على مناظر لحيوانات أليفة وأخرى فطرية، وتشير إلى أن

الإنسان استأنس كثيراً من الحيوانات قبل ظهور حضارة مدين. ومن الأدلة الأثرية على وجود الثروة الحيوانية تلك المباني الجدارية التي اكتشفت في موقع قُرَيَّة وفسرت على أنها أجزاء من جدران حظائر الحيوانات، بالإضافة إلى وجود الجمل وحيوانات أخرى كعناصر زخرفية تزخرف بها الأواني الفخارية المدينية.

ويستمر الاستيطان كما تفيد الأبحاث الحديثة في الشمال الغربي من الجزيرة العربية حتى منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد تقريباً، عندما تحول السكان إلى حياة البداوة لفترة من الزمن. ومع حلول الألف الأول قبل الميلاد بدأ ظهور الممالك في الجزيرة العربية، وهي التي عرفت باسم الممالك العربية القديمة والمتوسطة والمتأخرة.



الممالك العربية القديمة

الفترة التي سبقت قيام ممالك الجزيرة العربية من الفترات التي تكونت معرفتنا بها من خلال السجلات القديمة والمصادر التاريخية وبخاصة التوراة والمادة الأثرية الثابتة والمنقولة التي تشكل المصدر الأساسي من حيث وفرة المعلومات وتنوعها. إلا أن نمطية الاستيطان خلال الفترة الانتقالية بين ممالك الجزيرة العربية وبين ما سبقها سادت فيها نمطية الاستيطان غير الحضري. وكان التكوين القبلي الذي ظهر أساساً في مناطق البادية في شمال الجزيرة العربية ثم جنوبها، مرتبطاً بالوضع الاقتصادي للبادية ارتباطاً وثيقاً. وساعدت نمطية الاستيطان على وجود التغيرات السياسية الطارئة في ذلك الحين؛ فالقبائل كانت تفتقد المورد الاقتصادي الدائم، إذ كانت مواردها الاقتصادية تعتمد إما على الرعي، ومن ثم التنقل المستمر وراء المرعى، أو شن الغارات على الواحات لنهب القوافل العابرة، أو الاستفادة من الموارد الزراعية المتناثرة بين الواحات وتخوم الدول المجاورة ذات الامتدادات الخصبة. وقد ذكرت النصوص الآشورية عدداً من هذه القبائل التي كان الملوك الآشوريون يحتكون بها في أثناء حملاتهم على المناطق الواقعة غربي وادي الرافدين. ولم يقتصر التكوين القبلي على نظام القبيلة الواحدة، بل كان هناك أيضاً نظام التحالفات القبلية التي يتكون كل منها من مجموعة قبائل يرأسها زعيم يطلق عليه الملك. ففي النص الذي يروي إنجازات الملك الآشوري شلمنصر الثالث من سنة ٨٥٣ق.م. نسمع عن جندبو ملك العرب الذي كان ضمن ١٢ ملكاً كونوا حلفاً يرأسه ملك دمشق للتصدي للملك الآشوري في موقعة قرقر.

الممالك العربية المبكرة

أدوم – الأدوميون. تطلق كلمة أدوم في العهد القديم على المنطقة الواقعة جنوب وغرب البحر الميت. وتعني أدوم اللون الأحمر، وهو مشتق من لون الأحجار الرملية للجبال التي تمتد من جبل الرقيم إلى وادي رم، ويصل ارتفاع جبل هارون في البتراء إلى ١٣٠٠م فوق سطح البحر، أما قمة جبل رم فيصل ارتفاعها إلى ١٨٠٠م، وتقوم ثروة هذه الأراضي على الرعي والزراعة ومناجم النحاس في وادي عَرَبَة وفينان، وخربة النحاس وأم العمد في الجنوب. وقد عُرف الأدوميون بالزراعة والتجارة البحرية والنزعة الدينية.

إن معلوماتنا عن تاريخ أدوم في الواقع أقل من معرفتنا بأغلب جيران إسرائيل القديمة، ويعود ذلك إلى عدم وجود سجلات تاريخية باقية عن أدوم القديمة، كما أن أدوم كانت معزولة دائماً.

كان الاتصال الطبيعي لأدوم من جهة الجنوب مع مدين والحجاز، ومن جهة الغرب مع مصر عبر خليج العقبة وجزيرة سيناء، ومن الشمال مع سوريا ودمشق عبر الطريق الصعب الذي يؤدي عبر وادي المجيب إلى منطقة العمونيين.

وقد ذُكرت أدوم أكثر من مرة في المصادر المصرية، إذ ورد أن الفراعنة المصريين، من رمسيس الثاني إلى رمسيس الثالث، أغاروا مرات عديدة على أدوم لإخضاع الشاسو الذين سكنوا تلك الأراضي التي اسمها سعير.

وبالإضافة إلى ذلك نجد عدداً من الإشارات التاريخية عن أدوم في السجلات الأشورية والبابلية. كما أن اللقى الحديثة من المسوحات والاكتشافات الأثرية ذات قيمة بالغة في إعطاء بعض المعلومات عن أدوم، إلا أن الإشارات الواردة عن أدوم في العهد القديم تبقى على قدر كبير من الأهمية.

والأدوميون أو أدومير، كما أطلق عليهم في العصر اليوناني، هم ذلك الشعب الذي جاء من الصحراء العربية ودخل حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد إلى أرض الحضارة في جنوب البحر الميت، تلك الأرض الواقعة شرق وادي عَرَبَة. وهي في الواقع أرض غير خصبة على عكس المرتفعات المتصلة بها. فمنطقة عربة نفسها صحراء قليلة الخضرة، أما منطقة الجبال التي تقع إلى الغرب منها فتبدو أكثر خصوبة.

ونعرف من العهد القديم أن الأدوميين أبعدوا الحوريين وكونوا حلفاً من اثنتي عشرة قبيلة في شكل ملكية انتخابية، كذلك نعرف أن القبائل الإسرائيلية كان

عليها أن تطوف حول أدوم. وقد حارب شاؤول الأدوميين لكن داود هو الذي أخضعهم بالقوة واستطاع أن يدير أدوم بحاكم إسرائيلي. ولكن الأمير الأدومي حدد الذي نجا من تلك المذبحة وهرب إلى مصر، نصب نفسه ملكاً على أدوم سراً وعرّض المرتفعات الشرقية، طريق البضائع التجاري إلى عصيون-جبر، للخطر (1Kgs 11,14). وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت أدوم خاضعة ليهودا حتى منتصف القرن التاسع ق.م كما ورد في سفر الملوك الثاني، الإصحاح الرابع عشر، الآية العشرون إذ يظهر يورام ملك يهودا منتصراً على أدوم.

والأدوميون في القرن الثامن قبل الميلاد هزمهم مرة أخرى الملكان أَمْصيا وعزريا.

ومنذ عام ٨٠٠ قبل الميلاد يرد ذكر الأدوميين في كتابات الملوك الآشوريين باسم أدمو، فقد دفع ملك أدومو المسمى قوس ملك الجزية لتيجلات بلصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م.) وكذلك فعل إيرامُّو فيما بعد لسرجون الثاني كما أن أحاز ملك يهودا الذي كان خاضعاً لتيجلات بلصر أيضاً فقد السيطرة على أدوم ومن ثم دفعت أدوم الجزية لسنحريب (٧٠١ ق.م).

وفي عامي ٥٩٨ق.م و٥٨٧ق.م اشترك الأدوميون في غزو القدس، فثار الخلاف القديم للشعوب المتآخية كما تشهد بذلك تهديدات الأنبياء. وقد ظهرت أدوم كثيراً على أنها نموذج للدولة ذات العداء الديني. فبينما احتفظ الأدوميون بالمنطقة اليهودية من الخليل جنوباً، أدار دفة الحكم في هذه المقاطعة من لخيش حاكم فارسي.

وفي نهاية القرن الرابع ق.م استقر الأنباط في المنطقة الجبلية الشرقية لأدوم، وقد أخضع يوهانس هيركانوس Johannes I. Hyrkanus (١٣٥-١٠٤ق.م) الأدوميين وفرض عليهم الختان والقانون الديني اليهودي. ولهذا ظهر من هؤلاء الأدوميين أوتيبتر Autipater، وهيرودس Herodes. ومع تخريب بيت المقدس اختفى أيضاً الأدوميون المتهودون من التاريخ.

عمون - العمونيون. عمون الأرض الوحيدة من بين بلاد شرق الأردن التي احتفظت باستقلالها. وكانت منطقة العمونيين تمتد من نهر الزرقا في الشمال، حتى نهر عرنون في الجنوب. والعمونيون أصلاً قبيلة صحراوية اندفعت إلى كنعان في الموكب الآرامي للاستيلاء على الأرض، وذلك في نهاية العصر البرونزي، ولكنهم تمكنوا قبل الإسرائيليين من تأسيس مملكة

في أعالي نهر الزرقا، وكانوا من هذه المنطقة يغزون دائماً أو يهجمون على منطقة قبيلة جد Gad. ولكن تمكن يفتا Yephta من صدهم أولاً عند قليد، ثم بعد ذلك تمكن شاؤول Suol عند يابش من إبعادهم مرة أخرى إلى المنطقة التي ينتمون إليها.

وكان داود هو أول من غزا عاصمتهم ربة عمون (عمّان الحالية)، ونُصّب ملكاً عليها. وعلى الرغم من أن رحبعام Rehabeam كانت من عمون فإن عمون سقطت في يد المملكة الشمالية عند تقسيم المملكة اليهودية، ولكنها استطاعت سريعاً أن تصبح مستقلة تقريباً.

وعلى العكس من ذلك كان الملوك العمونيون منذ انتصار شلمنصر الثالث عام ٨٤٥ ق.م أتباعاً خاضعين لآشور كما تشهد بذلك نقوش تيجلات بلصر الثالث (٧٥٤-٧٢٧ ق.م) وأسرحدون وأشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م).

وكان العمونيون يشنون هجمات قاتلة بين الفينة والأخرى على يهودا والقدس في زمن السيادة البابلية وكذلك الفارسية، مما جعل مملكة يهودا تضطر إلى الدفاع عن نفسها ضد تلك الهجمات العمونية. ومما يؤيد ذلك أن عدداً من الأنبياء وعظوا الإسرائيليين ونبهوهم إلى خطر العمونيين. وكان إله العمونيين هو ملك الذي نصب له ملك اليهود مذبحاً لتقديم القرابين بالقرب من القدس.

وإلى يومنا الحاضر ما يزال مكان عاصمة العمونيين واسمها قائماً متمثلاً في مدينة عمان بالأردن.

الممالك العربية الوسيطة

سبأ. يُعد تاريخ سبأ عمود تاريخ اليمن القديم لأنه أوضح تواريخ ممالك جنوب الجزيرة العربية وأغزرها مادة.

وأول المصادر التي يستمد منها المرء معلوماته عن مملكة سبأ التوراة؛ فقد ورد ذكر سبأ في التوراة عدة مرات وبصيغ مختلفة. وتحدثت التوراة عن نسلهم وعلاقاتهم التجارية بأفريقيا وبلاد حوض البحر المتوسط، وذكرت قصة ملكة سبأ وزيارتها للنبي سليمان، عليه السلام، في فلسطين، ويرجح أنها مملكة سبأ الجنوب علماً أن التوراة لم تنص على ذلك بشكل واضح.

أما في الحوليات الآشورية فيرد ذكر الحاكمين السبئيين يثع أمر وكرب إل. فالأول دفع جزية للملك الآشوري سرجون الثاني سنة ٧١٥ق.م. والثاني بعث بهدية إلى الملك الآشوري سنحريب سنة ٦٨٥ق.م. ويرى بعض العلماء المحدثين أن هذين الحاكمين هما اللذان

ذكرتهما النقوش السبئية القديمة، أي «يثع أمر بين سمه علي ينف» و «كرب إل وتر» صاحب النقش الشهير بنقش النصر، كما يرى البعض الآخر غير ذلك.

كما ورد ذكر سبأ في القرآن الكريم وعند الإخباريين العرب. أما المؤرخون اليونان والرومان فقد كتبوا عن أخبار السبئيين واستقوا معلوماتهم من التجار الذين كانوا يذهبون إلى أسواق اليمن. وقد عرّف هؤلاء المؤرخون دولة سبأ على أنها دولة ذات شهرة تجارية واسعة عملت على تصدير منتجات جنوب الجزيرة العربية من الطيب واللبان والعود والمعادن النفيسة، بالإضافة إلى تجارة الهند من التوابل والعاج والأقمشة الحريرية.

واسم سبأ ليس كما يذكر الإخباريون من السَّبْي بل هو من الغزو، وفي النقوش العربية الجنوبية القديمة (سبأ) يعني غزا، وسبأتن تعني الغزوة.

وأرض سبأ في الأصل هي منطقة مأرب وتمتد إلى الجوف اليمني شمالاً ثم ما جاورها من المرتفعات الشرقية، مثل مناطق أرحب وخولان وقاع صنعاء، وربما شملت أرض سبأ في فترات امتداد حكمها مناطق أبعد من ذلك.

وقد استطاع المؤرخون، من دراستهم للنقوش السبئية ومقارنتهم بينها وبين الروايات العربية والعبرية والحبشية، تقسيم تاريخ دولة سبأ إلى مرحلتين أساسيتين:



آثار سبأ في مأرب باليمن

المرحلة الأولى: وتبدأ منذ حوالي القرن الثامن قبل الميلاد حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. وهذه الفترة يطلق عليها الباحثون عصر المكربون حيث اتخذ حكام سبأ في هذا العهد لقب مكرب، وهو الحاكم الديني الذي يجمع بين السلطة الدينية بشكل كبير والسلطة السياسية بشكل أقل.

كان لهؤلاء الحكام الدينيين صفة كهنوتية، بل كانوا زعماء الكهنة في مجتمع سبأ. وقد امتاز عهد التكوين هذا بالحروب الكثيرة والمنازعات الدينية التي أدت في النهاية إلى تكوين دولة سبأ، وانتصار آلهة سبأ على آلهة القبائل الأخرى. ومن أشهر المكربين على الإطلاق (كرب إل وتر) صاحب نقش النصر الشهير، الذي أخضع كل القبائل لسيطرة سبأ. وكانت عاصمة الدولة في هذا العصر هي مدينة صرواح التي يوجد بها هيكل المقه (الإله المقه) إله سبأ الرئيسي.

واهتم حكام سبأ في هذه الفترة بتنظيم الري وإقامة السدود للاستفادة من مياه الأمطار والسيول واستصلاح الأراضي الزراعية.

المرحلة الثانية: وتبدأ من القرن الخامس ق.م. إلى القرن الأول الميلادي. وتعرف هذه الفترة بفترة ملوك سبأ، إذ تخلصت الملكية السبئية من الطابع الديني، كما أن عاصمة الدولة انتقلت من صرواح إلى مدينة مأرب التي اشتهرت بسدها العظيم.

وقد تميز هذا العهد من تاريخ دولة سبأ بتطور الزراعة ونمو التجارة اليمنية واحتكار تجارة التوابل. وكان موقع مأرب في وادي ذنة يتحكم بطريق تجارة اللبان، الذي كان من أحب الطيوب وأغلاها في بلاد الشرق القديم وحوض البحر المتوسط.

وامتاز نظام الحكم في دولة سبأ بأنه نظام قبلي، تمتلك فيه قبيلة سبأ مقاليد الأمور في حين احتفظت القبائل والمدن الأخرى الواقعة تحت سيطرتها باستقلالها المحلي. واستطاعت قبيلة سبأ لأسباب اقتصادية ودينية أن تؤلف حلفاً اقتصادياً قبلياً باستغلال الموارد الزراعية والتجارية. كما استطاع السبئيون، باستغلال الموارد الطبيعية، أن يبتدعوا نظاماً للري يعتمد على الاستفادة من مياه الأمطار والسيول، وأكبر شاهد على ذلك هو سد مأرب العظيم. وقد تمكنت سبأ أيضاً من توحيد المجتمع حول عبادة الإله الرئيسي للدولة وهو المقه، ووصلت إلى درجة كبيرة من التفوق في الهندسة المعمارية، ويظهر أثر ذلك في المعابد وأماكن العبادة المختلفة.

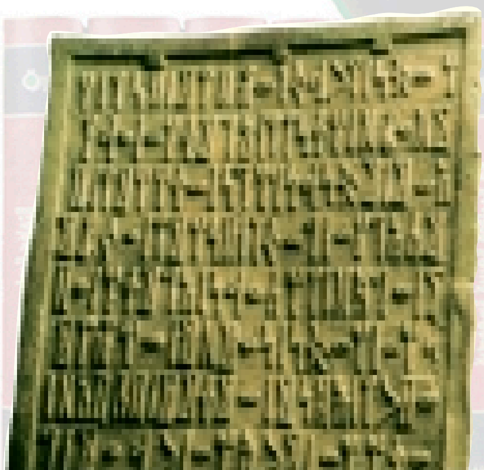
وفي أواخر القرن الـثاني قبل الميلاد ثارت بعض القبائل اليمنية، مثل حضرموت وقتـبان، علـى الدولـة الزعيـمة سبـأ. واستغلت إحدى الـقبائل المؤسسة لدولة سبأ، وهـي قبيلـة حمْير، هـذا الخلاف السياسي لمصلحتها حيث استطاعت توحيد القبائل اليمنية وتكوين دولة حمير.

معين. من الدول المهمة التي قامت في جنوب الجزيرة العربية دولة معين في منطقة الجوف باليمن، فقد تمكنت مناطق الجوف اليمني، وعلـى رأسها العاصمة الدينية يـثل براقش، من السيطرة علـى طـريق تجـارة اللـبان بمـعاونـة قـتبـان وحضرموت. وهناك خلاف بين المؤرخين حول فـترة دولة مـعين، ولكـن الرأي الراجح هـو أن هذه الدولة نـشأت في القرن الخامس قبل الميلاد واستمرت إلى مطـلع القرن الأول المـيلادي، وكانـت عاصمة المـعينيين قرنو الـتي وردت في الكتب القديمة باسم قرناء.

وقد عرف الـعالم القديم المعـينيين وذكرهم المؤلفون اليونان في كتبهم وسموا اللبـان باسمهـم. وذكر بالإضافـة إلى المعينيين السبئيين والقتبانيين والحضارمة.

ومن اللافت لـلنظر أن دولة معـين بدأت بعهد ملكي، أي بعهد تنفصل فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية، وهي بذلك تكون قد شذت عن النهج الـذي كان سائداً لدى دول الجنوب الأخرى. وقد يكون مرد ذلك إلى تأثر معين بدول الشمال التي كانت على صلة وثيقة بهم، خاصة دولة لحيان وممالك شمال الجزيرة. ومن المحتمـل أيضاً أن تكون معين قـد مرت في البداية بالعهد المكربي، ولكنها لم تسجلـه في نقوشها وكتاباتـها لعدم قوته ووضوحه.

بعد ذلك اتجه المعينيون إلى شمال الجزيرة العربية حيث استفادوا من المدن التجارية على طريق التجارة، مثل قرية الفاو في وادي الدواسـر على الطريق بين نجران وشرق الجزيرة العربية، دادان



نقش معيني على لوحة من البرونز

و(ددن) في وادي القرى على الـطريق بين نجران وغزة. وقد كان هذا التوسع المعيني محض توسع اقتصادي، ويرجح أن تكون قمة ازدهـاره قد حدثت بين القرن الثالث والقرن الأول قبل الميلاد. فقد انطلق المعينيون من عاصمتهم قرنو إلى الأسواق العالمية في فلسطين ومصر واليونان وغيـرها، إذ عثر بمصر على قبر أحد التجار المعينيين وقد نقش عليه اسمه (زيد إل بن زيد)، وكـان يتاجر بالمُر والقرفَة في أيام بطليموس الثاني، حوالي ٢٦٤ق.م.

وكان نظام الحكم في دولة معين ملكياً شبه قبلي، وللملك مندوب يسمى في النقوش القديمـة باسم الكبير يمثله لدى القبائل والمدن الأخرى من دون التدخل في شؤونها الداخلية.

وعرفت المدن في هذه الدولة نظاماً يمكن أن يطلق عليه نظام الحكم المحلي، إذ كان لرؤساء الـقبائل رأي في تسـيير أمور المدينة وكانوا يجتمعون في دار لهم تسـمى مزود أو مسـود. وقد استـطاع العلماء من خلال دراستهم للنقوش المعينية أن يستخلصوا كثيـراً من المعلومات عن النظم المالية، مثل نظام الضرائـب الذي ينقـسم إلى ضرائب للـملك وضرائب للمعبد وضرائب لشيخ القبيلة.

وكان لكل مدينة معبدها الخاص وكان فيه أكثر من إله، وقد عُرف معبد العاصمة قرنو باسم معبد رصفم رصاف. وللمعبد المقام الأول في الحـياة، وله نوعان من الضرائب هما النذور التي يؤديها الناس تقرباً للآلهة، وضرائب العشور أي عُشر الدخل. ومن أشهر الآلهة لدى المعينيين ود (إله القمر)، عثتر (الزهرة)، نكـرح (الشمس) وغيرها.

وكانت نهاية دولة معين على أيدي السبئيـين الذين بدأوا بإمارة صغيـرة ثم توسعوا حتى سيطروا على اليمن كله. وما زلنا نجـهل بالتحديد التـاريخ الذي انتهت فيـه دولة معين. ولعله كان فـي نهاية القرن الأول ق.م.

حمير. كان من أسباب ضعف مملكة سبأ انتقال طريق التجارة من البر إلى البحر حيث آلت الـتجارة البحريـة إلى شعب حمير، وأدى ذلـك في نهاية الأمر إلى قيام ما عُرف بدولة حمير. اتخذ حـكام هذه الدولة في أول قيامها لقب ملك سبأ وذو ريدان. وتعد هذه المرحلة عهداً ثالثاً من عهود الحـكم السبئي، إذ احتـفظت قبيلة سبأ باسمـها وأعطت القيادة لقبيلة حمير. وقد تفوق الحميريون في التجارة البحرية حتى أصبحوا سادة البحر الأحمر في هذا المجال. ويـبدو أن كلمة حمـير

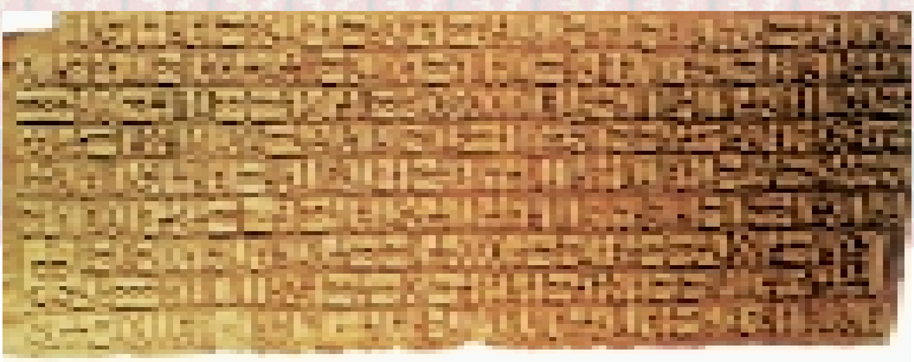
مشتقة من الحمرة، ويزعم الإخباريون أن حمْيَر جد الحميريين وهو حميـر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

ويميل عامة المؤرخين إلى تحديد بداية دولة حـمير بـعام ١١٥ق.م. وكانـت عاصمتها آنذاك هي ظفار شمال شرقي ميناء مخا على البحر الأحمر. ومنذ عام ٣٠٠م بلغـت الدولة الحمـيرية أقصـى توسعهـا في اليمن والعـربية الجنوبية، وأصبح اسم الدولة مملكة سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت، وبعد ذلك بسنوات تطور الاسم إلى ممـلكة سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وعربـهم في الجبال وتهامة.

وبعد أن غزا الأحباش اليمن ما بين سنتـي ٣٤٠م–٣٧٨م أطلق على دولـة حمير اسم مملكة أكسوم وحمير وريدان وحبشت وسلم وتهامة.

وقد أطلق الإخباريون العرب علـى ملوك حمير لقب التبابعة، ومفردها تبّع، وقد تكون كلمة تبع هي تبع إحدى قبائل همدان بعد تحريفها، مع العلم أن كلمة تبع لم تـرد في نصوص المسند. وكـان من أشهر هؤلاء التبابعة أبو كرب أسعد الكامل الذي حكم ما بين سنتي ٣٨٥م–٤٢٥م.

وقد تعرضت منطقة جنوب الجزيرة العـربيـة لكـوارث وأزمات سـياسـية واجتمـاعية واقتصـادية في أيام الدولـة الحمـيرية، إذ أصيـبت الدولة بـالوهن وضعف الاقتصاد نتيجة لتوصل الرومان لمعرفة سر الرياح الموسمية واستطاعتهـم الإبحار مباشرة عبر البحر الأحمر باتجاه شرق إفريقيا والهند والوصول إلى مصادر الـتجـارة، وهـذا أثر عـلـى الـوضع الاقتصـادي لجنوب الجزيـرة، كما غزا



نقش حميري

الأحباش اليمن واحتلوا أجزاء منها ما بين سنتي ٣٤٠م-٣٧٨م. وفي هذه الفترة الزمنية من حكم دولة حمير دخلت اليهودية والنصرانية إلى العربية السعيدة، واتخذ حكام الحبشة قضية اضطهاد ملك حمير ذي نواس لنصارى نجران وقتلهم في الأخدود ذريعة لاحتلال اليمن، وقد شجعهم ملك الروم على غزو اليمن.

وقد رافق احتلال الأحباش لليمن عام ٥٢٥م كوارث عظيمة وأزمات اقتصادية وسياسية، أهمها انهيار سد مأرب في حوالي منتصف القرن السادس الميلادي مما أدى إلى إصابة اقتصاد اليمن الزراعي بالضرر. فهاجرت بعض القبائل إلى خارج اليمن، وقامت الثورات ضد الغزاة المحتلين.

ولما ضعف الحكم الحبشي في اليمن نتيجة المقاومة المحلية والخلافات بين قادة الاحتلال، ظهر سيف بن ذي يزن وتحالف مع الساسانيين واستعان بهم على طرد الأحباش من اليمن، وظل الحكم الساساني مهيمنًا على اليمن حتى عام ٦٢٨م عندما أسلم عامل الفرس على اليمن، وبذلك دخلت بلاد اليمن في الدولة الإسلامية.

الأنباط. مملكة الأنباط من الممالك العربية الرئيسية التي أسهمت في تكوين التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال غرب الجزيرة العربية. والأنباط من القبائل العربية الأصلية التي أحسنت استغلال أراضيها التجارية والزراعية منذ بداية استقرارها وظهورها على أنقاض الحضارة الأدومية.

وفي البداية اكتفى الأنباط بفرض الضرائب على القوافل التجارية المارة في أراضيهم نظير حماية هذه القوافل وتأمين احتياجاتها من المؤن. ومع مرور الوقت زاد طموح الأنباط وسلطانهم بعد دخولهم عالم التجارة بأنفسهم، فأصبحوا يشترون من البضائع القادمة من جنوب الجزيرة العربية ويبيعونها في الموانىء التجارية الواقعة في بلاد الشام، كما استفادوا من المتاجرة ببضائع بلاد الشام ونقلها إلى الجزيرة العربية.

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين والآثاريين حول المكان الذي جاء منه الأنباط، إلا أن الرأي الراجح حتى الآن أنهم من القبائل العربية التي هاجرت من وسط الجزيرة العربية وشمالها واستقرت في جنوب الأردن وبالتحديد في وادي موسى، ثم امتد نفوذها جنوباً ليشمل المنطقة الممتدة بين الجوف ومدائن صالح. وهناك من الباحثين من يعتقد أنهم نزحوا من منطقة القصيم.

وفي حوالي القرن الخامس ق.م تمكن الأنباط من طرد الأدوميين والسيطرة على المناطق الواقعة جنوب الأردن وبدأوا بتكوين كيانهم السياسي متخذين من البتراء عاصمة لهم. فابتكروا طرزاً معمارية رائعة تمثلت في واجهات المقابر الصخرية في كل من البتراء والحجْر (مدائن صالح).

وتعكس العمارة النبطية مدى تأثر الأنباط بالعمارة الهلينستية وعناصرها المميزة، وتتجلى مع ذلك اللمسات الفنية للأنباط في بعض العناصر المعمارية الخاصة بهم، مثل ابتكار الطراز المسنن في تتويج منشآتهم المعمارية، وكذلك التيجان التي تعلو الأعمدة الوهمية لواجهات المقابر.



نموذج للعمارة النبطية – البتراء

ولعل من أقدم الإشارات التاريخية التي تعكس أهمية الأنباط في المسرح السياسي ما أورده ديودور الصقلي حين ذكر أن حاكم سوريا أنتيجونس أوعز لزميله أتينوس سنة ٣١٢ق.م بقيادة حملة عسكرية ضد الأنباط لإخضاعهم، وليضمن من ناحية أخرى السيطرة على الخط التجاري وتحالفهم معه ضد بطليموس. واستطاع أتينوس بالفعل مباغتة الأنباط ليلاً في عاصمتهم، ونهب ما استطاع من المعادن النفيسة والبخور والتوابل. إلا أن الحملة باءت بالفشل الذريع عندما هاجم الأنباط الغزاة أثناء رجوعهم ليلاً وتمكنوا من قتل أكثر أفراد الحملة التي كان عدد أفرادها يبلغ أربعة آلاف، ولم ينج منهم إلا خمسون فارساً.

وحفظت لنا المصادر الكلاسيكية والنصوص النبطية المكتشفة حتى الآن أكثر من اثني عشر اسماً من أسماء الملوك الذين تعاقبوا على حكم الأنباط، كان أقدمهم الحارث الأول (١٦٩-١٤٦ق.م) الذي كان معاصراً ليهوذا المكابي مؤسس الأسرة المكابية. ولعل من أشهر ملوك الأنباط

وأكثرهم نفوذاً الحارث الثالث (٨٧-٦٢ق.م) لاقتران حكمه بالسياسة التوسعية التي بدأت باستيلائه على دمشق بعد أن عانت من الحروب اليونانية الداخلية، كما سيطر على سهل البقاع. وقد فرضت الظروف السياسية على الحارث الثالث التدخل في شؤون اليهود أكثر من مرة، كان أولها معركة حديدة إلى الشرق من يافا، حيث حقق الجيش النبطي انتصاراً ساحقاً على اليهود. أما المرة الثانية لتدخله فكانت عندما تنازع ولدا إسكندر خبايوس (أرسطوبولس وهركانوس) زعامة اليهود، إذ أعد الحارث جيشاً قوامه خمسون ألف رجل فهاجم أرسطو الذي هزمت قواته ولجأ إلى القدس.

ولكن كان لتدخل الرومان في هذه الأحداث أثر مباشر في تغير المواقف والنتائج، فقد نجح أرسطو بولس في أن يضم إليه قائد الحملة الرومانية التي هاجمت في البداية مدينة دمشق، ثم واجهت القوات النبطية المنسحبة عند بايرون حيث دارت المعركة التي خسر فيها الأنباط وقتل منهم حوالي ستة آلاف.

فقد الأنباط كيانهم السياسي كدولة مستقلة بعد وفاة آخر ملوكها (رب إيل الثاني) عندما أمر الإمبراطور تراجان نائبه



الممالك العربية الوسيطة وطرق التجارة القديمة

في سوريا كورنيليوس بالما بالاستيلاء على البتـراء في سنة ١٠٦م. وضمـت سنة ١١٢م إلى المقاطعة العربية وحلت بصرى محل البتراء عاصمة للمقاطعة العربية.

وعلى الرغم من ذلك ظل الأنباط يمارسـون نشـاطهم الـتجـاري حتى منتصف الـقرن الثاني الميلادي. وفي القرن الـثالث الميلادي فقـدت البتراء أهميتها التجارية وأصبحت تدمر المركز التجاري الرئيسي البديل.

ومن أهم الحواضر الـنبطية الواقعة في المملكة العربية السعودية مدائن صالح (الحِجْر) التي تعد ثانية أهم مدن الأنباط والعاصـمة الجنوبـية للدولـة النبطـية، بالإضافة إلى مواقع البدع ودومة الجندل وأكرا كومي وإثرة. وتحوي هذه المواقع آثاراً نبطية مهمة، تعكس جانباً من تاريخ الحضارة النبطية في شمال الجزيرة العربية وغربها.

الممالك العربية المتأخرة

كندة الثانية (نجـد وما حولها). كندة من الممالك التـي يحيط بتاريخها كثـير من الغموض أكثر مما يحيط بتاريخ بعض الممالك العربية القديمة الأخرى. ويعزى ذلك لقلة الآثار التي خلفتها والنصوص التي تتحدث عنها، كما أن وجودها في قلب الصحراء أبـعدها إلى حد ما عن معرفة المؤرخـين الكلاسيكيين بها، مـا عدا بعض الإشارات اليسيرة التي ذكرها بعـضهـم مثـل بلـينـي وبطلـيمـوس وثيـوفانس، وهي إشـارات تحمل فـي معظمهـا كثيراً من الجدل. إلا أن هذه المصادر الكلاسيكية وعلى الرغم من أنها تعنى بجـانب من جوانب حياة كندة، وهو العـلاقة السياسـية بين دولة كندة والبـيزنطيـين، تعدّ مصـدراً مهماً مـن المصادر التي تعـطينا فكرة واضحة عن حياة هذه المملكة.

أما المصدر الآخر الذي نسـتقي منه معلوماتـنا عن مملكة كندة فهو المـصادر العربيـة. ويقصد بها كتابـات المؤرخين العرب وما تـناقله الرواة وما ورد على ألسنة الشـعراء، إلا أن هؤلاء المؤرخين والكتاب والرواة الـذين كتبوا عن كندة وملوكها قد تـأثروا إلى حد ما بميولهم القبلية. كما نجد في كتاباتهـم كثيراً من المغالاة والـقصص المنقـولة من مصادر متضاربة.

ويرى الـنسابة أن كـندة من قبـائل قحطان، تـنسب إلى ثور بن عـفير بن عدي بن الحارث، ولكنهم يختلفون أيضاً حين يذكر بـعضهم أن كندة من قـبائل عدنان. أما الإخباريون فيرون في كندة

قبيلة كانت تسكن شرق بلاد اليمن مما يلي حضرموت، ثم نزحت من حضرموت نحو الشمال حيث نزلت أرض معد بنجد. وهم أيضاً يختلفون حين يذكر بعضهم أن كندة سكنت حضرموت بعد نزوحها عن البحرين والمشقر وغمر ذي كندة، ثم نزحت من حضرموت ثانية فنزلت أرض معد.

وقد جاء ذكر ديار كندة ومنازلها في الأخبار، وذكرها الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب. كما يروي الإخباريون أن مملكة حُجْر الكندي كانت نجد، وذكروا من المواضع غمر ذي كندة. كما أن المواضع التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، مثل: سقط اللوى والدخول وحومل وتوضح والمقراة ومأسل وقرقرى، تقع تقريباً في منطقة واحدة هي المنطقة الواقعة في عالية نجد الجنوبية حتى وادي الدواسر جنوباً. ومن ذلك يمكن القول إن أصل موطن كندة هو ما بين وادي العبر ودوعان رافدي حضرموت، وبعد انتقالها استقرت في عالية نجد.

وكانت دولة كندة على علاقة طيبة بدولة حمير أو التبابعة حتى إنه يُروى في الكتب العربية أن الملك الحميري أب كرب أسعد أو ولده حسان تبع قد أتى بأول ملك عُرف من ملوك كندة (حجر) من الجنوب، وهو في طريقه إلى فتح العراق، وتركه في الجزيرة ومات. ثم أنشأ حجر بن عمرو، المعروف بآكل المرار، مملكة كندة. فهذه الرواية تدل على أن ملوك حمير حاولوا أن ينشئوا مراكز تجارية وسط الجزيرة للحفاظ على الطرق التجارية من جنوب الجزيرة إلى شمالها.

وتذكر الكتب العربية أن حُجْراً كان عالماً بشؤون الحكم وسياسة الدولة، ولكي يحافظ على علاقته الحسنة مع بقية القبائل العربية حاول أن يصاهر رؤساء القبائل، ونجح في ذلك إلى حد كبير واستطاع أن يوسع دولته بالمصاهرة أو بالحرب أو بالمعاهدات التي كان يعقدها مع القبائل لتكون تحت سيطرته. وقد وصلت حدود مملكته، وفقاً للمصادر العربية، إلى الحجاز وشمال الجزيرة العربية والبحرين، بل يذهب بعض الدارسين إلى أن حدود مملكته وصلت إلى حدود المناذرة شمالاً.

وولي بعد آكل المرار ولده عمرو الملقب عمرو المقصور ربما لإنه اقتصر على حدود مملكة كندة الأولى قبل توسع مملكة أبيه. وقد كانت علاقاته قوية مع الحميريين، كما أنشأ علاقة جيدة مع

المناذرة حتى إنه زَوّج ابنته للمنذر بن ماء السماء، في حين أن علاقته مع الغساسنة كانت على ما يبدو سيئة.

وخلف عمرو بن حجر ولده الحارث بن عمرو الكندي الذي جاء ذكره في المصادر البيزنطية بسبب الحروب التي قامت بينه وبين حاكم فلسطيني في عهد الإمبراطور إنستاسيوس عام ٤١٧م واستطاع فيها الحاكم الفلسطيني هزيمة جيش الحارث. وكان الحارث حسن السياسة، بعيد النظر، توسط بين قبيلتي بكر وتغلب في حرب البسوس وتمكن من إنهائها. كما أن الحارث لفت نظر ملوك فارس إليه، حين رغب الملك الفارسي قباد في إيجاد منافس قوي أمام المنذر الثالث ملك الحيرة الذي قامت بينه وبين الفرس منافسات شديدة. إلا أن استيلاء الحارث على مُلك الحيرة كان سبباً في قتله عام ٥٢٨م.

ولتوطيد دعائم كندة ولّى الحارث أبناءه شؤون القبائل الكبيرة. فكان أكبرهم حجر والياً على قبائل أسد وكنانة وغطفان، إلا أن نزاعه مع هذه القبائل، خاصة قبيلة بني أسد بعد مقتل أبيه، أدى بأسد إلى قتله فقام ابنه الشاعر امرؤ القيس مطالباً بملك أبيه واستعان بعدد من القبائل فلم تعنه واستجار بالقسطنطينية فلم تجره. ويُروى أنه أعطي فيها حلة مسمومة فلبسها فمات، وتذكر بعض الكتب العربية أن وفاة امرئ القيس كانت بتأثير من قبائل بني أسد في البلاط البيزنطي سنة ٥٤٠م. وبعد ذلك سقطت دولة كندة وأعلنت بعض قبائلها الولاء لدولة المناذرة وبعضها لدولة الغساسنة.

وجاء ذكر كندة في نقوش عربية جنوبية يعود تاريخها إلى حوالي القرن الثاني الميلادي. وتذكر هذه النقوش كندة بوصفها كياناً سياسياً على شكل اتحاد قبلي وعلى رأسه ملك في قرية ذات كهل. ثم تذكر النقوش دور أهل كندة فرساناً في فيالق جيش سبأ. ومن المعروف أن نقش جام الذي يحمل الرقم ٦٣٥ يذكر أن ملك سبأ، شعر أوتر، الذي حكم في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للميلاد، أرسل حملة عسكرية إلى قرية ذات كهل ضد ربيعة ذي آل ثور ملك كندة وقحطان. أما نقش جام ذو الرقم ٢١١٠ فيذكر أن ملكي سبأ إيل شرح يحضب وأخاه يأزل بين اللّذين عاشا في حوالي منتصف القرن الثالث، أرسلا سفيراً إلى ملك الأزد الحارث بن كعب، وإلى مالك بن بد ملك كندة ومذحج. وربما كان ملك كندة ومذحج هو نفسه ملك كندة الذي ورد

في نقش جام ذي الرقم ٥٧٦ باسم مالك الذي بعث برهينة مهمة إلى مأرب ليوالي بها الملكين المذكورين سلفاً.

أما النقوش العربية الجنوبية من عهد الملك شمر يهرعش في أواخر القرن الثالث، فتخبرنا أن كندة كانت على وفاق معه، كما شاركت ضمن جيوشه الغازية فوارس بدوية منها ومن مذجح.

الغساسنة. هي من الممالك العربية الشمالية التي نشأت بعد سقوط دول الجنوب والشمال. فقد استطاعت مجموعة من القبائل في بلاد الشام تكوين دولة عرفت فيما بعد باسم مملكة الغساسنة. وأطلق المؤرخون المسلمون على القبائل التي انتسب إليها الملوك الغساسنة اسم آل جفنة وآل ثعلبة وآل غسان. ويرى الإخباريون العرب أن الغساسنة نزحوا من جنوب الجزيرة العربية، وينسبون إلى قبيلة الأزد وفي طريقهم شمالاً نزلوا على ماء في سهل تهامة يسمى غسان فنسبوا إليه. وبعد وصولهم إلى بلاد الشام نزلوا بجوار قبائل عربية قوية تدعى قبائل الضجاعمة وهي من قضاعة، كان يستعملها الروم لحماية حدودهم الصحراوية. وقد خضع لها الغساسنة حيناً ثم ثاروا عليها بعدئذ حتى أجلوها عن أماكنها. عند ذلك أقرهم الروم ليعملوا باسمهم على مناطق الحدود وفي القوافل التجارية. وقد أنشأ الغساسنة دولة على أطراف بلاد الشام موالية للدولة البيزنطية، حيث تمركز الغساسنة في بصرى والجابية ودمشق، كما يذكر بعض المؤرخين أن منطقة الغساسنة هي المرتفعات السورية.

ويبدو أن قبائل الغساسنة نزحت في أواخر القرن الثالث الميلادي، كما أنهم ينسبون إلى جد أعلى هو عمرو بن عمرو بن ماء السماء. ويذكر المؤرخون أن ابنه جفنة هو المؤسس الحقيقي لدولة الغساسنة.

ومن الملاحظ أن الغساسنة جاءوا إلى المنطقة بدينهم الوثني ولكنهم بعد ذلك اعتنقوا النصرانية. وقد دعا ملوك الغساسنة إلى دولتهم شخصية دينية هي يعقوب البرادعي، فنشر مذهبه النصراني الذي عرف فيما بعد بالمذهب اليعقوبي الذي ينادي بأن للمسيح طبيعة واحدة. كما اختار الغساسنة الكتابة الآرامية وسيلة للتخاطب مع المجتمعات البشرية الأخرى في منطقة الهلال الخصيب. وبلغت دولتهم أوج ازدهارها خلال القرن السادس الميلادي.

وذكر المؤرخون عدداً كبيراً من حكام الغساسنة يتراوح ما بين أحد عشر واثنين وثلاثين، وسموهم ملوكاً. ولكن الراجح أن عدداً من حكامهم الأوائل لم يكونوا أكثر من مشايخ قبائل كبار خلع عليهم



الممالك العربية المتأخرة: الغساسنة والمناذرة وكندة

البـيزنطـيون لقـب والي Phylarchos، ولقب بطريق أو أب Patricius.

ومن أبـرز ملوك الغـساسنـة، ممن احتفظـت الروايات البيزنـطية والعربيـة بأعماله، الحارث الثاني ابن جَبَلة (٥٢٩-٥٦٩م). وسبب بروز شخصية الحارث هو صراعه مع المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، فكان انتصار الحارث على المنذر سنة ٥٢٩م سبـباً في أن يحوز الحارث إعجاب الإمبراطور البيزنطي جوستنيان فعينه سيداً على القبائل في سوريا وجعله نائباً عنه في المنطقة. وقيل إنّ المنذر أسر ولداً للحارث سنة ٥٥٤م وذبحـه قرباناً للعزى، كما أسر الحارث ولدين للمنذر في موقعة أخرى في العام نفسه. وقُتل المنذر قرب قنسرين سنة ٥٥٤م في الموقعة المعروفة لدى العرب بيوم حليمة، وهي ابنة الحارث الثاني ابن جبلة.

وخلف الحارث ولده المنذر (٥٦٩-٥٨١م) الذي عمل علـى حماية حدود بيـزنطة بالإضـافة إلى حمـاية المذهب اليعـقوبي. كما قام بـزيارة الإمبراطور

تيبيريوس الثاني ما بين سنتي ٥٧٨ و٥٨٢م وطلب من المنذر محاولة التوسط بين المذهب ذي الطبيعة الواحدة وبين المذهب ذي الطبيعتين.

وقد مُني المنذر والبيزنطيون بهزيمة أمام الجيش الفارسي جعلت بيزنطة تشك في ولاء المنذر لها. فألقي القبض عليه واقتيد إلى القسطنطينية ثم نفي إلى صقلية.

حاول أولاد المنذر الغساني أن يثأروا له من البيزنطيين، وكان على رأسهم أخوهم الأكبر النعمان. ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، وتشتت شمل أسرتهم الحاكمة واختارت كل قبيلة رئيساً لها. ويظهر أن النهاية الواضحة لدولة الغساسنة كانت سنة ٦١٣م عندما هاجم خسرو برويز، ملك الساسانيين، بيت المقدس واحتل المنطقة، إلا أن دولة بيزنطة استطاعت أن تعيدها إلى حوزتها من الساسانيين.

ويذكر الكُتّاب العرب أن آخر ملوك الغساسنة هو جَبَلة بن الأيهم الذي عاصر الفتح الإسلامي للشام وقاد الجيوش العربية ضد جيوش الفتح الإسلامي في موقعة اليرموك سنة ٦٣٦م. ودخل جبلة الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وجاء إلى المدينة ثم ذهب ليطوف بالكعبة فداس أحد الطائفين طرف عباءته فشعر بأن كرامته قد امتهنت فصفع جبلة ذلك الطائف، فبلغ ذلك عمر، فأمر أن يقتص للرجل من جبلة، فغضب جبلة وهرب إلى بلاد الشام وارتد إلى نصرانيته. ثم ذهب إلى القسطنطينية حيث مات هناك.

وذكر المؤرخون المسلمون أن من عواصم الغساسنة جُلَّق (ربما جلين الحالية أو الكسوة، على بعد ١٦كم جنوبي دمشق)، والجابية في منطقة الجولان. وبعد أن تحضرت جماعات بني غسان في بلاد الشام أولت اهتمامها لمشروعات الري والزراعة، خاصة في إقليم حوران. واشتهرت بعض المدن بالتجارة الخارجية في أيامهم، مثل مدينة بصرى عاصمة إقليم حوران، ثم مدينة الرصافة شمال تدمر، حيث جدد الغساسنة كنائسها وأديرتها. وتأثرت حضارة الغساسنة بالحضارات الشامية المحلية والبيزنطية والساسانية، شأنها في ذلك شأن الحضارة الأموية. وبقي ذكر الأمراء الغساسنة في التاريخ المسيحي لأنهم كانوا من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة، أي المذهب المونوفستي أو المذهب اليعقوبي.

وقد خلد ذكر أمراء الغساسنة في الأدب العربي شاعران هما النابغة الذبياني الذي قصدهم بعد خلافه مع ملوك الحيرة،

ثم حسان بن ثابت الذي نزل ببلاطهم وخصهم بمدائح قبل دخوله في الإسلام.

المناذرة. كان المناذرة في الغالب مجموعة من القبائل العربية التي تنحدر من جنوب الجزيرة وشمالها ووسطها، وقد نسبت هذه المملكة العربية إلى تنوخ تارة وإلى لخم تارة أخرى، كما سمي ملوكها باسم بني نصر أيضاً.

تأسست دولة المناذرة في بداية القرن الثالث الميلادي، وكان قيامها معاصراً لسقوط الدولة البارثية وقيام الدولة الساسانية في بلاد فارس. أما عاصمة الدولة فكانت الحيرة، وفُسر اسمها الآرامي حيرتا كما في العربية الحيرة بمعاني المخيم والمعسكر والحصن وموضع الإقامة.

اختلف المؤرخون حول مؤسس هذه المملكة، فذهب بعضهم إلى أنه نصر بن ربيعة بن لخم بن عدي، ويرى ابن الكلبي أن أول ملوكهم هو مالك بن فهد، ثم تلاه جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم الذي يعده معظم المؤرخين أول ملوك الحيرة

وتعد المصادر التاريخية عمرو بن علي بن نصر بن ربيعة بن لخم هو المؤسس الحقيقي لدولة اللخميين، نسبة إلى لخم وهو ابن أخت جذيمة الأبرش الذي لقي حتفه على يد ملكة عربية تسمى الزباء زنوبيا ملكة تدمر.

أما أول ملك لخمي له أعمال واضحة فهو امرؤ القيس بن عمرو المتوفى عام ٣٢٨م صاحب نقش النمارة المشهور الذي تحدث فيه عن انتصاراته العسكرية، وقد سمى نفسه بملك العرب.

ومن أشهر الملوك الذين جاءوا بعد امرئ القيس الأول النعمان الأول الذي سُمي بالأعور (٤٠٠-٤١٨م)، وكان هذا الملك على علاقة حسنة بالساسانيين، وله أعمال كثيرة، فقد بنى قصرين مشهورين يسميان الخورنق والسدير.

ومنذ عهد المنذر بن النعمان الأول (٤١٨-٤٦٢م) أصبحت دولة المناذرة تقوم بدور مهم في حوادث المنطقة. فبعد موت يزدجرد رفض رجال الدين الفرس تنصيب بهرام بن يزدجرد ملكاً عليهم لأنه لم ينشأ تنشئة فارسية. لكن المنذر-الذي تربى مع بهرام في بيت النعمان-انتصر لبهرام على رجال الدين في فارس وعاونه بفرقته العربية الضاربة دوسر، وتوج بهرام ملكاً على بلاد فارس.

ومن أشهر ملوك الحيرة المنذر بن ماء السماء الثالث (٥٠٥-٥٥٤م) الذي اتسعت فتوحاته حتى وصلت إلى أنطاكية. وكان على علاقة مودة مع ذي نواس

الحميري. ولم يفسد على دولة الحيرة أمرها في عهد المنذر الثالث إلا عداؤها لفريقين من العرب، هما الغساسنة وكندة. وكان يرأس الغساسنة في عهد المنذر، الحارث بن جبلة، فاتصلت بينهما الحروب، واستطاع المنذر أن يهزم الغساسنة ويأسر ابن الحارث الغساني ويقدمه قرباناً للعزى ومعه مجموعة من الأسرى.

وبعد تولي قباذ الحكم في بلاد فارس دَبّ الخلاف بين الفرس والمناذرة إذ حاول قباذ أن يفرض مذهبه الإيامي على المناذرة الذين بدأت المسيحية تنتشر بينهم. لكن المنذر بن ماء السماء أبى ذلك، مما أدى إلى عزله من قبل قباذ ملك الفرس، وولّي الحارث بن عمرو الكندي ملكاً على مجموعة من القبائل اللخمية في حوالي سنة ٥٢٤م. واستمر المنذر في المنفى إلى حين مجيء كسرى أنوشروان إلى الحكم فأرجع المنذر إلى الحكم، ومن ثم انتقم المنذر من الكنديين.

ثم تعاقب على حكم الحيرة ملوك، اشتهر منهم عمرو بن المنذر الثالث المعروف بعمرو بن هند (٥٥٤-٥٧٤م) الذي قصده الشعراء من كل حدب وصوب، وألمح الأعشى في شعره إلى سعة ملكه وامتداد سلطانه. ولقي عمرو هذا حتفه على يد عمرو بن كلثوم.

واشتهر من ملوك المناذرة أيضاً النعمان الثالث بن المنذر (٥٨٣-٦٠٥م) المعروف بأبي قابوس، وهو الذي قصده النابغة الذبياني. ويعد النعمان هذا لدى المؤرخين أول ملك نشأ مسيحياً وعُمِّد في الكنيسة. وقد وقعت خصومة بينه وبين كسرى ملك الفرس الذي تمكن منه وسجنه فمات في حبسه.

ويعد النعمان الثالث آخر الملوك العظام في الحيرة، واختلف أولاده على الحكم بعد موته. فاستغل كسرى هذا الاختلاف وولى على الحيرة ملكاً من غير أسرتهم سنة ٦٠٥م هو إياس بن قبيصة الطائي الذي عاون جيوش الفرس ضد جيوش الروم، كما أنه قاد أعوان الفرس ضد عرب الجزيرة العربية في الحرب المعروفة باسم واقعة ذي قار حيث انهزم هو وجنوده هزيمة منكرة (٦٠٩-٦١١م).

وفي الفترة من ٦١٤-٦٣١م حُكمت الحيرة من قبل حاكم فارسي مباشر، إذ تولى شؤون الحكم فيها فارسي يدعى أزادبه أو أزاذبه وقد عجز عن بسط نفوذه خارج حدودها. وفي عامه الأخير نافسه على الحكم شاب من نسل المناذرة يسمى المنذر ويلقب بالمغرور، وقد جاءت نهايتهما معاً بالفتح الإسلامي سنة ٦٣٢/ ٦٣٣م.

طرق التجارة والحج

طرق التجارة

يتناول هذا الفصل عرضاً لأهمية طرق التجارة في الجزيرة العربية التي احتلت موقعاً جغرافياً متميزاً بين مراكز الحضارات العالمية، مع عرض موجز لبعض مواد التجارة. والواقع أن الطرق البرية والبحرية وسهولة المرور بها جعلت من التجارة أمراً حيوياً بالنسبة لسكان الجزيرة العربية وأسهمت في خلق اقتصاد مميز طوال العصور الإسلامية.

تهيأ للجزيرة العربية عدة عوامل مهمة أدت إلى أخذها مركزاً تجارياً بارزاً في العالم القديم. ويأتي في مقدمة هذه العوامل، أولاً: موقعها المتوسط بين مراكز الحضارة العالمية في الهند وفي إيران وفي العراق وبلاد الشام وفي مصر وفي شرق أفريقيا. ثانياً: ما امتازت به بيئاتها الجنوبية من وفرة نسبية في محاصيل الزراعة وإنتاج أنواع متعددة وعالية الجودة من المواد العطرية، كالمر واللبان والكندر واللادن والذريرة التي كان الطلب عليها عالياً في العالم القديم. ثالثاً: إشرافها على سواحل ممتدة بموانئها وخلجانها على البحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب، فتعاملت مع مناطق الإنتاج الأخرى في سواحل أفريقيا الشرقية ومع سواحل الهند الغربية، وكانت الوسيط التجاري في نقلها وتصديرها إلى أسواق العالم الخارجي في العراق وبلاد الشام ومصر واليونان وإيطاليا. فقد كانت تجارة الهند من دخون وتوابل ومنسوجات وما يتجمع في أسواقها من بضائع أخرى كحرير الصين وغيره، وكذلك منتجات شرقي إفريقيا من العاج والذهب وريش النعام وجلود النمور، بالإضافة إلى منتجات جنوب الجزيرة العربية نفسها، تتجمع كلها في جنوب الجزيرة ثم تنقل

عبر طرق برية تخترق الأراضي التي تشغلها المملكة حالياً في قوافل كبيرة من الجمال قد يصل عدد القافلة الواحدة إلى أكثر من ألفي بعير، حتى إن الكاتب اليوناني سترابو (عاش تقريباً من عام ٦٦ق.م-٢٤م) شبهها بالجيش. وكانت القافلة تسير في طرقها البرية وفق أنظمة وقوانين دقيقة ومتطورة أشار إليها الكاتب الروماني بليني المتوفى عام ٧٩م، فذكر أن هناك محطات تجارية تقف فيها القوافل يومياً، وفيها استراحات للمسافرين يتوافر فيها الماء والغذاء وأعلاف للجمال. فامتدت طرق القوافل من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها وتفرعت من الطرق الرئيسية طرق فرعية أخرى، منها ما اتجه شرقاً جنوب الخليج العربي ثم إلى العراق، ومنها ما اتجه جنوب بلاد مدين على ساحل البحر الأحمر الشرقي ثم إلى مصر، وهكذا امتدت طرق القوافل في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية من جنوبها إلى شمالها ومن شرقها إلى غربها ومن جنوبها إلى شمالها الشرقي وإلى شمالها الغربي، وكأنها شرايين دماء حاملة معها النمو والازدهار الاقتصادي للمناطق المارة بها.

وقد أدى ذلك إلى نماء عدد من المدن والقرى على طول امتداد هذه الطرق. ففي الجانب الغربي على الطريق الرئيسي المتجه إلى مصر وبلاد الشام ازدهرت مدن كثيرة، مثل نجران وجرش والطائف ومكة ويثرب ودادان (العلا) والحجر وقرية شمال غرب تبوك. كما ازدهرت موانئ الحوراء أملج وأكرا كومي (ميناء الوجه) ولوكه كومي (عينونة) على البحر الأحمر. وكذلك أزدهرت مدن أخرى على الطريق المتجه من نجران إلى إيران وبلاد الرافدين عبر نجد والمنطقة الشرقية، مثل قرية الفاو واليمامة والأفلاج وثاج وعين جاوان. كما ازدهرت أيضاً مدن أخرى على الطريق



طرق التجارة البرية والبحرية في الجزيرة العربية قبل الإسلام

المؤدية إلى سوريا، مثل تيماء ودومة الجندل، إلى جانب مدن وقرى أخرى في القصيم وحائل ووادي السرحان. ولم يقتصر النمو والازدهار على المدن والقرى بل أدى إلى نشوء إمارات وممالك عربية كان لها شأن بارز في العالم القديم، فظهرت مملكة كندة في وسط الجزيرة العربية، ومملكتا ديدان ولحيان في العلا، ومملكة الأنباط في الشمال والشمال الغربي، هذا إلى جانب ممالك وإمارات أخرى في منطقة الجوف وتيماء ومدين والمنطقة الشرقية على ساحل الخليج العربي. وهكذا انتشرت المراكز الحضارية في أنحاء مختلفة من المملكة العربية السعودية.

وقد أتاح النشاط التجاري لسكان هذه المناطق فرصة الاتصال بالأمم والشعوب الأخرى والتعرف على الأساليب والأنظمة السائدة في ميادين الحياة المختلفة، من زراعية وصناعية وعمرانية وثقافية. فبنيت السدود وحفرت الآبار للحصول على الماء، بل أنشئت القنوات التي تسحب المياه الجوفية لتجري عيوناً على سطح الأرض، فازدهرت الزراعة واتسعت رقعة الأراضي الخضراء وزادت الثروات الحيوانية التي أشارت إليها النصوص الآشورية، وبذلك توافر الغذاء وتحقق الثراء الذي أشار إليه الكاتب سترابو، وانعكس ذلك على فنونهم ومنحوتاتهم وجمال عمارتهم.

وبعد أن تحولت طرق التجارة من البر إلى البحر خلال القرون الأولى للميلاد، فقدت مدن القوافل الشهيرة كثيراً من مواردها المالية مما أدى إلى سقوط بعضها لتصبح أطلالاً بعد هجرها، بينما ظل البعض الآخر يجاهد في سبيل البقاء. ولأن التجارة أصبحت من المهن الأساسية للسكان فقد استمر شأنها الذي أصبح ضئيلاً في نطاق إقليمي صحراوي تتخلله الواحات الزراعية. فانتشرت الأسواق التجارية في بعض أنحاء مناطق الجزيرة العربية، في دومة الجندل، وفي اليمامة، وفي الأحساء، وفي قرح بوادي القرى، وفي عكاظ، وغيرها. وهي الأسواق التي اشتهرت في التراث العربي بأسواق العرب في الجاهلية وذلك لعدم اقتصارها على التبادل التجاري بل شملت كذلك التبادل الثقافي.

واستمرت الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية متردية لبضعة قرون حتى ظهر الإسلام وجعل من أقاليم الجزيرة العربية كلها ومصر وشمال أفريقيا وبلاد

الشام والعراق وإيران دولة واحدة، يحكمها نظام سياسي واحد. فأحدث ذلك تغيرات كبيرة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعادت الحياة إلى طرق القوافل التجارية القديمة التي تحولت إلى دروب لقوافل الحجاج من مصر وشمال أفريقيا وبلاد الشام ومن العراق وإيران ومن اليمن وعمان. وعاد الانتعاش الاقتصادي لكثير من المدن، بل وأدى إلى نشوء مدن وقرى أخرى على هذه الدُروب. واهتمت الحكومات الإسلامية الأموية والعباسية والأيوبية والمملوكية والعثمانية بهذه الطرق، فحفرت الآبار وأنشأت البرك لتوفير الماء وأقامت الاستراحات لخدمة الحجاج. حتى إذا ضعفت سلطة الخلافة وفقدت الحكومة المركزية قوتها السياسية والاقتصادية، فقدت لذلك قدرتها على فرض نفوذها على الجزيرة العربية، فأفل نجم كثير من هذه المدن والقرى لفقدان الأمن وتدهور الأحوال الاقتصادية بل تحول بعض منها إلى خرائب. وظلت الأوضاع على هذه الحال حتى قامت المملكة العربية السعودية وجعلت من معظم أجزاء الجزيرة العربية دولة واحدة، فعاد الأمن والاستقرار وعاد معه الازدهار الاقتصادي والحضاري.

طرق الحج

أما طرق الحج إلى الأراضي المقدسة فمتعددة وتضم عدة طرق رئيسية ساعدت طوال العصور التاريخية على ارتياد المسلمين الأراضي المقدسة بسهولة ويسر. كما تواصلت عناية الخلفاء والملوك والأمراء بهذه الطرق وتعميرها، حتى تظل عامرة بالحجاج والمعتمرين والزوار إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف.

تعددت طرق الحج إلى الأراضي المقدسة من مختلف بلاد العالم الإسلامي سواء من الشام والكوفة والبصرة ومصر واليمن وعمان أو غيرها من بلاد العالم الإسلامي.

طريق الحج الشامي. طريق الحج الشامي أقدم طريق بعد طريق مكة-المدينة، سارت عليه قوافل الحجاج المسلمين إلى الأراضي المقدسة، وهو الطريق الذي يربط دمشق بالمدينة المنورة. ويبلغ طول الطريق حوالي ١٣٠٧ كم، وتتفرع منه طرق فرعية أهمها طريق تيماء الذي يتفرع من مسار الطريق الشامي الرئيسي بعد تبوك ويتجه إلى المدينة مروراً بتيماء وخيبر، وطريق المعرقة الذي يصل بين ينبع ومحجة الشام مروراً بالعيص.

وطريق الحج الشامي نال درجات متفاوته من الاهتمام والرعاية من قبل

الحكام المسلمين، كما طرأت على مساراته ومحطاته خلال العصور الإسلامية تغييرات متعددة تبعاً للأحداث التاريخية التي شهدتها المناطق التي يمر بها الطريق داخل الجزيرة العربية وخارجها. ولذلك فإن تاريخ هذا الطريق يمكن تقسيمه إلى خمس مراحل تاريخية.

المرحلة الأولى: وتمتد من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وتشمل عصر الخلفاء الراشدين وعصر بني أمية وجزءاً كبيراً من العصرين العباسي والفاطمي. وقد عرف الطريق في بداية هذه المرحلة باسم التبوكية نسبة إلى تبوك التي كانت من أهم منازله. وكان مسار الطريق في هذه الفترة يمر بعد دمشق على عدد من المنازل منها: الصنمين، وأذرعات، والقسطل، ومعان، والحفير، وسرغ التي تعرف اليوم باسم المدورة، ثم يدخل بعد ذلك إلى أرض الحجاز ويمر تباعاً على تبوك، ثم المحدثة، ثم الأقرع، ثم الجنينة، ثم الحجر، ثم يصل إلى مدينة وادي القرى ثم يمر على مدن السقيا والرحبة وذي المروة، ثم يمر على منزل المر، ثم منزل السويداء، ثم منزل ذي خشب، حتى يصل إلى المدينة المنورة.



خريطة لطريق الحج الشامي خلال العصور: الأموي والعباسي والفاطمي

وخلال هذه المرحلة شهد الطريق الشامي ازدهاراً عظيماً في عمارته، خاصة في عهد الخلفاء الراشدين وفي عهد بني أمية الذي يعد العهد الذهبي لهذا الطريق. وتشير المصادر التاريخية إلى عمارة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب لعين تبوك، وقد أمر بطيها بعد أن كادت تدفنها الرمال، وعمارة والي المدينة الأموي عمر بن عبدالعزيز لمسجد الرسول بتبوك، ومسجد وادي القرى وهما من مساجد الطريق. كما تشير المصادر إلى قيام الخليفة الأموي



كتابات تذكارية على طريق الحج الشامي، يعود تاريخها إلى القرن الأول الهجري وبداية الثاني – جنوب تبوك

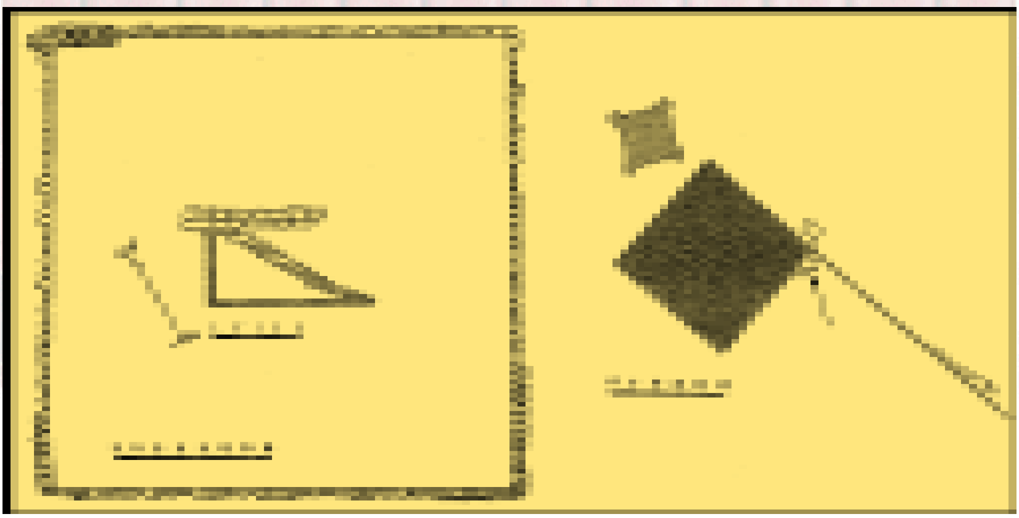
الوليد بن عبدالملك بوضع المنار، وإقامة البرك والصهاريج والقنوات على طريق مكة. وما تزال بعض آثار العمائر الأموية باقية على أجزاء الطريق الشامي الواقعة في بلاد الشام. كما توجد على أجزائه الواقعة في المملكة نقوش تذكارية كثيرة يعود تاريخها إلى العصر الأموي، خاصة في المنطقة الواقعة بين تبوك والعلا.

وخلال العصرين الأموي والعباسي تحولت بعض مناهل المياه الواقعة على مسار الطريق في الجزيرة العربية، إلى قرى صغيرة ومدن آهلة بالسكان طوال العام مثل: معان، وتبوك، والمحدثة التي تقع في وادي الأخضر، ومثل مدن وادي القرى: العلا، وقرح، والسقيا والرحبة، وذي المروة.

المرحلة الثانية: فترة الوجود الصليبي في جنوب الأردن. وهي مرحلة قصيرة من عمر الطريق الشامي تزيد قليلاً عن سبعين عاماً، وتبدأ من بداية القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي) وتنتهي بسقوط قلعة الكرك في يد المسلمين سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م. وخلال هذه المرحلة تمكن الصليبيون من السيطرة على منطقة وادي عربة والصحراء الممتدة من جنوب البحر الميت حتى خليج العقبة، وقطعوا الطرق البرية التي تربط بين مصر وكلٍّ من الشام والحجاز. وقد اضطرب الأمن على أجزاء الطريق الشامي الواقعة في بلاد الشام، خاصة جزء الطريق الواقع في جنوب الأردن بالقرب من قلعتي الكرك والشوبك،

حيث كان الصليبيون يهاجمون القوافل السائرة على الطريق من هاتين القلعتين ويقتلون الحجاج ويسلبونهم ويأسرونهم في بعض الأحيان، مما اضطر حجاج الشام إلى تغيير مسار طريقهم والابتعاد إلى الداخل، أو السفر إلى العراق ومرافقة حجاجه إلى الأراضي المقدسة. ولم ينجح الصليبيون في إيقاف حركة الحجاج على الطريق الشامي إيقافاً تاماً مثل نجاحهم في إيقافها على مسار الطريق المصري الساحلي بعد أن استولوا على ميناء العقبة سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م.

المرحلة الثالثة: فترة حكم الدولة الأيوبية. وتبدأ بحكم صلاح الدين الأيوبي وتمتد إلى نهاية عصر الدولة الأيوبية، ويمكن اعتبار سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م بداية لها. فقد اجتمع بالشام في تلك السنة التي فتح فيها بيت المقدس، جمع عظيم من الحجاج، قدموا من مختلف البلاد الإسلامية ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس، بعد عودته إلى لواء الإسلام، والحج إلى بيت الله الحرام. فأمّر عليهم صلاح الدين أميراً يسير بهم إلى مكة. وبعد عهد صلاح الدين استمرت عناية الأيوبيين بشؤون الحج الشامي وطريقه، خاصة حكام دمشق. ويعد الملك المعظم عيسى بن أيوب أكثر حكام دمشق اهتماماً بطريق الشام، وكان والده قد ضم إليه الكرك والشوبك وتبوك والعلا، أي كامل الديار الواقعة بين دمشق والمدينة. فحج الملك المعظم سنة ٦١١هـ/ ١٢١٥م من دمشق وسار على طريق تبوك



مسقط أفقي لبركة المُعظم إحدى برك العصر الأيوبي على طريق الحج الشامي – جنوب تبوك

وأمر ببناء بركة المعظم الواقعة جنوب تبوك، وبرك أخرى تنسب إليه وتقع في جنوب الأردن. وفي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م سيّر من مسح الطريق بين دمشق وعرفات، وأمر بإصلاح وتسهيل مواضع كانت وعرة كثيفة الصوان، وأكثر من وضع الميرة للحجاج في الكرك والشوبك وتبوك والعلا والمدينة.

وقد وصف طريق الحج الشامي في تلك الفترة ابن شجاع الدمشقي الذي حج سنة ٦٢١هـ/ ١٢٤٤م وعَدَّد منازل الطريق بين دمشق والمدينة. وفي ضوء ما ذكره نلاحظ تغير مسار الطريق بين العلا والمدينة وظهور مسار جديد يمر على شعيب النعام وهدية، وتوقف استخدام المسار القديم الذي كان يمر بالسقيا والرحبة وذي المروة.

وتنحصر آثار الطريق الشامي الباقية في الأراضي السعودية من فترة العصر الأيوبي حتى الآن، في بركة المعظم الواقعة جنوب تبوك.

المرحلة الرابعة: تبدأ خلال العصر المملوكي. وتمتد هذه المرحلة من منتصف القرن السابع إلى بداية القرن العاشر الهجريين (الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين). وقد استمر مسار الطريق خلال العصر المملوكي على ما كان عليه في العصر الأيوبي، ولم تتغير منازله. وتزودنا كتابات الرحالة الحجاج ممن سافروا على هذا الطريق في تلك الفترة بمعلومات أكثر من ذي قبل عن مسار الطريق الشامي ومحطاته. وممن سار على الطريق الشامي في بداية العهد المملوكي ابن رشيد الذي حج سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٨٦م، ووصف في كتابه ملء العيبة قافلة الحج الشامي في تلك السنة، وقدر عددها بستين ألف راحلة، من غير الخيل والبغال والحمير. كما وصف ابن رشيد رحيل الحجاج من دمشق، وخروج الناس لوداعهم، وحرارة ذلك الوداع، وتحدث عن بعض منازل الطريق بين دمشق والمدينة، مثل بصرى والأزرق وجفار المعظم وتبوك ووادي الأخضر والحجر ومبرك الناقة والعلا.

أما الرحالة الشهير ابن بطوطة فقد سار على الطريق الشامي لما حجّ سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م. وذكر في رحلته منازل الطريق الشامي بتفصيل أكثر مما فعل ابن رشيد ورتبها على النحو التالي:

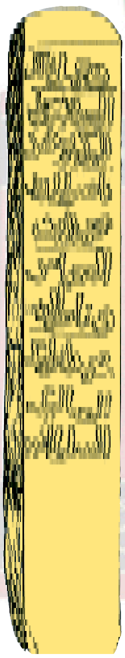
دمشق، الكسوة، صنمين، زرعة، بصرى، زيزا، اللجون، الكرك، معان، عقبة الصوان، ذات حج، وادي بلدح، تبوك، الأخيضر، بركة المعظم، مبرك الناقة، الحجر، العلا، وادي العطاس، هدية، المدينة.



خريطة لطريق الحج الشامي خلال العصور:
الأيوبي والمملوكي والعثماني

وبعد ابن بطوطة سار على الطريق الشامي الرحالة البلوي الذي حج في سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م، وقد دون البلوي في رحلته تاج المفرق وصفاً لمسار الطريق وذكر بعض محطاته.

وبين الآثار الباقية لطريق الحج الشامي منشآت أشارت المصادر إلى وجودها على الطريق خلال العصر المملوكي، كعين تبوك والبرك المقامة عليها، وبئر الأخضر، وبركة المعظم، وحصن العلا. ومعظم هذه الآثار أنشئت على الطريق قبل العصر المملوكي. كما أن منها ما خضع لأعمال صيانة وترميم خلال العصر المملوكي، مثل بركة المعظم التي رممت في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥-١٣٦٦م بأمر من الأمير يلبغا الأشرفي أتابك العساكر في عصر السلطان الأشرف شعبان، وقد سجلت أعمال الترميم على مسلتين حجريتين عثر عليهما بقرب البركة.



نقش يؤرخ لترميم بركة المُعظم في عصر
السلطان المملوكي الأشرف شعبان

المرحلة الخامسة: خلال العصر العثماني. وقد نال طريق الحج الشامي اهتماماً خاصاً من لدن السلاطين العثمانيين ونوابهم في دمشق لأنه الطريق الذي يربط عاصمة الدولة العثمانية بمكة المكرمة. ويتجلى هذا الاهتمام في كثرة ما أنشئ على مسار الطريق من برك وآبار وقلاع وجسور، ابتداءً من عصر السلطان سليم الأول حتى نهاية الدولة العثمانية. ففي عهد السلطان سليم أنشئت على جزء الطريق القريب من دمشق ثلاث قلاع، هي: قلعة صنمين وقلعة مزيريب وقلعة تل فرعون. وفي عهد خلفه السلطان سليمان القانوني أقيمت على مسار الطريق خمس قلاع جديدة هي: قلعة ذات الحاج، وقلعة تبوك، وقلعة الأخضر، وقلعة القطرانة، وقلعة معان، كما أصلحت برك تبوك وذات الحاج والمعظم. وفي عهد السلطان مراد الثالث أضيفت قلعتان أخريان على الطريق، إحداهما في محطة هدية الواقعة بين العلا والمدينة، والأخرى في محطة عنيزة الواقعة في جنوب الأردن. وفي عهد السلطان أحمد الأول أنشئت بئر بجانب قلعة الصُورة الواقعة بين العلا وهدية. وفي عهد السلطان عثمان الثاني أقيمت قلعة في محطة المعظم. وفي عهد السلطان محمد الرابع جددت عمارة قلعة تبوك سنة ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٤م، وفي عهد السلطان أحمد الثالث جددت قلعة هدية وحفرت بئر في محطة الفحلتين الواقعة بين هدية والمدينة، كما أقيم برج صغير على برك الأخضر.



قلعة الصُورة، إحدى القلاع العثمانية على طريق الحج الشامي جنوب العلا

وفي عهد هذا السلطان (أحمد الثالث) أسندت إمارة الحج الشامي ورعاية شؤون الطريق الشامي إلى حاكم دمشق. وابتداءً من عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م، أصبح حاكم دمشق يجمع بين ولاية دمشق وإمارة الحج، ومسؤولية عمارة طريق الحج الشامي، وصيانة منشآته القائمة. وكانت إمارة الحج الشامي قبل هذا التاريخ ولاية مستقلة يعين فيها السلطان كل عام باشا برتبة لواء.

وفي عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، وفي ولاية عبداللطيف صبحي باشا على دمشق سحبت إمارة الحج الشامي من حاكم دمشق، وأسندت إلى أمير مستقل.

وخلال العصر العثماني سار على درب الحج الشامي عدد من الرحالة الحجاج، وسجلوا في مؤلفاتهم أوصافاً لمساراته ومنازله. من هؤلاء ابن طولون الذي حج سنة ٩٢٩هـ، والموسوي المدني الذي حج سنة ١٠٣٩هـ، والخياري الذي حج سنة ١٠٨٠هـ، والزياني الذي حج سنة ١٢٠٨هـ، والتونسي الذي حج سنة ١٣٠٠هـ.

ومع بداية القرن العشرين الميلادي أمر السلطان عبدالحميد الثاني بتنفيذ سكة حديد الحجاز التي ربطت دمشق بالمدينة



خريطة توضح مسار سكة حديد الحجاز ومحطاتها

المنورة. وقد شُرع في تنفيذ هذا المشروع في سبتمبر سنة ١٩٠٠م. ووصل أول قطار إلى المدينة المنورة في ٢٢ أغسطس سنة ١٩٠٨م، وبلغ طول الخط من دمشق إلى المدينة ١٣٠٢كم، وجعل عرضه ١٠٥سم فقط. وأقيمت عليه محطات كثيرة بأحجام مختلفة، منها ست عشرة محطة على مسار السكة بين تبوك والعلا، وست عشرة محطة أخرى

على قطاع الخط الممتد بين العلا والمدينة. وما تزال هذه المحطات باقية على مسار الطريق إلى جانب آثار القلاع والبرك والآبار التي أقيمت طوال العصر العثماني.

طريق الحج الكوفي. طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة من أهم الطرق في العصر الإسلامي. وقد عرف هذا الطريق فيما بعد باسم درب زبيدة، نسبة إلى السيدة زبيدة بنت جعفر زوج الخليفة هارون الرشيد المتوفى سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م. وكان للسيدة زبيدة أعمال كثيرة في إقامة بعض المنشآت على هذا الطريق وفي مكة المكرمة. ومن أهم أعمالها حفرها عين زبيدة التي ما تزال آثارها باقية حتى اليوم.

وفي عصر ما قبل الإسلام كان مسار هذا الطريق يربط الحيرة القريبة من الكوفة بالحجاز، إذ كانت القوافل التجارية من مكة والمدينة تتجه إلى الحيرة عبر هذا الطريق. وكان على الطريق مناهل للمياه قبل الإسلام توقف عند بعضها الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص قبل دخوله العراق. ومن هذه المناهل: زرود والثعلبية وشرف والعذيب والقادسية.

غير أن الطريق انتظم استخدامه بعد فتح العراق وانتشار الإسلام في المشرق الإسلامي، فتحولت مناهل المياه وأماكن الرعي والتعدين على الطريق إلى محطات رئيسية. وبدأ الطريق يزدهر بالتدريج منذ عصر الخلافة الراشدة حتى العصر الأموي. وبانتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق في العصر العباسي، أصبح الطريق حلقة اتصال مهمة بين عاصمة الخلافة في بغداد والحرمين الشريفين وبقية أنحاء الجزيرة العربية حتى اليمن. وأعطى خلفاء بني العباس جلّ اهتمامهم لتأمين طرق المواصلات، وبالأخص طريق الكوفة–مكة. ويأتي في مقدمة هؤلاء الخلفاء: أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد. وأضاف من جاء بعدهم من الخلفاء إنشاءات جديدة، كما صانوا المنشآت القديمة على الطريق. وكذلك كان للأمراء والوزراء والقادة والوجهاء إصلاحات أخرى كثيرة على الطريق.

وقد سجل المؤرخون المسلمون بعض إصلاحات خلفاء بني العباس، كما رصد الجغرافيون المسلمون مسار الطريق من بغداد إلى الكوفة ومنها إلى مكة المكرمة. ورصدوا أيضاً المحطات والمنازل التي كانت قائمة في العصور الإسلامية المبكرة، بالإضافة إلى ذكر تفرعات الطريق الأخرى المتجهة إلى مكة أو

المدينة، أو تلك التي تربط طريق الكوفة مع طرق أخرى من خارج الجزيرة العربية ومن داخلها. وفي ضوء المعلومات الواردة في المصادر التاريخية والجغرافية نجد أن الطريق خُطِّطَ مساره بطريقة علمية وهندسية متميزة، إذ حددت اتجاهاته وأقيمت على امتداده المحطات والمنازل والاستراحات، ورصفت أرضيته بالحجارة في المناطق الرملية والموحلة، ونظف من الجلاميد الصخرية والعوائق في المناطق الوعرة والصخرية. وزود الطريق بالمرافق الضرورية من منشآت مائية، كالسدود والآبار والبرك، وأقيمت على امتداده العلامات التي توضح مساره كالأعلام والمنارات والأميال (أحجار المسافة) والصُّوى والمشاعل والمواقد ليهتدي بها المسافرون ليلاً ونهاراً.

وقد تحدث المؤرخون المسلمون عن الإصلاحات التي قام بها خلفاء بني العباس الأوائل: ففي عهد أبي العباس السفاح تذكر المصادر في حوادث سنة ١٣٤هـ/ ٧٥١م أنه ضُرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة، وعن إصلاحات المهدي سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧م تذكر المصادر أن المهدي أمر ببناء القصور في طريق مكة فكانت أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زبالة. وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل، وبتحديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع، وولَّى ذلك يقطين بن موسى، فلم يزل ذلك إليه حتى سنة إحدى وسبعين ومائة، وكان خليفة يقطين في ذلك أخاه موسى.

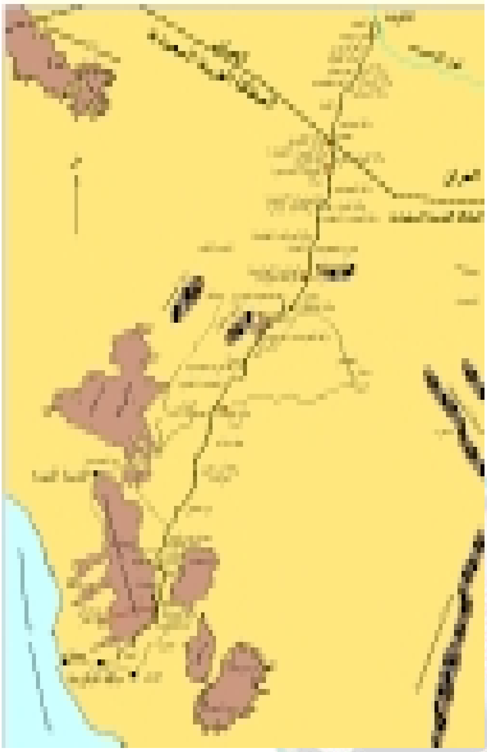
وأوردت المصادر الجغرافية المبكرة إشارات عديدة إلى المواقع والمرافق التي تولى إنشاءها بعض الخلفاء والأمراء والوزراء والأعيان. وتذكر المصادر أن الخلفاء والأمراء كانت لهم مبانٍ وقصور خاصة بهم ينزلونها عند زيارتهم للأماكن المقدسة. ومن أبرز الخلفاء العباسين الذين سافروا على هذا الطريق أبو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد، وقد أدى الرشيد فريضة الحج سبع مرات طوال فترة خلافته (١٧٠هـ-١٩٣هـ/ ٧٨٦م-٨٠٩م) وبهذا يكون قد قطع في رحلاته بين بغداد ومكة ما يقارب ٥٦٩٨ ميلاً (٩٦٨٦,٦ كم) وكان في بعضها يحج ماشيًا، وكان لطريق الحج من الكوفة إلى مكة عمال (ولاة) يشرفون على الطريق ويتعهدونه بالصيانة والإعمار أولاً بأول.

وقد رصد الجغرافيون المسلمون ٢٧ محطة رئيسية على الطريق من الكوفة

إلى مكة، و٢٧ محطة ثانوية تسمى كل واحدة منها مُتَعَشًّى وهي محطة استراحة تقام بين كل محطتين رئيسيتين. هذا غير المرافق الأخرى التي كانت تضاف على امتداد الطريق.

ويمكن رصد المحطات الرئيسية والمنازل الواقعة على الطريق من الكوفة إلى مكة على النحو التالي:

الكوفة–القادسية (١) العذيب–وادي السباع/ وادي سعد (٢) المغيثة–مسجد سعد (٣) القرعاء–الطرف (٤) واقصة–القبيبات/ السماء (٥) العقبة–الجلحاء (٦) القاع–الجريسى (٧) زبالة–التنانير (٨) الشقوق–ردان/ درين (٩) البطان–المهلبية (١٠) الثعلبية–الغميس/ العين (١١) الخزيمية/ زرود–بطن الأغر/ الأغر (١٢) الأجفر–القرائن (١٣) فيد–القرنتين (١٤) توز–الفحيمة (١٥) سَميراء–العباسية (١٦) الحاجر–قرورا (١٧) معدن النقرة–السمط (١٨) مغيثة الماوان–أديمة/ أورعة (١٩) الربذة–الروثة (٢٠) السليلة–الضبّة/ السنجة (٢١) العُمَق–الصفحة (٢٢) معدن بني سليم–عقبة الكراع/ الكيرانة (٢٣) أفاعية–الكبوانة/ الكبرانة (٢٤) المسْلح–القصر (٢٥) الغمرة–أوطاس (٢٦) ذات عرق–غمر ذي كندة (غمرة)



خريطة توضح مسار درب زبيدة من الكوفة إلى مكة المكرمة

(٢٧) بستان بني عامر–مشاش. مكة المكرمة.

وهناك طرق فرعية أخرى منها طريق معدن النقرة–المدينة ويبلغ امتداده حوالي ١٥٦ ميلاً (٢٦٥ كيلومتراً تقريباً).

ومحطاته على النحو التالي: معدن النقرة–العسيلة–المحدث–بطن نخل–الحصين–المكحولين–السقرة–الطرف–الركابية–المدينة. ويوجد طريق فرعي آخر تسلكه القوافل من معدن بني سليم (مهد الذهب) عبر الحافة الشرقية لحرة رهاط

مروراً على صفينة وحاذة ثم المسلح. ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في معدن النقرة الذي يصل إليه من النباج أو يتجه محاذياً له حيث يلتقي الطريقان في ذات عرق.

ويتضح من المصادر التاريخية والجغرافية أن طريق الكوفة–مكة بلغ أوج ازدهاره في العصر العباسي المبكر، ثم تعرض لهجمات القبائل في فترات متعددة. وفي أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري تعرضت محطات الطريق لتخريب القرامطة وتدميرهم وتعطلت بسبب ذلك المنشآت المائية. وكانت هذه العوامل مجتمعة من أسباب اندثار معالم الطريق. وبسبب الخلل الأمني توقف الحجاج عن استخدام الطريق إلا عند توافر الحماية العسكرية، وفي مواسم الحج فقط، خلافاً لما كان عليه الحال في العصور المبكرة عندما كان الطريق يسلك كثيراً دون حماية أمنية.

غير أن تعطل الطريق تعطلاً شديداً حدث بعد سقوط بغداد في يد المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، إذ لم يعد الطريق مسلوكا إلا في فترات متقطعة. كما انقطع سلوك أجزاء الطريق من معدن النقرة حتى مكة نهائياً منذ أواخر القرن الرابع الهجري. واندثرت شيئًا فشيئاً معظم محطات الطريق فأصبحت المحطات والمنازل أطلالاً دارسة. وبقيت بعض الآبار والبرك صالحة للاستعمال، ولكن الغالبية العظمى منها دفنتها الرمال.

وعلى الصعيد الأثري رصدت الآثار الباقية على الطريق والمواقع الأثرية والمنشآت المائية وآثار الرصف والتمهيد والأعلام. كما عثر على أمثلة من أحجار المسافة (الأميال) التي توضح المسافة بقياس البريد والميل، وعثر على شواهد أثرية توضح إصلاحات الخليفة المهدي العباسي وأعمال الصيانة والتجديد في عهد الخليفة المقتدر بالله.

وتشكل الأعلام دلالة واضحة على تحديد مسار الطريق، وما تزال آثارها باقية، فقد بنيت الأعلام بالحجارة، على شكل أبراج دائرية في معظمها، وترتفع عن سطح الأرض بمقدار ثلاثة أمتار بحيث يمكن مشاهدتها من بعد. ووضعت الأعلام على مسافات محددة بحيث تكون المسافة بين العَلَم والآخر حوالي الميل، وأحياناً يقترب بعضها من بعض بقدر نصف الميل. وتكثر الأعلام بالقرب من المحطات الرئيسية التي تتفرع منها الطرق، وبالقرب من مواضع الآبار والبرك، ويمكن مشاهدة عشرات الأعلام



علم على طريق درب زبيدة بين العمق ومهد الذهب

على امتداد الطريق وقد تساقط بعضها على شكل أكوام حجرية.

وكشفت المسوحات والحفريات الأثرية عن أنماط من القصور والتحصينات والمنازل والمساكن والمساجد في محطات الطريق. وكانت تخدم سكان هذه المناطق وقوافل الحجاج والتجار والمسافرين الذين يتوافر لهم في هذه الأماكن ما يحتاجون إليه من مأكل ومشرب وأوانٍ وأعلاف لدوابهم. كما كانت الأسواق قائمة في كثير من محطات الطريق. ومن أشهر المواقع الأثرية التي كانت محطات رئيسية كبيرة على الطريق: زبالة والثعلبية وفيد وسميراء والنقرة والربذة ومعدن بني سليم.

وقد أوضحت الدراسات الأثرية أن المنشآت المعمارية على طريق حج الكوفة- مكة تمثل نمطاً معمارياً فريداً للعمارة الإسلامية المبكرة في الجزيرة العربية، ويتمثل ذلك في أسلوب التخطيط المعماري والوظائف المختلفة، كما تميزت المباني بسماكة الجدران والأبراج. وقد أضفى وجود خزانات لحفظ المياه للشرب داخل المنازل وخارجها على هذه المواقع أهمية أخرى لاستقطاب المسافرين، كما اشتملت المحطات على الأسواق والحمامات العامة وغيرها.

وأقيمت على امتداد الطريق برك للمياه حفرت وبنيت على مسافات متفاوتة، بعضها بالقرب من المحطات والمنازل وبعضها في أماكن نائية عنها. وما تزال معظم تلك البرك واضحة للعيان بمعالمها وتفاصيلها المعمارية الدقيقة، وبعضها



صورة جوية لبركة الربذة، تظهر فيها المصفاة

طمرته الرمال. وتتنوع مساحات البرك وأشكالها، إذ صُمم بعضها بشكل دائري، وبعضها جاء مربعاً ومستطيل التخطيط. ولبعض البرك أحواض ترسيب، ودعمت جدران البرك من الداخل بأكتاف نصف دائرية أو نصف مربعة للحفاظ عليها من ضغط السيول التي تصب بداخلها.

وقد جاء تصميم بعض البرك مُدرجاً على امتداد الواجهات من الداخل، كما زودت البرك بقنوات وسدود تجلب إليها مياه السيول والأمطار من الأودية المجاورة لها. ويدل بناء هذه البرك على براعة المسلمين الأوائل في العمارة والخبرة الجيدة في إقامة الإنشاءات المائية.

أقدم المهندسون على تحديد مسار الطريق بشكل مستقيم بصفة عامة. فالطريق يجتاز مختلف الأراضي: السهلية المستوية والوعرة الخشنة، والصحاري المقفرة حتى يصل إلى جبال الحجاز ذات التضاريس الصعبة التي تخترقها الأودية الضيقة والعميقة. وقد أمكن تسهيل الطريق بقطع الممرات بين الثنايا والجبال وحماية مسار الطريق بجدران على جانبيه. ووضعت مدرجات عريضة في مواضع الصعود والنزول في المناطق الجبلية الوعرة. وقد برع المهندسون في رسم الطريق بتفادي مساقط السيول الجارفة، وتدل آثار التمهيد والرصف على خبرة المهندسين المسلمين في تحديد ورسم الطرق في العصور الإسلامية المبكرة.

يصل طول الطريق من الكوفة حتى مكة المكرمة إلى حوالي ٧٥١ ميلاً

(١٢٧٦,٧كم) منها ١٣٤ ميلاً (٢٢٧,٨كم) في العراق، وباقي الطريق يمتد في الأراضي السعودية من العقبة شمالاً وحتى مكة بمسافة ٦١٧ميلاً (حوالي ١٠٤٨,٩كم). وتوضح المعثورات الفخارية والخزفية والزجاجية والعملات والكتابات والنقوش مراحل استخدام الطريق، خاصة في العصور الإسلامية الأولى. وقد عثر على أعداد كثيرة من النقوش الإسلامية في مواضع متفرقة على امتداد الطريق وبالقرب منه، مثل مواقع: الربذة، معدن بني سليم، ذات عرق، وعلى مشارف مكة. كما عثر على نقوش وكتابات إسلامية في الحناكية والصويدرة والسوارقية، وحاذة، وصفينة، وبعض هذه النقوش مؤرخة من العصر الأموي حتى القرن الثالث الهجري.

طريق الحج البصري. تأسست مدينة البصرة سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م بعد الفتح الإسلامي للعراق، وارتبطت بطريق مباشر مع مكة المكرمة، هو من أهم الطرق في العصر الإسلامي المبكر. ويبدو أن أهمية طريق البصرة تركزت في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في ذات عرق، ويلتقي الطريقان أيضاً في معدن النقرة الذي يرتبط في هذه المحطة منطلقاً من النباج (الأسياح).

وورد ترتيب محطات طريق البصرة عند الجغرافيين المسلمين على النحو التالي: البصرة-المنجشانية ١٠ أميال، المنجشانية-الحفير ١٠ أميال، الحفير-الرحيل ٢٨ ميلاً، الرحيل-الشجي ٢٩ ميلاً، الشجي-الخرجاء ٢٣ ميلاً، الخرجاء - حفر أبي موسى ٢٦ ميلاً، حفر أبي موسى - ماوية ٣٢ ميلاً، ماوية-العشر ٢٩ ميلاً، العشر-الينسوعة ٢٣ ميلاً، الينسوعة-السمينة ٢٩ ميلاً، السمينة-النباج ٢٣ ميلاً، النباج-العوسجة ١٩ ميلاً، العوسجة-القريتين ٢٢ ميلاً، القريتين-رامة ١٨ ميلاً، رامة-إمّرة ٢٧ ميلاً، إمّرة-طخفة ٢٦ ميلاً، طخفة-ضرية ٢٨ ميلاً، ضرية-جديلة ٣٢ ميلاً، جديلة-فلجة ٣٥ ميلاً، فلجة-الدفينة (قديماً: الدثينة) ٢٦ ميلاً، الدفينة-قبا ٢٧ ميلاً، قبا-الشبيكة ٢٧ ميلاً، الشبيكة-أوطاس، الشبيكة-مران ٣ أميال، مران-ذات عرق ٢٧ ميلاً.

ويعدل طريق البصرة من النباج إلى طريق الكوفة، مروراً بالعيون ثم إلى عنّاب ثم معدن النقرة.



خريطة لمسار طريق الحج من البصرة إلى مكة المكرمة

ويلاحظ في كتابات الجغرافيين المسلمين قلة المعلومات التفصيلية عن طريق البصرة. ولعل السبب في ذلك أن معظم الجغرافيين عاش في القرن الثالث الهجري، وهي الفترة التي كان التركيز فيها على طريق الكوفة أكثر من طريق البصرة. ومع ذلك لم يكن هذا الطريق بمنأى عن اهتمام الخلفاء المسلمين الأوائل.

ويجتاز طريق البصرة إلى مكة مناطق صحراوية وسهلية، ومناطق وعرة تخترقها الأودية الواسعة والضيقة، كما يمر بمواقع صالحة للرعي والزراعة. وقد أنشئت في بعض محطاته العيون والقنوات والسدود التي كانت تستخدم للزراعة. وكان الصحابي عبدالله بن عامر بن كريز من أوائل من أجرى عيوناً في النباج، وهي نباج ابن

عامر وتسمى اليوم بالأسياح وقاعدتها عين ابن فهيد.

ويذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي عند عودته من الحج أجرى إصلاحات على طريق البصرة، وأمر بوزن مياه الطريق فلم يجد أخف من مياه ماويّة. وكان للطريق في عهد بني العباس ولاة يتعهدونه بالعمارة والإصلاح، فيذكر أن والي البصرة وطريق مكة محمد بن سليمان رصف أجزاء من الطريق بالقرب من الدفينة بسبب كثرة الوحل عند سقوط الأمطار. وبالقرب من عيون الجوى (عين قو) أقيمت قنطرة على أحد الأودية التي يجتازها الطريق.

ويصل طول طريق البصرة-مكة حوالي ١٢٠٠كم، ويمتد أكثره داخل الأراضي السعودية بحوالي ١٠٠٠كم. وما تزال بعض محطاته القديمة محتفظة بأسمائها حتى اليوم، ومن هذه المواقع: حفر أبي موسى (في موضع حفر الباطن الآن) ورامة وإمرة وطخفة وضرية والدفينة.

أما آثار الطريق فنشاهدها إلى اليوم في عدد من المواقع، ففي الأسياح (عين ابن فهيد) توجد أطلال قصر مارد، وهو مبنى كبير مشيد بالحجارة لا زالت أطلاله باقية، ويظهر منها بقايا عقود نصف دائرية وغرف الجلوس، وبالقرب منه آثار العيون والقنوات القديمة وبركة



صورة جوية لبركة الخرابة التي تمثل أنموذجاً لعمارة المياه المتطورة عند المسلمين – طريق البصرة



جانب من بركة الخرابة

السد. وفي طخفة بركة وآبار وأحواض، وفي ضرية لا تزال آثار البلدة القديمة باقية إلى اليوم، بالإضافة إلى العيون والبرك. كما تشاهد آثار الأعلام (الرجوم) المتراكمة على امتداد الطريق، خاصة في المناطق السهلية المستوية. ويلاحظ أن بعض محطات الطريق استمر فيها أو بالقرب منها الاستيطان الحضاري بسبب توافر المياه والمناطق الرعوية، كما أن بعضها اختفت معالمها تحت الكثبان الرملية. ومن المحطات المهمة على طريق البصرة، بركة الخرابة الواقعة عند التقاء الطريق مع طريق الكوفة بالقرب من ذات عرق، وهي بركة دائرية مدرجة من أعلاها إلى أسفلها وتجاورها بركة مربعة مدرّجة أيضاً، بينهما على مستوى سطح الأرض غرفة للمراقبة مقببة ولها أبواب ذات عقود نصف دائرية. ويمر من تحت مستوى الغرفة قناتا تصريف للمياه من البركة المربعة (المصفاة) إلى البركة الدائرية. وتصل المياه إلى البركة بواسطة قناة أرضية مسقوفة تمتد من وادي العقيق لمسافة ١٥كم تقريباً. وبالقرب من هذه النقطة توجد بركة العقيق الواقعة في محطة غمرة المشهورة.

ولا يُستبعد أن بركة الخرابة كانت تخدم المسافرين القادمين من البصرة والكوفة على حد سواء.

طريق الحج المصري. الطريق المصري أحد طرق الحج المهمة في تاريخ الإسلام، وهو الطريق البري الذي يربط مصر بمكة المكرمة والمدينة المنورة. وعلى هذا الطريق كانت تسير جموع الحجاج القادمة من ولايات الإسلام الغربية: مصر وبلاد السودان ووسط أفريقيا وبلاد المغرب والأندلس وصقلية، فكان الحجاج يجتمعون في مصر ثم يسيرون في قافلة واحدة تحت القيادة العامة لأمير الحج المصري. فتعبر قوافلهم شبه جزيرة سيناء إلى أن تصل إلى خليج العقبة، ثم تطأ الجزء الشمالي من الحجاز وتسلك أكثر من مسار واحد حتى تصل إلى المدينة أو مكة.

وعلى طوال فترات التاريخ الإسلامي نال طريق الحج المصري رعاية الحكام

المسلمين الذين حكموا مصر. وقد اختلفت درجة هذه الرعاية من عصر إلى آخر، لذلك فإن تاريخ الطريق المصري يمكن تقسيمه إلى خمس مراحل تاريخية مختلفة هي على النحو التالي:

المرحلة الأولى: طريق الحج المصري خلال الفترة الإسلامية المبكرة. وتمتد هذه المرحلة خلال الفترة الإسلامية المبكرة قرابة أربعة قرون ونصف من الزمان، تبدأ مع الفتح الإسلامي لمصر وتنتهي في الخمسينيات بعد الأربعمائة، وتشمل هذه المرحلة عصر بني أمية، والعصر العباسي، وعصري الدولتين الطولونية والإخشيدية، وجانباً كبيراً من العصر الفاطمي. وخلال هذه المرحلة كان حجاج مصر ومن رافقهم يعبرون الجزء الشمالي من شبه جزيرة سيناء، بين رأس خليج السويس ورأس خليج العقبة، ويمرون في طريقهم على عدد من المنازل، منها: الجب، والبويب، وعجرود، والقلزم، ونخل، حتى يصلوا إلى أيلة على خليج العقبة. وكانت قوافل الحجاج تمضي بأيلة بعض الوقت للراحة والتزود بالمؤن اللازمة للطريق، ثم تسير ومن انضم إليها من حجاج فلسطين صوب مدين (البدع). وبعد مدين كان لحجاج مصر ومن



خريطة لطريقي الحج المصري الساحلي والداخلي خلال العصور: الأموي، والعباسي، والفاطمي

رافقهم خلال العصور الإسلامية المبكرة طريقان: أحدهما داخلي يتجه نحو المدينة المنورة، ويمر على شغب وبدا، ثم على عدد من المنازل حتى يصل إلى وادي القرى، حيث يلتقي بطريق الحج الشامي في بلدة السقيا ليشكل معه طريقاً واحداً يسير إلى المدينة مروراً بالرحبة، وذي المروة، والسويدا، وذي خشب.

وأما الطريق الآخر فساحلي يتجه إلى مكة، وهو يسير بعد مدين بموازاة ساحل

البحر، ويمر على عدد من المنازل أهمها، عينونة، والنبك (المويلح)، وضبا، والعويند، والوجه، والحوراء، والأحساء (نبط)، وينبع، والجار، والجحفة، وخليص، وعسفان. كما يمكن للسائر على هذا الطريق التوجه إلى المدينة بعد وصوله إلى الجار مروراً ببدر، أو الانتقال إلى الطريق الداخلي بسلوك طريق المعرقة الذي يربط بين ينبع وذي المروة، ويمر على العيص. وكان الطريق الداخلي أكثر استخداماً من قبل الحجاج المصريين ومن رافقهم خلال القرنين الأول والثاني للهجرة (السابع والثامن الميلاديين). وخلال القرن الثالث الهجري، زاد استخدام الطريق الساحلي، ثم انتهى الأمر في القرن الرابع إلى استعمال الطريق الساحلي وحده. وقد استمر استخدام الطريق الساحلي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، ثم توقف السفر عليه بسبب الشدة العظمى (المجاعة العامة) التي أصابت مصر في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر، وما تلاها من ضائقة اقتصادية عجزت معها الدولة الفاطمية عن دفع نفقات الطريق، وتكاليف الدرك وضبط الأمن التي تدفع للأعراب القاطنة على مساره. فتحول حجاج مصر إلى السفر بطريق البحر إلى جدة عبر ميناء عيذاب.

ولم تستطع قوافل الحجاج العودة إلى استخدام الطريق البري الساحلي بعد زوال الظروف الاقتصادية التي أدت إلى ذلك بسبب وصول الصليبيين إلى المنطقة واحتلالهم ميناء العقبة عام ٥١٠هـ/ ١١١٦م، وميناء العقبة معبر الطريق الوحيد إلى الجزيرة العربية.

وخلال المرحلة الأولى من تاريخه أقيمت على طريق الحج المصري، بمساريه الداخلي والساحلي، مجموعة من البرك والقنوات. كما حفرت الآبار واستخرجت العيون وبنيت المساجد في بعض محطاته. كذلك مهدت العقبات الصعبة، وشيدت الحواجز والجسور، حيث أولى الحكام المسلمون، خاصة حكام مصر الإسلامية، الطريق عناية خاصة. وقد أشارت المصادر إلى القليل من هذه المنشآت مثل تمهيد قائد مولى خمارويه بن أحمد بن طولون لعقبة أيلة، والآبار العذبة السبعة بوادي ضبا، ومثل خان العشيرة بينبع الذي ليس له نظير، حسب قول المقدسي الذي وصفه في نهاية القرن الرابع الهجري، ومثل بركة خليص وقناتها، ومساجد بدر التي بناها ملوك مصر. وبالإضافة إلى هذه المنشآت التي أشارت إليها المصادر توجد على أجزاء الطريق المصري الواقعة في المملكة

العربية السعودية آثار من تلك الفترة، مثل بركة مدين، وبركة شغب، وبركة شواق وقناتها، وبركة بدا، وآبار بلاطة، وبركة الجار. وجميع هذه الآثار توجد بجوارها مواقع أثرية إسلامية كبيرة، تمثل ما بقي من منازل الطريق المصري التي كانت مدناً عامرة وآهلة بالسكان طوال العام خلال تلك الفترة المبكرة من تاريخ الطريق. كما توجد على الصخور المنتشرة على مسار الطريق، وبالقرب من منازل القوافل، مجموعة كبيرة من النقوش الكوفية التذكارية، نقش أكثرها الحجاج أثناء مرورهم بالطريق. وبعض هذه النقوش مؤرخ، وبعضها الآخر يحمل أسماءً تنتمي إلى أسر وقبائل معروفة.

ونذكر من أماكن توافر هذه النقوش على الطريق المصري نقع بني مر، ومدين، وبدا، وضبا، والوجه، ووادي العرجا، والعيص، وينبع النخل، ووادي الصفراء.

المرحلة الثانية: طريق عيذاب، ويمتد نحو قرنين من الزمان، من الخمسينيات بعد الأربعمائة إلى سنة ستة وستين وستمائة. وقد حدده المقريزي في كتابه <u>المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار</u> وذكر أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا عن طريق صحراء عيذاب، يركبون النيل من ساحل الفسطاط إلى قوص، ثم يركبون الإبل من قوص ويعبرون الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون البحر في الجلاب، وهي السفن الشراعية الصغيرة، إلى جدة. وكذلك كان يفعل تجار الهند واليمن والحبشة، يردون في البحر إلى عيذاب، ثم يسلكون الصحراء إلى قوص، ومنها يتوجهون بالنيل إلى مدينة مصر، وما يزال هذا الطريق مسلكاً للحجاج في ذهابهم وإيابهم طيلة مدة انقطاع الحج بطريق البر، إلى أن أعاد السلطان الظاهر بيبرس حركة القوافل إلى الطريق البري الساحلي، حينما أرسل سنة ٦٦٧هـ كسوة الكعبة مع قوافل الحجاج بطريق الساحل، ورحل بنفسه إلى مكة على طريق الحج الشامي.

وقد سار على طريق عيذاب سنة ٤٤١هـ الرحالة ناصر خسرو، ووصف منازله، كما تحدث عن مدينة عيذاب وإقامته الطويلة بها. وممن سار على الطريق نفسه الرحالة ابن جبير الذي حج سنة ٥٧٩هـ، وتحدث عن مرحلة عبور البحر إلى جدة، والأهوال التي عاناها الحجاج نتيجة قسوة البحر، وعدم صلاحية المراكب التي تقل الحجاج، فضلاً عن جشع ملاكها وقسوتهم.

المرحلة الثالثة: طريق الحج المصري خلال العصر المملوكي. وتبدأ هذه المرحلة بعهد الظاهر بيبرس الذي سير قوافل الحجاج عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م على الطريق البري القديم، وتنتهي بسقوط دولة المماليك في عهد قانصوه الغوري. وكان الطريق المصري في بداية هذه المرحلة في أمسّ الحاجة إلى إصلاح مياهه، وعمارة منازله التي أصابها الخراب خلال فترة توقف استخدام الطريق، فقام الظاهر بيبرس بعمارة قلعة على الطريق بشاطئ أيلة، كما قام السلطان محمد بن قلاوون، الذي سار على الطريق مرتين لأداء فريضة الحج، بتمهيد عقبة أيلة في كل مرة قبل سفره إلى الحج، وذلك سنة ٧١٩هـ وسنة ٧٣٢هـ. وفي عهده قام الأمير آل ملك الجوكندار ببناء خانين على الطريق، أحدهما في عجرود القريبة من السويس، والآخر في الأزنم الواقعة جنوب مدينة ضبا. كما قام آل ملك ببناء آبار في وادي الوجه، وبئرين في محطة المويلح، وبئر واحدة في محطة الأزنم، وثلاث آبار في وادي نبط، وبرك في نخل الواقعة في وسط سيناء، وفجر ينبوعاً في نخل، وكذا فعل في مدين. وتعد الإصلاحات التي تمت على الطريق في عهد السلطان محمد بن قلاوون أول عمارة موسعة لطريق الحج المصري الساحلي في العصر المملوكي. أما العمارة الثانية فقد تمت في عصر السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م) الذي بعث الأمير شاهين الطويل لعمارة طريق الحج وإصلاح مناهل المياه بين القاهرة ومكة. وتأتي هذه العمارة الشاملة الثانية بعد مرور نحو قرن من الزمان على العمارة الأولى. وأما العمارة الشاملة الثالثة للطريق نفسه فقد تمت بعد مضي قرن آخر من الزمان أيضاً، في عصر السلطان قانصوه الغوري بين سنتي ٩١٥-٩١٦هـ/ ١٥٠٩-١٥١١م، قبل سقوط دولة المماليك بسنوات قليلة. وقد شملت هذه العمارة إعادة بناء خان عجرود، وبناء خان في نخل، وقطع جبل عراقيب البغلة، وتمهيد عقبة أيلة، وإعادة بناء خان العقبة، وبناء فساقي (برك) ورصيف على البحر بها. وجميع هذه الإصلاحات تمت على جزء الطريق المصري الواقع خارج حدود المملكة العربية السعودية. وفي منازل الطرق الواقعة داخل حدود المملكة شملت العمارة الغورية إصلاح آبار واحة المويلح، وإعادة بناء خان الأزنم، وإصلاح آبار نبط، وإنشاء بركة جديدة في بدر. كما شملت العمارة



نقش عقبة عراقيب البغلة، الذي يؤرخ لعمارة السلطان المملوكي قانصوه الغوري لطريق الحج المصري سيناء– مصر

الغورية إصلاحات كثيرة حول مكة، وفي الحرمين المكي والمدني. وقد سجل الغوري شيئاً عن عمارته الشاملة على نقش وضع على مسار الطريق في عقبة عراقيب البغلة بشبه جزيرة سيناء.

وبالإضافة إلى هذه المشاريع الكبيرة قام عدد من سلاطين المماليك وكبار الأمراء بأعمال أخرى وإصلاحات متفرقة، مثل تمهيد عقبة أيلة، وبناء أربعة فساقي في محطة نخل في عهد السلطان الناصر حسن، وترميم بئر مغاير شعيب وآبار نبط في عصر السلطان قايتباي، وحفر بئر في عينونا على نفقة الأمير عبدالباسط بن خليل في عصر السلطان الظاهر ططر، وإقامة الأمير أرغون الناصري بركة في خليص لتردها دواب الحجاج.

وتزودنا المصادر التاريخية وكتابات الرحالة الحجاج بالكثير من المعلومات عن الأحداث التي شهدها الطريق خلال العصر المملوكي، كما تحدثنا عن الصعوبات التي كانت تعترض قوافل الحجاج، وعن منازل الطريق والمناطق التي يمر بها. ومن الرحالة الذين مروا بالطريق في تلك الفترة ابن رشيد الأندلسي، الذي سار على الطريق سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، والعبدري الذي مر به سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، وابن فضل الله العمري الذي حج عدة حجات آخرها سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م، وابن الجيعان الذي رافق السلطان قايتباي في رحلته سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٨٠م.

أما منازل الطريق فكانت طوال العصر المملوكي على النحو التالي:



خريطة لطريق الحج المصري خلال العصرين المملوكي والعثماني

القاهرة والبركة وعجرود والمنصرف والتيه ونخل وبئر القريص وآبار العلائي وعرقوب البغلة وسطح العقبة وحقل والشرف ووادي عفال ومغاير شعيب وقبر الطواشي وعيون القصب وشرمة والمويلح وكفافة وسلمى وأزلم ودخاخين وإسطبل عنتر والوجه ومفرش النعام وأكرا والحنك والحريرة والحوراء وصحين المرمر ونبط، والسبع وعرات، وينبع والدهنا وواسط وبدر والقاع والبستان ورابغ وخليص وعسفان ومكة المكرمة.

المرحلة الرابعة: خلال العصر العثماني، وتعد امتداداً للمرحلة السابقة، إذ لم يتغير مسار الطريق عما كان عليه في العصر المملوكي على الرغم من الزيادة التي طرأت على عدد منازله. وقد بلغت منازله أربعاً وخمسين منزلة، وقسمت مسافته إلى أربعة أرباع: أما الربع الأول فيمتد من بركة الحاج إلى العقبة، ومراحله ست عشرة مرحلة، والربع الثاني، وهو أقصر الأرباع ويمتد من العقبة إلى الأزلم، ومنازله إحدى عشرة منزلة، والربع الثالث يمتد من الأزلم إلى ينبع، وهو من الأرباع المعطشة ومراحله أربع عشرة مرحلة، والربع الأخير يمتد من ينبع إلى مكة، وهو ربع مأنوس من الطريق ومراحله ثلاث عشرة مرحلة.

وخلال العصر العثماني نال طريق الحج المصري عناية بعض السلاطين العثمانيين، كما اختصه باهتمام بعض حكام مصر العثمانية، وبعض أمراء الحج المصري. وتمدنا المصادر التاريخية بمعلومات كثيرة عن أعمالهم المتعددة، كما أن العمائر التي أقيمت خلال تلك الفترة ما تزال باقية في منازل الطريق. وفيما يلي حصر لأهم الأعمال التي تمت على الطريق خلال العصر العثماني:

١) في عصر السلطان سليمان القانوني: تمهيد عقبة أيلة سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م، وتنظيف آبار محطة نبط سنة ٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م، وبناء قلعة وعدد من الآبار في محطة المويلح سنة ٩٦٨هـ/ ١٥٦١م.

٢) في عصر السلطان مراد الثالث: تجديد قلعة نخل، وتمهيد عقبة أيلة، وتجديد قلعة العقبة سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.

٣) في عهد السلطان محمد الثالث: قام بيري بيك الذي تولى إمارة الحج المصري للسنوات ١٠٠٤-١٠١١هـ ببناء مجموعة من الآبار، وتجديد عدد من منشآت الطريق، وبناء فسقية، ومكان للصلاة، وساقية خارج المدينة المنورة على مسار الطريق.

٤) في عهد السلطان أحمد الأول: بُنيت قلعة الوجه سنة ١٠٢٦هـ، وقد أشرف على بنائها أمير الحج كامل يوسف الذي قام أيضاً بتجهيز ممر وادي العقيق الواقع إلى الجنوب من أملج.

٥) في عهد السلطان مراد الرابع: قام أمير الحج قانصوه بيك ببناء سلسلة من الآبار على الطريق بين السنوات ١٠٤٣-١٠٤٧هـ. ثم جاء الأمير رضوان بك الفقاري-الذي تولى إمارة الحج المصري لمدة طويلة امتدت من سنة ١٠٣٨هـ إلى سنة ١٠٦٦هـ، وشملت بقية عصر السلطان مراد



قلعة الزريب، إحدى القلاع العثمانية على طريق الحج المصري - الوجه

الرابع، وعصري السلطانين إبراهيم الأول ومحمد الرابع-وقام بأعمال كثيرة على طريق الحج شملت ترميم وتنظيف الآبار والبرك، وتمهيد العقبات والممرات الصعبة، مثل عقبة الوعرات السبعة الواقعة بين أملج وينبع. ومن أعماله على الطريق وضع أعلام على مسار الطريق بشبه جزيرة سيناء، وبناء البركة الوسطى الملتصقة بالضلع الشمالي لقلعة الوجه.

٦) في عهد السلطان محمد الرابع: قام أمير الحج المصري غيطاس مولى رضوان بك الفقاري بإضافة بركتين جانبيتين إلى بركة الوجه التي بناها سيده رضوان بك، فاكتملت بمحطة الوجه ثلاث برك.

٧) في عهد السلطان سليمان الثاني (١٠٩٩-١١٠٢هـ) بنيت ثلاث آبار بوادي ضبا، كما قام فاعل خير يدعى الأمير إبراهيم الفكاري بحفر ثلاث آبار أخرى بدار السلطان الواقعة إلى الشمال من ضبا، وهو المكان المعروف اليوم بوادي الغال.

٨) في عهد السلطان أحمد الثالث: جُددت قلعة نخل وذلك سنة ١١١٧هـ/١٧٠٦م.

٩) وخلال القرن الثالث عشر الهجري أنشئت مجموعة من الأبراج والقلاع الصغيرة في بعض محطات الطريق، مثل برج ضبا، وقلعة السوق بالوجه، وقلعة أملج، وقلعة رابغ. ومعظم هذه القلاع والبرك والآبار التي أنشئت على الطريق خلال العصر العثماني ما تزال باقية، خاصة على أجزاء الطريق الواقعة في شمال غرب المملكة العربية السعودية.

وخلال العصر العثماني سافر على الطريق المصري عدد من الرحالة الحجاج الذين تحدثوا في مؤلفاتهم عن رحلاتهم إلى الحج، وعن منازل الطريق التي نزلوها. ويعد كتاب الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة أوفى مصدر وصل إلينا من بداية هذه الفترة. وممن تحدث عن الطريق أيضاً الموسوي المدني والعياشي، وابن عبدالسلام الدرعي، وآخرون.

وقد استمرت حركة القوافل على الطريق المصري حتى سنة ١٣٠١هـ، ثم تحول الحجاج بعد هذا التاريخ إلى ركوب البحر من السويس إلى جدة.

المرحلة الخامسة: طريق الحج المصري خلال القرن الرابع عشر الهجري، وتشمل هذه الفترة نهاية العصر العثماني،

وبقية فترة حكم أسرة محمد علي بمصر ابتداءً من عهد الخديوي توفيق، وفترة استقلال الأشراف بحكم الحجاز، وعهد المملكة العربية السعودية. وخلال هذه الفترة تحول سفر الحجاج المصريين ومن رافقهم إلى البحر مرة أخرى، فكان الحجاج يسافرون على سكة الحديد التي أنشأها محمد علي باشا إلى السويس، ثم يستقلون السفن الشراعية وسفن الشركات الأوروبية في بادئ الأمر ثم بواخر الشركة الخديوية بعد إنشائها، ويعبرون إلى جدة مروراً بميناءَيْ الطور والوجه. وقد تزايد إقبال الحجاج المصريين ومن رافقهم على ركوب البحر منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجري أي منذ عهد محمد علي باشا، إلا أن قافلة المحمل الرسمية مصحوبة ببعض الحجاج استمرت في سلوك الطريق البري. وفي سنة ١٢٩٧هـ رفع محمد صادق باشا أمير الحج المصري لتلك السنة عرضاً، إلى الإدارة المصرية شرح فيه محاسن إرسال المحمل بطريق البحر. وفي سنة ١٣٠١هـ سارت على الطريق البري آخر قافلة برية، وكان عدد الحجاج فيها ١١٧٠ حاجاً. وبعد هذا التاريخ أصبح المحمل المصري يصل إلى الحجاز بطريق البحر.

طرق الحج اليمني. تختلف اليمن عن باقي الأقطار الإسلامية من حيث اتصالها بمكة المكرمة، لأن البلاد اليمانية مفتوحة من الشمال في اتجاه الأماكن المقدسة بالحجاز، ولا يقف أمام أهلها أو يعوقهم عن الوصول إلى الحجاز أي عائق مائي، مثل الخليج العربي لحجاج بلاد فارس وبعض أجزاء العراق، والبحر الأحمر وخليج العقبة لحجاج مصر وما وراءها. لذلك فلا غرابة إن تعددت طرق الحج اليمنية، واختلفت مساراتها، وتعددت كذلك العواصم التي تسير منها.

ولعل أهم المدن اليمنية التي كانت تنطلق منها جموع الحجاج اليمنيين إلى مكة هي: عدن، وتعز، وصنعاء، وزبيد، وصعدة في أقصى شمال اليمن الأعلى. وكانت بعض مسارات تلك الطرق تلتقي في نقاط معينة، أو تعرج في سيرها من هذه المدينة إلى تلك، مثل طريق تعز على زبيد، وطريق صنعاء الداخلي على صعدة. ويبدو أن عروج الطريق الأول على مدينة زبيد، لم يكن نتيجة لعوامل جغرافية تحتم مروره على تلك المدينة التي تميل قليلاً عن خط سيره إلى الغرب، وإنما نتيجة لدوافع سياسية أو تنظيمية غايتها اكتمال القافلة السلطانية



خريطة توضح مسارات طرق الحج اليمنية

التي تسلك هذا الطريق حتى تنضوي تحت إمرة أمير تعينه السلطة القائمة في تعز أو زبيد. ويتضح ذلك من إشارة مفيدة في هذا الشأن أوردها المؤرخ الجغرافي عبدالقادر الجزيري وهي قوله إنه يجيء إلى زبيد قصداً لأنها دار الملك، وبها يجتمع شداد الركب ويتكامل. وقد اشتهر من طرق الحج اليمنية إلى مكة ثلاثة طرق، هي: الطريق الساحلي، والطريق الداخلي أو الأوسط، والطريق الأعلى. ولكل من هذه الطرق مساراته ومحطاته، وأيضاً مشاقه التي عانى منها الحجاج أزماناً طويلة.

وأول هذه الطرق هي الطريق الساحلية، لأنها تسلك مساراً ساحلياً قريباً من البحر، ومحاذياً له من الشرق. وتبدأ من عدن أَبْيَن مروراً بالمخنق، فإلى عارة، ثم عَبْرَة، فالسُّقْيا، فباب المندب، فالسَّحاري، ثم الخَوْهَة أو الخَوْخَة، ثم الأهْوَاب، ثم غلافقة، وهي فرضة زبيد التي تقع شرقيها في اتجاه الداخل، ثم نَبْعَة، فالحرْدَة، ثم الزَّرْعة، ثم الشَّرْجَة، وهي أول مراحل طريق الحج اليمني الساحلي التي تقع في أراضي المملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر. ومن الشرجة إلى المُفْجر، فإلى القُنَيْدرة، ثم

عَثَّر، ثم بَيْض، ثم الدُّويمة، ثم حَمَضَة، ثم ذهبان إلى حلي التي يمر الطريق من ساحلها على موضع مهجور كان يعرف باسم عازب، ويعرف في الوقت الحاضر باسم الرُّدَيْني نسبة إلى رجل صالح من أهل اليمن توفي ودفن به سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م. يلي حلي من الشمال ساحل يَبَة، ثم قَنُونَا، ثم قَرْمَا، فَدوْقَة إلى السّرَيْن، وهي ملتقى طريق الساحل مع طريق الداخل، ومنها يفترقان أيضاً كل في جهته، حيث يسير الساحلي صوب اللّيْث، فالشُّعَيْبَة إلى جدة، ومنها إلى مكة المكرمة.

أما الطريق الداخلية أو الوسطى فهي تهامية أيضاً، وبينها وبين البحر مسيرة يوم، أو نصف يوم، ومثل ذلك بينها وبين الجبل، وهي متوسطة بينهما، وتعرف باسم الجادة السلطانية. والمشهور أنها تبدأ من تعز، إلا أن عدن تتصل بطريق الجادة بمسار آخر داخلي يمر بالجُؤَة أو الجُوَّة، وينتهي إلى تعز، ومنها ينضم إلى الطريق الداخلية أو الجادة السلطانية. وأولى مراحل هذا الطريق من تعز هي: ذات الخيف، يليها مُوْزَع، ثم الجُدُوْن، ثم حَيْس، ثم زبيد، وهي ثاني عاصمة في اليمن الأسفل بعد تعز، تتجمع فيها القوافل التي تسلك طريق الجادة السلطانية، ومنها تنطلق في سيرها إلى مكة المكرمة مارة بفشَال، والضنجاع، والقَحْمَة، والكَدْراء إلى المَهْجَم، ومَوْر، والواديين، والسَّاعد، وتَعْشَر، وجازان، والهجَر، وبَيْش إلى ضَنْكَان، وكانت معدن ذهب مشهوراً، وهي اليوم من المواقع الأثرية المعروفة في ديار قبيلة آل مَنْجَحَة التهامية. ومن ضنكان إلى المَعْقَد، فحلي العليا، ثم يَبَة، ثم قنونا، ثم عشم، ثم دَوْقَة، فإلى السّرَيْن حيث تلتقي -كما أوضحنا سابقاً- بالطريق الساحلية، ومنها تفترق في مسارها الداخلي إلى الليث، فالخضراء، ثم سَعْيَا، فيَلَمْلَم، ميقات أهل اليمن، وميقات من ورائها من سكان تهامة والجبال، يحرمون منها ثم يواصلون سيرهم إلى أدام، على مرحلة واحدة فقط من مكة المكرمة، وفيها بئر روية، ثم من أَدَام إلى مكة المكرمة التي هي منتهى هذا الطريق، وأقصى غاياته للحجاج الذين يسلكونه.

أما الطريق العليا، وتعرف باسم الطريق الجبلية، فهي تسلك المناطق الجبلية، وبعض النجود الداخلية إلى مكة المكرمة. ومركز انطلاق هذه الطريق هو صنعاء، إلا أن لها اتصالاً آخر بمدينة تعز لمن أحب من أهلها، أو المارين بها ممن خلفها من الجنوب، سلوك هذا

الطريق، إذ يخرج هؤلاء من تعز في اتجاه الشمال الشرقي. وأول ما يصادفهم من المواضع مدينة الجَنَد المشهورة، وبها جامع مشهور أيضاً ينسب إلى الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه، ثم منها إلى إب، فنقيل سمارة، فذمار، ومن ذمار تسير القافلة أربعة أيام أو ثلاثة حتى تصل صنعاء. وهي المركز الرئيسي لانطلاق قوافل الحج التي تسلك الطريق العليا، أو الطريق الجبلية، كما قدمنا. وأول مراحل هذا الطريق رَيْدَة، ثم أثَفت، فخَيْوَان، فالعمشيَّة إلى صعدة، المركز الثاني للإمامة الزيدية بعد صنعاء، وآخر المدن الكبيرة في اليمن التي تتجمع فيها قوافل الحجيج. ومنها إلى العرْقَة، ثم المهجّرة، ثم أُرَيْنب، ثم سَرُوْم الفَيْض، ثم التُّجَّة، ثم كُتْنَة، ثم يَبَمْبَم، ثم بيْشة بَعْطَان، ومنها إلى تَبَالَةَ فالقُرْيحَاء، ثم كَرَى، ثم تُرَبَة، ثم الصّفن، ثم الفتق، ثم رأس المناقب، وهي منتهى الطريق في اتجاه الشمال، ومنها ينحرف الطريق في سيره صوب الغرب، أو الجنوب الغربي إلى قرن المنازل، وهو ميقات لمن يأتيه من تلك الجهة من حجاج اليمن، ومنه يتجهون محرمين صوب مكة مجتازين آخر مراحل هذا الطريق، وهي الزيماء أو الزيمة المعروفة حالياً بين مكة والطائف عن طريق السيل.

ويفضل بعض حجاج صنعاء، ومن يمر بها من الجنوب والجنوب الشرقي سلوك طريقي تهامة بفرعيها الساحلي والأوسط، وذلك بالاتجاه مباشرة نحو الغرب إلى المَهْجَم، بالقرب من مدينة الزيديَّة المعروفة في الوقت الحاضر، وفيها ملتقى الجادة السلطانية، وهي طويلة، ولكنها آمنة على حد قول الهمداني. وهذه الطريق هي التي سلكها من صنعاء علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية، عندما حج إلى مكة المكرمة في سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٥٧م، وهي الحجة التي قتل فيها على يد سعيد الأحول بن نجاح، بالمهجم في ضيعة تعرف بأم الدهيم، أو بئر أم معبد، أي قبل وصوله إلى مكة المكرمة بمسافة طويلة.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك طرقاً أخرى تتصل بطرق حجاج اليمن مثل طرق حضرموت، وعُمان، فالأولى كان حجاجها يسلكون ثلاثة طرق رئيسية، أولها ساحلي يسير بمحاذاة بحر العرب حتى يصل إلى عدن، والثاني، ويعرف عند الهمداني باسم «محجة حضرموت العليا»، ويسير من العبر إلى الجوف ثم إلى صعدة حيث يلتقي فيها بطريق اليمن

الأعلى الجبلي الذي ينطلق من صنعاء. وينضم إلى هذه الطريق أهل مأرب، وبَيْحَان، والسَّرَوِيّوْن، ومَرْخَة. والثالث يعرف باسم محجة حضرموت السفلى، وتفضي في سيرها إلى نجران، ثم حَبُوْنَنْ، ثم تثليث إلى أن تلتقي مع طريق صنعاء المشار إليه في تبالة. أما عُمان فتتصل بطرق حجاج اليمن من خلال طريق ساحلي غير طرقها الداخلية التي تجتاز اليمامة، وبعض الأطراف الشمالية والشرقية للربع الخالي. ويسلك هذا الطريق مساراً يمر بساحل حضرموت، في موازاة البحر العربي، حتى يفضي إلى عدن، ومنها يلتقي بطريقي تهامة إلى مكة المكرمة. وقد عثر في بعض المواقع الأثرية الساحلية بتهامة على بعض الأدلة التي تؤكد سلوك أهل عمان لهذا الطريق في العصور الإسلامية.

طريق الحج العُماني. هناك طريقان من عمان إلى مكة، أحدهما يتجه من عمان إلى يبرين ثم إلى البحرين – الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية– ومنها إلى اليمامة ثم إلى ضرية. وتذكر المصادر الجغرافية أن ضرية كانت ملتقى حجاج البصرة والبحرين، وعندها يفترقون إذا انصرفوا من الحج، فيأخذ حجاج البصرة ذات الشمال وحجاج البحرين ذات اليمين. وهناك طريق آخر من عمان يتجه إلى رفق، ثم عوكلان، ثم إلى ساحل هباة وبعدها إلى شحر، قال الشاعر:

اذهب إلى الشحر ودع عمانا
إلا تجد تمراً تجد لبانا

ويستطيع حجاج عمان أخذ أحد الطريقين من اليمن، فإما أن يسلكوا طريق الحج الساحلي الموازي لساحل البحر الأحمر الذي يمر بعدد من المخاليف والمنازل مثل: مخلاف عك والحَرَدة ومخلاف حكم وعثَّر ومرسى ضنكان والسرين حتى الشعيبة ثم جدة فمكة. أو الطريق الداخلي من اليمن إلى مكة مروراً بعدد من المنازل بعضها ما يزال معروفاً حتى اليوم مثل رنية وتربة، حتى يصلوا إلى مكة.

العمارة في العصور القديمة

تمثل العـمارة أحد الشواهد الأثرية القوية التي تدل عـلى استيطان الإنسان في مكان ما واستقراره به. وترتبط نشأة العمـارة بشكل عام، بـوصفها ظـاهرة أثرية، بالعصـر الحجري الحديث، لأنه الزمن الذي بدأ الإنسان فيه الإقامـة في أماكن ثابتة نتيجة لـلتغيرات البيئية التي أجبرته على العمل الجاد وإنتاج ما يحتاج إليه بالإقامة واستغلال موارد الطبيعة من حولـه، ومن النـاحيـة الأخرى وصل الإنسان -في ذلك الـعصر- إلى درجة من التقدم التجريبي والتفتح الذهني بوأته مكاناً يؤهـله ليحول بقعة الأرض التـي يعيش فيها إلى مكان إنتاج، بمعرفة أسرار تكوين ذلك المكان.

والعمارة التي احترفها إنسان العصور القديمة، ظاهرة حضارية متنوعة ومتطورة لتنوع الوظـائف التي تؤديها وتجددهـا. ولم يـستطـع الإنسان اسـتحداث كـل الخصائص المعمارية في وقت واحد. ولما كان الإنسان متطوراً في معارفه وحاجاته، فإن العمارة كانت تسير جنباً إلى جنب مع ذلك الـتطور، شأنها شـأن المظاهر الحضاريـة الأخرى. فحاجة الإنـسان، مثلاً، اقتضته أن يوجد مأوى له، فبحث عن ذلك وطوره على مر القرون. وبعد تطور المفاهيم الدينية والروحية بشكل عام وجد الإنسان أنه بحاجـة لإيجاد أماكن يمارس فيها هـذه الشعائر، فعمل علـى إقامة المعابد وطورها. وبعد تعلمه عادة الدفن احتـراماً لمن مات، أوجد المقـابر ليواري موتاه فيها، كما طورها عبر الزمن تبعاً لوضعه الديني والاقتصادي والزمني وتأثره عبر اتصالاته الخارجية بالحضارات الأخرى. وبـعد أن بدأت التـجمعـات الكبرى للإنسان في الظهور، بدأ بإنشاء الأماكن العامة، مثل المسارح والحصون والأسواق والملاعب الرياضية وما شابـه

ذلك. إذن فإن الأمر يجري على سنة التطور، بشكل عام، وليس عفوياً، إنما تقف خلفه الحاجة والإنسان الجاد. فهذه الظواهر لم تتطور في جميع الأماكن بمستوى واحدٍ، إنما هناك فروق يحدثها جد الإنسان أو تهاونه، كما هي الحال في العصر الحاضر.

والإنسان عاش ما يقرب من المليوني سنة في تجوال وترحال من مكان لآخر بحثاً عن قوته. وخلال هذه الفترة لم يكن الإنسان بحاجة، ولم تكن لديه الخبرة لعمل كهذا، لإقامة أماكن يستقر فيها. فيعتقد أن الإنسان لم يؤلِّف آنذاك كياناً اجتماعياً، إنما كانت لديه القدرة على التعايش مع أبناء جنسه تعايشاً في أزواج منفردة تعيش حياة تنقل وترحال وتكتفي من الغذاء بما تجده في الطبيعة من حولها.

وفي نهاية العصر الحجري الوسيط، أي قبل حوالي ٩٠٠٠ سنة، بدأ التطور السريع في الحضارة الإنسانية، والتغير الحاد في البيئة الجغرافية. فأصبح الإنسان مفكراً وملاحظاً وقادراً على إيجاد الحلول. وتغيرت البيئة فدفعت مواهب الإنسان لتتبلور عن أشياء ملموسة. وهذا أدى في نهاية المطاف إلى تعريف الإنسان بقيمة الاستقرار وتطويع الطبيعة لخدمته باستغلالها لصالحه. فظهرت القرى والتجمعات البشرية الصغيرة المستقرة، مما قاد بسرعة وجيزة، قياساً بما مضى، إلى ظهور المدنيات الأولى خلال ما يعرف باسم العصر الحجري الحديث، فبدأ الإنسان بتشييد ملاجئ لتأدية وظائف متنوعة.

العمارة السكنية

كان للاستقرار الزراعي أثره الواضح في محاولة إقامة المسكن في حياة الإنسان القديم، وربما كان ذلك منذ أواخر العصر الحجري الوسيط وأوائل العصر الحجري الحديث. وكان هذا السكن يناسب بساطة ذلك الإنسان في نظام حياته. وبمرور الزمن وثبات الاستقرار أخذ التطور في نظام المسكن يسير حثيثاً، وهو الأمر الذي تتبعنا مراحله عبر العصور القديمة في هذه المنطقة. وقد كشفت الحفائر في أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية عن بقايا جدران أمكن بها تحديد أنواع معينة من عمارة هذا الإنسان.

العصور الحجرية. تفيد الأبحاث الأثرية أن الإنسان استوطن الجزيرة العربية خلال أقدم فترة استيطان عرفت في العالم القديم، أي قبل مليون وربع المليون سنة قبل الميلاد، أو خلال ما يعرف باسم

حضارة الألدوان. واستمر في استيطانه لها خلال الفترات اللاحقة حتى اليوم الحاضر. وكما هو مجهول في بقاع العالم القديم، فإن العمارة السكنية لإنسان العصور الحجرية السابقة للعصر الحجري الحديث في الجزيرة مجهولة أيضاً.

واستناداً إلى الدراسات المناخية والبيئية يفترض أن الجزيرة كانت شيئاً يختلف عما نشاهده اليوم. فيعتقد أن بطون الأودية الموجودة اليوم كانت أنهاراً، وأن بقايا البحيرات الجافة وشبه الجافة كانت بحيرات أغزر ماء، وأن القفار الخالية كانت غابات تكثر فيها الحيوانات المتنوعة. ولذا فإن نمط الاستيطان شبيه بما كان معروفاً في الأقطار الأخرى.

وتنبئ الأبحاث المنجزة في مواقع العصر الحجري القديم، مثل مواقع الشويحطية في شمال المملكة، ومواقع وادي صفاقة في وسطها، وغيرها من المواقع أن الإنسان عاش بالقرب من بحيرات قد جفت كلها، وعلى حواف أنهار صغيرة كانت تغذي تلك البحيرات. ووجد حول هذه الأماكن عدد من الكهوف التي ربما ارتادها الإنسان آنذاك ليس للإقامة فيها، بل للالتجاء إليها والاحتماء بها خلال الظروف الطبيعية الصعبة التي لا يستطيع مقاومتها، كالرياح العاتية، وزوابع الأمطار، وهجوم الحيوانات المفترسة.

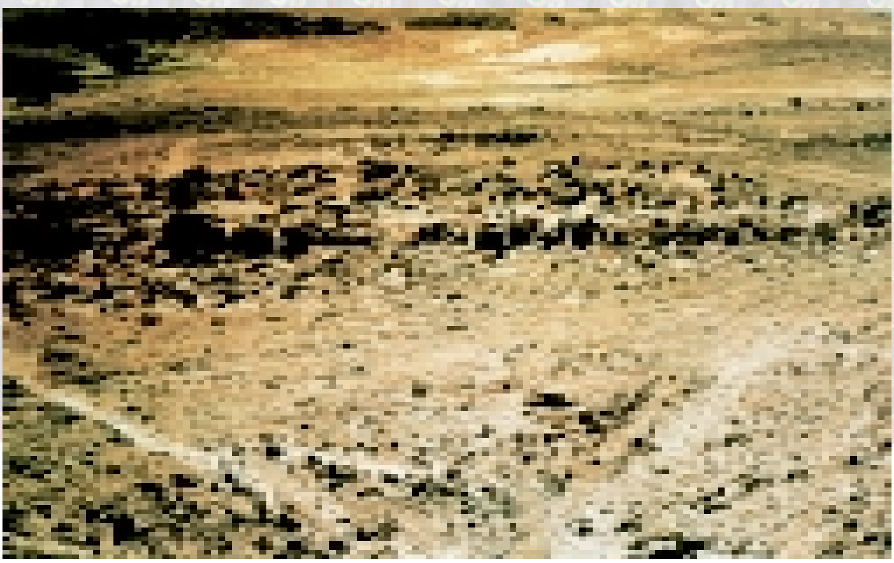
ويعرف عن إنسان تلك العصور أنه استطاع أن يوجد لنفسه أماكن يأوي إليها مستفيداً من الظواهر الطبيعية، مثل الكهوف، فالكهف منزل طبيعي داخل جذع جبل أو في عرضه، ولكن ينقصه فقط تقسيمه من الداخل وإيجاد بوابة له، ولذا استغل الإنسان ما خلقه الله من تكوينات صخرية جبلية بإكمال ما يلزم، فقسّم الكهف ليجعل منه غرفاً مستقلة بعضها عن بعض، ووضع حجارة ليصنع بها باباً. واكتشفت في جنوب غرب المملكة كهوف من المؤكد أن الإنسان ارتادها لمدة من الزمن بدليل تجميله لها بالرسوم التي وجدت على الجوانب الداخلية لتلك الكهوف.

وثمّ بالإضافة إلى ذلك مغارات في الجبال على شكل مآوٍ، وبالقرب من تلك المغارات أحياناً منابع مياه. وقد استطاع الإنسان آنذاك أن يستفيد من تلك المآوي ببناء سياج لمدخل المغارة، قد يكون من الخشب، أو الحجارة المردومة، أو أي مادة أخرى متوافرة له، وبهذا يصبح المكان كغرفة سكن. ويعتقد أن الأشجار الكثيفة المتقاربة والعالية ذوات الأغصان القوية، شكلت أماكن يأوي إليها الإنسان، وذلك

بعمل أكـواخ على الأشجار هروبـاً من الحيوانات المفترسة والزواحف السامة وأي مهاجم آخر. كما يفترض بعض الباحثين أن الإنسان استفـاد من جذوع الأشجار نفسها، خصوصاً عندما تكون متقاربة، إذ عمل على إيجـاد سياج يدور حولها مكوناً مكـاناً آمناً يحفظه مـن الأمطار، والريـاح، والحيوانات، وقـد يمنع عـنه الإنسان المعتدي. ومثل تلك المنشآت التي من شأنها التلف لا يبقى لها أثر شاخص.

ويعـتقد البـاحثون أن الإنسـان بدأ بالإقامة المؤقتة فـي الأماكن التي يتوافر فيها الماء وتنبت فيها الأعشاب والمحاصيل البرية، مثل الحـبوب وغيرها. كما بدأ كذلـك بزراعـة بعض المحـاصيـل من الحبوب اعتماداً على مياه الأمطار. ولذا فإنه بدأ الإقامة والتجمع الباكر في (أواخر العصر الحجري الوسيط وأوائـل العصر الحـجري الحـديث، أي قـبل ٩٠٠٠ سنـة). فأخذ يشـيد لنفـسه بيـوتاً من الأصواف عـلى شـكل خيـام منـفردة يجمعها مكـان واحد، كما شيد النظام المنزلي نفسه من المواد الخشبية.

وبعد الإقامة الـفعلية وجد الإنسان أن مثل تلك المواد غير مناسبة، فهي لا تسـتمر طـويلاً، ولا تقـاوم متـغيرات الطبيعة، مثل العواصف والأمطار. ولذا بدأ يفكر في تشـييد منازل أكثر تحملاً، ومن هنا بدأت الاستفادة من المواد الطبيعية التي تحتاج لجهد عضلي أكثر ومعرفة ذهنية



بناء حجري بيضاوي الشكل – موقع الثمامة – شرق الرياض

أدق، مثل الحجارة في تشييد المنازل. وقد اكتشف في موقع أم وعال مكان أثري يحتوي على ٢٠-٣٠ من الدوائر الحجرية، بعضها بسيط، أي يوجد بأشكال منفردة، وبعضها معقد التركيب إذ توجد مجموعات منها متداخلة في مكان واحد، واكتشف لها أسوار وفيها مجاري مياه. كما اكتشف في موقع بالقرب من بلدة العيينة غرب الرياض، بقايا مبانٍ حجرية وجد حولها مجارش تدل على الإقامة الفعلية وممارسة إعداد الحبوب كغذاء، وهذا أمرٌ يدل على امتهان الزراعة إلى جانب تشييد المنازل. ويظهر أن غرف الوحدات السكنية كانت شبه مستطيلة إذ وجد منها ما تبلغ أبعاده ٥×٦م و٦×٨م. كما اكتشفت بقايا جدران تمتد لمسافة تصل إلى ٢٦م مما يوحي باستخدام نظام الأسوار في ذلك الموقع.

ومع نهاية الألف السادس قبل الميلاد توصل الإنسان إلى إقامة المنازل في مستوطنات لاشك في وجودها، فهناك أدلة مؤرخة بالكربون المشع في مواقع في شرق المملكة، مثل موقع عين قناص، تفيد أن الإنسان استخدم المادة الطينية فشيد بها جدراناً لغرف مستطيلة، وزودها بمواقد مستطيلة أو دائرية الشكل، شيدها باستخدام المونة الطينية المطلية بطبقة جصية. وأنه أحياناً أخرى استخدم في بنائها الجدران الجيرية وأحاطها بأسوار دائرية، وزود هذه الجدران بطبقة من الملاط الجصي.



موقع عين قناص – الأحساء

كما تفيد الأبحاث في هذه المواقع أن الإنسان استمر في استخدام المادة الخشبية في تشييد الأسوار، وقام بطلائها بمادة طينية أو جصية. كما تفيد كثير من المواقع التي تم اكتشافها في أجزاء مختلفة من المملكة، وخصوصاً على سواحلها، أن أماكن الإقامة كانت تشيد بمادة خشبية على هيئة أكواخ فردية تأخذ شكلاً بيضيا.

وخلال هذه الفترة تمكن الإنسان من استخدام الحجارة في عمارته، تارة يهذبها وأخرى كما يجدها في الطبيعة. وكان اختياره لنوع الحجارة تمليه عليه طبيعة المكان وتوافر الحجارة. ففي الوسط والشرق كان استخدام الأحجار الجيرية في العمارة أمراً شائعاً. أما في الشمال والشمال الغربي فكان استخدام الأحجار البازلتية والرملية والجرانيتية هو الشائع.

ولم تكن العمارة السكنية ذات تخطيط مميز، ويبدو أنها بدأت مستوحية تخطيطها من الانتشار الأفقي لمنازل الخيام التي كانت شائعة في العصر السابق، كما أنها في بعض المواقع جاءت على التقسيم القائم على المنازل الفردية الذي سبق ذكره.

وقد اكتشفت منشآت متنوعة ثبت أنها أماكن للسكن، وقد يدل هذا التنوع على تدرج زمني على الرغم من أنه لم يدرس بعد كما تفيد المصادر المتوافرة اليوم. ويشمل هذا التنوع المساكن الدائرية، والمستطيلة، على هيئة نعل الفرس. وتعد المساكن الدائرية أكثر هذه الأنواع شيوعاً.



دوائر حجرية – ضرما – منطقة الرياض

وقد شيدت المساكن الدائرية في أماكن مختلفة تتباين فيها أعداد المساكن. فبعض الأماكن يضم عدداً قليلاً، وبعضها تجمعات كبيرة في أماكن أخرى، ويوجد إلى جانبها منشآت استخدمت لأغراض أخرى مثل المقابر والمنشآت المذيلة وأماكن التعبد، مما يوحي بأن هذه التجمعات تمثل مستوطنات دائمة وكبيرة المساحة.

وشيدت الدور الحجرية باستخدام الكتل الحجرية التي يختلف نوعها وحجمها وأسلوب بنائها من مكان لآخر. فمنها ما وضع على نحو رأسي، ومنها ما وضع على نحو أفقي. وقد تكون الحجارة المستخدمة على هيئة صفائح أو كتل حجرية صلبة من حجر البازلت أو الحجر الرملي أو حجر الجرانيت أو الحجر الجيري. وتستخدم في بعض الأحيان الحجارة والجلاميد، لملء الفراغ بين الكتل الحجرية الضخمة. ولم يرد فيما نشر من مادة علمية ذكر لاستخدام أي مادة لربط الكتل الحجرية. ويثبت ما اكتشف من هذه الدوائر استخدام مدماكين أو أكثر من الكتل الحجرية بقطر يبلغ أحياناً ١٢م للدائرة الواحدة.

ويختلف التقسيم الداخلي للمبنى من دارٍ لأخرى. فمن هذه الدور ما وجد بحجم صغير وكأنه مخصص لسكن عائلة واحدة، أو زوج من الناس. ويبدو أن عدداً من الدور المتراصة بعضها قرب بعض كان كل منها يشكل مبنى منفصلاً،



دوائر حجرية – شعيب البولي – الحدود السعودية العراقية

كما هي الحال في استخدام الخيام أو بيوت الشعر، ويجمعها سياج دائري أحياناً. ووجد في داخل بعض هذه الدور أساسات لجدران يعتقد أنها كانت قواطع لغرف داخلية. ويبنى في هذه الدور عادة مواقد من الحجر بقطر يصل إلى ٥٠سم في أغلب الأحوال، كما زود بعضها بقنوات مياه لا يعرف كنهها حتى الآن. وتحاط الدار أو عدد من الدور الصغيرة، في أغلب الأحوال، بسور يبنى بالحجارة غير المتناسقة وغير المهذبة، وقد وجد من هذه الأسوار ما ظل قائماً بارتفاع نصف متر. ويكون السور في بعض الأحيان مشيداً بجدارين، جدار خارجي وجدار داخلي. ويكون الجدار الخارجي أقل جودة من ناحية الإنشاء المعماري، فهو مكوّن من كتل كبيرة من الأحجار، أما الجدار الداخلي فيشيد بكتل متشابهة وضعت أفقية ورأسية على التوالي مظهرة مجموعة من الدعامات التي وجد منها ما يصل ارتفاعه إلى نصف متر. بالإضافة إلى ذلك فقد استخدم، في بعض الأحيان، فن بناء المصاطب في عمارة هذه الدور، إذ نجد الدار مشيدة على مصطبة، وفي بعض الأحيان تكون المصطبة أقل مستوى من الدور. وتُلحق بالدور عادة ملحقات خارجية خصصت لاستخدامات مختلفة تكون في الغالب مشيدة بحجارة أصغر من حجارة الدور وتحاط بأسوار أقل سمكاً من أسوار الدور الرئيسية. وقد وجدت أدلة على استخدام حطام الطواحين المتكسرة في بناء بعض جدران تلك الدور، وهذا دليل على استخدام الحبوب المجروشة وعلى الإقامة الطويلة. وتبنى جميع الجدران، سواء جدران الملحقات أو جدران الدور أو جدران الأسوار، فوق الأرض مباشرة ولا تحفر لها أساسات، على الرغم من اكتشاف حفريات في بعض الدور يصل قطر بعضها إلى ٣٠سم وعمقها ١٥سم محفورة في الصخر، ولم يتوصل الباحثون بعد إلى تفسير لسبب وجودها. ويبدو أن البناء يعتمد على ضخامة الحجر، الذي قد يكون هو نفسه أساساً لمبانٍ قد زالت، مثل المباني الطينية، أو قد يكون الجدار مثبتاً بقطعة ضخمة من الحجر على رأسه الأعلى. كما يعتقد أيضاً أنها كانت أساسات لتشيد عليها مبان من مواد تتلف، مثل الخيام أو الأخشاب.

وخلال هذه الفترة الزمنية استُخدم أسلوب في العمارة ما يزال نمطه غير واضح لعدم توافر الدراسات الكافية حوله. وقد وجدت المواقع الدالة على

استخدامه في المنطقة الشمالية، خاصة في موقع الرجاجيل، وفي المنطقة الوسطى حيث وجد في أكثر من أربعة مواقع، أهمها موقع الثمامة، وموقع في جنوب الرياض على بعد ٣٥كم، وفي وادي مَرْخ بمحافظة السليل، وآخر في وادي مريخة في المحافظة نفسها، وموقع مجيرة المسجل برقم ٢٠٦-٨٩ في إدارة الآثار والمتاحف، وموقع الملح رقم ٢١٢-٨٣، وموقع بالقرب من ضرما يحمل الرقم ٢٠٧-٤٣، ومواقع في الحاير جنوب مدينة الرياض، وعدة نماذج في الشماسية شرق القصيم، وموقع خبة التماثيل في منطقة تبوك.



أعمدة الرجاجيل – منطقة الجوف

ويلاحظ في هذه المواقع استخدام إنشاءات معمارية مبنية باستخدام أعمدة منصوبة بارتفاع يزيد في بعض الحالات على مترين وعرضه متر واحد. كما تزود الإنشاءات بملحقات مشيدة باستخدام ألواح حجرية، وجد من بينها ما يصل ارتفاعه إلى ٤٠سم، وتتباعد عن بعضها بمقدار ٣٠سم، وتكون مصفوفة في خطوط طولية. ويعتقد أن الأهالي أخذوا الألواح ذات الارتفاع الذي يبلغ نحو مترين لاستخدامها في تشييد منازل أحدث. وليس هناك معلومات عن كيفية تثبيت تلك الألواح، ولا كيفية تثبيت المبنى عليها، كما يبدو أن المونة لم تستخدم لربط أو تثبيت الألواح الحجرية.

وخلاصة ما تقدم أن الإنسان عرف تشييد العمارة في هذا البلد في أوائل العصر الحجري الحديث، وتوصل إلى استخدام الطين والحجر والجص، ونظام الأسوار في أوائل العصر الحجري الحديث الفخاري. كما يبدو استمرار تخطيط منازله كتقليد لتجمعات مساكن الشعر والخيام والأكواخ الخشبية، ثم استحدث نظام التقسيم الداخلي، وبناء الملحقات، واستخدام المصاطب.

وتشهد الدلائل الأثرية على أن هناك استيطاناً واضحاً حدث في الجزيرة العربية خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اكتشف عدد من المواقع في شرق ووسط وجنوب غرب المملكة ترجع إلى تلك الفترة تحتوي على آثارٍ معمارية. ويشهد تل تاروت بذلك، على الرغم من أن التنقيب لمّا ينته فيه بعد، إذ لا يعدو عمل مجسات قليلة لا تزيد على ثلاثة مجسات. والواقع أن الإنسان في جزيرة تاروت، في شرق المملكة، استمر في استخدام الطين لتشييد منازله في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. كما استخدمت مادة الطين للغرض نفسه في منتصف ذلك الألف حتى نهايته، بالإضافة إلى استخدام الأحجار الجيرية في بناء المنازل. أما في الأجزاء الأخرى من المملكة فيبدو أن مادة الأحجار الرملية والجيرية كانت من مواد العمارة المستخدمة؛ إذ استمر استخدام نظام الدور الحجرية المذكورة سابقاً. ويصعب علينا في الوقت الحالي تحديد الفرق بين ما كان يستخدم في هذه الفترة وما كان يستخدم في الفترة التي سبقتها لعدم وجود مصادر كافية للمعلومات.

وخلال الألف الثاني قبل الميلاد عُرِف عدد من المواقع التي ترجع لهذه الفترة، وتظهر التنقيبات الأثرية فيها استخدام مادة الطين في العمارة السكنية، ومادة الأحجار التي كانت تستخدم في أساس الجدران. كما يبدو أن الطوب الطيني البني اللون، المجفف تحت أشعة الشمس المربوط بالمونة الطينية قد استخدم لإقامة جدران منازل مرتفعة، كما يحدث الآن، كما استعملت الأخشاب التي كانت تكسى بالطين وأغصان الأشجار في تسقيف المنازل.

وإلى جانب استخدام المادة الطينية في العمارة، استخدمت المادة الحجرية في أجزاء كثيرة من المملكة لتشييد منازل من المحتمل أنها كانت استمراراً لمنازل العصر الحجري الحديث، والألف الثالث قبل الميلاد. ومن أساليب العمارة المساكن المشيدة بالحجارة على هيئة نعل الفرس بطول قدره ثلاثة أمتار، وعرض يبلغ مترين. مع استخدام الحصى والجلاميد الصغيرة. كما يظهر الشكل الآخر بهيئة مستطيل مبني بالحجارة والجلاميد، ويزود بمدخل واضح تماماً وجدران للتقسيم الداخلي، ويزود في بعض الحالات بمرافق خارجية. ويظهر الشكل الثالث بهيئة دائرية أو بيضية لها شبه استدارة كاملة، أو بهيئة شبه دائرة. كما أن هناك شكلاً رابعاً يظهر على هيئة حرف U اللاتيني

مفتوح من طرف واحد. وتزود المساكن غالباً بمواقد دائرية غير منتظمة مبنية بالحجارة الصغيرة ويقل قطرها عن متر.

وفي جميع تلك الأشكال استخدمت حجارة خشنة غير مهذبة وضعت كيفما اتفق، ولم يستخدم أي نوع من المونة لربطها. ويظهر أن الجدران ارتكزت على الأرض مباشرة من دون أساسات، ويعتقد بعض الباحثين أن ما وجد من هذه الجدران ربما كان يشكل أساساً لمبانٍ من مادة قابلة للتلف. وإن صح ذلك فهو استمرار لتقليد قديم سبقت الإشارة إليه.

وبإيجاز فإن إنسان هذه المنطقة أقام في العراء لمدة طويلة من الزمن خلال العصور الحجرية القديمة، وارتاد الكهوف والمغارات في الأوقات العصيبة. وتمكن خلال العصر الحجري الحديث قبل ٩٠٠٠ سنة من تشييد أماكن دائرية وبهيئات أخرى باستخدام الأحجار المتوافرة له ليقيم فيها. وفي نهاية الألف السادس قبل الميلاد، وخلال العصر الحجري الحديث الفخاري، تمكن من استخدام الطوب الطيني في بناء مساكنه مع استمراره في استخدام المادة الحجرية المتوافرة له. وخلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد استخدم المادة الطينية في عمارة مستوطنات بمساحة كبيرة لمّا ينقب عن شيء منها بعد، باستثناء عمل مجسات. وقد استمر هذا التقليد في الفترات اللاحقة مع حدوث تطور ملحوظ، يوضحه ما حفر من مواقع تلك الفترة.

عصر الممالك العربية. جاء في لسان العرب في تعريف السكن: والسكن والمسكن والمنزل والبيت... والسكن أيضاً سُكْنى الرجل في الدار. وهو كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيره. وتخضع المساكن في الجزيرة العربية بصفة عامة لعدة عوامل، منها ما يتعلق بالمكان، والظروف البيئية، كالسواحل والجبال والصحاري وما يتبعها من ظروف مناخية كالأجواء المطيرة والجافة والحارة والباردة، ومنها ما يتعلق بتغير الزمان من حيث الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولهذا فإن نمط المسكن ومكان إقامته وتخطيطه تحكمه تلك العوامل. والسكن نقلة تاريخية في حياة الإنسان الحضارية التي اصطلح على تسميتها الاستيطان الدائم لدى المختصين في علم دراسة الإنسان.

مساكن الحضر: ذكرنا في فصل سابق أن الممالك العربية سبأ وحضرموت، وقتبان، ومعين، وما تلاها من تحالف قبائل سبأ وذي ريدان وحضرموت

ويمنت، سميت حمْير واتخذت من جنوب الجزيـرة العربيـة قاعدة لـها، ومسرحـاً لنشاطاتها السياسية والاقتصادية والدينية خلال الألف الأول قبل الميلاد. واستمر ذلك النشاط حـتى نهاية القرن السادس الميلادي، الذي شهدت أحداثه تخلخـلاً في الأوضاع الاجتماعية وركوداً اقتصادياً وانحلالاً سياسياً نتيجة الصراعات الدينية بين اليهودية والمسيحية والوثنية. فأدى ذلك إلـى تـدخـل الأحـباش سـنـة ٥٢٣م واحتلالـهم المنطقـة وبقائهم حتـى سنة ٥٧٥م ليفسحوا المجال بعدها للاحـتلال الفارسي الذي بقي حتى ظهور الإسلام ودخول اليمن كافة تحت رايته سنة ٦٢٨م.

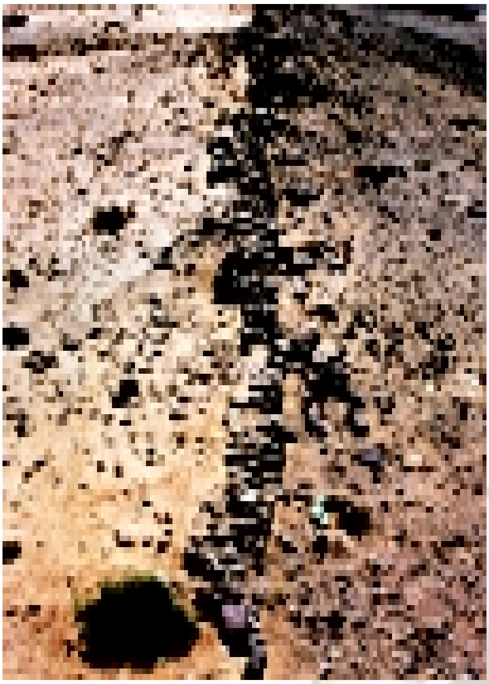
ولا شك أن عصر الممالك العربية، ولاسيما خلال النصف الثاني من الألف الأول قبل الميـلاد، شهد نظاماً سيـاسياً مستقراً أدى إلى انتـعاش اقتصاد المنطقة وازدهار تجارتـها، الأمر الذي دفع إلـى نمو حواضرها ورقي مجتمعاتها. فمأرب وقرنو وتمنع وشبوة كانـت عواصم ذات حضارة راقية وفن متقدم. وفي المملـكة العربية السعودية من بقايا تلك المدن المندثرة نجران وجـرش في الجـنوب والجـنوب الغربي وقرية الفاو جنوب منطقة الرياض، وفيها الجرهاء، وثاج في المنطقة الشرقية، وهناك قـريّة وتيماء فـي منطقة تـبوك، والحجر (مدائن صالح) في منطقة المدينة



جانب من أسوار مدينة تيماء

المنورة، فضلاً عن مكة ويثرب اللتين يغني ذكرهما عن التعريف.

وتحدثنا المصادر الأولية، التي أكدتها الحفريات الأثرية، أن البنّاء في عصر الممالك العربية لم يكن مهندساً معمارياً فحسب، بل كان فناناً ماهراً. فهو لم يكتف بهندسة الحجارة وصقلها وتزيينها، بل اهتم كذلك بالألوان والمظاهر الخارجية للبناء، حين استعمل الحجارة الملونة في تشييد البناء، فكوّن مناظر متعددة الألوان، محاكاة للطبيعة وتأثيراً على النظر، وأخذاً للألباب. فقصر غمدان مثلاً بُني من حجارة ذات ألوان متعددة، إذ جعلت مداميك حيطانه من أحجار مختلفة الألوان، فمدماك بحجارة بيضاء يليه مدماك بحجارة سوداء ثم آخر بحجارة خضراء، فحجارة حمراء. أما داخله فتتجلى فيه براعة التخطيط وجمال الزخارف وتنوع المزايا الجمالية. يذكر سترابو Strabo، وهو مؤرخ وجغرافي يوناني رافق حملة أليوس جاليوس Aelius Galius قائد الحملة الرومانية على جنوب الجزيرة العربية سنة ٢٤ق.م، أن سقوف المباني وأبوابها وأعمدتها وبعض جدرانها قد كسيت بصفائح الذهب والفضة وبالأحجار الكريمة والعاج، إضافة إلى



صورة توضح امتداد جزء من سور تيماء

الأخشاب الغالية الثمينة مما أكسب تلك المباني روعة وجمالاً.

وصناعة البناء في الجزيرة العربية منحصرة في أهل الحضر، وهم سكان المدن والقرى المستقرون الذين يتركز اقتصادهم على الزراعة والتجارة ومزاولة الحرف. وأبنية المساكن مختلفة متفاوتة، منها البناء بالحجارة، ومنها البناء باللبن، وبالآجر، وبالطين. وهي على أوضاع مختلفة وأشكال متفاوتة. فمن الأبنية الدار، التي جاء في المخصص ذكرها بأنها: البيت والدارة والمنزل والمنزلة والمباءة والمعان والمأوى، ويقال لصحن الدار:

حر الدار وقاعتها وباحتها وساحتها وصرحتها وبحبوحتها، وفي الدار: البيت وجمعه أبيات والكثير البيوت، والمخدع: البيت في البيت، والنفق والسرب: البيت تحت البيت، والغرفة فوقه، وهي العلية وجمعها علالي، والخزانة، وهي التي يحفظ فيها الشيء، والمرقد: المضجع. ومن أجزاء المسكن الحائط والجدار وهو ما أطاف من البناء بالشيء، والأس أصل الحائط. وفي الدار الصُّفَّة وجمعها صفاف، ومنها الشرقية التي تقابل المشرق والغربية التي تقابل المغرب، والمضوء مكان ظله دائم، والزاوية ملتقى الحائطين في البيت، والكوة المثقب في أعالي البيت ويقال لها: الشاروق، وهي القترة، فتحة في سقف غرفة الطبخ تعلو الموقد وينفذ منها الدخان، ولا تكون إلا في سقف ليس فوقه بناء، وما تزال تعرف بهذا الاسم وتؤدي الوظيفة نفسها في مساكن المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية من المملكة. وقد وردت في حديث عن الرسول ﷺ رواه أبو أمامة: من اطلع من قترة ففقئت عينه فهي هدر. وفي لسان العرب، القُترة، بالضم: الكوة النافذة وعين التنور، والمراد الأول. وتسمى القترة في القصيم النبر، ومنها نوع مربع الشكل له غطاء يحرك بحبل ويسمى (كشاف) ويسمى في الخرج والمنطقة الشرقية الباقدير. والمشكاة التي في الحائط يقال لها الأوقة، ويقال للسطح: الإجار والصهوة، وسقف البيت أعلاه الداخلي، وسمكه ما بين قراره إلى سقفه. والطاية السطح ومربد التمر وكان السطح يسمى الطايه إلى عهد قريب في نجد. والدرج ما يرتقى به إلى السطح، فإن كان من خشب فهو السلم والعتب، وكل مرقاة منها عتبة والجمع عتب وعتبات، والفرغ الخلاء بين المرقاتين، والتفاريج والطنف آجر أو نحوه يجنح به أعلى الحائط ليقيه المطر، وهو الكنه والإفريز، ومنها أفرز حائطه وطنفه. والعلاوة أعلى الحائط الذي لا يغمى، وقد يكون الطنف قراميد وهو الآجر الطويل. والهرادة من الخشب لأعالي الحيطان والنجيرة سقيفة بخشب لا يخالطها غيره، والعرس حائط أو أسطوانة يقام في البيت يوضع عليها طرق الجائز أو الجيز وهو العارضة، والراقد خشب فوق العارضة (الحمام). وفي البيت الكنيف، ويقال له الحش والمستراح والمخرج، أما الكرياس فالكنيف على السطح بقناة إلى الأرض وربما كان ناتئاً مكشوفاً، والمرحاض المغتسل، والمزراب أو الميزاب هو المثعب، ويكون من الخشب

وغيره لتصريف المياه من أسطح المساكن، والبالوعة حفرة مغطاة في وسط الدار. وفي المسكن المطبخ وهو موضع الطبخ، والمخبز موضع التنور، والمسعر والوطيس والتنور والهيلم واحد، والكرامة طبق التنور، والمناقة حجره، والساعور تنور صغير في الأرض. ومما يتصل بالمسكن الاصطبل ويجمع على اصطبلات وأساطب، وفيه المربط وهو الموضع الذي تربط فيه الدواب، والمزود موضع علوفة الدابة.

ومن المساكن القصر، ويقال له: المجدل والفدن والقصر، والصرح وهو كل بناء مرتفع. والأطم والأجم الحصن، وجمعها آطام وآجام. والسور حائط المبنى، والربط حائط حول السور، والشرف ما أشرف فوق الحائط واستشرف الناس من ورائه.

مساكن الأعراب: الأعراب مشتقة من لفظة عرب، وهي صفة لسكان البوادي في الجزيرة العربية الذين يعتمدون على رعي الإبل والأغنام أو كليهما، وتكون حيواناتهم هي الركيزة الاقتصادية لمعيشتهم. وتقوم حياة البدوي على الارتحال من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء وطلباً للكلأ، فإن استقر في مكان ما فإقامته مرهونة بتوافرهما.

وخلافاً للمصطلح العام في علم الإنسان الذي يعرف حياة البدو بأنها التنقل والارتحال، فبدوي الجزيرة العربية، وإن مارس الظعن والانتجاع، إلا أنه يمارس ذلك ضمن منطقة جغرافية معروفة وحدودٍ إقليمية معينة. وظعنه وإقامته محكومة بأعراف قبلية متفق عليها، وهي ملزمة للقبيلة عامة والفرد بصفة خاصة ولا سبيل إلى الخروج عنها أو التنصل منها. ولعل الإقامة الفصلية أفضل تعريف لحياة أعراب الجزيرة العربية، وهي مرحلة أرقى من حياة التجوال، وأدنى من حياة الاستقرار الدائم. وفي بيئة هذا شأنها تنحصر أهمية المسكن فيما يفي بالحاجة ويحقق المقصود، إذ لا مجال لمسايرة طموحات الذوق أو إرضاء العواطف.

ومساكن الأعراب خِباء من صوف، أو بِجَاد من وبر، أوفُسطاط من شعر، أو سُرادق من قطن. ومن بيوتهم القشع وكانوا يتخذونه من الجلود، والقشع الجلد اليابس. والطراف بيت كان الأغنياء منهم يتخذونه من الأديم، قال الشاعر:

رأيت بني الغبراء لا ينكرونني
ولا أهل ذَيَّاك الطراف الممدد

والحظيرة بيت كانوا يتخذونه من شذب، والشذب هو ما يقطع مما تفرق

من أغصان الشجر، والكبة بيت يبنى من اللَّبِن. وعلى الرغم من تعدد الأسماء وتنوع المادة المستخدمة في البناء، فالمسكن البدوي يتسم بالبساطة وأداء الغرض وسهولة النقل وقلة الكلفة. والبدوي لا يرى في مساكن الحضر وما تحلت به من فنون ميزة على خيمته، بل نراه يمقت قصورهم ويزدري نمط حياتهم. ولا تقل نساء البدو عن الرجال في التعلق بحياة الصحراء والتغني بسكنى الخيام. يروى أن ميسون بنت بحدل الكلبي بدوية من نجد تزوجها معاوية ونقلها إلى الشام، وكانت تكثر الحنين إلى أناسها، والتذكر لمسقط رأسها. فسمعها ذات يوم تنشد هذه الأبيات:

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني
أحب إليّ من لبس الشفوف
وأصوات الرياح بكل فج
أحب إليّ من نقر الدفوف
وكلب ينبح الطراق عني
أحب إليّ من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب
أحب إليّ من بغل زفوف

ثم إنه فارقها وأعادها إلى قومها وديارها. وهي أم ولده يزيد. وفي هذا السياق يروى أن امرأة ضبية تسمى حسانة جلست على بركة في روضة بين الرياحين والأزهار في ألطف وقت وأبهجه - وكانت قد احتملت من البادية إلى الحضر- فقيل لها: كيف حالك هنا؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية؟ فأطرقت ساعة، ثم تنفست وقالت:

أقول لأدنى صاحبي أسره
وللعين دمع يحدر الكحل ساكبه
لعمري لنهر باللوى نازح القذى
بعيد النواحي غير طرق مشاربه
أحب إلينا من صهاريج مُلِّئت
للعب ولم تملح لدي ملاعبه
فيا حبذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبته بالعشي هواضبه
وريح صبا نجد إذا ما تنسمت
ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه
وأقسم لا أنساه مادمت حية
ومادام ليل من نهار يعاقبه
ولازال هذا القطر يسفر لوعة
بذكراه حتى يترك الماء شاربه

إنه شعور عفوي نابع من عواطف صادقة وغريزة مكتسبة التزمت بها المرأة البدوية. وهو إحساس لم يرتبط بمرحلة تاريخية معينة، وفترة عصر الممالك العربية ليست إلا حلقة من سلسلة طويلة لتاريخ الجزيرة العربية، والمرأة البدوية كان ذلك

شأنها، وما يزال كذلك حتى يومنا هذا. والمسكن في حياة البدوي وسيلة وليس غاية، فإذا فاخر بدوي حضرياً بسعة خيمته وطول دعامتها فإنما ذلك كناية عن المثل الراقية والعادات الكريمة التي تمارس في ذلك النزل، من إكرام للضيف، وإغاثة للملهوف، وإيواء للمستجير، وهي معان سامية في حياة العرب. وقد أسهب ابن خلدون في مقدمته في مبحث حياة سكان البوادي انطلاقاً من مساكنهم ومنازلهم وانتهاء بطبائعهم وأخلاقهم.

ولا تكاد الكشوفات الأثرية التي تمت في أنحاء متفرقة من المملكة تسعفنا بما يعول عليه في هذا المبحث. وسبب ذلك أن طبيعة المسكن البدوي المتمثل في خيمته أياً كان نوعها لا تستطيع مقاومة عوامل البلى وعوادي الزمن، إضافة إلى أن طبيعة أماكن الاستقرار الفصلي لا تمثل المواقع الأثرية خير تمثيل. ولذا فإن المصدر الوحيد الذي يعول عليه يتمثل في الموروث الشعبي أو الروايات المدونة في مؤلفات كتاب صدر الإسلام. وقد تميزت القصور، بصفة عامة، بكونها مساكن علية القوم، ولذا فإنها لا تعكس بالضرورة حالة المسكن السائد في الحواضر القديمة والذي يسكنه الحرفي والتاجر والمزارع والخادم. وعلى الرغم من أن التنقيبات الأثرية التي أجريت في عدة مواقع من الجزيرة العربية أمدتنا



صورة جوية لقرية الفاو

بمعلومات قيمة عن كثير من جوانب حياة سكان تلك المواقع، إلا أن الإجابة الشافية عن نمط المساكن وتخطيطها يظل دون مستوى تلك المعلومات.

وإذا ما تلمسنا إجابة ترضي طموحات القراء بمختلف مستويات ثقافاتهم، فإن مدينة قرية وتسمى الفاو ستكون بمثابة حجر الزاوية في إمدادنا بمعلومات يعول عليها عن مساكن عامة الناس بمختلف أوضاعهم الاجتماعية وإمكاناتهم المادية.

تتكون قرية الفاو -التعريف بها- من عدة أحياء ترتبط بشوارع فسيحة وطرق مستقيمة. وقد شيدت مبانيها متراصة ومتناسقة على تلك الشوارع والطرقات. ويتكون البيت بصفة عامة من طابقين، إما بمدخل واحد من الدور الأرضي يرتبط بالدور الثاني بدرج داخلي، أو بمدخلين مستقلين لكل دور، أحدهما للدور الأرضي والآخر يرقى إليه بدرج خارجي للدور الثاني. وفي الحالتين لابد من وجود مرقاة داخلية توصل ما بين الدورين. ويتكون الدور الأول من عدة غرف، إما متقابلة يفصل بينها دهليز واسع، أو يدخل لإحداهما عن طريق الغرفة الأخرى. وتوظف غرف الدور الأرضي لسائر الخدمات وتتوقف سعة الغرفة وشكلها على الوظيفة التي تؤديها.

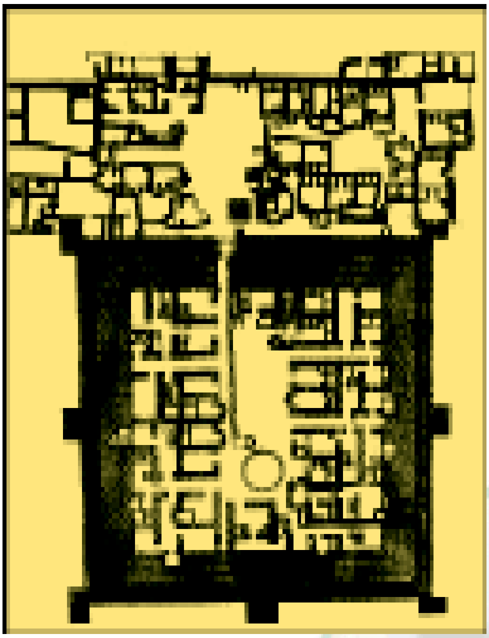
فهناك غرفة الطبخ، وهي أصغر من المجلس أو غرف النوم، وبها موقد للنار وعدد من المطاحن الحجرية. ثم غرف



مخطط لجانب من المنازل السكنية بقرية الفاو

التخزين، وهي مجمع لعدد من الخزائن مبنية بالطين ومطلية بالجص، وتستخدم لخزن الحبوب والتمور ويتوقف حجمها على الوضع المادي للساكن. أما المجلس فأكبر الغرف ويزود بعض المجالس بدكة على الحائط ليجلس عليها كبير الأسرة أو الضيف. ويصعد إلى الدور الثاني بدرج صغير، إما باتجاه واحد أو باتجاهين يفصل بينهما بسطة صغيرة. ويفضي الصاعد إلى حمام يقع غالباً في أحد الأركان الرئيسية للبيت، وينقسم إلى قسمين أحدهما لقضاء الحاجة والآخر للاستحمام. ونظراً للخراب الذي تعرضت له الفاو لم يعثر على منزل بدورين في حالة سليمة، إلا أن التخطيط العام للدور الأرضي إضافة إلى ارتفاع مداميك الحيطان والجدران الداخلية يؤكد وجود الدور الثاني.

والعامل المشترك في منازل قرية الفاو وجود غرفة أو أكثر خاصة بالحياكة تؤكدها تلك الكوات المثقوبة في جدرانها التي تثبت فيها آلة الحياكة. وهناك منازل يختلف طراز بنائها ويشذ عن القاعدة وهي قليلة، ويستنتج من الكتابات التي على جدرانها والصور المرسومة والأشكال القريبة أنها كانت عيادات يمارس فيها التطبيب. وتكاد لا تجد جداراً في عامة البيوت يخلو من



مخطط لمباني السوق الداخلي والخارجي بقرية الفاو

كتابة كأسماء أشخاص، أو دعاء رب، أو توله على حبيب، أو شكوى من ظلم، أو تودد إلى قريب، وهي منقوشة على طبقة الجص بطريقة عفوية. وإذا ما أعيت الكاتب شجونه فلن يتردد في كتابة ما يجول بخاطره على الجدران، مثل: فلانة تحب فلاناً، فلان يحب فلانة، أولئك عاشقان وهكذا، وربما وجدت طبقات عدة من الجص يعلو بعضها بعضاً، وكل طبقة تحمل الأفكار نفسها والنقش نفسه. والكتابة الشائعة كانت بخط المسند الجنوبي.

وأما المعثورات التي وجدت داخل المساكن فتعكس التقدم الحضاري الذي

بلغته قرية الفاو وتظهره بجلاء. فمن ذلك أن المراحيض مزودة بمقاعد مقطوعة من الصخر مهيأة بطريقة تؤدي الغرض وترضي الذوق المعماري ولا تكاد تختلف عن مقاعد مراحيض أيامنا هذه المصنوعة من الخزف الصيني والمستخدمة فيما يسمى الحمام العربي. وقد وجدت حفاظات تستخدمها النساء للوقاية أثناء الدورة الشهرية، عبارة عن لفافات من القماش المحشو بقطع قماش ناعم. ومن اللافت للنظر خلو مساكن قرية الفاو من زرائب الأغنام ومرابط الخيول أو حتى وجود مذاودها، وربما كانت ترعى خارج منطقة المساكن، في حماية الرعاة والخدم. ويوجد في مواطن كثيرة من الجزيرة العربية مبانٍ شيدت خارج النطاق العمراني أطلق عليها الآطام.

جاء في لسان العرب: الأطم حصن مبني بحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مسطح، والجمع آطام وأطوم، واشتهرت بها يثرب (المدينة المنورة) ونجران، قال أوس بن مغراء السعدي:

بث الجنود لهم في الأرض يقتلهم
ما بين بصرى إلى آطام نجرانا

ولا تختلف الآطام عن القصور من حيث الفخامة والسعة إلا أنها تزيد عن القصور بوظيفة حربية، إذ تتخذ بمثابة مراكز دفاعية، ولذا يختار لها المواقع المرتفعة حول الحواضر. ومن أشهر آطام يثرب أطم كعب بن الأشرف، وأطم حسان بن ثابت، وقد كان النبي ﷺ إذا خرج لقتال عدوه من المدينة رفع أزواجه في أطم حسان لأنه كان من أحصن آطام المدينة، وما تزال أطلاله باقية إلى يومنا هذا.

العمارة الدينية

يراد بالعمارة الدينية تلك المنشآت المخصصة لممارسة الطقوس التعبدية كالمعابد وما يتبعها من مرافق تتعلق بوظيفتها؛ وكذلك المقابر بأشكالها المختلفة كالمقابر الرجومية والركامية والمحفورة والمنحوتة على واجهات الصخور والجبال وما اتبع فيها من هندسة الدفن وتقاليده.

المعابد. يقصد بالمعابد المباني المشيدة لغرض التعبد وتقديم القرابين. وهي منشآت عمرانية خصصت لممارسة الطقوس الدينية، ويتعبد فيها عامة القوم وخاصتهم، وذكورهم وإناثهم. ووجود المعابد في مدن الجزيرة العربية إبان فترة الممالك العربية ظاهرة عامة، ولا توجد حاضرة تخلو من المعبد، بل اشتهر كثير

من تلك الحواضر بمعابدها. فمدينة الفاو سميت قرية ذات كهل. وكهل أهم المعبودات الرئيسية في المدينة وهو الذي أشارت إليه الكتابات وهو يرمز للقمر. وآثاره ما تزال موجودة إلى اليوم، كتابة ورسماً على سفوح جبل طويق، وعلى جدران سوق الفاو ومنازل سكانها ومجامرهم وعملتهم التي سكت في تلك الحاضرة. والمعبد في مطلق اللفظ يشمل كل مكان تُعُبِّدَ فيه، سواء كانت العبادة لتمثال أم لغيره. وقد اتخذ سكان الحواضر والمقتدرون منهم بيوتاً وكعبات تؤدى فيها العبادة لأصنامهم.

وذكر أن وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي كان قد اتخذ له صرحاً بالحزورة، وهي سوق كانت بمكة، وكان يرتقي إلى ذلك البناء بسلالم. ومن الأسماء التي أطلقت على بيوت العبادة الطاغوت



أطلال معبد روافة – جنوب غرب تبوك

والجمع طواغيت، وهي بيوت عبادة عظمها العرب في جاهليتها.

وقد يضاف لفظ بيت إلى المعبود المقصود بالعبادة، فيقال: بيت مرب وبيت ريام، أي معبد مأرب ومعبد ريام. وبيت ريام فيما يرويه ابن الكلبي كان لحمير بصنعاء، وكان الناس يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح.

والكعبة -كما جاء في لسان العرب- أشهر بيوت العبادة في جزيرة العرب، وهي بناء مربع، وكل بيت عبادة مربع يعد كعبة عند العرب، والكعبة الغرفة. وكان لربيعة بيت يطوفون به، يسمونه الكعبات، وقيل ذو الكعبات، ذكره الأسود بن يعفر في شعره فقال:

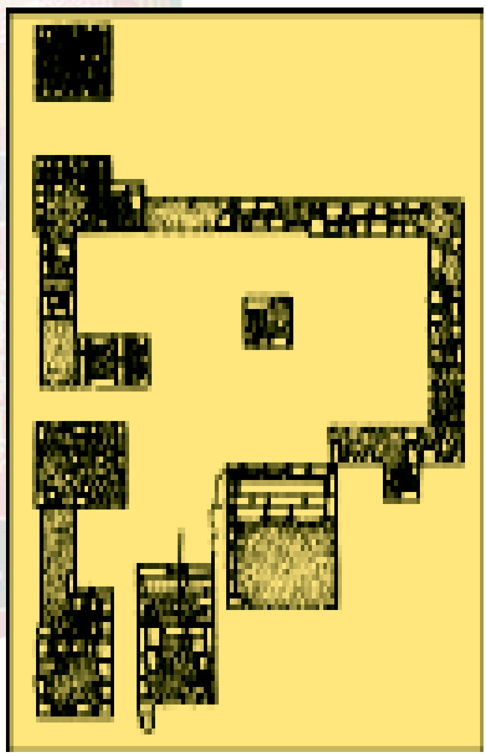
والبيت ذي الكعبات من سنداد

وتقابل كلمة المعبد في العربية كلمة Temple في الإنجليزية، وتعني بناءً مربعاً، بمعنى كعبة في كلتا اللغتين. واللفظتان تتفقان معنى ومضمونا في شكل البناء وطرازه ووظيفته. ومن أشهر المعابد التي شيدت في عصر الممالك العربية معبد يحا في أكسوم بالحبشة، ويعد أقدم بناء وثني بنمط يمني خارج الجزيرة العربية. وهو مربع التصميم، وجداراه الجانبيان أملسان، وجداره الأمامي وحده مزين بانخفاض عمودي أقيم فيه الباب الذي

يوصل إليه مدخل من سلالم، وتعلو جداره نافذتان.

ويوجد في المملكة أطلال معابد شيدت في مواضع كثيرة يعود بها التاريخ إلى فترات متباينة إبان عصر الممالك العربية. ويعد معبد سين ومعبد ود ومعبد كهل في الفاو من أكبر الشواهد على تلك المنشآت العمرانية.

ومعبد ود بناء مربع على دكة يُصعد إليه على أربع درجات يليها درجة خامسة تفضي إلى مصطبة مستطيلة توصل إلى باب المعبد المواجه للشرق، ويجتاز



مخطط لمعبد بقرية الفاو

الداخل إلى المعبد عتبة تفصل أرضية المعبد عن المصطبة الخارجية. ويحف بالدرج كتفان مدرجان عن يمين الصاعد إلى المعبد وشماله، وقد ثبت على واجهتيهما لوحات برونزية نقش عليهما بخط المسند مراسم البناء ومصادر تمويل بنائه.

وما يزال المعبد بحالة جيدة محتفظاً بالكثير من الرموز المعمارية المرتبطة بعبادته، فعلى سبيل المثال يعلو الكتف الأيمن في الجهة الشمالية حوض ربما كان لوضع ماء للتبرك به، أو لوضع الهبات والقرابين. وقد ثبت في مدماك الجدار الشمالي للمعبد ميزاب لتصريف السوائل من الداخل إلى الخارج، وتوجد كوّة (مشكاة) في الجدار الجنوبي داخل المعبد.

وبعيداً عن التفصيلات الدقيقة المتعلقة بوظيفة المعبد وتخطيطه، فهو يُعد تحفة معمارية تبرز مهارة البنّاء العربي وتعكس رقي ذوقه وسمو تفكيره.

ويلحق بالمعابد بصفة عامة مصادر للماء، إما عبر قنوات إذا وجدت بئر في حرمه أو بالقرب منه، وإما في خزانات يتعهدها السدنة ويحرصون على أن تكون مملوءة دائماً. وتوافر الماء في المعبد ضرورة دينية تفرضها طقوس العبادة، إذ إن العبادات لا تؤدى إلا في حالة طهارة المتعبد، علاوة على ما تتضمنه عقائد

القوم من تقديس لمياه المعابد وحرصهم على التبرك بها شرباً أو غسلاً.

ومن المعابد المبنية ما يطلق عليه العرش، والعرش -والكلام لابن منظور- لفظة ذات معان كثيرة، ولكنها في الأصل تعني سرير الملك، ولذلك فهي ترمز إلى الفخامة والعظمة، قال تعالى ﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾ (النمل: ٢٣) وتأتي بمعنى البيت والمنزل، والجمع عروش. ومن معاني لفظة عرش المجازية العزة والكرامة، يقال «ثُلَّ عرشه»: هدم ما هو عليه من قوام أمره، قيل وَهَى أمره وذهب عزّه، قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها
وذبيان إذ زلت بأحلافها النعل

وقد كان للعرش مهام دنيوية إضافة إلى وظيفته الدينية، ولذا كان بمثابة المنبر في محراب المسجد، وكان غالباً ما يشاد في الساحات العامة ويكون مرتفعاً يرقى إليه بدرج، ويكون مواجهاً للساحة ولا يرتقيه إلا أصحاب الشأن وذوو المكانة في المجتمع، ومن فوقه تلقى الخطب ويعلن القرار ويُبت في الأمر.

ومن الأمثله الأثرية الدالة على العرش ذلك البناء المشيد في قرية الفاو، ويقع بين منطقة السوق والمنطقة السكنية، ويتكون من بناء مربع مصمت يرتفع عن مستوى الأرض المحيطة به بما يزيد عن المترين، ويرقى إليه بدرج مواجه للساحة العامة الملاصقة لمعبد سن.

وكان بنجران بيت عبادة عرف باسم كعبة نجران تذكر الروايات أن بني عبد المدان أقاموها مضاهاة للكعبة المشرفة. ويستخلص من الأخبار الواردة عن هذه الكعبة ومن أسماء أصحابها وكونهم أساقفة أنها كانت بيعة (كنيسة) أسسها النصارى، وكانت لبني الحارث بن كعب ويشرف عليها بنو عبد المدان.

وقد ورد ذكرها في شعر ينسب للأعشى إذ يقول:

وكعبة نجران حتم عليـ
ـك حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح
وقيسا هم خير أربابها

وقد اشتهرت كعبة نجران وطبقت سمعتها أرجاء الجزيرة العربية، وأكثر من ذلك قصة أصحاب الأخدود التي وردت في القرآن الكريم في سورة البروج ﴿قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ (البروج: ٤-٨). وهي حادثة مرتبطة بالديانة

المسيحية التي كانت سائدة آنذاك. وكانت كنيسة نجران رمزاً لها. وقد طبقت شهرة كنيسة نجران الآفاق، وكانت من أهم المزارات الدينية، وبقيت كذلك حتى مبعث الرسول ﷺ. وتورد حوادث السنة العاشرة من الهجرة قدوم وفد نصارى نجران إلى المدينة المنورة وطلبهم مباهلة الرسول ﷺ ثم عدولهم عن ذلك ومصالحتهم معه ﷺ.

ولم تسفر الدراسات الأولية والبحوث الميدانية للأخدود عن منشآت عمرانية لنتلمس من خلالها مكان تلك الكنيسة أو تخطيط بنائها، إلا أن فيلبي Philby، وقد زار خرائب المدينة وأطلالها، يذكر أنه شاهد بقايا معمارية توحي بأنها كانت مزاراً لضريح ينسب إلى عبدالله بن الثامر أحد قساوسة نجران.

الكعبة المشرفة. بيت الله الحرام، قال تعالى ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ (البقرة: ١٢٥). وإليها يتجه المسلمون في صلواتهم. قال تعالى ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها. فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾. (البقرة: ١٤٤). فالاتجاه إليها ركن من أركان الصلاة، وحجها ركن من أركان الإسلام، لمن استطاع إليه سبيلا.

والمرجع الصريح في تاريخ الكعبة المشرفة القرآن الكريم، وهو القول الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذ يخبر الله سبحانه وتعالى أن أول بيوت العبادة الخالصة له هي الكعبة المشرفة. قال تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧).
وقد شيدها سيدنا إبراهيم، يساعده ابنه إسماعيل عليهما السلام. قال تعالى ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة: ١٢٧)، وورد في بنائها آراء كثيرة مختلفة. وبقيت الكعبة مركزاً لعبادة الله تعالى من قبل خلفاء إبراهيم وأبنائه، وهي الديانة التي عرفت بالحنيفية التي وضع أسسها سيدنا إبراهيم بتوجيه رباني. وبقيت على ذلك ماشاء الله، حتى انحرف الناس عن ملتهم واختلفوا في معبوداتهم فأحيطت الكعبة المشرفة بالأصنام والأوثان. تذكر الروايات أنه كان بالكعبة عندما دخلها المسلمون في عام الفتح، في السنة الثامنة للهجرة، ثلاثمائة وستون صنماً. ومع تعدد

الأصنام وتنوع طقوسها واختلاف مواسمها إلا أنها لم تنبذ الجذور العقائدية والتاريخية للكعبة المشرفة كرمز تؤدى عنده عبادة الله المبنية على حنيفية سيدنا إبراهيم، فالعبادة في جوهرها لله وهو المقصود بالعبادة والمعني بالألوهية، ولكن الأصنام كانت تعظم كوسائط بين المتعبد والمعبود. وبعيداً عن اجتهادات المؤرخين وشطحات الرواة يفصل القرآن الكريم ذلك المعنى في قوله تعالى ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (الزمر: ٣). ولسنا بصدد تتبع المسار التاريخي للعبادات التي مورست في الكعبة منذ بنائها فذلك مبحث له مجالات كثيرة وفروع متشابكة، ولها من المراجع ما يعجز عنه الحصر، وإليها نحيل من يرغب في الاستزادة.

كان عرب الجزيرة العربية في عصر الممالك العربية يدينون لآلهة مختلفة، شأنهم في ذلك شأن بقية الشعوب السامية، بل وشأن كافة الشعوب المعاصرة لهم. ودخل إلى دينهم كل صورة من صور حياتهم، وكانوا يرون أنه لا بد من رضا الآلهة لتوفيق كل حي ونجاح كل عمل. فكان للقبائل والأسر، بل للدول والجماعات الزراعية والتجارية أيضاً، آلهة تحميها. وكان يقام عند أداء كل عمل له أهمية احتفالات لاسترضاء الآلهة وتكريس ذلك العمل لها. وكانت المعابد والقنوات والسدود والقوانين ومراسيم الدولة، وأنصاب القبور، توضع كلها في رعاية الآلهة، وكان على الآلهة أن تنتقم من كل من ينتهك حرمة تلك الأشياء أو يدنسها.

في مثل هذه البيئة كانت للمعابد أهمية كبرى، إذ كانت تخصص لها العشور من الزراعة والتجارة، إضافة إلى الهبات والعطايا التي كانت تقدم للمعبد التماساً لمرضاته أو تجنباً لغضبه أو شكراً لتوفيقه. وكان تعهد المعبد ورعايته واجب الكهنة فيما يتعلق بأمور عباداتهم، أما خدمة المعبد والمتعبدين فتناط بالسدنة. وقد امتازت معابد الجزيرة العربية في هذه الفترة بعدم وجود البغايا المقدسات اللواتي يقمن بخدمة المعبد، وهي ظاهرة شائعة في معابد حضارتي وادي الرافدين وبلاد الشام.

وكانت القرابين تقدم من حيوانات مختلفة، كالثيران والأغنام، ويتضح ذلك من كون المذبح أحد مقومات المعبد الرئيسية، وقد وجد مذبح في معبد ود في الفاو ضمن البناء المشيد، وكان هناك قرابين من غير دم كقرابين الشراب

والبخور. وتعكس المباخر التي وجدت في معابد الفاو وكثرتها والعناية التي صنعت بها أهمية البخور في الطقوس الدينية عند عرب الجزيرة العربية في عصر الممالك.

وتتضح أهمية خدمة المعبد ومرتاديه في وضع الكعبة المشرفة التي كانت مجالاً لتنافس شديد بين القرشيين لما لها من شرف وسؤدد. ومن تلك الأمور السدانة والسقاية، والرفادة، ولكل منها وظائف معلومة يؤديها الملتزم بها في المواسم الدينية، وكانت حكراً يرثها الصغير عن الكبير من العائلة نفسها.

المقابر

عرف الإنسان في هذه المنطقة منذ عصر مبكر قيمة موتاه واحترامهم بما يوازي تقريباً زمن بداية معرفته في أقطار الشرق الأدنى القديم الأخرى. فمنذ أن استوطن وأقام في العصر الحجري الحديث، أي قبل ٩٠٠٠ سنة، ومستوطناته تقترن بأماكن يواري فيها جثث موتاه. وخير دليل على ذلك ما اكتشف في موقع الثمامة الذي يرجع إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار، أي نهاية الألف السابع قبل الميلاد، وفي موقعين إلى الجنوب من مدينة الخماسين بخمسة وثلاثين كيلاً في وادي الدواسر في الإقليم الأوسط.

وقد استمر هذا التقليد خلال العصر الحجري الحديث الفخاري (٦٠٠٠-٣٤٠٠ سنة تقريباً) حيث نجد عدداً من المقابر في مستوطنتين مهمتين تقعان بالقرب من مدينة الدوادمي في الإقليم الأوسط. ويستمر التقليد نفسه خلال الألفين، الرابع والثالث قبل الميلاد، فلا نمر على ذكر موقع مكتشف يرجع إلى هذه الفترة إلا ويذكر أنه اكتشف حوله حقل مقابر وأحياناً حقولٌ تحتوي على مقابر بأنماط مختلفة في تصاميمها من مقبرة لأخرى، مما يدل على تدرج استيطاني.

وتطورت خلال هذا الألف عمارة المدفن إلى ما يعرف باسم مقابر التلال الركامية والمقابر الرجومية. وبدأ في أول الألف الثاني قبل الميلاد ظهور المقابر المنحوتة في باطن الأرض إلى جانب استمرار النوعين الآخرين. ويستمر الدفن على هذا النمط حتى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد حيث يظهر فن جديد في الدفن يعرف باسم المقابر المنحوتة واجهاتها على سفوح الجبال. وعايش هذا التقليد بدوره التقاليد التي ذكرناها آنفاً، ولذا أصبح أكثر من نموذج للدفن يستخدم في المستوطنة الواحدة.

وتعد المقابر المنحوتة في واجهات الجبال أقدم أنواع المقابر التي ذكرت في الدراسات الأثرية الحديثة، فالرحالة الأوربيون تمكنوا من مشاهدتها في مدائن صالح في منتصف القرن التاسع عشر. وقد استمر الاهتمام بهذه المقابر لأنها تحمل جوانب فنية ونقوشا مكتوبة، فكُتب عنها الكثير، مما يفيد أن تاريخها يعود للقرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي، وأنها ظهرت بتأثير من الشمال عبر ما يسمى بالحضارة النبطية حسب ما يذكر بعض الباحثين. أما المقابر المنحوتة على جبال العلا في منطقة الخريبة فإنها نالت دراسة مماثلة، مفادها أن تلك المقابر قد تعود للقرن السادس قبل الميلاد. وتجدر الإشارة إلى أنه لم ينقب عن شيء من هذه المقابر على الرغم من الاعتقاد السائد بأنها قد نهبت في القرون الغابرة.

أما المقابر الرجومية ومقابر التلال الركامية فإن تاريخ البحث فيها أقصر عمراً وأقل حجماً مما أنجز في المقابر المنحوتة على واجهات الجبال، على الرغم من أن عددها وانتشارها الجغرافي يفوق بكثير المقابر المنحوتة على واجهات الجبال. فأول الأخبار عنها نجدها في تقارير الرحالة الذين ارتادوا المنطقة الشرقية في منتصف القرن الحالي. واستمرت التقارير تذكر تلك المقابر حتى عام ١٩٦٨م عندما مسحت البعثة الدانمركية الثانية جزءاً واسعاً من الإقليم الشرقي وأفادت عن وجود عدد كبير منها. واتصل حصر تلك المقابر خلال أعمال المسح الشامل لآثار المملكة حيث أفادت تقارير المسح عن وجود تلك المقابر في الأقاليم الستة، مع وجود تنوع من إقليم لآخر. أما أعمال التنقيب عنها فإنها قليلة، ويعود أقدمها إلى نهاية الخمسينيات من هذا القرن عندما نُقب عن اثنتين من هذه المقابر مصادفةً خلال إجراء أعمال إنشائية في منطقة الظهران. وقد سرق لصوص المقابر عدداً قليلاً منها. وفي عام ١٩٦٨م نقبت البعثة الدانمركية عن أربعة منها في واحة يبرين، وخلال أعمال المسح الشامل نقب عن عدد قليل منها اقتصر على مقبرة أو اثنتين في كل إقليم من أقاليم المملكة. وفي عام ١٩٧٩م نقب عن عدد قليل في مدينة تيماء القديمة. وابتداءً من عام ١٩٨٣م نفذت أربعة مواسم تنقيبية في حقل يقع إلى الجنوب من مطار الظهران. ونشرت جميع هذه الأعمال في تقارير أولية.

أما تاريخ البحث في المقابر المحفورة في باطن الأرض فإنه أقصر من تاريخ البحث في الموضوعين المذكورين أعلاه.

ويقتصر العمل المنجز فيه على تنقيب عن عدد قليل في مدينة تيماء القديمة، وعدد آخر في منطقة ليلى في وادي الدواسر، وعدد غير قليل في قرية الفاو.

المقابر الركامية. يطلق هذا الاسم على نوع من المقابر تظهر بهيئة أكوام من الحجارة المتراكمة، وهي تشتمل على أنماط متنوعة سوف نأتي على ذكرها. وينتشر هذا النوع من المقابر في جميع أجزاء المملكة، فيندر أن يخلو تقرير من تقارير المسح الشامل الذي أنجزته إدارة الآثار والمتاحف السعودية من ذكر له. وتقترن عادة هذه المقابر بمنشآت معمارية أخرى دالة على الاستيطان الدائم، مثل الدوائر الحجرية، والمنشآت المذيلة، وغيرها. وتوجد المقابر الركامية بتجمعات تختلف في عددها من مكان لآخر. ففي بعض الأماكن يصل العدد إلى الآلاف، وأحياناً يقتصر العدد على بضع عشرات منها. وهي تظهر بأنماط متنوعة تشتمل على النمط الدائري المجرد من أي ملحقات والمبني بحجارة غير مهذبة وغير منتظمة، والنمط الدائري المستوي ذي الأساسات المبنية بعناية. وكذلك النمط الدائري المزود بذيل مبني باستخدام ركائز حجرية صغيرة يبعد بعضها عن بعض بمتر أو مترين، إضافة إلى النمط الدائري المزود بذيل من ركائز حجرية صغيرة منفصلة تكون على شكل مستطيل أو شبه منحرف. والنمط الدائري الذي يحيط به سور دائري يبنى عادة برص الأحجار أفقياً.

وتختلف هذه المقابر في أحجامها، وارتفاعها، وأطوال الذيول الملحقة بها. فمنها ما يبلغ قطره أكثر من ٤,٢٠م، أو ما يبلغ قطره ٣م أو أقل من ذلك. أو ما يبلغ ارتفاعه ٣,٢٤م، أو ما يبلغ متراً واحداً أو أقل. وقد يكون طول الذيل ٥م، ويصل أحياناً إلى ٤٠٠م وأكثر.

واستناداً إلى المعثورات الأثرية المكتشفة فيما تم تنقيبه من هذه المقابر، وأسلوب العمارة والتقسيم الداخلي لتل من التلال، يتبين أنها مقابر جماعية، تضم في بعض الأحيان أسراً تجمع الرجال والنساء والأطفال. وقد تكون أحياناً أخرى مقابر فردية صغيرة، أو مقابر لحيوانات، خاصة الجمال والماعز، أو مقابر خالية أُعدت للدفن ولسبب من الأسباب لم تستخدم، أو للتحايل على لصوص المقابر لكي لا يتوصلوا إلى المقابر الحقيقية وسلب المعثورات التي تودع عادة مع الموتى.

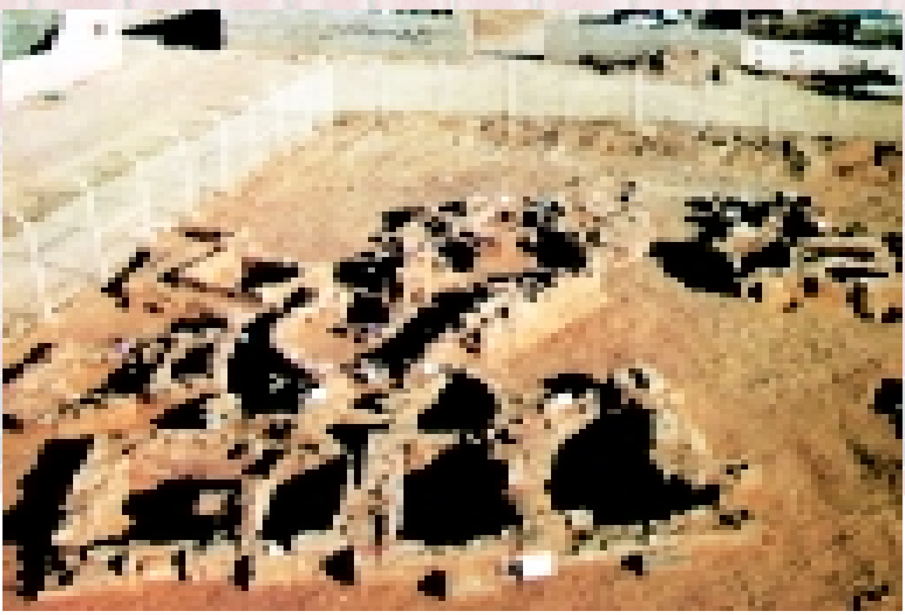
ومن الناحية الزمنية تم التوصل، وفقاً للأسس المذكورة أعلاه، إلى أن أقدم هذه المقابر تؤرخ من نهاية الألف الثالث

قبل الميلاد، وآخرها من القرن الخامس الميلادي. وخلال هذا الامتداد الزمني يعتقد أن بعضها أعيد استخدامه خلال فترات متعددة، وبعضها سرقت حجارته وشيدت بها مقابر أحدث عهداً، وبعضها بقي على حاله وأضيف إليه مرافق أحدث تاريخاً منه.

وقد استخدم في عمارة هذه المقابر الأحجار المتوافرة في المنطقة، خاصة الجيرية منها المهذبة وغير المهذبة، كما استخدمت المونة الطينية والجصية في ربطها.

وتتكون المقبرة الركامية عادة من بناء دائري الشكل يحتضن في وسطه غرف الدفن الرئيسية التي تكون على شكل مستطيل في أغلب الأحوال، ولكنها قد تظهر بشكل دائري أو بناء مدرج على هيئة (زاقورة). وتكون غرف الدفن في بعض هذه المقابر غرفتين متوازيتين في وسط الجدار الدائري المحيط، وتظهر أحياناً ثلاث غرف دفن رئيسية في المقبرة الواحدة. ووجد في بعض الحالات مقابر ثانوية، في داخل المساحة المحاطة بالجدار الدائري، بعضها في الداخل والآخر في الخارج.

ويبنى الجدار الدائري للمقبرة بكتل من الحجارة مثبتة على الأرض مباشرة، وتكون بارزة للخارج ومدعومة بردم



مقابر ركامية تحتضن غرف دفن مبنية – تيماء

الأتربة عليها. وقد تكون كتل الحجارة منتظمة ومهذبة، وقد تكون مرصوصة بأسلوب معماري عشوائي. كما تبنى غرفة الدفن على مستوى الأرض مباشرة، وأحياناً تحت مستوى الأرض بحوالي ٣٠-٤٠سم، وأحياناً تبنى فوق مستوى الأرض بالمسافة نفسها تقريباً. ويلاحظ أن الغرفة تضيق كلما اتجهت إلى أعلى حيث تقصر المسافة. ويغطى القبر بقطع من الحجارة قد تكون واحدة أو أكثر وقد تصل في بعض الأحيان إلى خمس قطع. وفي بعض الأمثلة تكون هذه القطع مغطاة بطبقة جصية. ويلاحظ أن الأجزاء السفلى من الجدران بنيت بعناية أكبر، وبقطع من الأحجار أكثر جودة من تلك المستخدمة في بناء الأجزاء العليا.

أما أرضية القبر فتكون مفروشة بكسر من حجارة صغيرة خلط معها مونة طينية ثم رشت لتتماسك، كما تكون أحياناً مدكوكة بمونة طينية معدة لهذا الغرض. وفي بعض المقابر وجد أن الأرضية الطينية المدكوكة غطيت بطبقة من الطلاء الجصي. ووجد في بعضها أدلة على تزويدها بعتبات حجرية، وفي بعض المقابر ترتكز على الأعتاب أبواب مكونة من قائمين من الأحجار الرأسية. كما وجد في بعض المقابر كوات جانبية.

المقابر الرجومية. يطلق هذا الاسم في بعض التقارير الأثرية على نوع من المقابر يأتي على شكل رجم. ويوجد عادةً مقترناً بمنشآت أخرى كالدوائر الحجرية، والمنشآت المذيلة. وقد يوجد في تجمعات كبيرة وقد يقتصر وجوده أحياناً على ثلاثة رجوم أو أقل.

والمتمعن فيما نشر بخصوص هذه المقابر لا يجد حرجاً في أن يعدها نوعاً من المقابر الركامية، سوى أنها أقل منها إتقاناً وحجماً، واستخدمت الحجارة في ردمها، وأنها أقل في عدد المدافن إذ يقتصر الدفن في المقابر الرجومية على شخص واحد في أغلب الأحوال. ومن الناحية الزمنية فهي تغطي امتداداً زمنياً يبدأ من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار وحتى العصر الإسلامي. ولا يوجد أي تصنيف يوضح ذلك التنوع.

ويستخدم في عمارتها أسلوب يقتضي حفر غرفة في الأرض بعمق قد يصل إلى المتر، ثم يحدد ذلك بألواح حجرية غير مهذبة، من غير استخدام مونة، وتكون مرتكزة على الأرض. ويوضع بعد ذلك عليها غطاء القبر المكون من ألواح حجرية، وقد يقتصر على لوح كبير، أو أكثر من لوح واحد بحجم أصغر. ثم يردم المكان بقطع من الجلاميد

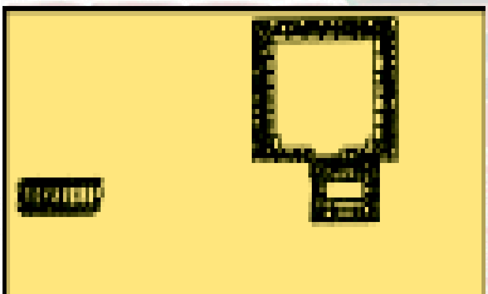
المتنوعة، ويحدد إطارها بألواح حجرية لتأخذ شكل رجم، وتمنع الألواح قطع الجلاميد من التناثر. ويكون الرجم في حالات كثيرة مجرد ردم للحجارة بطريقة غير متناسقة، وينقصها أي أسلوب للبناء.

ومن وصف جفري بيبي Bibby لما وجده في واحة يبرين في الإقليم الشرقي للمملكة يتبين أن القبر حفرة في الأرض محددة بألواح موضوعة بشكل رأسي، ثم يعلوها حجر الغطاء الذي يكون أكثر من قطعة، ثم يوضع على جوانب القبر دبش من الحجارة ليأخذ في النهاية شكل الرجم. ويبدو من الوصف الذي أورده دانيل بوتس D. Potts لما وجده في الإقليم الشرقي أن الدبش يحدد بجدار يحميه من التناثر.

ويظهر الرجم بأشكال متنوعة، الشائع منها الشكل الدائري، والمربع، والمستطيل. كما أنها تتفاوت في أحجامها، فمنها ذو الحجم الذي يصل إلى بضعة أمتار في قطره، إلى متر ونصف متر في ارتفاعه. كما وجد من بينها رجوم بأحجام أقل من هذا بكثير. ووجد في بعضها مداخل مسدودة بالحجارة، وحجرات دائرية صغيرة، كما أن بعضها مبني بالحجارة على شكل جدران تميل إلى الداخل لتأخذ في النهاية شكل قبة، ويحتوي بعضها على أساسات مربعة.

المقابر المحفورة. وجد هذا النمط من المقابر في مناطق متعددة من المملكة في جنوبها الغربي ووسطها وشرقها وشمالها الغربي. ولعل أكبر عدد مكتشف منها حتى الآن هو في منطقة ليلى والأفلاج في منطقة الرياض حيث وصل العدد إلى مائتي مقبرة. وتفيد الأبحاث المنشورة أن هذه المقابر تعود لأزمنة مختلفة تبدأ في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وتستمر حتى القرن الخامس للميلاد.

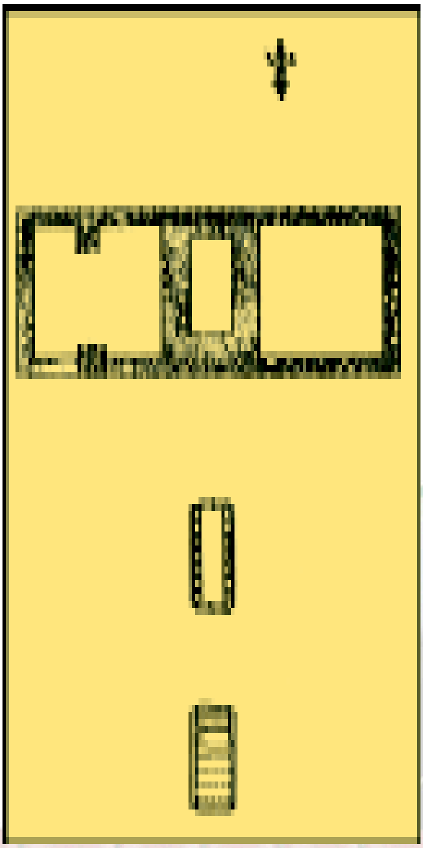
ويظهر هذا النوع من المقابر على سطح الأرض قليلاً حيث تعلوه مبانٍ



مخطط لمقبرة الملك معاوية بن ربيعة – قرية الفاو

على شكل غرف يتوسطها سرداب هابط لغرفة الدفن. وتكون أشكال المقابر إما دائرية أو مستطيلة أو مربعة، وهي مقابر عائلية.

ويُجعل للمقبرة مهبط مقطوع في الحجر الجيري، إما أن يكون مزوداً بدرج مقطوع من أرض المهبط مباشرة، أو درج مبني باستخدام قطع حجرية مجلوبة من خارج المكان ومعدة لهذا الغرض، ثم ممر يؤدي إلى غرف الدفن التي تكون منحوتة في باطن الأرض، وينخفض سطحها عن أرضية المهبط بمتر أو متر ونصف في بعض الأحيان. ولعل أوضح مثال على ما سبق، المقابر المكتشفة في الفاو وما اكتشف فيها. وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه المقابر يكون محفوراً في باطن الأرض وسطحها مفتوح. ثم تحاط جوانبها بجدران مبنية بحجارة خشنة، ويغطى سطحها بقطع ضخمة من الحجر الرملي. وتشتمل غرفة الدفن أحياناً على غرفة أصغر منها مقطوعة في أرضها بعمق يصل إلى ٥٠سم وعرض قدره ٧٠سم. وتحتوي بعض المقابر على قواطع، إما حجرية أو طينية تقسم غرفة الدفن إلى غرفتين. كما أن القواطع تختلف، فمنها الجيد ومنها الرديء غير السميك.



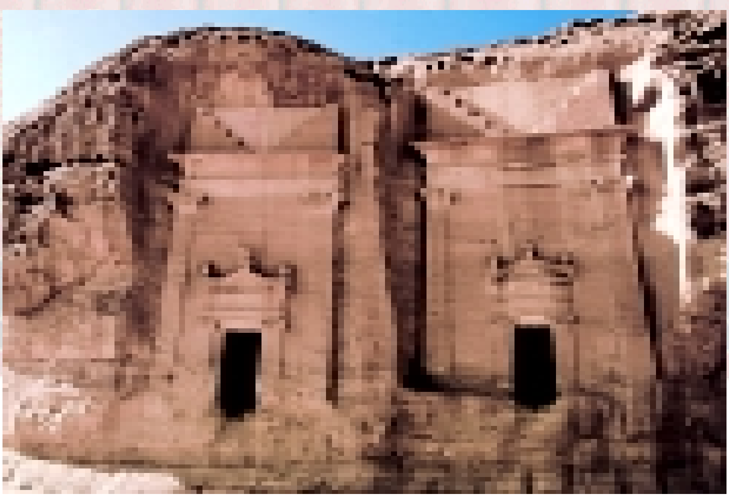
مخطط لمقبرة عجل بن هفعم – قرية الفاو

المقابر المنحوتة. تعد المقابر المنحوتة أسلوباً معمارياً حديثاً في عمارة المقابر القديمة التي وجدت في المملكة إذ تعود بدايته إلى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، واستمر ظهور هذا النمط حتى أوائل القرون الميلادية. ويقتصر انتشاره على شمال غربي المملكة في منطقتي تبوك والمدينة المنورة حيث ينتشر في واحة العلا ومدائن صالح ومغاير شعيب. وأكثر هذه المقابر مدافن جماعية مقتصرة على

استخدام أسر معينة يحددها صاحب المقبرة في نص يعلو واجهة المقبرة في أغلب الأحوال.

ويعتمد الأسلوب المعماري في هذه المقابر على عملية النحت. إذ يختار النحات عادة أماكن في واجهات الجبال ذات الصخور الرملية، ثم يقوم بعمل غرفة ترتفع قليلاً عن مستوى الأرض ويبدأ في تفريغها بحيث تأخذ شكل مربع أو مستطيل. وتزود هذه الغرف بكوات جانبية بشكل مستطيل أو مربع. ويقوم النحات بعد ذلك بنحت القبور في أرضية الغرفة الصخرية، أو في أرضية الغرف المتفرعة من الغرفة الوسطى. ويختلف عدد القبور تبعاً لحجم الغرفة والغرف الصغيرة المتصلة بها، وكذلك حجم القبور نفسها.

وقد اهتم المعماري بالواجهة الخارجية للمقبرة فنحتها بطريقة تجعلها شبيهة بواجهة المنزل. فزودها ببوابة للمقبرة تنحت عادة وتزخرف بأشكال هندسية تعلوها مباشرة، كما يوجد أحياناً إطار داخله نص نبطي لصاحب المقبرة أعلى البوابة. وتأخذ الأشكال الهندسية العليا غالباً أشكال مثلثات تتفاوت في تصاميمها من مقبرة لأخرى، وينحت في داخلها مناظر مختلفة لحيوانات أو زواحف أو طيور أو ورود لها دلالات عقائدية، ويجمع أحياناً بعض منها في نموذج واحد. وتُحلى المقبرة بنحت لأنصاف أعمدة رأسية مزودة بأنصاف تيجان وشرفات على شكل درجات سلم في أعلاها. وهذه الواجهات تمثل قمة العمارة



واجهتان لمقبرتين منحوتتين في الجبال – مدائن صالح

القديمة والمعاصرة لها عند نحتها في مشهد جمالي أخاذ.

وفي واحة العلا يأخذ القبر أسلوباً معمارياً مختلفاً، إذ يمر بتسوية لواجهة الجبل ثم يفتح فتحة في الجبل وتغوّر داخل الجبل بعمق مترين تقريباً باتساع متر. ويزود المدخل بإطار يحمل نصاً لحيانياً أو معينياً يحتوي على معلومات عن أصحاب المقبرة. وينحت على جوانب المقبرة الخارجية أحياناً شكلان لأسدين رابضين.

وقد استخدم الإنسان في هذه المنطقة المقابر في تاريخ يماثل تاريخ استخدامها في كثير من بقاع عالم الشرق الأدنى القديم. فلقد عرفها في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار بأشكال الرجوم البسيطة التركيب. ثم ظهرت خلال العصر الحجري الحديث الفخاري الرجوم ذوات الحجم الكبير المتعدد القبور، بالإضافة إلى الرجوم التي يلحق بها ملحقات. وخلال الألف الثالث ظهرت التلال الركامية، ثم ظهرت المقابر المحفورة في الأرض خلال الألف الثاني قبل الميلاد. وفي الألف الأول قبل الميلاد ظهرت المقابر المنحوتة في واجهات الجبال. واستمرت هذه التقاليد جنباً لجنب في بعض المواقع ولكن اقتصر استخدام بعض أنماطها على بعض المواقع.

العمارة في العصر الإسلامي

مدخل تاريخي

قبيل بزوغ فجر الإسلام كانت الجزيرة العربية تعيش فراغاً سياسياً. ولعدم وجود دولة مركزية، تدهورت أحوالها بعد أن عاشت ظروفاً صعبة، كان من بينها اختلال الحالة الأمنية التي سببتها الحروب الكثيرة والطويلة بين القبائل العربية. فعمت بسبب ذلك الفوضى، وتدهورت الحالة الاقتصادية إلى أدنى مستوياتها، كما تحولت طرق التجارة من الداخل إلى الخارج، بعد أن كانت تمر عبر صحاريها، وتمثل رافداً رئيسياً للاستقرار السياسي والاقتصادي والحضاري فيها. ومع أن نشاطاً تجارياً بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها كان موجوداً قبيل الإسلام، إلا أنه لم يكن على المستوى نفسه الذي كان عليه خلال فترات ازدهار الممالك العربية. كما أن الثقافة المعمارية لدى عرب الجزيرة كانت في حال جيدة خاصة في المدن التي كانت قائمة حينذاك، مثل مكة ويثرب والطائف وجرش والأخدود بنجران وغيرها.

وعندما جاء الدين الإسلامي أزال أسباب النزاعات وآخى بين القبائل، ودعا إلى مبادئ جديدة كان لها أثر أساسي في إعادة الاستقرار وبدء مرحلة جديدة من الازدهار. ولم تمضِ سنوات قليلة حتى أصبحت تلك المبادئ أساساً لنظام حضاري متطور ومركب، ما زلنا نعيش في ظل كثير من معطياته. وكان من تلك المعطيات الحضارية، العمارة بمفهومها الشامل هندسة وتصميما.

وفي عهد الرسول ﷺ، كانت العمارة تتسم بالبساطة في تصميمها وموادها، متوازية في ذلك مع المستوى الاقتصادي لتلك المرحلة. ومع ذلك فقد كان للبناء والعمارة في ذلك الوقت نصيب من التطور والإضافة، فكان من

الابتكارات في التسمية والوظيفة المسجد الذي أمر الرسول ﷺ ببنائه ليكون مكاناً للعبادة، ومقراً للاجتماع والتشاور والتوجيه والإعلام. وقد أصبح المسجد فيما بعد رمزاً للمدن الإسلامية وللثقافة الإسلامية، وللبناء الذي نشأت فيه معظم الابتكارات في فن العمارة الإسلامية.

وما إن بدأت الأحوال الاقتصادية تزدهر، ابتداءً من عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب #، حتى بدأت التغيرات تظهر على العمارة الإسلامية في الشكل والمضمون. وكان المعماريون المسلمون في تلك المرحلة المبكرة يمارسون البناء وفنونه بناء على ثقافة وتقاليد متوارثة من الفترات السابقة للإسلام، إلا أن الدين الإسلامي أدخل عناصر إضافية جديدة في تصميم المباني تتناسب مع المعتقدات الجديدة ومتطلبات المجتمع الجديد.

ومنذ صدر الإسلام وعقب الفتوحات التي تمت في مناطق الحضارات الواقعة إلى الشمال، شهدت الجزيرة العربية اتصالاً كبيراً وجوهرياً بالبلدان التي كانت تمثل مسرحاً لآخر ما توصلت إليه الحضارة الإنسانية آنذاك. وقد كانت تلك البلدان في ذلك العصر هي الأكثر تطوراً في مختلف المجالات.

وبعد توسع الدولة الإسلامية، ودخول الناس أفواجاً في دين الله، توالت قوافل الحجاج قادمة من تلك البلاد المفتوحة متوجهة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان نتيجة ذلك حدوث تلاقح فكري بين شعوب العالم الإسلامي. فكانت كل جماعة تأخذ وتعطي، تؤثر وتتأثر، فحدث امتزاج وتزاوج ثقافي منقطع النظير. وكان لذلك تأثير إيجابي في جميع المجالات بما فيها مجال العمارة. وقد كانت تلك الظروف سبباً في تمازج الفكرة والعنصر بين عمائر العالم الإسلامي قاطبة، وما زالت الشواهد الشاخصة تبرهن على ذلك التمازج الفريد. وكان من نتائج هذا الامتزاج انتقال كثير من عناصر الثقافة المعمارية إلى مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، خاصة إلى المدينتين المقدستين وإلى المناطق الحضرية التي لها اتصال مباشر بطرق الحج وخدمات الحجيج.

وخلال القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني، ومع الازدهار الاقتصادي الذي عمّ البلاد الإسلامية، نشطت حركة التعمير في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، خاصة في عهد مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان. وحظيت منطقتا مكة والمدينة، لمكانتهما الدينية،

بالنصيب الأكبر من ذلك الازدهار والاستقرار. وعلى الرغم من بعض القلاقل التي حدثت خلال بداية هذه الفترة في بعض مناطق الجزيرة العربية، كحركة الخوارج وثورة ابن الزبير، إلا أن الاستقرار والازدهار عاد ليظلل هذه البلاد مرة أخرى بعد أن قُضي على تلك الثورات في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان. وأوردت المصادر التاريخية بعض المعلومات التي يمكن أن يستفاد منها في تصور الوضع المعماري في حواضر الجزيرة العربية خلال تلك المرحلة. فقد أشارت تلك المصادر إلى نشاط المجتمعات الزراعية في معظم مناطق هذه البلاد، وأبرزت إلى واجهة الأحداث أسماء لمدن وقرى كانت تمثل حواضر وقرى ازدهرت خلال تلك المرحلة. فبالإضافة إلى مكة والمدينة، ترددت أسماء: جدة والطائف والربذة وفيد وبيشة وتبالة واليمامة والخضرمة وهجر والقطيف والعقير ودارين ودومة الجندل وغيرها. وكانت تلك الأسماء لحواضر مزدهرة اقتصادياً ومعمارياً.

وخلال العصر الذي كانت فيه الجزيرة تابعة بشكل مباشر للخلافة العباسية، مرت الجزيرة العربية بمرحلتين متتاليتين ومختلفتين، في الوقت نفسه، الأولى فترة الازدهار والاستقرار الاقتصادي، وتستمر هذه المرحلة من بداية الدولة العباسية إلى أواسط القرن الثالث الهجري. والمرحلة الثانية تأتي بعد ذلك متزامنة مع أحداث الاضطرابات الأمنية والانقسامات التي عمت مناطق مختلفة من العالم الإسلامي حينذاك. وكان نصيب الجزيرة العربية من هذه الاضطرابات قلاقل وثورات أحدثتها بعض القبائل العربية ضد مصالح الخلافة العباسية في أواسط الجزيرة العربية، ثم توجت تلك الأحداث بثورة القرامطة التي فصلت معظم الجزء الشرقي من الجزيرة العربية عن جسم الدولة العباسية. وتلا ذلك توجيه القرامطة ومن تبعهم من الأعراب ضربات محكمة ضد مصالح الدولة العباسية في بدايات القرن الرابع الهجري. وقد استهدفت بعض تلك الضربات طرق الحج، خاصة طريق الحج الكوفي، أو ما يعرف بدرب زبيدة، ويعد الطريق الرئيسي بين عاصمة الدولة العباسية ومكة المكرمة. وتسبب ذلك في اضطراب الحالة الأمنية في معظم أرجاء الجزيرة العربية مما أثر بشكل مباشر على الاستقرار الاقتصادي الذي أثر بدوره سلباً على جميع المعطيات الحضارية، ومن بينها العمارة وطرز البناء بشكل عام.

وعلى الرغم من قلة الدراسات الآثارية الحديثة التي عُنيت بآثار تلك المرحلة، إلا أن هناك شواهد أثرية معمارية نعرفها اليوم، وترسم لنا صورة شبه كاملة للعمارة الإسلامية المبكرة التي شهدتها المنطقة. ومن تلك الشواهد قصور وحصون وآطام وسدود ما زالت آثار بعضها شاخصة في أطراف المدينة المنورة ومكة المكرمة وفي محافظة الطائف وفي معظم محطات طرق الحج. وقليل منها اكتشف في الواحات الداخلية ومناطق الازدهار الزراعي، أو في موانئ قديمة على ساحل البحر الأحمر أو الخليج العربي. وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من مواقع تلك الفترة التاريخية ما تزال على شكل تلال أثرية تنتظر دورها للتنقيب والدراسة لتصبح في متناول الباحثين والمهتمين. ومن هذه الآثار نستطيع التعرف بشكل دقيق على المستوى الذي بلغه المسلمون من سكان الجزيرة العربية في مجال العمارة وفنونها خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم. وعلى سبيل المثال ذكرت المصادر أربعة وعشرين قصراً في أنحاء متفرقة من المدينة المنورة وحدها.

ومن أهم الآثار المعمارية المكتشفة التي تعود للقرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية آثار مدينة الربذة، التي كشفت الحفائر الأثرية فيها عن أجزاء من نسيج المدينة العمراني وعن بعض مرافقها.



أحد المباني المحصنة – موقع الربذة

ففي الجانب الشمالي الغربي منها، كُشف عن قسم يمثل حياً سكنياً منعزلاً، وثبت بعد دراسة نسيجه العمراني وتحليل المعثورات التي وجدت فيه، ومقارنتها بمعثورات مواقع أخرى، أن هذا القسم من المدينة تعود بداياته إلى أواخر القرن الأول الهجري ويستمر إلى حوالي منتصف القرن الثاني الهجري. وتمتاز المباني فيه بالبساطة وكبر مساحات الأحواش وقلة عدد الغرف في البيت الواحد، مقارنة بالبيوت التي بدأت تنتشر في أجزاء أخرى من المدينة، ويعود تاريخها إلى ما بعد منتصف القرن الثاني إلى بداية القرن الرابع الهجري.

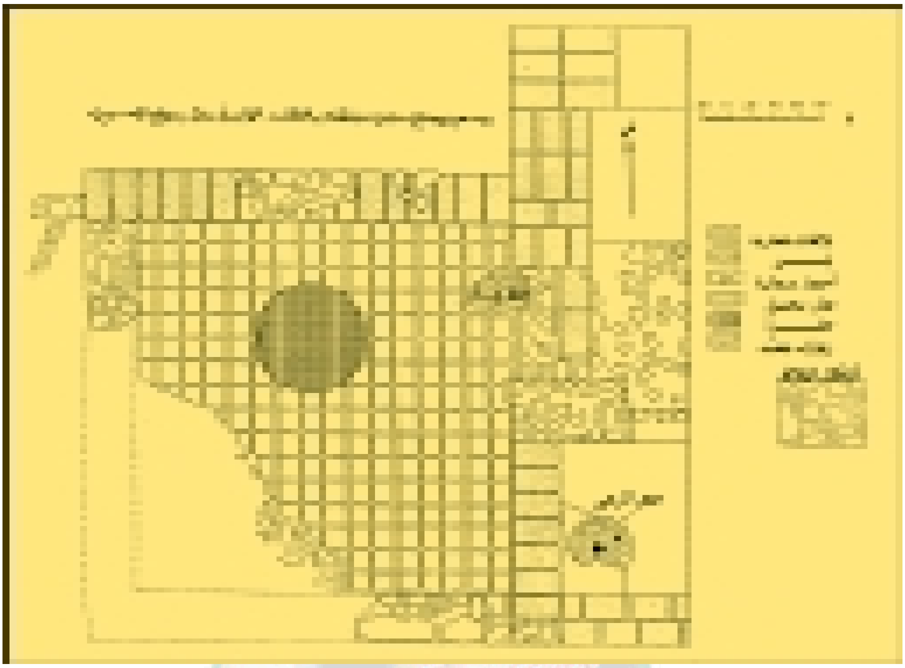


حيّ سكني – مدينة الربذة

وبالإضافة إلى موقع الربذة يمكن الإشارة إلى أن محطات طرق الحج بشكل عام، ودرب زبيدة بشكل خاص، تحتوي على آثار لبرك وقصور ومنازل ما زالت آثار جدران كثير منها تشاهد شاخصة وشامخة في معظم هذه المحطات.

وفي الجزء الشمالي الغربي من المملكة هناك آثار معمارية مهمة على طريقي الحج الشامي والمصري، نذكر منها آثار مدينة الحوراء التي تقع على بعد ١٠كم شمال مدينة أملج، وتحتوي على آثار مبان لمدينة إسلامية كانت مزدهرة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، وفي منطقة القصيم آثار النباج وضرية ورامة. وكذلك هناك آثار معمارية لقصور تعود للعصر الإسلامي المبكر في وادي ذي خُشب الواقع على بعد ستين كيلاً إلى الشمال من المدينة المنورة. وفي وادي القرى آثار المابيات الواقعة إلى الجنوب من مدينة العلا. وقد أظهرت التنقيبات التي أجرتها وكالة الآثار والمتاحف في الموقع دلائل أثرية لمدينة إسلامية كبيرة كانت مزدهرة بالكثير من المنشآت المعمارية والحضارية خلال فترة ازدهار الدولة العباسية. وفي منطقة الرياض عدد من آثار المنشآت المائية، مثل السدود على وادي حنيفة وفروعه، وقنوات المياه في الخرج والأفلاج والأجزاء الشمالية للمدينة القديمة في دومة الجندل وتيماء.

وفي المنطقة الجنوبية من المملكة آثار معمارية يمكن أن يُنسب بعضها إلى فترة صدر الإسلام. ومن أهم المواقع



رسم يوضح حجرة في منزل مبلطة ببلاط الآجر - موقع الحوراء

التي تحتوي على آثار معمارية ظاهرة في تلك المنطقة موقع جرش، إلى الجنوب من محافظة خميس مشيط بمنطقة عسير، وكذلك في مواقع قرب مدينة نجران، وفي مواقع إسلامية مبكرة بمنطقة جازان، مثل عثَّر، ومواقع في محافظة القنفذة.

أما المباني المكتشفة في المواقع التي ترجع إلى العصر الإسلامي المبكر، فيمكن تصنيفها إلى نوعين رئيسيين، النوع الأول: المباني الضخمة ويتمثل هذا النوع في القصور الكبيرة والمباني العامة، ويندرج تحتها معظم الجوامع وبعض المساجد. وبشكل عام فإن هذا النوع من المباني الضخمة كان يُبنى من قبل الدولة فينفق على بنائه من بيت المال أو يبنيه الخلفاء أو الأمراء أو الولاة أو كبار الشخصيات. ويمتاز هذا النوع بفخامة تصميمه وضخامة حجمه وجودة مواده ودقة أسلوب تنفيذه. ومثل هذه المباني ينفق عليها أموال كثيرة وتستخدم في بنائها مواد قوية، مثل الأحجار المنحوتة والآجر والجص، وتستخدم لتغطيتها الأخشاب الجيدة المجلوبة من مناطق بعيدة، أو الأقبية والقباب؛ لذا فإن الكثير من هذه المباني بقيت صامدة



قصر عباسي مبني بالآجر – المليليح – منطقة المدينة المنورة

ضد عوامل الزمن. وقد اكتشف منها عدد كبير، بعضه يعود للقرون الأولى من الهجرة. وامتازت مباني القرن الأول وبداية الثاني الهجري باستخدام الأحجار والجص وقليل من الآجر مواد أولية لبناء تلك القصور والدور الفخمة، وكانت بعض تلك العمائر تتكون من طابقين أو أكثر.

ومنذ منتصف القرن الثاني الهجري تحول الناس في كثير من المناطق إلى استخدام الآجر في البناء بدلاً من الأحجار، بالإضافة إلى استخدام الجص مونةً وتكْسيةً. وكان ذلك التحول تأثراً بالطرز العباسية التي بدأت تظهر في العراق حينذاك. كما أن قصور تلك المرحلة بدت أضخم وأفخم، وحجراتها أوسع وجدرانها أسمك، وانتشرت فيها بشكل كبير الزخارف المحفورة على الجص، وعقدت بواباتها بعقود نصف دائرية أو مدببة. وقد استخدم العمود والدعامة استخداماً كثيراً في مباني تلك المرحلة.

أما النوع الثاني، وهو المساكن الشعبية التي كان يبنيها عامة الناس، فتمثل النسيج العمراني الرئيسي لمعظم المدن والقرى الأثرية المنتشرة في أنحاء المملكة، وهذا

النوع تعرض أكثره للتدمير والإزالة في المدن التي استمر السكن بها. كما أن هذا النوع من المباني كان عرضة للزوال السريع لأسباب كثيرة، منها أن المواد التي بني بها تتكون بشكل رئيسي من اللبن والطين أو من الأحجار غير المهذبة والمبنية بمونة الطين. كما استخدم في بناء الأسقف جذوع وأغصان الأشجار المحلية، كما أن جدران تلك المساكن لم تكن سميكة مقارنة بمباني النوع الأول. أما عن تخطيطها فهي تتكون من وحدات سكنية تحتوي كل وحدة منها على ساحة أو حوش، غالباً ما يكون جانبياً، وفي إحدى زواياه منطقة خدمات للطبخ. وعلى الجانب الآخر من الوحدة غرفة أو أكثر. وتحتوي معظم تلك الغرف على مخازن صغيرة اقتطعت من الغرفة بجدار رقيق.

وقد تضمنت العمائر التي اكتشفت في مواقع الآثار الإسلامية المبكرة بالمملكة معظم العناصر المعمارية التي عرفت في العمارة الإسلامية بشكل عام. كما وجدت أمثلة كثيرة للزخارف الإسلامية التي وظفت لتزيين بعض مباني تلك المرحلة.

ومن أهم العناصر المعمارية التي كان لها وجود في العمارة الإسلامية المبكرة في الجزيرة العربية الأعمدة. وهي بناء أسطواني يوظف لحمل الأسقف بأنواعها أو لترتكز عليه أرجل العقود أو لوظائف جمالية، وهو يبنى بأسلوبين يختلفان باختلاف مادة البناء. الأسلوب الأول يكون من قطعة حجر واحدة أو من قطع على شكل خرزات توضع الواحدة فوق الأخرى ثم يكسى جسم العمود بمادة غالباً ما تكون الجص. والنوع الثاني من الأعمدة يُشكَّلُ من حبات الآجر أو من القطع الحجرية على شكل أسطواني ثم يكسى بالطين أو الجص لتكوين سطح خارجي متجانس. وتقام الأعمدة منفردة، وأحياناً تبنى مدمجة في جدار أو دعامة، لغرض جمالي. وقد وجدت الأعمدة في آثار معمارية كثيرة في المملكة، وأهم أمثلتها آثار المساجد وبعض القصور الفخمة.

ومن العناصر المعمارية التي امتازت بها العمارة الإسلامية بشكل عام العقود، وقد وجدت أمثلة كاملة لبعض أشكالها في بعض الآثار التي يعتقد أنها تعود للقرون الهجرية المبكرة. كما وجدت دلائل أثرية معمارية في بعض المواقع تشير إلى استخدام العقود عناصر في عمارة تلك المواقع. واستخدمت بشكل عام العقود في معظم المباني الحجرية أو

تلك التي بنيت بالآجر، بينما لم يكتشف حتى الآن ما يشير إلى وجود عقود في المباني التي بنيت باللِّبن والطين والتي تعود إلى الفترة المعنية بهذا المبحث. ولعل ذلك ناتج عن أسباب، منها سوء حالة الآثار المعمارية الطينية المكتشفة من تلك الفترة. وعلى كلٍ فاحتمال وجودها وارد، خصوصاً إذاً علمنا بوجود أمثلة لعقود في مباني المساجد والبيوت الطينية التقليدية المتأخرة في المنطقتين الوسطى والشرقية وبعض أجزاء من الجنوبية.

وقد استخدمت العناصر الزخرفية النباتية والهندسية والكتابية في تزيين البيوت والقصور وإن كانت على نطاق ضيق. فمنها ما حفر على الجص أو نفذ بالألوان على جدران مجصصة. أما الزخارف الكثيرة على جدران بعض المباني التي تعود إلى القرن الماضي وبداية هذا القرن، خاصة في منطقة جازان والمنطقتين الوسطى والشرقية، فإنها تجعلنا على يقين من أنها تمثل امتداداً لثقافة معمارية تعود لفترات إسلامية مبكرة، وربما تعود لعصور ما قبل الإسلام. كما استخدمت حبات الآجر (الطوب الأحمر) لتكوين عناصر متكررة لتشكيلات هندسية زخرفية لغرض تزيين بعض جدران الواجهات أو قاعات الاستقبال في بعض القصور الإسلامية



تشكيلات زخرفية بالآجر في أحد القصور الإسلامية المبكرة – منطقة المدينة المنورة

المبكرة، التي عثر على بقاياها في أنحاء مختلفة من المملكة.

ولطبيعة المناطق التي توجد فيها تلك المباني تأثير كبير في تحديد نوع المواد المستخدمة. ففي المناطق الجبلية التي تكثر فيها الصخور انتشر البناء بالأحجار حتى في المباني الشعبية، أما سكان المناطق الساحلية فيبنون بالأحجار الجيرية أو بالأحجار المرجانية التي يقطعونها من صخور السواحل الضحلة، ويمثل اللَّبِن والطين المادتين الأساسيتين في بناء معظم العمائر في المناطق التي لا تتوافر فيها الأحجار، حتى عند بنائهم القلاع والقصور الضخمة. وفي بعض المناطق التي تكثر فيها الأمطار والسيول استخدم البناؤون الأحجار في بناء الأجزاء السفلى من الجدران وأكملوا بقية البناء باللَّبِن والطين. وقد استمر هذا التقليد في استخدام مواد البناء معمولاً به عبر العصور الإسلامية المتعاقبة إلى ما قبل النقلة الحضارية الحالية.

ونجد في عصرنا الحاضر عدداً قليلاً من الآثار الشاخصة لا تتناسب مع حجم الدور التاريخي الذي أدته الجزيرة العربية خلال فترات الازدهار التاريخية، ولهذا التناقض مبررات نذكر منها:

استمرار النشاط الاستيطاني في معظم المدن الإسلامية المبكرة إلى أيامنا هذه مما جعل من المستحيل بقاء العمائر والمباني القديمة نفسها، بل كان كل جيل يدمر ما بناه الذين سبقوه ليقوم هو بدوره ببناء مبان ودور تتناسب مع متطلباته وثقافة عصره. وكذلك ساعد استخدام المواد البسيطة في البناء، مثل اللَّبِن والطين والأخشاب في معظم العمائر، على سرعة تدهورها وزوالها. كما تسببت بعض العوامل الطبيعية في تدمير آثار كثير من المدن والمستوطنات الأثرية المهمة أو إخفائها. ونرى ذلك واضحاً في بعض مناطق المملكة التي تتميز طبيعتها بوجود الرمال الزاحفة أو السيول الجارفة. وكذلك ما تسببه الرطوبة والملوحة من سرعة تدهور المباني في المناطق الساحلية.

العمارة الدينية

اتّسم فن العمارة في صدر الإسلام بالبساطة في تصميمه ومواده، ولما ازدهر الاقتصاد بعد الفتوحات وتوسّع الدولة الإسلامية بدأ تطور فن العمار مستفيداً من التمازج الثقافي والفكري بين شعوب العالم الإسلامي، فنشطت حركة التعمير في العصور الإسلامية المتعاقبة وتجلّى ذلك

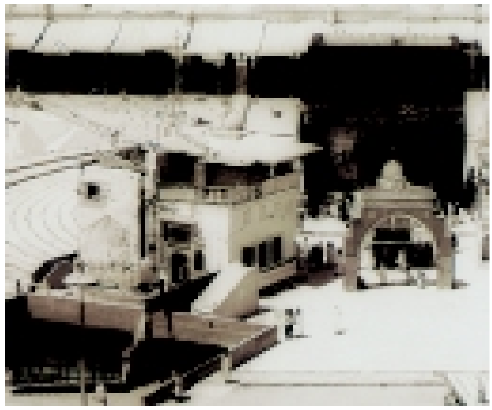
في العناية بالمساجد والمدارس والأربطة وغيرها.

المساجد. عني المسلمون بعمارة المساجد منذ هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وقد ازدهرت عمارة المساجد على مدى القرون حتى أصبحت إحدى معالم الحضارة الإسلامية في أنحاء العالم.

المسجد الحرام: بدأت العمارة الإسلامية في المسجد الحرام بمكة المكرمة منذ عصر الخلافة الراشدة؛ إذ جاءت الزيادة الأولى في عمارة المسجد الحرام أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب # إثر سيل عظيم داهم مكة سنة ١٧هـ حتى اقتلع مقام إبراهيم وجرفه إلى أسفل مكة، فلما بلغ ذلك الخليفة هاله ذلك فركب من ساعته فزعاً إلى مكة، وأعاد المقام إلى مكانه. فلما رأى كثرة الناس وازدحام المصلين اشترى دوراً كانت ملاصقة للمسجد الحرام وهدمها وأدخلها في أرضه. وقد جعل للمسجد حائطاً كان ارتفاعه دون القامة، وكانت المصابيح



رسم قديم للمسجد الحرام والمنازل المحيطة به



صورة قديمة للمسجد الحرام

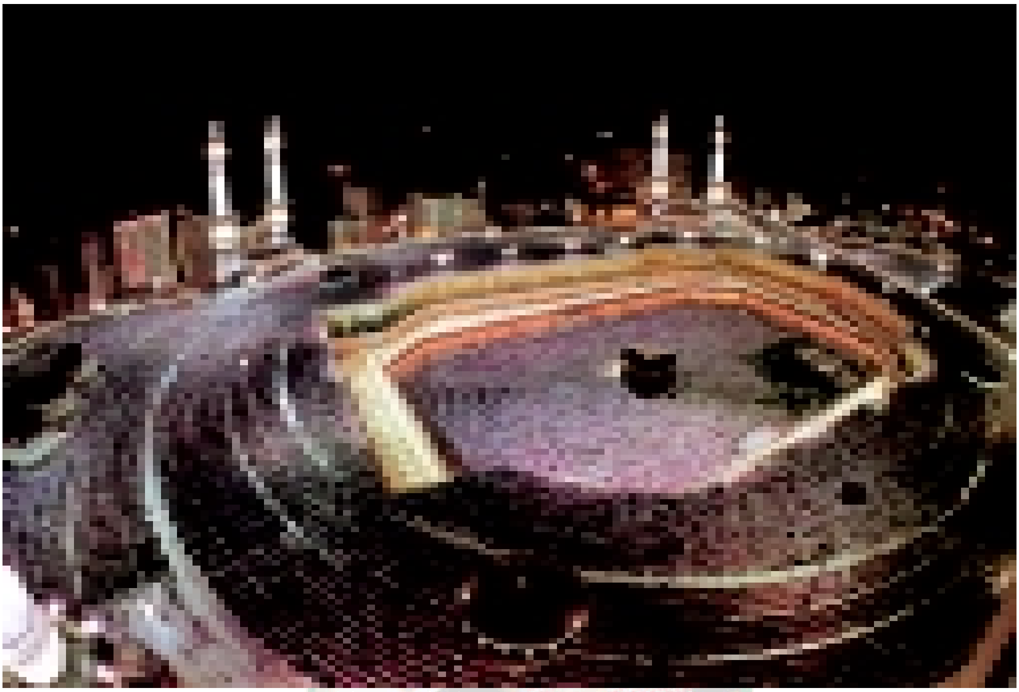
توضع علـيه، فكان عمر بن الخطـاب # أول من أحاط المسجد بجـدار، وهو أول من وسعه فجعل له أبواباً. وكانت الزيادة الثانيـة في عهد أمير المؤمـنين عثمان بن عفان # إذ ازداد الـسكان زيادة ظـاهرة، فاشترى دوراً من تلـك الدور التي كانت حول المسجد الحرام، فهدمها وأدخلها في أرضه توسعة له. وجعل للمسجد الحرام أروقة، وبـهذا يكون عـثمان # أول من اتخذ الأروقة فيه. فقد كان قبل ذلك فناءً فسيحاً لا رواق له ولا سقف يظل المصلين.

وفي خلافـة عبداللـه بن الزبيـر # عمر المسجد بعد انتهائه من عمارة الكعبة المشرفة. وقد زاد في عمارته زيادة كبيرة من الجهة الشـرقية والجنوبية والشمـالية واشترى لذلك دوراً وأدخلها في المسجد. وقد سقـف عبدالله بن الـزبير المسجد وجعل فيه أعمدة من الرخام.

وأما في عهـد عبدالملك بن مروان فقد أمر بتجديد عمارة المسـجد الحرام، فرفع جداره وسقف بالساج وجُعِل على



باب الملك عبدالعزيز بالمسجد الحرام



صورة حديثة للمسجد الحرام

رأس كل أسطوانة خمسون مثقالاً من الذهب.

وفي عهد الوليد بن عبدالملك نقض الوليد عمل أبيه وعمر المسجد عمارة محكمة، فأتى بأساطين الرخام من مصر والشام، وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب، وجعل للمسجد شرفات، وجعل في حائطه عقوداً زين أعلاها بالفسيفساء، وجعل له سرادقات. فلما ولي أبو جعفر المنصور أمر بشراء الدور في الجهتين الشمالية والغربية وأدخلت أرضها في المسجد الحرام، وأمر المنصور بإنشاء منارة في منتهى زيادته في الركن الغربي من الجانب الشمالي، وقد اتصل عمل المنصور بعمل الوليد بن عبدالملك، وأنشأ طاقاً واحداً بأساطين رخام يدور حول المسجد، وتقدر زيادته بضعف ما كان عليه المسجد قبل ذلك. وزخرف المسجد بالفسيفساء والذهب، وزين بنقوش، وكسي حِجْر إسماعيل بالرخام. أما زيادة المهدي العباسي فهي معادلة لكل الزيادات السابقة من عهد عمر بن الخطاب # حتى أبي جعفر المنصور.

وتوالت بعد ذلك توسعة الحرم وزياداته والعناية به. فقد رمم المسجد

عام ٢٧١هـ في عهد المعتمد على الله. وضم أبو العباس المعتضد بالله دار الندوة وأضاف منارة عرفت بمنارة باب زيادة، وأجريت عدة تحسينات أخرى. أما في العصر المملوكي فقد هطلت على المسجد أمطار غزيرة سقطت لها مئذنة باب الحازورة وسقط عمودان بما عليهما، وشب حريق في السنة نفسها أضر بالجانب الغربي فجدد المسجد تجديداً شاملاً. أما في العصر العثماني فقد جدد السلطان سليمان سنة ٩٧٢هـ عمارة المسجد وأهداه منبراً رخامياً، وأنشأ المدارس الأربع في جهته الشمالية، وجددت عمارته أيضاً في عهد السلطان سليم.

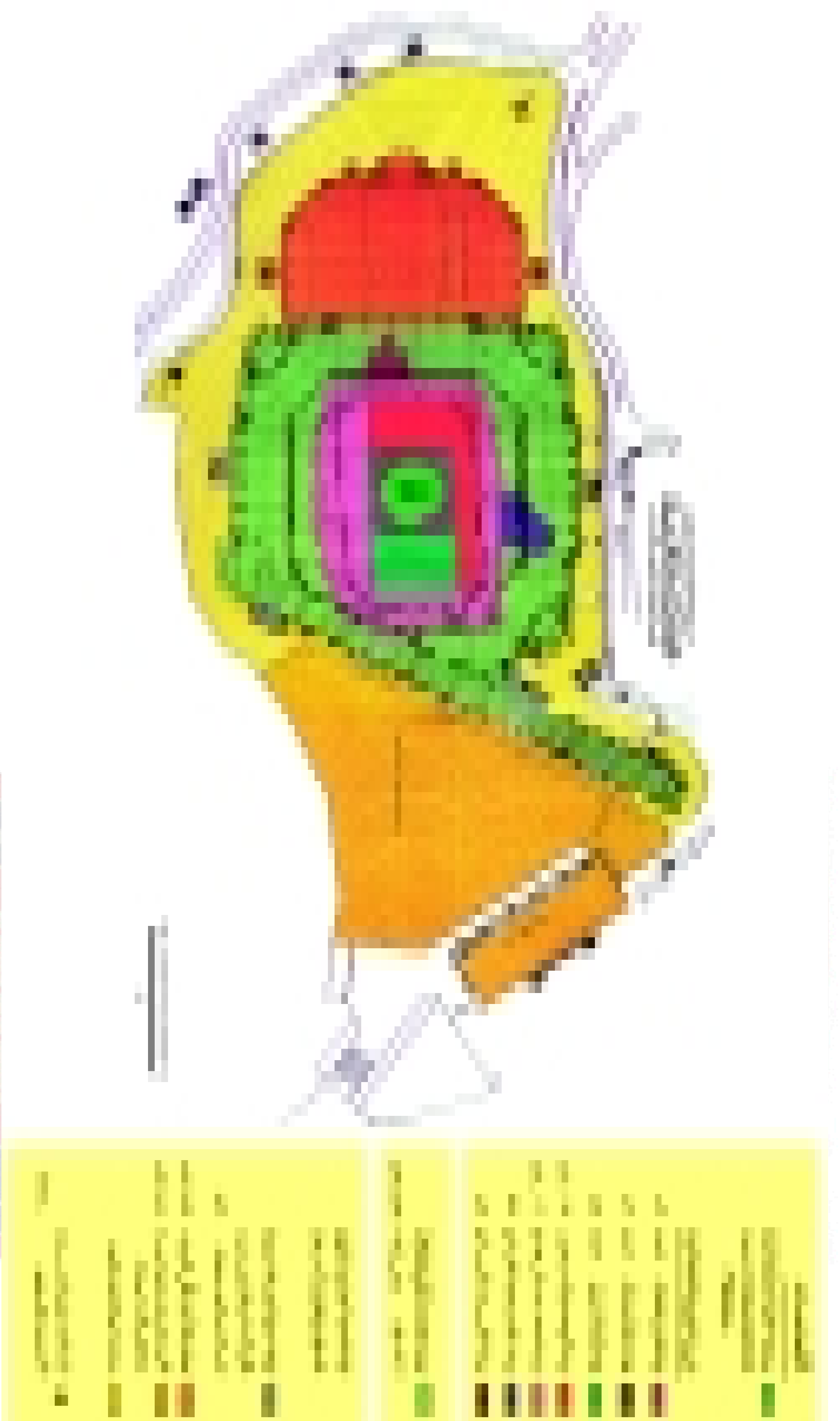
وما نزال نشاهد بعض مآثر العمارة الإسلامية المبكرة، ومنها الأعمدة الرخامية التي وضعها الخليفة العباسي المهدي وعليها كتابات كوفية توثق هذه العمارة في ذلك العهد المبكر، بالإضافة إلى نقوش إسلامية من العصرين المملوكي والعثماني على الأعمدة التي تحمل القباب المحيطة بصحن الكعبة الشريفة، بجانب كتابات وثائقية أخرى حول الكعبة.

ونظراً لازدياد زوار بيت الله الحرام من معتمرين وحجاج، دأبت الدولة السعودية منذ تأسيسها على صيانة المسجد الحرام وعمارته. والتوسعة



تكسية الكعبة المشرفة بعد تجديدها

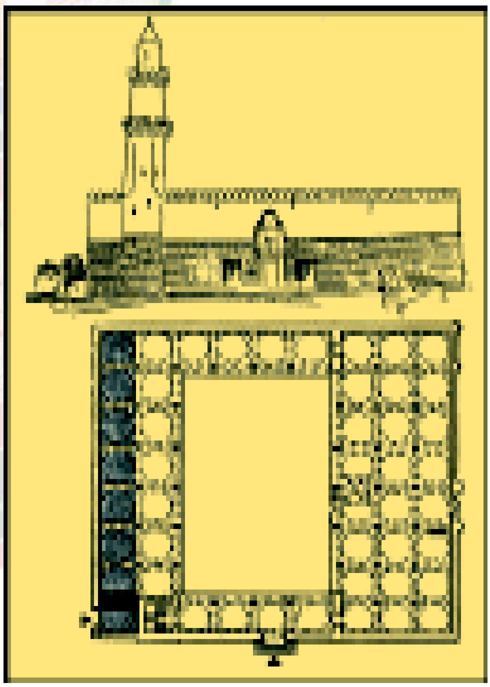
السعودية الأولى كانت في عهد الملك عبدالعزيز، رحمه الله، وأُكملت في عهد الملك سعود، رحمه الله (١٣٦٨-١٣٧٥هـ)، ثم جاءت التوسعة الثانية المهمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز (١٤٠٩-١٤١٣هـ) التي زادت من مساحة المسجد والساحات المحيطة به بحوالي ١٣٥ ألف متر مربع لتصبح مساحة الحرم ٣٢٨ ألف متر مربع، وليرتفع استيعاب الحرم إلى أكثر من مليون مُصَلٍّ. وهذه التوسعة تمثل أرقى ما توصلت إليه المهارات الهندسية من متانة في البناء، وجودة في التنفيذ، وجمالية في الإبداع الفني، وتقنية عالية في الإضاءة والتوزيع الصوتي والتهوية، بالإضافة إلى



التوسعات الرئيسية للمسجد الحرام عبر العصور الإسلامية

الاهتمام بمختلف المرافق العامة المتعلقة بالحرم المكي الشريف.

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تتأثر كل الأبنية بالعوامل الجوية المختلفة. ولقد تأثر بناء الكعبة المشرفة بعد مرور نحو ٣٧٥ سنة على ترميمها الشامل عام ١٠٤٠هـ. وفي عام ١٤١٥هـ تم ترميم الكعبة ترميماً خارجياً جزئياً. وبعد دراسات هندسية مفصلة لوضع المبنى بصفة عامة، وضعت الخطط وبدأ ترميمه ترميماً شاملاً في شهر محرم من عام ١٤١٧هـ على عدة مراحل، شملت الأساسات، والجدران والأعمدة، والسقف، وغيرها.



تخطيط مسجد قباء - المدينة المنورة

وانتشرت المساجد في عهد الرسول ﷺ في المدينة المنورة وفي كثير من المواقع التي وقف فيها الرسول خلال غزواته. كما أمر ببناء المساجد في أماكن كثيرة في طريقه إلى تبوك وخيبر والطائف وعلى الطريق بين المدينة ومكة، وفي كل مكان دخله الإسلام في عهده.

وقد بدأت عمارة المساجد في المدينة المنورة منذ أن هاجر الرسول ﷺ إليها من مكة المكرمة. فقد أمر رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة ببناء مسجد قباء، أول مسجد أسس على التقوى.

المسجد النبوي: ما أن استقر الرسول ﷺ في المدينة حتى شرع في عمارة مسجده بعد أن اشترى أرض المسجد من غلامين يتيمين. واختط الرسول المسجد بنفسه وجعله ٧٠×٦٣ ذراعاً، وجعل أساساته من الحجر وجدرانه من اللَّبِن وسقفه من الجريد وأعمدته من جذوع النخل. وكانت عمارة المسجد بسيطة في بداية الأمر.

والمسجد النبوي الشريف من أهم المساجد قاطبة، فهو ثاني الحرمين الشريفين، وهو أول مدرسة إسلامية، وقد خطه الرسول ﷺ بيده الكريمة حين بركت ناقته في مربد فاشتراه واشترك مع أصحابه في تنظيفه ثم بدئ بعمارته،



صورة حديثة للمسجد النبوي

وجعل أساس المسجد من الحجارة وسقف جزء منه بجريد النخل أما أعمدته فاتخذت من جذوع النخل، وكانت القبلة نحو بيت المقدس حتى حولت إلى البيت الحرام بعد ذلك. وكان للمسجد ثلاثة أبواب، أحدها باب أبي بكر في الجهة الغربية، وباب آل عثمان وهو في الجهة الشرقية، والثالث باب عاتكة الذي صار اسمه بعد ذلك باب الرحمة. وكان باب آل عثمان هو الباب الذي يدخل منه رسول الله ﷺ. وتعد هذه هي العمارة الأولى للمسجد النبوي الشريف، وهي تُبين عن البساطة التي كان عليها موازنة بما آلت إليه عمارته بعد ذلك. وقد وسع المسجد النبوي بعد فتح خيبر، وفتح الباب القبلي الذي أغلق بعد أن حولت القبلة إلى المسجد الحرام. وأكمل سقف المسجد بالجريد وغطي بالطين استجابة لشكوى الصحابة من شدة الحر. وأصبحت مساحة المسجد في عهد الرسول ﷺ ٢٤٧٥م٢. وبعد أن أتم رسول الله بناء المسجد بنى بيتاً لأم المؤمنين عائشة، ثم بنى لأم المؤمنين سودة، ثم بنى بيوت باقي أمهات المؤمنين رضي الله عنهن. وقد حرص صحابة رسول الله على



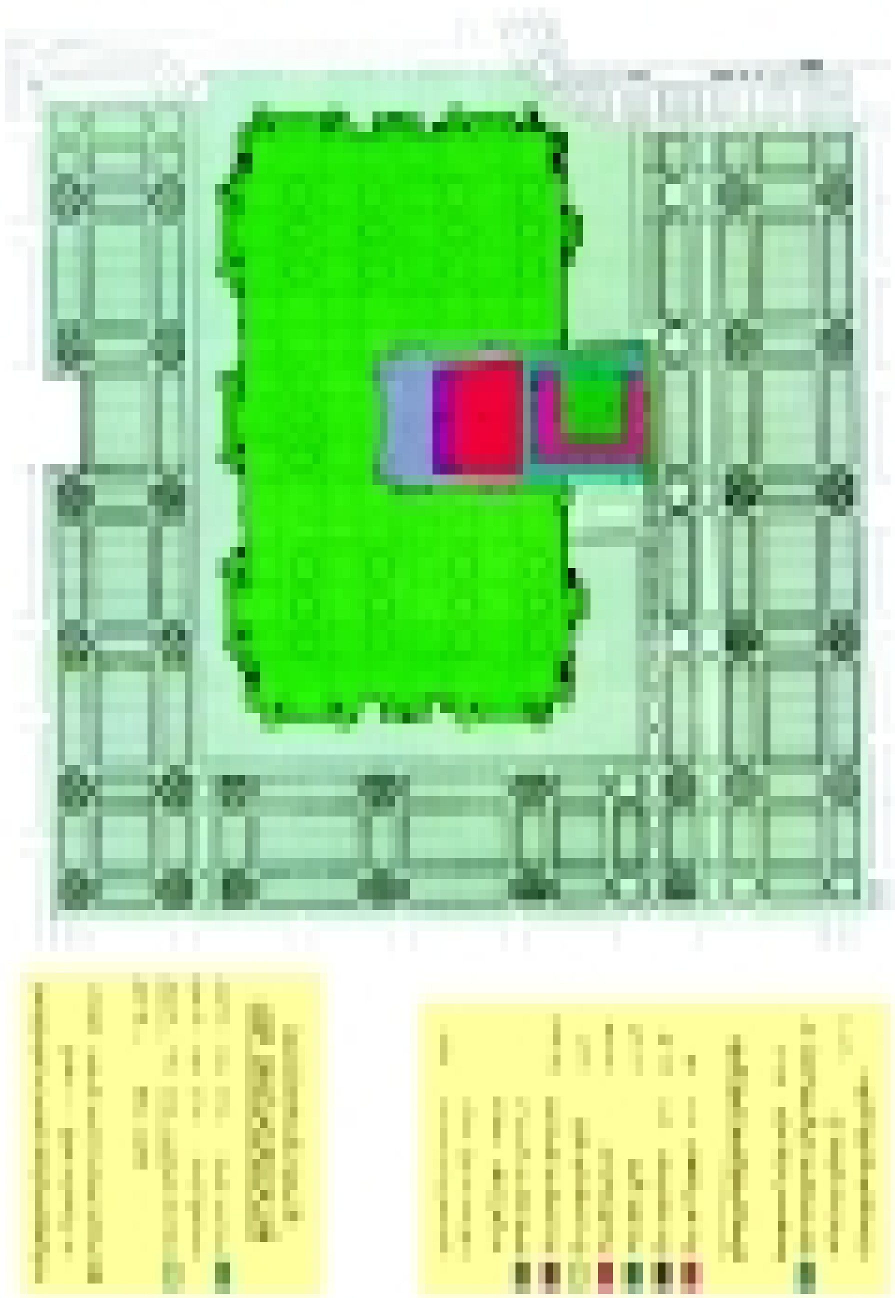
المسجد النبوي قبل التوسعة الأخيرة



المسجد النبوي

الاهتمام بالمسجد النبوي فحسنوه ووسعوه؛ إذ فتح عمر بن الخطاب # ثلاثة أبواب أخرى للمسجد، وزاد عمودين في الجهة الغربية وعمودين في الجهة الشمالية، وفرش الأرض المكشوفة بحصباء. وصارت مساحة المسجد في العام الرابع عشر للهجرة ٣٥٧٥م٢. ومن أهم التوسعات التي شهدها المسجد عمارة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي بناه بالحجارة المنقوشة والجص، وجعل له أعمدة حجرية وسقفه بالساج، وبنى فيه مقصورة بالطوب (اللَّبِن المحروق). وفي العصر الأموي أعاد الوليد بن عبدالملك سنة ٨٨هـ بناء المسجد النبوي، فجاءت عمارته شاملة وكاملة، فصارت مساحته ٦٤٤٠م٢. وأدخلت في مساحة المسجد غرف زوجات الرسول ﷺ والدور المجاورة، وقد استخدمت أحدث وسائل ذلك العصر في العمارة، وجلب لهذا عمال مهرة من فارس، واستوردت الفسيفساء والسلاسل والقناديل، وجعل للمسجد عشرون باباً. وأقيمت أعمدة من الحجارة حشيت حديداً ورصاصاً وبنيت الحجرة الشريفة على خمسة أركان، وجعل للمسجد محراب مجوف وأربع مآذن هدمت إحداها في عهد سليمان بن عبدالملك.

وكما تعددت أروقته تعددت نوافذه، وكسيت جدرانه بالرخام. وكانت هذه العمارة تليق بمسجد الرسول ﷺ الذي كان مركزاً علمياً في العصر الأموي. وفي عهد الخليفة العباسي المهدي شهد المسجد النبوي عمارة عباسية أوسع. ففي سنة ١٦٠هـ أصبح المسجد صحناً مكشوفاً



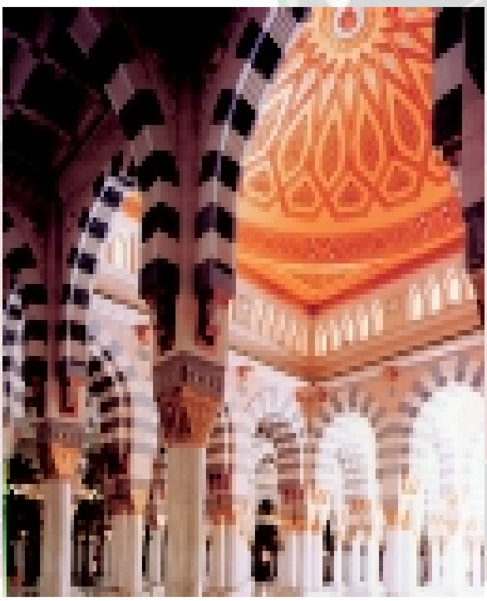
التوسعات الرئيسية للمسجد النبوي الشريف عبر العصور الإسلامية



صورة حديثة للحجرة النبوية

تحف به أربعة أروقة، وبلغت أعمدته ٢٩٩ عموداً. وبنى الناصر لدين الله سنة ٥٧٦هـ قبة في صحن المسجد لحفظ ذخائره بقيت حتى احترق المسجد في أول رمضان عام ٦٥٤هـ. فأمر المستعصم بالله بإعادة المسجد وتجديده عام ٦٥٥هـ. كما شهد المسجد النبوي بعض الإصلاحات المتفرقة في عهد المماليك، خاصة في عصر السلاطين؛ كالناصر محمد بن قلاوون الذي أمر ببناء المئذنة الرابعة، وجدد سقف صحن المسجد، وزاد رواقين في جهة القبلة، والسلطان الأشرف قايتباي الذي جدد عمارته تجديداً شمل جدرانه وأعمدته وسقفه ومآذنه، وأضافت هذه العمارة ١٢٠م٢ إلى مساحة المسجد.

وفي عصر الدولة العثمانية أجرى عدد من السلاطين العثمانيين إصلاحات



منظر داخلي للمسجد النبوي بعد توسعة خادم الحرمين تظهر فيه الزخارف المتنوعة وإحدى القباب المتحركة

وتجديدات للمسجد النبوي الشريف؛ منهم السلطان سليمان القانوني، والسلطان سليم بن سليمان، والسلطان مراد الثالث، والسلطان أحمد الأول، والسلطان عثمان الثالث. ولعل أكبر عمارة شهدها المسجد النبوي الشريف في العصر العثماني كانت في فترة حكم السلطان عبدالمجيد الأول (١٢٦٥-١٢٧٧هـ)، إذ استمرت عمارة المسجد اثنتي عشرة سنة. وقد أعطت العمارة العثمانية مسحة جمالية تتناسب مع مكانة المسجد، فكُسيت جدرانه بالدهانات الملونة، وزخرفت قبابه من الداخل بزخارف نباتيه وهندسية. وانتشرت في أرجاء المسجد الآيات القرآنية، وأسماء الله الحسنى، وأسماء النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. وشيدت أعمدة المسجد بالحجر الأحمر، وكسي بعضها بالرخام، بالإضافة إلى النوافذ الزجاجية المموهة وخلاف ذلك من العناصر المعمارية والزخرفية في مختلف أرجاء المسجد ومآذنه.

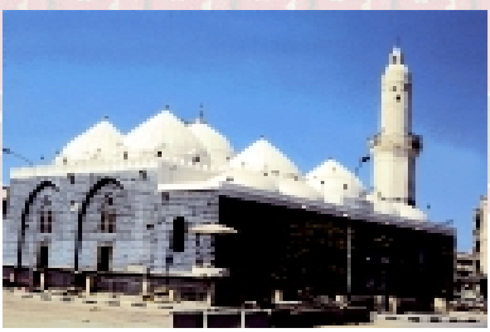
أما في العهد السعودي فقد شهد المسجد النبوي الشريف عدة توسعات، أهمها التوسعة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله (١٣٧٣هـ) وكانت التجديدات شاملة اقتضت ضم كثير من الدور والأسواق التي كانت تحيط بالحرم النبوي وعوض أصحابها. وقد مهدت الطرق التي تؤدي إليه، وبلغت مساحة



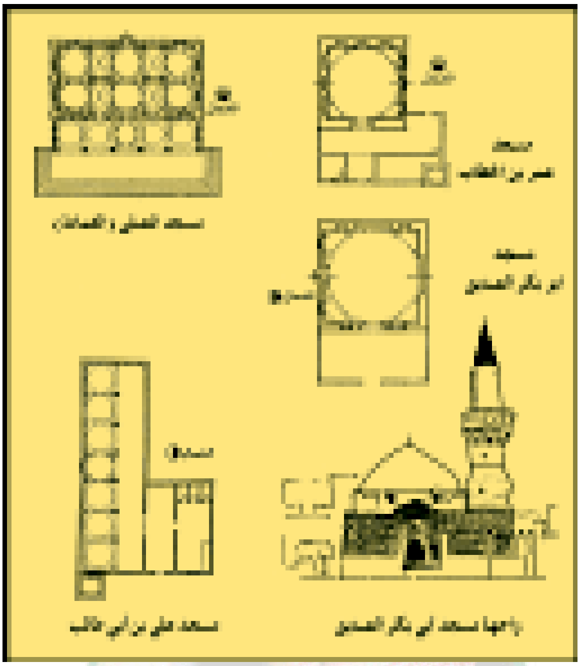
الروضة الشريفة في المسجد النبوي

التوسعة وتوسعة الملك سعود بن عبدالعزيز وتوسعة الملك فيصل بن عبدالعزيز وتوسعة الملك خالد بن عبدالعزيز. ثم التوسعة الكبيرة التي تمت في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز (١٤٠٥-١٤١٣هـ)، والتي زادت من مساحة المسجد بشكل فاق كل التوسعات التي مرت على المسجد خلال تاريخه الماضي، حيث بلغت مساحة التوسعة (٣٨٤٠٠٠م٢)، فبلغت مساحة المسجد الكليّة (٤٠٠٥٠٠م٢) وهذا بدوره زاد أعداد المصلّين بالمسجد حتى بلغ ٧٠٠,٠٠٠ مُصَلّ في الوقت الحاضر. وشملت مساحة التوسعة معظم مساحة المدينة المنورة القديمة. وحافظت هذه العمارة على السمات العامة للعمارة الإسلامية. وامتازت توسعة خادم الحرمين بإضافة ست مآذن جديدة، فبلغ عدد مآذن المسجد عشر مآذن. أما أبوابه فأصبح عددها ٨١ باباً. وركب ١٨ سلماً تؤدي إلى سطح المسجد. وقد حُسِّن الدور الأرضي والعلوي وجمّل بأنواع من الخط العربي، إلى جانب الزخارف في الأسطح والجدران المنفذة بالحفر والفسيفساء والحجر والمشغولات المعدنية، ويبلغ عدد القباب الجديدة ٢٧ قبة تزن القبة الواحدة ٨٠ طنًا، رُكبت كل واحدة منها على السطح على مساحة ١٨م×١٨م، وعلى ارتفاع ٣,٥٥م فوق منسوب السطح، وعلى ارتفاع ١٦,٦٥م من منسوب الطابق الأرضي، ويبلغ نصف قطرها الداخلي ٧,٣٧٥م وارتفاعها أربعة أمتار. وكل قبة تنزلق على مجارٍ حديدية مثبتة فوق السطح ومدعمة بسبعة عشر هيكلاً معدنياً، وتحرك آلياً، أو يدوياً. وجعل للمسجد مولدات كهربائية حديثة، وزود بمحطة ضخمة لتكييف الهواء. وركبت في المسجد آلات تصوير تلفزيونية ثابتة ومتحركة وأجهزة إنذار حساسة وكذلك شبكة اتصالات حديثة. وأنشئ حول المسجد مواقف للسيارات ذات دورين تحت الساحات المحيطة بالحرم.

ومن المساجد المبكرة في المدينة المنورة التي شهدت إصلاحات متكررة على



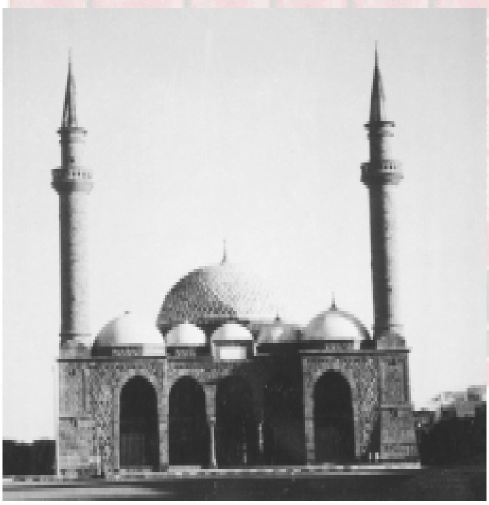
مسجد الغمامة بالمدينة المنورة



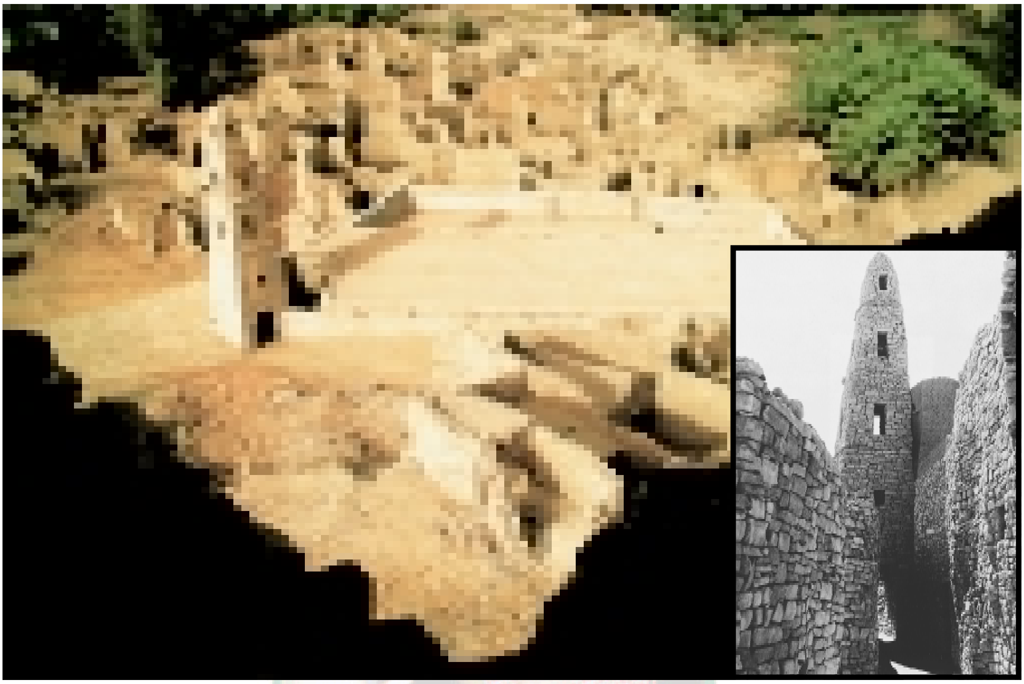
رسوم تخطيطية لبعض المساجد بالمدينة المنورة

مدى الـقرون المـاضية مـسجـدا قبـاء والقبلتين ومساجد أخـرى. وفي مكة، بالقرب من منى، مسـجد البيعة الذي عُمّر في عهد الخليفة العباسي المهدي. وما تزال النصوص التأسيسية التي تسجل ذكرى مـبايـعة الأنـصار للـنبـي ﷺ وتاريخ عمارة المسجد مثبتة على واجهة المسجد.

وهناك عدد من المساجد الأثرية الباقية التـي يمكن الاسـتـفادة منهـا في دراسة العمـارة الإسلامية المبـكرة، ومن هذه المساجد مسجد عمـر بالجوف، ويرجّح أنه يـعود إلى عصـر الخليفـة عمر بـن الخطاب #. ويمتاز هـذا المسجد بمئذنته الفريدة المبنية من الحجر، وهـي مقسمة



مسجد العنبرية بالمدينة المنورة



مسجد عمر بدومة الجندل، صورة علوية من قلعة مارد، وتظهر في الصورة اليمنى منارة المسجد

إلى ستة مستويات، وتنتهي بقمة مخروطية الشكل.

ومن المساجد المبكرة مسجد جواثا بالقرب من الهفوف، وهو أول مسجد صليت فيه الجمعة بعد المسجد النبوي الشريف، وما زالت عقوده المدببة وأكتافه العريضة تذكرنا بعمارة المسلمين المبكرة في سامراء. كما أظهرت الحفائر الأثرية في موقع الربذة وجود مسجدين مبكرين، أحدهما المسجد الجامع وله محراب نصف دائري مجوف الشكل ويبرز عن جدار القبلة. والآخر مصلى يقع في الطرف الشرقي من المدينة.

واشتهرت المدن الأخرى في المملكة بعدد من المساجد التاريخية التي ما يزال بعضها باقياً حتى يومنا هذا في مواضعها الأصلية، وقد شهدت هذه المساجد أعمال الصيانة والتجديد، فهدم بعض



بقايا مسجد جواثا – المنطقة الشرقية

منها وأعيد بناؤها بمواد البناء الحديثة. ومع ذلك فإن بقاءها في مواضعها يساعد على فهم تاريخ المدن التي ظهرت فيها تلك المساجد ومستوى تطورها.

فمدينة جدة مازال فيها عدد من المساجد التاريخية، منها مسجد الشافعي الذي يعد أقدم المساجد الباقية فيها، ويقع في حارة المظلوم، وعرف بالجامع العتيق. ويحتمل أن يعود بناء المسجد لسنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م. وتشكل المئذنة أقدم جزء فيه، أما باقي المسجد فقد أعيد بناؤه سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م. وهناك مسجد المعمار، في حارة المظلوم، وكان معروفاً قبل سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. ومسجد الحنفي في حارة الشام، ويدل نقش تأسيسي بداخله، وهو بيت شعري باللغة التركية، على أنه بني سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م. أما مسجد الباشا فيقع في الجزء القديم من محطة المظلوم، بالقرب من البحر، ويعتقد أنه بني سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥-٤م. بناه والي جدة آنذاك بكر باشا. وفي السنوات الأخيرة هدم المسجد وأعيد بناؤه. وتمتاز مساجد جدة التاريخية ببساطة البناء وندرة العناصر الزخرفية مع وجود عناصر معمارية في بعض العقود وأشكال المآذن، كما أنها جاءت خالية من القباب. وقد بنيت تلك المساجد



مسجد الشافعي – جدة

بالأحجار الجيرية المرجانية وغطيت الجدران بطبقة جصية.

وفي مدينة الطائف عدد من المساجد التاريخية ما يزال بعضها قائماً حتى الآن، منها مسجد الموقف أو الكوع، ومسجد الخبزة، ومسجد عبدالله بن عباس في المثناة، ومسجد عداس، ومسجد المدهون أو القنطرة، ومسجد الهادي، ومسجد السنوسي. وما يزال بعض هذه المساجد تقام فيه الصلوات وبعضها أطلال متهدمة. غير أن أشهر المساجد الأثرية بالطائف المسجد المعروف بمسجد عبدالله بن عباس الذي بناه الخليفة الناصر لدين الله أبو



مسجد عداس – المثناة – الطائف

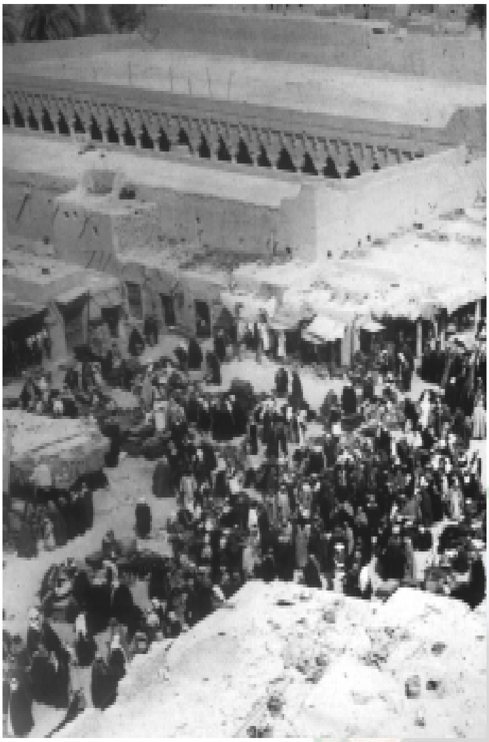
العباس أحمد بن المستضيء بالله سنة ٥٩٢هـ، ثم جُدد سنة ٦٧٥هـ وأضيفت إليه بعض الإضافات والتجديدات في السنوات ١٠٠٧هـ، ١٠٧١هـ، ١١٩٣هـ، ونظراً لموقع المسجد المتميز في قلب مدينة الطائف أعيد بناؤه وتوسعته في العهد السعودي على نمط عصري حديث بحيث يتسع لآلاف المصلين.

ومن المساجد المشهورة في المملكة مسجد إبراهيم في الهفوف في المنطقة الشرقية -حي الكوت- ويعرف بمسجد القبة. ومن خلال النقش التأسيسي على واجهة الباب الرئيسي نعرف أن المسجد بني في أوائل شهر رجب سنة ٩٧٩هـ بأمر من السلطان العثماني سليم بن سليمان، وتولى عمارة المسجد علي باشا والي الأحساء في ذلك الوقت. والمسجد مربع يصل طول ضلعه إلى ١٥,٦٠م وتعلوه قبة كبيرة نصف كروية، يصل قطرها إلى حوالي ١٣,٨٠م وعمقها ٦,٨٠م، وترتكز على أربع حنايا ركنية. وقد زود المسجد بمنبر حجري ومحراب وبنيت القباب الصغيرة على الأروقة، كما زود بمئذنة حجرية دائرية الشكل. ويوجد بالمسجد عناصر زخرفية متنوعة، منها الزخارف الكتابية والهندسية والنباتية. وفي المملكة عشرات المساجد المبنية على الطراز التقليدي المحلي، خاصة في منطقة نجد. وتمتاز هذه المساجد بتنوع عناصرها المعمارية الفريدة المكونة من الأعمدة الحجرية الدائرية والعقود المدببة، والمحاريب الدائرية البارزة عن جدار القبلة والمآذن الدائرية والمربعة التي يرتفع بعضها لعدة أمتار عن مستوى المنطقة المحيطة بالمسجد. وتمتاز هذه المساجد بوجود الصحن المكشوف بالإضافة إلى استخدام سطح المسجد. وكذلك يوجد مرفق إضافي في كثير من هذه المساجد وهو المصلى الشتوي المعروف باسم الخلوة.

ويمكن مشاهدة أنماط من هذه المساجد في عدد من المدن، مثل الرياض والدرعية وسدوس وحريملاء والمجمعة وأشيقر وبعض محافظات سدير والقصيم وغيرها. وكما نشاهد في مدن الساحل الغربي وتهامة وجزائر فرسان عدداً من المساجد المهمة، مثل مسجد الأشراف



منارة مسجد قصر إبراهيم – الهفوف



مسجد الإمام فيصل بن تركي – الرياض

ومسجد البديوي بمدينة الوجه في شمال غرب المملكة، ومسجد العباس بأبي عريش ومسجد النجدي في جزيرة فرسان، جنوب غرب المملكة.

المدارس. انتشرت المدارس، على وجه خاص، في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة لخدمة طلاب العلم والمجاورين. وقد ظل الحرمان الشريفان إلى اليوم منارتي علم من خلال حلقات الدرس والوعظ المقامة فيهما لتدريس تعاليم الإسلام وتطبيقها على وجهها الصحيح.

ظهرت المدارس في مكة المكرمة في حوالي منتصف القرن الخامس الهجري، وكانت مخصصة لتدريس أحد المذاهب الأربعة بالإضافة إلى العلوم الشرعية والأدبية. وكانت معظم هذه المدارس ملاصقة للحرم المكي الشريف، وبقي بعض مبانيها قائماً حتى عهد قريب ولكنه أزيل بسبب التوسعات المتتالية للمسجد الحرام ومرافقه المختلفة. وقد رصد مؤرخو مكة والرحالة الذين زاروها أعداداً من المدارس لأهميتها العلمية ولعلاقتها بالشخصيات التي قامت بعمارتها ووقفها

على طلاب العلم. وتعود فترات ظهور هـذه المدارس إلـى الـعصـر الأيـوبي والمملوكي والعثماني.

ومن المدارس التي كانت معروفة في مـكة مـدرسة الأرسـوفي، ومـدرسـة الزنجيلي، ومدرسة طاب الزمان الحبشية، ومدرسة النهـاوندي، ومدرسة ابن أبي زكريا، ومـدرسة ابن الحداد المهـدوي، ومدرسة الشرابية، والمدرسة المظفرية.

وقد مكّن وضع النصوص التأسيسية لهذه المدارس على واجهاتها مؤرخي مكة من معرفة من قام بعمارتها ووقفها أو من قام بإصلاحها. فعلى سبيل المثال عندما ذكر المؤرخ الفاسي مدرسة أبـي علي بن أبي زكـريا، قرب المـدرسة المجاهـدية، وتعرف بأبي طاهر المؤذن، قال «وتـاريخ وقفها سنة خمس وثلاثين وستمائة على ما في حجرها ووقفها فيه مترجم بالإمام الشـهيـد وما عـرفت حـاله» (١٩٥٦، ج١: ٣٣٠). ولعل المعلومات المفصلة التي ذكرها الفاسي في كتابه <u>شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام</u> عن واحدة من هذه المدارس توضح الأساليب المتبعة في عمارة المدارس في بداية القرن التاسع الهجري. فقد أورد وصفاً لعمارة مدرسة الملك غـياث الدين التي وقـفها على الـفقهاء من أصـحاب المذاهـب الأربعـة، ووجه مـن اشتـرى عرصتها ونـخلها وسقيه، في أول شهـر رمضان سنة ٨١٣هـ، بمبلغ اثني عشر ألف مثقال. وبدأ في هدم ما كان في موضعها من الأبنية وشرع في بناء المدرسة، إذ فرغ من البنـاء في سنة ٨١٤هـ. وفي الـسنة نفسها، يقول الفاسي:

> بيـض باطنهـا والصهريـج الذي في جوفها، وغالـب ظاهرها وعمل فيه أيضاً كثيراً مما يطلب عمله في العمائر وأحكمت منها العمارة، فاستـحسنها ذوو البصائر، وكان وقـفها في سابع عشر المحرم سنة أربع عشرة بعد الفراغ من عمـارة سفلهـا وغالب علـوها، وقرروا فقهاء فيها: أربعة من المدرسين، وهم قضاة مكة الأربعة يومئذ، وستين نفـراً من المـتفقـهين، عـشريـن من الشـافعية، وعـشرين مـن الحنفـية، وعشـرة من المـالكيـة، وعشـرة من الحنابلة. وجعل الإيوان الشرقي منها محـل تدريس الشـافعية والحـنفيـة، والإيوان الغـربي منها محـل تدريس المالكية والحنابلة، وجعل لوقف المنازل التي تعلوها وهي إحدى عشرة خلوة محلاً لـسكنى جماعـة من الفقراء، خلاف واحدة منها فإنه جعلها خاصة لـلـمـدرســة المـذكـورة (١٩٥٦، ج١: ٣٢٩).

كما خصصت مواعيد محددة للتدريس في أيام الأسبوع. وكان يُصرف على المدرسة والفقهاء والمدرسين والطلاب والسكان من ريع الأملاك التي وقفها الواقف، وتتمثل في حديقتين وسقية ماء بالإضافة إلى دار اشتراها الواقف بخمسمائة مثقال وعمرها في السنة المذكورة ووقفها على مصالح المدرسة المذكورة.

وبهذا يتضح الجهد الذي كان يبذل في إقامة تلك المدارس والعدد التقريبي الذي تستوعبه من فقهاء ومدرسين وطلاب. وكذلك أسلوب الإنفاق على المدرسة من الأملاك والأوقاف.

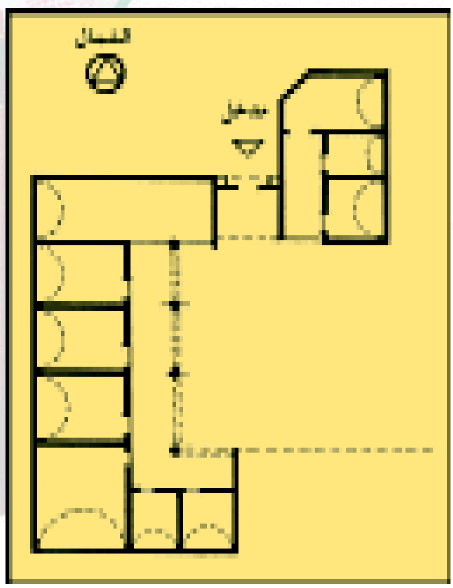
على أن المصادر التاريخية والجغرافية لم تمدنا بمعلومات مفصلة عن المدارس في المدينة المنورة، خلافاً لما ذكرته المصادر عن المدارس في مكة المكرمة. وقد كان التدريس أول الأمر في المدينة المنورة مُركزاً على المسجد النبوي الشريف وفي الأربطة والزوايا. غير أن المدارس بعد ذلك ظهرت في المدينة وأنشئت بالقرب من المسجد النبوي الشريف. ومن المدارس التي ذكرتها المصادر، المدرسة الشيرازية: أنشأها إبراهيم الرومي في القرن السابع الهجري، والمدرسة الجوبانية: أنشأها جوبان أتابك العساكر المغلية سنة ٧٢٤هـ، والمدرسة الأشرفية: أنشأها السلطان الأشرف قايتباي عام ٨٨٧هـ.

وفي العصر العثماني ازداد عدد المدارس، ومنها: المدرسة الباسطية، والمدرسة الزمنية، ومدرسة الملك المظفر، ومدرسة إبراهيم الخياري (١٠٣٧-١٠٨٣هـ)، والمدرسة المحمودية التي أنشأها السلطان محمود خان عام ١٢٣٧هـ.

وفي بداية القرن الرابع عشر الهجري تنامت المدارس الحكومية والأهلية، فبلغ عدد المدارس الدينية سبع عشرة مدرسة، والمدارس الرشدية خمس مدارس، ومدرسة واحدة لتعليم الخط، كما بلغ عدد الكتاتيب ثلاثة عشر كتّاباً. ثم ظهر بعد ذلك ما يسمى بالمدارس التحضيرية والابتدائية والمدارس الإعدادية. وفي عام ١٣٢٧هـ أنشئت دار المعلمين، ومنذ عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م بدأ التعليم النظامي يأخذ مكانه ويتطور على مختلف المستويات التعليمية. أما المدارس التاريخية التي كانت قائمة في المدينة فلم يعد لها أهمية تذكر، خاصة مع التطور السريع الذي شهدته المدينة المنورة بكامل أحيائها، بالإضافة إلى التوسعات المستمرة للمسجد النبوي الشريف. ومما يلفت النظر عدم وجود وصف مفصل لتلك المدارس في

المصادر التي عنيت بتاريخ المدينة. وقد يكون من المناسب الإشارة إلى الوصف الموجز الذي ذكره صالح لمعي مصطفى لثلاث مدارس كانت قائمة بالقرب من المسجد النبوي وأزيلت عند التوسعة. يقول عن المدرسة الرستمية:

أنشئت في العصر العثماني في حارة الرستمية (البقيع سابقاً) وكانت مبنية من طابق واحد وتشتمل على عشر غرف لها عقود مدببة ترتكز على أعمدة دائرية ذات تيجان مدرجة، وللمدرسة شرفات مورقة علوية. ومن أسلوب التخطيط والعمارة لهذه المدرسة يعتقد أنها بنيت في القرن الثالث عشر



مسقط أفقي للمدرسة الرستمية التي تعود إلى العصر العثماني – المدينة المنورة

الهجري التاسع عشر للميلاد (١٩٨١: ٢١٧-٢١٨).

مدرسة حسين أغا. أنشأ هذه المدرسة بحي الأغوات حسين أغا ناظر التكية المصرية بالمدينة عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م. وكانت مخصصة لتعليم الدين. ولا يوجد وصف معماري لهذه المدرسة، غير أن مدخلها يمتاز بدقة بنائه وعناصره المعمارية. ويقول صالح لمعي مصطفى:

والمدخل يوجد في الحائط الشمالي، وهو عبارة عن عقد دائري من الحجر الملون باللون الأحمر والأسود. ويدور حول العقد جفت يتقاطع فوق مفتاح العقد مكوناً دائرة. ويوجد أعلى باب المدخل لوحة عليها نص من خمسة أسطر باللغة التركية العثمانية مؤرخ بحساب الجمّل وهو: ١٢٧٣هـ ١٨٥٦-١٨٥٧م (١٩٨١: ٢٢٠-٢٢١).

وكذلك كان بالمدينة مدرسة الوزير علم الدين الذي شغل وظيفة وزير في الدولة العثمانية. وتتكون من ثلاثة طوابق مبنية بالحجر. وقد نقش على مدخلها نص شعري تأسيسي مكون من ستة أبيات ومؤرخ بحساب الجمّل سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٣-١٨٨٤م (مصطفى ١٩٨١: ٢٢٢).

هذا ما يخص المدينتين المقدستين مكة والمدينة، أما باقي المدن التاريخية الأخرى في مختلف مناطق المملكة فلا يتوافر لدينا معلومات في المصادر التاريخية والأدبية عن المدارس فيها، مع العلم بأن المساجد ظلت على مدى القرون مكاناً لتدريس العلوم الدينية بجميع فروعها. وكانت المدن في نجد مشهورة بكثرة مساجدها التي ارتبطت بالعلماء الذين يقيمون فيها. ومن أشهر تلك المدن: أشيقر، وشقراء، وحريملاء، والمجمعة، وعنيزة، وبريدة وغيرها من المدن التي ذاع صيتها بسبب شهرة علمائها، خاصة مع قيام الدولة السعودية الأولى.

الأربطة. الأربطة جمع رباط، وهي في الأصل نوع من المباني الدينية كانت تقام في الثغور ويسكنها المجاهدون في الإسلام، وقد ظلت وظيفتها الدينية والعسكرية مستمرة لفترة طويلة من الزمن، إلا أن الصفة الدينية غلبت عليها فأقام بها طلبة العلم وغيرهم. وقد شهدت مكة المكرمة منذ القرن الخامس الهجري ظهور الأربطة بالقرب من الحرم المكي الشريف وفي أرجاء متفرقة من أحيائها، مثل سوق الليل وأجياد والمسفلة وغيرها. وقد قام بعمارة الأربطة وأوقافها عدد من السلاطين والأمراء والموسرين من الرجال والنساء. وكانت هذه الأربطة مخصصة لمجاوري بيت الله الحرام من الفقراء والمنقطعين ومن طلبة العلم. وقد خصص بعضها لفئة معينة من أحد الأقطار الإسلامية أو لمذهب محدد أو للمذاهب الأربعة. كما أن سكن بعض الأربطة كان مشروطاً بأشهر معينة في السنة للوافدين وبقية السنة للفئات الموقوفة من أجلها تلك الأربطة. وقد خصص المتبرعون للأربطة أموالاً جارية للصرف منها على الساكنين وعلى عمارتها وتزويدها بمرافق المياه، بالإضافة إلى تخصيص دور وبساتين داخل وخارج مكة يصرف من ريعها على تلك الأربطة. وقد قدم لنا الفاسي مؤرخ مكة المشهور (٧٧٥-٨٣٢هـ) حصراً بعدد الأربطة التي كانت معروفة في عهده، حيث ذكر ما يقرب من أربعة وخمسين رباطاً. ويفهم من حديث الفاسي عن هذه الأربطة أنها كانت مكونة من دورين ومبنية بالحجارة، وعلى واجهاتها أو مداخلها نصوص تأسيسية توضح تواريخ بنائها وواقفيها وشرط وقفها. والأربطة المؤرخة التي ذكرها الفاسي تواريخها بين سنتي ٤٠٠هـ و٨٢٠هـ (١٩٥٦، ج١: ٣٣٠-٣٣٧)

وعلى سبيل المثال نذكر من هذه الأربطة رباط السدرة الذي وُقِف سنة ٤٠٠هـ، ورباط الفقاعية الذي أوقفته قهرمانة المقتدي الخليفة العباسي سنة ٤٩٢هـ للمنقطعات من الأرامل، ورباط الشرابي وهو للأمير إقبال الشرابي المستنصر بن العباس، وتاريخ عمارته سنة إحدى وأربعين وستمائة، ولرباط الشرابي أوقاف كثيرة من الكتب والمياه وغير ذلك بوادي مر ونخلة، ورباط الحافظ أبي عبدالله بن منده ووقفه على القادمين من أصبهان أربعين يوماً، وعلى سائر الناس عشرة أشهر وعشرين يوماً.

وهناك أربطة أخرى مثل: رباط رامشت، رباط المغاربة، رباط الحضارمة، رباط الخاتون، رباط قايماز، رباط الزنجيلي، رباط الخوزي، رباط التميمي، وغير ذلك من الأربطة التي كانت معروفة في عهد الفاسي، وقد زاد عدد الأربطة بعد ذلك في عهد الدولة العثمانية. ومع الامتداد العمراني لمكة المكرمة والتطور الذي حدث للمدينة المقدسة في العصر الحاضر، وبالأخص توسعة الحرم المكي الشريف والمرافق الحديثة المهمة، اختفت تلك الأربطة لانقطاع الأوقاف عنها وظهور الخدمات المتطورة والرعاية الكريمة التي يلقاها الحجاج وزوار البيت الحرام منذ تأسيس الدولة السعودية. ولا توجد أي دراسات معمارية عن الأربطة في مكة المكرمة. ويذكر أن مديرية الأوقاف العامة تحتفظ بسجلات للأربطة التي كانت معروفة قبل إزالتها، أو التي يحتمل استمرار استخدامها في المناطق التي لم تصلها التوسعات الحديثة.

وقد يكون من المناسب إيراد نصين كتابيين يتعلقان برباطين كانا قائمين في مكة للاستدلال منهما على معلومات حضارية وتاريخية. وأول النصين لرباط رامشت، ويوجد في متحف آثار الحرم المكي، وهو من الحجر البازلتي، أبعاده ١٠٣×٣٤سم، وعليه نقش مكون من سبعة أسطر بالخط النسخي البارز. ويمثل هذا النقش حجة وقف هذا الرباط المعروف باسم رباط رامشت:

١) بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوقف وتصدق الشيخ الأجل معين الدين شيخ الإسلام.

٢) غياث الحرمين جمال الطائفتين أبو القاسم رامشت ابن الحسين بن شيرويه.

٣) ابن الحسين ابن جعفر الفارسي جميع هذا الرباط بجوار عزوره عند باب.

٤) الحرم الشريف على جميع الصوفية الرجال دون النساء أصحاب المرقعه من سائر العراق.
٥) وخراسان الحاج والمجاورين وقفاً مؤبداً وصدقة محرمة محبسة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
٦) وهو خير الوارثين فمن غيره أو بدله لعنه الله ولعنه اللاعنين -كذا- والملائكة. والناس أجمعين ولا قبل.
٧) الله منه صرفا ولا عدلا ولا أقام له يوم القيامة وزناً وذلك في شهر رمضان سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

أما نص رباط المغاربة فكان بالرباط، أسفل مكة غربي المسجد الحرام بحوالي ٢٠٠م أعلى المدخل، واشتمل على نص (وقفية) الرباط المكون من سبعة أسطر كتبت بالخط النسخي البارز. ويقرأ النص على النحو التالي:

١) بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله وسلم.
٢) هذا ما وقف وحبس وسبل وتصدق به القاضي الفقيه الموفق المكين الأمين جمال الدين ثقة الخلافة.
٣) ولي أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن القاضي السعيد أبي القاسم عبدالوهاب بن الشيخ أبي عبدالله محمد.
٤) بن أبي الفرج العدل بالأعمال المصرية رضى الله عنه وقف وحبس وسبل وتصدق بجميع هذا الرباط.
٥) على فقراء الغرب الغربا المتعبدين ذوي الحاجات المجردين ليس للمتأهلين فيه حظ ولا نصيب.
٦) تقبل الله ذلك منه وأثابه عليه بالإحسان وقف ذلك وحبسه بجميع حقوقه وقفاً صحيحاً.
٧) محرماً مؤبداً فمن غير ذلك أو بدله لعنه الله ولعنه اللاعنين -كذا- وجرى ذلك في سنة أربع وستمائة.

أما في المدينة المنورة، فقد نشأت الأربطة في الأحياء المحيطة بالمسجد النبوي الشريف، وكانت أيضاً مخصصة لسكن المجاورين والزائرين والمنقطعين من الغرباء والأرامل وطلاب العلم. وكما لاحظنا في الأربطة الموقوفة في مكة نجد أيضاً في أربطة المدينة المنورة أن كل رباط كان مخصصاً لفئة معينة من الساكنين القادمين من أحد الأقطار الإسلامية أو لمذهب من المذاهب. وبعض الأربطة كان موقوفا على النساء المنقطعات من دون الرجال.

ويعتقد أن أقدم رباط بالمدينة هو الرباط الذي بني في موضع دار عثمان

بن عفان # سنة ٤٢٣هـ وجعل رباطاً لطلبة العلم القادمين من المغرب. ثم ازداد عدد الأربطة بالمدينة المنورة حتى بلغت في عهد السخاوي (٨٣١-٩٠٢هـ) ما يقارب أربعين رباطاً. ومن أشهر الأربطة المبكرة رباط الناصر لدين الله (بني سنة ٥٧٠هـ)، ورباط المراغي (بني سنة ٥٧١هـ)، ورباط الزنجيلي (بناه نائب أمير عدن عثمان بن علي الزنجيلي سنة ٥٧٩هـ)، ورباط والدة الخليفة الناصر لدين الله (سنة ٥٩٩هـ). ورباط جمال الدين الأصفهاني، وقد وقف هذا الرباط في أواخر القرن السادس الهجري، ورباط السبيل (أنشئ سنة ٦٢٠هـ).

وتعددت الأربطة في المدينة المنورة مع مرور الزمن حتى أصبحت في بداية القرن الرابع عشر الهجري نحو ١٠٨ أربطة.

غير أن هذه الأربطة تلاشى دورها بعد التطوير والتحديث الذي شهدته المدينة المنورة في العهد السعودي، ولم تعد مستخدمة للفئات الموقوفة عليها. كما أن الضرورة اقتضت إزالتها لتوسعة المسجد النبوي الشريف وإدخال خدمات حديثة متطورة للمقيمين من المواطنين والمجاورين والقادمين لزيارة المسجد.

ويذكر أن الأوقاف العامة بالمدينة اشترت بنايات كبيرة لتحل محل الأربطة السابقة، ونقلت سكان الأربطة إلى هذه المباني، وهي تحمل الاسم السابق للرباط نفسه.

غير أنه للأسف لم توثق هذه الأربطة لمعرفة أحجامها وأساليب بنائها وعناصرها الزخرفية والكتابات التأسيسية المنقوشة على واجهات بعضها. ولا يوجد لدينا سوى وصف مختصر لرباطين اثنين فقط من مجموع أربطة المدينة.

أولهما رباط مظهر الأحمدي، وكان في حارة الأغوات بزقاق المواليد، ويتكون من طابقين، ويتوسطه حوش (صحن) بغرض التهوية والإنارة. ويشتمل المبنى على غرف للإقامة بالدور السفلي ومكتبة بالطابق الأول.

وللغرف التي تفتح على الصحن عقود دائرية محمولة على دعائم حجرية. وعلى واجهة المدخل نص باللغة العربية وآخر باللغة الفارسية. والنص العربي أربعة أبيات شعرية يشير آخرها إلى تاريخ المبنى بحساب الجمّل، ثم يأتي التاريخ مسجلاً بالأعداد الحسابية. ويقرأ النص على النحو التالي:

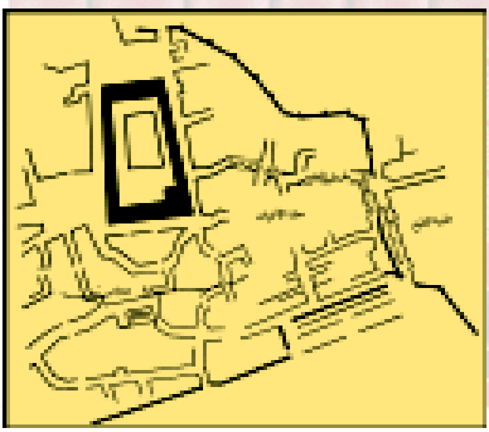


جانب من حي الأغوات

مكان عد للعلماء نديا
وللعباد والزهاد مثوى
به لأحمد يين الأعالي
شيوخ النقشبنديين مأوى
رجال للعبادة قد تخلوا
به أذكارهم لله نجوى
وفيض الحق أرخه مكان
به علم وارشاد وتقوى
بناه مظهر الأحمد سنة ١٢٩٢هـ

وثانيهما رباط ياقوت المارداني، وكان في حي الأغوات، ويعود بناؤه إلى العصر المملوكي. والبناء من طابقين وله باب يؤدي إلى مدخل منكسر ينتهي إلى حوش صغير مستطيل، تطل عليه الغرف السكنية. وتمتد إحدى واجهات المبنى بطول ٧م، وهي مبنية بالآجر أو الطوب الأحمر، وتقوم الواجهة على أساسات من حجر البازلت. ويعلو المدخل لوح من الرخام عليه نص تأسيسي بخط الثلث الغائر مكون من خمسة أسطر تقرأ كما يلي:

١) وقف هذا الرباط المبارك لوجه الله تعالى العبد.
٢) الفقير ياقوت المظفري المنصوري المارداني على
٣) الفقراء والمساكين الغرباء من الرجال خاصة دون
٤) النساء تقبل الله منه وأثابه الجنة برحمته وكرمه بتاريخ



مخطط يبين موقع حارة الأغوات شرق المسجد النبوي الشريف، وبها يقع رباط ياقوت المظفري المارداني، الذي بني عام ٧٠٦هـ



صورة مفرغة لنقش رباط مظفر التأسيسي، الذي يحمل نص الوقفية في حارة الأغوات – المدينة المنورة

٥) سنة ست وسبعمايه.

ويتفق تاريخ عمارة هذا الربـاط مع فترة تـولي السلطـان المملوكي الـناصر محمد بن قلاوون الولاية الثانية (٦٩٨–٧٠٨هـ) وقـد توفـي السـلطـان سنـة (٧٤١هـ/ ١٣٤١م).

العمارة المدنية

ازدهرت العمارة المدنية أيضاً، وقد شملت عدة أنواع من المباني التي يناسب كل منها وظيفة خاصة به، مثل العمارة السكنية المتمثلة في القصور والمنازل، وفي عمارة الحمامات والأسواق وخاصة في المدن الكبيـرة، وغير ذلك من المنشآت المدنية. ومن أمثلة ذلك:

القصور. القـصر هو البيت الكـبير الفـاخر، واللـفظة ذات أصـول آرامية (قصرو)، وقد أطلقها علماء اللغة على البيوت الكبـيرة في اليمن قبل الإسلام فقالوا: قصـور اليمن. وأشهرها قصـر غمدان وقصر سلحين، ومنـها الخورنق والسدير في الحيرة.

وورد لفظ قصر في القرآن الكريم بصيغة الجمع، قال تعالى ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾ (الفرقان: ١٠). وقال تعالى ﴿وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ (الأعراف: ٧٤). ووردت أيضاً بصيغة المفرد، قال تعالى ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ (المرسلات: ٣٢). وقد أظهرت التنقيبات الأثرية التي أجريت في نجران وجرش وتيماء والربذة والأسياح في القصيم بقايا أطلال مبان كبيرة متعددة الأدوار ومتنوعة المرافق، تعكس المعثورات التي وجدت بداخلها حياة الرفاهية والترف التي عاشها أصحاب تلك المباني مما يجعلنا نضعها، دون أدنى شك، في عداد القصور. وثمّة مجموعات أخرى من القصور بالقرب من بعض المدن، مثل قصور وادي العقيق بالمدينة وقصور وادي الجزل بالقرب من العلا.

الأسواق. كانت المدن التاريخية الكبرى، خاصة في الحجاز واليمامة والجزء الشمالي الغربي من المملكة، عامرة بالأسواق، ومن أبرز تلك المدن: مكة المكرمة والمدينة المنورة وحَجْر اليمامة ودومة الجندل وهجر والطائف وجدة. بالإضافة إلى المحطات والمنازل الكبيرة على طرق التجارة والحج، مثل: قرح، وفيد، والربذة، وضرية، وعشم، وعثر، وكذلك مدن الواحات. ونجد في المصادر التاريخية والأدبية والجغرافية أسماء عدد من الأسواق المشهورة مثل: سوق حجر ويسمى سوق اليمامة، وسوق الفَلَج الذي بلغ عدد حوانيته أربعمائة حانوت. ويذكر الهمداني أن سمك سوره يبلغ ثلاثين ذراعاً، وهو محاط بخندق وحجارة، وأبوابه من الحديد، وعده الهمداني مدينة عظيمة لكبر حجمه. ومن الأسواق



جانب من أطلال السوق القديم – العلا

الأخرى: سوق الخضرمة، وسوق الحائط وسوق جماز بالفقي باليمامة، وسوق خزبة، وسوق أكمة، وسوق حربة، وسوق العسجدية.

وكان يعرض في هذه الأسواق مختلف المنتجات الزراعية من حنطة وشعير وزبيب وتمور وفاكهة. وكذلك الماشية ومنتجاتها من سمن وزبد وأقط وجلود. ولا يخلو السوق من صناعات معدنية متنوعة مما يصنعه الحدادون. فضلاً عن الأسلحة والملبوسات بأنواعها وأدوات الزينة والعطارة وغير ذلك من أنواع الصناعات. وعرفت تلك الأسواق الأسماء التجارية مثل السمسار والصيرفي. يقول أحد الشعراء:

وأصبحت لا أستطيع الكلام
سوى أن أراجع سمسارها

ويقول آخر:

ولساناً صيرفياً صارماً
مثل حدِّ السيف ما مس قطع

ومن الأسواق المشهورة في الحجاز حتى منتصف القرن الثاني الهجري سوق عكاظ، وسوق مجنة، وسوق ذي المجاز، ومواضع هذه الأسواق معروفة وأطلالها باقية حتى اليوم. وكانت تستقبل القوافل التجارية والسلع في أوقات معينة من السنة حيث يبدأ سوق عكاظ في غرة ذي القعدة ويبقى عشرين ليلة. ينتقل التجار منه إلى سوق المجنة لمدة ثماني ليال بعدها يخرجون إلى سوق ذي المجاز. ويستمر البيع والشراء فيه حتى الثامن من ذي الحجة، وهو يوم التروية، وقد سمي هذا اليوم بيوم التروية لأن الناس يتروون الماء من ذي المجاز لأنه لا ماء في عرفات ولا في مزدلفة.

وبعد فترة من الزمان ظهرت في مكة والمدينة الأسواق الثابتة والدائمة حسب تخطيط المدينتين. وفي ضوء المعلومات التاريخية نجد أن بعض الأسواق كانت مبنية وأبوابها شارعة على الدروب والأزقة، حتى إن بعض الدروب كانت تسمى بأسماء البضائع والسلع والصناعات التي تعرض فيها. وقد بلغ عدد الأسواق الدائمة في مكة ما يزيد على ٢٥ سوقاً، عدا الأسواق الموسمية. وقد سمي كل سوق باسم النشاط الحرفي أو التجاري المخصص له، فمن ذلك: سوق الحدادين، سوق الحذائين، سوق الخرازين، سوق الخياطين، سوق الصابون، سوق الصيادلة، سوق العطارين، سوق القوارير، سوق القواسين، سوق النجارين، سوق الفاكهة. وغير ذلك من أسواق المواشي والجمال والحمير التي كانت تكتظ بها مكة.



أطلال مبان في موقع سوق عكاظ، يُرجح أنها تعود إلى العصر العباسي – منطقة الطائف

ومن خلال المعلومات التي كتبها مؤرخو مكة والرحالة المسلمون يتضح أن أسواق مكة كانت متقابلة، وعلى ممراتها وطرقها أسقف لحماية الناس من حرارة الشمس والأمطار. ووصفت بعض أسواق مكة في القرن الخامس الهجري بحسن بنائها، مثل سوق العطارين، إذ ذكرت المصادر بأنها سوق جميلة البنايات وكلها عطارون. وذكر عن مدينة جدة في هذه الفترة أن فيها أسواقاً جميلة.

وقد تركزت الأسواق القديمة في مكة في الأحياء المجاورة للحرم المكي الشريف، وكانت مبنية بالحجارة والطوب المحروق، وبعض الدكاكين كانت تعلوها وحدات سكنية وفنادق. ومن أشهر تلك الأسواق المعروفة حتى عهد قريب، السوق المسمى بالسوق الصغير إلى الجهة الجنوبية من الحرم. وكان بمكة في بداية القرن الرابع عشر الهجري حوالي ٣٠٠٠ دكان. ومع التحديث الذي شهدته المدينه المقدسة دخلت الأسواق المجاورة للحرم في التوسعات الجديدة، وظهرت أسواق ومجمعات تجارية حديثة.

أما المدينة المنورة فقد اختط سوقها الرسول ﷺ وقال «هذا سوقكم فلا ينقص منه ولا يضربن عليه خراج».

ومع تـطور المدينـة المنورة وتـوسع أحيائها شهـد السوق ظهور الدور التي أقامها خلفاء بنـي أمية؛ فبنى هشام بن عبدالملك داراً عظيمة في السوق وجعل لها أبواباً معمولة في الشام وأكثرها من البلقاء، وجعل لدار السوق حوانيت في أسفلها وعـلالي تكرى للسكن، وكان فيه التجار، فيؤخذ منهم الكراء.

وتطورت أسواق المدينـة في العصر العباسـي والفترات التالـية، وأصبحت المساكن والأسواق تشكل نسيجاً معمارياً متلاحماً. فقامت الأسواق مصطفة على امتداد الأزقة والمـمرات بشكل مستقـيم تعلوها الدور الـسكنية، وتنتهي دروب تلك الأسواق ببوابات تؤدي إلى المسجد النبوي. وكانت مواد البناء من الحجارة والطوب والأسقف من جذوع النخيل.

وقد تـوزعت أسواق المديـنة أيضاً حسب الـسلع والصـناعات المعـروضة للبيع، وذكرت لنا المصادر أسواقاً عديدة، أشهرهـا أحد عشر سـوقاً هي: سوق الحبابة، والثمارة، والسمانة، والرواسة، والفـلتـية، والخـضرية، والدلالـين، والخـرازة، والعـطـارة، والقـماشـة، والخردية. ويذكر أن بـعض الأسواق كانت أرضياتها مبلطة بالحجارة المطابقة السـوداء، مثل سـوق الحدرة أو سوق سويقة. وفـي بداية القرن الرابع عـشر الهـجري كـان بالمديـنة ٩٣٢ حـانوتاً ومخزناً، وأربعة متاجر كبيرة (وكالات)، غير أن هذه الحوانـيت والمتاجر تغيرت مع الوقت ليحل مكانها الطرز المعمارية الحديثة.

وإذا ألقيـنا نظرة علـى بعض المدن التراثية البـاقية في منطقة نجد فبإمـكاننا التعـرف على موضع الـسوق وعلاقتـه بالنسيج العمراني للمدينة. فالسوق يكون عادة في وسط البلدة، وهو ميدان كبير تحيط به الحوانيت والمتاجر. كما تـتصل بساحة الـسـوق المرافق العامة الأخرى، ومـنهـا المسـجد الجـامع ودار الإمـارة والقاضي وسجن البلدة وغير ذلك مما له علاقـة بالنواحـي الإدارية والتنـظيمـية للبلدة.

ومن أبرز المدن التراثية التي ما زلنا نشاهد فيها بقايا الأسواق القديمة، أشيقر وعودة سدير. وهنـاك أسواق تقليدية أسبوعـية اشتهرت بهـا بعض مناطق المملـكة، خاصة فـي جنوب الحجاز وعسير وتهامة، وسميت تلك الأسواق باسـم الموقع أو أحـد أيام الأسبـوع. ويجلب سكان القرى والبادية صناعاتهم اليدوية ومنتجاتهم الزراعـية والحيوانية وغيرها إلى أقرب هذه الأسواق إليهم

ويعرضونها في ساحة كبيرة منذ بزوغ الفجر حتى غروب شمس ذلك اليوم. وتشاهد هذه الأسواق في عدد من مدن تهامة وعسير، مثل: صبيا وأبو عريش وأبها والخميس وظهران الجنوب وغيرها.

وعلى الصعيد الأثري فالمؤمل أن تكشف لنا الحفائر المستقبلية أمثلة من الأسواق في المواقع الأثرية القديمة التي كانت مدناً ومنازل ومدائن ذاع صيتها في العصور الإسلامية المبكرة، خاصة وأن المصادر أشارت إلى المتاجر والدكاكين والأسواق في بعض تلك المنازل والمدن. فمن ذلك أن عبدالله الهاشمي، عامل اليمامة في العصر العباسي المبكر، أحدث في سوق ضرية ما يزيد على ثمانين حانوتاً على شكل صفين ممتدين من الحوانيت التي كانت قائمة وأن الغلة التي كانت تجمع من الحوانيت والنخل والزرع ثمانية آلاف درهم في السنة.

ووصفت قرح (موقع المابيات) في القرن الرابع الهجري بأنه ليس بالحجاز بلد أجل وأعمر وآهل وأكثر تجاراً وأموالاً وخيرات بعد مكة منها، وكان أصحاب الأموال والوجهاء يأتون إلى الربذة للاتجار في سوقها، وفي هذا الصدد نشير إلى أن الحفائر الأثرية بالربذة كشفت عن المنطقة التجارية. ويعتقد أنها سوق البلدة بسبب اختلاف نسيجها العمراني عن باقي المنشآت الأخرى، مثل القصور والدور السكنية. والشواهد الأثرية تؤكد أن السوق تقع في المنطقة المحفورة التي أطلق عليها اسم موقع د حيث عثر على عدد كبير من الأفران الفخارية لتحضير الخبز والأطعمة وخزائن لحفظ الحبوب، وغرف استخدمت فيما يبدو للسكن والتجارة. وتبلغ مساحة الغرفة الواحدة حوالي ٢×٣م وفي داخلها خزان مياه أرضي تحت مستوى أرضيتها، وتفتح الغرف على ممرات طولية. والمعثورات الأثرية في هذه المنطقة كثيرة ومتنوعة، منها قطع تالفة من قوارير وأنابيب وبوتقات عليها علامات الصهر، بالإضافة إلى الموازين والمكاييل وكِسَر لأوان فخارية وخزفية وزجاجية وبعض قطع العملة.

ولعل الحفائر في المواقع الأثرية، مثل المابيات وعثَّر وضرية والجار وفيد ودومة الجندل والخضرمة وسهى وغيرها من المواقع، ستكشف في مستقبل الأيام عن التفاصيل البنائية للأسواق المبكرة.

ولا شك أن تلك الأسواق كانت تزدهر حيناً وتضمحل حيناً آخر، بل كان البعض منها ينتعش في مواسم ثم لا يلبث أن يخبو في مواسم أخرى، وتلك

ظاهرة اقتصادية تؤدي فيها عملية العرض والطلب واستتباب الأمن دوراً بارزاً.

أما أسباب قيام تلك الأسواق فقد كان لكل قرية أو تجمع سكاني فائض من الثروات تحتاج إلى الاتجار به أو استبداله بما هي في حاجة إليه، ولا يتيسر ذلك إلا من خلال الأسواق. ولم يكن اختيار موقع السوق بالأمر الهين، فلابد من توافر عدة عناصر تحبب الناس فيه وتسهل لهم الوصول إليه، منها سعته وانبساط أرضه، وسهولة الوصول إليه، وتوافر الخدمات اللازمة من المأكل والمشرب والمبيت، بالإضافة إلى علف الدواب وحظائرها. وكان يشترك في الحاجة إلى السوق عموم سكان الجزيرة العربية بمختلف الشرائح الاجتماعية، فالبادية يفدون إلى هذه الأسواق يعرضون سلع البادية التي غالباً ما تكون قطعاناً من مواشيهم إضافة إلى ما وصلت إليه أيديهم بالتبادل أو الغزو. في حين يعرض سكان الحواضر أنواعاً لا حصر لها من ضروريات الحياة ومكملاتها، ولم يكن هناك نظام معين أو طريقة موحدة في عملية البيع والشراء، فقد كانت إما مبايعة بأثمان أو مقايضة سلعة بسلعة ويحكمها في كلتا الحالتين التراضي بين الطرفين.

وهناك أنواع بيوع كانت في تجارة الجاهلية كالرمي بالحصاة، والمنابذة، والملامسة، والمعاومة، والمزابنة، والمحاقلة، والمخابرة وغيرها، وقد جرت في أنظمتهم التجارية مجرى العرف، ولعلها كانت مختصة بتجارة الجملة، أما تجارة التجزئة فلم تكن تخرج عن البيع بثمن معلوم أو المقايضة بسلعة مناسبة، على أن هذه وتلك كانت تنتهك، وغالباً ينتهكها أشخاص ذوو نفوذ مادي أو معنوي، وهنا يحدث الظلم والابتزاز.

تحدثنا كتب التراث أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن قدم إلى مكة فباع سلعة على العاص بن وائل السهمي، وهو قرشي، فظلمه في ثمنها وماطله في التسديد، وعرض الزبيدي مظلمته على الأحلاف: عبدالدار ومخزوم وجمح وسهم وبني عديّ وكعب فأبوا أن يعينوه، بل زجروه، فلما رأى الزبيدي الشر واضحاً وقف على أبي قبيس قبل طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة وصاح:

يا للرجال لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الحي والنفر
إن الحرام لمن تمت حرامته
ولا حرام لثوبي لابس الغدر

فتداعت لـذلك قريش فدخلوا دار عبدالله بن جدعان لشرفه وسنه وتعاهدوا بالله ليكونُنَّ مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه. فلا يجدون بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكـانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمتـه. وهو ما عرف باسم حلف الفضول.

وكـانت الأسـواق بالإضـافة إلـى وظيفتها الرئيسية، وهي البيع والشراء، عـامرة بـأمـور أخرى يـنشـط إلـيهـا المجتمـعون، مـن مفـاخرة ومـنافـرة ومساجـلات في الشعر وإنشـاده ونقده وافتداء الأسرى. وكثيراً ما كانت تعقد فيهـا مجالس الـصلح والتـحكيم بـين القبائل. كـما كانت القبائل تعلـن فيها تبرؤهـا ممن تخلعهـم لجرائم ارتكبوهـا ليعرف الناس ذلك فلا تؤاخذ القبيلة بما يقترفه أولئك الخلعاء. وفي عكاظ كانت تحمل الديون والإتاوات إلى أصحابها.

وقد حظي سوق عكاظ قبل الإسلام بأهمية خاصة ومكـانة سامية لم يبلغها سواه من أسواق العرب. وقد أهله لتلك المكانة، حسب ما يُعتقد، ثلاثة أمور لم تتيسر لغيره:

أولها: أنه يعقد خلال الأشهر الحرم (١-٢٠ من ذي القعدة من كل عام).

ثانيها: أنه قريب من مكة وفيها تؤدى شعائر الحج، والمتـسوقون يفيضون منه إلى مكة.

ثالثها: أنه يقع في منطقة تحيط بها قبائل ذات قوة وسلطان (قريش وهوازن ومضر) وكانت مضر بصفة خاصة تخفر لطائم (قوافل) النعمان.

ومع ما تقدم مـن اجتماع الأسباب في أهمية سوق عكاظ، إلا أن ذلك لم يمنع من قيام حروب طـاحنة كان سببها الأطماع الاقتصادية، والنعرات القبلية، وأهمهـا تلك التي أطـلق عليهـا حرب الفجار. ولعل إطلاق لفظ الفجار عليها كان من دواعي النفور منها وعدم الرغبة فيها، بل هو اعتراف بجرم شاركت فيه كافـة الأطراف، وتأثـر بنتـائجه عـامة القبائل. وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت سوق عكاظ قلعة اقتصادية ومنارة إشعاع أدبية ومصدر تشريع وتنظيم، بل منتدى يضم مـختلف الـنشاطات الاجتمـاعية والاقتصادية والسياسية في الجزيرة العربية.

تحدثنا كتب السيرة النبوية أن الرسول ﷺ كان قـد شهد سـوق عكاظ قـبل مبـعثـه، فقد روي عـنه ﷺ سـماعه لخطبة قس بن ساعدة الإيادي التي ألقاها بسـوق عكـاظ، وكان ﷺ قـد شهـد حروب الفجار وشهد حلف الفضول.

الحمامات. الحمام أحد المرافق العامة التي لا غِنىً عنها، ففيه الاغتسال والطهارة ونظافة الجسم والتطيب. وقد عرفت الحمامات في المدن الرومانية والفارسية والبيزنطية، ويبدو أنها لم تكن معروفة في الحجاز قبل البعثة النبوية وربما في باقي أنحاء الجزيرة العربية. غير أنها انتشرت في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية بعد حركة الفتوحات الإسلامية وأخذت طريقها لمدن الحجاز، مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان للحمام وظائف مهمة، وهو من المرافق النافعة في حياة المدينة.

وقد نهى الرسول ﷺ الرجال والنساء عن دخول الحمامات، ثم رخص للرجال أن يدخلوها بالمآزر. وقد كتب عمر بن الخطاب # إلى أمراء الأجناد أن لا يدخل رجل الحمام إلا بمئزر ولا امرأة إلا من سقم. غير أن الحمامات في تلك الفترة لم تكن بتلك الكثافة التي عرفت بها المدن الإسلامية في العراق والشام ومصر، إذ بلغ عدد الحمامات في بغداد في القرن الخامس الهجري أكثر من ١٢٠ ألف حمام، وفي العصر الفاطمي بلغ عدد حمامات مصر ١١٧٠ حماماً، إلى غير ذلك من آلاف الحمامات التي أنشئت في بلدان المغرب والأندلس وبلاد فارس.

والحمام لابد أن تتوافر فيه شروط ومواصفات محددة عند بنائه حتى يؤدي الخدمة المطلوبة. فمن ذلك أن يكون مسدود المنافذ ليس فيه طاقات ولا أبواب مفتحة، وتكون جدره سميكة ومبنية بالحجر الصلب، وأن يكون رفيع البناء لتصعد الرطوبة، وواسع الفناء صافي الهواء تتفرق فيه الحرارة ولا تنحصر فيه الأنفاس المختلفة. وأن يكون كثير الضياء والنور حيث يتخذ له جامات من زجاج شفاف تضيء الحمام من أشعة الشمس، وأن يكثر ازورار دهاليزه وانعطافها وتحكم أبوابها لتمكث الحرارة. وتطلى جدره بالبياض المحكم منعاً لدخول الهواء. وكلما كان الحمام قديم البناء لمدة تبلغ على الأقل سبع سنين، كان أحسن للاستخدام. ويفضل أن تفرش أرضية الحمام بالرخام الملون لما له من أثر في الاحتفاظ بالرطوبة وتصاعد الهواء ولما له من جمال المنظر، ويستحسن أن تكون جميع جدرانه مزينة بأشكال زخرفية هندسية ونباتية وخلاف ذلك منعاً للملل. وأن يكون ماء الحمام عذباً غزيراً ونظيفاً وله حياض ومغاطس متسعة وعميقة، ويشترط أيضاً أن يكون مصوناً عن الدخان والغبار، ويشتمل على مَشْلح، وهو موضع نزع الثياب ومكان الاستراحة. وأن يكون وقود الحمام من

الأنواع الجيدة ولا يستخدم فيه الحطب الرديء الذي يؤثر على المحيط بشدة الدخان والرائحة الكريهة. وأن يشتمل الحمام على ثلاثة بيوت مختلفة منها الباردة والدافئة والساخنة، غير المشلح. هذه باختصار الشروط التي يجب توافرها لكل حمام يبنى في المدينة الإسلامية. وتختلف أحجام الحمامات ومستوياتها حسب المكان الذي بنيت فيه.

وللحمام مكانة خاصة في حياة الناس، حتى إنه في معماره لا يقل أهمية عن غيره من أنواع العمائر الأخرى.

ولا تعرف بالتحديد البدايات الأولى لظهور الحمامات في الحجاز وبقية الأقاليم الأخرى، ولكنها انتشرت في العصر الأموي. فأبو الدرداء كان يدخل الحمام ويقول «نعم البيت الحمام يذهب الضبية، يعني الوسخ، ويذكر النار».

ويقول أبو هريرة «نعم البيت الحمام يذهب الدرن ويذكر النار»، وكان لجرير بن عبدالله البجلي حمام بالعاقول.

ويذكر أن عبدالله بن عباس دخل حمام الجحفة. ويروي الفاكهي، الذي عاش في القرن الثالث الهجري، أنه كان بمكة ستة عشر حماماً بعضها كان خرباً، مثل حمام دار الواد. وكان منها ثلاثة حمامات في حارة أجياد. وبعض هذه الحمامات عرفت بأسماء ملاكها، مثل حمام أحمد بن سهل، وحمام معمر الحرسي، وحمام أبي يحيى المروزي. وكان لمعاوية بن أبي سفيان حمام في المعلاة.

ويبدو أن هذه الحمامات لم يستمر استخدامها في العصور المتأخرة، فقد ذكر إبراهيم رفعت، في بداية القرن ١٤هـ أنه كان بمكة حمامان على مثال الحمامات الرومانية بمصر، واحد بباب العمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠هـ، والثاني بالقشاشية ويسمونه حمام النبي. ولم يعد لهذين الحمامين وجود الآن إذ دخل الحمام الأول في توسعة الحرم والثاني في سوق الليل وقد هدم وقام مكانه مشروع تجاري.

أما الحمامات في المدينة المنورة فيبدو أنها لم تنتشر فيها مثل مكة، ولم تذكر لنا المصادر المبكرة أي معلومات بخصوصها. وقد سبق أن مر بنا أن جرير بن عبدالله البجلي (ت٥١هـ) كان له حمام في العاقول. وقد ذكر علي بن موسى (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م) صاحب كتاب وصف المدينة المنورة أن حماماتها اثنان، واحد في المناخة لأحمد نظيف أفندي الترجمان مدير الحرم النبوي، وهو تجاه الخاسكية (خسته خانة) المعمولة للعساكر النظامية، وأما الثاني فهو في السور



حمّام طيبة – المدينة المنورة

الداخلي قبالة الحرم الشريف في حارة ذروان بمحاذاة جدار السور، وهو للمرحوم نور الدين الشهيد وليس غيرهما حمامات.

وهذا يعني أن المدينة كان فيها حمام فيما يبدو على عهد نور الدين محمود زنكي سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م عندما بني سور المدينة.

وكان لكل من الحمامين حديقة خاصة به. فالحمام المنسوب إلى أحمد أفندي كانت له حديقة مغروسة، وماؤها من ماء عين الزرقاء.

أما إبراهيم رفعت، صاحب مرآة الحرمين، فقد ذكر أنه كان بالمدينة حمامان، أحدهما داخل المدينة بناه السلطان سليمان القانوني، والثاني بالمناخة، وهما أشبه بحمامات مصر وفيهما مزولة لمعرفة الأوقات. وقد بقي هذان الحمامان في حالة جيدة حتى سنوات قريبة، ثم أزيلا نتيجة للتطوير الذي شهده المسجد النبوي الشريف والأحياء المجاورة له.

وأشهر هذين الحمامين، الحمام الذي سمي حمام طيبة وكان قائماً في حارة ذروان وقد بني في عهد السلطان سليمان ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥-١٥٦٦هـ بناه محمود باشا والي مصر، وجُدد بناؤه عام

١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م حسب الحجر التأسيسي الذي كان مثبتاً فوق باب الحمام. وقد أورد صالح لمعي مصطفى وصفاً موجزاً لحمام طيبة مقروناً بمخطط وثلاث صور فوتغرافية، يتضح منها أن المباني أحدقت به من كل جانب.

بني الحمام من الحجر البازلتي، وله مدخل يؤدي إلى صالة مربعة مغطاة بقبة ومنها إلى الصالة الرئيسية، والحمام مكون من: المدخل، والمشلح، ومراحيض، وبيت الحرارة، والمغطس، وحمامات الاغتسال، وبيت المعلم، وهو المشرف على الحمام، ومرافق أخرى. وقد غطيت أرضية الحمام بالرخام وجعل للقبة فتحات ثبت عليها زجاج غير شفاف للإضاءة.

ولم يقتصر استخدام الحمامات على مكة والمدينة، بل عرفت بعض المواقع الإسلامية المبكرة الحمامات العامة. فقد كانت فيد المحطة المشهورة على درب زبيدة، في القرن الرابع الهجري، جُعل بها حمام، إضافة إلى مرافق البلدة الأخرى. وكانت قرح الواقعة في وادي القرى، على طريق الحج الشامي، مزودة بحمام خارج البلد.

كما أن مناطق الواحات الزراعية كانت مزودة بمبان تستخدم للنظافة والاغتسال يطلق عليها حمامات. وكانت هذه المباني مقامة على مجاري العيون، ولكنها تختلف عن الحمامات المتعارف عليها في المدن الإسلامية. ومن أمثلة هذه المباني



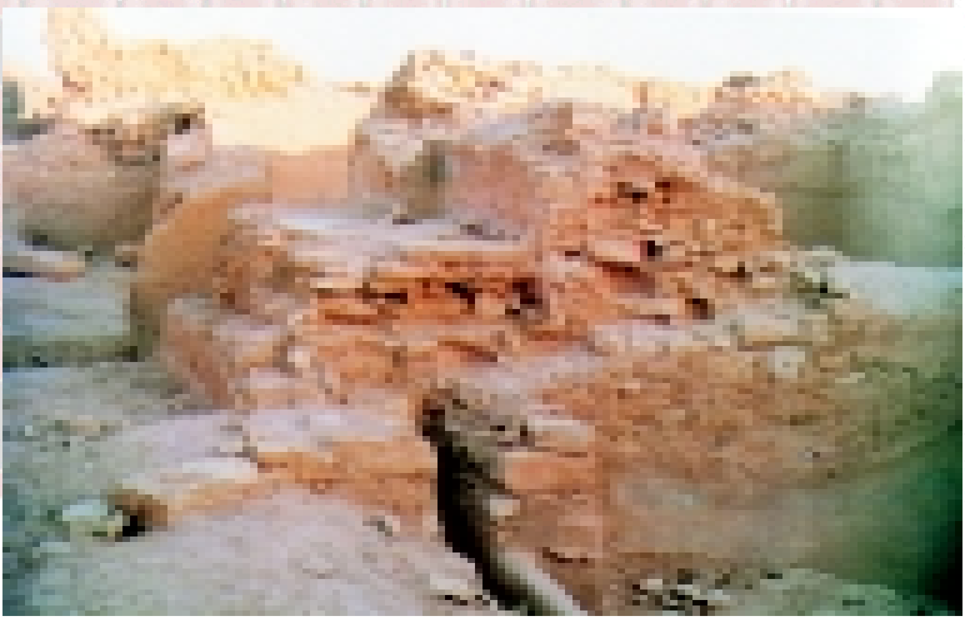
جزء من الحجرة الدافئة بحمام الطريف – الدرعية

الحمام العام ببلدة العلا، المسمى حمام تدعل أو حمام الجنينة. وقد خصص الجزء العلوي من المبنى لأخذ ماء الشرب والطبخ، ولا يدخله غير النساء، وخصص الجزء الأوسط للرجال وفيه أمكنة للوضوء والاغتسال وسقي الدواب. أما الجزء الثالث من المبنى فجعلت فيه أمكنة للاغتسال وغسل الثياب.

ومن الحمامات التي كانت معروفة الحمام التركي بقصر إبراهيم بالهفوف، ولم يبق من أجزائه سوى الغرفة الحارة التي تعلوها قبة.

ومن بين المعالم الأثرية الباقية في الدرعية، عاصمة الدولة السعودية الأولى، حمام الطريف جنوب حي الطريف. ولاتزال تشاهد حتى اليوم جدرانه السميكة والمداخل والأرضيات والمصاطب والأعمدة والساحات والمخازن مما يدل على أنه حمام كبير.

وقد استخدمت في بناء حمام الطريف الأحجار لبناء الأساسات، وقوالب اللَّبِن لبناء الجدران السميكة. كما استخدم الطوب لبناء الموقد (بيت النار). أما الغرفة الساخنة فتتميز بسماكة جدرانها المبنية بالحجر لكي تتحمل ثقل مباني القبة أعلاها، حيث توجد مثلثات كروية في أركانها الأربعة تمهيداً لتحويل المربع إلى مثمن لحمل القبة. وتغطي



إحدى قنوات تصريف المياه في حي الطريف - الدرعية

واجهات الجدران لياسة جصية سميكة، وفي أعلى الجدران فتحات للتهوية والإضاءة على شكل مثلثات هرمية.

وتوضح الآثار المعمارية والمخطط العام أن حمام الطريف صمم على غرار الحمامات المشهورة في المدن الإسلامية المبكرة. فأمامه يمتد فناء مكشوف بمساحة ألف متر مربع محاط بسور بارتفاع ٤م، ويؤدي إلى المدخل الرئيسي للحمام. ويشتمل الحمام على غرفة الاستقبال، وغرفة خلع الملابس، والغرفة الساخنة، وفناء الحمام، ومكان لتخزين الأخشاب لوقود النار، وخلاف ذلك من المصاطب، والطاقات، والمغطس، والأحواض، إضافة إلى الأنابيب الموصلة للمياه وقناة التصريف.

ويزود الحمام بالمياه العذبة من البئر الواقعة على طرف الشعيب حيث تنقل المياه منها إلى الحمام على ظهور الدواب عبر طريق ممهد في الصخر الطبيعي.

ويبدو أن هذا الحمام كان مخصصاً لعلية القوم في حي الطريف الذي يقطنه الأمراء وكبار رجالات الدولة، وقد بني بجوار الحمام قصرٌ للضيافة يتكون من عدد من الغرف ومجلس ومرافق أخرى.

ومن هذا الاستعراض الموجز نخلص إلى أن الحمامات كانت معروفة في عدد من المدن التاريخية في المملكة، ولعل الاكتشافات الأثرية ستوضح لنا المزيد عن مثل هذا المرفق المهم في حياة المدينة الإسلامية.

العمارة الحربية

عرفت الجزيرة العربية أنماطاً من أنواع العمائر الحربية في العصور القديمة، مثل الآطام والقلاع والحصون والأبراج والأسوار والخنادق. وقد ورد ذكر بعض الحصون في المصادر التاريخية والجغرافية، مثل حصن غمدان والمشقر وحصن بني عبدالقيس. وفي العصر الإسلامي انتشرت القصور والحصون والقلاع في مختلف أرجاء الجزيرة العربية.

الآطام والحصون والقلاع. واحد الآطام أُطُم، وهو الحصن المبنيّ بالحجارة. وقد بلغ عدد الآطام في المدينة المنورة عند هجرة الرسول ﷺ إليها ١٩٩ أطماً، نسب المؤرخون منها ١٢٧ أطماً إلى الأوس والخزرج و١١ أطماً للنازلين بها من العرب، و٥٩ أطماً لليهود اللاجئين إلى المدينة. كذلك أنشأ المسلمون آطاماً جديدة خاصة بهم. والأطم بناء مربع فوق مرتفع من الأرض مبني بالحجارة ويتكون من دورين أو أكثر، وربما زود بمصادر المياه كالقنوات



أطم قديم في موقع الحائط

والآبار. وقد خدمت هذه الآطام المسلمين في أوقات المحن عندما احتمى بها النساء والأطفال والعجزة، مثل ما حدث على وجه الخصوص في معركتي أحد والخندق.

وما تزال أطلال بعض الآطام باقية حتى اليوم على هيئة أكوام من الحجارة ترتفع لعدة أمتار، مثل أطم الضحيان الذي ابتناه أحيحة بن الجلاَح، وأطم أبي دجانة الساعدي الأنصاري، وآطام فدك التي تعرف الآن باسم الحائط.

كذلك اشتهرت بعض المدن المبكرة، قبل الإسلام وبعده، بتحصيناتها الدفاعية، مثل مدينتي تيماء ودومة الجندل اللتين مازالت بقايا أسوارهما شاخصة للعيان، وكذلك الأسوار التي كانت تحيط بالطائف وجرش. وبعض المدن كانت تحميها حصون مرتفعة فوق قمم الجبال. ومن أشهر الحصون ذات الطابع الأثري في المملكة الأبلق الفرد وهو قصر السموءل في تيماء، قال الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزله
حصن حصين وجار غير ختار

بقيت آثار عدة حصون إسلامية في المملكة تعود إلى الفترة المبكرة، مثل:



قلعة الفرع في موقع العيص

حصن مارد في دومة الجندل، وحصن زعبل في مدينة سكاكا بالجوف، وقصر مارد في عين ابن فهيد بالأسياح بمنطقة القصيم، وقلعة الفرع في منطقة العيص. كما امتازت القصور في المحطات والمنازل والمدن الإسلامية المبكرة بأساليب تحصينية بسبب سماكة الجدران والأبـراج التي تحمي الأسوار والبوابات. وتدل الشواهد الأثرية في حفريات الربذة وعلى امتداد درب زبيدة على ذلك.

وشيدت القلاع الكبيرة الضخمة في مختلف أرجاء الجزيرة العربية، خاصة في الحجاز وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر وعسير وساحل الخليج العربي. وتعد قلعة الصعيدي الواقعة في كاف في شمال وادي السرحان من أهم وأكبر القلاع التي يعود تاريخ بنائها لعصور تسبـق الإسلام، وقد جددت القـلعة خلال العصور الإسلامية، وكان آخر بناء للقلعة قد تم عام ١٣٣٨هـ على يد نواف بـن شعلان. وامتازت هـذه القلاع بسماكة بـنائها واشتمالها على أبراج دائريـة ونصف دائرية وبوابـات محكمة وفتـحات للمراقبة والرماية، ومرافق للمؤن والعتاد وإقامة الجنود. وقد تطور بـناء هذه القلاع مع الغزو



قلعة كاف شمال وادي السرحان

الصليبي والهجوم المغولي على الشرق الإسلامي، والمطامع الغربية، خاصة من البرتغاليين، ومحاولة السيطرة على سواحل الجزيرة العربية في البحر الأحمر والخليج العربي. وتطورت عمارة القلاع مع تطور صناعة الأسلحة، خاصة بعد استخدام البارود في الحروب وبداية تصنيع المدافع. وهناك عشرات القلاع التي نشاهدها اليوم على امتداد طريقي الحج الشامي والمصري أقيمت لحماية طرق الحج والمسافرين، وحماية المدن الساحلية والداخلية.

وقد بنيت تلك القلاع في عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وتعاقبت عليها أعمال الصيانة والترميم طوال الفترات التي كانت مستخدمة فيها. ويشاهد على بعضها نصوص تأسيسية مؤرخة، وتجمع القلاع المنشأة على طُرق الحج بين الوظيفة الدفاعية من جهة، كما تقوم مقام الخانات لإيواء الحجاج والمسافرين عند الحاجة من جهة أخرى. وتتوافر لتلك القلاع آبار المياه والبرك، وزود بعضها بمساجد خاصة بها.

ومن هذه القلاع على سبيل المثال قلعة المويلح التي أسست عام ٩٦٨هـ، وقلعة الأزنم أو الأزلم بين ضبا والوجه التي عرفت في العصر المملوكي وأعيد إصلاحها في عهد قانصوه الغوري سنة ٩١٦هـ، وقلعة الزريب أو قلعة الوجه المشيدة سنة ١٠٢٦هـ. وعلى طريق الحج الشامي عدد من القلاع منها قلعة تبوك بنيت سنة ٩٦٧هـ، والمعظم سنة ١٠٣١هـ، والحجر بنيت في الفترة ما بين ١١٥٦-١١٧٠هـ. ومن القلاع داخل المدن قلعة أجياد في مكة المكرمة، وبنيت في العصر العثماني.



قلعة أجياد بمكة المكرمة

في قلب الرياض يقف حصن المصمك الذي بناه الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بعد توليه الحكم سنة ١٢٨٢هـ. وفي الهفوف قصر إبراهيم، وفي تاروت قلعة ينسب بناؤها إلى الفترة البرتغالية. ومن القلاع المهمة قلعة قباء في المدينة المنورة وهي من العهد العثماني، ومن القلاع الساحلية المهمة قلعة ضبا التي بنيت في عهد الملك عبدالعزيز، يرحمه الله. وهناك قلاع أخرى كثيرة في منطقة عسير والحجاز وتهامة امتازت بوظيفتها الدفاعية لحماية المدن والقرى والمزارع، ويلجأ إليها السكان في أوقات الحروب والفتن، كما تستخدم أجزاء منها لحفظ الحبوب والمؤن. ويغلب على هذه



أحد واجهات حصن المصمك بالرياض



قلعة قباء –المدينة المنورة

القلاع طابعها المحلي المميز، وتسمى بالحصون أو القصبات، وتبنى إما بالطين أو بالحجارة أو بكليهما، وبعضها قد يرتفع إلى حوالي ٢٠م. ويعود بناء بعض حصون عسير إلى حوالي مائتي عام.

غير أن في المنطقة قلاعاً حربية تختلف في تصاميمها المعمارية عن الحصون والقصبات. ومن تلك القلاع قلعة الدقل شمال أبها، ويعود بناؤها إلى الفترة ما بين ١٣٢٢هـ و ١٣٣٧هـ وقلعة شعار الواقعة على رأس عقبة شعار، وبنيت ما بين ١٢٩٠هـ و ١٣٢٥هـ وقلعة المطلع، وقلعة البرج، وقلعة اللاسلكي بمدينة جازان، وفي أبي عريش قلعة أبي عريش المعروفة بدار النصر.



أحد حصون بيدة – الباحة

الأسوار والأبراج. ومن التحصينات الدفاعية المعروفة الأسوار والبوابات والأبراج. فقد كانت بعض المدن محاطة بأسوار دفاعية وأبراج للمراقبة والدفاع وبوابات منيعة، ومن أهم المدن المسورة في شمال الجزيرة العربية مدن تيماء ودومة الجندل ومدينة العلا. وتعد أسوار تيماء ودومة الجندل الممتدة لعدة كيلومترات، والتي تمتاز بحصانتها من أهم التحصينات التي وجدت في شمال الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل الإسلام، واستمرت خلال العصور الإسلامية. وتوجد أبراج المراقبة في كل أنحاء الجزيرة العربية، ولكن مناطق عسير والباحة والقصيم والشرقية تمتاز بكثرة أبراج المراقبة فيها.

ومن أهم المدن التي كانت محاطة بأسوار دفاعية الهفوف والدرعية. ويعد سور الدرعية من أهم الآثار الدفاعية الباقية، إذ يمتد السور على شكل مستطيل حول المدينة بأحيائها المختلفة لمسافة تزيد على ١٢كم، ودعم السور بعدد من الأبراج يفصل بين البرج والآخر ما يقارب مائتي متر. ومن الأسوار المهمة أيضاً سور حي الطريف الذي يفصله عن الأحياء الأخرى في الدرعية، حيث كان هذا الحي يشتمل على المباني الحكومية وإصطبلات الخيل ومساكن الأمراء وغير ذلك من المرافق، وتغطي جدرانه طبقة من اللياسة الطينية. وفي بعض أجزاء الأسوار العلوية والأبراج تشيد الجدران باللَّبِن، وتُجعل للأسوار ممرات دفاعية علوية محمية



برج رَغَبَة بمنطقة الرياض



برج قلعة طوران بالقطيف



منظر عام للدرعية، ويشاهد في أعلى الصورة السور المحيط بها

بجدار يرتفع عن السور الأصلي ويسمى هذا الجدار الذروه، وفيه فتحات طولية للرماية والمراقبة. وتسمى هذه الفتحات المزاغل.

أما أبراج الأسوار فهي في الغالب إما دائرية أو مربعة، وتمتاز بسماكتها وارتفاعها حيث كان بعضها يستخدم أيضاً للمؤن والذخيرة.

ومن أشهر أبراج الدرعية برج سمحة المُطِلّ على وادي حنيفة، وبرج الرأس وبرج العلاجية وبرج حصن الغنوانة وبرج البريكي وغيرها.

وبالإضافة إلى التحصينات الدفاعية، فإنه يوجد خارج أسوار الدرعية وفي مواقع متفرقة أبراج عديدة للمراقبة.

المنشآت المائية

لا يوجد تعريف بأهمية الماء ودوره في الحياة أبلغ من قوله تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (الأنبياء: ٣٠). فإذا انعدم وجوده في بقعة ما انعدمت فيها الحياة بكل صورها تبعاً لذلك. وقد لجأ الإنسان في المناطق الجافة منذ عصوره الأولى إلى مختلف الوسائل للحصول على الماء. فحفر الآبار والعيون وأنشأ البرك والخزانات وبنى السدود واخترع نظام القنوات.

ونظراً لعدم وجود الأنهار والبحيرات الدائمة في الجزيرة العربية، اعتمد الناس على مياه السيول والأمطار والمياه الجوفية للاستفادة منها في الشرب والري. واستفاد السكان في مناطق متفرقة من الجزيرة العربية، خاصة في الحجاز ونجد، من المواقع التي تتجمع فيها الأمطار والسيول. فحيثما وجدت مياه جارية زرعوا بقربها، ومن ثم تظهر مناطق الاستيطان في مواقع المياه. ولذلك نجد مستوطنات كثيرة نشأت في الواحات المنخفضة بين المرتفعات الجبلية والحرار لأنها أوفر وأعذب مياهاً من غيرها من المناطق.

القنوات والعيون

أثرت القنوات والعيون تأثيراً بالغاً في استقرار الناس وظهور المدن والقرى والواحات الزراعية في الجزيرة العربية وغيرها من المناطق الجافة في الشرق الأدنى القديم. ويتمثل هذا النظام في الحصول على الماء من بحيرة المياه الجوفية المخزونة في باطن الأرض، وذلك بشق طريق يخرج الماء من خلاله ليجري على سطح الأرض بصفة دائمة، فيشرب الإنسان والحيوان والنبات عن طريق قناة أفقية تحفر تحت سطح الأرض مع انحراف بسيط يسمح بجريان الماء وتخرج القناة

من قاع البئر، التي تحفر في منطقة المياه الجوفية، إلى سطح الأرض في منطقة منخفضة عن مستوى سطح الماء في تلك البئر. وتمتد القناة على بعد مسافة تطول وتقصر بمقدار نسبة الانحدار في سطح الأرض. فإن كان الانحدار متدرجاً كانت القناة طويلة، وإن كان الانحدار سريعاً جُعلت القناة قصيرة.

ويجمع الباحثون تقريباً على أن ابتكار هذه الطريقة للحصول على المياه الجوفية عرفته بلاد فارس منذ أكثر من ٢٧٠٠ سنة. فقد ادعى الملك الأشوري سرجون الثاني ٧٢٢-٧٠٥ق.م أنه، أثناء حملته ضد أورارتو، بلد المناجم القديمة حول بحيرة أورمية في شمال غرب فارس، اكتشف طريقة الحصول على الماء الباطني. كما أن ابنه الملك سنحريب (٧٠٥-٦٨١ق.م) أنشأ قناة لتزويد مدينة إربيل بالماء حسب الطريقة التي أوضحناها. وفي العصر الأخميني (٥٥٠-٣٣١ق.م) انتشر نظام القنوات في مناطق كثيرة من العالم القديم، فانتشر في بلاد الشام ومصر غرباً، وفي عمان وعدة مناطق من الجزيرة العربية جنوباً، وفي باكستان وأفغانستان وتركستان وغرب الصين في أواسط آسيا شرقاً. وفي العصر الإسلامي أخذت الحضارة الإسلامية هذا النظام واهتمت بتنظيمه وتقنينه فانتشر في أماكن أخرى من العالم حيث حمله العرب إلى شمال أفريقيا وعبروا به البحر المتوسط إلى الأندلس وإلى جزر قبرص وصقلية والكناري. وأخيراً نقله الأسبان إلى أمريكا الجنوبية.

وقد اهتم العلماء العرب القدامى بعلم خصائص الماء وطريقة استنباطه، فمن ذلك ما ذكره الكرخي المتوفى في بداية القرن الخامس الهجري، في مقدمة كتابه إنباط المياه الخفية من أنه لا يعرف صناعة أعظم فائدة وأكثر منفعة من إنباط المياه الخفية التي بها عمارة الأرض وحياة أهلها. وقد ناقش الكرخي في هذا الكتاب الأمور المتعلقة بطريقة إنشاء القناة وتبطينها، بالإضافة إلى الدراسة الجيولوجية والهيدرولوجية. ومن الأماكن التي يرجع إنشاء القنوات فيها إلى فترة العصور القديمة دومة الجندل ومنطقة العلا في شمال المملكة، والأفلاج والخرج في وسط المملكة، والقطيف في شرقها.

واللفظ المستخدم في المملكة للتعبير عن هذا النظام للحصول على الماء بالقنوات الجوفية هو عين، وهو لفظ يعني في العربية الماء الجاري على وجه الأرض بدون انقطاع، إلا أنه لا يعبر حقيقة عن

هذا النظام. فكلمة عين وعيون تطلق أيضاً على النبع والينابيع الطبيعية التي لابد للإنسان منها مثل عيون خيبر والأحساء. أما في الأقطار العربية الأخرى فقد استخدمت مصطلحات مختلفة للدلالة على هذا النظام، ففي سلطنة عمان في الركن الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية مثلاً تستخدم كلمة فَلَج وأفلاج. ولعل لإطلاق اسم الأفلاج قديماً على المنطقة التي قاعدتها مدينة ليلى جنوب الرياض صلة بالقنوات الجوفية التي تشتمل عليها المنطقة، إذ إن من معاني الفَلَج الماء الذي يجري على وجه الأرض من دون انقطاع أو النهر الصغير، وجمعه أفلاج.

وفي العراق تستخدم كلمة كهريز، أو الكواظم وفي بلاد الشام والجزائر تستعمل كلمة فقارة وجمعها فقر، التي تعني سلسلة الآبار المتصل بعضها ببعض من أسفلها. وقد استعملت هذه الكلمة في المدينة المنورة للدلالة على هذا المعنى فقط، أما نظام القناة بأكمله من بئر ومياه جوفية وأنفاق رأسيه (فقر) فتعرف باسم عين، كما تسمى الأرض التي تسقيها ضيف. وقد تنصرف هذه الكلمة أيضاً للدلالة على القناة والأرض التي تسقيها معاً، وليس ذلك في المدينة وحدها بل في ينبع وما إليها من القرى، خاصة الواقعة ما بين المدينة وجدة.

ونظام إنشاء القنوات من المهن التي يزاولها أفراد متخصصون في فارس وغيرها، وعادة يتوارثها الأبناء عن الآباء. ويعرف العامل الذي حفر القناة باسم مُقنّي، فإذا أريد إنشاء قناة جديدة يستدعى المساح، ويكون غالباً مقنياً سابقاً له خبرة ميدانية واسعة بحيث يكون قادراً على اختيار المناطق الغنية بالمياه الجوفية، خاصة خلال فصل الخريف لتكون مصدراً مائياً مستديماً. وتكون النباتات عادة وسيلته للتعرف على أماكن توافر المياه. بعد ذلك يقوم الفريق المكلف بالعمل، وعلى رأسهم المقني، بحفر بئر تجريبية حتى إذا خرج الماء استمروا في الحفر حتى يصلوا إلى قاع الطبقة الحاملة للماء. وهذه الطبقة من طين صلصالي لا ينفذ منه الماء، أو من المداميك الرسوبية الكلسية. وبعد بضعة أيام ينزح الماء الذي تجمع خلال هذه الأيام القليلة، وتترك البئر بعد ذلك لمدة يوم واحدٍ ليختبر المساح مدى غزارة الماء فيها. فإذا تأكد من وفرة المخزون المائي في المنطقة عدّت هذه البئر هي البئر الأم، وإلا حفرت آبار أخرى غيرها للعثور على مصدر مائي غزير. وتوصل هذه الآبار غالباً بعضها ببعض بنفق لتكون

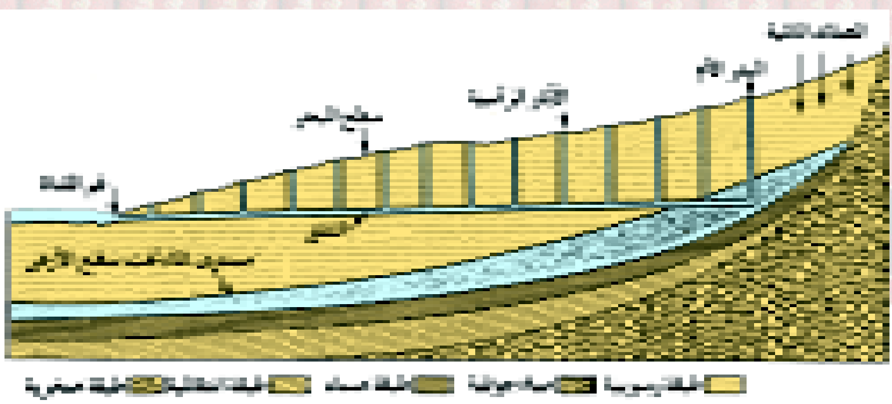
مصادر أخرى لزيادة ماء القناة. وبعد الاطمئنان على وفرة كمية الماء في البئر تأتي مهمة المساح مرة أخرى ليتولى عملية قياس نسبة الانحدار في الأرض من قاع البئر إلى المنطقة التي يراد وصول الماء إليها، ولابد أن يكون مستوى قاع البئر أعلى من مستوى المنطقة التي سيجري الماء إليها. فإن لم يكن الأمر كذلك فلابد من حفر بئر أخرى في مكان أعلى. ويعدّ قياس نسبة الانحدار هذه من أصعب الأمور الهندسية في عملية إنشاء القناة، فإذا تم التوصل إليها فإن المشروع جارٍ في مرحلة التنفيذ. وتجرى هذه العملية على النحو التالي:

يدلي المساح حبلاً في البئر الأم حتى يصل إلى الماء ثم يضع علامة أو يعقد عقدة في الحبل توضح بُعْد سطح الماء عن سطح الأرض ويغرز عصا عند فم هذه البئر. وبعد ذلك يحدد موقع حفر البئر الثانية على بعد ٢٠-٤٠م من البئر الأم إلى جهة الأرض المطلوب سقيها ويغرز فيه عصا أخرى، ثم يمد حبلاً من أسفل العصا التي عند فتحة البئر الأم إلى العصا الثانية في موقع حفر البئر الثانية، ويحرك الحبل على العصا الثانية إلى أعلى وإلى أسفل حتى يكون امتداده أفقياً، وربما وضع إناءً فيه قليل من الماء على الحبل. وباستقرار الماء وسط الإناء يكون التأكد من أفقية الحبل، ثم يقيس المسافة بين موضع الحبل على هذه العصا ووجه الأرض. وتكون هذه المسافة هي الفرق بين سطح الأرض في موضع البئر الأم وسطحها في موقع البئر الثانية. ومثل هذه العملية تطبق لتحديد أعماق الآبار الأخرى، وهي بتعبير أصح أنفاق رأسية أو هي فُقُر، ومفردها فقير. وتقل أعماق هذه الفُقُر تدريجياً حتى يتساوى قاع البئر الأم مع سطح الأرض، وعند هذه النقطة يكون مخرج القناة إلى النور حيث يجري الماء هنا على وجه الأرض. وهذا الماء هو المخزون في باطن الأرض في المنطقة التي حفرت في أدناها البئر الأم.

وبعد انتهاء المساح من هذه العملية تبدأ مهمة حفر النفق. وكانت الأدوات المستخدمة في الحفر بسيطة، وهي مسحاة ومجرفة ومسرجة زيت صغيرة. ويبدأ الحفر عادة من نقطة مخرج القناة إلى سطح الأرض باتجاه البئر الأم، وربما يبدأ الحفر من الوسط فريقان يسير كل منهما في اتجاه معاكس للآخر. وقد يبدأ الحفر بالعكس، أي من جهة البئر الأم، ولكن ليس من البئر الأم نفسها،

لأن ذلك يؤدي إلى امتلاء النفق بالماء، بل من منطقة لا تنتج ماءً كثيراً. ويستخدم الماء القليل المنساب وسيلة طبيعية لتحديد نسبة الانحدار المطلوبة في النفق، وهو انحدار قليل جداً يسمح للماء بالجريان بسرعة كافية تتراوح بين كيلومتر إلى ثلاثة كيلومترات في الساعة. ذلك أنّ سرعة جريان المياه الزائدة تجرف أرضية النفق وتؤدي إلى هدمه وتخريبه. كما يلاحظ أن عمق الماء في النفق يتراوح بين ١٥-٣٠سم وتكون نسبة الانحدار في النفق عادة ما بين ١ في ١٠٠٠ إلى ١ في ١٥٠٠ وذلك في القنوات القصيرة التي تتراوح أطوالها من ٨-١٥ كم. وتزيد هذه النسبة في قنوات أقصر، فقد لوحظ في بعض قنوات العلا التي لم يزد طولها عن ثلاثة كيلومترات أن نسبة الانحدار فيها بلغت ٠,٥٤٪، بينما تقل هذه النسبة كثيراً في القنوات الطويلة حيث يبدو امتداد النفق فيها أفقياً تقريباً. ويشير الكرخي (ت٤٠٧هـ) إلى أن نسبة الانحدار في القناة تكون ذراعاً واحداً لكل فرسخ والذراع من المرفق إلى رأس الأصبع الوسطى، وأشهرها الذراع الهاشمية، وتبلغ نحواً من ٦٤سم، والفرسخ ثلاثة أميال وهذا على أية حال يبدو أقل مما هو ملاحظ.

وبعد أن يحفر النفق يعود المقني إلى النقطة التي بدأ منها ويُتم حفر النفق نحو البئر الأم. وعلى طول امتداد النفق تحفر سلسلة من الفقر في حدود مسافات كافية، كل عشرة أمتار أو عشرين أو ثلاثين حسب الحاجة، لإخراج التربة



رسم يوضح طريقة حفر القنوات المائية تحت الأرض

المحفورة وللتهوية. وقد تحفر هذه الفقر أولاً ثم توصل قيعانها بعضها ببعض بالنفق. وتستخدم هذه الفقر للنزول إلى القناة مستقبلاً من أجل صيانتها وتنظيفها من أية عوائق قد تطرأ فتعيق جريان الماء كلياً أو نسبياً. ويستخدم المقني غالباً مصباحين يوقدان بزيت الخروع أو الشحم لتحديد استقامة النفق، كما تقوم هذه المصابيح بمهمة التنبيه على نقص كمية الأوكسجين. فإذا انطفأ المصباح كان ذلك بمثابة إنذار للمقني ومن يساعده لكي ينتبهوا فلا يتعرضوا للاختناق. ويتطلب الأمر في هذه الحالة حفر فقير جديد. وهذا يدل على أن المصابيح تساعد على تحديد المسافة بين كل فقير رأسي جديد وآخر. وتتراوح سعة النفق غالباً ما بين ٦٠سم-١م وارتفاعه ما بين ١م-١,٢١م. ويبطن النفق عادة بإطارات أو أنابيب قصيرة مصنوعة من الطين، عندما يمر النفق بمنطقة تربتها رخوة، وربما تبنى جوانبه وتسقف بالحجارة كما هو الحال في قنوات العلا. وترفع التربة المحفورة من النفق باستخدام الدولاب، وهي أداة رفع خشبية، بعد أن تعبأ هذه التربة في زنابيل من الجلد. أما إذا كان النفق على عمق أكثر من مائة متر تحت سطح الأرض، فتحفر في هذه الحالة كوة كبيرة في منتصف الفقير ويوضع فيها دولاب آخر لرفع التربة المحفورة على مرحلتين. وقد يلزم أحياناً حفر قناتين متجاورتين في وقت واحد، حيث ينتقل المقني من هذا النفق إلى الآخر من دون حاجة لأن يصعد إلى سطح الأرض لينزل إلى نفق القناة الثانية.

ولا يخلو العمل في إنشاء القنوات من أخطار عديدة، فبالإضافة إلى ما يتعرض له المقني من خطر الاختناق أو انهيار النفق على رأسه أو انسداد الطريق أمامه ومنعه من الخروج إلى سطح الأرض، فهو يواجه مصاعب كثيرة عندما يدخل النفق في المنطقة الحاملة للماء. ففي هذه المنطقة يمر النفق تحت بحيرة، فتنبع المياه حينئذ من فوق النفق ومن تحته وعن جوانبه وربما امتلأ كله بالماء. ثم تأتي المشكلة الرئيسية عندما ينفذ النفق إلى قاع البئر الأم حيث يواجه المقني خطر اندفاع المياه الشديد، ولذا عليه أخذ الحيطة والحذر قبل الإقدام على إزالة الحاجز الأخير بين النفق والبئر الأم. ويفقد في كل عام العديد من أرواح العاملين في إنشاء القنوات بسبب الغرق أو الاختناق حتى أصبح نعت القناة بالقاتل أمراً معروفاً في فارس.

اتُبع هذا الأسلوب في إنشاء القنوات في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية، سواء في عصور ما قبل الإسلام أو خلال العصر الإسلامي. ويرد عن كيفية حفر القنوات في المدينة المنورة بالأسلوب القديم ما ذكره السيد علي حافظ في كتابه فصول من تاريخ المدينة المنورة، ما يلي:

> يأتون لعلو الأودية يحفرون أباراً غير مطوية ويسمونها (الفُقَر) بضم الفاء وفتح القاف وهو جمع فقرة بضم فسكون ويسلطونها-أعني الآبار-على بعض بقناة (دبل) تشق تحت الأرض وتبعد كل بئر عن الأخرى بنحو عشرين ذراعاً (١٥) متراً. والفقر بضم الفاء والقاف، الآبار المتناسقة التي ينفذ بعضها على بعض. ويحددون استقامة الحفر لفتح الدبول على الآبار (الفقر) بصوت العتلة وتتصل الآبار ببعض فتشكل شبه سلسلة أو شبكة من الآبار والدبول تنبع ماء يدفع بعضه بعضاً ويمشي منحدراً حتى يصل الماء إلى فم الخيف فيفيض الماء سائحاً على وجه أرض الخيف في القرية (١٣٨٨: ٢٧٢).

وتحدث علي حافظ أيضاً عن الأنفاق الرأسية التي تصل القناة الجوفية بسطح الأرض، وهي الفقر في لغة أهل المدينة، وقال إنها منابع العيون. ولعله وهم في هذا الأمر لأن منابع القناة عادةً لا تزيد عن بضعة آبار إلا في حالة إيجاد فروع أخرى في منطقة النبع، وهي المنطقة الحاملة للماء بهدف زيادة المصادر المائية للقناة. وهذا الأسلوب معروف في فارس، وقد ظهر أيضاً في بعض قنوات العلا في المملكة. ويضيف السيد علي حافظ:

> وتتكون منابع الخيوف من ٢٠٠ فقرة، وبعضها من ٥٠٠، وبعضها من ١٠٠٠ فقرة حسب بُعد المنبع وزيادة الماء، ويشتغلون في حفر الدبول على نور الشموع ويقدر سعة فم البئر (الفقرة) بمتر مربع، وعرض الدبل الذي يربط بين الآبار بمتر إلا ربعاً، وارتفاعه متر وربع تقريباً، ثم يسدون الفقر بأغطية من الحجارة يسمونها طبوقاً ولا يفتحونها إلا عند الصيانة وتنظيف دبل الخيف، ولا يبلطون الدبول لأنها في مستوى الآبار تقريباً، وتساعد الآبار بالتغذية المائية (١٣٨٨: ٢٧٢).

والمقصود بكلمة الخيوف في النص القنوات لأن كلمة خيف في المدينة وما يليها جنوباً من مدن وقرى الحجاز، مثل

ينبع النخل وبدر والواسطة ووادي فاطمة، تطلق هي أو كلمة عين على القناة والأرض التي تسقيها، وقد أشار علي حافظ إلى ذلك فذكر أن العين والخيف اسم يطلق عند أهل المدينة على وحدة متماسكة هي مصب العين ومنابعها وقناتها (دبلها) المشقوق تحت الأرض والأرض التي تروى بماء العين.

أما ما ذُكر عن حفر الدبول على نور الشموع فمن الواضح أن المقصود بالدبل هو القناة الجوفية، وأنّ الشموع لا تقوم بوظيفة الإضاءة فقط وإنما تقوم بمهمة التنبيه على نقص الأوكسجين في النفق، فإذا انطفأت شمعة كان ذلك دلالة واضحة على الحاجة لحفر نفق رأسي جديد لزيادة التهوية، كما تساعد الشموع المضاءة أيضاً على استقامة حفر النفق وربما تسهم في المحافظة على نسبة الانحدار المطلوبة.

ويلاحظ أن قنوات المياه الجوفية لا تخدم الحقول الزراعية فقط وإنما تزود البلدة أيضاً بالماء المنزلي. ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك، منها قناة تدعل في العلا، وقناة خذمة في دومة الجندل، وقناة الشنية في القطيف، وقناة فرزان بالخرج، فضلاً عن قناتي زبيدة والزرقاء



قناة تَدْعُل – العلا

بمكة والمدينة، غير أن هاتين القناتين ترجعان إلى العصور الإسلامية.

وفي ختام الحديث عن القنوات نشير إلى بعض التقنيات الموجودة في قنوات العلا وفي قنوات ينبع النخل حيث لم يشر الباحثون إلى ما يماثلها في قنوات فارس. فمن هذه التقنيات التي وجدت في قنوات العلا نصب حجر مسطح على جزء من مداخل القناة الجوفية عند التقائها بأنفاق القناة الرأسية، وهذا الحجر لا يسد مدخل القناة لأن في أسفله فتحة منحوتة مثل فتحة الباب في الجدار، وهو باب صغير على مستوى حجم الحجر يسمح بمرور الماء ولكن بكميات قليلة. كما أن الحجر لا يصل في ارتفاعه إلى مستوى سقف القناة حتى يسمح للعامل بأن يثب إلى داخل القناة. والهدف من هذا الحجر لا يعرفه أهل القنوات في العلا ولكنه في أغلب الاحتمالات لحماية القناة الجوفية من الانهيار إن نزلت مياه السيول إلى القناة من خلال النفق الرأسي. ويعرف هذا الحجر في العلا باسم قُرّاعة، كما لوحظ في أنفاق القنوات هناك وجود نقاط ضيقة في بعض الأماكن يسمونها محاصر غير أنه لا يعرف الغرض منها. والتفسير الوحيد الذي يُحتمل لذلك هو أن هذه المحاصر هي الخطوط الدفاعية الخلفية للحد من تدفق المياه إن نزلت مياه السيول في القناة.

ولذلك نجد أن فتحات الأنفاق الرأسية (الفقر) في القنوات تكون غالباً محمية من السيول وغيرها بطريقة أو بأخرى. فهي إما محمية بجدارين متوازيين من الأتربة، كما يذكر علي حافظ -رحمه الله- عن قنوات المدينة، أو بجدار ترابي مستدير حول الفتحة، كما في بعض قنوات العلا، أو بجدار مبني حول الفتحة، كما في بعض قنوات الأفلاج وقنوات القطيف التي تقع وسط الرمال. ومن الملاحظ أن قنوات العلا المعروفة كلها تقريباً مبنية جوانب أنفاقها الجوفية ومسقوفة بالحجارة. ولما كان أغلب العاملين في تنظيف القناة وتسليك مجراها الجوفي من الصبيان الذين يزحفون فيها على ركبهم وأكفهم، فإنهم يلجأون إلى الزحف على جنوبهم للنفاذ من تلك المحاصر. وعند تقاطع القناة مع قناة أخرى قريبة من مستواها تمر القناة العلوية من فوق جسر حجري منحوت.

وتحفر في قنوات المدينة مغاطس على طول القناة ليتجمع فيها ما يعوق الماء

ويمنعه من المرور. وكلما امتلأت المغاطس وشعر أهل الخيف بأن القناة تحتاج إلى التنظيف والتسليك نظفوها. وفي قنوات ينبع النخل، التي يرجع تاريخها فيما يبدو إلى الفترة الإسلامية المبكرة، هناك ما يعرف باسم الغطاسة وهي تختلف عن مغاطس قنوات المدينة. فهذه الغطاسة تقنية مهمة لحماية القناة عندما تكون قريبة من سطح الأرض وذلك عند تقاطعها مع مجرى السيل، حيث تنزل فجأة إلى مستوى منخفض ثم تعود إلى مستواها السابق بعد عبور المجرى. وهذه الطريقة مشابهة لما يعرف باسم بفلاج غرق في قنوات عُمان جنوب شرق الجزيرة العربية وذلك حسبما ذكره ولكنسون الذي سماها السيفون.

ومن أهم العيون وأشهرها في العصر الإسلامي عين زبيدة بمكة المكرمة، وقد أجرتها زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد من الجبال الشاهقة جنوب شرقي مكة على طريق الطائف. وتسمى هذه العين عين حنين، كما أجرت معها عيوناً أخرى، منها: عين وادي نعمان، عين مشاش، عين ميمون، عين الزعفران، عين البرود، عين الطارقي، عين ثقبة، والخرميات. وكانت جميع هذه العيون تصب في عين حنين حسب كمية الأمطار الساقطة على البئر الأم لكل عين، وقد



جانب من مجرى عين زبيدة بمكة المكرمة

امتدت عين زبيدة إلى عرفات ومنى ومكة المكرمة.

وقد أنفقت زبيدة يرحمها الله مبالغ طائلة على هذه العين، واستمر الاهتمام بها من قبل الخلفاء والسلاطين والأمراء في عصور لاحقة حتى أبطلت بعد فترة من حكم الملك عبدالعزيز عندما حلَّت الآبار الارتوازية، وما صاحب ذلك من تقنيات حديثة لتوفير مصادر مياه الشرب النقية.

وما تزال آثار هـذه العين تمتد لعدة كيلو مترات، إذ يمكن مشاهدة مجرى العين الرئيسي على سفوح الجبال وآثار القناطر التي كانت تمر فوقها العين عند اجتيازها للأودية. وقد زودت العين بفتحات تصريف لمياه السيول تحت مجرى العين في المناطق الجبلية لوقايتها من الانجراف، كما حُميت فتحات العين بإقامة بناء محكم دائري الشكل لكل



خرزة من خرزات عين زبيدة – مكة المكرمة



خرزة من خرزات عين زبيدة – مكة المكرمة

واحدة منها يرتفع عن مستوى سطح الأرض.

الآبار

تأتي الآبار في الدرجة الأولى من الأهمية لاعتماد الناس عليها في الري والزراعة، لذلك انتشرت الآبار في المدن وبطون الأودية وعلى امتداد طرق التجارة والحج. وازداد عدد الآبار في مكة والمدينة بعد الإسلام نظراً لازدياد عدد السكان وكثرة زوار المدينتين للحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول ﷺ. وكانت الآبار –التي عمت فائدتها أنحاء

الجزيرة كافة- على أنماط مختلفة، فمنها ما كان يملكه الأفراد، فهو يؤجر ويباع ماؤه، ومنها ما كان مشاعاً للناس كافة، ومنها ما كانت الدولة تملكه، ومنها ما تبرع به الأفراد. وكانت الآبار في مكة المكرمة تستخدم بالدرجة الأولى للشرب، واعتمدت المدينة على الآبار للشرب والزراعة، وكانت أثمان المياه مرتفعة. فكان صاحب بئر رومة، على سبيل المثال، يبيع القربة منها بمد. وفي عهد عمر بن الخطاب # باع رجل من غسان بئر جشم في رانوناء بثلاثين ألف درهم. واشترى عثمان بن عفان # بئر رومة بمبلغ عشرين إلى أربعين ألف درهم. ونظراً لارتفاع أسعار حفر وبيع الآبار فقد كان بعض أغنياء الصحابة يتبرعون بالآبار التي يمتلكونها ويجعلونها صدقة. وللبئر أسماء عديدة، فهناك القلبان، والأحسية، والركايا، والثمايل، ونحوها.

وكشفت الدراسات والمسوحات الآثارية عن وجود مئات الآبار القديمة على امتداد طرق الحج وفي المواقع الأثرية وفي القلاع والحصون. وذكرت المصادر أن بعض هذه الآبار لم يكن يستخدم للشرب فقط بل كان يستخدم كذلك للزراعة. وتحفر الآبار لأعماق مختلفة في باطن الأرض يصل بعضها إلى أكثر من خمسين متراً، وتكون إما دائرية أو مربعة أو مستطيلة. ويختلف قطر البئر



بئر قديمة في المسلح بدرب زبيدة



بئر قديمة بحيالة المنصورية – الرياض

من مكان لآخر. وبعض الآبار تطوى بالحجارة من القمة حتى القاع، إذا كانت جوانبها هشة ورخوة. وبعضها تكون جوانبها صخرية صلبة، وبعضها تحفر على شكل مجاميع كبيرة في بطن وادٍ أو في أرض منخفضة بحيث تتجمع فيها أكبر كمية من مياه السيول للاستفادة منها لقوافل الحجيج والمسافرين. فعلى سبيل المثال بلغ مجموع القلبان في موقع زبالة شمال المملكة، في القرن الثالث للهجرة ثلاثمائة وخمسين بئراً، وقد حصر ما يزيد على مائة بئر ما تزال صالحة للاستعمال في الموقع نفسه.

ومن الآبار الباقية على طريق الحج (درب زبيدة) بئر زرود، وبئر العمق، وبئر البرود. وعلى طريق الحج المصري والشامي نجد أن القلاع كانت تزود بآبار في داخلها وبالقرب منها. ويمكن ملاحظة ذلك في عدد من القلاع التي أنشئت في العصرين المملوكي



بئر قديمة بمحطة رامة على درب البصرة



بئر وسبيل من عهد الملك عبدالعزيز بين بحرة والشميسي على طريق جدة – مكة

والعثماني. ومن هذه القلاع قلعة المويلح والزريب وتبوك والأخضر والمعظم والحجْر والصورة.

السدود

لم يقتصر اهتمام الحضارات القديمة على إنشاء القنوات للحصول على الماء، بل حاول أهلها الحصول على الماء بطرق شتى؛ فحفروا الآبار، وأنشأوا البرك والأحواض، وبنوا السدود على الوديان لحجز مياه السيول والاستفادة منها في الري، وأشهر السدود في الجزيرة العربية، كما هو معروف، سد مأرب. وقد وجدت السدود القديمة في المملكة في مناطق متعددة، غير أن معظمها زال بفعل عوامل الزمن ولم يبق منها إلاَّ آثار بسيطة تدل عليها. ففي نجران أشارت الأبحاث الأثرية التي قامت بها الإدارة العامة للآثار والمتاحف إلى سد المضيق المقام قرب ممر ضيق بوادي نجران، وهو يحتوي على مجموعة من المجاري الطويلة المنحوتة في الصخر لتحويل مياه السيول لتصب في الحقول المجاورة للمنطقة. ويلاحظ أن عمق هذه المجاري يصل إلى مترين وعرضها يبلغ أحياناً ٩٠سم، كما يصل طولها إلى ١٢٥م. كما يلاحظ في بعض المواضع وجود طبقة جصية على جدران هذه المجاري مما يدل على أن المجموعة بأكملها كانت جوانبها مبطنة بالجص. ويوجد عند الطرف الجنوبي لهذه المجاري

قطوعات أخرى في الصخر يعتقد أنها تمثل مخارج المياه. وطبقاً لتوزيعات المياه في المنطقة حالياً يبدو أن السد الرئيسي كان على الجانب الآخر من المضيق الطبيعي، وأنه في الوقت الحاضر إما أن يكون قد تآكل بفعل المياه، أو غمرته ترسبات الغرين في الوادي.

كما وجدت في منطقة العلا، وهي إحدى مراكز الحضارات القديمة، عدة سدود منها سد أقيم على مدخل وادي المعتدل بجوار أنقاض العاصمة اللحيانية إلا أن بوابات التحكم في تصريف المياه تهدمت ولا أثر لها. وهذا الأمر يدعو إلى الشك في أن هذا السد لم يكن سوى سور بني كجزء من التحصينات حول العاصمة المذكورة. وهناك آثار لثلاثة سدود أخرى مكتشفة، أحدها يتصل بسفح جبل معلق الحمادي إلى الشمال من مدخل وادي دنن، والثاني لصد المياه المنحدرة من جبل عكمة وما يليه إلى الشمال، والثالث في موقع أبي عود. وقد لا تكون هذه السدود سوى جدران دفاعية.

وفي موقع قُرَيّة، المدينة القديمة المندثرة في منطقة تبوك، يشير فيلبي Philby إلى وجود سد طويل لحجز مياه السيول يبلغ طوله ١٢٥٧ ياردة (١١٥٠م) بناه الأقدمون هناك لري محاصيلهم الزراعية، وكان لهذا السد طابع مميز على الرغم من أنه كما يقول فيلبي بُني من حجارة كبيرة غير مشذبة. ومرة أخرى لا نستطيع الجزم بوظيفة هذا الجدار الحقيقية، ولكن المسوحات الأثرية لقريّة تؤكد الاهتمام بالمنشآت المائية فيها، وأنه كان يوجد بها شبكة ري متقنة.

كما نجد سدوداً أخرى ترابية ربما كان يقيمها المزارعون القدماء على مجاري السيول الصغيرة للاستفادة من مياهها في ري حقولهم الزراعية بواسطة قنوات مكشوفة، ومثل هذه السدود كانت منتشرة فيما يعتقد في مناطق مختلفة، خاصة في منطقة عسير.

وقد تطور بناء السدود في مختلف أنحاء الحجاز منذ عصر صدر الإسلام، إذ كانت السدود تبنى في مضايق الأودية ومساقط السيول لحجز المياه للزراعة والري أو للحد من الفيضانات التي تهدد حياة الناس ومساكنهم. وكان لبني أمية أعمال كثيرة للحد من مخاطر السيول التي كانت تجتاح مكة، فعلى سبيل المثال أمر عبدالملك بن مروان سنة ٨٠هـ أبان بن عثمان، عامله على مكة، ببناء ضفائر على الدور الشارعة على الأودية وردم أفواه السكك لحماية الدور من السيول، ونقلت الصخور الضخمة على عجلات

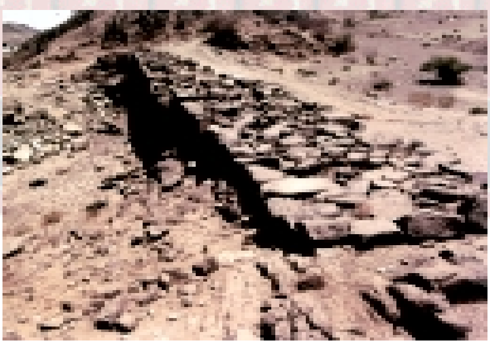
لبناء تلك الضفائر لحجز مياه السيول. وظلت السيول تشكل خطراً على مكة والمسجد الحرام، وكان الخلفاء بين الحين والآخر يقومون بإنشاء الحواجز والسدود للحد من مخاطر السيول.

غير أن السدود في معظمها كانت تشيد لتوفير مياه الزراعة وللمساعدة على زيادة المياه الجوفية للآبار والإعانة على حفر العيون في المناطق السهلية المنخفضة. وما تزال تشاهد حتى اليوم عشرات السدود الباقية على حالها وقد أنشئت في القرن الأول للهجرة.

كانت السدود بصفة عامة تبنى بالحجارة الضخمة غير المنتظمة، وتشيد بشكل هرمي بحيث تكون قاعدة السد أعرض من قمته. كما تكون واجهته مدرجة وجداره مما يلي حجز المياه قائماً. ويغطى السد بطبقة جصية قوية وسميكة. والسدود ذات الارتفاعات الشاهقة تشكل جدرانها بالحجر الدبش ثم تضاف الحجارة الكبيرة على واجهاتها وفوق قممها.

وبعض السدود لها فتحات تصريف وقنوات لنقل المياه للأراضي الزراعية، ويتفاوت حجم هذه السدود في الطول والارتفاع والسماكة حسب طبيعة المنطقة التي تبنى فيها. فبعض السدود تحجز خلفها بحيرات كبيرة واسعة، أما الأخرى فتكون كمية المياه التي تحجزها قليلة. ويمكن إعطاء أمثلة لبعض السدود القائمة على النحو التالي:

سدود الحَجَّاج بمكة المكرمة. استغلت الواحات وبطون الأودية القريبة من مكة للزراعة، وكانت تروى عن طريق حفر الآبار وبناء السدود منذ فترة مبكرة في بداية الإسلام. ومن السدود الباقية بالقرب من مكة، السدود الثلاثة التي بناها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٣-٧٤هـ في شمال المُعَيصِمْ على طريق وادي العسيلة. وكانت هذه السدود تساعد أيضاً على تخفيف أثر السيول بالإضافة إلى استخدامها للزراعة. وقد بنيت هذه السدود من الحجارة النارية، وأكبرها سد أُثال الذي يصل طوله إلى حوالي ١٤٠م وارتفاعه الحالي حوالي ٦م وعرضه عند القمة ٦م، وواجهته مدرجة، وجدار السد مقسم إلى خمس طبقات.



صورة علوية لسد أُثال بالمعيصم



سد أُثال بالمعيصم

ويشاهد على واجهات السدَّين الآخرين، على يسار القادم إلى مكة، كتابات إسلامية منقوشة على صخور السدين تعود للعصر الأموي. وبالقرب من مكة أيضاً يمكن مشاهدة الأساسات الصخرية للسد الذي بناه خالد بن عبدالله القسري في شعيب (الثقبة) المعروف اليوم بالغسّالة.

سدود الطائف. اشتهرت الطائف بالزراعة منذ فترة سابقة للإسلام، غير أن الزراعة بها تطورت في العصر الإسلامي، وكان خلفاء بني أمية والأمراء يمتلكون أراضي زراعية كبيرة بالطائف تزرع فيها شتى أنواع الثمار. ويروى أن عمرو بن العاص كان يمتلك الوهط على بعد ٥كم من الطائف، وفيه كرم يعرِّش على ألف خشبة شرى كل خشبة بدرهم. وعندما حج سليمان بن عبدالله بن عبدالملك مرَّ بالوهط وأحب أن ينظر إليه، فلما رآه قال:

> هذا أكرم مال وأحسنه ما رأيت لأحد مثله لولا أن هذه الحرّة في وسطه. فقيل له: ليست بحرّة ولكنها مسطاح زبيب.

وكان زبيبه جمع في وسطه فلما رآه من بُعد ظنه حرة سوداء. وفي هذا الخبر دلالة على توافر المياه في الطائف وتطور الزراعة.

وعرفت في الطائف سدود كثيرة، ويعتقد أنه كان بها ما يربو على ثمانين



سد عكرمة الجديد – الطائف

سداً غير أن معظمها تعرض للخراب. وتم حصر ما يقارب من خمسة عشر سداً، منها: سد عين العقرب، سد ثلبة، سد السملَّقى، سد سيْسَد، سد القصيبة، سد السلامة، سد السداد، سد أم بقرة، سد داما، وسد عكرمة.

ويأتي سد سيْسَد من حيث الأهمية في مقدمة السدود على الرغم من صغر حجمه، إذ يبلغ طوله ٥٨م وعرضه ٤م تقريباً وارتفاعه حوالي ٨,٥م. ويقع هذا السد إلى الشرق من الطائف بحوالي ٨كم. وأهمية هذا السد أن بناءه كان بأمر من الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٨هـ / ٦٧٧م ويوجد نقش يتكون من ستة أسطر يوضح تاريخ البناء. ومن السدود الأخرى المهمة في الطائف سد السملّقي جنوب الطائف بحوالي ١٨كم ويصل طوله إلى حوالي ٢٢٠م وعرض جدار السد ١٠م عند القمة، والارتفاع المتبقي من السد حوالي ١٠م. وقد انهار جزء من السد في الجهة الغربية. والواجهة الأمامية للسد مدرَّجة. وتوجد كتابات إسلامية مبكّرة على صخوره ولكنها غير مؤرخة. ويعتقد أن بحيرة السد كانت تحجز ما يقرب من ٥٠٠,٠٠٠م^3 من المياه.

سدود المدينة المنورة. أقام الخلفاء بالمدينة المنورة حواجز حجرية لحماية المدينة من السيول الجارفة، كما كان لبعض الخلفاء والصحابة والتابعين مزارع وأملاك خاصة، أقاموا عليها سدوداً لحجز مياه السيول للري والزراعة. ويروى أن



سد سيسد – الطائف

الخليفة عثمان بن عفان # أقام خليجاً من وادي العقيق يسمى بنات نائل لسقي الأرض التي امتلكتها بناته من زوجته نائلة، وقد شارك في بنائه كثير من الأعاجم.

كما أن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان # بنى سداً بين المدينة والرحْضيّة في أحد الشعاب التي يتوافر فيها ماء كثير، ويعرف هذا السد اليوم باسم سد الخنق. وقد عثر في قمته على حجر تأسيسي يشير إلى أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي بناه. ومن السدود التي عرفت في زمن معاوية بن أبي سفيان سد الصهباء.

ومن السدود المبكرة، التي ما تزال آثارها باقية، سد عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان، وقد بناه بالقرب من قصره في الجهة الشرقية من جمعاء تضارع ويصل طول السد حوالي ٣٦م وعرضه ٢,٥م.

كما أقام عبدالله بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان سداً في وادي رانوناء يسمى سد عنتر، وموضعه أسفل جبل عير من الناحية الشمالية وجنوب حي الهجرة. وهذا السد ثلاثة سدود تمتد من الشرق إلى الغرب. ويقوم السد الأصلي في الجهة الغربية وطوله ٦٥م وسماكته ٩م، ويليه سد آخر بطول ٤٩م وعرض ٢م، أما السد الأقصى فيبلغ طوله حوالي ٨٥م وبعرض متر ونصف تقريباً. وبناء السد من ثلاثة جدران متتابعة تفصلها أكمات مرتفعة، لأن المياه



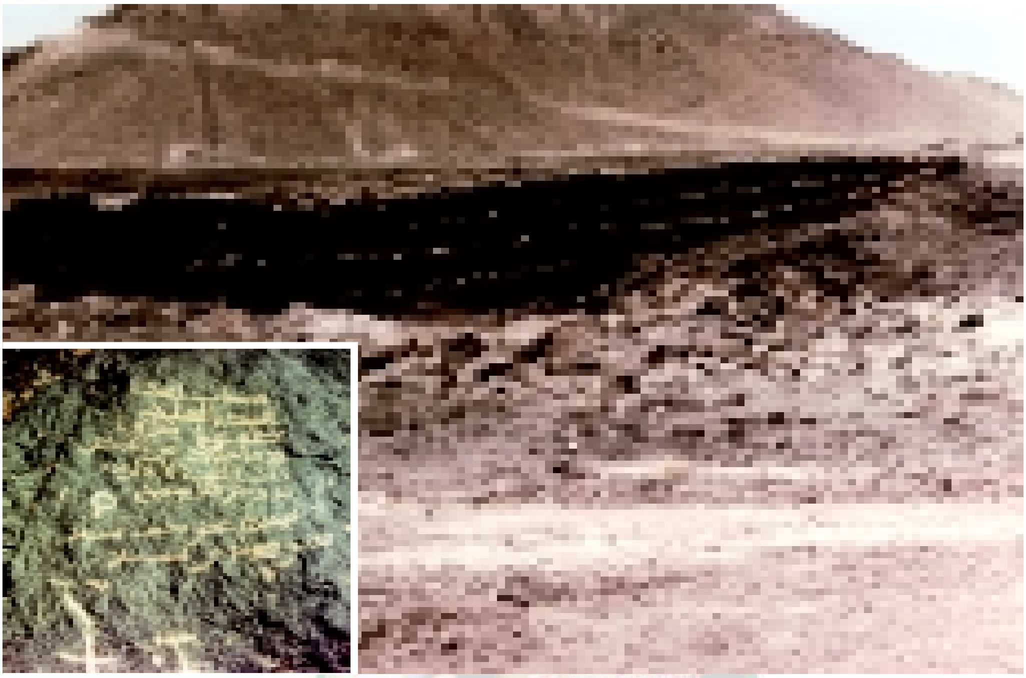
سد الخَنق – المدينة المنورة

تندفع من الوادي فيحجزها السد الكبير، فإذا امتلأ السدّ فاضت المياه بالتناوب منه للسدين الآخرين. وزود السد الأكبر بفتحة تصريف مياه السيول إلى الجهة الشمالية متجهة إلى المنطقة المسماة الصفاصف، ثم ينزل إلى العصبة. وبالقرب من السد نقش من ثمانية أسطر، وهو من الشعر، وربما يعود تاريخ كتابة النقش إلى القرن الثاني الهجري. وهناك نقش آخر على واجهة صخرية خلف السد يشير إلى تجديد السد سنة ١٢٨٩هـ.

سدود خيبر. حرة خيبر من المناطق الزراعية المهمة حيث يخترقها عدد من الوديان وفيها واحات تتوافر فيها المياه والينابيع. واشتهرت خيبر بأنها ريف الحجاز: طعاماً وودكاً وأموالاً، واشتهر الصيحاني بأنه أجود تمور الحجاز. وبلغ خرص تمور خيبر -أي قدر ما أنتجته الأرض- في عهد الخليفة عمر بن الخطاب # أربعين ألف وسق، والوسق يساوي حمل بعير ويعادل ٦٠ صاعاً.

وقد توافرت المياه في العيون والآبار في خيبر بسبب السدود التي أقيمت على الأودية التي تتجه من الحرَّة شرقاً إلى الشمال الغربي لتصب فيما بعد في البحر الأحمر.

وتكاد منطقة خيبر تكون هي الوحيدة بين مناطق المملكة التي احتفظت بسدود قديمة تعود لفترة ما قبل الإسلام، وما زالت منشآتها باقية ومحتفظة بكثير من



سد عبدالله بن عمرو بوادي رانوناء، وأبيات شعرية منقوشة على السد – المدينة المنورة

تفاصيلها المعمارية، وقد أقيمت هذه السدود بطريقة منتظمة ومتتابعة من الجهة الجنوبية الشرقية، حتى منطقة خيبر نفسها من الناحية الشرقية. ومن هذه السدود أربعة معروفة، أكبرها سد القصيبة، ويسمى سد البنت، ويقع جنوب خيبر بحوالي ٣٠ كم في وادي الغرس أو وادي السلسلة. ولعل هذا السد من أكبر السدود القديمة في الجزيرة العربية. ويعتقد أنه ربما يعود إلى العصر الأموي، فهو أضخم من سد الحصيد ويبلغ طوله نحواً من ٣٠٠م، غير أن جزءه الشرقي تهدم ولم يبق منه سوى ١٧٠م ويثير ارتفاعه العجب إذ يصل إلى ٣٠م تقريباً. وقد بني السد بشكل هرمي لأنه مدرج من الجهتين، وفي أعلاه من جهة تصريف المياه ممر واسع يمتد بامتداد جدار أقيم على الجانب المطل على حوض المياه بارتفاع متر تقريباً. ويلاحظ أن واجهة الجدار المقابلة للماء كسيت بملاط، ويبدو أن الجهة الأخرى كانت واجهتها مكسوة أيضاً ولكنها لا تظهر بعد أن بُنيت جدران أخرى إضافية لتقوية السد. ويبلغ طول السد في الأصل ٣٠٠م بقي منه ١٧٠م. ويرتفع السد من قاع الوادي حتى تتساوى قمته عند سطح الحرة لمسافة تصل إلى ٣٠م، ويبلغ عرضه عند القاعدة ١٠م.



سـدّ البنت – حرّة خيبر

ويبدو أنه كان بالغ التعقيد عندما كان في حالة جيدة. حيث توجد آثار لمرافق أخرى للسد وعلامات يستدل بها على تصريف المياه.

أما سد الحصيد الذي يقع جنوب خيبر بـحوالي ١٤ كم فسعة حوضـه تبلغ نحواً من ٧٥٠ فداناً، وطول السد ٦٠م وارتفاعه ١٠م تقريباً، وقد بني من صـخور مـشذبـة، وجدد سـنة ١٣٩٤هـ/ ٧٤-١٩٧٥م. وقد رمّم في سنوات مضت. وسد المشقوق، وسد الزايدية وهو صغير الحجم يصل طوله إلى ٢٥م وعرض جـداره ٨م. وعند طرف السد من الناحية الجنوبية بعض الكتابات الإسلامية التـي يمكن تحديد تاريخها بأنها مـن أواخر القرن الأول الهجري.

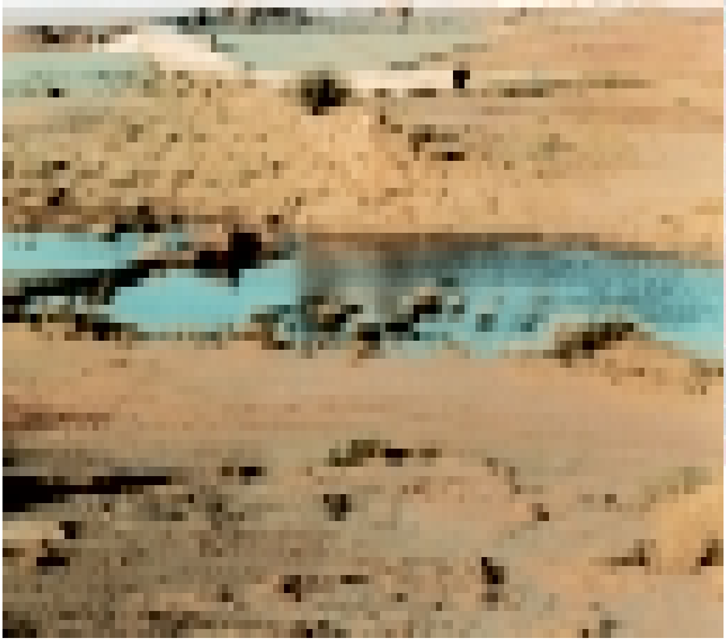


سد الحصيد – جنوب خيبر

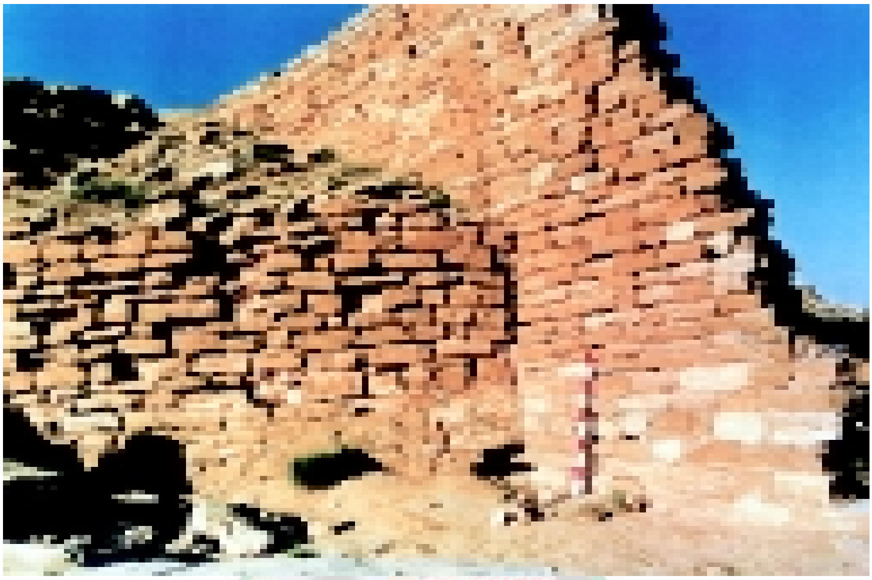
سدود أخرى. هناك سدود أخرى كثيرة في الواحات المنتشرة في الحرار المحيطة بالمدينة المنورة، مثل حرة رهاط وفدك. ومن هذه الواحات: السوارقية وصفينة وحاذة والحائط والحويط. وتشاهد آثار السدود بشكل واضح في السوارقية التي أشار إليها عرام بن الأصبغ في كتابه أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى السلمي بأنها قرية جامعة كثيرة الحصون وبها بساتين ومزارع، كثيرة المواشي، كثيرة الأهل، فيها مبنى ومسجد جامع وسوق، ولهم مزارع كثيرة من موز ونخيل وتين وعنب ورمان وسفرجل وخوخ.

وكانت السدود في هذه المناطق تساعد على حفر الآبار والعيون والزراعة، ومن السدود الباقية آثارها في السوارقية سد الجصَّة. كذلك تشاهد بعض السدود على امتداد طريق الحج من العراق إلى مكة، ومن ذلك سد العقبة أو سد البطن وسد الماوان.

كما عرفت سدود أخرى كثيرة في اليمامة ولكن اندثرت كلها مع الزمن، ولم يبق منها سوى أمثلة قليلة، منها سد ضرية وسد النباج في عيون ابن فهيد بالأسياح. كذلك كشف عن عدد من السدود المبكرة التي شيدت في مواضع مختلفة من وادي حنيفة بين سدوس والحائر.



بقايا سد النباج بالأسياح (القصيم)، ويظهر خلفه السد الحديث



سد نمار على وادي حنيفة – الرياض

البِركَ

عُرفت البرك في عصر ما قبل الإسلام في مختلف أنحاء الجزيرة العربية وفي بلاد الشام. وكانت تشيد على امتداد طرق التجارة وبالقرب من المدن الكبيرة، كما هو الحال في بلاد اليمن وفي بعض مدن الشام، مثل القدس وجرش.

وفي العصر الإسلامي انتشرت البرك في المدن التي ليس فيها أنهار أو بحيرات، كما تعددت أشكالها وأحجامها على امتداد طرق الحج. وقد حظيت مكة المكرمة منذ عصر صدر الإسلام باهتمام الخلفاء بإقامة وسائل حفظ المياه، وقد زاد هذا الاهتمام بوجه خاص في عصر الدولة الأموية. وتحتوي المصادر التاريخية على معلومات عن بعض المنشآت المائية، ومنها البرك التي أقامها والي مكة في عصر الوليد وهشام ابني عبدالملك، خالد بن عبدالله القسري، إذ أنشأ البركة التي تسمى بركة القسري. وزاد عدد البرك في العصر العباسي بما بناه الخلفاء وما أقامته السيدة زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد.

وكان بالمدينة المنورة بعض البرك، ويذكر أنه كان بها في عصر المهدي بركة كبيرة لها مدخلان، أحدهما للرجال وآخر للنساء.

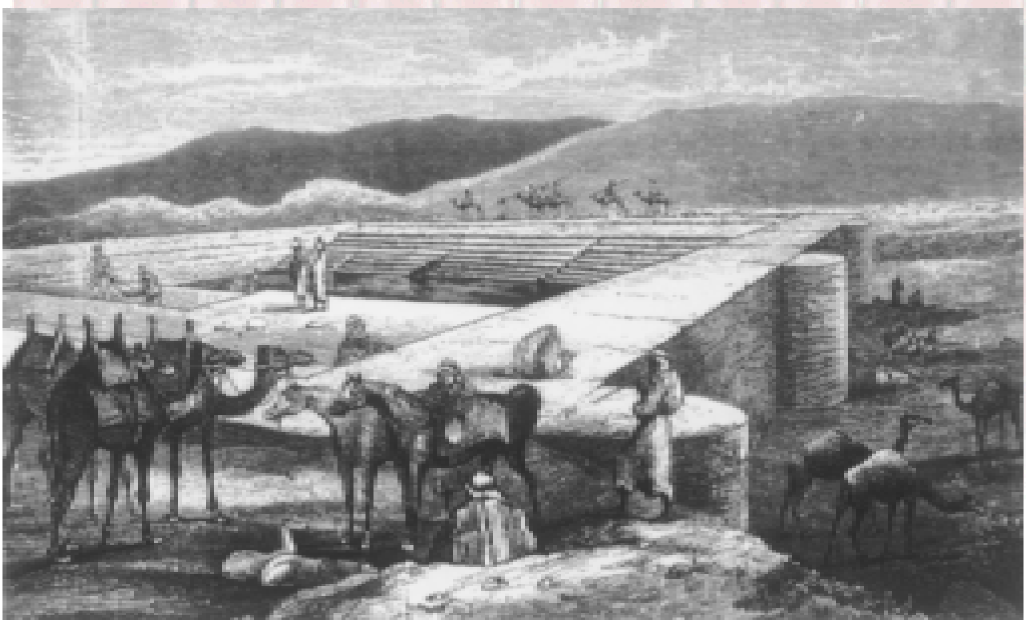
تبنى البرك بأحجار تحت مستوى سطح الأرض، وتغطى أرضياتها

وجدرانهـا الداخلية بطـبقة من الملاط القوي وتزود من الداخل بأكتاف نصف دائرية أو نصف مربعة، وتدعم أركانها الخارجية بأبراج شبه دائرية. وفي بعض الأحيان تبـقى من غير أكتاف داخـلية حسـب طبـيعـة الأرض والتـصمـيم المعماري. كما تزود بسلالم في منتصف أحد أضلاعها أو في إحدى زواياها إذا كانت مربعـة أو مستطيلة، مع وجـود مصب يهبـط إلى أرضيتها من إحدى الزوايا بشكل منحدر. وللبرك الدائرية مصب منحدر يمنة أو يسرة عند التقائه بأرضية البركة، وذلك لتخفيف ضغط مياه السيول عند انحدارها إلى الداخل.

وتزود البركة بقناة أو مجرى يلتقي مع سد أو ضفيرة يعتـرض مياه السيول والأمطار الجاريـة في الأودية والشعاب القريبة من البركة. ولبعض البرك حوض ترسيب أو مـصفاة تتجمع فـيها المياه، ويكون مستوى أرضيتها أعلى من مستوى قاع الـبركة لـغرض تصـفية المـياه من الرواسب الطينية والشوائب.

وقد تمتاز بعض الـبرك عن بعض، خاصة في العصر العباسي، بأنها مدرّجة من أعلاها إلى أسفلها.

وتتراوح أعماق البرك من ٥ إلى ٦م، ومتوسط أبعاد البرك المربعة ما بين ٢٥م و٣٠م. ويصل قـطر البرك الدائريـة ما



رسم لبركة الشيحيات بدرب زبيدة، عمل الرحالة الليدي آن بلنت

بين ٣٠ إلى ٥٠م، ويبلغ متوسط سعة البركة الواحدة من المياه حوالي ٥٤٠٠م٣.

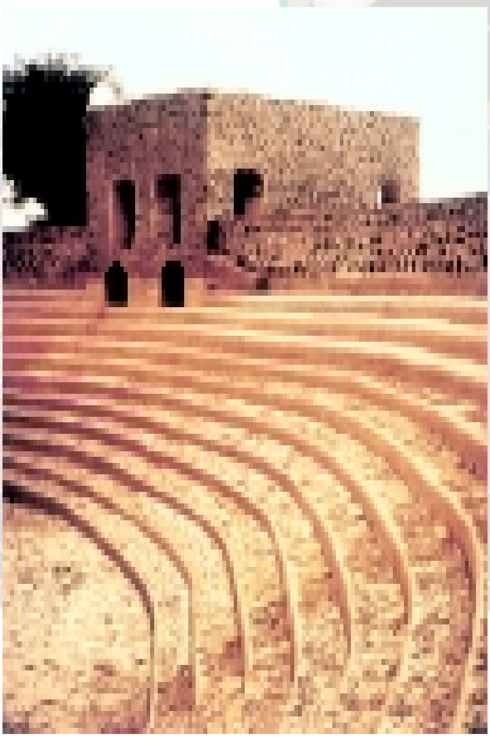
وقد أوضحت المسوحات والدراسات الأثرية وجود عشرات من البرك التي يتركز انتشارها على امتداد طرق الحج القادمة من العراق والشام ومصر. وكثير من هذه البرك غطتها الرمال والركامات الطينية على مرّ العصور، وقد أمكن حصر ما يقرب من تسعين بركة داخل أراضي المملكة العربية السعودية على امتداد درب زبيدة. وتختلف أحجام هذه البرك وأشكالها، ويمتاز بعضها عن بعض في التصميم المعماري. وربما يعزى اختلاف التصاميم المعمارية إلى تنوع المهارات لدى المهندسين الذين أنشأوها في العصور الإسلامية المبكرة، أو ربما يعزى إلى اختلاف مواقع منازل الطريق ومحطاتها، أو لطبيعة المواقع الجغرافية ونوعية التربة وكمية الأمطار المتوقع نزولها في المنطقة.

ومن أبرز البرك الأثرية على طريق درب زبيدة: بركة القاع والعمياء والجميمة والشيحيات، وبركة البدع والحويض، وبركة الرَّبذة وضليع الشق والمسلح، وبركة العقيق، وبركة البرود.

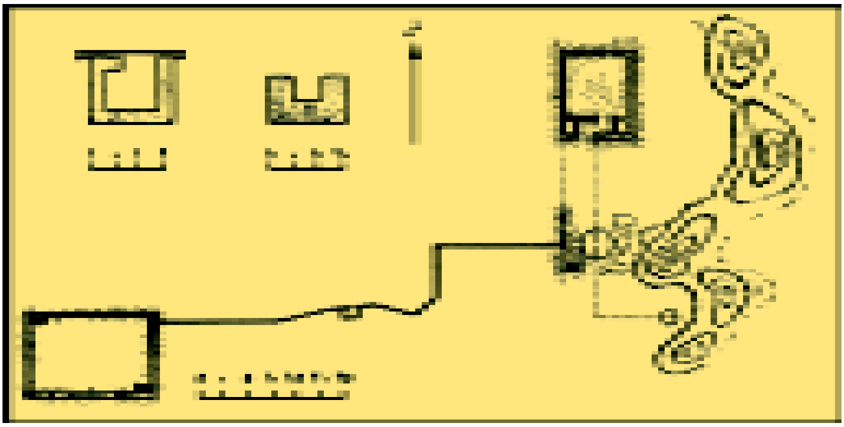
ويوجد على طريق البصرة كذلك عدد من البرك، منها بركة الخرابة الدائرية ومصفاتها القريبتان من موضع بركة العقيق.

وعلى طريقي الحج الشامي والمصري وفروعهما تعرف المهتمون على أكثر من ثلاثين بركة معظمها من الفترة المملوكية والعثمانية، وقليل جداً من هذه البرك يرجع إلى عصور أقدم. وقد بنيت هذه البرك بجوار القلاع التي أقيمت في المحطات القديمة أو بالقرب منها.

ومما يلفت النظر أن معظم هذه البرك رباعية الزوايا، ومن أشهرها بركة تبوك



جانب من بركة الخرابة بدرب البصرة



مسقط أفقي لبئر السعيدني بالبدع والبركة القريبة منه

والمعظم والحجر ومغاير شعيب وبركة عنتر والزريب والجموم وبركة شعيب النَّورة، شمال العيص وعباثر شمال ينبع النخل، وبئر السعيدني بالبدع.

وكانت هذه البرك تشكل مصدراً مهماً لتجميع مياه السيول والأمطار، وكانت معلماً من المعالم البارزة في كل محطة من محطات طرق الحج. وتوضح كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين أهمية هذه البرك في العصور الإسلامية المبكرة والمتأخرة. وقد أورد بعضهم معلومات تفصيلية عن كميات المياه في هذه البرك وسعة كل بركة، وأثر توافر المياه على الحجاج عندما يصلون إلى أي منها، وكيف كان الحجاج يصابون بخيبة أمل عندما يصلون إلى البرك الخالية من المياه.

وقد كانت هناك مصادر أخرى للمياه استفاد منها سكان الجزيرة العربية في العصور الإسلامية في الشرب والزراعة، مثل الغدران التي تتجمع فيها مياه الأمطار والسيول. وقد ذكرت المصادر المبكرة أسماء عدد من الغدران، منها: غدير خم دون الجحفة، وغدير الأشطاط بالقرب من عسفان، وغدير السِّدرة بالقرب من السوارقية، وغدير روارة في حمى النقيع.

كما استفادوا كذلك من الأوشال، وهي الماء القليل الذي يقطر من جبل أو صخرة، وبعضها يسيل من أعراض الجبال فتجتمع ثم تساق إلى المزارع. كما استفادوا من البثور وهي المياه التي تجري تحت الحصى على مقدار ذراع أو ذراعين ودون الذراع، وربما أثارته الدواب

بحوافرهـا . وكذلك من المسك، وهي المواضع التي تمسك الماء، والأحباس وهي مواد من حجر أو خشب تسد بها مجاري الأودية والأنهار والمصانع، والمصنع يشبه الحوض أو الصهريج يجمع فيه ماء المطر . كما استفاد الناس من الحياض وغيرها .

المصنوعات الفخارية والخشبية

تعني كلمة فخار كل مادة تنتج من الصلصال المحروق. والصلصال مادة طينية في الطبيعة وتتحول إلى مادة طرية لزجة عند اختلاطها بالماء، فيسهل تشكيلها حسب النموذج المطلوب، ثم تحرق في أفران خاصة أو تترك لتجف في الشمس. ومادة الصلصال تنقسم إلى نوعين، أحدهما أساسي والآخر ثانوي. فأما الأساسي فهو الصلصال الذي يكون في أماكن تشكيله الأصلية، وأما الثانوي فهو الصلصال الذي يكون في أماكن نقلته إليها عوامل الطبيعة، مثل الرياح والمياه. والفرق بين الاثنين هو أن الصلصال الأساسي أقل شوائب من الصلصال الثانوي.

وتشكل المنتجات الفخارية أهمية خاصة في استخدامها في كل الحضارات. فهي من أهم ما خلّفه الإنسان على امتداد العصور المتعاقبة، بفضل بقاء هذه المادة في طبقات الأرض، بحكم تحملها لعوادي الزمن وكثرة استخدام الإنسان لها في مختلف أغراض حياته بتنوع كبير. كما أن سهولة تتبع تطورها الزمني بدراسة الأساليب الصناعية والزخرفية التي مارسها الإنسان عبر العصور، زادت من أهميتها.

عرف الإنسان مادة الطين منذ أواخر العصر الحجري القديم واستخدمها في تغطية سقوف أكواخه وتبطين جدرانها، واستفاد منها أيضاً في تبطين سلال الخوص المعدة لنقل الماء والسوائل الأخرى. كما بطّن بها جدران مواقده، وصنع منها التماثيل المختلفة، خاصة تماثيل الأمومة، فضلاً عن صناعة الأواني المتنوعة التي اعتمد عليها في حياته. ولكنه لم يكن على علم بأن للحرارة تأثيراً في تغيّر الخواص الفيزيائية والكيميائية للصلصال كلما ارتفعت

درجتها. ويعتقد أن هذا الاكتشاف يعود للعصر الحجري الحديث أو قبيله بقليل، أي في حدود الألف السابع قبل الميلاد.

ويحتاج الصلصال ليصبح مادة يمكن تشكيلها إلى إعداد يبدأ بالحصول عليه من مصادره الطبيعية، ثم تنقيته من الشوائب العالقة به، ثم مزجه بمادة تساعد على تشكيله، مثل القش أو الرمل أو كسر الحصى أو ما شابه ذلك. بعد ذلك يُعجن بخلطه بالماء، ثم يترك لمدة حتى يتخمر ومن ثم يشكل حسب الحجم والنموذج المطلوب.

وقد مرت صناعة الأواني الفخارية بتطور تقني شمل طرق التشكيل ووسائل الحرق. فمن ناحية طرق التشكيل فقد بدئ باستخدام اليد في بناء الآنية مع الاستفادة من عدة وسائل، أهمها استخدام القطعة الواحدة، والشرائط الصلصالية، والقطع الصلصالية المستطيلة. ثم استفاد الصانع من استخدام القوالب التي تصنع في الغالب من الخشب أو الحجر، وتتكون من قطعتين أو قطعة واحدة. وتوصل الإنسان بعد ذلك إلى استخدام العجلة البطيئة، ثم طورها فيما بعد لتصبح عجلة سريعة، واستمرت العجلة مستخدمة إلى يومنا هذا، مع خضوعها لتطوير مستمر.

أما من ناحية طرق الحرق فقد طورها الإنسان في ناحيتين. الناحية الأولى تطويره لنوعية الحرق، إذ بدأ يحرق الأواني بمجرد تجفيفها تحت أشعة الشمس. ثم أخذ يحرقها بإشعال الأخشاب بداخلها لتأخذ صلابة أكثر، وقام بعد ذلك بوضع مادة الإشعال في حفرة يضع عليها الأواني المراد حرقها، كما يضع على الأواني مادة إشعال أخرى، وتوصل بعد ذلك إلى عملية بناء الأفران. فبدأ باستخدام الفرن الصغير البسيط التركيب، ثم طوره إلى الفرن ذي الفتحة العليا، وزوده باستعدادات أخرى، مثل الحواجز، وأماكن قياس درجة الحرارة، ورفوف صف الأواني، وفتحات يستخدمها عندما يريد أن يمنع دخول الأكسجين. ثم طوره إلى الفرن ذي الفتحة السفلى ليأخذ الهواء دورة كاملة، وبهذا تتحقق درجة حرارة عالية.

ومن الناحية الثانية تمكن من معرفة تأثير الهواء في استمرار عملية الاشتعال، وتوليد الحرارة. ففي البداية كان الحرق عشوائياً دون تحكم بالهواء، فتخرج الأواني رديئة في لونها ودرجة تحملها. ولكن الصانع أدرك بعد ذلك أن لدرجة

حرارة الحرق والهواء أثراً في إنتاج أوانٍ ذوات ألوان، فأحدث في الأفران إضافات تساعده في التحكم في تزويد عملية الاشتعال بالهواء. ثم أدرك أن منع الهواء يمكّنه من إنتاج أوانٍ بألوان معينة، فعمل على تحقيق ذلك بالتحكم في دخول وخروج الهواء متى أراد. كما أدرك أن الحرارة كلما ارتفعت جعلت الآنية أكثر صلابة، فعمل أيضاً على اختيار مادة الوقود المناسبة.

الفخار القديم في الجزيرة العربية

ثبت أن الأواني الفخارية المكتشفة في الجزيرة العربية هي من الفترة المعاصرة لها في بلاد العالم القديم. وتدل المجموعات الفخارية التي عُثر عليها في الجزيرة العربية على استخدام عدة أساليب لصناعة الفخار، كالطرق اليدوية واستخدام القالب والعجلة البطيئة والسريعة.

وتفيد الأبحاث الأثرية أن أقدم أنواع الفخار المكتشفة في الجزيرة العربية، والمؤرخة بنهاية الألف السادس وأوائل الألف الخامس قبل الميلاد، قد صنعت بالدولاب الفخاري. كما اكتشفت بعض الأفران الدالة على تطور طرق الحرق في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، إذ عثر على بعض الأفران التي تعود لذلك التاريخ في الإمارات العربية المتحدة. كما عثر على أفران في سلطنة عُمان تؤرخ بالألف الثالث قبل الميلاد. وفي ضوء ذلك نستطيع أن نقول إن الظاهرتين الأساسيتين في تطور الصناعات الفخارية، وهما الدولاب الفخاري وأفران الحرق، عرفتهما الجزيرة العربية في وقت مبكر قد يسبق معرفتهما في كثير من أقطار العالم القديم.

بدأ الاهتمام بالفخار كمادة أثرية مساعدة في دراسة الاستيطان في المملكة، منذ الخمسينيات من هذا القرن، إذ نشر دكسون Dickson وزوجته عدداً من الكسر الفخارية من موقع ثاج المشهور في المنطقة الشرقية. بعد ذلك قام ليونارد بوين Bowen بنشر مجموعة فخارية من موقع عين جاوان عام ١٩٥٠م، كان قد عُثر عليها بطريق المصادفة. وفي سنة ١٩٥٧م تمكن فيلبي Philby من العثور على مجموعات من الكسر الفخارية في عدد من المواقع في شمال غرب المملكة. ثم توالت المقالات القصيرة التي نشرها بول لاب Paul Lapp، وبيتر بار Peter Parr، وصبحي أنور رشيد، وجون دايتون John Dayton، وفان بيك Van Beek. وفي سنة ١٩٧٠م بدأت

الإشارات إلى فخار المنطقة الشرقية تظهر في مقالات مارني جولدنج Marney Golding، وجريس بكهولدر Grace Burkholder. وفي سنة ١٩٧٣م نشرت البعثة الدانمركية الثانية في الجزيرة العربية تقريراً أولياً عن أعمالها في شرق المملكة ضمنته بعض الكسر الفخارية، وكان أغلبها من موقع ثاج. وفي سنة ١٩٧٤م. نشر عبدالله حسن المصري مجموعة كبيرة من فخار المنطقة الشرقية في أطروحته لدرجة الدكتوراه.

وابتداءً من سنة ١٩٧٦م قامت إدارة الآثار والمتاحف السعودية بإجراء أعمالها الميدانية المسحية في الأقاليم الستة للمملكة، وأنجزت حتى سنة ١٩٧٩م موسمين في كل إقليم، إلا الإقليم الأوسط والإقليم الشمالي فقد نفذت أربعة مواسم في كل منهما، اثنان رئيسيان، واثنان جزئيان. ونشرت نتائج هذه المسوح في تقارير أولية ضمت مادة أثرية ضئيلة أحياناً، وغزيرة أحياناً أخرى، ومن بينها مادة الأواني الفخارية.

وبدأ بعد ذلك تنفيذ مواسم التنقيب في بعض المواقع التي شملت، تيماء، ودومة الجندل، ومدائن صالح، وثاج، ومقابر جنوب الظهران، وسهي، والأخدود. وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه المواقع قد تعرضت لموسم واحد، وبعضها تعرض لثلاثة مواسم أو أكثر.

بالإضافة إلى ذلك، كان لطلاب الدراسات العليا زيارات ميدانية، فاجتمعت مادة فخارية من مواقع متعددة بفترات زمنية مختلفة، وضمنت تلك المادة في دراسات أنجزها عدد من أعضاء هيئة التدريس في جامعة الملك سعود.

فخار العصر الحجري الحديث. ظهر الفخار في أوائل العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة في تاريخ يوازي تاريخ ما وجد منه في كثير من أقطار الشرق الأدنى القديم، على الرغم من أن كثيراً من مواقع العصر الحجري الحديث في المملكة لم تدرس بعد، وأن عملية التنقيب اقتصرت على مجسات صغيرة في شرق المملكة. وتدل الأبحاث الأثرية المنشورة، على أنّ صناعة الفخار في ذلك الوقت المبكر عرفت في جميع أجزاء المنطقة، وهي تشمل الفخار الملون وغير الملون، المؤرخ إلى العصر الحجري الحديث.

أما الفخار الملون المؤرخ بالعصر الحجري الحديث فيقتصر انتشاره على منطقة شرق المملكة، حيث وجد في حوالي أربعين موقعاً، منها بضعة مواقع رئيسية، والأخرى وجد في كل منها عدد

من الكسر قد لا تزيد عن كسرة واحدة بالموقع.

ويعود اكتشاف الفخار الملون المؤرخ إلى العصر الحجري الحديث والتعرف عليه في مناطق المملكة إلى عهد قريب. وقد تم ذلك في سنة ١٩٦٨م، بفضل جهود مدرستين كانتا تعملان في شركة أرامكو السعودية في تدريس اللغة الإنجليزية، والباحث الجيولوجي البريطاني جفري بيبي Geoffrey Bibby، الذي استطاع تأريخ هذا النوع بالعصر الحجري الحديث، وأطلق عليه اسم فخار العُبيد. وقام بعد ذلك عبدالله حسن المصري بمسح مواقع معينة سنة ١٩٧٢م في المنطقة الشرقية، وقدم أكبر كمية من الفخار منشورة حتى اليوم.

ويظهر فخار هذه الفترة مدهوناً بعجينة صلصالية خشنة في أغلب الأحوال، وفي حالات قليلة تكون العجينة نقية التركيب. وتظهر العجينة بألوان متعددة، منها الأخضر، والأخضر الغامق، والأصفر الرمادي، والأحمر الزهري، والأحمر البرتقالي، والأحمر القاتم. ويظهر في بعض الكسر لب أسود يتخلل العجينة الصلصالية، كما وجدت بعض الكسر محروقة إلى درجة التشوه. ويلاحظ أن المادة المستخدمة في تقوية العجينة الصلصالية تقتصر على أعواد القش، وقد تضاف كسر الحجارة الكلسية للعجينة في بعض الأحيان.

وتخرج الأواني غالباً بدون إنهاء خارجي واضح، ويقتصر ذلك على بطانة ذات لون أصفر، ظهورها مقصور على الأواني ذوات العجينة الحمراء أو البنية.

أما الزخرفة، فإن ما ذكر بخصوصها يقتصر على الدهان الذي يستخدم بطريقتين: الأولى استخدام الألوان، مثل الأسود قليل السُمك وأحياناً السميك، والأحمر، والبني، والبني الغامق القليل السُمك أو السَميك، والثانية استخدام الدهان ليعكس عناصر زخرفية محددة داخل نماذج زخرفية تشتمل على أكثر من عنصر. وتشتمل العناصر الزخرفية على أشرطة أفقية متوالية عمودياً قد تكون عريضة، وأحياناً تمثل خطوطاً رفيعة. كما أن هذه الأشرطة قد تكون مزخرفة بأعمدة رأسية، أو بشبكة متقاطعة بأشكال مربعات ومثلثات معلقة تحصر بينها شبكة ذات تقاطعات تظهر أشكالاً مربعة، فأشكالاً نباتية تقتصر على وردة التين. وقد تأتي على شكل خطوط متعرجة ومتكررة عمودياً، أو خطوط متعرجة ومتقاطعة لتظهر شكل سلسلة، أو صفوف متوالية من الأشرطة المثلثة



كسر من فخار العُبيد

الشكل، أو خطوط متكسرة، أو أشكال على هيئة رأس شوكة، أو مثلثات رأسية، أو نقاط دائرية.

ولمّا كان أغلب المنشور هو كسر صغيرة، فإن أشكال الأواني ذات العلاقة تقتصر على طاسات عميقة بجوانب شبه مستقيمة، وأخرى بجوانب مقوسة أو منبعجة للخارج، وصحون بجوانب منبعجة وعميقة، وأخرى غير عميقة بجوانب شبه مستقيمة. ووجد نمطان للقاعدة، أحدهما النمط الدائري المسطح، والآخر النمط الدائري العالي. أما المقابض فلم يوجد إلا ما هو على شكل أُذن عمودية لها فتحة في الوسط. ويظهر في هذا الفخار الحواف المعطوفة بشدة للخارج، والحواف العادية.

وعلى الرغم من قِدَم هذا الفخار لوحظ أن بعضه صنع على العجلة السريعة، وبعضه صنع باليد المجردة، أو بالعجلة البطيئة.

وخارج نطاق المملكة وداخل الجزيرة العربية وجد هذا النوع من الفخار في البحرين وقطر وبعض المقابر في الإمارات العربية المتحدة.

أما الفخار غير الملون، الذي يعود إلى العصر الحجري الحديث، فقد اكتشف في عدد من المواقع التي يغطي

انتشارها أجزاء المملكة. ففي شرقها اكتشف هذا النوع في حفريات عين قناص جنباً إلى جنب مع الفخار الملون.

ويمتاز فخار الجزء الشرقي خلال هذه الفترة بتنوعه. فمن ناحية العجينة فإنها تظهر بألوان مختلفة اشتملت على الأخضر الفاتح، والأحمر، والمحمر الفاتح والقاتم، والبني الفاتح والغامق، والمصفر والمخضر، كما تختلف نقاوة العجينة، فمنها الخشنة ومنها النقية ومنها متوسطة النقاوة. ويلاحظ أن العجينة النقية يضاف إليها الرمل كمادة مساعدة، بينما العجينة الخشنة تكون ممزوجة بالتبن أو القش. أما العجينة المتوسطة الخشونة فإنها تمزج بكسر من الحصى. كما تحتوي العجينة الخشنة على لب أسود. وقد يكون هذا الفخار محروقاً حرقاً جيداً أو وسطاً. ويظهر على عجينة قواعد الأواني الخشنة طبعات حصير. أما نمط القاعدة فهو النمط المستدير المسطح. ولوحظ أن بعض الأواني مصنّعة بأشكال مشوهة، ومعظم ما اكتشف هو أجزاء من طاسات مفتوحة كبيرة ولها قواعد مسطحة دائرية.

ويظهر على هذا الفخار بطانة بلون مصفر ويقتصر ظهورها على الأواني النقية العجينة، أو المتوسطة الخشونة.



إناء من فخار العُبيد، تظهر عليه زخارف هندسية باللون الأسود

وأغلب ظهورها كان على الفخار ذي العجينة الحمراء.

ويعتقد أن هذا النوع من الفخار ظهر قبل النوع الملون، ثم استمر تصنيعه خلال إنتاج الفخار الملون. وكلا النوعين يظهران بألوان عجينة واحدة لها البطانة نفسها والمادة المستخدمة في تقوية العجينة الفخارية.

واكتشف في الإقليم الشمالي الغربي فخار يعود إلى الامتداد الزمني لهذا العصر. وقد وجد في ثلاثة مواقع للدوائر الحجرية، وخمسة مواقع للرجوم

الحجرية. وفي الموقعين المسجلين في سجلات إدارة الآثار والمتاحف السعودية بالرقمين (٢١٦-٤٧,٣٣) وجدت مجموعة من الكسر وصفت بأنّ عجينتها حمراء، ومحروقة حرقاً رديئاً، ومخلوطة بالقش لتقوية العجينة الصلصالية، وعليها طلاء بني من الداخل.

ووجد فخار العصر الحجري الحديث في ثلاثة مواقع في الإقليم الشمالي، أحدها يقع في قرية جبّة المشهورة، ووصف بأنه صناعة يدوية. كما عثر على فخار بنّي خشن في عدد من الدوائر الحجرية في جنوب منطقة الرياض. وعثر على مجموعة من الكسر في الموقع المسجل لدى إدارة الآثار برقم ٢١١-٦٢ في المنطقة نفسها، وهو رأس لأحد المنشآت المذيلة.

فخار الألف الثالث قبل الميلاد. يعتقد أن الفخار المعروف باسم فخار العبيد قد انتهى إنتاجه في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، أي في حوالي ٣٦٠٠ قبل الميلاد، ولكن لا يوجد تعليل لكيفية انتهائه، ولا ذكر للفخار الذي خلفه في المنطقة الشرقية للمملكة. وفي السنوات الخمس الأخيرة نشرت بضعة تقارير عن أعمال البعثة الفرنسية في مستوطنة (هيلي ٨) في الإمارات العربية المتحدة، تفيد أن هناك حضارة أطلقت عليها حضارة الفترة الأولى في هيلي، يرقى تاريخها إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. وقد نشرت كمية من فخار هذه الفترة، وحتى اليوم لم يرد في التقارير الأثرية ما يفيد اكتشاف ما يماثل ذلك الفخار في المنطقة الشرقية للمملكة.

ويعتقد أن فترة هيلي الأولى قد انتهت في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، وظهرت خلفاً لها فترة هيلي الثانية التي عدت موازية زمنياً لما يعرف في شرق الجزيرة العربية بشكل عام باسم حضارة أم النار. والواقع أن ما يعرف عن هذه الفترة وفخارها في شرق المملكة قليل جداً، وقد اقتصر ذكر وجودها فيتل تاروت في ضوء حفريات البعثة الدانماركية الثانية، وهو الشيء الذي أيده عبدالله حسن مصري عندما أنجز أبحاثه سنة ١٩٧٢م في التل نفسه. أما الموقع الثاني الذي نقبت أجزاء منه ويوحي بأنها تعود لهذه الفترة فهو موقع مقابر جنوب الظهران. ويتلخص كل ما ورد بخصوص الفخار في العثور على كوب فخاري بعجينة حمراء رقيقة مزخرف باللون الأسود، وكسرة مزخرفة بخطوط هندسية سوداء، وجرة بعجينة حمراء جيدة مزخرفة باللون الأسود. ولكن عدا ما

ذكر فإن ما نشر من الموقع نفسه من الفخار الملون يعود للنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، أو ما يعرف باسم فترة دلمون.

ويظهر فخار هذه الفترة الملون بعجينة رمادية أو بنية أو حمراء أو بنية ضاربة للسواد. كما يظهر ناعماً في أكثر الأحوال، ويخالطه أحياناً كسر من الحصى ربما أضيفت للعجينة الصلصالية لتقويتها. ويُنهى عادة بإضافة بطانة بألوان (البيج)، تكون على الأواني المتوسطة والصغيرة الحجم. أما على الجرار الكبيرة المعدة للتخزين فتكون البطانة باللون الأبيض، وتقتصر على الجزء الداخلي للإناء. ويظهر عليه عناصر زخرفية نفذت باستخدام طريقتي الحز والألوان. أما الحز فقد اقتصر على أمثلة بسيطة، كعنصر المثلثات إلى جانب عناصر أخرى نفذت باستخدام الدهان. ويقتصر لون الدهان المستخدم على الأسود والأحمر. وقد يُستخدم أحياناً اللونان في آن لتنفيذ عناصر زخرفية داخل نماذج تشتمل على الأشرطة الأفقية أو العمودية أو كليهما. كما يظهر الدهان عناصر نباتية، مثل سعف النخيل أو الورود أو صفوف من النقط عملت لتصميم وردة معينة. ويستخدم الدهان في بعض الحالات لتزخرف به الحافة، أو ليغطى به أحياناً الإناء بالكامل. وفي بعض الحالات يكون داخل الإناء مطلياً بلون وخارجه مطلياً بلون آخر.

وتظهر المجموعة المنشورة من شرق المملكة تنوعاً في الشكل يشتمل على الجرار الأسطوانية، والجرار الجؤجؤية، والجرار المضلعة، والطاسات العميقة ذات الجوانب شبه المستقيمة. كما وجدت أوانٍ صغيرة مثل الأكواب والصحون مقوسة الجوانب. واكتشفت صنابير لبعض الأواني. أما نمط القاعدة فإنه في أغلب الأحوال دائري مسطح.

أما الفخار غير الملون من المواقع نفسها في شرق المملكة فهو نسخة من الفخار المدهون سوى أنه ينقصه الدهان. وخلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد اكتشف ما يعرف باسم فخار دلمون، ويعتقد أنه جاء مع هجرات من غرب الجزيرة العربية إلى شرقها. وقد رجح جفري بيبي G. Bibby أنه جاء مع هجرات انطلقت من منطقة اليمامة.

ويمتاز فخار هذه الفترة بأنه يظهر بعجينة خشنة ومسامية في أغلب الأحوال، وبعجينة متعددة الألوان تشتمل على الأحمر القاتم، والبني، وهما اللونان الشائعان. كما يظهر اللون الأصفر المُسْمَرّ الباهت، والبرتقالي،



أنموذج من فخار الألف الثالث قبل الميلاد فترة دلمون من موقع مقابر جنوب الظهران بالمنطقة الشرقية

والرملي، والأسود، ومتعدد الألوان. ويندر وجود الزخرفة على هذا الفخار إلا أن بعض الأواني ذات أبدان مضلعة، وقد يقتصر في بعض الأحيان على رقبة الإناء. وينهى الإناء بإضافة بطانة على السطحين أو أحدهما. واستخدم في تقوية العجينة الصلصالية غالباً كسر من الحجر الجيري أو الأصداف المجروشة. ويظهر الفخار أحياناً رقيقاً ذا عجينة جيدة وحرق جيد.

وقد وجد هذا الفخار بسماته المذكورة في أماكن مختلفة من المملكة، ذكر بأنها مواقع دوائر حجرية ومقابر رجومية. ولعل من أهم هذه المواقع موقعي جبّة والرجاجيل في الإقليم الشمالي في منطقة حائل والجوف. ويتصف فخار هذه المواقع بشكل عام بأنه رديء الصناعة، وأكثره مصنوع باليد، ويخرج بعجينة حمراء قاتمة أو بنية ويتخلله لب أسود. ولا يوجد عليه إنهاء خارجي أو أي نوع من الزخرفة. ووجد على بعضه طبعات الحصير خاصة على قواعد الأواني. وتخالطه شوائب إما عضوية مثل القش، أو كسر من حصى الجرانيت. وله غالباً قواعد مسطحة ومقابض أذنية موضوعة رأسياً، أو أفريز على شكل حافة صغيرة، ويتصف بأن حرقه رديء.

فخار الألف الثاني قبل الميلاد. تشير الدلائل الأثرية إلى أن الاستيطان استمر من دون انقطاع في هذه المنطقة من الألف الثالث حتى دخل في الألف الثاني قبل الميلاد، على الرغم من قلة المادة الأثرية وعدم التعرف عليها بصورة كافية، خاصة ما يتعلق بالنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. وأما الفخار فقد اكتشف منه كميات قليلة شملت الملون وغير الملون.

وقد اكتُشف الفخار الملون من الألف الثاني قبل الميلاد في الجزء الشرقي والشمالي والشمالي الغربي والأوسط من المملكة. ويمتد زمنياً من الربع الأول من الألف الثاني حتى نهاية الألف نفسه.

ويظهر فخار الألف الثاني الملون بعجينة حمراء، وبنية، وبنية قاتمة، وبرتقالية، ورمادية. كما يظهر أنواعاً من العجينة نقّبت بصورة ممتازة. وقد يكون بعضه ممزوجاً بكسر حجر الكلس أو الحجر الجرانيتي، ويكون متوسط النقاوة وأحياناً خشنا. وقد تمثل الإنهاء الخارجي للأواني بعدة أساليب هي: الصقل والتسوية والبطانة. أما الصقل، فيظهر على أواني قليلة خاصة عندما تكون مدهونة بأكملها أو تحمل بطانة. أما التسوية فتظهر بشكل شائع، وهي غالباً ما تنفذ باستخدام العجلة وتقتصر على الجزء الخارجي للآنية، وإن كانت تظهر على الجزء الداخلي في حالات قليلة. ويشمل الدهان المستخدم في زخرفة الأواني اللون الأسود، والأحمر، والرمادي، والأصفر، والأخضر، والبرتقالي، والبني، والأبيض. ويمكن أن يظهر أكثر من لون على الإناء، كما أن الإناء يكون أحياناً مدهوناً بكامله بلون ومزخرف بعدة ألوان على اللون الأول. ويختلف استخدام الدهان على الآنية، فمنه ما يكون سميكاً ومنه ما يكون رفيعاً، وفيه المضاف بعد الحرق، والمضاف قبل الحرق.



إناء من فخار الألف الثاني قبل الميلاد

ويظهر الدهان على الإناء كله، ويتركز في بعض الأحيان على الوسط بداية من كتف الآنية. وقد استخدم الدهان في تشكيل نماذج زخرفية تحتوي على عناصر زخرفية متنوعة، منها الأشكال الهندسية، مثل الخطوط المتعرجة، وأنصاف المثلثات المعلقة، والدوائر الحلزونية. كما تظهر عناصر حيوانية تشمل الجمل والماعز، وربما الكلب. وتظهر أيضاً أشكال نباتية، مثل ورقة اللوتس، وتظهر المثلثات الرأسية، والعمودية، والمتقابلة الرؤوس، بالإضافة إلى الأشرطة الأفقية. وقد يكون

النموذج الزخرفي مشكلاً بأكثر من لون واحد.

ويشتمل هذا الفخار على أشكال متعددة للأواني، منها: الأواني الأسطوانية، والكمثرية، والطاسات العميقة ذوات الجوانب شبه المستقيمة، والجرار الصغيرة منتفخة البطن ذوات الرقاب الضيقة والطويلة. وتظهر أنواع من الصحون العميقة وغير العميقة ذوات الجوانب شبه المستقيمة أو المقوسة.

ونمط القاعدة الشائع هو النمط الدائري، وهو إما أن يكون مسطحاً أو بحافة قليلة الارتفاع، أو بحافة على شكل دائرة مرتفعة. كما تظهر القواعد المدببة، والقواعد ذات القوائم الثلاثية أو الرباعية.

وأما الفخار غير الملون فقد وجد أيضاً في أجزاء متفرقة من المملكة، إذ لا يخلو جزء منها من موقع رئيسي إلا وتمثل فيه فخار يعود لهذه المرحلة. ومن أهم المواقع التي وجد فيها في الجزء الشرقي موقع مقابر جنوب الظهران، وتاروت، والرفيعة، ومقابر بقيق. ووجد في الجزء الأوسط في موقع زبيدة. وفي الجزء الجنوبي الغربي في موقع سهي، وفي جزر فرسان، وفي الجزء الشمالي في عدد من الدوائر الحجرية، وفي الجزء الشمالي الغربي في موقع قريّة، وموقع تيماء.

ويظهر فخار هذا الألف غير الملون بعجينة فخارية تظهر بألوان مختلفة تشتمل على الأحمر، والبني، والبني الغامق، والرمادي، والأصفر الباهت، والبرتقالي، والوردي، والأبيض، والأصفر، والأسود. ويسود الفخار ذو العجينة السوداء في الجزء الجنوبي الغربي وسواحل البحر الأحمر، وينتشر الفخار الأحمر والبني في الوسط والشرق. وتظهر العجائن الوردية والزهرية في شمال وشمال غرب المملكة.



إناء من فخار الألف الثاني قبل الميلاد

وتختلف المادة المضافة لهذا الفخار من منطقة لأخرى، إذ يشيع استخدام القش، وأحياناً ذرات الرمال في جنوب غرب المملكة ووسطها، ولكن كسر الحجارة الجرانيتية تستخدم بكثرة في الشمال الغربي، والأصداف وكسر الحجارة الجيرية في الشرق.

ونجد في بعض الأماكن، خاصة في جنوب غرب المملكة ووسطها، أن صناعة هذا الفخار يدوية، أما في الشرق والشمال الغربي فأغلبه مصنوع بالدولاب السريع.

ويتخذ الإنهاء الخارجي عدة أساليب، منها الصقل المطبق غالباً على سَطْحي الإناء، واستخدام البطانة التي تمثل أسلوب الإنهاء الخارجي الشائع خلال هذه الفترة. ويختلف استخدام البطانة من منطقة إلى أخرى، ففي الجنوب الغربي والوسط لم يستخدم الفخار اليدوي من هذه الفترة بهذا الأسلوب، ولكن شاع استخدامه في الجزء الشرقي والشمالي الغربي حيث استخدمت البطانة على أسطح الأواني الداخلية والخارجية، وأحياناً اقتصر استخدامها على سطح واحد. وتختلف البطانة ذاتها، فمنها السميك ومنها رفيع السمك، كما أن منها جيد التركيب ورديء التركيب. وتظهر البطانة بألوان، منها الزهري والأحمر والأخضر والرمادي والبرتقالي. واستخدم القار في تبطين الأواني، خاصة في الأجزاء الجنوبية الغربية والوسط والشرقية.

واستخدم على فخار هذه الفترة أسلوب التغشية، وهو أقل جودة من البطانة، إذ يوضع الإناء في محلول صلصالي ليتشرب المحلول فيصبح غير مسامي نوعاً ما.

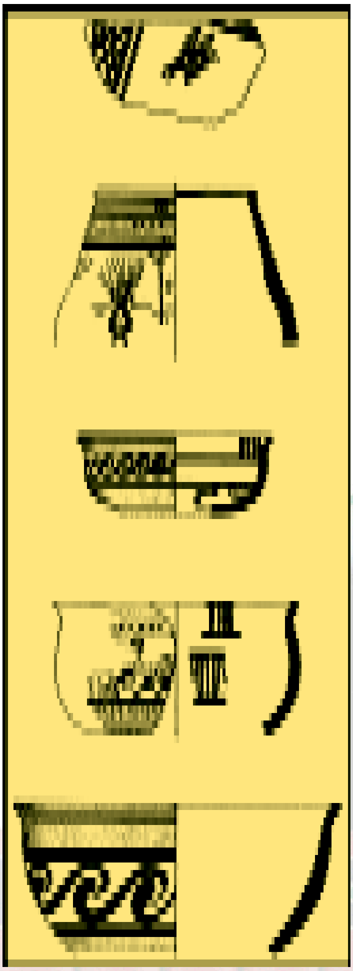
وتظهر على هذا الفخار نماذج من الزخرفة بعناصر متعددة نفذت باستخدام عدة طرق، منها، الحز، والقطع، والتنقيط، والإضافة، والتفريغ. وتتمثل العناصر الزخرفية الشائعة خلال هذه الفترة بالخطوط المتعرجة، والخطوط المتكسرة، والمثلثات المتكسرة، وسلاسل من النقط الغائرة أو الثقوب الصغيرة، والأشرطة الرأسية، والإطارات، والمناظر الطبيعية، مثل الجداول المائية، والأشكال الهندسية، مثل شريط العريف، ورسوم حيوانات، مثل الوعول، والأشرطة المضافة لتشكل حافة على جسم الإناء. وتظهر الزخرفة غالباً على جسم الآنية، ولكن وجدت أمثلة متعددة تبرهن على أن الزخارف قد تظهر

على القواعد والرقاب، وأي جزء آخر من الجسم. وقد تظهر العناصر الزخرفية بشكل محــزز غير عميق، وقد تكون عميــقة، وأحيانــاً غائرة، وفي بعــض الأحيان نافرة.

وظهرت خلال هــذه الفترة أشكال متــعددة للأوانــي، منها الأســطواني، والكــمثــري، والدائــري، والطــاسات العميقة وغير العميقة، والصحون ذوات الجدران المقوسة أو شبه المستقيمة. وتظهر المصافي والسلطانيات بتنوع يشتمل على الســلطــانيات المــنبــعجة، والــصغــيرة المنخفضة، والسلطانيات المفتوحة الفوهة، والجرار الصغيرة المفتوحة الفم. والجرار الصغــيرة الضيــقة الرقبة، والأكــواب، والكــاسات، والأوانــي ذات الأشكــال الشبيهة بالسفينة المقعرة، والأواني المركبة من إناءيــن يربطهــما مقبــض. وتظهر الحواف المــثلثة والــعمودية والمشطوفــة للداخل.

أما القــواعد السائدة فــهي الدائرية المسطحة أو المرتفعة أو التي على شكل حلقة بارزة، ووجــدت قواعد لها أربع أرجل، رباعية الأضلاع، وقواعد مقعرة، وقواعد ثلاثية الأرجل، وقواعد مدببة.

وعثر على مــقابض من هذه الفترة اشتملــت على: المقابض الأسطــوانية، والمقــابض الأفقــية ربــاعية الأضــلاع، والأفاريز الأفقية التي تستخدم كمقابض، والمقابض التي تكون على شكل أذن.



نماذج من الفخار المديني
موقع قُريّة

الفــخار في عصــر الممالــك العربيــة.

استمر الاستيطان في هذه المنطقة –المملكة العربية السعودية– من الجزيرة العربية من الألف الثاني قبل الميلاد إلى الألف الأول



كسر من الفخار المديني

الميلادي بلا انقطاع. ويعرف الألف الأول قبل الميلاد باسم فترة الممالك العربية، وهي فترة معرفة الكتابة وقيام ممالك في شتى أنحاء الجزيرة العربية.

وفخار هذه الفترة المكتشف في المملكة العربية السعودية يشتمل على ثلاث مجموعات، هي: الفخار الملون، والفخار غير الملون، والفخار المزجج. وكان إنتاج الفخار خلال هذه الفترة غزيراً، فقد وجد في مواقع مختلفة من المملكة أهمها: تيماء، ومدائن صالح، والخريبة، وقرية، والخضرمة، وحزم عقيلة، وعين جوان، وثاج، وتاروت، ومقابر جنوب الظهران، والأخدود، وعدد من المواقع على ساحل البحر الأحمر، وزبيدة، وقرية الفاو، والسيح في الأفلاج، وعدد من المواقع السطحية.

وكذلك عثر على الفخار الملون في عدد من المواقع، إلا أن الفخار المزخرف بالألوان جاء من مواقع محددة هي: العلا، وتيماء، وموقع لقطة (الطوير)، ودومة الجندل، وقلعة مويسن، والخضرمة، وحزم عقيلة، وقرية الفاو، ونجران، والسيح. ويظهر فخار هذه الفترة بعجينة متنوعة الألوان منها: الأصفر، الزهري، الرملي، البني، الأحمر، والرمادي. وتختلف العجينة في نقاوتها، فمنها الخشنة الممزوجة إما بالقش أو الحجارة الجرانيتية أو الكلسية، ومنها العجينة النقية جداً. كما وجدت أوانٍ

بجدران سميكة، وأخرى بجدران خفيفة السُمك.

ومعظم فخار هذه الفترة، إن لم يكن جميعه، صنع بالدولاب. والألوان المستخدمة خلال هذه الفترة هي الأسود، والرمادي الفاتح، والأحمر، والبني، والبني الغامق، والبنفسجي، والأصفر، والأخضر. وأكثر هذه الألوان شيوعاً هما الأحمر بدرجاته، واللون الأسود بدرجاته. وتختلف نوعية الدهان المستخدم، فمنه السميك ومنه الرفيع، كما أن منه ما هو مضاف قبل الحرق، ومنه ما هو مضاف بعد الحرق. وقد يكون الإناء مطلياً كله بلون واحد أو لونين، يغطي كل لونٍ منهما أحد وجهي الإناء، وقد يقتصر الدهان على أحد الوجهين. وقد يكون الدهان مستخدماً ليعكس عناصر زخرفية فقط. وفي هذه الحالة قد يكون الدهان مضافاً على طبقة دهان كاملة، أو طبقة بطانة، أو طبقة تغشية. وتظهر النماذج الزخرفية وعناصرها على السطح الخارجي للآنية في أغلب الأحوال، وقد تظهر على السطح الداخلي أو على الأجزاء العليا. وفي حالات قليلة تغطي كامل الآنية، خاصة سطحها الخارجي. وتتنوع العناصر الزخرفية المكونة لنماذج الزخرفة لتشمل، الخطوط المتعرجة، والأشرطة العريضة والرفيعة ذات الوضع الأفقي، والأشكال الحيوانية المجردة، وأوراق الأشجار، وشجر النخيل، والتنقيط العشوائي، والشبكات المتقاطعة المنتظمة وغير المنتظمة.

وأكثر أنماط أواني الفخار الملون تتمثل في الطاسات العميقة ذات الجوانب شبه المستقيمة والحواف العادية المسطحة التي تمثل امتداداً لجدار الآنية. كما يشيع شكل الطاسات العميقة ذات الجوانب المقوسة. وهناك الصحون غير العميقة ذوات الجوانب المنبعجة والحافات المثلثة.

وتظهر أغلب القواعد بأشكال دائرية مسطحة، ودائرية حلقية، ودائرية حلقية عالية. ويغلب في الحافات الشكل العادي، الذي يظهر بانسياب إلى الداخل أو الخارج أو إلى الاتجاهين.

ويتمثل الإنهاء الخارجي في عدة طرق أهمها التبطين. وتختلف البطانة، فمنها السميك ومنها الرفيع. وقد تظهر على السطح الخارجي أو الداخلي، أو السطحين معاً، ولكن أكثر ظهورها يكون على السطح الخارجي. وهي تظهر بعدة ألوان أكثرها شيوعاً اللون الأبيض والأصفر والأحمر.



إناء من فخار تيماء

وتظهر التغشية في هذا الفخار وتقتصر على السطح الخارجي، وهي في اللون الأصفر أو الأحمر غالباً.

كما استخدم الصقل في الإنهاء الخارجي، وهو يطبق عادة على البطانة بحيث يعطيها مظهراً لامعاً. كما استخدم أسلوب التسوية بحيث يعطي سطوح الآنية شكلاً متساوياً.

وهناك مجموعات كبيرة من الفخار غير الملون من هذه الفترة، وهي تتكون من مجموعات سطحية ضخمة جمعت من على سطوح المواقع خلال تنفيذ مراحل المسح الشامل لآثار المملكة العربية السعودية. وكذلك خلال نشاطات بعض الرحالة التي سبقت مراحل المسح الشامل، التي اقتصرت على بضع مواقع، هي: نجران، وعين جاوان، وثاج، وتاروت، وقرية الفاو، وتيماء، وقرية، ومدائن صالح، والخريبة في العلا.

وهناك مجموعات جاءت على إثر أعمال تنقيبية في بعض المواقع الأثرية، التي نقبت إما خلال مراحل المسح الشامل، أو خلال تنفيذ مواسم تنقيبية في بعض المواقع. وتشمل المواقع التي نقب في أجزاء منها: ثاج، وعين جاوان، وتاروت، ومقابر جنوب الظهران، والدفي، وحزم عقيلة، والخضرمة، وعين الضلعة، والسيح، والعيون، وقرية الفاو، ونجران، وجرش، والخريبة، ومدائن صالح، ودومة الجندل، وقلعة مويسن، والطوير.

ويشتمل فخار هذه الفترة على نوعين المحلي والمستورد، وكان الفخار المحلي بأنواعه أكثر وجوداً بطبيعة الحال. ويتمثل الفخار المستورد في الفخار الإغريقي القديم، والفخار الإغريقي المزجج، والفخار التراسجلاتا، والفخار الفارسي الأخميني، والبارثي، والنبطي، والروماني، والساساني.

ويتميز الفخار غير الملون من هذه الفترة، خاصة مجموعات النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، عن غيره من الفخار. وقد عثر على أكبر كمية من الفخار غير الملون من هذه الفترة في الإقليم الشمالي الغربي، والإقليم الأوسط، والإقليم الجنوبي الغربي.



نماذج من الفخار النبطي الرقيق

وقد جاء فخار هذه الفترة في الإقليم الشمالي الغربي من مواقع سطحية، ومن موقعي تيماء والخريبة في العلا. ويظهر في عجينة صلصالية يغلب عليها اللون الأحمر بتنوعاته، كما يظهر اللون الأبيض بتنوع بين الأبيض الناصع والأبيض المصفر. وتكون العجينة في أكثر الفخار ممزوجة بكسر الحصى الجرانيتي، خاصة عجينة الأواني الكبيرة والمتوسطة الحجم. وقد تكون العجينة ناعمة التركيب عندما تُصنع منها الأواني الصغيرة، وتخالطها كسر صغيرة من الحجر الكلسي.

وتظهر في هذه المجموعة أشكال متعددة للأواني تشتمل بشكل عام على الجرار المتوسطة الحجم وذوات الفوهات المفتوحة، وأحياناً يكون شكل الجرة كرويّاً بعنق طويل وضيق وفوهة شبيهة بفوهة القنينة الزجاجية. وتكثر الطاسات العميقة ذات الفوهات المفتوحة والجدران شبه المستقيمة. وهناك أيضاً الصحون العميقة وغير العميقة، التي قد تظهر بجدران منفرجة أو جدران متقوسة.

ويغلب في هذه المجموعة شكل الحافة العادية ذات الانسياب الخارجي أو الداخلي، أو الانسياب على الجانبين. ويأتي في المرتبة الثانية شكل الحافة المثلثة بتنوعاتها في هذه المجموعة. وتظهر بعض الأنواع الأخرى مثل الحافة المعطوفة للخارج بشدة، والحافة التي تكون على شكل حرف T اللاتيني.

أما الشكل الشائع للقاعدة فهو الشكل الدائري بتنوعاته، وأكثرها شيوعاً الشكل الحلقي العادي، كما يظهر شكل القاعدة المدبب الرأس. وقد صنع معظم هذا الفخار بالدولاب الفخاري السريع، ومنه ما صنع باليد المجردة.

واستخدمت طرق عدة في الإنهاء الخارجي، منها: البطانة، والتغشية، والصقل، والتنعيم. وأما البطانة فهي

غير متقنة التركيب غالباً حيث تخالطها شوائب متمثلة بكسر الحصى المتنوع. وتظهر البطانة على السطح الخارجي والسطح الداخلي، وأحياناً على السطحين معاً. ويظهر اللون الأصفر بكثرة على البطانة المستخدمة، كما يظهر اللون البني بشكل ملحوظ، وكذلك اللون الأحمر بتنوعاته، ويظهر اللون الرمادي بشكل أقل. وتكون البطانة مضافة للآنية قبل الحرق. أما التغشية فتظهر على أوانٍ أقل مما ذكر أعلاه، وتكون في الغالب على السطح الخارجي، وأغلب الألوان المستخدمة فيها هي الأخضر الفاتح أو الأصفر. كما استخدم الصقل على السطوح الخارجية للأواني في أكثر الأحوال ليعطيها مظهراً جمالياً ويكسبها مناعة ضد تسرب السوائل. وقد يصقل سطح الآنية، أو تصقل البطانة أو الدهان.

وجاء فخار هذه الفترة في الإقليم الأوسط من موقع الخضرمة وموقع حزم عقيلة.

وهناك كمية عثر عليها في عدد من المواقع السطحية في الإقليم الجنوبي الغربي، وفي جزر فرسان، وموقع الأخدود في نجران. ويظهر فخار هذه المنطقة بعجينة خشنة تخالطها بقايا مواد عضوية مثل القش.

واستخدمت عدة طرق لتنفيذ النماذج والعناصر الزخرفية في فخار هذه الفترة،



نماذج من فخار ثاج بالمنطقة الشرقية، تعود إلى العصر الهلينستي

وهي تشتمل على طريقة الحز، والتمشيط، والقطع، والتشقيب، والإضافة، والتطعيم، والتصبيع.

وهناك نماذج وعناصر زخرفية عديدة نفذت باستخدام طريقة الحز تعتمد على الخطوط المتعرجة الآحادية والعديدة، والخطوط المتكسرة، وتظهر غالباً بشكل آحادي، والحزوز المتكررة، وأنصاف الدوائر، والدوائر، والنقط التي على شكل أهلة، والمثلثات المتوالية.

وطريقة التمشيط شبيهة بطريقة الحز من ناحية النماذج والعناصر الزخرفية، وهي تشتمل على الخطوط المتعرجة التي تظهر بأشكال جماعية، والسلاسل المتقاطعة، ومجموعات من الخطوط المنفردة التي تظهر عادة بوضع عمودي.

وطريقة القطع تعني قطع عجينة من جسم الآنية لتشكيل عناصر زخرفية. وينفذ غالباً باستخدام هذه الطريقة عناصر المثلثات المتوالية عمودياً أو المتقابلة، والنقط الدائرية التي تظهر على الحافات المضافة في أغلب الأحوال بوضع أفقي.

واستخدمت طريقة التثقيب لخلق مجموعات من النقط الغائرة التي تنتشر على جسم الإناء بشكل مجموعات قد تكون منظمة وقد تكون بشكل عشوائي. كما استخدمت هذه الطريقة في عمل نماذج زخرفية تحتوي على ثعابين متصارعة. والتثقيب هو استخدام رأس مسمار لإحداث نقط غائرة لا ثقوب نافذة في جسم الإناء. كما قد تظهر هذه النقط بشكل خطوط عمودية أو أفقية.

أما طريقة الإضافة، فتعني إضافة حواف إلى جسم الإناء قد تظهر بشكل عمودي أو رأسي. وتزخرف هذه الحواف عادة باستخدام إحدى الطرق الأخرى، علماً بأنّ أكثر الطرق شيوعاً في زخرفة الحواف هي طريقة التصبيع، وتأتي في المرتبة الثانية طريقة القطع. وتجدر الإشارة إلى أن الحواف قد تكون مضافة باستخدام عجينة صلصالية جديدة، وقد تكون معمولة من العجينة الأصلية للآنية.

وتستخدم طريقة التطعيم في زخرفة عناصر زخرفية قد نفذت باستخدام طريقة أخرى. وتكون هذه العناصر حاوية لعناصر زخرفية مجوفة تملأ بمادة جمالية، ويغلب عليها اللون الأبيض في فخار المملكة العربية السعودية.

ويعود أقدم دليل على وجود الفخار المزجج في الجزيرة العربية إلى ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد كما تشير أعمال فان بيك Van Beek وكاتون تمبسون Caton Thompson في اليمن، وأبحاث كرتس لرسن Curtis Larsen في



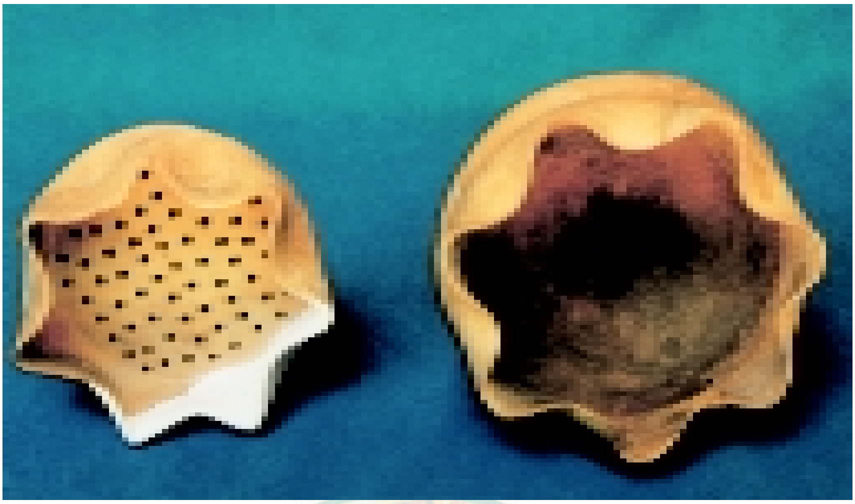
فخار من موقع قَرْيَة (الفاو)

البحرين، والبعثة الفرنسية في فيلكة في الكويت. وقد وجد أقدم إناء مزجج بتاريخ شبه مؤكد من القرن الثالث قبل الميلاد في اليمن، كما تشير أبحاث البعثة الروسية هناك. ومع ذلك فإن معظم مجموعات الفخار المزجج المنشورة جاءت من مواقع لفترة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرون الميلادية السابقة لظهور الإسلام.

وفي المملكة اكتشف الفخار المزجج في عدد من المواقع تشمل عين جاوان، وثاج، وتاروت، ومقابر جنوب الظهران، والخضرمة، وحزم عقيلة، وزبيدة، وقريّة، وتيماء، والخريبة، ومدائن صالح، ودومة الجندل، وقلعة مويسن، ولقطة (الطوير)، وقرية الفاو، والأخدود في نجران. وعدد كبير من المواقع السطحية.

ويظهر أغلب الفخار المكتشف بعجينة صفراء مسامية التركيب وغير نقية وذات صلابة متوسطة. وقد تكون العجينة في بعض الفخار نقية جداً، وباللون الأصفر، وشديدة التماسك، وعالية الصلابة.

ويكون التزجيج بألوان، منها: الرمادي والأصفر والأزرق والأخضر الفاتح والأخضر. وتتفاوت طبقة التزجيج في سمكها وإتقانها من إناء إلى آخر، تكون سميكة أو غير متماسكة، لكنها لامعة. وقد تكون رقيقة في سمكها وباهتة المظهر، لكنها جيدة التماسك.



فخار من موقع قرية (الفاو)

وتشتمل أشكال الأواني على الصحون غير العميقة التي لها جوانب منفرجة للخارج، وحواف مثلثة، والطاسات العميقة ذوات الجدران شبه المستقيمة والحواف العادية أو المفتولة، والجرار ذوات الشكل البرميلي الذي يكون مضلعاً عمودياً في بعض الأحيان، والجرار الكروية الشكل ذوات الحواف المعطوفة للخارج، والقنينات الصغيرة التي تظهر بشكل كروي أو أسطواني بحواف معطوفة للخارج.

ويعد التزجيج طريقة الإنهاء الخارجي الوحيدة التي استخدمت في مجموعة الفخار المزجج.

ويقل ظهور الزخرفة في هذه المجموعة لأن التزجيج يعطي مظهراً زخرفياً إلى جانب أنه عنصر عملي في الأساس. وأمّا الطرق التي استخدمت في زخرفة الفخار المزجج فمنها الحزّ والقطع. وتتمثل العناصر الزخرفية بمجموعة من الحزوز التي تظهر على رقاب الأواني بشكل دائري، وقد تظهر على بطن الآنية. ووجدت بعض الكسر التي تحمل مثلثات مقطوعة في جدران البدن. وجميع العناصر الزخرفية تظهر تحت طبقة التزجيج.

الفخار والخزف الإسلامي

لم يحظ الفخار والخزف الإسلامي في المملكة حتى الآن بدراسة مستقلة تغطي جميع مناطق المملكة وتوضح أنماطه وأشكاله المتوافرة وعصوره المختلفة. ويمكن القول، في ضوء

المعلومات المتوافرة، إن فخّار العصور الإسلامية المبكرة، يمثل أكثر أنواع الفخار الإسلامي وجوداً في المواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة. ونقصد بالعصور الإسلامية المبكرة العصر الأموي والعصرين العباسي والفاطمي. أما العصور الإسلامية التي تلت ذلك، كالعصرين الأيوبي والمملوكي، فأنواع الفخار التي يمكن نسبتها إليها قليلة، في حين تتوافر حول القلاع العثمانية المنتشرة في مناطق متعددة من المملكة مجموعة من الفخار والخزف العثماني. كما توجد بالمملكة أنواع متعددة من الفخار المحلي الصناعة يعود تاريخها إلى مختلف العصور الإسلامية، إلا أنها لم تحظ حتى الآن بدراسات تمكننا من التعرف عليها بسهولة وتحديد تواريخها بدقة.

الفخار في العصور الإسلامية المبكرة. يشمل فخار العصور الإسلامية المبكرة المتوافر بالمواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة الفخار غير المزجج، والفخار المطلي بطبقة من الطلاء الزجاجي.

ويمكن تقسيم فخار الفترة الإسلامية المبكرة غير المزجج الموجود بالمملكة إلى قسمين رئيسيين تبعاً للفترة التاريخية التي يؤرخ بها، هما فخار العصر الأموي، وفخار العصر العباسي المبكر.

فخار العصر الأموي: كشفت أعمال المسح والتنقيب التي تمت في مناطق المملكة المختلفة، بخاصة الغربية والشمالية الغربية، عن وجود أنماط متعددة من الفخار الإسلامي المبكر يمكن نسبتها إلى العصر الأموي. وقد عثر عليها في شكل كسر متناثرة على سطوح المواقع الأثرية، أو في الطبقات السفلية للمواقع التي حُفر فيها. ومن المواقع التي عثر فيها على كسر فخارية أموية: موقع الملقطة بالبدع، والحوراء بأملج، والجار الواقع جنوب ينبع، والأخضر الواقع جنوب تبوك، وبدا الواقع شرق الوجه، وأبا الحلو الواقع بين العلا والمدينة، ومواقع القصور الإسلامية المبكرة بمنطقة المليليح الواقعة على بعد ٥٠كم شمال المدينة، ومواقع القصور الإسلامية بوادي العقيق بالمدينة المنورة، وفي موقع الربذة الذي أمدنا بآنية شبه كاملة من بعض أنماط الفخار الأموي. كما عثر في مواقع أثرية بمنطقة القصيم على كسر فخارية يمكن نسبتها إلى العصر الأموي، وكذلك في المواقع الإسلامية بوادي حنيفة، وفي منطقة الخرج.

وأنماط الفخار الأموي التي وجدت بالمملكة تماثل الأنماط التي وجدت في القصور الأموية ببادية الشام، كقصر الحلابات وقصر القسطل، وتلك التي

وجدت في حفرية بيلا وطبقة فحل بالأردن، وحفرية تل حسبان. وأهم أنماط الفخار الأموي الموجود بالمملكة ما يلي:
الفخار المزخرف بالمغرا، ويصنع من طينة نقية جيدة التحضير، ويحرق حرقاً جيداً ويزين بزخارف ترسم بمادة المغرا على الأسطح الخارجية للأواني. وقد عثر بالمملكة على كسر من هذا الفخار، ولم يعثر على آنية كاملة، وتظهر على هذه الكسر زخارف منفذة بمادة المغرا ذات لون بني غامق أو أحمر قان، قوامها خطوط طولية أو منحنية أو لولبية، أو عناصر نباتية مكونة من فروع متداخلة، وأوراق بسيطة، أو أنصاف مراوح نخيلية. ويغلب على الأواني المصنوعة من هذا النوع من الفخار اللون البرتقالي واللون البني الذي يميل إلى الاصفرار. أما أشكال الأواني فشملت الدوارق والجرار والطاسات بأحجام مختلفة.

والفخار ذو اللون البرتقالي المضلع، الذي يمتاز بلونه وبالتضليع الذي يوجد في الأجزاء العليا للأواني، ويصنع من عجينة نقية، ويحرق حرقاً جيداً. وتعد الجرار بأحجامها المختلفة أكثر أشكال الأواني التي تصنع منه. وهناك نوع آخر هو الفخار الأصفر المضلع وهو يماثل الفخار البرتقالي المضلع من حيث نقاوة العجينة الطينية وجودة الحرق. وتمتاز الأواني المصنوعة منه بقشرة صفراء تغطي الجسم الخارجي للإناء. وتصنع من هذا النوع من الفخار جميع أشكال الأواني.
والفخار المزخرف بالحز، ويصنع من عجينة متوسطة النقاوة، ويمتاز بوجود زخارف منفذة بالحز على السطوح



نماذج من كسر الفخار الأموي الذي وجد بالمملكة

الخارجية للأواني، قوامها خطوط مستقيمة أو متموجة أو متقاطعة تزين رقبة الإناء والجزء العلوي من البدن. وزخارف هذا النمط من الفخار الأموي عميقة الحزوز وغير منتظمة وأقل جودة وإتقاناً من مثيلاتها التي نفذت على الفخار العباسي.

وفخار الطبخ، وهو الذي كانت تُصنع منه قدور تستخدم للطبخ، تعرف باسم البُرَم، وهو ذو بدن بيضي واسع من أسفل وفوهة ضيقة. وتمتاز القدور المصنوعة من هذا الفخار بقلة سماكتها، ووجود التضليع في أبدانها، ولون أسود على سطوحها الخارجية لكثرة الاستعمال على النار. وقد عثر على آنية كاملة من فخار الطبخ الأموي في حفرية الربذة، في طبقات يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الهجري.

كذلك عثر على مجموعة من المسارج المصنوعة بالقالب، وهي مسارج صغيرة الحجم، بيضية الشكل، لها ممسك في طرفها الخلفي، وفتحة في وسطها، لملئها بالزيت، وأخرى في طرفها الأمامي تخرج منها فتيلة الإنارة. وتصنع هذه المسارج بالقالب، وتمتاز بوجود زخارف بارزة على سطحها العلوي منفذة بالقالب، قوامها عبارات



نماذج من كسر الفخار العباسي غير المزجج الذي عثر عليه في المملكة

دعائية مكتوبة بالخط الكوفي، أو زخارف هندسية، أو زخارف نباتية مكونة من فروع متشابكة وعناقيد وأوراق عنب تحمل روح الفن الهلينستي. وتشبه هذه المسارج من حيث الشكل مسارج العصر البيزنطي، وقد عثر بالمملكة على كسر قليلة من نوعها.

فخار العصر العباسي: يعد الفخار العباسي غير المزجج أكثر أنواع الفخار الإسلامي المبكر توافراً في المواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة، وتوجد منه أنماط متعددة، بعضها محلي الصناعة، وبعضها الآخر مستورد من الخارج.

وتتوافر الأنماط المصنوعة محلياً بكثرة في المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة الأحساء، وفي مواقع السرين وعشم وعُثَّر الواقعة في جنوب غرب المملكة. كما عثر على أوان عباسية مصنوعة باليد يعتقد أنها محلية الصناعة بمنطقة تبوك في موقعي البدع وبدا.

ويوجد شبه كبير بين تلك الأواني المحلية التي يرجع تاريخها إلى العصر العباسي، والفخار التقليدي الذي يصنع في الوقت الحاضر في بعض مناطق المملكة. نرى هذا الشبه في نوع الطينة المستخدمة، والأشكال المصنوعة، واللون الذي تكتسبه الأسطح الخارجية للأواني بعد عملية الحرق. وقد نال الفخار المحلي المصنوع في المنطقة الشرقية بعض الدراسة في الأعمال التي قام بها ويتكومب، وعبدالله الدوسري، وفهد الحسين، غير أنه ما يزال في حاجة إلى مزيد من البحث حتى نصل إلى مرحلة التصنيف الجيد لأنماطه. أما الفخار المحلي في المواقع الإسلامية بجنوب غرب المملكة، فلم يحظ بأي دراسة حتى الآن.

وأما الفخار الإسلامي غير المزجج المستورد من الخارج، ويعود تاريخه إلى الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري إلى القرن السادس فأهم أنماطه المتوافرة بمواقع المملكة ما يلي:

الفخار الرقيق ويصنع من عجينة طينية نقية تكتسب بعد الحرق لوناً أبيض يميل إلى الاصفرار، أو لوناً بنياً فاتحاً. وتمتاز الأواني المصنوعة من هذا النوع من الفخار برقتها، إذ يبلغ سمك بعضها ٣مم، كما تمتاز بقلة صلابتها لأنها تحرق على درجة حرارة متوسطة. وتصنع من الفخار الرقيق دوارق المياه على نطاق واسع، وقد عثر على نماذج كاملة ومتنوعة منها في حفريات سوسة ونيسابور وسيراف، يعود تاريخها إلى الفترة الممتدة من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجريين، كما توجد مجموعة

منها في متحف دمشق. وتحمل الأواني المصنوعة من الفخار الرقيق زخارف جميلة منفذة بالحز والوخز والطبع والإضافة، كما تمتاز الدوارق المصنوعة من هذا الفخار بتعدد مقابضها، وبأبدانها الكروية والبيضية والكمثرية. وتوجد كسر الفخار الرقيق بكثرة في المواقع الأثرية الإسلامية في جميع أنحاء المملكة وقد عثر في حفرية الربذة على أوانٍ كاملة في طبقات يرجع تاريخها إلى القرنين الثاني والثالث للهجرة وبداية القرن الرابع.

والنوع الثاني هو الفخار الأصفر الصلب، وهو فخار ذو عجينة طينية صفراء نقية جداً، من نوع العجينة الطينية المستخدمة في صناعة الخزف ذي البريق المعدني. وتصنع من هذا الفخار جرار ومزهريات وطاسات وأوانٍ صغيرة تزخرف بالحز وبالقطع وبالطبع. وتمتاز هذه الأواني بصلابتها بعد الحرق وبدقة صناعتها. وينسب تاريخ هذا النوع من الفخار إلى القرن الثالث الهجري وما بعده. وقد عثر على كسر منه في حفرية الربذة وأخرى التقطت من مواقع الآثار الإسلامية بشمال غرب المملكة.

والنوع الثالث هو الفخار العباسي المزخرف بالحز، ويعود تاريخه إلى الفترة العباسية، ويمتاز بتعدد ألوانه، وتفاوت سماكته، وكثرة أنماطه، وتباين أنواع العجينة الطينية المستخدمة في صناعته. فمن حيث ألوانه نجد منه الأصفر والبني والبرتقالي والرمادي، والمائل إلى اللون الأخضر، والمائل إلى اللون الأحمر. ومن حيث السماكة نجد منه الرقيق، ومتوسط السماكة، والسميك جداً. ومن حيث نوع العجينة الطينية يلاحظ فيه استخدام عجينة قليلة الشوائب وأخرى كثيرة الشوائب، كما استخدمت في صناعته عجينة طينية مخلوطة مع نسبة من الجص.



إناء من الفخار العباسي غير المزجج

وشملت الأواني المصنوعة من هذا الفخار الأزيار والجرار الكبيرة والصغيرة والمزهريات والقدور والطاسات والأقداح والمعاجن والمحالب. وتمتاز هذه الأواني بالصلابة الناتجة عن الحرق الجيد وعن الخصائص القوية للطينة المستخدمة. وتزين الزخارف المنفذة بالحز رقاب هذه الأواني، والأجزاء العليا من أبدانها. وهي زخارف دقيقة قوامها خطوط طولية أو عرضية، مستقيمة أو متموجة أو متقاطعة، وأوراق وفروع نباتية، وأشكال مثلثات ومربعات ودوائر، وأشكال نجمية. وبالإضافة إلى العناصر المنفذة بالحز تنفذ على هذه الأواني عناصر أخرى بالوخز والطبع والقطع والإضافة، وتشكّل مع العناصر المحزوزة موضوعات زخرفية معقدة وجميلة. ويوجد الفخار العباسي المزخرف بالحز بكثرة على سطوح المواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة، وقد جمعت فرق المسح التي زارت هذه المواقع كميات كبيرة من كسره، كما عثر أثناء الحفر في مواقع المابيات وعثّر والربذة على أوانٍ كاملة منه.



إناءان من الفخار العباسي غير المزجج

والنوع الرابع، هو فخار القلل، وتوجد كسر منه على سطوح بعض المواقع الأثرية الإسلامية في المملكة، مثل مواقع مدين والحوراء وبدا والمابيات الواقعة في شمال المملكة، ومواقع المستوطنات التعدينية الواقعة في وسط المملكة وشمالها الغربي وجنوبها الغربي. ويعزى وجود كسر القلل في المواقع التعدينية بكثرة إلى استخدامها في عملية استخلاص المعادن. وتمتاز كسر القلل الموجودة في تلك المواقع بسطوحها الخارجية الملساء، وألوانها المتعددة التي تشمل الأصفر والأحمر والبني والأخضر.

والنوع الخامس، هو الفخار المطلي بطبقة من الطلاء الزجاجي، وقد عثر في المواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة على أنواع متعددة منه ومن الخزف الإسلامي المبكر؛ معظمها مستورد من الولايات الإسلامية القريبة من الجزيرة العربية كالعراق وإيران ومصر والشام. ويعود تاريخ هذه الأواني التي توجد في شكل أوانٍ كاملة أو كسر إلى العصرين العباسي والفاطمي على وجه

العموم. كما توجد بالمواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة كسر من السيلادون الصيني الذي كان يستورد من الصين خلال العصرين العباسي والفاطمي.

الفخار المزجج والخزف الإسلامي المبكر. عثر في مواقع الآثار الإسلامية بالمملكة على أنواع من الفخار المزجج والخزف الإسلامي المبكر في عدة مواقع. ومن أشهر أنواعه:

الفخار المزجج ذو الطلاء القلوي، وهو نوع من الفخار المزجج عرفت صناعته في العصور القديمة واستمر إنتاجه في البلاد التي فتحها المسلمون، خاصة في بلاد العراق وإيران. وأنتجت منه خلال الفترة الإسلامية المبكرة جرار كبيرة وصغيرة، وأوانٍ متنوعة للمائدة وللزينة ولحفظ السوائل. وقد استخدمت الجرار المصنوعة من هذا النوع في عهد الرسولﷺ، وعرفت باسم أواني الحنتم.

وتستخدم في صناعة الفخار ذي الطلاء القلوي عجينة طينية صفراء متوسطة النقاوة، تغطى بطبقة من الطلاء القلوي المخلوط مع أكسيد النحاس مما يجعل الأواني تكتسب لوناً أزرق غامقاً أو أزرق يميل إلى الاخضرار. وتزين الجرار المصنوعة من هذا النوع بزخارف هندسية ونباتية منفذة بالحز، أو بطريقة الباربوتين التي يستخدم فيها قمع يفرز حبالاً طينية تثبت على الجزء العلوي من بدن الإناء وتشكل موضوعات زخرفية متنوعة.



جرّة من نوع الفخار المزجج بالطلاء القلوي
موقع النقرة

وتوجد كسر الفخار المزجج ذي الطلاء القلوي في معظم المواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة، وقد أمدتنا حفرية الربذة بأوانٍ كاملة كبيرة وصغيرة من نوعه. كما عثر على نماذج كاملة منه في المنطقة الشرقية من المملكة معروضة في متحف الآثار بالرياض. كذلك عثر على كسر منه في حفرية المابيات وحفرية عَثَّر، وفي مواقع درب زبيدة، ومواقع طريق

الحج الشامي والمصري وموانئ البحر الأحمر. وأواني هذا النوع من الفخار تؤرخ بالفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري إلى القرن السادس.

والنوع الثاني، هو الفخار ذو اللون الواحد المطلي بطلاء الرصاص، وهو نوع من الفخار تصنع منه القدور والطاسات بمختلف الأحجام، كما تصنع منه المسارج والجرار. وتغطى الأواني المصنوعة من هذا الفخار بطبقة من طلاء الرصاص لها لون واحد، واللون الأخضر والأصفر والبني والعسلي أكثر الألوان استخداماً في طلاءات هذا الفخار. وتوجد كسر هذا النوع بمواقع أثرية إسلامية كثيرة في المملكة، فقد عثر في حفرية الربذة على أوانٍ كاملة منه يرجع تاريخها إلى القرنين الثالث والرابع للهجرة. كما عثر على كسر من نوعه في موقع المابيات وفي موقع عَثَّر، وفي معظم محطات طرق الحج التي ترجع إلى الفترة العباسية والفاطمية. وبعض أنواع هذا الفخار قد تكون صنعت محلياً في تلك الفترة، فالأواني المطلية بطلاء الرصاص ما تزال تصنع في جنوب غرب المملكة حتى الوقت الحاضر، كما أنها كانت تصنع إلى وقت قريب في الحجاز وفي إقليم الأحساء.

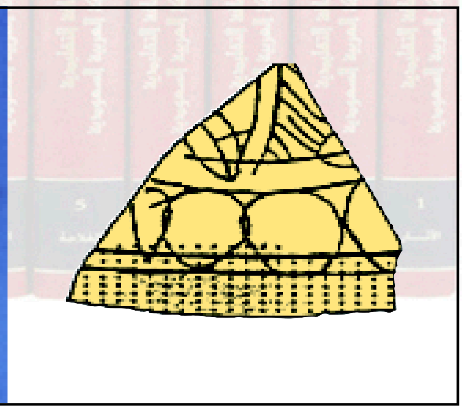


جرّة من الخزف ذات طلاء أخضر – موقع الربذة

والنوع الثالث هو الفخار المزجج ذو الزخارف المنفذة بواسطة القالب، وهو نوع من الفخار المزجج يصنع بالقالب. وتستخدم في صناعته عجينة حمراء نقية تغطى بطبقة من طلاء الرصاص الملون باللون الأخضر أو الأصفر أو البرتقالي أو البني أو البنفسجي. وتصنع من هذا النوع من الفخار صحون وطاسات ومزهريات ومسارج. وتمتاز الأواني المصنوعة منه بوجود زخارف بارزة على سطوحها الداخلية والخارجية تتكون من عناصر هندسية متداخلة وحبيبات ودوائر بارزة ومتكررة، وأشكال وريدات كبيرة وصغيرة. كما تستخدم في زخرفة هذا

الفخار رسوم الحيوانات والطيور. ويمكن تمييز مجموعتين في منتجات هذا الفخار: مجموعة عراقية تستخدم فيها الزخارف الهندسية والكتابية والنباتية على نطاق واسع، ومجموعة مصرية يكثر فيها استخدام رسوم الحيوانات والطيور. ويرجع تاريخ الأواني المصنوعة من هذا النوع من الفخار إلى القرنين الثالث والرابع للهجرة، وقد عثر على كسر منها في مواقع متعددة بالمملكة تمثل المجموعتين كلتيهما. فقد عثر في حفرية الربذة وفي مواقع على درب زبيدة وفي المنطقة الشرقية والمنطقة الوسطى على كسر متنوعة من إنتاج بلاد ما بين النهرين، عليها زخارف كتابية ونباتية وهندسية. أما الكسر التي تمثل ما صنع في مصر من هذا الفخار فقد عُثر عليها في شمال غرب المملكة على طريقي الحج الشامي والمصري.

والنوع الرابع هو الفخار المزجج ذو الزخارف المخططة والمبقعة. ويصنع هذا النوع من الفخار من عجينة نقية حمراء أو بنية أو صفراء اللون، ويغطى بطبقة بطانة يميل لونها إلى اللون الأبيض تعلوها طبقة من طلاء الرصاص الشفاف. ويرسم على البطانة زخارف مخططة ومبقعة متعددة الألوان تستخدم فيها أكاسيد معدنية متنوعة، أهمها أكسيد النحاس الذي يعطي اللون الأخضر، وأكسيد الحديد الذي يعطي اللون الأصفر، وأكسيد المنجنيز الذي يعطي اللون البني أو الأسود. وتسيح هذه الأكاسيد وتختلط مع طبقة طلاء الرصاص الشفافة أثناء عملية الحرق، مما يجعل الإناء يأخذ بعد تمام حرقه ألواناً متعددة ومتداخلة تضفي جمالاً مميزاً على شكله. وقد يستغنى عن استخدام طبقة





كسر من الفخار العباسي المزجج

البطانة ويغطى الإناء مباشرةً بالطلاءات المتعـددة الألوان، فيظهر لـون العجينة تحتها، وهو فـي هذه الحالة يصبح أقل جمـالاً من النـوع الذي تستـخدم فيـه البطانة.

وفي بعض الأواني المصنوعة من هذا النوع تضاف إلى الزخرفة المتعددة الألوان عناصر هندسية ونباتية محورة، تنفذ بالحز تحت طبقة الطلاء. ويـعرف هذا النمط من الأواني باسم سقرافيتو sgraffito ware وهي تـؤرخ بالقـرنين الثـالث والرابـع للهجرة.

كمـا يوجد نمـط آخر مـن الفخـار المخطط والمبقع أطلق عليه بعض الباحثين اسم الفيّومي نسبة إلى مدينة الفيّوم بمصر التي عـثر فيها علـى نماذج كثيرة مـنه. ويعترض بعض الباحثين على هذه التسمية لأن هذا النمط من الفخار المزجج وجد بكثرة فـي الفسطاط ومواقع أخـرى في الديـار المصريـة. وقد اشتـهرت مصـر بصناعـة الفخار الفيومي خـلال العصر الفـاطمي، وأُنتـجت منه أوانٍ مـتعددة الأشكـال والوظائف. ويـتميّز الـفخار الفيومي باستخدام طبقة من طلاء القصدير تكسب الإناء خلفية بيضاء اللون، ترسم عليهـا خطوط متداخلة وأوراق بـسيطة وعبارات مكتوبة بأكاسيد متعددة الألوان.

وتوجد كسر الفخار المخطط والمبقع بجميع أنماطه على سطوح المواقع الأثرية الإسلامية المنتشـرة في مناطق المملكة. وقد أمدتنا حفرية الربذة بأوانٍ شبه كاملة من نوع الفخار المخطط المبقع، والمخطط المحزوز تحت الطلاء. وكذلك عثر على كسر من هذين النمطين في مواقع درب زبيدة، وفي حفـرية المابيات، كما عثر على كـسر كثيـرة من الفخـار المخطط الفيومي في مواقع مدين والحوراء والجار الواقعة على درب الحج المصري. ويوجد في المواقع الأثرية الإسلامية بشمال غرب المملكة نوع من الفخار المخطط قد يكون محلـي الصناعـة، وهو يمتاز بزخـارف هندسية بسيطـة مرسومة باللون الأسود قوامها خطوط متوازية، ودوائر متداخلة، ومثلثات متكررة مملوءة بشبكة من الخطوط المتقاطعـة، وتضاف إلى هذه الزخارف بقع باللونين الأخضر والبني. وربما يكون هذا النوع من الفخار المزجج من صناعة الإقليم الـغربي للممـلكة خلال الفترة الممتدة من القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجري، حيـث يلاحظ وجوده بكثرة في مـواقع الجـار والحوراء والـعويـند ومدين، كما عثر عـلى كسر منه وأوانٍ كاملة في حفرية الربذة وفي حفرية العقبة في الأردن.

والنوع الخامس هو الخزف الأبيض tin - glazed ware وتستخدم في صناعته عجينة طينية صفراء نـقية، تشكل منها أشكـال متعددة وأحـجام متنـوعة من الـطـاسـات والـصـحـون والـدوارق والمزهريات والجرار. وتغطى هذه الأواني بطبقة من طلاء القصدير، تكسبها بعد الحرق لوناً أبـيض عاجياً يحجـب لون العجينة الفخارية. وطلاء القصدير يتكون من إضافة مـادة القصدير إلى التركـيبة المعـتادة للـطلاء الزجاجـي الشفـاف. ويوجـد الخزف الأبيـض بكـثرة علـى سطوح المواقع الأثرية الإسلامية المنتشرة في جـميع مـناطق المـملـكة من دون استثناء، وقد نشرت كسر منه في حولية أطلال ضمن تقارير المسح الأثري الذي نفـذته إدارة الآثـار والمتـاحف بـوزارة المعارف، وضمن الأبحاث التي نشرها سعد الـراشد عن درب زبيدة وحفـرية الربذة. كما نـشر علي غبان عن كسر من نوعه التقطـها من محطات طريقي الحج الشامي والمصري.

والـنوع الـسادس هـو الخزف ذو الزخارف المرسومة بأزرق الكوبالت وهو أوانٍ من نـوع الخزف الأبيض المـطلي بطلاء القـصدير مضافة إليـها زخارف مرسومة بمادة الكوبالت. وترسـم هذه الزخارف فوق طبقة الطلاء القصديري قبل الحرق. وتصنع من هذا النوع من الخزف الـصحون الكـبيرة والصـغيرة والطاسات والدوارق والزهريات، وأنواع متعددة من أواني المائدة وأواني الزينة، وهو يعد من الأنواع الـفاخرة للخزف الإسلامي. أما الزخارف التي تنفذ بمادة الكوبالت فتشتـمل على أشكال نجمية ودوائر مـفصـصة، ووريـدات كبيـرة وصغيرة، وفروع نباتية، وأوراق لوزية ورمحـية، ومراوح نخـيلية كـاملة أو أنصافا، وجمل مكتوبة بالخط الكوفي تحوي عبارات دعائية أو توقيعات صناع. وتوجد كسر هذا النوع من الخزف في معظم المواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة، فقد عثر عليها في مواقع درب زبيدة، وطريقي الحج الشامي والمصري، وفي مواقـع الآثار الإسلامـية في المـنطقـة الشرقـية، وفي وسط المـملكة، وفـي الموانئ الـواقعة في مـنطقتـي القنفـذة وجازان كالـسِّرَّيْن وعَثَّر، وفي مـواقع المستوطنات التعدينية بجبال السروات، وفي حفرية الربذة التـي أمدتنا بنماذج شبه كاملة لأوان من نوع هذا الخزف، كما توجد أمثـلة منه في متحف إدارة الآثار والمتاحف بالرياض، وفي متحف الدمام.

والنوع السابع هو الخزف الأبيض ذو الزخارف المرسومة باللون الأسود، وهو يماثل الخزف ذا الزخارف المرسومة بأزرق الكوبالت، من حيث أشكال الأواني وطريقة الصناعة، ولكنه يختلف عنه في لون الزخارف المرسومة عليه، حيث ترسم الزخارف عليه باللون الأسود الناتج عن استخدام أكسيد المنجنيز أو حجر الكحل بدلاً من مادة الكوبالت. وتمثل الكلمات المكتوبة بالخط الكوفي وتوقيعات الصناع، والعبارات الدعائية مثل «بركة لصاحبه» أبرز الزخارف المنفذة على هذا الخزف. وقد أمدتنا حفرية الربذة بأوانٍ كاملة من نوعه، كما عثر على كسر صغيرة منه في مواقع متعددة بالمملكة.

والخزف ذو البريق المعدني lustre ware هو النوع الثامن الذي عُثر على



إناء من الفخار العباسي ذي البريق المعدني

نماذج منه في المواقع الأثرية في المملكة. وهو نوع من الخزف الإسلامي المبكر تستخدم فيه الأواني المطلية بطلاء القصدير الأبيض، حيث ترسم عليها زخارف متنوعة بمادة البريق المعدني ويعاد حرقها في أفران خاصة ذات حرارة منخفضة؛ فينتج عن ذلك أوانٍ ذات زخارف براقة ذهبية اللون، أو متعددة الألوان، يعدها بعض الدارسين بديلاً اهتدى إليه المسلمون ليحل محل أواني الذهب والفضة المحرمة الاستخدام في الإسلام. وقد عرفت صناعة أواني الخزف ذي البريق المعدني خلال القرن الثالث الهجري، وصنعت في العراق للمرة الأولى، وقيل في إيران، وقيل في مصر. ووجدت منها نماذج كاملة، وهي صحون وطاسات ودوارق وجرار صغيرة ومتوسطة الحجم، عثر عليها في حفريات سامراء وسوسة والفسطاط ونيسابور والرقة ومدينة الزهراء في الأندلس ومواقع إسلامية كثيرة منتشرة في كافة أنحاء البلاد الإسلامية. كما عثر على بلاطات من خزف البريق المعدني في محراب المسجد الجامع بالقيروان.

أما في المملكة فقد أمدتنا أعمال المسح والتنقيب الأثري التي جرت حتى



إناء من الخزف العباسي ذي البريق المعدني

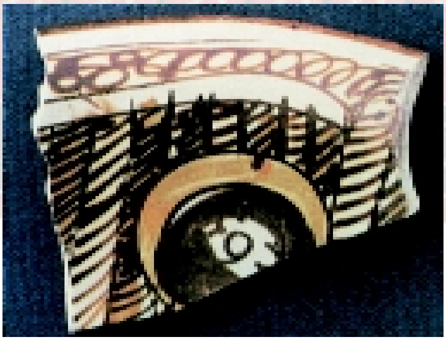
الآن في بعض المواقع الأثرية الإسلامية بأوانٍ كاملة وكسر تمثل بعض الأنماط المشهورة لخزف البريق المعدني. ويرجع تاريخ هذه الكسر والأواني إلى فترة القرن الثالث والرابع والخامس وبداية السادس للهجرة، أي من العصرين العباسي والفاطمي.

ويمكن حصر أهم أنماط الخزف ذي البريق المعدني التي ظهرت حتى الآن في المواقع الأثرية بالمملكة فيما يلي:

١) أواني البريق المعدني المتعددة الألوان polychrome lustre ware: ويطلق عليها بعض الباحثين طراز سامراء، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث الهجري وبداية الرابع. ويمتاز هذا النمط باستخدام ألوان متعددة في مادة البريق، أبرزها اللون الأخضر الزيتوني والبني والبنفسجي. كما يمتاز بكثرة استخدام العناصر الهندسية والنباتية المحورة في الزخرفة، واستخدام زخرفة الدائرة والنقطة لملء الفراغات بين العناصر الزخرفية الأساسية. وتوجد أمثلة متعددة من هذا النمط عثر عليها في حفرية الربذة.

٢) أواني البريق المعدني ذات اللون الواحد monochrome lustre ware: وتمتاز باستخدام اللون الأخضر الزيتوني في مادة البريق، واستخدام الرسوم الآدمية ورسوم الحيوانات والطيور كعناصر رئيسية في الزخرفة. وقد عثر على أوانٍ كاملة من هذا النمط في حفرية الربذة، كما عثر على كسر كثيرة منه في مواقع مختلفة بالمملكة يعود تاريخها إلى القرن الرابع الهجري.

٣) أواني البريق المعدني الإخشيدية: وتوجد كسر قليلة منها عثر عليها في



كسرة من الفخار العباسي ذي البريق المعدني

مواقع شمال غرب المملكة تحمل خصائص الخزف ذي البريق المعدني الذي يعود لفترة العصر الإخشيدي في مصر. وتمتاز هذه الكسر بزخارفها المكونة من أوراق لوزية كبيرة، وأنصاف مراوح نخلية، وكتابات عربية كوفية منفذة باللون الأخضر الزيتوني أو الذهبي. وقد عثر في حفرية المابيات على أجزاء من أوانٍ تحمل هذه الخصائص، كما عثر على كسرٍ مماثلة لها في موقع بدا شرق الوجه.

٤) أواني البريق المعدني الفاطمية: وتمتاز أواني البريق المعدني الفاطمية بكثرة استخدام الرسوم الآدمية والحيوانية والطيور في زخرفتها. ويعد خزف البريق المعدني الفاطمي من أرقى أنواع الخزف الإسلامي المبكر لما يحويه من زخارف تصور موضوعات متنوعة من البيئة، ومن الحياة اليومية وحياة البلاط في العصر الفاطمي. وتوجد مدارس كثيرة تعرف عليها الباحثون في إنتاج العصر الفاطمي من خزف البريق المعدني، أشهرها مدرسة مسلم بن الدهان، ومدرسة سعد. وقد جُمعت كسر من نوع الخزف ذي البريق المعدني الفاطمي من موقع الجار يمكن نسبتها إلى مدرسة مسلم بن الدهان. كذلك عثر على كميات من هذا النوع في موقع المابيات في العلا.



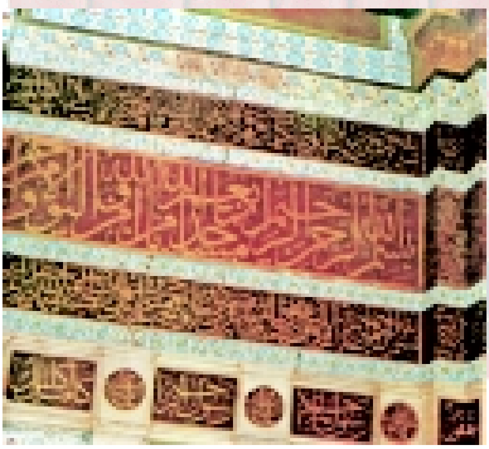
نماذج من الفخار غير المزجج، الذي أنتج خلال القرون التي تلت سقوط الدولة العباسية

الفخار في العصور الإسلامية المتأخرة. عُثر في بعض مناطق المملكة على أنماطٍ من الفخار غير المزجج الذي أنتج خلال القرون التي تلت سقوط الدولة العباسية. وأهم المناطق التي اشتهرت بإنتاج الفخار خلال تلك الفترة الأحساء والمخلاف السليماني والحجاز، وهي مناطق ما تزال تمارس فيها صناعة الفخار حتى الوقت الحاضر. ومعلوماتنا عن أنماط الفخار المحلي الذي أنتج في هذه المناطق خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الهجري، قليلة جداً لعدم وجود دراسة تناولت هذا الفخار حتى الآن. وكذلك الحال بالنسبة للفخار المستورد من الخارج خلال العصور الإسلامية المتأخرة، فمعلوماتنا عنه أيضاً

محدودة في الوقت الحاضر. فالفخار الأيوبي لم تسجل أعمالُ المسح والتنقيب بالمملكة حتى الآن وجود كسر من أنواعه المعروفة داخل حدود المملكة، والمعروف أن طريق الحج المصري كان متوقفاً خلال العصر الأيوبي بسبب وجود الصليبيين في أيلة، وكان حجاج مصر يصلون إلى جدة بطريق البحر. أما طريق الحج الشامي فكان مستخدماً خلال العصر الأيوبي، وقد أنشأ المعظم أيوب حاكم دمشق بركاً في بعض محطاته الواقعة في المملكة، مثل بركة المعظم. كما أن مدينة العلا كانت بلدة عامرة ومحطة رئيسية على الطريق في تلك الفترة، غير أن أعمال المسح في منطقة المعظم وفي بلدة العلا لم تسجل وجود كسر من أنواع الفخار والخزف الأيوبي المعروفة.

أما الفخار والخزف المملوكي فتوجد منه كسر في بعض محطات طريقي الحج المصري والشامي الواقعة في المملكة، مثل محطات الأخضر، وبئر السعيدني، والأزنم، ونبط. وكسر الفخار المملوكي الموجودة في هذه المحطات قليلة جداً ومعظمها أنماط فخارية غير متميزة. كما توجد في بعض موانئ البحر الأحمر، مثل ميناء الشرجة الواقع في سهل تهامة الجنوبي، أنماط فخارية تشبه أنماط الفخار المملوكي التي وجدت في موانئ البحر الأحمر المصرية، مثل ميناء القصير.

أما فخار العصر العثماني، فتتوافر منه نماذج كثيرة في مواقع القلاع العثمانية المنتشرة في مختلف مناطق المملكة. وهو يشمل فخاراً غير مزجج، وفخاراً مزججاً بطلاء الرصاص وبالطلاء القلوي، وأنواعاً متعددة من الخزف ومن السيلادون. غير أن الفخار والخزف العثماني الموجود بالمملكة لم يحظ بأي دراسة، ولم يجمع بشكل منظم، ولم تجر له أي عملية تصنيف. وبالإضافة إلى الفخار العثماني الموجود في المواقع الأثرية توجد مجموعات من البلاطات الخزفية العثمانية المعروفة ببلاطات إزنك مثبتة في جدار القبلة بالمسجد النبوي



بلاطات خزفية في جدار القبلة بالمسجد النبوي الشريف

وحول الحجرة النبوية، ويرجع تاريخها إلى عصر السلطان عبدالمجيد.

كما توجد مجموعة قليلة من بلاطات إزنك فوق مدخل قلعة تبوك كتب عليها نص يشير إلى تجديد عمارة القلعة في عصر السلطان محمد الرابع. وتحتفظ بعض الأسر في الحجاز والأحساء ونجد بأوانٍ من خزف إزنك وكوتاهية التركيين يرجع تاريخ صنع بعضها إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة.

بقي أن نشير إلى وجود مجموعات من روائع التحف الخزفية الإسلامية ضمن المجموعات الخاصة التي يمتلكها عدد من السعوديين أمثال الشيخ رفعت شيخ الأرض، والأستاذ عبدالرؤوف خليل. ومقتنياتهم من التحف الخزفية الإسلامية لم تدرس بعد.

المصنوعات الخشبية

إضافة إلى صناعة الفخار ازدهرت المشغولات الخشبية خلال العصر الإسلامي وقبله في الجزيرة العربية ازدهاراً واضحاً، وهو ما نعرض له فيما يلي بإيجاز من حيث أسلوب صناعة الأدوات والأواني الخشبية وغير ذلك مما يمسُّ حياة الإنسان في الجزيرة العربية.

في عصر ما قبل الإسلام. ارتبطت الصناعات الخشبية قبل الإسلام بالنجارة التي كان لها شأن كبير في حضارة الجزيرة العربية قبل الإسلام. بل إن حياة الإنسان ارتبطت منذ القدم بالمواد المصنوعة من الخشب، سواء ما كان منها مواد للبناء أو للدفاع عن النفس. وكانت العصا، وهي مصنوعة من الخشب، جزءاً من حياة الإنسان في كل مكان، وقد استخدمها في أغراض كثيرة، وورد ذكرها في القرآن الكريم في قصة موسى، عليه السلام، في قوله تعالى ﴿قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهشُّ بها على غنمي ولَيَ فيها مآرب أخرى﴾ (طه: ١٨).

كما أشار القرآن الكريم إلى صناعات أخرى من الخشب، ففي قصة داود، عليه السلام، ورد قوله تعالى ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات..﴾ (سبأ: ١٣). وفي صناعة السفن قال تعالى ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ (القمر: ١٣).

وعندما انتظمت الحياة في الجزيرة العربية، وظهرت الحضارات في جنوبها وشمالها وتعاقبت الممالك العربية، مثل دول معين وقتبان وحضرموت وطسم

وجديس وسبأ وحمير وكندة وحضرموت وغيرها من الممالك العربية، كان للتجارة دور كبير في تطوير الصناعات الخشبية اللازمة للبناء وحفظ الأطعمة والأشربة وغير ذلك.

وكانت تجارة الأخشاب من التجارات الشائعة في الجزيرة العربية قبل الإسلام. فبالإضافة إلى ما يتوافر في الطبيعة من أخشاب محلية كان الخشب المستورد من الهند وأفريقيا مرغوباً فيه لاستخدامه في الصناعات المختلفة، ومن ذلك خشب الساج والأبنوس والصندل الذي كان يستخدم في المباني والقصور والمعابد. واستخدمت الأخشاب في صناعة الأسقف والأبواب والنوافذ وفي صناعة الأسلحة، مثل القسي والرماح ومقابض السيوف والخناجر، وصناعة الصحاف والجفان والأثاث المنزلي وأدوات الغزل والنسيج والسلالم الخشبية. ودخلت الصناعات الخشبية في لوازم السفر التي توضع على ظهور الدواب، مثل الهوادج والسروج. كما عُرفت المهارس والمدقات الخشبية، فضلاً عن أدوات الكتابة، كالمحابر والأقلام المصنوعة من الخشب.

والنجارة من المهن القديمة التي عرفها العرب وقد وردت في النقوش القديمة كلمة نجار أو النجار. وكانت بعض التماثيل في الجاهلية تصنع من الخشب، وقد عثر المنقبون في اليمن وحضرموت على عينات من الصناعات الخشبية هي ألواح وشبابيك ومواد خشبية منقوشة نقشاً بديعاً ومحفورة بحيث تدل على دقة الصناعة والمهارة الفنية التي تميز بها الصُنّاع.

ووردت في كتابة المسند كلمة عضم وعض ويراد بها الخشب. وفي كتب اللغة ذكرت كلمة العضم بمعنى خشبة ذات أصابع يُذَرَّى بها الحنطة. وهناك أدوات يستخدمها النجارون في صناعة الخشب، منها الفأس والمنشار والمحفار والمحفرة وهي حديدة يحفر بها، والمنقار وهو حديدة كالفأس مستديرة، والمحل وهو آلة ينحت بها الخشب كالمبرد، والمثقب والكلبتان والمسامير والأوتاد، وغير ذلك من الأدوات التي تستعمل في قطع الخشب وتنظيمه وصقله وهندسته.

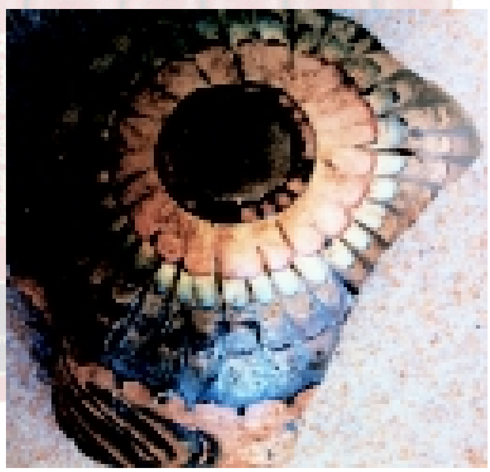
ومن الأدوات المستخدمة في تربيع الخشب الكوس وهي خشبة مثلثة. ولا نستبعد أن يكون عرب الجزيرة قد عرفوا صناعات العربات التي تجرها الدواب، كما عرفوا الدبابات الخشبية المستخدمة في اقتحام أسوار المدن والمباني الحصينة.

وعلى أي حالٍ، فإن كتب التراث الأدبي والمعاجم اللغوية غنية بأسماء كثيرة للأواني والأدوات الخشبية التي عرفها عرب الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ومن أشهر الأواني المعروفة الصحاف ولها أسماء كثيرة، مثل الفيحة، والصحفة، والمئكلة، والقصعة، والدسيعة، والجفنة، وهي أكبر آنية الطعام. وتطلق الجفنة على الرجل الكريم المطْعام، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت في ملوك آل جفنة من أهل اليمن الذين استوطنوا الشام:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

وعلى صعيد الاكتشافات الأثرية الحديثة، فيما يتعلق بالصناعات الخشبية،

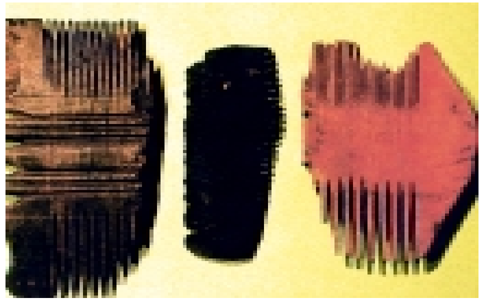


إناء من لحاء الشجر عليه زخارف محفورة ذات ألوان متعددة من قرية «الفاو»

فعلى الرغم من قلة الحفائر الأثرية الموسعة إلا أن ما عثر عليه من نماذج خشبية مصنعة إنما يدلّ على ازدهار الصناعات الخشبية في عصر ما قبل الإسلام.

فإذا نظرنا إلى حفائر قرية الفاو، فإننا نجد أمثلة بديعة من الصناعات الخشبية الراقية التي عرفها أهل القرية. فعلى سبيل المثال تم العثور على جزءين من جسمي إناء مصنوعين من لحاء الشجر على كل منها زخارف نباتية محفورة ذات ألوان متعددة. كما عثر على قطع خشبية تمثل أجزاءً من موازين ومزاليج أبواب وأدوات غزل ونسيج وتوابيت من خشب الصندل. كما عثر على ألواح خشبية معشقة بنصوص كتابية بخط المسند.

ولعل من أبرز الصناعات الخشبية الأدوات الخاصة بالزينة، حيث عثر على أنواع عديدة من الأمشاط الخشبية المصنوعة على أرقى مستوى من الفن. فهي معمولة من قطع خشبية مصقولة ذات لون بني وأسود ورمادي، ولها أسنان طويلة ومتقاربة تظهر على طرفي المشط، ففي أحد الأطراف تأتي الأسنان دقيقة متقاربة الفتحات، أما في الطرف الآخر فتأتي عريضة ومتباعدة بحيث تكون صالحة لاستخدامات متعددة،



أمشاط خشبية من قرية «الفاو»

للرجال والنساء على حد سواء، ولمختلف الأعمار.

والملاحظ على الأمشاط المكتشفة في قرية الفاو أن المساحة في منتصفها عليها حزوز طولية زخرفية، وأطراف مفرغة يسهل إمساكها أثناء عملية التمشيط.

في العصر الإسلامي. النجارة وما يتبعها من صناعات خشبية هي امتداد للصناعات التي كانت قائمة في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكان أن تطورت هذه الصناعات في العصر الإسلامي بسبب النمو العمراني، ونتيجة لظهور المدن وازدهار حركة التجارة والنقل وازدياد عدد السكان، صاحب ذلك كله ازدهار في الزراعة وتطور في العلوم.

وتُعد المصنوعات الخشبية من أهم الصناعات التي لا غنى عنها في كل زمان ومكان، فالأخشاب وما ينتج عنها يحتاج إليه أبناء البادية والحاضرة على حد سواء. فأبناء البادية يحتاجون إلى الأعمدة والأوتاد لخيامهم، وهم بحاجة إلى القسي والرماح والسهام لحماية أنفسهم، والاستفادة منها في الصيد. وأهل الحاضرة بحاجة إلى الأسقف الخشبية لبيوتهم والأبواب لدورهم، عدا ما يحتاجون إليه من أخشاب لإقامة الأسوار والجدران وطي الآبار. والمزارعون وأصحاب المياه بحاجة إلى أدوات الحراثة وما يستخدمونه منها من مصنوعات خشبية لرفع المياه من الآبار والأحواض.

وهناك معلومات قليلة متناثرة عن تطور المصنوعات الخشبية المتعددة في الإقليم الغربي للمملكة وغيرها من الأقاليم. فأدوات القتال المصنوعة من أنواع من الأشجار كانت تشتهر بها بعض القبائل، مثل قبيلة مزينة وبلحارث، حيث كانت تصنع القسي من شجر التالب. وفي العصر الإسلامي اشتهرت النبال اليثربية، وكان الحجاج بن يوسف يجهز الجيوش بها. وكان بعض الناس يجيدون بري النبال من شجر الرمان، مثل الشاعر العرجي بالطائف، وكان أنس بن مالك يجيد بري النبال، وعرف عن كُثَيِّر عزة أنه كان يتقن بري السهام.

وذكرت لنا المصادر بعض الأشجار التي كانت تستخدم في المصنوعات الخشبية، بعضها يجلب من الأقطار المجاورة والغالبية العظمى مما تنتجه البيئة؛ فقد استخدمت أخشاب العرعر والساج والأبنوس المعروف بالشيزى وخشب السمر الذي يقال إنه أجود أنواع الخشب، وكان يجلب إلى القرى، ومن الأشجار المعروفة بالحجاز التي يستخدم خشبها أشجار الشوحط والنشم.

ومن أشهر الصناعات الضرورية التي كان يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية القصاع والصحاف والجفان، وقد اشتهر أناس بصناعتها، ومن هؤلاء أبو رافع مولى الرسول ﷺ الذي كان يعمل عند العباس عم الرسول، وكان ينحت له الأقداح في حجرة زمزم بالمسجد الحرام قبل أن يكون مولى للرسول.

وفي المدينة المنورة صُنع للرسول منبر من الخشب يخطب عليه، وكان الرسول ﷺ يستخدم قدحاً من الخشب، وكان هذا القدح عند أنس بن مالك # بعد وفاة الرسول، فانصدع فشده أنس بفضة، وهذا يدل على وجود صناع يعتنون بإصلاح الأواني الخشبية التي يلحقها عطب. وعرفت المجمرة المصنوعة من الخشب في زمن الرسول ﷺ.

وكان للرسول محجن من خشب يعلق على ظهر البعير يستخدمه في ربط الأمتعة. كما استخدم عليه الصلاة والسلام الكرسي المصنوع من الخشب في بيته وفي المسجد.

واستمر استخدام المدقات والمهارس في العصر الإسلامي، وكانت تصنع من جذوع النخل.

وقد تطورت المصنوعات الخشبية في العصر الإسلامي، خاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان للنجارين حوانيت خاصة بهم، يعرضون فيها ما يصنعونه



قطعة من إطار خشبي من العصر العباسي عليها زخارف بارزة

من أثاث منزلي وأبواب وأوانٍ وغير ذلك من الأدوات.

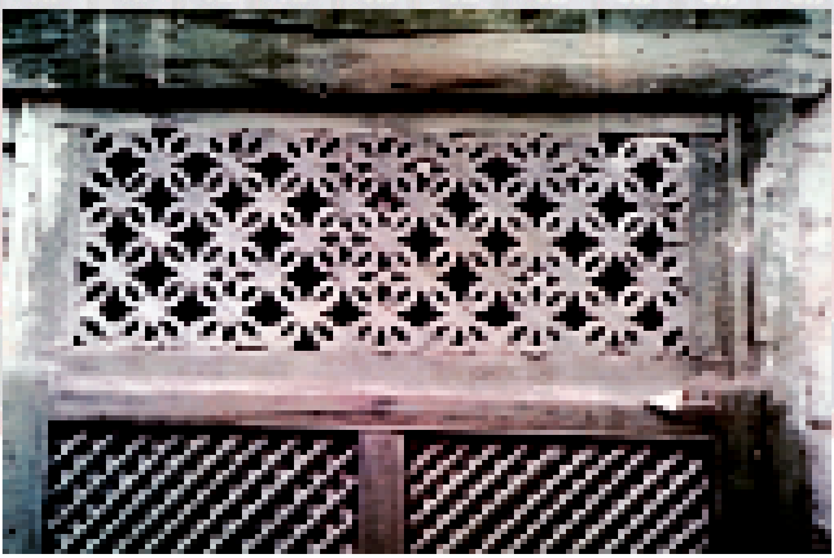
وكان بعض النجارين يستأجرون للعمل في بيوت الأثرياء، يُشترى لهم الخشب من السوق ومن ثم يصنعون ما يطلب منهم.

تطورت أدوات النجارة في العصر الإسلامي بسبب تعدد أنواع المصنوعات الخشبية. واستمرت هذه الأدوات وحرفة النجارة حتى الوقت الحاضر.

هذا وقد ازدهرت الصناعات الخشبية في العصر الإسلامي المبكر في المدن الإسلامية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، سواء ما كان داخل المباني الدينية من مساجد ومدارس، أو داخل القصور والمباني والخانات. وما زلنا نشاهد أمثلة من الصناعات الخشبية الراقية في المنشآت المعمارية وداخل المتاحف.

وفي الجزيرة العربية، لاسيما في المدن التاريخية، مثل مكة والمدينة والمدن الساحلية، شكلت المصنوعات الخشبية نسبة كبيرة من مواد البناء خاصة في صناعة الأبواب والنوافذ والأسقف الخشبية التي تمتاز بفن النحت والعناصر الزخرفية المعقدة والمشكلة من زخارف هندسية ونباتية.

وفي ضوء الحفائر الأثرية في المملكة العربية السعودية، نجد أمثلة من المصنوعات الخشبية المبكرة التي توضح



زخرفة خشبية على بعض النوافذ الخارجية لأحد المساكن من العصر العثماني



واجهة خزانة خشبية مزخرفة من منزل بفرسان

بدون شك تطور هذه الصناعة في العصور الأولى في الإسلام. ففي حفائر الربذة عُثر على أمثلة من المصنوعات الخشبية كأجزاء من صحاف وجفان خشبية عليها زخارف ورسوم ملونة وأدوات للغزل والنسيج ومحابر خشبية وأقلام للكتابة وسدادات قوارير وأمشاط خشبية متنوعة وأمثلة من إطارات خشبية عليها زخارف بارزة مكونة من أقراص وعناصر نباتية.

كما أوضحت الحفائر الأثرية في الربذة استخدام الأخشاب في مواد البناء أسقفاً للمنازل، كما استخدمت الأخشاب فواصل بين المداميك الجدارية لمقاومة تصدع الجدران بفعل الزلازل.



مقلمة من الخشب يعود تاريخها إلى القرن الثالث الهجري في موقع الربذة

التماثيل والمصنوعات الحجرية والرسوم

تعد التماثيل والمصنوعات الحجرية والرسوم الصخرية والجدارية ضرباً من الفنون ذات الأهمية الكبيرة في دراسة التراث الحضاري، بما تقدمه من مادة علمية تساعد على كتابة التاريخ. وفي الفصول التالية نتعرض لهذه المواد الثلاث التي كان لها شأن في عصر ما قبل الإسلام حيث عثر على الكثير منها، فأضافت معلومات جديدة ومهمة في هذه الحقبة التاريخية.

التماثيل

تدخل صناعة التماثيل ضمن الفنون الصغرى التي مارسها الإنسان منذ البدايات الأولى لظهور الحضارات الإنسانية في العالم القديم. وقد مر الجنس البشري بمراحل زمنية طويلة، عرفت عند الآثاريين بالعصور الحجرية -عصور ما قبل التاريخ- تمكن الإنسان خلالها من الارتقاء بمهاراته اليدوية والفكرية، مستثمراً الموارد الطبيعية التي وفرتها البيئات المتباينة التي عاش فيها. وفي العصر الحجري الوسيط، بدأ الإنسان يدرك أهمية القوى والظواهر الطبيعية التي تمس حياته اليومية، فعبر عن ذلك بالفنون التي كانت وسيلته الأولى لترجمة أفكاره ومشاعره إلى أشكال مرئية ومحسوسة. ومن الناحية الأخرى جسد الإنسان بهذه الفنون نمط حياته المعتمدة على صيد الحيوانات في المقام الأول، وعلى ما تجود به البيئة من مصادر غذائية أخرى.

وتشير الدراسات الأثرية، المبنية على نتائج الكربون C14، إلى أن الإنسان في أوروبا عرف صناعة التماثيل مع بداية الحضارة الأرقناسية (٣٠-٢٥ ألف ق.م) عندما بدأت ميوله الفنية تظهر بشكل واضح. وتعود إلى هذه الفترة العديد

من الأعمال الفنية المميزة، ولعل أبرزها تمثال صغير لامرأة ضخمة الأرداف عثر عليه في موقع فلندورف في النمسا. وقد ارتبط هذا التمثال من الناحية الفنية والمعنوية فيما بعد بعدة تماثيل نسائية أخرى عرفت بمجموعة فينوس، وجدت في مواقع متفرقة في كل من جنوب غرب فرنسا وإيطاليا وتشيكيا وسلوفاكيا. وعلى أي حال، لم تكن مجموعة فينوس هي الوحيدة، بل كشف عن حوالي ستين تمثالاً آدمياً في مواقع مختلفة في أوروبا، مما يشير إلى بداية انتعاش صناعة التماثيل وانتشارها في أوروبا خلال فترة الحضارة الأرقناسية والماجدلينية.

أما التماثيل الحيوانية، فعلى الرغم من قلة ما كشف منها حتى الآن، فإنها جاءت معبرة، لأنها تصور من ناحية طبيعة السلالات الحيوانية في العصور القديمة، ومن الناحية الأخرى توضح مدى الانتشار الجغرافي الذي عاشت فيه، وهذا مما يساعد الباحثين على تصور طبيعة البيئات القديمة.

استخدم الإنسان في تلك الفترة أكثر من خامة في صناعة التماثيل، وكان العاج الخام الأكثر شيوعاً، وكذا الطين الممزوج بطحين المواد العظمية، وكذلك الحجارة السهلة التشكيل.

أما في الشرق الأدنى القديم، وعلى الرغم من إسهاماته في الحضارة الإنسانية، فإن بواكير صناعة التماثيل تأخرت عن بداية صناعة التماثيل في أوروبا. ففي وادي الرافدين، وبناءً على الأدلة المتوافرة حالياً، فإن بداية صناعة التماثيل تعود إلى أوائل الألف السادس قبل الميلاد، حيث كشف عن العديد من التماثيل الآدمية الطينية في كل من منطقتي الصوان وأريدو. وأشارت الدراسات المتعلقة بنماذج مشابهة لمثل هذه التماثيل إلى أنها ليست لعب أطفال كما كان يعتقد سابقاً، بل تحمل مفاهيم دينية تتعلق بالتكاثر والإخصاب، خاصة مجموعة التماثيل النسائية التي تظهر المرأة ضخمة الصدر والأرداف.

أما في وادي النيل، فإن فترة ما قبل الأسرات تعد المرحلة الأولى لتطور الفنون، حيث شهدت حقبة البداري (حوالي ٦١٠٠-٥٦٠٠ق.م) تطوراً واضحاً في الفنون المنقولة، وقد جاءت من مواقع تلك الحضارة دمى وتماثيل من الطين والعاج لأشكال بشرية وحيوانية. وفي الحقبة التالية التي سميت (نقادة -١) حوالي ٥٨٠٠-٥٥٠٠ق.م، تطورت الفنون لتشمل، إلى جانب الدمى البشرية والحيوانية،

أنواعاً مختلفة من الحلي وأدوات الزينة والذهب والصدف. كما زين فخار تلك الفترة برسومات من واقع حياتهم. إلا أن مرحلة انتشار الفنون في مصر تبلورت في حقبة (نقادة -٢) ٥٥٠٠- ٥٠٠٠ق.م، لتسود الفنون الصخرية في صعيد مصر والصحراء الشرقية.

والواقع أن الحديث عن صناعة التماثيل في عصر الممالك العربية، يقودنا إلى الحديث أولاً عن المشاكل التي تواجه الباحث في تاريخ الفنون العربية القديمة، سواء فنون ما قبل التاريخ أو فنون العصور التاريخية. ففي الوقت الذي يواجه فيه الباحث النقص الكبير في الدراسات المتخصصة لفنون ما قبل التاريخ، يصطدم بمشكلة مزمنة أخرى وهي عدم اتفاق الباحثين في آثار الجزيرة العربية على تسلسل زمني مؤكد للممالك العربية التي عاشت في أرجاء الجزيرة العربية، خاصة الممالك الجنوبية وهي: سبأ ومعين وحضرموت وقتبان وأوسان. ومن الناحية الأخرى فإن أغلب الأعمال النحتية المنشورة في التقارير الأثرية جاءت إما من مواقع غير معروفة كلياً، أو من مواقع معروفة ولكنها غير مدروسة بشكل علمي.

ومع ذلك، يمكن القول إن إنتاج الممالك العربية القديمة من التماثيل يضاهي كثرة إنتاج أعرق حضارات الشرق الأدنى القديم. وهذا راجع إلى عدة أسباب لعل أبرزها هيمنة التأثير الديني الوثني الذي كان حافزاً قوياً لإنتاج التماثيل لتقديمها إما نذوراً أو هدايا لمعبوداتهم الرئيسية، وبذلك توضع في المعابد لتمثل حضور الشخص المتعبد أثناء حياته. وقد تصنع التماثيل أو رؤوس التماثيل لأسباب دينية أخرى ترتبط بالشعائر الجنائزية، ولذلك تدفن مع الموتى لاعتقادهم بوجود حياة أخرى.

ولم يقتصر دور التأثير الديني الوثني على إنتاج التماثيل فحسب، بل تعدى ذلك إلى الملامح الفنية والأسلوبية. فنجد أن الفنان العربي قد تأثر بنزعة الفنان الشرقي في إنتاج تماثيل تحاكي هيئة الإنسان الممتثل والخاشع لمعبوده، ويمكن ملاحظة ذلك على وضع الأيدي في التماثيل الجنوبية، التي تصمم في أغلب الأحيان وأياديها ممتدة إلى الأمام في وضع تعبدي.

ومن الناحية الأخرى كان للمبادلات التجارية الدولية التي اشتهر بها العرب أثر على الفنون العربية القديمة بشكل عام، وقد جاء هذا التأثير متفاوتاً على الممالك العربية بناءً على المتغيرات السياسية التي طرأت على المنطقة منذ حوالي القرن



صورة أسد منقوشة على قطعة من الحجر الصابوني – تاروت

الثالث ق.م، عندما آلت تدريجياً أجزاء كبيرة من الشرق الأدنى لسيطرة الإسكندر المقدوني. وكان الأنباط من أكثر العرب تأثراً بالتقاليد الفنية اليونانية والرومانية لعدة اعتبارات، لعل من أهمها قرب المناطق الجغرافية التي كان يعيش فيها الأنباط من مراكز الدولة السلوقية في بلاد الشام، وكذلك طبيعة النشاط التجاري الذي تميز به الأنباط، مما جعلهم في تواصل حضاري مستمر مع أغلب المراكز الاستيطانية المطلة على البحر المتوسط. وقد ترتب على ذلك ظهور الفنون النبطية بأنواعها المعمارية وأعمال النحت الصغرى كفنون رفيعة المستوى، تعكس قدرة الفنان النبطي، ليس فقط على استيعاب العناصر الفنية اليونانية وما تتطلبه من تقنية عالية، بل دمج هذه العناصر الفنية مع الفنون المحلية التي كان من حصيلتها ظهور نماذج فنية راقية تتميز بواقعية الفنون الهلنيستية وجمالها.

التماثيل الحجرية. تعد الخامات الحجرية منذ العصور الحجرية المصدر الرئيسي لصنع أدوات الإنسان وأسلحته. ولما تتميز به الجزيرة العربية من تنوع كبير في خاماتها الحجرية، فإنها أتاحت للفنان العربي انتقاء الخامات السهلة التشكيل. ويمكن القول إن الحجر الجيري والرخام كانا من أكثر أنواع الخامات الحجرية استخداماً في فنون الجزيرة العربية. ومع ذلك فهناك أنواع أخرى من الخامات ساد استخدامها في مناطق معينة. ونذكر على سبيل المثال استخدام



تمثال لحياني مصنوع من الحجر الرملي، عثر عليه في معبد فوق جبل أم درج – العلا



تمثال رخامي يصور شخصاً في وضع تعبد جنوب الجزيرة العربية

الحجر الرملي الأحمر في المواقع الأثرية التي ظهرت في واحة العلا وحواضرها.

استحدث العرب قبل الإسلام أكثر من نموذج من التماثيل الحجرية الآدمية ولكنها اختلفت من حيث الأسلوب والخصائص الفنية؛ تارة لأسباب تتعلق بالوظيفة التي صنع من أجلها التمثال، وأخرى للتأثيرات المحلية والاقتصادية التي شهدتها أقاليم الجزيرة العربية. ففي جنوب الجزيرة كان هناك نوعان أساسيان من التماثيل الحجرية مثَّل أحدهما النموذج التقليدي والمحلي في الوقت نفسه، وقد اكتسب هذا النوع أسلوبه الفني وحافظ عليه بفعل العامل الديني. ولعل أهم المميزات الفنية لهذا النوع تتمثل في صغر حجم التمثال، حيث يبلغ طوله تقريباً حوالي المتر، مع التركيز على الرأس وتفاصيله خاصة الأمامية. وفي أغلب الأحيان تُقطع هامة الرأس بشكل مستوٍ وتكون محدودة الوضع والحركة، إذ تنحت معظم التماثيل إما واقفة أو

جالسة. في حين تظهر الأيدي ممتدة إلى الأمام، وهي وقفة تتميز بها التماثيل الجنوبية في الجزيرة العربية، وبالإضافة إلى ذلك تبدو كثرة الزوايا في التمثال، وهذا ناتج في الأصل عن اتباع الفنان للأسلوب التخطيطي في المراحل الأولية لصناعة التمثال.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيراً من نوعية هذه التماثيل يكتب عليها اسم صاحب التمثال، مما يؤكد وظيفتها الدينية كنذور تقدم إلى معبوداتهم الرئيسية. وقد ارتبطت هذه النوعية من



رأس تمثال رخامي - جنوب الجزيرة العربية

التماثيل بالمعابد والمقابر. واتخاذ الفنان الجنوبي هذا النمط من التماثيل لا يعني بأي حال من الأحوال عجزه عن نحت التماثيل بواقعية، وقد أثبت الفنان الجنوبي موهبته ومهارته العالية في مجال الفنون المعمارية وما تحتويه من عناصر زخرفية في غاية الجمال والدقة. ولكن يبدو أنه توارث هذا النمط، واستمر في تقليده اعتقاداً بأنه النمط المناسب لخدمة الهدف الديني الذي صنعت من أجله هذه التماثيل. وللأسباب الدينية نفسها، اشتهرت الممالك العربية الجنوبية بغزارة إنتاج رؤوس التماثيل الآدمية الحجرية، حيث ركز النحات في أغلب الأحيان على ملامح الوجه فقط تاركاً الأجزاء الخلفية والجانبية غير مشغولة.

وتعكس صناعة هذه التماثيل طبيعة الوضع الاقتصادي للممالك الجنوبية وعلاقتها التجارية المستمرة بالمراكز الحضارية اليونانية والرومانية المنتشرة في بلاد الشام؛ ذلك أن بعض الأعمال الفنية الجنوبية ومنها التماثيل الحجرية وقعت تحت تأثير المدارس الفنية اليونانية وما تمتاز به من الواقعية والحركة. ولا يستبعد أن بعض التماثيل الجنوبية ذات الطابع الهلينستي كانت تباع ضمن

بضائع أخرى في الموانئ العربية الجنوبية، خاصة مع ازدهار الخط التجاري البحري في القرون الميلادية الأولى عندما بدأت السفن الرومانية تبحر بشكل مباشر من أعالي البحر الأحمر إلى باب المندب.

التماثيل الفخارية. على الرغم من تنوع الصناعات الفخارية في حضارات الجزيرة العربية، إلا أن صناعة التماثيل الفخارية، سواء الآدمية أو الحيوانية منها جاءت متواضعة وقليلة، خاصة إذا قورنت بأعداد التماثيل المصنوعة من الخامات الأخرى. وربما يعود هذا الأمر إلى عدة أسباب لعل من أهمها، أن الفخار من المواد السهلة التلف والاندثار، هذا وقد اهتم الإنسان في الجزيرة العربية بصنع معبوداته من مواد صلبة، غير قابلة للتلف، لتبقى فترة طويلة، لذلك اتجه إلى صناعة التماثيل من الحجر والمعادن. أما الطين الفخار فقد استخدم على نطاق ضيق وصنعت منه الدمى الدينية الصغيرة الحجم.

ويمكن القول إن معرفتنا بأنواع التماثيل الفخارية القديمة وأساليبها ما تزال في أطوارها الأولى، ربما لقلة الحفريات الأثرية من ناحية، وقلة التماثيل المكتشفة من ناحية أخرى. كما تجدر الإشارة إلى أن أغلب تلك التماثيل المنشورة في التقارير الأثرية جاءت من مواقع أثرية مجهولة.

وقد حفظت لنا الأبحاث الأثرية التي أجريت أكثر من نوع من التماثيل الفخارية الآدمية والحيوانية. أما الآدمية، فهي في أغلب الأحيان بدائية من حيث الشكل والتقنية. وعلى الرغم من تنوع أشكالها وعناصرها الزخرفية فإنها



تمثال من الفخار – اليمن

تشترك في بعض الخصائص الفنية والأسلوبية العامة، إذ يتسم أغلبها بأشكالها الأسطوانية المصمتة، وبعضها يحتوي على قواعد دائرية الشكل. أما الأيدي فقد شكلت بصورة أولية على هيئة بروز مثلث الشكل تقريباً ومسحوبٍ إلى الخارج على جانبي الجسم دون التعرض لإظهار تفاصيل الأيدي.

وقد عثر في جنوب الجزيرة العربية على عددٍ من هذه الأعمال الفخارية. وتوصلت دراسة مثل هذه التماثيل إلى أنها ليست لعب أطفال، كما كان يعتقد بعض الدارسين، بل إنها صنعت لأغراض دينية، إذ كانت تقدم إما كنذور لمعبوداتهم مثل عثر وغيره من معبودات الجنوب، أو ربما استخدمت كتعويذة، خاصة تلك النماذج الفخارية التي تحتوي على ثقوب صغيرة على الجانبين. كما يرى بعض الباحثين أن هناك أنواعاً من هذه التماثيل الفخارية لها أهمية تتعلق بالإخصاب والتكاثر.

وقد حفظت التقارير الأثرية بعض النماذج من التماثيل الفخارية الآدمية والحيوانية، خاصة تماثيل الجمال، التي كشف عنها في قرية الفاو، وشرق الجزيرة



تمثال لامرأة – ثاج – المنطقة الشرقية

العربية في موقع ثاج وفي حفريات دومة الجندل.

أمّا تحديد تاريخ لمثل هذه التقاليد الفنية، فإن الباحث الألماني راثجنز Rathjens حاول تحديد تاريخ مجموعته بالفترة الواقعة ما بين الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، إذ قارن مجموعته مع التماثيل السومرية والآشورية في حين يرى آخرون أن مجموعة راثجنز من العصر الحديدي (١٢٠٠ق.م-٩٠٠ق.م). ولكن لا يمكن تحديد تاريخ هذه الأعمال الفنية بشكل مؤكد إلاّ بإجراء حفريات علمية. أما ما وجد في قرية الفاو فإن تواريخه تتراوح بين القرن الثالث ق.م والثالث الميلادي، وما وجد في شرق الجزيرة العربية فإنه من عصر الممالك العربية الوسطى. أما تلك التي وجدت في دومة الجندل فمن العصر النبطي (القرن الأول ق.م-القرن الثاني الميلادي).

التماثيل المعدنية. تعد التماثيل المعدنية وما تتطلبه من تقنية ومهارة عالية في فن الصناعة، من المعايير الرئيسية لقياس رقي الفنون والحضارات المنتجة لها. وعلى الرغم من تواضع معرفتنا بمراكز التعدين القديمة التي استخدمها العرب قبل الإسلام في صناعاتهم المعدنية، فإنهم تركوا لنا نماذج رائعة من الصناعات المعدنية، سواء من التماثيل الآدمية والحيوانية، أم من المشغولات المتنوعة، مثل الحلي النسائية كالأساور والأقراط والخواتم، والصناعات المعدنية الأخرى.

ويمكن القول إن صناعة التماثيل المعدنية جاءت أكثر تطوراً من صناعة الفنون الصغرى الأخرى، سواء من ناحية الأسلوب أم الموضوع. فمن ناحية الأسلوب يلاحظ اختلاف التماثيل المعدنية عن الحجرية من حيث إنها أكثر واقعية ودقة على الرغم من صغر أحجامها. كما أن الفنان تمكن من استيعاب التقنيات المتعلقة بصناعتها حين استخدم تقنية التماثيل المفرغة التي تحتاج إلى استعمال الشمع والقوالب. كما تحرر الفنان من الشكل التخطيطي الذي كان يلازمه في صناعة التماثيل الحجرية.

وأما من ناحية الموضوع الزخرفي، فنجد تنوعاً كبيراً لهذا النوع من الصناعات، إذ تعددت الأوضاع التي صورت فيها التماثيل الآدمية، وتحررت بشكل ملحوظ من الأوضاع التقليدية التي نراها بشكل متكرر في التماثيل الحجرية التي تظهر الإنسان إما واقفاً والأيدي ممتدة إلى الأمام، وإما جالساً والأيدي في الأوضاع التعبدية نفسها للتماثيل الواقفة. ولذلك يمكن القول إن التماثيل المعدنية العربية، خاصة تلك التي اكتشفت في الأجزاء الجنوبية والوسطى من الجزيرة العربية، جاءت أكثر واقعية وحيوية من التماثيل الحجرية التي عثر عليها في المناطق نفسها. ولا شك أن موقع الجزيرة العربية بين الحضارات القديمة ودورها التجاري جعل منها ممراً حضارياً تأثرت نتيجة له فنونها المعدنية المتأخرة بالتيارات الفنية اليونانية والرومانية.

وقد حفظت لنا التقارير الأثرية المنشورة العديد من النماذج الفنية الراقية. ونذكر منها على سبيل المثال التمثال البرونزي الذي كشف عنه في معبد سبأ، ويمثل رجلاً واقفاً يرتدي الوزرة الجنوبية التقليدية ويلبس قطعة من جلد نمر على ظهره. أما الأيدي والأرجل فقد شكلت

على نحو رائع يعكس قـدرة الفنان على تشكيل الأشخاص في وضع مفعم بالحركة والحيوية. ويبدو أن اليد اليمنى كانت تحمل شيئاً، ربما كان صولجاناً أو عصا. ويذكر النقش الموجود على رقبة هذا التمثال أنه قدم كنذر مـن شخص عرف باسم معد كرب إلى المـعبود السبـئي ألمقه. وتجـدر الإشارة إلى أن هذا العمل الفني أرخ له بالقرن الثامن أو السابع قبل الميلاد.

ومن الأعمال البرونزية المميزة تمثال يصور سيدة جالسة عرفت باسم برعت، كشف عنه في البوابة الجنوبية لموقع تمنع عاصمة مملكة قتبان، ويعـود تاريخ هذا التمثال إلـى القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد.

وبالإضافة إلى ما سبق تحتوي التقارير والأبحاث الأثرية على العديد من التماثيل المعدنية الـتي لم تقتصر علـى الأشكال الآدمية وحدها، بل تضم أنواعاً متعددة من الحيوانـات التي كانت موجودة فـي الجزيرة العربـية، مثل الجمال والغزلان والأسود والـثيران والخيـل والثعـابين.



تمثال من البرونز يصور رجلاً واقفاً يرتدي وزرة
معبد سبأ – اليمن



تمثال من البرونز يصور امرأة جالسة
موقع تمنع – اليمن

ولاشك أن لبعض هذه الكائنات مدلولات دينية عند سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام.

المصنوعات الحجرية

يعتمد تقسيم العصور الحجرية على ما طرأ على الأداة الحجرية من تطور، سواء في الصناعة أم في الاستخدام. واقتصرت تقنيات الأدوات الحجرية خلال تلك العصور على ما يرضي الحاجة ويلبي الطلب، فانحصرت في صناعة مكاشط وشفرات وشظايا مشذبة الحواف ومثاقب وبلطات ومدقات.

وخلال العصر الحجري الحديث ظهرت بوادر رقي التقنية وتخصص الأداء الوظيفي، فظهرت الأدوات الدقيقة وامتازت بما يعرف بنصال السهام والحراب وغيرها.

ومنذ بداية الألف السابع قبل الميلاد بدأ الإنسان يميل إلى حياة الاستقرار في أماكن متفرقة من منطقة الشرق الأدنى، معتمداً على إنجازات حضارية لم يعهدها من قبل. وقد تركزت تلك الإنجازات في استئناس بعض الحيوانات كالماعز والخنزير والضأن والكلاب وغيرها، وتوطين بعض النباتات كالقمح والشعير. وصاحب ذلك توسع في صناعة أدوات تلبي مقتضيات الحياة الجديدة، فظهر المنجل والمسحاة والمحراث ومن ثم الرحى، وهي أدوات هيأها الإنسان من أحجار الصخور المتاحة في بيئته وقد دعته إليها الحاجة وأملتها عليه الظروف.

وقد عرف الإنسان أهمية الحجر في تلبية الكثير من متطلبات حياته منذ أزمان سحيقة. بدأها باستعماله سلاحاً للدفاع عن نفسه، ثم أداة لذبح صيده وتقطيعه. واستخدمت واجهات الكثير من الصخور سجلاً دون الإنسان عليها، بالرسوم والصور، العديد من نشاطاته. وفي العصور التاريخية ابتُكرت المسلاَّت وهي عمود طويل منحوت من الصخر يسجل على إحدى واجهاته أخبار الانتصارات العسكرية أو القرابين الدينية، وغالباً ما يقام في ساحات المعابد.

بدأت بواكير التجمعات البشرية المنظمة تحتل مكاناً بارزاً في مسارها التاريخي منذ الألف الثاني قبل الميلاد، حيث بلغت فيه مرحلة النضج فيما اصطلح على تسميته حضارياً بفترة الممالك العربية. وخلال تلك الفترة ازدهرت الصناعات وتطورت الحرف وبرز مفهوم التخصص المهني في مختلف

الحرف. ولم تكن صناعة الأدوات الحجرية بمعزلٍ عن تلك الانطلاقة، إذ كشفت لنا التنقيبات الأثرية التي أجريت في الجزيرة العربية إجمالاً -أو في المملكة بصفة خاصة- عن الكثير من الأدوات الحجرية التي صنعت من أنواع مختلفة من الصخور، أهمها حجر البازلت والحجر الصابوني.

الأدوات الحجرية. وتأتي في مقدمتها الرحى، وتتكون الرحى من جزءين رئيسيين يشذبان من الصخر على شكل دائري بقطر ٥٠سم، قد تزيد وقد تنقص حسب الحاجة، ويتوسطهما فتحة دائرية لإدخال الحبوب المراد طحنها تسمى لهاة ويكون الطحن بأن تدار الطبقة العليا، ويكبّ الحب في اللهاة شيئاً فشيئا فيعمل ثقل الحجر وما فيه من ندوب على سحق الحبوب، وتعتمد درجة السحق على ارتفاع الطبقة العليا، فإن كانت مرتفعة جرشت الحبوب جرشا، وإن كانت منخفضة دقت الحبوب دقيقا، ويخرج الجريش أو الدقيق من بين جوانب الرحى بدفع بعضه بعضا ويتجمع في حوض يحيط بالرحى أو على فراش.

ولأهمية الرحى، تخصص أناس بإصلاح الحجر لتحويله إلى أداة صالحة لطحن الحبوب أو لاستخلاص الزيوت. وليس يصلح كل حجر لأن يكون رحى، ولهذا فعلى الخبير بالصنعة اختيار الحجر الصالح من الخام المناسب، وتهيئته ليكتسب الاستدارة ثم عليه عمل فتحة إدخال الحبوب ونقرة الرائد الذي تدار به وغير ذلك مما يتعلق بهذا العمل.



جزء من رحى كبيرة – موقع ضَنْكَان

وتكون بعض الرحي كبيرة ثقيلة ذات قطر واسع، وتستخدم في طحن بعض المواد الصلبة كمعاصر استخلاص الزيوت. وتستخدم الحيوانات كالثيران والجمال والحمير لإدارة مثل هذه الرحى. وقد عُثر على أنماط منها في جرش والأضواء في نجران وأماكن أخرى، وهي من الكبر والثقل بحيث يعد نقلها من مكان إلى آخر أمراً شاقاً جداً.

وتعد الرحى إنجازاً حضارياً في فكرتها وصناعتها ووظيفتها، وهي دليل واضح على التطور التقني في مجال الصناعة إبان عصر الممالك العربية.

ولم يقتصر إنتاج الرحى على تلبية احتياجات المنازل بل امتد ليشمل قطاعات اقتصادية أخرى، أهمها



رحى منزلية مصنوعة من الحجر – موقع قرية الفاو

العصارة والطّحانة. والطحانة حرفة مورست في الجزيرة العربية منذ العصور القديمة، وقد عثر على شواهد من ذلك في حفريات قرية الفاو، إذ كشفت الحفريات التي أجريت بها عن وجود أماكن كثيرة تحتوي على مطاحن متنوعة وبجوارها مخازن للحبوب وأخرى للدقيق.

ومن الأدوات الحجرية المرهكة وهي مشتقة من رهك الشيء رهكاً إذا سحقه سحقاً شديداً. وفي لسان العرب: رهكه يرهكه رهكا: جرشه بين حجرين. وتستخدم المرهكة لطحن الحبوب، وتتكون من قطعة حجرية، غالباً ما تكون مستطيلة بتجويف بسيط في سطحها العلوي، تجرش عليها الحبوب بأداة أسطوانية تشبه يد الهاون تمرر جيئة وذهاباً، ويطلق عليها المسحقة.

ومن الأدوات الحجرية أيضاً معاصر السمسم التي تديرها الحيوانات. وكذلك المهاريس والهرس الدق، ومنه الهريسة. وهرس الشيء يهرسه هرساً: دقه وكسره. والمهراس الآلة التي يهرس بها وتسمى أيضاً المنجار، وهي أداة حجرية مجوفة مستديرة الفتحة عمودية على شكل أسطواني، وتسمى الهاون، واللفظ



معصرة سمسم حجرية في نجران

فارسي معرب. ويوضع داخل الهاون الشيء المراد هرسه ويدق بأداة يطلق عليها يد الهاون، وهي من خامة المهراس الحجرية نفسها.

ومن الأدوات الحجرية المجامر ومفردها مجمرة وهي أداة يوضع بها الجمر والعود أو الدخون. وقد وجدت المجامر في كافة الحفريات التي أجريت في المواقع الأثرية في الجزيرة العربية. ولم يكن وجودها نادراً؛ فقد عثر عليها بأعداد كبيرة وأشكال متنوعة، منها الكبير الثابت ومنها الصغير المتنقل، ومنها ثلاثي القوائم أو رباعيها أو بلا قوائم.

ولأهمية المجامر وجد على بعضها كتابات بخط المسند تحمل سطورها عبارات تقديسية وأدعية تعبدية، إضافة إلى ذكر بعض أنواع الدخون المستعمل كالرند. ولم يقتصر استعمال المجامر على الطقوس التعبدية والجنائزية فقط، بل وجد الكثير منها يستعمل لأمور دنيوية، وقد عثر على أنواع كثيرة من المجامر من حفرية قرية الفاو وهي تمثل كافة المراحل التاريخية التي عاشتها المدينة.

والمساحن من الأدوات الحجرية وهي أداة إما كروية أو بيضية بحجم راحة اليد، وتكون ناعمة الملمس، وتستخدم لسحن المواد الخشنة المراد دقها وسحنها للاستعمالات الطبية أو التجميلية، كالكحل والنشوق وما إلى ذلك. وقد عثر على مساحن متنوعة في حفرية قرية الفاو والربذة وغيرها من أماكن التنقيبات الأثرية في المملكة. وليس هناك ما يؤكد تصنيعها ولكنها توجد بكثرة مهيأة طبيعياً، لا سيما على حواف الأودية التي تخترقها السيول بين آونة وأخرى.

وهناك أحجار لها خاصية السَّن، تُشحذ بها القواطع المعدنية كالسكاكين وما شابهها، ولاتزال تؤدي الغرض نفسه حتى اليوم.

الأواني الحجرية. على الرغم من شيوع استعمالات الفخار للأواني المتعلقة بالطبخ والأكل والشرب والتخزين والحياة اليومية بشكل عام، فإن ذلك لم يقلل من أهمية استعمال الآنية المصنعة من الحجر، لا سيما الحجر الصابوني. وربما يعزى ذلك إلى انصراف أذواق الطبقات الثرية والمتوسطة عن أواني الفخار إلى أواني الحجر، إيثاراً لمتانتها. وقد اكتسب صناعها خبرة وافية فصنعوها بوفرة وإتقان. ولم تكن الأواني الحجرية بحاجة إلى التحلية بالرسوم، بل تكفيها جودة الأحجار ودقة الصقل وسلامة الذوق. وقد صنعت من الأحجار الدقيقة الحبيبات ذات التموجات المتعددة الألوان، وشكلت على هيئات أسطوانية وشبه بيضية وشبه كروية.

وشيوع الأواني الحجرية في الجزيرة العربية يحملنا إلى المحاجر التي يستخرج منها خام تلك المصنوعات، وكان من أشهرها معدن البُرْم، قرية بين مكة والطائف. والبُرْمة جمعها بُرْم وبُرَم وبرام، وهي قدور تصنع من حجر صلد قوي يستخرج من موضع يسمى المعدي لايبعد كثيراً عن الطائف. ويوجد الحجر الصابوني بوفرة في أماكن متفرقة من المملكة العربية السعودية، منها منطقة الدوادمي والطائف وحجلة قرب أبها وظهران الجنوب، وهو على شكل صخور أو كتل صخرية في طبقات الأرض.

أما القدور فتصنع من خام الحجر الصابوني، ومادته كما ذكرنا متوافرة في معظم أنحاء الجزيرة العربية. ويمتاز الحجر الصابوني بليونته وسهولة تشكيله أثناء تصنيعه، ثم بصلابته ومتانته بعد تصنيعه.

وتختلف القدور من حيث الحجم والشكل باختلاف الغرض الذي صنعت من أجله. والقدر تطلق على إناء الطبخ من معدن أو فخار أو حجر، ولذا فقد ميزت قدور الطبخ الحجرية باسم البرم، وقد شاعت صناعتها في مختلف



قدر من الحجر الصابوني من فترة ما قبل الإسلام
موقع الفاو

الحواضر إبان عصر الممالك العربية. وعثر على نوعيات مختلفة من القدور في الحفريات التي قامت بها البعثة الأمريكية في اليمن في بداية الخمسينيات من هذا القرن، لا سيما في مدينة تمنع. وقد كشف عن نوعيات مشابهة في كل من قرية الفاو وجرش والأخدود في نجران وتيماء وثاج. ومن الملاحظ أن بعض من قدور الحجر الصابوني يمكن إصلاحها وجبرها إذا تعرضت لكسر أو شرخ، مما يوحي بارتفاع أسعارها وندرة محترفي صناعتها.

وهناك أوانٍ حجرية ثابتة لا تنتقل من مكان صناعتها إلا بصعوبة بالغة، كأحواض المياه التي تنتشر في الفاو، ويبلغ حجم بعضها ٢٠٠×١٠٠سم بسماكة تصل إلى ١٥سم وعمق قد يبلغ ١٠٠سم، في حين توجد أوان لحفظ المياه يستحيل نقلها من مكان تصنيعها، مثل محلب الناقة في موقع الخريبة بمنطقة العلا.

ومن الأواني الحجرية كاسات صنعت من الحجر الرملي وجد بعض منها في حفريات الحجر التي قامت بها إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، وفي منطقة



حوض من الحجر، اشتهر بمحلب الناقة في موقع الخريبة – منطقة العلا

الظهران عثر على فنجان وإبريق من الحجر الصابوني عليهما زخارف هندسية غائرة.

ولعل محتويات متحف قسم الآثار والمتاحف بكلية الأداب بجامعة الملك سعود خير شاهد لإعطاء صورة واضحة عن مدى تطور صناعة الأواني الحجرية خلال عصر الممالك العربية، لاسيما تلك النماذج التي عثر عليها في قرية الفاو. فقد اشتملت بالإضافة إلى القدور والكاسات وكؤوس الشرب على أوان أخرى أدق في صناعتها وأجمل في أشكالها، كالمكاحل والمسارج والمجسمات الآدمية والحيوانية.



إناء من الحجر الجيري (قرية الفاو)

المصنوعات الحجرية في العصر الإسلامي. وهي امتداد للمصنوعات الحجرية التي عرفتها الجزيرة العربية قبل الإسلام، غير أنها تطورت مع تطور الفنون والصناعات الأخرى نتيجة للنمو الحضاري الذي شهدته الجزيرة العربية.

فبالإضافة إلى قطع الصخور الرملية والجرانيتية والرخامية وتسويتها لأغراض بناء المنازل والقصور والحصون والمساجد وتشييد السدود والأسوار وحفر الآبار وغيرها، كان من الصناع من يتقن قطع الأحجار وتهذيبها للكتابة عليها، سواء كانت كتابة نقوش شاهدية أم نقوش تذكارية تؤرخ للمباني العامة التي كان يقيمها الخلفاء والسلاطين وغيرهم. ومنذ بداية العصر الإسلامي كانت هناك مصنوعات حجرية متنوعة استعملها المسلمون في حياتهم اليومية. وكانت لها أسماء معروفة ومذكورة في المصادر الأدبية، ومنها على سبيل المثال: القصعة والقدح والمغتسل والصاع والتور والمخضب والأرحية والمساحن والأنابيب الحجرية والسواني والأحواض الحجرية أي القراوة ونحو ذلك.

ونتيجة لتطور بناء المدن الإسلامية والمنازل والمحطات والموانئ تطورت صناعة الأواني الحجرية، وعلى وجه الخصوص تلك المصنوعة من الحجر الصابوني.

وازدهرت المصنوعات الحجرية وتزامنت مع تطور الصناعات الفخارية والخزفية بل فاقتها في قوة التحمل وطول أمد الاستخدام، فضلاً عن أن بعضها حظي بزخارف بديعة.

وقد اشتهرت بعض المناطق في مختلف أرجاء الجزيرة العربية بوجود معادن ومراكز لصناعة أواني الحجر الصابوني، خاصة في الحجاز وتهامة وعسير. وعلى سبيل المثال يذكر الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أن الحوراء قرية عامرة وأهلها أشراف وعندهم معدن يقطعون فيه الأبارم ومنها يتجهز بها إلى سائر الأقطار. وبالقرب من الطائف موضع يقال له معدن البرام، ذكر الحربي في كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة أنه هو الموضع الذي تعمل فيه البرام تنحت من جبل عظيم. وجاءت المسوحات الأثرية في المملكة مؤكدة وجود محاجر متنوعة، خاصة محاجر الحجر الصابوني. وعلى سبيل المثال محاجر شرق أملج وموقع وضاخ وقرية غرابة. وقد أسفرت المسوحات والاكتشافات الأثرية على امتداد طرق الحج وفي عدد من المواقع الأثرية عن العثور



إناء من الحجر الصابوني، يعود تاريخه إلى العصر العباسي موقع الربذة

على أصناف عديدة من كسر الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني، وهي أجزاء من قدور للطبخ وأطباق ومسارج. ومن المواقع التي أمدتنا بعينات من هذه المصنوعات: زبالة وفيد وسميراء ومعدن النقرة والربذة والمابيات وعثّر والرغيب في الخرج وموقع الحائر بالقرب من المنصورية، وغير ذلك من المواقع الكثيرة.

وقد أمدتنا الحفريات الأثرية في الرَّبَذة بأصناف كثيرة من أواني الحجر الصابوني التي كانت تصنَّع في الموقع نفسه، حيث عثر على قطع تالفة أو غير مكتملة بالإضافة إلى وجود منجم للحجر الصابوني بالقرب من الموقع. ومن الأواني المكتشفة في الرَّبَذة مسارج بأحجام وأشكال مختلفة، منها ما هو على شكل قارب ومنها ما صنع على هيئة أشكال نجميَّة أو فتحات إشعاعية، وهناك أوان وقدور للطبخ ومكاييل وأوزان وبوتقات وسدادات وأغطية وأحجار مصنَّعة للتسلية وأدوات زينة كالدلايات وغيرها ومجامر وأختام.

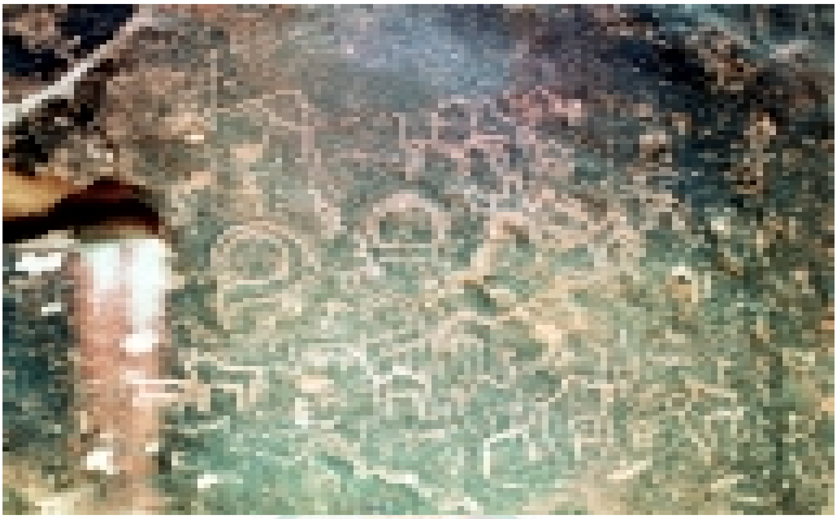
وظهرت على بعض الأواني أشكال زخرفية هندسية بديعة تدل على الذوق الرفيع الذي كان يتمتع به الصانع في العصر الإسلامي المبكر.

الرسوم

تعد الرسوم بنوعيها الصخرية والجدارية من الفنون التي تلقي الضوء على تاريخ الحضارات القديمة، إذ رسم الإنسان القديم وحفر على جدران كهوفه ومنازله وبأدواته البدائية مناظر عديدة تمثل صوراً من حياته، في صيده وفي صراعه مع الحيوان من أجل الحياة.

وقد حفرت هذه المناظر أو رسمت بطريقة بدائية تعبر عن تلك الفترة القديمة التي عاشها الإنسان. وعثر في المملكة العربية السعودية على رسوم صخرية وجدارية في أماكن مختلفة، ألقت الضوء على مزيد من حضارة الإنسان القديمة. وفيما يلي عرض موجز لهذه الرسوم.

الرسوم الصخرية. الرسوم الصخرية أحد المصادر الأساسية لدراسة حضارات ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية. إذ هي سجل مصورٌ يحمل في ثناياه معلومات كثيرة ترتبط بأنماط حياة الناس خلال العصور الحجرية، وما يتعلق بذلك من مفاهيم اجتماعية، ودينية واقتصادية. ولذلك تعدّ الرسوم الصخرية، على الرغم من بدائية أسلوبها، حلقات وصل بين أقدم المجتمعات التي عاشت في جزيرة العرب ومجتمعنا الحديث.



رسوم صخرية لحيوانات متنوعة من موقع سواج بالقصيم

واكتشفت الرسوم الصخرية في العديد من الجبال المنتشرة في أقاليم المملكة، ومن أبرز المواقع الأثرية التي احتوت على هذه الرسوم: جبّة وحائل وسكاكا والحناكية وقلوة ومدائن صالح وجبل غنيم وعسير وبيشة وقرية الفاو ووادي الدواسر وأبها والطائف، بالإضافة إلى مواقع أخرى. وتشتمل الرسوم الصخرية المكتشفة على العديد من الموضوعات الرئيسية التي من أهمها الأشكال الآدمية والحيوانية، وهي غالباً ما تظهر بشكل تجريدي. ثم أسلحة الصيد بأنواعها، والأوسمة، هذا بالإضافة إلى وحدات موضوعية أخرى مستوحاة من البيئة كالأشجار والجبال. أما من ناحية الأسلوب، فقد نفذت هذه الرسوم بأساليب مختلفة، مثل أسلوب الحفر الغائر الأكثر شيوعاً، كما استخدم أسلوب النحت البارز والغائر. وقد نتج التباين في أسلوب التنفيذ عن اعتبارات تتعلق بمهارة الفنان من ناحية، ولأسباب تتعلق بالتأثير البيئي والذوق الإقليمي من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من قلة الدراسات والبحوث المتصلة بالرسوم الصخرية في الجزيرة العربية، إلاّ أننا من خلال المادة المنشورة، يمكن أن نستخلص بعض الخصائص الفنية العامة لهذه الرسوم؛ فهي تتميز بكثرة استخدام الخطوط المستقيمة، وقد ترتب على هذا الأسلوب ظهور الأشكال، خاصة الآدمية، على نحوٍ تجريدي، وفي بعض الأحيان على نحوٍ



رسوم صخرية في جنوب وادي الدواسر

رمزي. ومع ذلك، هناك بعض الأعمال، خاصة المتأخرة، التي اكتسبت بعض الواقعية. كما صممت معظم هذه الرسوم لترى من الأمام. وتفتقر الرسوم الصخرية المبكرة، التي تعود إلى العصر الحجري القديم، إلى المنظور الأفقي، ولذلك تظهر المناظر وكأنها عائمة في السماء لعدم استنادها إلى أرضيات أو خلفيات.

ومن المواضع الأساسية التي تكرر ظهورها في الرسوم الصخرية، مشاهد الإنسان وهو يصيد الحيوانات، وكذلك مشاهد احتفالية لها في بعض الأحيان مضامين دينية أو سحرية. كما حفظت لنا الرسوم الصخرية أنواع السلالات الحيوانية التي كانت تعيش في الجزيرة العربية، مثل الجمال والخيل والغزلان والثيران والأسود والنعام والثعابين، وحيوانات أخرى.

ويمكن أن نستدل من هذا التنوع في السلالات الحيوانية وما تتطلبه من مصادر غذائية متنوعة، على أن البيئة خلال العصور الحجرية كانت أغنى وأفضل مما هي عليه الآن من حيث معدلات سقوط الأمطار ووفرة الغطاء النباتي. ومن الرسوم الصخرية الجديرة بالإشارة، نذكر



رسوم صخرية بالحناكية (المدينة المنورة)

على سبيل المثال تلك الأعمال الفنية المكتشفة في جبّة وكلوة والحناكية وبئر حمى.

الرسوم الجدارية. تعد الرسوم الجدارية أكثر تطوراً من الفنون الصخرية، إذ تمتاز بأسلوب خاص في تنفيذ المناظر الجدارية فضلاً عما تتسم به من استخدام الألوان.

وقرية الفاو (القرن الثالث ق.م- القرن الثالث الميلادي)، من أهم المواقع الأثرية التي زودتنا بنماذج رائعة من الفنون الجدارية، وقد اكتشف معظمها في المنطقة السكنية داخل الغرف المجصصة. ومن الواضح أن سكان قرية الفاو عبّروا، خلال أوقات فراغهم، عما يجول في خواطرهم من مشاعر وتخيلات ترجمت إلى لوحات فنية راقية، أظهرت ذوقهم الفني المترف. ولا شك بأن مثل هذه اللوحات كانت تزين أركان الوحدات السكنية التي عاشوا فيها. وقد تنوعت الموضوعات الفنية لهذه اللوحات، ففيها ما يصور مشاهد للإنسان في أوضاع مختلفة، رسمت بشكل واقعي جميل. أما الموضوعات الأخرى فتشمل مناظر متنوعة مثل الأسماك والزهور والأشجار، وكذلك مناظر صيد الحيوانات. وقد استخدمت في عملية الرسم العديد من الألوان، خاصة اللون الأحمر الذي كان أكثرها استخداماً، ثم اللون الأسود، والبني والأبيض.

ومن هذه الأعمال، مشهد يصور شخصية مميزة، عرفت من خلال النقش



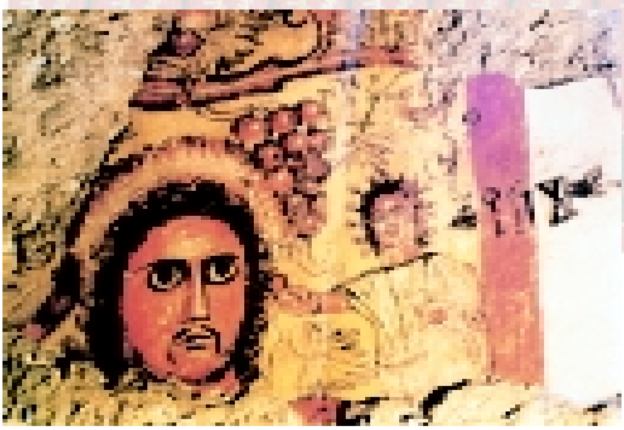
رسم منحوت على أحد الجدران في الأخدود (نجران)



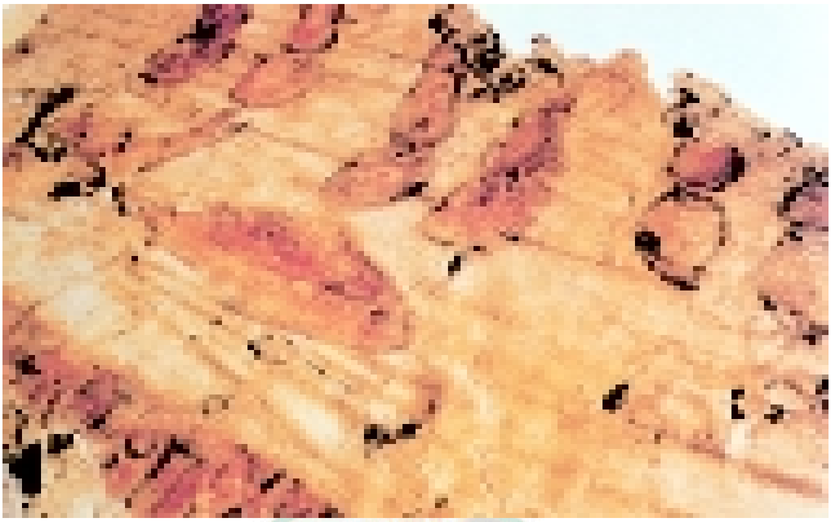
رسم منحوت على أحد الأحجار لجدار خارجي في الأخدود (نجران)

باسم زكـي، وهو رسم لرأس رجل ذي شعر مموج، وعيون كبيرة دائرية. أما الشوارب فتظهر على شكل خطين مائلـين. وفي خلفـية اللوحة تـظهر عناصر زخرفية تـتمثل بأشكال نباتية تمثل أوراق العـنب وعناقيده. وعلى الجانبين تظهر سـيدتان، ولم يبق من شكل المرأة التي على يسار اللوحة إلا جزء من الـوجه واليد وهـي تقطف العنب.

ومن المعبد المقابل للسوق عثر على أجزاء من لوحات فنية. اللوحة الأولى منها تمثـل امرأة ترتدي رداءً فضفاضاً، ويبدو من خلال وضع يدها على البطن،



رسم جداري، يصور شخصية عربية مهمة، «قرية» الفاو



بقايا رسم جداري يصور سنابك خيل على حافة جدول ماء–(قرية) الفاو

بأنها كـانت حاملاً. أما اللوحة الـثانية فتعكس جزءاً من منظر احتفظ بأشكال سنابـك الخيل على حافـة جدول ماء، ويظهر إلى الأسفل شكل لسمكة تسبح.

الزجاج والحلي

يُعنى هـذا الفصل بعرض للزجـاج والحلي في الفنون القديمة والإسـلامية. فالـزجاج كان مـن المواد الـتي حرص الإنسان القديم على استخدامها في حياته اليومية منذ أقدم العصور، فعرف صناعته وزخرفـته بأساليـب شتـى. وقد ثبت اسـتخـدام هذه المـادة طوال الـعصـور التاريخية، ولكن صناعـتها تطورت في العصر الإسلامي تطوراً كبيراً، إذ عرف الفنان عدة طرق لتشكيل منتجات منوعة من هـذه المادة وزاد علـيها بـاستخدام زخارف البريق المعدني التي لاقت انتشاراً كبيراً بعد استخدام مادة المينا.

وكذلك كان استخدام الحلي معروفاً منذ أقدم العصور بـحكم رغبة الإنسان في التزين والتجمل. وقد عثر في المواقع الأثرية المختـلفة في المملكة عـلى قطع زجاجية وأنواع من الحلي عرفها الإنسان فـي العـصريـن القـديم والإسلامـي.

ونعرض في هذا الفصل بإيجاز للزجاج والحلي من خلال ما عثر عليه في مواقع أثرية مختلفة من المملكة.

الزجاج في العصور القديمة

مرّت صناعة الزجاج واسـتخدامه بمراحل مختـلفة عبر العصور القـديمة والإسـلاميـة، وما عـثر عـليـه من المصنوعات الزجاجية في المواقع المختلفة بالمملكة يدلّ على أن بعضه صنع محلياً وبعضـه اجتلب مـن خارج الحدود. وتوقفنا المعثورات الزجاجية على نماذج قديمة وأخرى إسلامية نستطيع من خلال تتبـعها التعرف عـلى طرق صناعتـهـا وأسـاليـب زخـرفـتهـا ومـجـالات استخدامها.

اسـتـخدم الزجـاج البـركاني فـي الجزيرة العربية فـي وقت مبكر يوازي الوقت الذي عُرف فيه في بـقية بلدان

العالم القديم. فهناك من الأدلة ما يفيد أنه قد استخدم خلال فترة العبيد في شرق المملكة في نهاية الألف السادس قبل الميلاد، وربما كان من مواد التجارة التي تصدر للأقطار التي لا تتوافر فيها هذه المادة، مثل بلاد الرافدين ووادي النيل. كما أنه وجد في مواقع مختلفة في شرق المملكة ووسطها بتاريخ يعود للألف الخامس قبل الميلاد. وتتوافر أدلة من جنوب الجزيرة العربية تفيد أن الزجاج استخدم خلال الألف الرابع قبل الميلاد، فقد وجدت مصادر طبيعية لمادته مما يؤكد أنه قد صُدّر من الجزيرة العربية إلى الأقطار المجاورة التي تفتقر لمصادر هذه المادة. واستمر استخدامه خلال العصور اللاحقة، إذ عُثر عليه في عدد من المواقع التي ترجع لفترات تاريخية مختلفة.

أما الزجاج المصنع من مواد خام فإن أقدم دليل متوافر على وجوده جاءنا من جنوب الجزيرة العربية، وقد استخدم خلال فترة تقع ما بين القرن الثامن والقرن الخامس قبل الميلاد. وعثر في مقابر تمنع وفي موقع حجر حميد على بقايا زجاجية ومخلفات صناعة تدل على ممارسة تصنيع الزجاج في الجزيرة العربية. وقد اكتشفت قنينة زجاجية كاملة يرجع تاريخها إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. كما اكتشف خبث زجاج في وسط الجزيرة العربية وشرقها يدل على وجود مراكز صناعة زجاج محلية.

وتتنوع المشغولات الزجاجية التي اكتشفت في مواقع قديمة في الجزيرة العربية، بالرغم من أن ما اكتشف منها، قياساً بغيرها من المواد، يعد قليلاً. ويشتمل على قنينات زجاجية صغيرة ومتوسطة الحجم، بالإضافة إلى كمية من الأساور الزجاجية وكميات كبيرة من الخرز.

وأهم المواقع التي اكتشف فيها الزجاج في جنوب الجزيرة العربية هي حريضة، وحجر حميد، وتمنع، وقنا، وريبون، وعدد آخر من المواقع في المملكة. واكتشفت كميات من الزجاج في مواقع في شرق الجزيرة العربية لعل من أهمها مواقع في جزيرة فيلكة في الكويت، وقلعة البحرين في البحرين، وعدد من المواقع في الإمارات العربية المتحدة من أهمها المليحة، والدربحانية، والمقابر القديمة في منطقة هيلي.

أما الزجاج البركاني فقد عرف استخدامه في هذه المنطقة خلال العصر الحجري الحديث قبل ستة الآف سنة ق.م. إذ تفيد الأبحاث المنشورة أن هذه

المادة استخدمت في شرق المملكة ووسطها وجنوبها، وتوجد أدلة على استخدامها في هذه المناطق. وقد استمر استخدام هذه المادة حتى بعد معرفة تصنيع الزجاج، ويؤكد ذلك ما اكتشف في مواقع تعود للقرون اللاحقة.

وعلى الرغم من اكتشاف كميات كبيرة من المواد المصنوعة من الزجاج في مواقع متعددة في المملكة، فإنه لم تعرف بداية إنتاج الزجاج فيها. ولكن من المؤكد أنها سبقت ظهور الإسلام بقرون، وربما عرفت قبل ميلاد المسيح عليه السلام. وتفيد المادة المتوافرة أن إنتاج الزجاج غير الشفاف، والزجاج الشفاف عديم اللون قد عُرفا في المنطقة. ويظهر من المادة أيضاً أنه استخدم في تصنيعه عدة طُرق، منها طريقة القطع، والقالب، والنفخ الحر، وطُرق أخرى تلائم المواد الدقيقة، مثل الخرز والتعاويذ والأختام.

وقد عُثر على مشغولات زجاجية في عدد من المواقع الأثرية في المملكة مثل عين جاوان، وثاج، ومقابر جنوب الظهران في الإقليم الشرقي، وفي الإقليم الشمالي عثر عليه في دومة الجندل، وفي الإقليم الشمالي الغربي عثر عليه في تيماء، والعلا، وقُريَّة، وفي الإقليم الأوسط عثر عليه في الخضرمة، والموقع رقم ٢٠٧/٢٦ في منطقة حزم عقيلة، والموقع رقم ٧٥/ ٢١٢ في منطقة خفس دغرة، وعدد من المواقع في الأفلاج، وعدد آخر في وادي الدواسر مثل قرية الفاو. كما عثر عليه في أخدود نجران في الإقليم الجنوبي الغربي.



بقايا إناء زجاجي أزرق اللون – قرية الفاو

وتشمل المصنوعات الزجاجية المكتشفة في هذه المنطقة مجموعات من القوارير ذات البدن الأسطواني والرقاب الطويلة والحواف الضيقة الفوهة التي تظهر بهيئة حرف «T». كما اكتشفت نماذج من الصحون والأكواب والفناجين.

إضافة إلى ذلك تتوافر كمية كبيرة من الأساور الزجاجية التي صنعت، غالباً، من الزجاج غير الشفاف. وتحتوي هذه الكمية على أساور زجاجية غير مزخرفة، وأخرى مزخرفة، إما بأسلوب الحز المتموج، أو بأسلوب التطعيم. وتبدو الأساور الزجاجية غالباً باللون الأحمر القاتم، والأسود، والأزرق السماوي،

والأخضر الفاتح، والأزرق الغامق (الكحلي)، والزخرفة المضافة تظهر بألوان، أشهرها الأصفر، والأخضر الفاتح، والأبيض، وعدد من الألوان الأخرى.



أساور زجاجية من فترة ما قبل الإسلام

وتشتمل مجموعة الأساور على تنوع كبير. ففيها الأساور العريضة ذوات الأسطح المستوية أو المقببة، والأساور الدقيقة، والأساور ذوات المقطع الأسطواني الشكل. ويتوافر في المجموعة أحجام مختلفة تدل على استخدامها لمختلف الأعمار، فمنها أساور الإنسان البالغ، ومنها المتوسطة، ومنها ما هو للأطفال.

وصنع من الزجاج أيضاً عدد كبير ومتنوع من الخرز، منه الخرز الشفاف، وغير الشفاف، والخرز ثنائي اللون، والخرز الأسطواني، والدائري، والمضلع، والمثمن، والمعين، وأشكال أخرى. ويظهر الخرز الزجاجي بعدة ألوان، منها الأسود، والأحمر، والأحمر البرتقالي، والبني، والأخضر، والأزرق. واستخدم في زخرفة الخرز أحزمة دائرية تظهر بألوان تختلف عن ألوان الخرز.

وهناك أيضاً المراود المصنوعة من الزجاج التي تظهر غالباً بالألوان، الأسود، والرمادي الفاتح. وهي تتنوع في أحجامها، فمنها الصغير، ومنها الكبير. كما تظهر صناعات زجاجية أخرى، مثل مشابك الشعر. وقد عثر أيضاً على بعض الأختام المصنوعة من هذه المادة، وبعض الخواتم الدائرية؛ ففي قرية الفاو عثر على العديد من الأواني الزجاجية شبه كاملة، ومن بينها كأس فريد من نوعه ذو ألوان زاهية عليه رسومات جميلة، وأجزاء من صحون شفافة وقطع زجاجية أخرى، وبعض هذه الزجاجيات يبدو أنها مستوردة من بعض الحضارات المجاورة، وبخاصة مصر.

وفي جنوب الظهران عثر على بقايا لأوان زجاجية تمثل أجزاء من القناني والقوارير والخرز المتخذ للزينة في جنوب الظهران، من بينها إناء متكامل صغير ذو ألوان صفراء معتمة، وشكل كروي

وفوهة بارزة إلى الخارج، ومقبض صغير على بدنه، بينما يحتوي على زخارف مضافة قوامها أشرطة بارزة بنية اللون تلتف حول البدن على هيئة أشكال معينة، ويعد بحق تحفة فنية فريدة.

صناعة الزجاج في العصور القديمة

صناعة الزجاج في العالم القديم من الصناعات ذات التطور البطيء، إذ استمرت لفترة طويلة من الزمن على وتيرة واحدة. ويرجّح أن الإنسان بدأ في استخدام الزجاج غير المصنع، أو ما يعرف باسم الزجاج البركاني السبخ أوالإبسيديان، خلال العصر الحجري الحديث (الألف السادس قبل الميلاد). وبعد معرفة الإنسان لهذه المادة واستخدامها أدخل عليها بعض الإضافات وصنع منها بعض الأدوات باستخدام تقنية سهلة.

وهناك نوعان من صناعة الزجاج، أحدهما يطلق عليه تزجيج وهو طبقة زجاجية تغطي سطوح بعض الأواني. وقد يكون ذلك ناتجاً عن مادة مضافة ومعدة لهذا الغرض، أو ناتجاً عن شدة حرارة الحرق التي قد تصل إلى درجة تصهر محتويات الأواني الصلصالية إلى مرحلة التزجيج. أما النوع الثاني فهو صناعة مواد من مادة زجاجية كلها أعدت لمثل تلك الصناعات. ولا يعرف حتى الآن أي منهما عرفه الإنسان أولاً، علماً بأن أكثر الباحثين يعتقدون أن معرفة الزجاج كانت تالية في تاريخها لمعرفة التزجيج.

عرف الإنسان صناعة الزجاج غير الشفاف أولاً. وكانت المواد اللازمة لصنعه يسيرة، وتشتمل على مادة الكوارتز، وكربونات الكالسيوم، والنطرون، أو رماد النبات، وكمية صغيرة من المادة الملونة. ويعتقد أن الصانع لم يكن يعرف هذه المكونات، إنما كان يعرف أن نوعاً من الرمال يعطي إنتاجاً معيناً، وبدأ بالتجربة يعرف أماكن وجود هذه الرمال. أما الزجاج الشفاف عديم اللون فإن صناعته أحدث من الزجاج الملون أو غير الشفاف. وأقدم الأدلة المتوافرة تدل على أنه اكتشف في أواخر الألف الأول قبل الميلاد. وكانت الأشياء التي تصنع من الزجاج حتى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد قليلة وغير متنوعة، وتقتصر على التمائم والأختام والخرز وقطع تستخدم في زخرفة التطعيم وبعض الأواني الصغيرة.

وفي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد توصل الإنسان لتحضير المواد اللازمة

لإنتاج الـزجاج وطريقة تـركيبها لـكي يتمكن من إنتاج أشياء يخطط لها مسبقاً. وقد وجدت ألواح طينية في بلاد الرافدين يعتقد أنها تعود للقرن السابع عشر قبل الميـلاد تحتوي علـى معادلات مكـتوبة لبعض المواد التي يطلبها الصانع.

وكان الإنسان في بداية أمره مع هذه الحرفة يصنع الزجاج بعدما يبرد المصهور وذلك بالقطع. ولكنه اكتشف مع مرور الزمن أن تشـكيل الزجاج وهو ساخـن يكون أكثر فائدة. واستخدم الإنسان عدة طرق لصناعـة المواد الزجاجية، أقدمها طريقة خلط المواد المطلوبة في حاوية من الفخار، ثم تسخـين المواد حتى تنصهر وتتحد وتصبح كتلة زجاجية. ثم يصب الزجاج في قوالب أو يترك الزجاج ليبرد ثم تُشكل منه المادة المطلوبة، وربما صهر المادة مرة ثانية ليشكل منها المواد المطلوبة. كما اسـتخدم الصـانع طريقـة العيدان الزجاجية.

وكانت الأواني تصـنع على حشوة من الطين الرملي الملفوفة بقطعة قماش يربط بها قضيب معدني أو خشبي، ثم يغمس الرأس الملفوف في الزجاج المنصهر ويدار لكي ينتشر الـزجاج على سطحه بالتساوي بقدر الإمكان. ثم يُخرج ويزال القضيب والرأس ويسوى الـزجاج على سطح أمـلس. ويصنع الخـرز من مادة الزجاج بطريـقة اللف على خيط رفيـع من النـحاس، وتقطع كـل خرزة على حدة. أما التـماثيل والمواد المشابهـة لها فإنها تصنع باستخدام القوالب حتى ظهور طريقة النفخ الحر.

ويـزخرف الـزجاج بـلف عـيدان زجاجية مـختلفة الألوان حول السـطح الخارجي للإناء، وتشد العيدان مرة إلى الأسفل ومرة إلى الأعلى بحيث تعطي زخرفة مـتموجة. كمـا عرفت زخرفـة التطـعيم بحـيث يضيف الإنـسان مادة ويصهرها في فجوات معينة، أو يضيف قطعًا زجاجية غير شفافة ومصنعة مسبقاً.

وفي حدود القرن الثاني قبل الميلاد عرف الإنسان طريقة النفخ الحر بعد أن اخترع الحـدادون عيدانًا معدنـية طويلة استخدمت في هـذه الطريقة. وصفتها أن توضع كتلة من الزجـاج على طرف الأنبوب فينفـخه الصانع بحيث يشكل كرة عـلى هيئـة بالون رقيـق الجدران، وبإعادة التسـخين يمكن تشكيله بشـكل الإناء المطلوب. وهذه الـطريقة جعلت الصانع يعتني بإعداد المادة الخام، ومكنته من اكتشاف مواد أخرى تضاف إلى المادة الخام لتخرج الأواني بألوان متنوعة. كما مهدت هذه الطريقـة إلى معرفة صناعة

الزجاج المسطح، وتعد متأخرة، وهي الأساس الذي قامت عليه الصناعات الزجاجية الحديثة.

الزجاج في العصر الإسلامي

أثبت المسح والتنقيب الأثري الذي أجري في مواقع شتى في المملكة وجود نماذج عديدة من الكسر والأواني الزجاجية التي تبرهن على صناعة الزجاج واستخدامه على مر العصور الإسلامية.

ففي الرياض وما حولها وجد العديد من كسر الزجاج على سطح المواقع الأثرية في الحني والبليدة والمصانع والبعيجاء ولحا وأبو قصر والأبيطح وغيرها من المواقع، وهي تمثل كسر فوهات وأجزاء من أبدان صنعت بطريقة النفخ الحر، ذات ألوان مختلفة.

كما عثر في الجبيل والعقير من شرق المملكة على العديد من أواني الزجاج المتكاملة وشبه المتكاملة، صغيرة الحجم، تمثل قوارير كروية ومستطيلة ذات أعناق تنتهي بشفة غير بارزة، وقد صنعت بطريقة النفخ الحر والنفخ بواسطة القالب ذي الألوان المختلفة. وعثر أيضاً على أجزاء من الأساور تستخدم لزينة النساء ذات ألوان زاهية وجميلة.

وفي المابيات، في الجنوب الغربي من مدينة العلا، أسفرت الحفريات الأثرية عن اكتشافات عديدة من ضمنها الزجاج الذي لم يبق منه إلا أجزاء من أوانٍ، كالصحون والقوارير والأكواب، ومن أهمها جزء من غطاء لزبدية شفافة اللون عليها زخارف مذهبة بأشكال هندسية، ذات مقبض كروي صغير من أعلى، وحافة بارزة إلى الخارج، وكذلك بوتقة شبه متكاملة صفراء شفافة ذات عنق طويل وشفة بارزة إلى الخارج، وتذكرنا تلك الآنية بقول عنترة بن شداد في معلقته:



بوتقة من المابيات

بـزجـاجـة صـفـراء ذات أسـرّة

قـرنـت بـأزهـار الشـمـال مـفـدّم

وأما الربذة فأسفرت الحفريات فيها عن اكتشاف أفران لصهر الزجاج، وعلى أجزاء من الأواني مثل: الأكواب والقوارير الصغيرة المستطيلة أو الكروية، والقوارير الرقيقة البدن ذات الأشكال الزخرفية الجميلة المحاطة بأسلاك معدنية وأقماع صغيرة لتفريغ السوائل، كالعطور، وقنينة زخرفت بطريقة القطع، وكوب مصنوع بطريقة القالب.

وفي عَثَّر، في منطقة جازان، اكتشفت كمية كبيرة من الزجاج، مما يدل على وجود الصناعة فيها، وخاصة وجود بقايا من المواد المصنعة، ويعد هذا الموقع من أكبر المواقع الزجاجية الأثرية في المملكة، لذا فإن التحدث عن زجاجها يطول ويحتاج إلى دراسة مفصلة، ولكن نشير إلى وجود كميات كبيرة مختلفة ومتعددة تمثل بقايا حواف لصحون كبيرة وبوتقات وقوارير وقناني صغيرة، وقد استخدمت فيها طريقة النفخ الحر، والنفخ بواسطة القالب، واحتوت على زخارف مضافة ومقطوعة ومضغوطة، ومن أهمها: إناء كبير غير مكتمل، وهو بوتقة قطرها ١٨سم، فقد الجزء العلوي منه، وهي زرقاء اللون معتمة، عليها بعض الأكسدة الصفراء، صنعت بطريقة النفخ الحر.

ونظراً لجملة ظروف خاصة بطبيعة هذه المادة الهشة القابلة للكسر التي ربما



إناء من عَثَّر – منطقة جازان

لم تجذب انتباه الباحثين لدراستها كغيرها من الفنون المتعددة، مثل الفخار والخزف والأخشاب، فإن الزجاج بصفة عامة، وفي المملكة بصفة خاصة، لم يحظ إلا بالنزر اليسير من البحث والدراسة. ولعل ذلك أدى إلى عدم التعرف على الكثير من الأنماط الشكلية للأواني الزجاجية، وكذلك عدم الدقة في معرفة طرق صناعة هذه المادة وزخرفتها في العصور الإسلامية، هذا إلى جانب عدم الوصول إلى الكثير من المعطيات المترتبة على قلة الأواني والأدوات الزجاجية ذات الأحجام الكاملة.

واعتماداً على القليل مما عثر عليه من هذه المادة، وبالمقارنة مع مواد أخرى مماثلة، أمكن التعرف على خصائص الزجاج الإسلامي الذي وجد في مواقع المملكة، وهي على كلٍ متشابهة إلى حد ما مع الخصائص المعروفة عن زجاج الأقاليم الإسلامية المجاورة. وقد كان للموقع الاستراتيجي لهذه المنطقة منذ فجر الإسلام دور بارز في صناعة وتجارة كثير من الصناعات والحرف اليدوية على اختلاف أهميتها وحاجة الإنسان إليها. ذلك أن المنطقة كانت تعد من ناحية من أهم الأماكن التي تعبرها قوافل التجارة حاملة معها شتى أنواع السلع والمنتجات، ومن ناحية أخرى لأنها قبلة المسلمين ومقصد الحجاج والمعتمرين الذين يفدون إليها من كافة بقاع المعمورة.

ولهذين السببين الأساسيين كان لا بد من وجود الكثير من المنتجات الصناعية المستوردة، ومن بينها الزجاج، إلى جانب ما هو مصنع محلياً في مراكز النشاط التجاري الموجودة داخل مواقع المملكة. ولعل تشابه المصنوعات المحلية مع المستوردة من حيث الأنماط الشكلية والاستخدام، يؤدي بطبيعة الحال إلى اندماج المنتجات بعضها في بعض، كما يؤدي في الوقت نفسه إلى صعوبة التمييز بين الصناعات المستوردة والمحلية في كثير من المنتجات الفنية، وخصوصاً في مادة ذات معثورات قليلة كالزجاج.

صناعة الزجاج في العصر الإسلامي

زاول الزجّاجون المسلمون أساليب متنوعة لصناعة الأواني والأدوات الزجاجية. وقد كانت معظم هذه الأساليب مستخدمة قبل الإسلام، إلا أنه بانتشار الإسلام في أقاليم شتى ذات أصول حضارية مختلفة، وجرت عادة المسلمين فيها على ترك الحرف والصناعات بأيدي أصحابها الأصليين حتى قبل دخولهم في الإسلام، فإن تلك الطرق

الصناعية طرأ عليها الشيء الكثير من التحسن والتقدم. وقد أدى ذلك إلى ابتكار أساليب صناعية وزخرفية جديدة لم تعرف من قبل. كل ذلك انعكس بدون شك على اكتشاف أشكال جديدة من الأدوات والأواني الزجاجية، مما ساعد على كثرة استخدامها وتداولها حالة بذلك محل الكثير من الأواني المصنوعة من مواد أخرى، كالفخار والخزف والمعادن. تلك الأساليب الصناعية والزخرفية التي استخدمت في تلك الحقب الإسلامية وغير الإسلامية ظلت تمارس بمواصفاتها القديمة نفسها، مع شيء من الاختلاف الذي حدث ليواكب ما استحدث من أدوات وأساليب صناعية جديدة.

أدوات الصناعة والزخرفة. نظراً لطبيعة مواد الزجاج التي تتطلب معظم مراحل صناعتها وزخرفتها أن تكون هذه المادة مصهورة ومسخنة، فإنه لا بد من استخدام أدوات عديدة متنوعة منذ بداية عملية الصهر حتى إكمال صنع الآنية؛ على أنه من غير اليسير التعرف على المواصفات الكاملة للأدوات التي كانت تستعمل سابقاً، وإن كان من غير المستبعد أن أشكالها لا تختلف كثيراً عن أشكال الأدوات المستخدمة لدى الحرفيين التقليديين؛ إذ إن طرق الصناعة والزخرفة لم يطرأ عليها الشيء الكثير عن ذي قبل. فهناك بوتقة الصهر التي تجمع بها المواد الخام الأولية المكونة للزجاج، مثل الرمل والأكاسيد، ثم هناك الأفران التي تصهر بداخلها تلك المواد كخطوة أولى للصناعة، أو تستخدم لعمليات التسخين المتكررة في مراحل الزخرفة والصناعة المتعددة. ثم القوالب التي تساعد في عملية تشكل الأواني بالنفخ، وتصنع إما من الفخار أو المعدن أو الخشب. وتؤدي القوالب دوراً أساسياً في الصناعة، فقد كان الصناع يشكلون الزجاج بنفخه في قالبين، الواحد بعد الآخر، بحيث ينطبع على الأواني المصنوعة ما بتلك القوالب من عناصر زخرفية، كالتعرجات والتموجات.

وهناك أنبوب النفخ المعدني الذي كان لاستخدامه، بالرغم من بساطة تركيبه، أكبر الأثر في تطوير صناعة الزجاج وزيادة إنتاجه وتداوله. فبالنفخ بالفم يمكن تحويل كتلة صغيرة من مصهور الزجاج إلى تحفة فنية غاية في الروعة والجمال، سواء كان ذلك النفخ بالاستعانة بالقالب أو دون ذلك، وكل ذلك يعتمد بلا شك على براعة الزجّاج ومهارته.

ومن أدوات الصناعة والزخرفة أيضاً، الملقط الذي يستخدم لعملية

سحب مادة الزجاج الذائبة وتحويلها إلى خيوط تجمع على شكل حزم، ثم تقطع على هيئة أقراص لعمل الأنماط المختلفة من الأواني الزجاجية، أو تستغل بحد ذاتها كعناصر زخرفية جميلة. كما أن الملقط يستعمل لتنفيذ بعض العناصر الزخرفية من قبيل الذيول الزجاجية الملونة والنقاط وما شابهها. ويتم ذلك بالضغط على جدران الآنية وهي ما تزال طرية.

وهناك أدوات مهمة تستخدم مباشرة في صنع الزجاج، مثل الكماشة أو الكلابة التي تستخدم لتقطيع أجزاء الأواني الزجاجية حسب الحجم المراد، وكذلك لعمل بعض التفاصيل الشكلية في الآنية. وهناك المثقب وهو أداة عمل الثقوب وتوسيعها وإعطائها أشكالها النهائية. وهناك العجلة التي يمكن تنفيذ أنواع عديدة من العناصر الزخرفية بها، من قبيل نقش الزجاج وحفره، ولمثل ذلك يستخدم الدولاب عندما تكون الزخارف مقطوعة.

ومن أدوات زخرفة الزجاج أنواع من الرِّيَش والفرش التي توضع بها مواد التذهيب والمينا. كذلك هناك أدوات الكشط والحفر والحز والطبع مثل الإبر والمثاقب والمحززات والمناقيش و(الأختام) وغيرها. ومنها أيضاً آلة تشبه المشط الخشبي لتمشيط العناصر التجميلية عند إعطائها أشكالاً معينة، بحيث يسحب مصهور الزجاج وهو ما يزال طرياً فتتكون منها أشكال عديدة مختلفة مثل أسنان المنشار وضلوع السمك.

طرق صناعة الزجاج. قبل الحديث عن طرق الصناعة مفصلة لا بد من الإشارة إلى أن هناك خطوات أساسية ينبغي تنفيذها مع غالبية هذه الطرق. فمن ذلك إذابة مادة الزجاج وتحويلها إلى مصهور قابل للتشكيل، وكذلك إعداد الأدوات المناسبة التي تساعد على التشكيل والزخرفة قبل برودة المادة الزجاجية أو بعدها. كما أن هناك مراحل مهمة ربما تتبع مع كافة الطرق الصناعية، وهي تشكيل البدن الأساسي للآنية أولاً، ثم إضافة الأجزاء الأخرى إليها، مثل المقبض والغطاء في مرحلة أخرى، وأخيراً يتم تهذيبها وصقلها نهائياً.

وأشهر الطرق التي صنعوا بها أوانيهم هي طريقة الضغط على القالب، وطريقة القطع البارد، وطريقة النفخ، وطريقة غمس القالب في مصهور الزجاج، وطريقة السَّحب.

طريقة الضغط على القالب: أشهر طرق صناعة الزجاج هي طريقة الضغط

على القالب. ويعد هذا الأسلوب الصناعي أحد أقدم الأساليب في إنتاج الزجاج، فهو بدائي في خطواته ومتواضع في أشكاله. وتتمثل هذه الطريقة بإعداد قالب طيني يأخذ الشكل الأساسي للإناء المراد صناعته، وفي الوقت ذاته تحوّل خلطة المواد الزجاجية بالفرن إلى عجينة مصهورة توضع على جدار القالب من الخارج إن كان مصمتاً، أو من الداخل إن كان مجوفاً. وبعد أن تجف العجينة الزجاجية يفتت القالب الطيني بالحفر والماء. وبعد ذلك تضاف الأجزاء المتبقية للإناء، وهي تصنع مسبقاً على حدة، كالمقابض والقاعدة والغطاء. وفي المرحلة النهائية يصقل الإناء ويلمع بعد ذلك.

طريقة القطع البارد: للحصول على منتجات زجاجية بهذا الأسلوب يلزم صهر المواد الزجاجية كمرحلة تحضيرية تمر بها كل طرق صناعة الزجاج. ولكن في هذه الحالة يقطع المصهور إلى كتل ذات أشكال مختلفة ثم تترك حتى تبرد. ثم بعد ذلك يبدأ تنفيذ المرحلة الثانية، وهي تشكيل هذه الكتل الصلبة حسب الشكل المطلوب بتهذيب وتقطيع جوانبها بالعجلة أو بحفرها للحصول على الأواني المرادة، سواء كانت مصمتة أو مفرغة. ثم تصقل وتضاف إليها عناصرها الزخرفية.



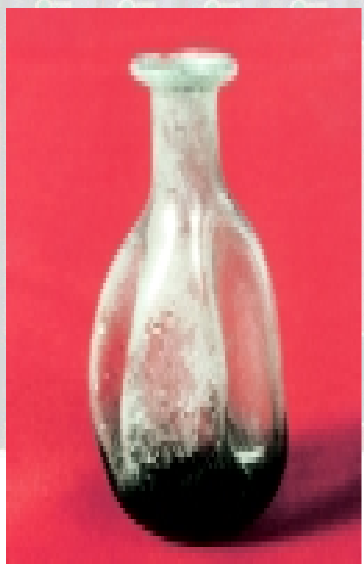
حبات من الخرز الزجاجي – موقع الربذة

وتعد هذه الوسيلة من أنسب الطرق الصناعية التي يمكن بها الحصول على أنواع الخرز، حيث يمكن أن تسحب بعض القضبان الزجاجية وبعد جفافها تقطع بأحجام مناسبة ثم تخرم حسب الرغبة. كما أنه يمكن الحصول على مثل هذا الخرز بإحاطة سلك معدني بمصهور الزجاج الذي يلبك عليه على شكل قضيب، ثم يسحب السلك المعدني ويبقى القضيب الزجاجي مفرغاً على طوله. وبعد ذلك يقطع القضيب على شكل خرز حسب الأحجام المرغوبة.

طريقة النفخ: يُعد استخدام هذه الطريقة بوصفها أسلوباً صناعياً بمثابة قفزة لدى أصحاب هذه الصنعة الدقيقة. فمنذ أن بدئ باستخدامها أخذ الصناع يعملون أفكارهم لابتكار نماذج زجاجية جديدة غاية في دقة التصميم وإتقان الصنعة،

بل ربما كانت سبباً أساسياً وحافزاً لهؤلاء الصناع للإكثار من صناعة الزجاج واستخدامه. وقد استخدمت طريقة النفخ بأسلوبين مختلفين هما:

النفخ بالقالب عن طريق استخدام أنبوب معدني يوضع بأحد أطرافه كتلة الزجاج المصهورة، ويدخل في قالب يعد مسبقاً حسب الشكل المطلوب، ثم ينفخ من الطرف الآخر للأنبوب فتتخذ جدران العجينة، التي تكون على هيئة البالون، شكل القالب من الداخل بما فيه من تفاصيل. ويمكن تشكيل الزجاج في قالبين الواحد بعد الآخر، وتتخذ هذه من قطعتين من الفخار أو المعدن أو الخشب. وبعد إكمال الشكل الأساسي



قارورة من الزجاج مصنوعة بطريقة النفخ

للإناء تضاف الأجزاء الأخرى كالمقبض والغطاء والمصب، كما تضاف إليه العناصر الزخرفية في مرحلة لاحقة. ويلاحظ أن الأواني المصنوعة بهذه الطريقة تكون عادة منتظمة وسميكة نسبياً.

والأسلوب الثاني هو النفخ الحر، ويُسمى أيضاً النفخ بالهواء، أي من دون استخدام القالب المستعمل في الطريقة السابقة، ويتم ذلك باستخدام ذلك الأنبوب المعدني فقط، بحيث تلتقط بنهايته العجينة الزجاجية وينفخ في الأنبوب فيدفع الهواء المضغوط في وسط العجينة جوانبها إلى الخارج، ثم يشكل الإناء المطلوب يدوياً بإدارة الأنبوب في الهواء، أو على طاولة ذات سطح أملس، أو بها نتوءات تترك أثرها على جدران الإناء كعناصر تجميلية. وفي هذا الأسلوب لابد من استخدام أدوات الصناعة، مثل الملقط والكماشة وغيرها بطريقة ماهرة.

طريقة غمس القالب في مصهور الزجاج: تؤدى هذه الطريقة بإعداد قضيب خشبي يثبت حول أحد أطرافه النموذج أو القالب الذي يراد تقليده، ويكون من الرمل، ثم يغمر الشكل مع القضيب الخشبي في محلول ذائب من

الزجاج بحيث يغطيه تماماً. بعد ذلك يرفع الشكل من المحلول الزجاجي الذي يلتصق بالقالب، ويترك حتى يبرد، ثم ينزع القضيب الخشبي، ويبعد القالب الرملي. وهكذا ينتج إناء من الزجاج على هيئة إناء الرمل الأول، ثم يأخذ الصانع في صقل الإناء بإضافة الأجزاء المكملة والعناصر الزخرفية.

طريقة السَّحْب: تقوم هذه الطريقة على سحب مصهور الزجاج وتحويله بواسطة الملقط إلى حبال لينة تجف لتكون على هيئة قضبان تجمع متراصة باتجاه واحد. ثم تصهر هذه الحزم حتى يتحول كل منها إلى قضيب واحد ترى على مقطعه العرضي دوائر مشكلة من الحبال الرفيعة الأساسية، وبعد جفافها تقطّع هذه القضبان في مرحلة لاحقة إلى قطع عرضية، تكون على شكل أقراص مستديرة، تأخذ ألوان المصهور الذي سحبت منه. ومن هذه الأقراص يمكن تشكيل نماذج الأدوات والأواني الزجاجية المختلفة الأغراض، وهي تحتاج، بلا شك، إلى درجة عالية من الدقة والمهارة.

ويمكن استغلال تلك الأقراص الزجاجية التي تشبه خلية النحل لتشكيل عناصر زخرفية غاية في الروعة والجمال، لدرجة أنه أصبح يطلق عليها في زخرفة الزجاج اسم زخرفة الألف زهرة. وتعد طريقة سحب مصهور الزجاج بالملقط وسيلة ناجحة لصناعة أنواع الخرز الذي يستعمل لأغراض متعددة، من أشهرها الحلي وأدوات الزينة، ذلك لأنه عند سحب المصهور الزجاجي وتشكيله على هيئة حبال لينة فإن هذه تكون مجوفة من الداخل، بحيث تترك حتى تجف ثم تقطع حسب الحاجة إليها.

طرق زخرفة الزجاج. مما لاشك فيه أن المنتجات الزجاجية ليست كلها تحمل عناصر زخرفية، وفي هذه الحالة تكون الآنية الزجاجية بعد الانتهاء مباشرة من صناعتها جاهزة للاستعمال من دون أن تمر بمراحل التجميل اللاحقة. على أن خلوها من ذلك لا يعني أنها أقل جمالاً أو أهمية من تلك المزخرفة، إذ إن تصاميم تلك القطع الملساء وأشكالها، بالإضافة إلى دقة صناعتها وإتقانها، تكسبها جمالاً وجاذبية.

أما القطع المزخرفة، فإن عناصرها الزخرفية تُنفذ بأساليب متعددة، سواء وقت الصناعة، أي في المرحلة نفسها التي تشكل فيها الآنية وتصنع، أم بعد انتهاء عملية الصناعة، إذ تضاف الزخارف، والآنية ما تزال حارة، ثم يعاد تسخينها كي تلتصق المادة المضافة

بالزجاج الأصلي. وفي أحيان قليلة تزخرف في المرحلتين كلتيهما. واتبعوا في ذلك ست طرق:

الطريقة الأولى: من أشهر طرق زخرفة الزجاج الزخرفة المنفذة بواسطة قالب النفخ إذ يمكن الحصول على نماذج متعددة من العناصر الزخرفية بواسطة القالب الذي يُنفخ فيه أو تضغط عليه العجينة الزجاجية وقت صناعتها، فينطبع على الإناء ما هو موجود في القالب من زخارف شتى، قد تكون تضليعاً في جدار الإناء، أو على هيئة خلايا النحل، وقد تكون زخارف بارزة من أشكال مختلفة من الكتابات والرسوم الهندسية وغيرها.

الطريقة الثانية: هي طريقة الحز والحفر والفرق بين هاتين الطريقتين المتشابهتين يكمن في كيفية تنفيذهما، فالحز أو الخدش هو كشط طبقة رقيقة جداً من سطح الآنية المزخرفة بحيث لا تكاد ترى تلك الطبقة المحزوزة، ويتم ذلك بأداة مدببة لتنفيذ أي نوع من الزخارف. ويمكن الإعداد لها بتسخين الآنية وتلميعها كمرحلة نهائية، خصوصاً إذا أضيفت إلى تلك الخدوش طبقة أو بطانة زجاجية تجميلية. أما الحفر فهو حز العناصر المراد زخرفتها بشكل غائر وعميق، ويكون ذلك إما يدوياً أو بعجلة خاصة بذلك.

وبهذين الأسلوبين الزخرفيين يمكن تنفيذ كافة العناصر التجميلية على سطوح الأواني الزجاجية، كما يمكن أن تكون مجرد مراحل مكملة لأساليب زخرفية أخرى.

الطريقة الثالثة: تتمثل في الضغط على جدار الإناء للحصول على عناصر زخرفية لحظة تشكيل الآنية بطريقة النفخ الحر، وهي ما زالت لينة ومثبتة بأنبوب النفخ، بحيث يمكن أن يستعين الزجَّاج بطاولة ذات سطح به عناصر زخرفية تنطبع بسهولة على الآنية. وبأسلوب آخر يستطيع الصانع الحصول على مثل هذه الزخارف عن طريق الضغط على جدار الإناء بعد الانتهاء من صناعته وهو ما يزال ليناً، وذلك بأدوات خاصة على هيئة الملقاط أو الإزميل تحمل عناصر زخرفية معينة تنطبع على جدار الإناء. وتشكل العناصر الجمالية على هيئة أشرطة تحوي عنصراً منفرداً يتكرر عدة مرات، أو عناصر متداخلة أو متجاورة تنفذ بشكل فني جذاب، كما يمكن تنفيذ العناصر الزخرفية، خصوصاً الكتابية منها، بأختام ذات كتابات عربية من قبيل اسم صاحب الإناء أو صانعه أو جمل دعائية وغيرها.

الطريقة الرابعة: تتمثل في إضافة الخيوط الزجاجية الملونة بعد تشكيل الآنية الزجاجية وقبل أن يصل إلى درجة الجفاف، ويكون الصانع قد أعد مصهوراً زجاجياً من اللون نفسه أو من لون مغاير للون الإناء؛ فيسحب من ذلك المصهور بملقط أو أداة خاصة خيوطاً رفيعة يلفها حول بدن الإناء ثم تضغط على جدار الإناء، وينتج عن ذلك شكل زخرفي جميل يشبه السلة أو الشبكة، وبمثل هذه الطريقة يمكن أن تضاف نقط أو كرات زجاجية صغيرة. وهذا الأسلوب الزخرفي يستخدم غالباً لعمل العناصر الزخرفية ذات الأشكال غير المعقدة.



قارورة زجاجية عليها زخارف، منفذة بطريقة القطع والإضافة

الطريقة الخامسة: هي طريقة الزخرفة بإضافة طبقتين زجاجيتين، وتتم بعد الحصول على القطعة الزجاجية التي صنعت من مادة ذات لون معين. فيضاف إلى جدرانها طبقة أخرى ذات لون مغاير للون الإناء الأصلي بغمسه بالمصهور الزجاجي، وهكذا تتكون طبقتان ملتصقتان بعضهما ببعض، ثم تحفر على الطبقة الخارجية الزخارف المطلوبة. وتكمن أهمية هذه الطريقة في ناحيتين: الأولى وظيفية، والمراد منها تقوية جدار الإناء المصنوع، أما الثانية فهي جمالية يريد منها الزجَّاج تقليد الأحجار الكريمة الطبيعية.

الطريقة السادسة: هي استخدام التذهيب والمينا بإضافة مادة الذهب الخالص الذي ترسم به العناصر التجميلية، ثم توضح التفاصيل خدشاً بالإبرة. كما تقوم على إضافة طبقة رقيقة من سائل التذهيب تثبت فوق سطح الإناء وتنقش الزخرفة المطلوبة على هذه الطبقة الذهبية، ثم تكشط خلفية الرسم حتى يتضح سطح الإناء ليبقى العنصر الزخرفي وحده في لونه الذهبي. وبعد ذلك يغطى كامل الإناء ببطانة من الزجاج الشفاف ويترك حتى يجف، فيبدو الرسم المذهب محصوراً بين طبقتين من الزجاج.

وهناك أسلوب آخر مماثل هو التلوين ذو البريق المعدني، الذي يشبه إلى حد كبير البريق المعدني على الخزف، حيث تلون الزجاجيات ثم تسخن حتى يثبت اللون على جدار الإناء.

أما زخرفة الزجاج بالمينا، فلها طرق متنوعة تمر بمراحل فنية متعددة. وتستخدم فيها مادة تتكون من مسحوق الزجاج الذي يخلط ببعض الأكاسيد، ثم يذاب المخلوط في مادة زيتية حتى يتحول السائل بالتسخين إلى درجة معينة ويصبح صالحاً للرسم به. وتختلف ألوانها باختلاف الأكاسيد الموجودة في الخليط، فللحصول على اللون الأبيض يستعمل أكسيد القصدير، أما اللون الأخضر فيؤخذ من أكسيد النحاس، والأحمر من أكسيد الحديد بينما يحصل على المينا الزرقاء من مسحوق اللازورد مع زجاج لا لون له.

ويمكن الزخرفة بالمينا بإضافة شرائح مكعبة من مادة المينا الصلبة بحيث تقطع على أشكال الزخارف المرادة، على غرار زخرفة المجوهرات لكي توضع على سطح الإناء ثم تدخل الفرن لتثبيتها نهائياً. ومثل ذلك يتم بعمل مكعبات من قطع زجاجية على أشكال الفسيفساء، تقطع إما بالعجلة أو تنحت بحجر الصوان أو بأحجار كريمة كالألماس، بحيث توضع على بدن الإناء ثم تدخل الفرن لتثبت. ومن وسائل استخدام مادة المينا ما يتم عن طريق رسم العناصر الزخرفية على الإناء بالريشة للخطوط الخارجية وبالفرشاة في المساحات الكبيرة.

العناصر الزخرفية. يلفت النظر أن أكثر الزجاجيات المكتملة التي عثر عليها في مواقع المملكة ملساء خالية من الزخارف، وإن كانت تحمل شيئاً يسيراً منها كتلك التي تتم وقت تنفيذ مراحل الصناعة، مثل التموجات والبروزات أو النتوءات، والأسلاك المضافة. وعلى أية حال فإن العناصر الزخرفية في الزجاجيات المكتملة أقل من العناصر الموجودة على الكسر الزجاجية التي تتعدد فيها أشكال العناصر الزخرفية وطريقة تنفيذها. فقد عثر على كسرٍ ذات عناصر هندسية محزوزة بطريقة دقيقة، ومنها ما هو محاكاة للبلور الصخري، حيث تتعدد الألوان التي تنفذ في سمك الجدار الزجاجي، ومنها كسر ذات عناصر هندسية ونباتية مطلية بدهانات متنوعة مع حزوز سطحية على حوافها. ومنها كذلك ما يحتوي على نتوءات معمولة بقالب النفخ عندما كانت مادتها لينة طرية.

الأواني الزجاجية. كشفت الدراسات الآثارية الميدانية الحديثة عن كثير من أنواع هذه الأواني واستخداماتها. فقد كشف عن مجموعة من الزجاجيات الإسلامية المكتملة خلال مواسم التنقيب المتابعة التي أجريت في حفريات الربذة. ومعظم هذه القطع مصنعة محلياً، حيث عثر على مكان لصهر الزجاج وتحضيره في واحدة من غرف القصر (موقع أ). وفي أماكن أخرى من مناطق الحفر الأثري وجدت بعض الأفران الصغيرة أو المواقد التي يعتقد أنها كانت مخصصة لصنع الزجاج، إضافة إلى ذلك فقد عثر على بعض القطع التالفة.

ومن أهم ما عثر عليه في موقع الربذة القوارير المصنوعة من زجاج شفاف بألوان متعددة، منها الأخضر والأبيض والأزرق السماوي، ومنها ما صنع من زجاج داكن يوحي بتقليد البلور الصخري، وبه تموجات زخرفية أفقية ورأسية. ومعظم هذه الأنواع صنعت بطريقة النفخ في الهواء، وفي حالات قليلة بطريقة النفخ بالقالب، مع استخدام طرق مساعدة تكميلية للتشكيل النهائي وللزخرفة، مثل الضغط بالملقط والقطع والحز وغيرها. ومن هذه الأنواع قوارير ذات حجم كبير يصل ارتفاعها إلى



قارورة من الزجاج النقي بموقع الربذة

٢٥سم وقطرها إلى ١٨سم، أبدانها دائرية كروية، وأعناقها قصيرة، مع فوهة لها شفة معقوفة نحو الخارج. وهناك القوارير الصغيرة التي يتراوح ارتفاعها بين ٣ إلى ٧سم، وقطرها من ٢سم إلى ٥سم. وهي ذات أبدان دائرية أو بيضية أو متطاولة، مع أعناق قصيرة تنتهي بشفاه مختلفة الأنماط. كذلك عثر على قوارير صغيرة أبدانها ذات أضلاع تتراوح بين أربعة وثمانية أضلاع، وأعناقها دائرية ملساء.

ومما يلاحظ على مجموع هذه القوارير أنه لم يعثر على أغطيتها الخاصة بها، ولعلها كانت تغطى بسدادات خشبية أو زجاجية أو حتى معدنية تزود بمرود يستخدم لاستخراج ما يحفظ بها.



كوب زجاجي من موقع الربذة

كما عُثر خلال مواسم التنقيب في مدينة الربذة على زجاجيات ذات أشكال يندر مثلها، منها قارورة صغيرة، بدنها ذو مقطع مربع، وفي أركانها الأربعة بروزات مدببة شكلت بالقطع لتكون قاعدة تجلس عليها، وهذه البروزات تعطي القنينة شكل الضرس. أما العنق فهو أسطواني الشكل، وإن كانت به أضلاع خارجية متفاوتة الأحجام. ومما يجذب الانتباه أن أسفل هذا العنق وكذلك الجزء العلوي من الأكتاف مزودة بسلك معدني فضي أو نحاسي ربما كان له طابع جمالي، إلى جانب وظيفته لتثبيت سلسلة سدادة فوهة القنينة.

ومن القطع النادرة أيضاً جرة ذات بدن كروي أملس ناعم الملمس، ترتكز على قاعدة دائرية صغيرة، ولها عنق قمعي ينتهي بشفة حلقية. ويطوق هذه الشفة من الأسفل حلقة زجاجية ذات لون داكن، وربما كانت وظيفتها تثبيت سلسلة تمسك بالسدادة. وتبرز من نقطتين متقابلتين في كتف القنينة أُذنان تتصل كل منهما بأعلى الشفة وتنتهي ببروزٍ طفيف. والأذنان مشكلتان على هيئة مقبض جانبي، ولكن يبدو أنه لم يقصد من وضعهما سوى الزخرفة، نظراً لصغر حجميهما كمقابض. وهذه الجرة مصنوعة بطريقة متواضعة على هيئة حبال



قارورة من الزجاج بموقع الربذة

الصلصال الطينية ومضغوطة بالملقط عندما كانت مادتها طرية.

كذلك عُثر على أداة فريدة، مصنوعة من زجاج قاتم أملس شفاف، وهي إناء طبي يتكون من جزءين أساسيين هما البدن والأنبوب الجانبي. فالجزء الأول وعاء يشبه الفنجان له قاعدة دائرية صغيرة وينتهي بشفة سميكة. أما الأنبوب الجانبي فيشبه القمع الزجاجي، لكنه في هذه الحالة متصل بأعلى البدن بطريقة أفقية مائلة، بحيث ينساب بطول يتجاوز ٤ سم نحو طرف ضيق جداً حتى يسهل التحكم به عند صب السوائل. وعن وظيفة هذا الإناء يمكن القول إن صغر حجمه يدل على دقة في كيفية استخدامه، كأن يكون إناءً طبياً للأنف أو الأذن، أو ربما يكون إناء اختبار في معمل طبي أو كيميائي خاص.

وإلى جانب ما أوردنا عن الأواني الزجاجية، فهناك نوع آخر مصنوع من مادة الزجاج لا يقل أهمية عنها، ألا وهو الخرز. فقد عُثِر على مجموعة جيدة منه في عدة مواسم، وهي متنوعة الأحجام والأشكال. فمنها ذات الأحجام الصغيرة، ومنها الكبيرة، ومنها ما هي بسيطة ومتواضعة الشكل مصنوعة من زجاج عادي لونه أسود أو أبيض أو أزرق، ومنها الجميلة الجذابة ذات الألوان المتعددة والأشكال الفريدة. ووظيفة الخرزة تتمثل في عدة أمور، من أهمها استخدامها بشكل فردي أو منتظم عقوداً للزينة، سواء كان ذلك على الجيد أو مع الشعر أو على الملابس. ومن استخدامات بعض هذه الخرزات أن تكون معدة كأزرار لبعض الملابس الرجالية أو النسائية. كذلك لا يستبعد استخدام بعضٍ منها تعاويذ أو حروزاً سواء للإنسان أو للحيوان.

وهناك مواقع أخرى داخل المملكة أجريت فيها حفريات أثرية أسفرت عن الكثير من الأدوات والأواني الزجاجية، منها ما هو مصنع محلياً ومنها ما هو مستورد للاستخدام أو للتجارة. ومن هذه الحفريات ما قامت به إدارة الآثار والمتاحف في موقع عَثَّر بمنطقة جازان، إذ تم العثور على الكثير من الأواني الزجاجية المصنوعة بطريقة النفخ. وقد صنفت هذه الأواني حسب أشكالها أو عناصرها الزخرفية، فمنها الأواني الزجاجية العادية، والأواني المقطوعة، والمنفوخة، والمختومة، والمضغوطة، والمضافة، والمنقوشة. وكذلك تشمل هذه المعثورات الزجاجية عدداً غير قليل من الأوعية الزجاجية شبه الكاملة من قبيل

الأقداح والقوارير والبوتقات والأطباق، والكثير من العينات المتنوعة من الكسر، مثل الأعناق والحواف والقواعد وغيرها. وتغطي هذه المعثورات الزجاجية الإسلامية فترة زمنية تمتد من القرن الأول وحتى السابع الهجري. أما عن مصدر هذه الزجاجيات فمن المحتمل أن أغلبها مستورد. وعلى الرغم من ذلك وجدت بعض الشواهد والأدلة، مثل الزجاج الخام والأكوام والتلال المخروطية الصغيرة التي يُرجح أن تكون أفراناً لصناعة الزجاج محلياً.

كذلك عثر على بعض الكسر الزجاجية بموقع المابيات، وهي أجزاء من أوانٍ صغيرة وقوارير وصحون ومزهريات وأكواب متفاوتة السمك وملونة بالأخضر والأزرق والبني. وأغلب الظن أن هذه المجموعة معدة للاستعمالات المنزلية أو لحفظ الزيوت والعطور. ويأتي الكثير من هذه الأواني الزجاجية ملساء خالية من الزخرفة، في حين أن هناك نماذج مزخرفة بالخيوط الزجاجية البارزة والمضافة، وكذلك بأسلوب الزخرفة بالنقش والحفر. هذا إلى جانب ظهور بعض الكتابات العربية وغيرها من العناصر النباتية والهندسية منفذة بالبريق المعدني وألوان المينا. كذلك عثر في موقع المابيات على بعض الصنج الزجاجية المستديرة التي ترجع إلى العصر الفاطمي.

إن طبقة المعثورات الزجاجية التي عرضنا جانباً منها تشير بجلاء إلى أنّ الصناعات الزجاجية عرفت بشكل كبير وفعال في هذه المنطقة خلال الفترات الإسلامية المختلفة. كما أنها تثبت أن المواقع البكر التي لم تكتشف بعد جديرة بأن تحتوي على مثل ما حوته هذه المواقع.

الحلي

يحب الإنسان العناية بمظهره وجمال هيئته، فهو شديد الحرص على كل ما يزيد في حسنه ويؤكد جماله. وهذه الصفة مشتركة بين الذكور والإناث، إلا أن المرأة بحكم وظيفتها في الحياة وبما اختصت به من حس مرهف وأنوثة جذابة كانت أكثر من الرجل حرصاً على الجمال وتوقاً إلى تأكيد ذاتها من خلاله.

والتزين في الأصل له صلة قوية بالوظائف الحيوية للأجناس، إذ هو وسيلة من بين وسائل لفت نظر الآخر، فالروائح والأصوات والألوان كلها وسائل جذب أو صدٍّ حسب الموقف؛ لذا نجد العالم حافلاً بالأزهار والطيور والأسماك الملونة. وكان من الطبيعي أن يتخذ الإنسان وسائل جذب للآخرين، وبما

وهب من عقل، أبدع في وسائل تزينه، ومن ذلك اتخاذه الحلي.

والحلي في اللغة ما يُتَزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة، والحلي كل حلية حُلِّيت بها إمرأة أو سيف ونحوه، والجمع حُلي. وقد ورد اللفظ في آيات عدة من القرآن الكريم وبصيغ مختلفة، قال تعالى ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلا جسداً له خوار﴾ (الأعراف: ١٤٨). وقال تعالى ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثله﴾ (الرعد: ١٧). وقال تعالى ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ (النحل: ١٤).

الحلي في العصور القديمة. سبق أن أشرنا إلى أن معظم المواقع الأثرية في المملكة، لاسيما تلك التي تمثل فترة ما قبل قيام الممالك العربية، وجد فيها أعداد كبيرة من النقوش والرسوم الصخرية. وهي بذلك تعد رافداً مهماً لدراسة أحوال سكان تلك الفترة ونشاطاتهم. ثم إن المواقع الأثرية المكتشفة التي تعود إلى تلك الفترات، ولعل أهمها وأقربها فترة العصر الحجري الحديث، لا تعطي صورة واضحة عن أنماط حياة شعوب ذلك العصر، فضلاً عن محاولة البحث في خبايا تلك الفترة عن تفاصيل شؤون حياتهم اليومية وأوضاعهم الاجتماعية التي لا نشك أن المرأة أدت فيها دوراً في غاية الأهمية. ولمّا كانت حضارات شعوب العصور القديمة تنحصر في ما خلفه إنسانها على سطح الأرض، فإن الآمال تتضاءل في الحصول على جديد، نظراً لقلة ما خلفه من ناحية، ولتعرض تلك المخلفات للتلف نتيجة العوامل الطبيعية من ناحية أخرى.

ومن الرسوم الصخرية التي وجدت في منطقة بئر حمى، مناظر مختلفة لنساء ورجال يؤدون رقصات مختلطة لا نشك أنها تمثل نوعاً من الطقوس السائدة آنذاك. وإن كنا لا نملك قرينة علمية تفسر لنا كُنْهَ تلك الطقوس، غير أن ما يهمنا في هذا الصدد هو ما تظهره تلك الرسوم من حلي أبرزها فنان تلك الرسوم على نحور النساء إضافة إلى ما يشبه الخلاخيل في سيقان الرجال.

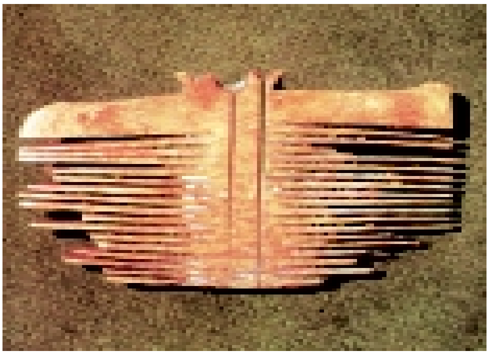
أما الخرز فكان شائع الاستعمال ويعد من أدوات الزينة الرئيسية، وقد استخدمه الإنسان منذ القدم، وكان يصنع من الحجر

الصلد العادي. ثم استعمل الحجر الصابوني، والزجاج البركاني، وأخيراً توصل إلى تطويع الكثير من الأحجار الكريمة في صناعة الخرز، كالياقوت والزمرد وغيرها.

ولم تكن أدوات الحلي تلبس للزينة فقط، بل كان لها مدلولات عقائدية أيضاً، إما لأمور دنيوية، كدفع الشر أو جلب الخير، أو لأمور أخروية، التماساً لمرضاة معبود أو خوف عقابه. فلعل من ذلك ما وجد في أماكن متعددة (مقابر الظهران، قرية الفاو) وهو حلية مصنّعة على شكل جعل أو خنفساء، وهذا النوع من الحلي كان مستخدماً بكثرة عند قدماء المصريين، ويرمز إلى الحياة واستمراريتها. وقد شاع استخدام الجعل في تزيين كثير من الحلي، بل في فنون مختلفة، إلا أن أفضل أنواعها ما استعمل في الأختام.

وقد عُرفت الأقراط والخواتم والأساور والأمشاط، إضافة إلى القلائد، وهي في جملتها مصنعة من خامات محلية قريبة التناول سهلة المعالجة، أكثرها شيوعاً الأخشاب والعظام، وإلى حد ما العاج والأصداف.

وتوضح الصور الجدارية في وادي الرافدين ووادي النيل ومناطق متفرقة من



مشط من الخشب، يعود تاريخه إلى فترة ما قبل الإسلام – موقع ثاج – المنطقة الشرقية

الشرق الأدنى أن النساء عرفن لبس التاج، وهو من الحلي القديمة، يلبس على الرأس، إما لتجميل الوجه أو تثبيت الشعر. وقد تطورت وظيفة التاج على مر العصور حتى أصبحت جزءاً من الطقوس الدنيوية، إذ ارتبط لبسه بالعظمة وقوة النفوذ، ولبسه الرجال، شأنهم في ذلك شأن النساء، ويختص به الملوك. وكان ملوك الحيرة يضعون التيجان على رؤوسهم، وفي شعر لمالك بن نويرة أن تاج النعمان بن المنذر كان من الزبرجد والياقوت والذهب:

لن يذهب اللؤم تاج قد حييت به
من الزبرجد والياقوت والذهب

وتزينت المرأة كذلك بالتاج لا كرمز للقوة والمنعة كشأن الرجل، ولكن لتضيف إلى جمالها رمزاً يؤكد أنوثتها وجاذبيتها.

وهناك أدوات كثيرة، منها المشط والمكحلة والمرآة لا تسعفنا الحفريات أو الرسوم لإثباتها، ولكننا أيضاً لا ننفي وجودها، بل إن المنجزات الحضارية التي حققها إنسان العصور القديمة في الجزيرة العربية، لاسيما خلال فترة الممالك العربية، لتؤكد بما لا يدع مجالاً للشك شيوع استعمال تلك الأدوات. ومن أنواع الحلي القديمة: القلادة وقد ظهرت عند عرب الجزيرة العربية إبان فترة الممالك العربية، وتكون غالباً من الذهب أو الفضة وتربط حول العنق وتتدلى على الصدر، وقد تصنع أيضاً من الخرز ومن الأحجار الكريمة. وكذلك السوار ويعد أيضاً من أنواع الحلى القديمة. ويذكر علماء اللغة أن السوار لفظة معربة من الفارسية، وأصلها في لغة الفرس «دستوار» ثم عربت إلى سوار. ويلبس السوار في المعصم، وهو حلية خاصة بالنساء، وقد لبسه بعض المحاربين قديماً ليتباهى به في الحروب. وقد أعيد استعمال السوار في الحروب الحديثة لتبين هوية المحارب، ويُلبس إما في المرفق أو المعصم.



قلادة من الخرز والذهب، تعود إلى فترة ما قبل الإسلام – موقع جاوان – المنطقة الشرقية

أما الخاتم فهو من حلي الإصبع، ويحلى بالأحجار الكريمة كالياقوت والألماس وغيرها. وللخاتم وظائف ذات أهمية كبيرة، وقد عد الخاتم عند الشعوب القديمة رمزاً للتفويض والتصديق والملك. وختم الملك، يدل على إرادة الملك ورضائه وأمره، ولذا قيل: خاتم الملك. وقد يصنع الخاتم من الشِّبْه أو الصفر أو الحديد، ويجعل على صور وأشكال متنوعة متعددة، وقد يحمل رموزاً تختص بلابسه. وفي الإسلام كان ينقش على الخاتم عبارات وأدعية، وربما نقش عليه اسم صاحبه. وقد كان خاتم رسول الله ﷺ من حديد ملوي عليه فضة.

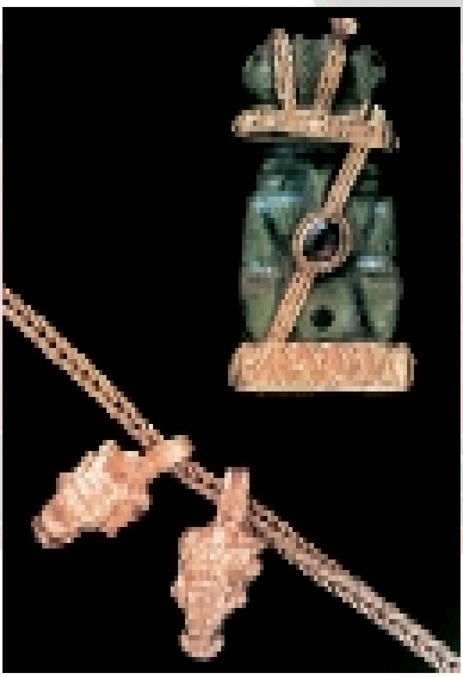
وأكدت الكشوفات الأثرية التي أجريت في مناطق مختلفة من المملكة أن الذهب والفضة والألماس والأحجار الكريمة كاللؤلؤ والياقوت، وظفت لخدمة

حلي الرجل والمرأة توظيفاً بلغ درجة في غاية الرقي، واستطاع الصائغ العربي أن يظهر براعته وحسن ذوقه من خلال تلك اللمسات الفنية التي أضفاها على صناعته. ولم تقتصر ملكاته الفنية على محاكاة فنون الصياغة التي عاصرها والتي سبقته حضارياً وثقافياً في مناطق متفرقة من الشرق الأدنى، كالعراق وسوريا ومصر، بل أضاف إليها فنوناً جديدة استوحى عناصر جمالها من بيئته، ووائم بين أدائها للغرض وبين ما يرضي طموحات ذوقه مما جعلها تحفاً فنية رائعة. ويعكس ما عثر عليه من حلي في المواقع المختلفة تلك المهارات العالية والفن الرفيع الذي امتاز به الصائغ العربي.

إن الكشوفات الأثرية التي تمت في قرية الفاو لتؤكد أن الحلي التي عثر عليها أثناء عملية التنقيب لم تقتصر على نماذج لصناعة محلية منعزلة، ولكنها جمعت حتى في أدق خصائصها اللمحة الفنية السائدة في منطقة الشرق الأدنى. فبجانب الجمل المصنع من البرونز الذي يعد نمطاً محلياً في خامته وفكرته وصناعته، نجد كذلك الدولفين، وهو حيوان بحري تبعد أماكن استيطانه مئات الكيلو مترات عن قرية «الفاو». وما يقال عن الجمل والدولفين يمكن تعميمه على بقية الأعمال الفنية التي مارسها الصائغ في الجزيرة العربية.

ومن التحف الرائعة التي أمدتنا بها حفريات قرية الفاو، ذلك الكم العظيم من المجوهرات، ونخص بالذكر منها تلك القلائد والعقود والأساور والخلاخيل والأقراط المصنعة من الذهب الخالص والمطعمة بأنواع مختلفة من الأحجار الكريمة.

ومن الحلي التي اختص بها الرجل في هذه الفترة، الخناجر، وكانت تثبت في وسط حزام يشد وسط جسد الرجل، وتصنع سلاسلها من حديد خاص،



حلي ذهبية – موقع قرية الفاو

وتطعم مقابضها وأغمادها بالعاج والذهب والفضة، شأنها شأن السيوف. وهي تستعمل أسلحة في الحروب وزينة في السلم.

الحلي في العصر الإسلامي. حث الدين الإسلامي على التزين والظهور بالمظهر اللائق، سواء كان ذلك في الملبس أو بالحلي، قال تعالى ﴿يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ (الأعراف: ٣١) وقال تعالى ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ (الأعراف: ٣٢) ومن هذه الآيات وأمثالها، ومن الأحاديث النبوية الشريفة نستنبط أن الشريعة الإسلامية السمحة لم تحرم التزين أو تنهى عنه، غير أنها أوجبت أن تكون الزينة ضمن الحدود المعتدلة والمحتشمة.

وقد أحرزت صناعة الحلي في العصر الإسلامي تقدماً كبيراً خاصة في المناسبات والأفراح. وكان يقال للمرأة التي تتزين بالحلي «إمرأة حال»، أما إذا لم يكن عليها حلي فهي «امرأة عاطل». وتطلق لفظة عاطل في الغالب على المرأة التي ليس في عنقها ولا يديها أو رجليها حلي. ومن أهم المعادن المستخدمة في صناعة الحلي، الذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان والعقيق والزمرد، وغيرها من الأحجار الكريمة.

وقد ارتبطت صياغة الحلي ارتباطاً وثيقاً بعمليات التعدين، لأن هذه الصنعة تعد من أهم الصناعات التي كانت قائمة في الجزيرة العربية، حيث توجد معادن الذهب والفضة والحديد والقصدير والجزع التي كانت صالحة للاستثمار. ويعد معدن بني سليم (مهد الذهب) من أماكن التعدين المهمة في الجزيرة العربية، فقد كان لهذا المعدن شأن عظيم في العصور الإسلامية الأولى. ومن أغزر مناجم الذهب في الجزيرة معدن حليت في حمى ضرية، كما يعد منجم العقيق في نجد من أغزر معادن الذهب. وهناك معادن أخرى مشهورة في الجزيرة، من أهمها معدن الهجيرة والأحسن والحقير والطيب ومعدن ضنكان والمؤخرة وانشراء وبيشة والقبيلة وعشم.

ويعد الذهب من أثقل المعادن وأثمنها، وهو معدن قابل للطرق أكثر من غيره. وهو من المعادن المعروفة في العصور القديمة، كما أنه من المعادن التي استخدمت بكثرة في صناعة الحلي عند

العرب منذ العصر الجاهلي. وقد عرفه العرب بتسميات مختلفة، فهو قبل أن يدخل في الصناعة التبر، وبعدها يطلق عليه العين والنضار والعسجد. ويلي الذهب في التزين معدن الفضة، وهو من المعادن المعروفة قديماً، وهو معدن خفيف قابل للطرق، ويقال له اللجين. وقد اشتهرت الجزيرة العربية بالذهب والفضة منذ زمن بعيد حيث استفادت من موقعها الجغرافي، لوقوعها على شواطئ طويلة، ولاتصالها بالأقاليم البحرية الأخرى، كالهند والمدن الأفريقية، فنشطت فيها تجارة الذهب وتداوله. ولم يكن إنتاج الفضة وصناعتها مقتصراً على البلاد العربية، بل شمل ذلك أقاليم أخرى، مثل بلاد فارس وغيرها، وكان لها دور مهم في عملية التبادل التجاري المستمر مع الجزيرة العربية.

ويأتي اللؤلؤ بعد الذهب والفضة في الاستعمال، وهو مادة تفرزها بعض الرخويات المحارية حول نواة صغيرة كطفيلي أو حبة رمل أو غيرها. وقد عدت العرب اللؤلؤ سيد الأحجار، إذ كان كثير الاستعمال في صناعة حلي النساء. وأطلق العرب تسمية الدرة على اللؤلؤة الكبيرة، ويطلق عليها قبل ثقبها العذراء. ومن الأسماء التي تطلق على اللآلئ الصدفية نسبة إلى الصدف الذي يستخرج منه اللؤلؤ، ومن أسمائها أيضاً التوأمية والمكنونة. أما اللؤلؤ غير الصافي فيطلق عليه الحبة.

ومن الأحجار الأخرى التي دخلت في صناعة الحلي عند المرأة الياقوت، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ (الرحمن: ٥٨). والياقوت استخدم كثيراً في الحلي في العصور الإسلامية، وهو ذو ألوان متعددة، منها الأحمر والأزرق والأبيض، ومن أحسنها الأحمر، وأقلها جودة الأبيض. ومن الأحجار الكريمة الأخرى المرجان، وهو نبات بحري أحمر متشعب، وورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ (الرحمن: ٢٢).

أما العقيق فهو مرو أحمر، عرف أجوده بأنه شديد الحمرة، ومنه الأصفر والأزرق والأسود والأبيض. ويتفرع من العقيق الجزع، وهو في الغالب ذو لونين أسود وأبيض، ويسمى بذلك، لأنه معرّق بلونيه المختلفين، أي قطع سواده بياضه فأصبح بذلك شبيهاً بالعين. وقد عرف العرب صناعة الحلي من الجزع منذ أقدم العصور. كما استخدم الودع بأنواعه

وأشكاله المختلفة في صناعة الحلي، خاصة ما يعد لزينة الأطفال، ومادته الأساسية خرز أبيض صغير الحجم ذو شق مسنن، وتشكل مادته من المحار والقواقع البحرية البيضاء.

واستغلت في الجزيرة العربية أنواع أخرى من المجوهرات والأحجار الكريمة ونصف الكريمة في صناعة ما يتحلى به كلٌ من الرجل والمرأة، ومن هذه المواد الخام ما هو محلي ومنها المستورد، كالألماس، والفيروز، والزمرد أو الزبرجد، والجزيز. كما يدخل في ذلك التزين بالعاج والعظم. ومن هذه المواد ما يستخدم لصياغة حلي قائمة بذاتها، ومنها ما يضاف إلى حلي أخرى، إما لتحسين شكلها العام أو لرفع قيمتها المادية.

وتعد الصياغة من الصناعات المعدنية التي عرفت في العصور الإسلامية في الجزيرة، ويطلق عليها صياغة الذهب والمجوهرات. وهي حرفة قديمة معروفة منذ أقدم العصور، يسمى صاحبها الصائغ، ويجمع على صاغة وهي العمل بالمعادن الثمينة وتشكيلها على هيئة حلي يتحلى بها الرجال والنساء.

ويبدو أن أهل الحجاز كانت لديهم معرفة بالصياغة وطرقها، وقد وجد لديهم صاغة قبيل ظهور الإسلام وبعده. فقد عرفوا في العصر الجاهلي الحلي الذهبية والفضية والنحاسية وغيرها، وفي المدينة اشتهر العرب بإجادة هذه الصناعة وإتقانها. وكان في مكة مجموعة من الصاغة كشأن أهل المدينة وغيرها من البلدان. ومما يدل على ذلك ما ورد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن هذا البلد حرام لا يعضد شوكه، ولا يختلى خلاه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمَعَرِّف. فقال العباس: إلا الإذخر فإنه لا بد لهم منه فإنه يقون والبيوت، فقال: إلا الإذخر». والقين هو الحداد. كما اشتهرت مدن أخرى بالحجاز بهذه الصناعة، كالطائف وخيبر ووادي القرى وغيرها، ولم تكن تخلو من صاغة يقومون بعمل حلي النساء وغيرها. وكان إنتاجهم يشتمل على ما يتُحلى به، كالخواتم والأساور والقلائد وغيرها، كما عُرفت أيضاً خلاخل النساء.

كذلك مارس الصاغة باليمامة صناعة حلي المرأة وإعداد ما يلزم لإظهار زينتها كالقلائد، وهو ما يجعل في العنق من حلي وغيره، والشنف الذي يعلق في أعلى الأذن، والأقراط في أسفلها،

وتكــون من الذهــب أو الفضــة. وفي اليمامة سوق يقال لــها العسجدية وهي سوق خاصة بالذهب والمجوهرات، وربما لا يقتصر بيع الذهب والفضة على هذه السوق، وإنما كان هناك صـاغة يقيمون فيها ويصنعون الحـلي ويسوّقونها. كما كان هناك البـاعة المتجولون لبيع الحلـي على أهل البادية في منازلهم.

وقد أقبلت المرأة العربية في العصر الأموي على اقتناء الأنواع المخـتلفة من الحلـي وما يتزيــن به. وتذكر المـصادر التاريخية أن معاوية بن أبي سفيان أهدى عائشة بنت أبي بكر قرطاً من ذهب فيه جوهر قدرت قيمته بمئة ألف درهم، كما وردت إشارات إلى أقراط مزينة بالدر، منها قرطان كانا لمارية بنت ظالم، وذكر أن فيـهما درتين كـبيض الحمـام. وقد وردت نماذج مخـتلفة مـن الأقراط في الرسوم الجدارية الأموية التي وجدت في الأردن مما يدل على أن هذه الحلي الأموية معروفة ومستخدمة ولا يستبعد وجودها في الحجاز في هذه الفترة، إذا نظرنا إلى مواسم الحج والعمرة وما يجلبه الحجيج معهم ويبيعونه في أسواق مكة.

كما استخدمت المرأة العربية الأطون، وهي حلية مستديرة ذات مـفصل واحد أو أكثر، تحيط بالرقبة، وقد اتخذت من الذهب المحلى بالجواهر. وكذلك العقود الطويلة التي تعرف بالمراسـل، والبسيط الذي قوامه سلسلة تتدلى من أسفلها حلية واحدة.

كما لوحـظ أن المرأة كانت تتحلـى بأكثر مــن قلادة، وقد تصل في بعض الأحيان إلى ثلاث. كما استخدمت المرأة الخواتم، وهي تشكل جزءاً أساسيـاً في حلي المرأة في العـصر الأموي. وتذكر المصادر التاريخية أن بعض نساء العرب كن يضعن خواتم في أصابعهن العشرة. وبالإضافة إلى ذلك تحلت المرأة الأموية بالأساور الخالية من الزخارف، كما تحلت بالدمالج، وهي الحلـي التي توضع في العضد.

أما في العصر العباسي، وهو عصر الرفاه والترف، فقد مال الناس إلى كثير من البـذخ في مظاهـر حياتهم الـعامة والخاصة. وكانت الحلي من مظاهر هذا الترف فاستخدمت أنواع كثيرة من الحلي النسائية التي كشفت عنها الحفائر الأثرية في كثير من المواقع الإسلامية. وكانت الحلي في هذا العصر أقراطاً، منها البسيط ومنها المتطور الذي تزينه تفريعات نباتية وزخارف هندسية. وكذلك وجدت أنواع من الأقراط الهلالـية الشكل، وقوامها زخارف نباتية معقدة.

وقد عثرت شركة التعدين العربية السعودية أثناء البحث عن الذهب في منجم مهد الذهب على أدوات استخدمت في استخراج واستخلاص الذهب من الشوائب. وهي رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح. كما كان هذا العمل يتطلب أفراناً خاصة بذلك، وهو ما يطلق عليه التنور.

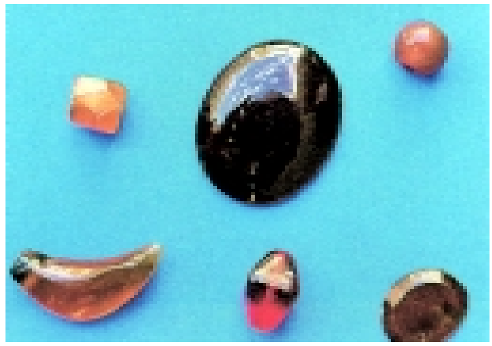
ويبدو أنه ليس من اليسير إعطاء صورة واضحة عما كانت تتحلى به المرأة في العصور الإسلامية، خصوصاً المبكرة منها. ويعود السبب الحقيقي في ذلك إلى ندرة المخلفات الأثرية نتيجة لقلة الحفائر الأثرية التي لم تأخذ طابعها الجدي إلا في السنوات الأخيرة.

ولهذا السبب فليس لدينا ما يكفي لدراسة الحلي وتصنيفها وتحليلها على أساس مادي من المعثورات، يمكننا في الوقت نفسه من عمل مقارنات دقيقة مع ما ورد في المصادر العربية المبكرة، سواء في النثر أو الشعر أو التاريخ أو غيرها. وهكذا تكاد تقتصر معرفتنا عن الحلي في العصور الإسلامية على ما كشفته التنقيبات الأثرية الحديثة.

وقد كشفت هذه التنقيبات في المواقع الإسلامية في المملكة عن شيء من أدوات الزينة والحلي التي استخدمت إبان العصور الإسلامية المختلفة. فقد عثر على أدوات زينة مصنوعة من أنواع عديدة من المعادن، منها الذهب والفضة والبرونز والنحاس والحديد والزجاج. وتتمثل هذه الحلي في أنواع شتى من المراود والمكاحل والملاقط والأساور وبقايا المرايا والخواتم.

كما عثر على بقايا حلي من الأحجار الكريمة، كفصوص الخواتم وحبات الخرز المتنوعة، التي منها ما هو برميلي أو منشوري أو كروي أو أسطواني. وتستخدم هذه الفصوص لتجميل عقود الزينة ذات اللون الواحد أو الألوان المتعددة، كالأخضر والأحمر والأزرق والأسود والكحلي والبني والفيروزي والأبيض والأرجواني. كما أن فصوص الحلي تظهر على شكل دلايات وبعضها تمثل أختاماً تحمل كتابات كوفية محفورة تمثل اسم صاحب الحلية أو بعض الأدعية والعبارات ذات الطابع الديني.

هذه الحلي -كاملة كانت أو ناقصة- عثر عليها في مواقع، إما أجريت فيها تنقيبات أثرية، كمدينة الربذة والمابيات ودومة الجندل وغيرها، أو من خلال مسوحات متعددة جرت على أرض المملكة الشاسعة.



فصوص وخرزات من العقيق، من القرن الثالث الهجري - موقع الربذة

وكشفت معثورات الحلي في المواقع الإسلامية أن المرأة تزينت بحلية مختلفة الأنماط، متباينة الأحجام، متفاوتة الأسعار. وكانت تستخدم لمعظم أعضاء بدنها تقريباً حلياً مناسبة، توضع أحياناً منفردة وأحياناً مجتمعة، فقد وضعت حلياً للرأس والشعر وكذلك للأذن والأنف، وحلياً للعنق والجيد، وثالثة لليد والمعصم والعضد. كما خصصت زينة للوسط والقدم، هذا عدا تلك الحلي التي تضاف إلى بعض أنواع الملابس التي ترتديها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن معظم حلي المرأة أخذت أسماءها إما من الموضع الذي توضع عليه ويتحلى به، كالمعاصم أو المعاضد، أو من طريقة التزين بها، كالقلادة والمخنقة، أو من شكلها كالهلال والحبة. كما تأخذ الحلي أسماءها في أحيان كثيرة من نوع المادة المصنوعة منها أو المكان الذي صنعت فيه.

وتكشف المعثورات أن المرأة في هذه المنطقة مالت إلى الحلي المصنوعة من الذهب والفضة، أكثر من غيرها. فمن ذلك الأقراط وأنواع الخرص، وهو القرط الذي يتدلى من جزئه الأسفل حبة واحدة، ويقال له الرعاف. وهناك الشنوف وهي من حلي الأذن، وتصنع من الذهب أو الفضة، وكانت تعلق في أعلى الأذن. ومن حلي الرقبة أنواع القلائد، ومنها المخنقة و الطوق والعقد. أما المخنقة فهي قلادة تلتصق بالرقبة، ومنها ما كان يتخذ من اللآلئ أو يزين بالدرّة، أما الطوق فقد عرف كثيراً في الجزيرة العربية، وكان يصاغ من الذهب أو الفضة، وربما طعم بالأحجار الكريمة.

كما كان من مظاهر الزينة عند النساء في العصر الإسلامي في هذه المنطقة لبس الحلي المصنوعة من العاج، وتوضع في معصم اليد، كما يلبسن البارق، وهو السوار العريض، وهو من حلي اليدين، وقد يرصع، وعرف هذا النوع من الحلي باسم الجبارة خصوصاً في اليمامة. وفي اليمامة أيضاً استخدمت الفتخ، وهي خواتم كبيرة تكون في اليد أو الرجل،

أو حلقة من فضة، ومثلها الدبل وهي أساور وأمشاط تعمل من ظهر السلحفاة البحرية، وقد وصلت إلى اليمامة من ساحل الخليج العربي.

ومن الحلي التي كانت تستعملها النساء في الأرجل الخلخال، ويوضع على الساق، ويصاغ من الذهب أو الفضة، وله أجراس صغيرة تعلق به ذات رنين خاص تحدثه عند تحريكها. وهناك أيضاً أنواع الحجول والمراسيل أو السلاسل التي تزين الأرجل. ولأصابع الرجل استخدمت حلق وخواتم خاصة تحلى بالأحجار الكريمة وأنصاف الكريمة.

المجامر والمسارج

يتناول هذا الفصل الحديث عن المجامر والمسارج في العصرين القديم والإسلامي، لما لها من أهمية واضحة في حضارة الجزيرة العربية. وقد عثر على الكثير منها في الحفريات التي أجريت في بعض مناطق الجزيرة العربية.

المجامر في العصور القديمة

دلت الأبحاث الأثرية على أن الجزيرة العربية عرفت الاستيطان منذ فترة العصر الحجري القديم الأسفل. واستمر هذا الاستيطان حتى العصر الحجري القديم الأوسط، ثم اتصل بعد ذلك حتى ظهور العصر الحجري الحديث في الألف السابع ق.م. حين توصل الإنسان في الجزيرة العربية إلى الاستقرار وبناء المساكن وأماكن العبادة والمقابر ومعرفة الفخار وممارسة حرفة الزراعة. وعلى الرغم من ذلك لا توجد لدينا معلومات واضحة عن استخدام المجامر في الجزيرة العربية بشكل عام، وفي هذه المنطقة بشكل خاص في فترة العصور القديمة. ويرجع السبب في ذلك إلى أن التنقيبات الأثرية في المملكة وباقي أجزاء الجزيرة ما زالت في بداياتها، كما أن المادة الأثرية المتوافرة لدينا حتى الآن، مع أنها اكتشفت عن طريق التنقيبات الأثرية في مواقع مختلفة بالجزيرة إلا، أن التقارير الأولية لتلك الحفريات لا تعطينا صورة واضحة عن استخدام المجامر سواء في الجزيرة العربية بشكل عام أو المملكة على وجه الخصوص، في فترة العصور القديمة، أي في الفترة ما قبل ١٥٠٠ق.م.

والجزيرة العربية عرفت استخدام المواد العطرية وحرقها منذ زمن بعيد. وقد اختصت بعض مناطقها بإنتاج المواد العطرية التي احتلت مكانة في العالم

القديم، إذ كان استخدامها جزءاً من الطقوس الدينية في ديانات المناطق الحضارية في الشرق الأدنى ودول البحر المتوسط.

وقد انتشر استعمال الدخون وحرقه في المجامر في العالم القديم، خاصة في مراسم الدفن والحفلات الدينية وعند تقديم القرابين إلى المعبودات في المعابد. وكان استعمال المجامر لحرق الدخون معروفاً في مصر القديمة، إذ يحمل الكهان المجامر ويحرقون فيها الدخون عند الاحتفالات الرسمية ومواسم الأعياد أثناء الخدمة الدينية في المعبد، وترجع أقدم المجامر التي عثر عليها في المقابر إلى الأسرتين الخامسة والسادسة. والأداة الشائعة لحرق الدخون في مصر القديمة هي مجمرة تتكون من قضيب من المعدن على شكل ذراع ويد بشرية تقبض على إناء نصف بيضي تظهر فيه كرات الدخون المشتعلة. كما أن هناك مجامر مصرية أخرى أقل شيوعاً من هذه المجمرة، وهي على شكل طبق نصف دائري أو شبه منحرف مقلوب. وقد عثر في المعبد المصري بسرابيط الخادم على مذابح البخور وهي شديدة الشبه بالمذابح السامية القديمة، خاصة التي كانت تستخدم عند العبرانيين، وتشبه أيضاً مذابح البخور القديمة في جنوب الجزيرة العربية. وفي وادي الرافدين استعمل الآشوريون والبابليون الخشب والمادة الصمغية المستخرجه منه دخوناً، بالإضافة إلى استخدامهم كثيراً من المواد العطرية في أغراض مختلفة، كالطب وتقديم القرابين وفي العطور والكهانة والصرافة. وتصنع المجامر في وادي الرافدين غالباً من الصلصال أو من الأحجار المختلفة. وكذلك تذكر النصوص التاريخية محارق الدخون الذهبية التي أقيمت لمردوك في عصر آشور بانيبال. كما وجدت المجامر ذات الأصل الأجنبي طريقها إلى آشور.

وقد تطورت في سوريا وبلاد ما بين النهرين أشكالٌ تقليدية من المجامر، بعضها استعمل لفترة قصيرة من الزمن وبعضها استعمل طوال تاريخ المنطقة. ومن أشكال المجامر في سوريا وبلاد ما بين النهرين، المجامر على شكل الصندوق، أو الدولاب، وهو الأكثر شهرة. وهناك أيضاً قاعدة أو منضدة العبادة الأسطوانية الفخارية التي تعمل كحامل لزبدية بها دخون في أعلاها. كما توجد المجامر المكعبة الشكل المعروفة جيداً في الجزيرة العربية، ثم المجمرة على شكل الزهرية ومنها أشكال عديدة.

وأخيراً ما يعرف بمسرجة أو مصباح البخور، وهي نوع من المجامر الصلصالية لحرق البخور عثر عليه في أوغاريت.

المجامر في عصر الممالك العربية

كان للدخون والتجمير دور كبير عند العرب في أداء الطقوس الدينية في المعابد وعند تقديم القرابين والنذور للآلهة. وقد عرفت مناطق جنوب الجزيرة العربية ببلاد الدخون، وصدرت هذه السلعة إلى مختلف بلاد العالم القديم. فاستوردت مصر المواد العطرية من الجزيرة العربية في عصور قديمة وازداد الاستيراد في العصرين الهلينستي والروماني. وكان اللبان من السلع التي قدمتها القبائل العربية كجزية وهدايا لملوك وادي الرافدين. واقترن اسم اللبان المستورد في فلسطين بملكة سبأ في العهد القديم. كما احتل الدخون قائمة الهدايا التي قدمها العرب لداريوس ملك الفرس. كذلك ذكر هيرودوت أن كميات كبيرة من الدخون كانت تقدم إلى الإله لتحرق على مذبحه في معبد بابل الكبير.

والمجمرة والمجمر الموضع الذي يوضع فيه الجمر بالمدخنة للتجمير. ولا شك أن المجامر تشكل عنصراً مهماً من عناصر اللُّقَى الأساسية في المواقع الأثرية بالجزيرة العربية بشكل عام، لما لها من اتصال مباشر بالعادات والطقوس الدينية. ويؤكد ذلك وجود المجامر في أماكن أثرية مختلفة، كالمدافن والمعابد والمناطق السكنية والأسواق وغيرها من المرافق الأخرى. ومرد ذلك بلا شك يعود إلى اهتمام المجتمع القديم في الجزيرة العربية بالدخون الذي تمثل تجارته لديهم عصب الاقتصاد والدخل. ولهذا أصبح الدخون والمجامر من سمات المعابد الوثنية في جزيرة العرب.



شجرة اللبان التي تنمو في جنوب الجزيرة العربية وجنوبها الشرقي

وقد عثر منقبو الآثار في المملكة العربية السعودية على نماذج عديدة من المجامر التي قدمت نذوراً إلى الآلهة. فالمجامر تعد من الهدايا المرموقة التي تقدم إلى الآلهة وتوضع في المعابد.

وأشارت النقوش العربية القديمة المكتوبة بالخط المسند الجنوبي إلى المجامر التي تحرق فيها أنواع البخور المختلفة. ومن الألفاظ التي تطلق على المجامر في النقوش «م ق ط ر»، «م ف ح م»، «م س و د»، «م ج م ر». كذلك وردت في أحد النقوش القديمة لفظة «ل ب ن هـ ن» أي لبؤان، وتعني وعاءين يحويان دخوناً. وتصنع المجامر غالباً من الحجر أو الحجر الجيري، بالإضافة إلى وجود مجامر مصنوعة من الفخار وأخرى من المعدن.

وفي جنوب الجزيرة العربية عثر في بعض المواقع الأثرية على مجموعة من المجامر الصغيرة والمربعة الشكل، معظمها مصنوع من الحجر أو الحجر الجيري.

وفي المملكة عثر المنقبون على عدد كبير من المجامر الحجرية والفخارية في مواقع أثرية متفرقة، مثل الفاو وثاج وتيماء والخريبة. وتمتاز تلك المجامر بالأشكال التقليدية المعروفة في الجزيرة العربية، وهي المجامر الصغيرة المكعبة الشكل ذوات الأرجل الأربعة، إلى جانب المجامر الكبيرة ذات الحوض المربع الشكل والقاعدة المخروطية.

ومن الجدير بالذكر أنه من خلال ما عثر عليه من مجامر في المنطقة التي سكنتها قيدار، يلاحظ أن استخدام محارق (مذابح) أو مجامر الدخون على الهياكل كان أحد ملامح حضارة قيدار، أو أحد ملامح الأماكن التي وصل إليها نفوذهم. ففي لكيش، التي يعتقد أن القيداريين حكموها، عُثر على ما يزيد عن مائتي مجمرة. ويذكر سترابو أن للأنباط مذابح في بيوتهم يسفحون عليها القرابين كل يوم ويحرقون البخور. والغالب أن الأنباط كانوا يحرقون البخور على المذابح إلى جانب استخدامهم للمجامر. وكانت المذابح النبطية غالباً من النوع الأقرن. وهي كثيرة العدد مقارنة بالمجامر، إذ لم يرصد من تقارير التنقيبات الأثرية في المواقع النبطية سوى عدد قليل من المجامر الصغيرة والعادية.

المجامر الحجرية. يوجد في الجزيرة العربية العديد من أنواع الأحجار القابلة للقطع والنحت، مثل الأحجار الجيرية والرخام والألبستر والحجر الصابوني والبازلت وغير ذلك. وقد استخدم

عرب الجزيرة هذه الأحجار في صناعة كثير من الأدوات، مثل أوعية حفظ مواد الزينة والأطباق. ومن الحجر الصابوني صنعت أواني الطبخ. وكذلك صنع من الحجر المجامر. وتعد المجامر الحجرية من المعثورات المهمة في المواقع الأثرية في الجزيرة العربية. فقد عُثر في موسم ١٩٥١م للتنقيبات في جبانة تمنع في جنوب الجزيرة العربية على مجموعة من المجامر المكعبة الشكل ذات الأرجل الأربعة. وكانت إحدى تلك المجامر من الداخل حجرية ومغطاة بطبقة من الجص، والأخريات في أغلب الأحوال من الحجر أو الحجر الجيري، ماعدا واحدة من الفخار، وهي الوحيدة التي لا توجد عليها آثار تزيين. وزخرفة تلك المجامر تضم نماذج مختلفة من التصاميم الهندسية والأبواب الوهمية. كما أن ثلاثاً منها تحتوي على حروف منقوشة عليها.

وكذلك عثر في معبد الإله سن في الحريضة بحضرموت على مجموعة من المجامر المكعبة من الحجر الجيري والواقفة على أرجل قصيرة، واكتشف في واحدة منها بقايا مادة راتينجية عطرة. كما أن منها ما حَمل نقوشاً بالخط المسند الجنوبي تذكر أسماءً لأنواع مختلفة من البخور. وهذا النوع من المجامر عثر عليه أيضاً في بعض الأماكن في فلسطين. كذلك توجد كثير من المذابح والمجامر الحجرية من جنوب الجزيرة العربية في عدد من المتاحف الأوروبية.

وعثر في المملكة على نوعين من المجامر الحجرية. النوع الأول المجامر الصغيرة؛ وقد عثر في قرية الفاو على مجموعة منها، مربعة أو مكعبة مصنوعة من الحجر الكلسي وهي ذات أربع أرجل قصيرة ومربعة. ويوجد أحياناً في أعلى كل رجلين منها تجويف مستطيل نافذ كعنصر زخرفي لها. ويوجد على جدرانها الأربعة من الخارج، وأحياناً على جدار واحد، كتابة بالخط المسند الجنوبي بأسلوب غائر، وهي أسماء لأنواع من الدخون المستخدم مثل «ض ر و» «ل د ن» «ر ن د» «ق ل م» «ل ب ن ي» «ك م ك م» «ق س ط» «ح ذ ك». كما يُكتب أحياناً على جدران المجمرة الأربعة بعض الألفاظ الدينية أو ألفاظ التقديم للمعبودات ومن أهمها مبخرة كتب عليها اسم «كهل».

وعثر في مواقع أخرى على مباخر حجرية صغيرة، منها مبخرة عثر عليها في الدفي في المنطقة الشرقية من



مجمرة مربعة مصنوعة من الحجر مكتوب عليها رند وهو اسم البخور المستخدم فيها

المملكة، وفي ثاج في شـرق المملكة، والحِجْر. وفي مدافن الظهران عثر على مباخر عليها رسومات مختلفة كالعقرب والجمل والـسمكة والـنخيل والـثور، وكذلك عثر فيـها على مبخرة صغيرة مزخرفة الجوانب بالأشكال الهندسية، عليها أثر الـتلوين بالأحمر والأسود، ومن أهم مبـاخرها مبخرة من الـحـجر مكعبة، حجمها ٨,٥سم × ٨,٥سم بارتفاع ٦,٥سم، وعلى جوانبها الأربعة زخارف هندسية، كل ضلع يختلف عن الآخر، وعلى أحد أضلاعها نحت بارز لحيوانـين غريبي الشـكل يلتقـيان من الخلـف، وعلى حـافة الإناء زخارف هندسية، وعليها أثر الحرق من إشعال البخور.

أما في تيمـاء فقد عثر على نوعين من المباخر:

النوع الأول مباخر تعد الأولى من نوعها في الجزيرة العربية لأنها استخدمت في آنية على شكـل الكأس يفترض أن تكون خصصت للشرب، وهي مبخرة ذات قاعـدة بارزة من الخارج، وعـلى بدنها زخـارف بأشكال هندسيـة تلتف حول البدن ملونـة باللون البني الغامق والفاتح، وعثر في إحداها على بـعض الفحم مما يـؤكد استخدامها كمبـخرة، وهذه النوعية من المباخر وجدت داخل المدافن.



مبخرة من تيماء وجد بها بعض الفحم

النوع الثاني، مباخر كبيرة من الحجر الرسوبي على بعضها زخارف هندسية تحمل كتابات لحيانية، والأخرى كتابات بالمسند الشمالي.

وفي تاروت عثر على مبخرة من الحجر الصابوني ذات مقبض طويل وحوض المجمر دائري الشكل، ويحتوي البدن والقاعدة على زخارف غائرة قوامها دوائر وأشرطة تلتف حول البدن، وتحتوي القاعدة على أربع أرجل.

وفي الأخدود في نجران، عثر على مباخر حجرية شبيهة بمباخر قرية الفاو، عليها كتابات بالمسند.



مبخرة من الأخدود عليها كتابات بالمسند

وفي الطائف عثر على مبخرة من الحجر الصابوني في طور الإنتاج وهي مشابهة للمبخرة الحجرية ذات المقبض الطويل والحوض الدائري الشكل التي عثر عليها في تاروت، وعثر في الطائف أيضاً، على مبخرة من الحجر الصابوني في طور الإنتاج مربعة الشكل ١١×١١سم بارتفاع ٧سم، وعلى البدن مقبض صغير.

وفي عَثَّر في منطقة جازان عثر على مباخر بأعداد كبيرة على شكل مكعبات مزخرفة بأشكال هندسية غائرة في الأرجل والأبدان، ومنها مبخرة ذات شكل متميز صنعت من الحجر الصابوني، وهي جزء من بدن وقاعدة بارتفاع ٧,٥سم ذات سمك يصل إلى٩ ملم، لم يبق من أرجل القاعدة إلاّ واحدة، ويشاهد على البدن زخرفة من الخارج قوامها تضليع عمودي بارز، ينم عن إتقان.

وفي المابيات جنوب غرب مدينة العلا عثر على مباخر من الحجر الصابوني والمرمر، ومبخرة فريدة من نوعها، وهي مبخرة من الحجر الرملي الأحمر مستطيلة الشكل تحتوي على حوضين للبخور، طولها ٢٠سم وعرضها ٩سم بارتفاع ٨سم مهشمة القواعد.

أما النوع الثاني فيتمثل في المجامر الكبيرة وهي عبارة عن كتلة من الحجر الجيري الصلد أو من الصخر على هيئة مذبح. وقد عثر على عددٍ منها في المقابر وعلى عددٍ آخر إمّا في المعابد أو في



مبخرة من المابيات تحوي حوضين للبخور

السوق أو في المنطقة السكنية في قرية الفاو. وتتكون هذه المجامر من جزءين، السفلي وهو قاعدة مخروطية الشكل، والعلوي وهو حوض مربع الشكل به تجويف قليل العمق. ويكتب غالباً على أحد جدران المجمرة بالخط المسند ما نظنه ألفاظاً دينيةً أو نقوشاً نذرية. ولبعض تلك المجامر شكل المجمرة التقليدية، بالإضافة إلى وجود مربع صغير فوق الكتابة منحوت فيه بشكل بارز قرص الشمس والهلال. كما تمتاز هذه المجامر أو المذابح بمدرجات منحوتة على جانبي الحوض تشبه ما يسمى خطوة الغراب في العمارة النبطية، خاصة مقابر مدائن صالح، وتوجد على الواجهة في الغالب رسومات منحوتة، توضح واجهات معابد وزخارف معمارية، مثل الدرج والأبواب الوهمية.

وهناك نوع آخر من هذه المذابح أو المجامر توجد على جوانبها الأربعة من أعلى رسومات على هيئة رؤوس آدمية وأشكال حيوانية، خاصة الوعول. كما



أنموذجان من المجامر الحجرية الكبيرة المستخدمة في المعابد بقرية الفاو

توجد بالإضافة إلى ذلك كتابات بالخط المسند الجنوبي.

وفي حفريات قصر الحمراء بتيماء عثر في الموسم الثاني على مجمرة كبيرة من الحجر الرملي عند مدخل إحدى الغرف. وهي ذات لون بني داكن وجيدة الصنع، ويبلغ ارتفاعها حوالي ٤٠سم، وتتكون من ثلاثة أجزاء: القاعدة والبدن والحوض. وهي مزينة من الخارج بتهشيرات وتنقير بقصد الزخرفة، وقاعدة المجمرة وحوضها مربعان، أما بدنها فأسطواني الشكل. وربما تعود هذه المجمرة إلى حوالي القرن السادس ق.م. أما في الموسم الثالث لحفريات قصر الحمراء بتيماء فقد وجد في إحدى الغرف، التي تمثل مقر طقوس وعبادة الإله، تمثال مقطوع الرأس وعلى يساره مجمرة كبيرة من الحجر الرملي، وهي مستطيلة وحوضها مربع الشكل، وعلى وجهين منه تتكرر كتابة آرامية نصها «إله الآلهة».

كما عُثر في الطبقة الأثرية الثالثة من أحد مربعات التنقيب على مجمرة فريدة من نوعها وطرازها، مصنوعة من الحجر الرملي الرمادي، وهي غاية في دقة الصناعة والإتقان. وتتكون من جزءين، الأول قاعدة أسطوانية تبدو عليها آثار التنقير، مما يرجح استخدامها في الدق، والثاني مربع بارز للخارج يمثل حوض المجمرة. وفي مربع آخر عثر في إحدى الطبقات على مجمرة كبيرة من الحجر الرملي البني، أجزاء قليلة منها مكسورة. ويبدو عليها تماثيل في شكل كل من القاعدة والحوض، حيث يصل بينهما بدن أسطواني الشكل تغطيه زخرفة، وهي تهشيرات. ومن ضمن المعثورات الحجرية في الموسم الثالث لحفرية الخريبة الجنوبية، مجمرتين من الحجر الرملي. الأولى تمثل نصف مجمرة لها عدد من الأرجل، والثانية قاعدة مجمرة من الحجر الرملي الطفحي.

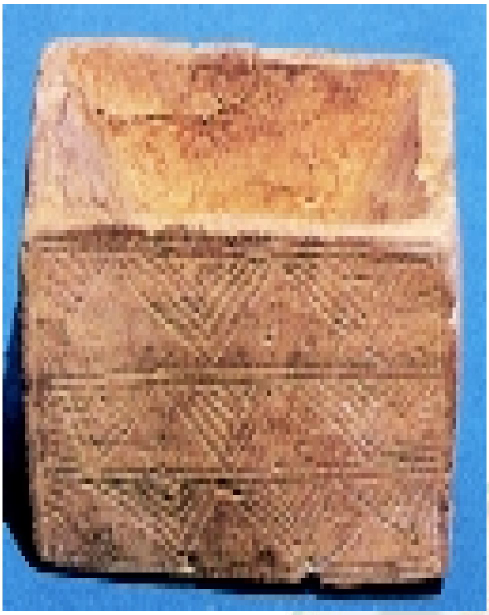


مجمرة كبيرة من قصر الحمراء بتيماء

المجامر الفخارية. استخدم العرب، مثل غـيرهم من الشـعوب الأخرى، الأواني الفخـارية، إذ توافرت لديهم المواد الأولية اللازمة لصناعتها. وكانت لديهم الخبرة والمعرفة في صناعة الفخار، وإن تـفاوتـت حسـب درجة تحـضر المجتمع. وقد انتشرت صناعة الفخار في الجزيرة العربية وأصبح لكل منطقة نوعية خاصة منه. ومـن الفخار صنع العرب أيـضاً المجامر، إلا أنها تـعد، إلى حد ما، أقـل انتشاراً من المجامر الحجرية، وربما أقدم وجوداً. والمجامر الفخـارية في معظـمها، إن لم تـكن جميعها، صغيرة الحجم ومكعبة الشكل ولها أربـع أرجل قصيـرة في العادة. وعلى جدرانها أحياناً عناصر زخرفية، هندسية أو حيوانية.

وفي قريـة الفاو عُثر عـلى مجامر صغيرة مكعبة الشكل من الفخار، على معـظمها زخـارف هندسيـة في شكل مثلثات مرسومة بطريقة الحز. أما طينتها فهي عادية تخلو من الشوائب العضوية، كما أن حرقها خفيف. ولا يعرف حتى الآن عن مجامر فخارية عليها كتابة.

وفي ثاج عثر على مـجامر طينية، كثير مـنها يحمل زخارف عـلى شكل خطوط مـحززة، أو خطوط منحـنية، ومعظمها ذات تصميم مسطح، وارتفاعها أكثر من عرضها، وعليها زخرفة أسنان المنشار. ثم عثر بعد ذلك على مجموعة من المجامر المصنوعة من الفخار الأحمر الخشن المحروق والمدهون بلـون الكريم والبني. وهي مجامر مكعـبة ومحمولة على أربع أرجل مجوفة السطح، وتظهر على جوانب البدن زخارف في أشكال هندسية مهشرة ومسننة.



مجمرة فخارية من موقع ثاج بالمنطقة الشرقية

ومن بينها مبخرة صغيرة، يبلغ طول أضلاعها ٤سم×٤سم بارتفاع ٣,٥سم وعلى جوانبها زخارف غائرة تمثل أشكالاً هندسية. ومن أهم المباخر تميزاً في ثاج جزء من مـبخرة مكعـبة، صنعت مـن

الفخار، تحتوي على أحواض أربعة لحرق البخور، موزعة على جميع واجهات المبخرة، ويعد هذا الشكل فريداً من نوعه في المملكة.

وفي المدفن الرئيسي في حفرية جنوب الظهران عُثر على مجمرة صغيرة مكعبة وغير مكتملة من الفخار، تشبه مجامر جنوب الجزيرة العربية ومجامر قرية الفاو. وهي مزينة بزخارف هندسية غائرة تمثل مثلثات ودوائر وخطوط مستقيمة ومائلة باللون الأسود والأحمر.



مجمرة فخارية
موقع جنوب الظهران بالمنطقة الشرقية

بعد ذلك وجدت ثلاث مجامر طينية، الأولى منها تفتقد بعض أجزاء من حافتها، وترتكز على أربعة نتوءات بمثابة أرجل للمجمرة، وبأعلاها آثار حرق البخور. وهي مزخرفة بزخارف هندسية غائرة. وطينتها خضراء محلية ومطلية باللون الأحمر، والزخرفة بخطوط سوداء. والثانية ذات طينة محلية تماثل طينة شمال المنطقة وطينة واحة الأحساء. وعليها نقوش هندسية غائرة، قوامها خطوط تمثل مثلثات، وهي تماثل مجامر جنوب الجزيرة العربية ومجامر قرية الفاو من حيث التأثيرات الفنية والصناعية. أما الثالثة فتفتقد إحدى أرجلها، وتوجد عليها أشكال هندسية زخرفية غائرة. وعلى إحدى واجهاتها رسم لكلب صيد من نوع السلوقي. كذلك عثر على مجمرة من الفخار ترتكز على أربعة نتوءات كأرجل مربعة للمجمرة من دون بروز للزوايا، وهي مطلية بطبقة كريمية اللون رقيقة، وفخارها أحمر محروق يتميز بذراته الكلسية والفقاعات الصفراء، وهذا النوع يمتاز به فخار الخليج المحلي (فخار دلمون).

وفي الموسم الرابع للتنقيبات في حفرية جنوب الظهران، عثر في المدفن الرئيسي على مجمرتين من الفخار

مكعبتي الشكل، ولكل منهما أربع أرجل. الأولى عليها رسوم لعقرب، وأخرى لجمل، أما الثانية فعليها من جميع الجهات رسوم لجمال وأسماك ونخيل وثور.

وفي حفرية الدفي في مدينة الجبيل، حرم الكلية التقنية، عثر على مجمرتين تشبهان تلك التي عثر عليها في ثاج وقرية الفاو. فالأولى صغيرة جداً، مكعبة الشكل، من الطين تبلغ أطوالها ٣سم×٣سم بارتفاع ٤سم، ولها أربع أرجل، وذات شكل شبه منحرف، ومجوفة من الداخل. ويبدو أن طينتها محلية، وبها كمية قليلة من الصلصال وتميل إلى الاخضرار وتعد أصغر مبخرة عثر عليها حتى الآن في المواقع الأثرية في المملكة. أما الثانية فقد صنعت من الفخار الرديء وذات قوائم أربع، كما أن حوافها العلوية وأرجلها السفلية متآكلة. وهي مطلية باللون الأحمر الفاتح.

وفي مدافن موقع الصناعية بتيماء عثر على طراز جديد من المجامر ينفرد به هذا الموقع حتى الآن، وربما يعود تاريخ هذه المجامر إلى الفترة ما بين القرنين السابع والثامن ق.م وربما أقدم. ويتمثل هذا الطراز الجديد في مجموعة من المجامر الفخارية على شكل كوب مخروطي إلى أسفل ينتهي بقاعدة مستديرة. والفوهة منفرجة بارتفاع يتراوح ما بين ٧-١٠سم تقريباً. وهذه المجامر الفخارية ذات عجينة وردية إلى برتقالية اللون مخلوطة بشوائب حصوية مقوية ومطلية من الداخل والخارج. ويزينها من الجانبين زخارف معظمها هندسية بسيطة التركيب وتختلف من مجمرة إلى



طراز مختلف من المجامر

أخرى، وقد اختيرت ألوان الخطوط الزخرفية من اللونين البني والأسود.

وفي الموسم الثالث لحفرية الخريبة الجنوبية عُثر على مجمرة نبطية شبه مكتملة. وهي مصنوعة من الفخار الخشن وتوجد عليها زخارف تتكون من خطوط مستقيمة متقاطعة. كذلك عثر في موقع لقطة الطوير على أجزاء من مباخر فخارية صغيرة الحجم تزينها زخارف محزوزة تحت الطلاء.

المجامر في العصر الإسلامي

عندما ظهر الإسلام لم يعترض على عادة استخدام الدخون المتوارثة عند العرب، بل سمح باستخدامه في المسجد فقد حث الرسول ﷺ على تجمير المساجد، فقال «جمروا مساجدكم». وكان عبدالله المجمر مولى عمر بن الخطاب يجمّر المسجد إذا جلس الرسول ﷺ على المنبر. كما كانت مواد الزعفران والعنبر والعود معروفة في زمن الرسول ﷺ، واستعملها الصحابة في حضرته. وقد حافظ عرب الجزيرة العربية على عادتهم في استخدام البخور في المساجد والمنازل وحرصوا على تقديمه لضيوفهم طوال فترات التاريخ الإسلامي. وأصبحت هذه العادة رمزاً من رموز الضيافة العربية الأصيلة في جزيرة العرب، وهي ما تزال كذلك في الوقت الحاضر، كما هو الحال في المملكة ودول الجزيرة العربية الأخرى.

ونجد في بعض المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية معلومات قليلة عن مواد الدخون المستخدمة في بعض مناطق المملكة خلال القرون الأولى للهجرة، غير أنه يندر العثور، فيما أطلعنا عليه من هذه المصادر، على وصف لأنواع المجامر التي كانت تستخدم في تلك الفترة، وأشكالها، والمواد التي صنعت منها. ولحسن الحظ أمدتنا أعمال المسح والتنقيب الأثري التي أجريت في بعض مواقع الآثار الإسلامية بالمملكة، كالربذة وعثَّر وبدا والمابيات ونجران بمجامر كاملة وكسر مجامر يعود تاريخها إلى الفترة الممتدة من القرن الثاني إلى القرن السادس الهجري، وهي مجامر مصنوعة من الحجر الصابوني والفخار والمرمر والبرونز. وفيما يلي نتحدث عن كل نوع من أنواع هذه المجامر، التي تعرف أيضاً باسم المباخر، في ضوء المعلومات المتوافرة عنها حتى الآن.

مجامر الحجر الصابوني. عثر على نماذج جيدة من مجامر الحجر الصابوني



مجمرة من الحجر الصابوني، تعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة – موقع الربذة

يعود تاريخها إلى القرون الأولى للهجرة، في حفرية الربذة وفي حفرية المابيات. كما وجدت كسرة من هذا النوع في موقع بدا القريب من الوجه. ولهذه المجامر أشكال متعددة يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

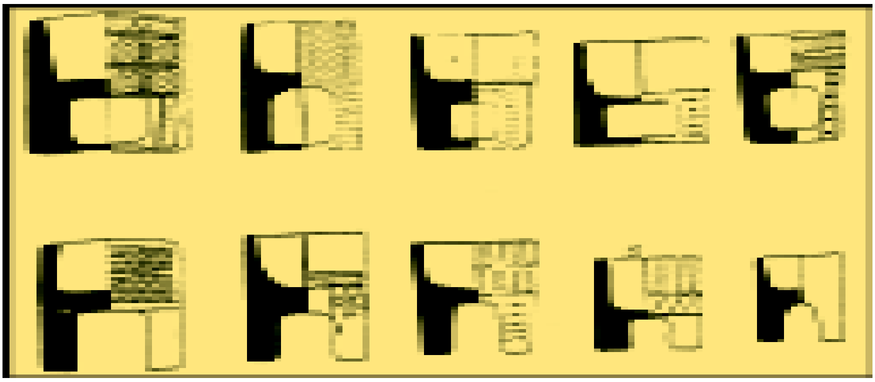
١) مجمرة دائرية الشكل محمولة على أربع أرجل قصيرة تبرز تحت قاعها، ولها ممسك متصل ببدنها.

٢) مجمرة دائرية الشكل لها أربع أرجل طويلة ترفع بدن المجمرة عن الأرض وتمتد إلى مستوى حافتها.

٣) مجمرة على شكل دائرة مفصصة من الداخل لها أربع أرجل بارزة، ومقبض طويل على شكل قضيب.

٤) مجمرة مكعبة الشكل لها أربع أرجل متصلة بقاعدة مستوية. ويتوسط أرجل المجمرة قضيب أسطواني. وتشبه هذه المجمرة المكعبة مجامر عثر الفخارية كما أنها تشبه المجامر الحجرية والفخارية المكعبة التي كانت تصنع في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

المجامر الفخارية. عثر على مجامر مصنوعة من الفخار على شكل مكعبات في موقع عَثَّر القريب من جازان، وهي مجامر ذات أهمية علمية كبيرة لأنها تمثل استمراراً لنمط المباخر العربية القديمة ذات الشكل المكعب التي كانت تصنع في بعض مناطق الجزيرة العربية منذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد. ويعتقد بأن مجموعة عَثَّر من هذه المجامر الفخارية هي الأولى من نوعها التي ظهرت في أواخر العصر الإسلامي المبكر. وتتخذ هذه المجامر شكل مكعب صغير محمول على أربع أرجل قصيرة، ومزود بتجويف غير عميق يحرق فيه البخور. كما زودت بعض نماذج هذه المجامر بقاعدة مستوية ملتصقة بأرجل المجمرة. وتزين هذه المجامر زخارف هندسية غائرة قوامها مجموعات متكررة من المثلثات المتقابلة ومستطيلات صغيرة وخطوط متوازية وخطوط متموجة، كما زين بعضها بدوائر صغيرة متجاورة تكوّن مجموعات من الخطوط الرأسية والأفقية والمائلة.



نماذج من المجامر الفخارية، تعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة – موقع عثر

مجامر المرمر والبرونز. ورد في التقرير المبدئي الذي نشر في العدد التاسع من حولية أطلال، عن نتائج الموسم الأول من الاستكشافات الأثرية بموقع المابيات الإسلامي، إشارة لوجود مجامر برونزية ومجمرة واحدة من المرمر ضمن المواد الأثرية التي عثر عليها بالموقع. ولم ترد في التقرير معلومات إضافية عن هذه المجامر التي تعد من أوائل ما وجد من مجامر البرونز والمرمر في المواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة.

أما المجامر المستخدمة في مناطق المملكة خلال العصور الإسلامية المتأخرة، قبيل وخلال العصر العثماني، فقد كان أكثرها من الفخار. وكانت تصنع محلياً في مراكز صناعة الفخار بالأحساء والحجاز وعسير ونجران والباحة والقنفذة وجازان. وكان معظمها على شكل إناء صغير محمول على قاعدة مخروطية، ومزود في بعض الأحيان بمقبض واحد أو أكثر، يسمح بتعليق المجمرة. وقد استخدمت المجامر المصنوعة من المعدن، وكانت تستورد من الهند والعراق ومصر والشام، كما استخدمت أيضاً المجامر المصنوعة من الخشب الملبس برقائق الحديد، واشتهرت منطقة نجد بصناعتها.

وتعد صناعة المجامر بأنواعها المختلفة إحدى الصناعات التقليدية المهمة التي ما تزال تمارس في عدد من مناطق المملكة. ويبدو أن أشكال المجامر التي يصنعها الحرفيون الشعبيون بالمملكة في الوقت الحاضر تمثل استمراراً لأشكال المجامر التي كانت تصنع خلال العصور الإسلامية المتأخرة.

المسارج في العصور القديمة

المسارج والمصابيح وسيلة من وسائل الإضاءة، وقد جاء ذكر المصباح أو السراج في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة﴾ (النور: ٣٥).

فالمصباح: السراج، والسراج المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل، والمسرجة التي فيها الفتيل.

والمسرجة في القديم حوض صغير يوضع فيه الزيت، متصل بفتيلة من القماش تمتص الزيت فتضيء حين تشعل فيها النار. وقد صنعت في بادئ الأمر من الأحجار أو الفخار، ثم صنعت من المعادن بأشكال جمالية متنوعة.

وللمسرجة أسماء مرادفة لها كالسراج والنبراس والمصباح، وهي بمعنى واحد، ولكن اسم السراج أجود في المعنى، ويتكون السراج من الفتيلة، وهي الشعيلة والذبالة، والسليط (الزيت). قال امرؤ القيس:

يضيء سناه أو مصابيح راهب
أمال السليط بالذبال المفتل

عرف الإنسان فائدة النار منذ القدم. فحين احتاج إلى التدفئة في فصل الشتاء، استخدم نار الخشب التي منحته الدفء وعملت على إثارة ذعر الحيوانات الضارية التي تتربص به. كما أن هذه النار حققت رغبته في الحصول على شيء من الإضاءة للقضاء على ظلام الليالي المخيف. كما أن هذا الإنسان وصف آلهته بالنور وتخيلها تملأ الكون بالضياء، إذ ظهرت عبادة الشمس والقمر ونجم، أو نجمة الصباح في ديانات الشرق القديم. وبعد ذلك اهتدى الإنسان لصناعة السراج بشكله البدائي عندما توصل إلى ابتكار طريقة إشعال نوع من الفتيل بغمسه في حوض حجري صغير أو صدفة بحرية صغيرة تحتوي على شحوم أو زيت. وتنقسم المسارج حسب المادة المصنوعة منها إلى: مسارج حجرية، ومسارج من الفخار، ومسارج خزفية، ومسارج برونزية. ويمكن عَدّ المسارج الفخارية، على وجه الخصوص، من أكثر المعثورات الأثرية اكتشافاً في بلاد العالم القديم.

استخدم المصريون القدماء الخشب المشتعل كوسيلة إضاءة للتغلب على الظلام، ثم توصلوا في بداية الألف الثالث ق.م إلى استخدام سُرُج قديمة، وهي أوعية من الفخار، فتيلها من الحشائش المجدولة أو خيوط أقمشة

مفتولة، وزيتها من الشحم الحيواني أو زيت الخروع. وكانت مسارج قدماء الإغريق في بداية أمرها بسيطة المظهر ثم أصبحت معقدة بالتدريج، فقد كان للسراج في البداية مثعب (مرزاب) واحد يخرج منه الفتيل المـبْتَلّ بالزيت ثم أصبحت له بعد ذلك مثاعب عديدة بلغت حوالي عشرين مثعباً، ثم جعلوها مغطاة حتى لا يتسرب الغبار والأوساخ إلى زيت الاشتعال، كما قاموا بتطوير أشكال المسارج وتزيين سطوحها بالصور والزخارف، وبعضها كانت تحمل علامة خاصة بمصنعها. أما الرومان فقد أخذوا صناعة المسارج من المدن اليونانية وإيطاليا الجنوبية، وعرفوا المسارج البسيطة المكونة من وعاء من الحجر أو الفخار أو البرونز دائري الشكل وله مثعب في منتصف سطحه العلوي لصب الزيت. وفي مقدمة هذا الوعاء صنبور يخرج منه الفتيل المبتل بالزيت، وفي الجهة المقابلة للصنبور مقبض له حلقة مستديرة. وتمتاز هذه المسارج بزخارفها الفنية وموضوعاتها الأسطورية، وبعضها يحمل كتابات تذكر أسماء عدد من الصناع. ويؤكد بعض الباحثين أن أقدم المسارج جاءت من أور في العراق القديم، وقد عثر في أريدو على مسرجة في شكل طاسة قعرها غير ثابت وحافتها مثنية قليلاً إلى الداخل لتكون ما يشبه المثعب، وتعود إلى حوالي ٤٠٠٠ سنة ق.م. وكانت بلاد ما بين النهرين تصدر المسارج إلى البلاد الأخرى المجاورة، فقد عثر في بيت شمس بفلسطين على مسرجة مستوردة من بلاد ما بين النهرين، تمتاز بوجود غطاء في أعلاها ومقبض في جانبها بالإضافة إلى وجود مثعب للفتيل، وهي تعود إلى حوالي عام ٥٠٠ ق.م. وأما في فلسطين وبلاد الشام فإن تاريخ المسارج، خاصة الفخارية منها، يبدأ في أواخر الألف الثالث ق.م. إذ استخدمت الأطباق الدائرية الشكل والضحلة العمق والمصنوعة بالدولاب، وجعلت لها أربعة أركان مضغوطة لتشكل مصبات أربعة كفتحات للفتيل. بالإضافة إلى ظهور النمط الأصلي للمسارج الذي هو صحن أو طبق دائري الشكل مزود بركن مضغوط يشكل فوهة واحدة لفتحة الفتيل. وقد استمر هذا النوع قرابة الألفي عام دون تغيير في شكله، ما عدا القاعدة والصنبور والحافة وصغر الحجم. وخلال الفترة الهلينستية والرومانية ظهرت في بلاد الشام مسارج

تمثل الميول والاتجاهات المحلية والإقليمية، منها ما هو مصنوع بالقالب ومنها ما هو مصنوع بالدولاب. فالمسارج المصنوعة بالقالب ظهرت في القرن الأول الميلادي وتميزت بحافة مزخرفة وصنبور ومقابض صغيرة، أما المسارج المصنوعة بالدولاب فهي ذات جسم دائري وقاعدة منبسطة وفتحة التعبئة مركزية وكبيرة، وكثير منها بلا مقابض.

وفي الفترة الهلينستية والرومانية نجد أنواعاً كثيرةً من المسارج، منها المسارج المستديرة ذات الأقراص المزخرفة، ومسارج جرش المتميزة بأشكالها وزخارفها المتنوعة.

أما المسارج النبطية فيمكن تصنيفها ضمن مسارج الفترة الرومانية المبكرة. وقد طور الأنباط نوعاً من المسارج خاصاً بهم، كما صنعوا نُسخاً رديئة من المسارج الرومانية ذات أقراص مزخرفة؛ والسبب في ذلك يعود إلى كثرة استخدامهم القوالب، بالإضافة إلى أنهم استخدموا مسارج مستوردة أيضاً، وتعود معظم نماذجهم إلى القرن الأول الميلادي. وتتميز مسارج القرن الثالث والرابع الميلاديين بأنها بيضية الشكل ذات فتحات تعبئة كبيرة ومستديرة، ولها صنابير متعددة قوسية الشكل، وزخارفها غائرة على القرص والحافة. وفي الفترة البيزنطية أصبح شكل المسارج يشبه الحذاء أو القارب، وحوافه مزخرفة بأشكال شعاعية. وفي القرن السابع الميلادي وحتى نهاية العصر الأموي أصبح السراج يحتوي على قناة مزينة بزخارف مختلفة. ويلاحظ أن الزخارف على المسارج في جميع مراحل تطورها زخارف هندسية وحلزونية ونباتية وآدمية وصلبان ونماذج مشعة، وتطلى طينتها الصفراء باللون البرتقالي أو البني أو ألوان أخرى كالطوبي والأحمر.

وتواجهنا صعوبة عند الحديث عن المسارج في المواقع الأثرية بالمملكة لقلة ما عثر عليه منها. وسبب ذلك يرجع في المقام الأول إلى ندرة التنقيبات الأثرية بالمملكة بشكل عام، باستثناء التنقيبات الأثرية لقسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود في قرية الفاو، وبعض الحفريات الأثرية الصغيرة التي أجرتها إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف في شرق المملكة وشمالها الغربي. أضف إلى ذلك أن النتائج الكاملة والدراسات الوافية عن تلك الأعمال والتنقيبات الأثرية لم ينشر عنها إلا القليل. ومن خلال التقارير الأولية التي نشرت حتى الآن عن المسوحات الأثرية والأعمال

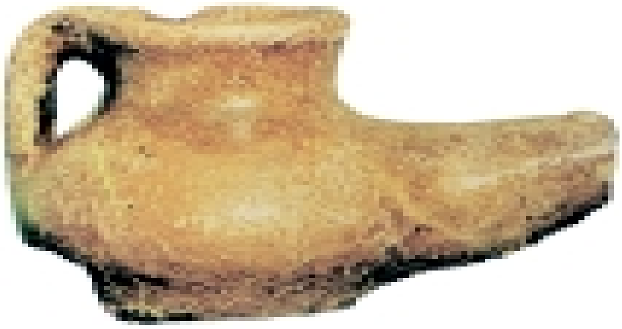
الميدانية في مناطق مختلفة من الجزيــرة العربية، خصوصاً فــي المملكة العربية السعودية، فإننا لا نجد بــين أيدينا غير عدد قليل من المسارج لا يمكن أن تعطينا صورة واضحــة ودقيقة عن اســتعمال المسارج لدى مجتمعات الجزيرة العربية في العصور القديمة. ومما لاشك فيه أن المســارج المكتــشفة فــي وسط وشرق الجزيرة الــعربية وشمالــها أيضاً تظهــر بصورة أوضح مما هو موجود في جنوب الجزيــرة مثلاً. إذ يــلاحظ من نــتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في اليمن حتى الآن أنها لا تعطي إشارات واضحة عن استعمال المسارج في جنوب الجزيرة العربية. وأثناء التنقيبات في قرية الفاو، عثر على بعض الكسر الفخارية كأجزاء من مــسارج، ومــن خلال أشــكالــها وزخارفهــا وعجينتهــا يرجح أنها مــن المسارج النبطية. كذلك عثر على عدد محدود جداً من المسارج المعدنية، منها مسرجة بــرونزية ذات شكل كمثري، قاعدتها بارزة، ولها فتحة نصف دائرية، ومزودة بمقبض مستدير مثبت على جسم المسرجة، ويعلوها شبه غطاء ثابت على شكــل ورقة نباتــية. وربما تعــود هذه المسرجة في تاريخها إلى ما بين الــقرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي.



مسرجة معدنية – موقع الفاو

كمــا عثر فــي إحدى المقابــر على مسرجة من البرونز بغطاء له مقبض صغير مثقوب، ولها يد معقوفة محلاة من أعلى بدوائر بارزة، ولهــا قاعدة حلقية بارزة تستند إلى قاعدة أخرى منفصلة مستديرة ومحلاة أيضاً بدوائر بارزة. وطراز هذه المسرجة روماني، وربما تعود إلى القرن الأول الميلادي.

وخلال الأعمال الأثرية والحفريات الصــغيرة الــتي قامــت بها إدارة الآثار والمتاحف فــي مواقع مختلفــة بالمملكة العربية السعودية مثل دومة الجندل وتيماء والخريبة الجنوبية بالحجر، عثر على عدد لابأس به من المسارج الفخاريــة منها ما هو على الطــراز النبطي، ومنها مــا هو على طراز المسارج في العصرين الهلينستي والروماني. ومن تلك المسارج مــسرجة من الفخار وجدت داخل إحدى المقــابر في الصنيمــيات بدومة الجندل القديمة،



مسرجة فخارية – دومة الجندل

وهذه المسرجة سميكة الجدران عليها بقايا تزجيج باللون الأخضر المائل للاصفرار، ولها قاعدة سميكة منبسطة. كذلك عثر على مسرجة من الفخار مصنوعة بالقالب أثناء أعمال ترميم قلعة مارد تؤرخ للعصر النبطي. وفتحة الزيت لها عنق مرتفع بمقبض يمتد من أعلى شفة العنق إلى نهاية جسم المسرجة بشكل قائم تقريباً. ولها مثعب طويل دائري الشكل يستدق عند نهايته لفتحة الفتيل. وفي الحِجر عثر على مسارج فخارية على بعضها زخارف هندسية وبعضها بلا زخارف. ومن هذه المسارج مسرجة فخارية متكاملة قاعدتها حلقية مرتفعة، ولها مقبض دائري الشكل، ويبدو أنها تعود إلى فترة القرنين الثاني والثالث الميلاديين. وربما يكون هذا الشكل تقليداً للمسارج المعدنية لتلك الفترة. كما عثر أيضاً في الخريبة الجنوبية بالحجر على ثلاث مسارج من الفخار ذات صناعة جيدة مكتملة ماعدا جزء مفقود من المقبض العلوي، وهي باللون البني الفاتح. ويوجد على سطح اثنتين منها زخارف بارزة تماثل المسارج الرومانية من حيث اللون والزخرفة. والمسرجتان نبطيتان ترجعان إلى أواخر القرن الأول الميلادي، أمّا الثالثة فقد تكون نبطية ولكنها تقليد للمسارج الرومانية الهيرودية المتأخرة، أي من أواخر القرن الأول قبل الميلاد إلى أوائل القرن الأول الميلادي، وهي ناعمة وذات لون بني ويظهر على فوهتها آثار حرق. وعثر على مسرجة مصنوعة من البرونز بالنظام المتبع في المسارج سالفة الذكر إلا أنها تحتوي على قاعدة مستديرة.

وفي موقع الصناعية بتيماء عثر على ملتقط سطحي عبارة عن مسرجة فخارية



مسارج مثلثة الشكل بعضها في طور التصنيع من الطائف

ذات طينة خشنة بحبيبات من الفخار الخشن حمراء زهرية اللون تميل إلى الاصفرار. وعلى السطح الداخلي بقايا تغشية ببطانة صفراء اللون. أما الشكل فيمثل الشكل النموذجي لمسارج القرن السادس أو السابع قبل الميلاد.

وفي الأخدود في نجران عثر على مسارج عديدة، من بينها مسرجة مثلثة الشكل ذات مقبض، صنعت من الحجر الصابوني، وعلى بدنها من الخارج زخارف هندسية غائرة.

وعثر في الطائف على مجموعة من المسارج ذات نوعية واحدة مثلثة الشكل ذات مقبض، وهي في طور التصنيع، والبعض منها مهشمة من أثر التصنيع.

وفي ثاج، بشرق المملكة، عثر على مسارج من الفخار، من أهمها مسرجة صغيرة صنعت من الفخار الأحمر، مستطيلة الشكل مقوسة الطرفين، شكلت باليد بدون العجلة، ويبلغ طول المسرجة ١٢سم وعرضها ٤سم ويصل ارتفاعها إلى ٢,٥ سم.

المسارج في العصر الإسلامي

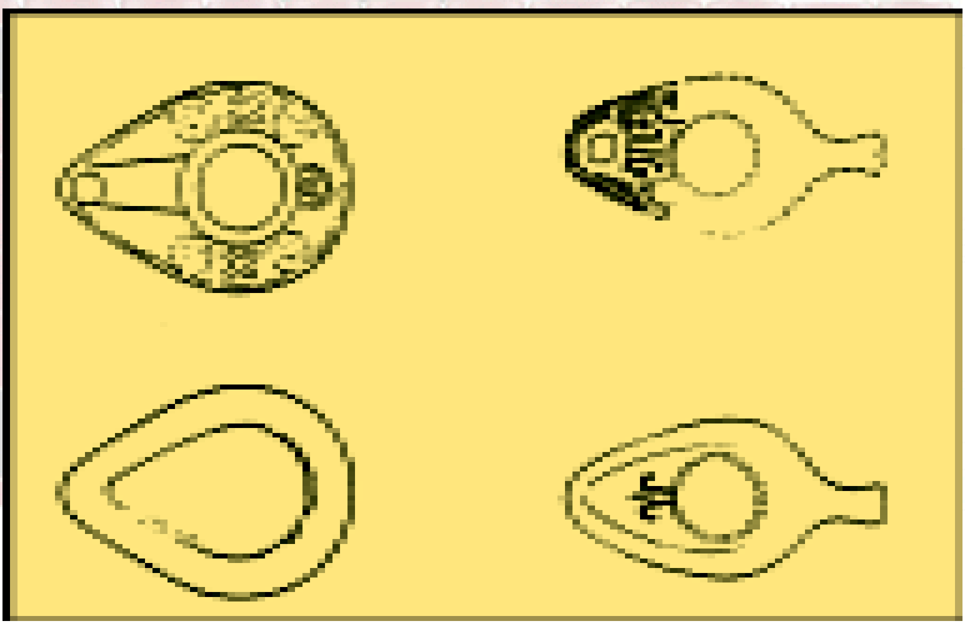
استخدم المسلمون منذ عهد مبكر أنواعاً متعددة من المسارج. فقد روي أن مسجد الرسول ﷺ كان يسرج بسعف النخيل إلى أن قدم سراج مولى تميم الداري بالقناديل والزيت والحبال وأسرج المسجد. فقال رسول الله «من أسرج مسجدنا؟»، فقال تميم: غلامي هذا، فقال ما اسمه؟ قال: فتح، فقال النبي ﷺ بل اسمه سراج».

وخلال العصور الإسلامية المبكرة أنتجت المسارج في أقاليم الجزيرة العربية

من مواد مختلفة، كالفخار والزجاج والحجر الصابوني. واشتهرت بعض المدن القديمة في الحجاز وتهامة ونجد والأحساء بإنتاج المسارج التي يستخدم فيها الزيت والمقط/ الحبل. كما أنتجت المسارج التي تعلق في الأسقف. وفي ضوء المعلومات المتوافرة لدينا يمكن حصر أنواع المسارج التي كانت تنتج وتستخدم في هذه المنطقة خلال الفترة الممتدة من القرن الأول إلى القرن السادس الهجري فيما يلي:

المسارج الفخارية. تنقسم المسارج الفخارية التي يعود تاريخها إلى القرون الهجرية الأولى إلى نوعين: مسارج فخارية مطلية بطبقة من الطلاء الزجاجي. ومسارج فخارية غير مطلية بالطلاء الزجاجي، وقد عثر على كسر ونماذج كاملة قليلة العدد من كلا النوعين في مواقع الآثار الإسلامية بالمملكة. وفي ضوء ما نشر من معلومات حتى الآن يمكن تصنيف المسارج الفخارية غير المزججة التي وجدت في مواقع الآثار الإسلامية بالمملكة إلى ثلاثة أنماط، هي:

مسارج بيضية الشكل، لها فتحة واسعة في وسطها يصب عبرها الزيت، وفتحة أخرى ضيقة في طرفها الأمامي تخرج منها الفتيلة، وممسك بارز في



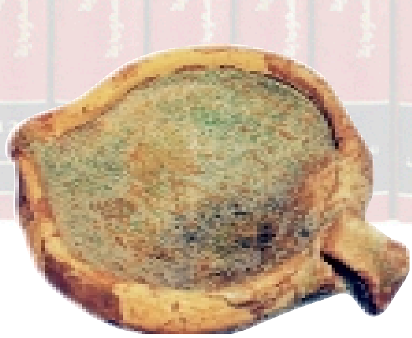
مسارج بيضية الشكل، تعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة

طرفها الخلفي. وتصنع هذه المسارج بالقالب وتزين من الخارج بزخارف بارزة تتكون من عناصر كتابية منفذة بالخط الكوفي، وعناصر هندسية على شكل دوائر ومثلثات وخطوط متنوعة، وعناصر نباتية تشمل الفروع المتشابكة وأوراق العنب وعناقيده. واستخدام هذه المسارج انتشر في بعض المواقع الأثرية الإسلامية بالمملكة خلال العصر الأموي وبداية العصر العباسي، وهي تعد استمراراً للمسارج البيزنطية. وقد عثر على كسر من هذا الطراز في مواقع الآثار الإسلامية بشمال غرب المملكة.

وهناك نوع آخر من المسارج على شكل إبريق صغير، له رقبة قصيرة وبدن كروي متصل بصنبور (بزبوز) قصير تخرج منه فتيلة الإنارة. وكان هذا الشكل معروفاً ومستخدماً في الجزيرة العربية خلال العصور السابقة للإسلام، وعثر في الفاو على أمثلة له. وهذا النوع من المسارج كان ينتج إلى عهد قريب في مراكز صناعة الفخار التقليدي في المنطقة الشرقية وفي مكة والمدينة.

كما عثر على مسارج على شكل صحن أو طاسة صغيرة غير عميقة، لها حنية في حافتها تثبت فيها فتيلة الإنارة. وهذا النمط هو أبسط أشكال المسارج الفخارية، ومايزال ينتج في مراكز صناعة الفخار التقليدي بالمملكة حتى الآن.

أما المسارج الفخارية المطلية بطبقة من الطلاء الزجاجي والتي استخدمت خلال القرون الهجرية الأولى ووجدت في مواقع الآثار الإسلامية بالمملكة فأمثلتها المعروفة قليلة، وأهمها ما وجد في حفرية الربذة. ومن بين ما وجد في الربذة من هذه المسارج مسرجة مطلية صنعت بطلاء زجاجي أخضر اللون من نوع طلاء الرصاص، صنعت على شكل صحن صغير غير عميق له قاعدة مستوية وشفة مثنية للداخل، بها طرف مثني توضع فيه فتيلة الإنارة، يقابله من الخلف مقبض يرتفع قليلاً عن مستوى شفة السراج. كما عثر بالربذة على سراج آخر مطلي بالطلاء القلوي الأزرق، وهو على شكل صحن صغير الحجم مزود بممسك بارز.



مسرجة من رأس الزور، المنطقة الشرقية

وعثر في رأس الزور علـى مسرجة صغيرة دائرية الشكل من الفخار، قطرها ٧,٥سم بـارتفاع ٢,٥سـم، مزججـة باللـون الأصفر من الداخـل والخارج، وعلى الحافة مقبض صغير، وفي الجهة المقابلة منها مثعب صغير.



مسرجة من درب زبيدة

كما عثر في موقع القاع في درب زبيدة على مسرجة صغيرة من الفخـار، قطرها ٨سم وارتفاعـها ٣سم، مزججة بالـلون الأخضر من الداخل والخارج، وعلى الحافة مقبض صغير. ومن خلال هذا الوصـف نجدها مشابهة لمسرجة رأس الزور.

مسارج الحجـر الصابوني. اشتهرت بعض المدن فـي نجد وتهامة والحجـاز، مثل مدينة الحوراء القريبة من أملج، بإنتاج أواني الحجر الصابوني التي منها المسارج. وقد عرفت مراكز إنتاج هذه الأواني في المصادر الجغرافية باسم معادن البرم، نسبة إلى البرمة وهي إناء على شكل قدر يصنع من الفـخار أو من الحجـر الصابوني.

ومسارج الحجر الصابوني خلال القرون الهجرية الأولى، التي وجدت في المواقع الأثرية الإسلامـية في مختلـف مناطق المملكة، لها عدة أشكال:

أولها، وهو الشـكل الأكثر انتشاراً، المسرج المثـلث الذي يأخذ شكل القـارب الصغير، وهو قليل الارتفاع ويصنع بمقاسات مختلفة، وتستخدم فيه فتيلة واحدة، وله ممسك بارز من الخلف.

وثانيهـا، مسرج بفتيلتـين له شكل مستطيل ينتهي برأسـين، وقد عثر على نموذج غير كامل منه في حفرية المابيات.

وثالثها، مسرج بثلاث فتائل له شكل مثلـث، ورأسه متصـل بممسك بارز،



مسارج شبه مثلثة، من الحجر الصابوني
موقع الربذة

وقاعدته عليها ثلاثة رؤوس مثقوبة يخرج من كل منها فتيل للإنارة. وقد عثر على نموذج غير كامل منه في حفرية عَثَّر.

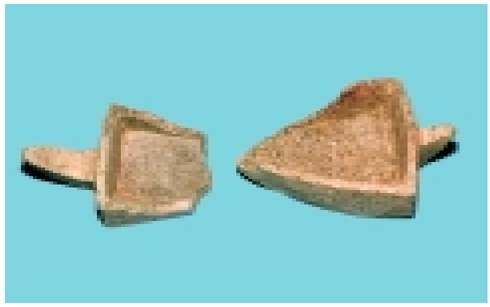
ورابعها، مسرج متعدد الرؤوس، يتكون من فراغ أوسط مستدير يوضع فيه الزيت، محاط برؤوس مثلثة، تشكل مع الجزء الأوسط شكلاً نجمياً. وتستخدم في هذا المسرج مجموعة من الفتائل بعدد الرؤوس المثلثة، ويبدو أن هذا النوع من المسارج كان يعلق في مكان ثابت. وتوجد منه قطعتان غير كاملتين بمتحف قسم الآثار بجامعة الملك سعود عثر عليهما في حفرية الربذة. وتجدر الإشارة إلى أن مسارج الحجر الصابوني النجمية الشكل كانت تستخدم في مناطق جازان ونجران وعسير حتى الماضي القريب، ويحتفظ بعض سكان تلك المناطق بنماذج منها.



مسرجة نجمية من الحجر الصابوني، كانت تستخدم حتى الماضي القريب في مناطق جنوب غرب المملكة

وقد عثر على كسر من النمط الأول من مسارج الحجر الصابوني في عدد من مواقع الآثار الإسلامية بالمملكة، ووجدت نماذج كاملة منها كثيرة العدد في حفرية الربذة، منها مسرجة من الحجر الصابوني شبه دائرية، ذات مقبض وقاعدة، لها قوائم، وهي مشابهة لما عثر عليه في الطائف وتاروت إلا أن المقبض أقل طولاً. كما عثر على قطع تالفة أثناء الصنع من نوعها، وأخرى غير مكتملة التشكيل، في المابيات وبالقرب من الطائف. ففي المابيات عثر على مسرجة من الحجر الصابوني من فتيلتين. وفي عَثَّر وجدت مسارج من الحجر الصابوني مثلثة الشكل، لها فتائل على شكل ثلاثة مرازيب، ومسرجة أخرى كبيرة مثلثة الشكل من الحجر الصابوني أيضاً. وفي عفيف عثر على مجموعة من المسارج مثلثة الشكل، ذات مقبض.

أما الأنماط الأخرى فأمثلتها المعروفة حتى الآن قليلة العدد. وتزيّن مسارج الحجر الصابوني التي يرجع تاريخها إلى القرون الهجرية الأولى من الخارج بزخارف هندسية محفورة، قوامها خطوط طولية ومتقاطعة، ودوائر متكررة ومتماسة ومثلثات متعاقبة أو متداخلة، وأشكال ضفائر.



مسارج مثلثة من عفيف

المسارج الزجاجية. يصنع من الزجاج نوعان من المسارج، نوع يعلق وآخر يحمل باليد. ولم نجد فيما بين أيدينا من معلومات منشورة ما يؤكد العثور على كسر أو قطع كاملة منها في مواقع الآثار الإسلامية بالمملكة، على الرغم من أن المصادر تشير إلى استخدامها في تلك الفترة، خاصة في إنارة الحرمين. فقد ذكر ابن زبالة، الذي عاش في القرن الثاني الهجري، أن قناديل الحرم النبوي في زمانه كانت مائتين وتسعين قنديلاً. وذكر أيضاً أن زيت قناديل المسجد يحمل من الشام، وأن رزق صاحب زيت المسجد ثلاثة دنانير تجرى عليه في كل شهر من بيت المال، وعليه فيها ما تكسر من القناديل. وذكر الأزرقي، وهو من أهل القرن الثالث الهجري، أن قناديل المسجد الحرام أربعمائة وخمسة وخمسون قنديلاً.

وأما المسارج التي كانت مستخدمة بعد القرن السادس الهجري، فالمعلومات الأثرية المتوافرة عنها قليلة جداً وتكاد تكون معدومة. ويمكن القول إن المسارج التي كانت تستخدم في مناطق المملكة في الماضي القريب تمثل استمراراً لتلك المسارج، خاصة المصنوعة من الفخار المزجج وغير المزجج ومن الحجر الصابوني. وبالإضافة إلى المسارج الفخارية والحجرية استخدمت في العصور المتأخرة الشمعدانات والثريات التي تضاء بالشمع، والفوانيس المصنوعة من الزجاج والمعدن. وكانت الفوانيس تضاء في بادئ الأمر بالزيوت ثم استخدم فيها الكيروسين.

وأما الشمعدانات فأكثرها يصنع من المعدن، والمعلومات الأثرية المتوافرة عنها من مواقع الآثار الإسلامية بالمملكة قليلة جداً، وقد عثر في حفرية الربذة على قضيب مصنوع من البرونز يعتقد بأنه ساق شمعدان. واستخدام الشمعدانات للإضاءة بالشمع في بعض مناطق المملكة كان معروفاً خلال العصور الإسلامية المبكرة وخاصة في الحرمين. فقد أشار ابن النجار –وهو مولودٌ في القرن السادس الهجري– إلى الشمع الذي كان يرسل من مصر إلى الحرم المدني، وذكر أن عدده في زمانه مائة وستون شمعة بين كبار وصغار تشعل بالإضافة إلى القناديل في المناسبات.

أدوات الصيد والأسلحة

اضطر الإنسان في طلبه الغذاء إلى الصيد، فصاد ما صادفه على البر وما طار في السماء وما سبح في البحر، وكان لابد له من أن يستعين على ذلك بالأدوات المختلفة. ومن هنا يأتي الاهتمام بأدوات الصيد في الجزيرة العربية، فهي أدوات وأسلحة امتازت بتنوعها وبطرق استخداماتها تبعاً لاختلاف الحيوان المراد صيده. ولا شك أن سكان الجزيرة العربية كانت لهم طرقهم الخاصة المتنوعة في الصيد، وهذه الممارسة تتطلب ذكاءً ومهارة مع الصبر وقوة البدن.

وكان للأسلحة شأن كبير في كل الحضارات الإنسانية، فهي عتاد الجيوش وآلاتها، وقد تنوعت أشكالها واختلفت استخداماتها. وفي الجزيرة العربية كان للسلاح أهمية خاصة قبل العصر الإسلامي، ولكن زادت أهمية استخدام السلاح في بداية العصر الإسلامي مع انطلاقة جيوش المسلمين للفتح.

لذلك نتناول في هذا الفصل عرضاً لأدوات الصيد وأنواع الأسلحة التي استخدمها الإنسان في الجزيرة العربية خلال العصرين القديم والإسلامي. ونبدأ ذلك بعرض لأسلحة صيده وأدواته في العصرين القديم والإسلامي.

أدوات الصيد

أدوات الصيد هي الآلات التي استخدمها الإنسان في عمليات صيده لمختلف الحيوانات، سواء الثديية أو الطيور أو الأسماك. وتعدّ عملية الصيد إحدى مراحل التطور البشري على سطح الأرض، بل عدها علماء الأنثروبولوجيا والآثار الخطوة الأولى في مسيرة الإنسان الحضرية الشاقة عبر حقب التاريخ. وهي تقرن غالباً بعملية الجمع التي سبقت

الصيد بحقب تاريخية يطول الجدل بين أصحاب الاختصاص في تحديدها من جهة، وفي مواطن ممارستها من جهة أخرى.

وقد ورد الصيد في القرآن الكريم في آيات كثيرة وبصيغ مختلفة، كما ورد في الحديث النبوي الشريف، ولا يقال للشيء صيد حتى يكون ممتنعا.

أما الأداة، وهي الآلة المعدة لتستخدم في عملية الصيد، فتختلف باختلاف ما يراد صيده. فالحيوانات المتوحشة لها أدوات خاصة بصيدها، وكذلك الطيور وأسماك البحار. وهذه الأدوات المعدة لصيد الحيوانات يتمايز بعضها عن بعض، فمنها ما هو صالح للاستخدام بطريقة متكررة، كالرمح والسيف والسكين في صيد الحيوان، أو الشبك في صيد الأسماك والطيور، ومنها ما يتحتم إعادة تصنيعه أو تجهيزه، كالسهام والحبائل والنبال ونصب الفخاخ.

العصور القديمة. نقصد بالعصور القديمة الفترة الزمنية التي سبقت قيام الوحدات السياسية في الجزيرة العربية. وهي فترة طويلة، لسنا بصدد تقصي بدايتها أو نهايتها، ولكنها باتفاق معظم آراء المختصين تبدأ منذ العصور الحجرية بمختلف أطوارها وتنتهي تدريجياً بنشوء المجتمعات الحضرية في الجزيرة العربية، ثم قيام الكيانات السياسية أو ما اتفق على تسميته بالممالك العربية القديمة. وهي ممالك بدأت تأخذ مكانتها على مسرح الأحداث التاريخية في منطقة الشرق الأدنى القديم منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

أما إنسان تلك الفترة فقد عاش عالة على بيئته وعبئاً عليها، فمارس في المرحلة الأولى، مرحلة الجمع والتقاط قوته مما تنبت الأرض وما تجود به أشجارها من ثمار على مدار فصول السنة. ولعل جل همه في هذه المرحلة كان سد احتياجاته بما يسد رمقه ويبقي على حياته. ولم تكن لدى هذا الإنسان زراعة ولا حيوانات داجنة ولا بيوت تقيه الظروف البيئية السائدة، من أمطار منهمرة أو فيضانات عاتية أو شمس محرقة. وربما اتخذ من مصدّات الرياح الخشبية ما يكسر به حدة العواصف، أو أقام أكواخاً بدائية، أو سكن الكهوف.

ولا ريب أن ملابسه كانت من الجلود وألياف النباتات، لا من المنسوجات، وأن أدواته كانت من الحجارة والعظام والخشب في أشكال بدائية.



رسوم صخرية للحيوانات التي كانت تصاد في الجزيرة العربية، في عصور ما قبل التاريخ

ولا نكاد نعرف عن نظامه الاجتماعي ولا دينه ولا حياته الفكرية إلا ما يمكن استخلاصه من النقوش التي تركها على جدران الكهوف، وهي تشير إلى ما كان يمارسه من نشاط وتعكس تفاعله مع بيئته.

وتعتمد معرفتنا بحضارة إنسان العصور القديمة في الجزيرة العربية على الأدوات الحجرية والآلات العظمية التي استخدمها في حياته، وقد وجدت في الأماكن التي أقام فيها إقامة فصلية مؤقتة.

والمرحلة الثانية في حضارة إنسان العصور القديمة في الجزيرة العربية هي الصيد، وهو رافد اقتصادي في غاية الأهمية، ليس لأنه موردٌ دائم لقوته بل لأنه تحول بطيء نحو استئناس كثير من الحيوانات المتوحشة التي ما زلنا إلى يومنا هذا نمارس تربيتها ونستفيد من نتاجها. وحرفة الصيد عملية شاقة تكتنفها المخاطر وتتطلب جهداً كبيراً ومهارة عالية. وهي مهمة كفيلة بأن تدفع الإنسان إلى البحث عن آلة جيدة تمكنه من تحقيق غرضه، وتدفعه أيضاً إلى التآلف مع بني جنسه ممن يتوسم فيهم القوة البدنية والمهارة والصبر والأناة والمثابرة أثناء مطاردة صيده.



رؤوس سهام من فترة ما قبل التاريخ

ولم تكن أداة الصيد التي استخدمها الإنسان في تلك الفترة معقدة، ولم يكن صنعها يكلفه مهارة عالية، حتى خاماتها لم يجهد نفسه كثيراً للحصول عليها. وهي مع ذلك نقلة حضارية كبيرة يسجلها التاريخ لمنجزات الإنسان الحضارية والثقافية. فقد كانت الأداة الأولى فأساً يدوياً هيّأها الإنسان على نحو بسيط من الأحجار المتيسرة، وكانت أكثر تلك الفؤوس سواطير يدوية ذات أطراف سكينية أو منقارية، وأدوات ثلاثية السطوح ذات حدين، ومكاشط ذات حد جانبي وأدوات للفرم.

وفي المملكة كشف عن عدد من المواقع الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة وبها أدوات كانت تستعمل للصيد، ومن أهمها مواقع جنوب سكاكا في منطقة الجوف، وجبة في منطقة حائل. وكذلك في وادي الدواسر وليلى وتثليث وبئر حمى. وغالبية الأدوات المكتشفة هي فؤوس بيضية الشكل مع ميل للاستطالة، والأقلية النادرة ذات شكل رمحي مستدقة الطرف. وإذا كانت المعثورات المادية لا تسعفنا بشواهد حية عن أنواع الأسلحة، أو بمعنى أشمل أدوات الصيد في العصور القديمة، فإننا نجد فيما خلّف أولئك القوم من نقوش ورسومات دليلاً حياً على نوعية آلاتهم وطرق استخدامها. فالرماح من أكثر الرسوم شيوعاً في منطقة بئر حمى. ويلفت النظر أن أكثر تلك الرماح لها أشرطة مضلعة عند الوسط، وربما يشير ذلك إلى استخدام نوع من النحاس أو البرونز. وتشير تلك الرسوم إلى أن الصائد أو المحارب يمسك الرمح بيد في حين يمسك بالأخرى رمحين أو ثلاثة محمولة في إحدى التروس. وتوجد كذلك أنواع من الرماح تثبت في عُصيّ للرمي، وهناك سلاح شائع الظهور وهو القوس المركب، وربما يتطلب الأمر أكثر من شخص للرمي به. أما السهام فهي مدببة، وقد تكون ذات رؤوس حادة أو من النوع المعروف بالمستعرض.

كما استخدم في الصيد أيضاً الهراوات، وهي آلة خشبية يدوية استخدمت للصيد وللدفاع عن النفس.

وتظهر الرسوم رجالاً يلبسون أحزمة تتدلى من جوانبها سكاكين وخناجر، وهي آلات ما تزال مستخدمة في مناطق كثيرة من المملكة لاسيما الجنوب الغربي.

ومن أدوات الصيد القديمة والشائعة الأحبولة، وهي شرك ينصب لصيد الحيوانات أو الطيور. وتعد الشِّبَاك أهم وسائل صيد البحر، وإن استخدمت أحياناً لصيد الطيور، وتنسج الشبكة من ألياف. ولم تستخدم الشباك إلا في فترات متأخرة قياساً بالأدوات الحجرية والأخشاب.

وقد تمكن الإنسان منذ بداية تاريخه على سطح المعمورة أن يقتنص حيوانات أسرع وأقوى منه، وذلك بنصب الفخاخ. وإذا كان من الصعب أن نحدد على وجه الدقة متى بدأ الإنسان ممارسة ذلك، فإن من الميسور ربطه ببداية مطاردة إنسان تلك الفترة لقطعان الحيوانات نحو الحافات المنحدرة أو المناطق الخطرة، كالحفر مثلاً، التي كانت أولى مراحل نصب الفخاخ.

وقد انتشرت قرى الصيادين في الجزيرة العربية خلال العصور الحجرية، واستمرت حرفة الصيد تمارس إلى فترات متأخرة بل بقيت إلى ما بعد قيام الممالك العربية مع اختلاف بسيط في أداة الصيد وطريقة الاصطياد.



رسوم صخرية لنشاطات صيد مختلفة

أما الحيوانات التي مارس الإنسان مطاردتها وصيدها في تلك الفترات، فتبينها رسوماته ونقوشه. وكان من أهم تلك الحيوانات الجمال والأبقار ذوات القرون الطويلة والوعول والخيول والنعام والضأن ذوات الذيول السمينة.

عصر الممالك العربية. الصيد رافد من روافد اقتصاد سكان الجزيرة العربية بقيت له الأهمية نفسها التي سبقت قيام الممالك العربية. ومع أن حرفة الصيد قد مورست واشتهرت وتطورت آلاتها لدى الرومان والفرس، إلا أنها بقيت تسير على الأساليب ذاتها في الجزيرة العربية، ولم يكتب لها النمو والتطور إلا في الفترات السابقة لظهور الإسلام. ثم بلغت درجة عالية من الرقي بعد الفتوحات الإسلامية واختلاط الثقافات المعاصرة آنذاك، من فارسية، وهندية، ومصرية، ورومانية.

ولم يكن الصيد عند سكان الجزيرة العربية إبان فترة الممالك العربية وسيلة من وسائل الرزق فحسب، بل كان متعة من متع النفس، وضرباً من ضروب الحرب في أيام السلم. ومن يتتبع الشعر الجاهلي يجده عامراً بذكر الصيد وأخباره، حتى غدت المعارك التي تدور بين القانصين والطرائد، وما يقع بين الكلاب وثيران الوحش وحمره



رسوم صخرية للحيوانات التي كانت تصاد في الجزيرة العربية في عصور ما قبل الإسلام

من الطراد، تقليداً من تقاليد الشعر الجاهلي.

وكانت العرب، وما تزال، تعلي من شأن القنص وتمدح الرجل بأكله من صيد يده، ويعدّ ذلك علامة على أنفته وعلى زهده فيما في أيدي الناس. ولم يقتصر الصيد عند العرب على ذوي الفاقة وإنما مارسه الأغنياء والفقراء وأولع به السادة والعامة.

وقد استفاد الإنسان من معرفته بطبائع الحيوان، ووقوفه على مواطن قوته وضعفه، فلم يترك وسيلة من الوسائل المتاحة لصيد الحيوان إلا استعملها، ولا حيلة إلا سلكها، وهو في ذلك يستند إلى أن «الغاية تبرر الوسيلة». وبالرغم من ذلك كان هناك الكثير من القيود والمحاذير التي من شأنها تبصير الصائد بالطريقة المثلى أثناء عملية الصيد والمطاردة. ثم توجت تلك المعايير بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف فيما يحل صيده وما لا يحل، وفي الطريقة التي يعامل بها الإنسان صيده، بل وزاد الإسلام على ذلك حين خصص أوقاتاً معينة وأماكن محددة لا يحل فيها الصيد.

وقد اختلفت أدوات الصيد باختلاف الحيوان المراد صيده، وتعد القوس من أقدم وسائل الصيد، ولإغراقها في القدم زعم الرواة أن جبريل عليه السلام جاء بها لآدم عليه السلام وعلمه كيف يرمي بها، ثم توارثها أولاده من بعده.

ويرمى عن القسي بالسهام، ويطلق عليها اسم النبال والنشاب، وتلحق بالقوس.

وتنتشر الرسوم الصخرية التي تعكس مناظر الصيد وآلاته في مناطق كثيرة من المواقع الأثرية بالمملكة، وأهمها تلك التي عثر عليها في بئر حمى، وقرية الفاو، والحناكية، وجبّة. وتقترن آلة الرمح بالترس في معظم تلك الرسوم، إذ يظهر الصائد ممسكاً الرمح في يده اليمنى والترس بيده اليسرى، مما يوحي بأن هناك مقاومة من الحيوان المراد صيده، أو أن المنظر يمثل أحد مواقف العراك. أما الرسوم التي اكتشفت في قرية الفاو فتعطي صورة أكثر وضوحاً لفعالية آلة الصيد، ففي أحد المناظر المرسومة على طبقة من الجص رسمٌ لجمل بلون أسود يبدو الجمل فيه راكضاً بعد أن أصيب بسهم. ويذكر النقش الذي وجد بجانب الرسم أن اسم الصياد سالم بن كعب. وقد تجلت حيوية سكان قرية الفاو وتعلقهم ببيئتهم من خلال مناظر الصيد والرماية



نشاط صيد من فترة الممالك العربية

والقتال التي زينت الكثير من جدران منازلهم وقصورهم بالرسومات واللوحات الجدارية الملونة، معبرة عن نمط الحياة المعيشية آنذاك.

ومن أدوات الصيد الجَلاهق أو قوس البندق، والجَلاهق بفتح الجيم وكسر الهاء، في اللغة: البندق الذي يرمى به، وهو طين مدملق مدور، ومفرده جلاهقة، ومثناه جلاهقتان، فارسي معرب، أصله جله وهي كبة الغزل، والجلاهق قوس تتخذ من القنا، ويلف عليها الحرير وتُغَرَّى، وفي وسط وترها قطعة دائرية تسمى الجوز توضع فيها البندقية، فإذا شد الوتر عند الرمي قذف بالبندقية لتتجه نحو الهدف.

وتسمى هذه الآلة قوس البندق والصائد الذي يستعمل هذه الآلة يحمل معه وعاء من جلد يجعل فيه البندق الذي يرمي به، ويسمى هذا الوعاء الجرادة وهو بمنزلة الكنانة للسهام.

والشبكة من أدوات الصيد القديمة، وتستخدم لصيد البر وصيد البحر، وتتخذ من خيوط الكتان أو القطن أو الحرير، تعقد عقداً حتى تتشابك ثم تناط بحافاتها أوتاد تشدها إلى الأرض. ويختلف طول خيوطها وعدد عيونها باختلاف الطرائد التي تصاد بها. وهي تنصب في الدروب التي تؤمها الوحوش، وينثر الصائد حولها من الأعلاف ما يُغري الطرائد بالاقتراب

منها مما يؤدي بها إلى الوقوع في شراكها. والشباك تكون ظاهرة، بخلاف الأشراك التي تكون مستورة.

وقد استخدم الإنسان، ربما في فترات سبقت الممالك العربية، أنواعاً من الكلاب، روضها واعتنى بتدريبها لتعينه في اصطياد طرائده، وهي ما أطلق عليها كلاب الصيد. وهي نوعان سلوقية، وزعارية، والسلوقية منسوبة إلى أرض سلوق باليمن. والأرجح أن السلوقيين وهم من اليونان عندما حكموا بلاد الشام جاءوا بهذا النوع من الكلاب فنسب إليهم؛ لأن استعماله في شمال الجزيرة العربية أوضح وأكثر منه في جنوبها.

ومن الطيور الجوارح استخدم الصياد العربي الشاهين والصقر. والشاهين من أنواع الجوارح، وجمعه شواهين وشياهين، وقد عرفته العرب منذ القدم، ومن مميزاته أنه ينقض على فريسته من غير تحويم.

ومن الجوارح التي روضت لعملية الصيد الصقور، ويبدو أن العرب كانت تطلق اسم الصقر على سائر الجوارح، فقد ذكر كشاجم في كتابه المصايد والمطارد أن الشاهين والزرق والبؤبؤ والباشق كلها صقور.

ويضيف آخر أن العرب تسمي كل طائر يصيد صقراً ما خلا النسر والعقاب. ويروى أن أول من صاد بالصقر الحارث بن معاوية بن كندة، ثم اتخذه العرب من بعده. وعن العرب أخذ الفرس الصيد بالصقور.

وهناك طرق ووسائل أخرى استخدمها الإنسان خلال فترة الممالك العربية وبعدها، منها الفخ والنار واللباد والحفائر والحيلة والتطريب والإرهاق والمباغتة. إضافة إلى استمرار الأدوات الحجرية والخشبية القديمة.

وهناك الأدوات الحديدية كالخناجر والسكاكين والسواطير التي حافظت على أهميتها كأداة للصيد والدفاع عن النفس، إلا أنها احتلت مركزاً اجتماعياً مرموقاً منذ استخدمت لزينة الرجال في أوقات متأخرة.

العصر الإسلامي. أصبحت ممارسة الصيد في العصر الإسلامي هواية مرتبطة بشكل كبير بالخلفاء وأبنائهم وكبار القوم وأغنيائهم، إذ إنها هواية تكلف الكثير من المال. فالصياد يحتاج إلى مركب وسلاح وآلات، وهي أيضا تحتاج إلى عناية متواصلة من قبل رجال وخدم يحتاجون إلى نفقة. غير أن عموم الناس، خاصة من يسكن

الأرياف والبادية منهم، كانوا يمارسون الصيد بوسائل أقل تكلفة.

وقد استخدمت الحيوانات، مثل الخيل والإبل في مطاردة بعض أنواع الطرائد لإنهاكها، ثم تسهيل الإمساك بها أو رميها بالسهام أو الرماح. كما استخدمت الكلاب والفهود والتفه وهو عناق الأرض وابن عرس للإمساك بالطرائد أو لإعاقتها حتى يسهل الإمساك بها أو رميها بالسلاح. كما استخدمت بعض أنواع الطيور، مثل العقاب والباز والصقر والشاهين، للإيقاع بالطرائد. وكثيراً ما تطلق الطير والخيل والكلاب خلف طريدة واحدة لتتضافر الجهود وتضيق الخناق عليها فلا تتمكن من الإفلات.



إناء من خزف البريق المعدني الفاطمي، يصور مناظر للصيد

وقد اعتاد الصيادون منذ القدم الانطلاق للصيد في الصباح الباكر قبل أن تخرج الطيور من أوكارها، وورد ذلك في أشعار كثيرة منها قول امرئ القيس:

وقد اغتدي والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وأما الآلات التي استخدمت للصيد فيأتي في مقدمتها الأسلحة وما يندرج تحت مسمّاها، كالقوس والسهم والرمح. ثم تأتي الفخاخ بأنواعها، كما استخدمت النار والأصوات والصفير، والزُّبَى وهي الحفر في الأماكن المرتفعة والأُكَر وهي الحفر في الأماكن المنخفضة.

وتعد السهام أكثر الأسلحة فعالية في الصيد، فالسهم عود مستقيم قوي يُتخذ من أنواع معينة من الأشجار، مثل النبع أو السدر وغيرها. ويمر السهم بمراحل إعداد تبدأ بقطعة عود بطول ذراع، فيسمى حينذاك قدحاً، ثم يثقف بتسوية سطحه ليصبح في غلظ الإصبع ويقوّم اعوجاجه، فيسمى مخشوباً، ثم تحفر في مؤخرته شقوق حزوز لتثبيت الريش، فيسمى فريضاً، ثم يشد عليه الريش برباط من الجلد أو بالصمغ، فيدعى مَرِيشاً. ثم يفرض في نهايته السفلى مما يلي الريش فرض لتثبيت الوتر عند الشد للإطلاق، فيسمى عند ذلك

مفوّقاً. وفي المرحلة الأخيرة يركب في رأسه نصل من الحديد مدبب الرأس وله شوكات جانبية ويسمى حينئذ سهماً أو نشاباً.

وأهم أجزاء السهم هي: القِدْح ويطلق على الجزء الخشبي، والنصل وهو الحديدة المدببة في رأس السهم، والسنخ وهي الفتحة في أسفل النصل التي يثبت فيها طرف القدح، والريش وهو ريش طير تثبت منه ريشتان أو ثلاث برباط من الجلد أو بصمغ في الجزء الخلفي من القدح. ويلبس الرامي بالقوس والسهام في إبهامه كيساً صغيراً من الجلد يعرف باسم الختيعة ليقيه من الأذى الذي قد يسببه الوتر عند الشد. ومن لوازم القوس والسهام الكنانة وهي الكيس المصنوع من الجلد الذي توضع فيها السهام.

أما الرمح، ويعرف بالقناة، فسلاح قديم استخدم منذ عصور ما قبل التاريخ. وهو قضيب خشبي طويل يتخذ من أغصان بعض الأشجار التي تمتاز أغصانها بالاستقامة والقوة. والرماح منها الطويل ويسمى المطْرَح، ومنها القصير ويدعى المطْرَد وهو الذي يستخدم في الصيد. وتتراوح أطوال الرماح بين أربعة أذرع إلى عشرة أذرع.

وللرمح أجزاء منها: المتن أو العامل وهو عصى الرمح قبل أن يركب عليها النصل، والعالية وهي نصف المتن العلوي مما يلي السنان، والسافلة وهي النصف السفلي مما يلي الزج، والنصل ويسمى السنان وهو الجزء المعدني الذي يركب في رأس المتن. وكان الإنسان قديماً يتخذ المتن من حجارة الصوان حتى اكتشف المعادن فصنعه منها، ويسمى رأس السنان المدبب الظبة، ويطلق على الجزء الذي يثبت فيه رأس المتن الثعلبة، والزج وهو الحديدة التي توضع في أسفل المتن لحمايته من التشقق، وتكون نهايتها مدببة ليسهل ركز الرمح في الأرض أو استخدامها في الطعان عند الحاجة. ويفضل من الرماح اللدن الصلب الذي إذا هُزَّ اهتز بكامله، ويسمى الرمح الذي يتصف بذلك الزاعبي، كما يفضل أن يكون متن الرمح من عصى ذابلة يبس قشرها والتصق بها. واشتهر من الرماح الردينية، والسمهرية، والخطية.

كما استخدمت الأوهاق، وهي حبال تصنع من شعر أذيال الإبل أو الخيل، ويجعل في أحد أطرافها أنشوطة يرميها الصائد أمام الطريدة فيدخل رأسها فيها فيجذب الحبل ويقبض على الصيد.

ويتدرب الصائد على استخدامها لـيتقن الصيد بها، وقد يبلغ من إتقانه ألا يخطئ رأس الطريدة.

أما الفخاخ فهي مـن أدوات الصيد أيضاً، وتـعرف كذلك باسـم الشراك. وأنواعها كثـيرة، أشهرها ما يصنع من الحديد، وهو آلة مقوسة لها دفتان تفتحان قسراً، ويوضع عليـهما ذراع عائق يمنع انغلاقهما ويثبت طرف الذراع بشفة رهيفة موصـلة بـالطـعم الموجـود في وسـط الدفتين، فإذا لمس الحيوان الطعم انفلتت الشفة وارتفع الذراع فتنطبق الدفتان على الصيد بقوة. وتنصب الفخاخ في المناطق التي يكثر فيها الصيد، وقرب مناهل المياه التي يرد عليها.

ومن أنواع الفخاخ الحبّالة، وتسمى الكفة أيضاً، وبها يصاد الظبي. وعندما تنصب تجعل الأوتاد إلى حافاتها، ولها خشبة تسمى الجُرة تعلق فيها لتثقلها إذا حاول الظبي الانطلاق بها، ومن الأمثال الـقديمـة «فاوض الجـرة ثم سـالمهـا»، ويضرب المثل للـرجل يستمر في حربه ومعاداته ثم يسالم. وفي القاموس المحيط «الجُرَة بالضم وبفـتح خُشيبة في رأسها كفة يصاد بها الظباء».

ومن أنواع الفـخاخ، قصب الدبق وهي عيدان من القصب أو من أغصان الأشجار تطلى بأنواع من الصمغ وتثبت قرب برك الميـاه فتلتصق بريـش الطيور عندمـا تقع عليـها. واستخدمـت هذه الطريقة لأول مرة في البصرة أواخر القرن الثاني الهجري، وتذكر المصادر أن هارون الرشيد الخليفة العباسي ضم إلى رجال صيده إبراهيم البازيار لمعرفته بفن الصيد بقصب الدبق.

والشبـاك من أدوات الصيد المـهمة وتسـتخدم بـشكـل رئيسـي في صيـد الأسماك وسائر حيوانات البحر. وهـي أنواع متعددة وقد استخدم الإنسان أنواعاً منهـا لصيد بعض أنـواع الطيور، مثل الصقر والعقعق وغيرها. وتصنع الشباك من خيوط القطن أو الكتان، وقد تصنع من بعض أنواع الحبال الرقيقة، وتختلف أحجامها وسعة عيونها وسماكة خيوطها باختلاف الصيد الذي صنعـت لصيده. وتنصب الشبكة بتثبيتها بأوتاد في الأرض قرب برك المياه وفي مراتع الصيد، وقد صاد بالـشبكة من خلـفاء بني العـباس المعتصم والمتوكل.

أما الصيد بالنار فقد استخدمه الإنسان بأساليب مـختلفة للإيقاع ببعـض أنواع الطرائـد، خاصة بالليـل. فصاد بالنار الظباء والنعام. وصفته أن يُستدرج الصيد إلى مكان النار حتى إذا رآها وأطال النظر

إليها وضاقت حدقات عيونه، وثب عليه الصائد من الجهة المظلمة وقبض عليه بيديه.

ومن أساليب الصيد الاحتيال على الطرائد وخداعها، وقد أعمل الإنسان فكره ونجح في تطوير بعض الأساليب للاحتيال على بعض أنواع الصيد من طيور وحيوانات. فمثلاً حاكى أصوات بعض الطيور مثل الدرّاج فصاده بالصفير الذي يحاكي صفيره، وذلك بأن يختبئ الصائد في مكان ويبدأ بمحاكاة صفير الطير الذي ينجذب إلى المكان بأعداد كبيرة مما يسهِّل على الصائد صيد أعداد منه.

ومن الحيل وضع بعض الخرق السوداء في أماكن وجود النعام لمدة أيام حتى تألفها، ثم يختبئ الصائد تحت هذه الخرق ويبدأ بالتحرك ببطء حتى يقترب من النعام ويقبض عليه بيديه.

ومن الحيل كذلك، وضع قَرَعَة يابسة في برك الماء والغدران التي تأتي إليها طيور الماء وتترك لعدة أيام حتى يأنس بها الطير. ثم يضعها الصائد على رأسه وقد جعل بها ثقوباً صغيرة ينظر من خلالها ثم يغمر جسمه في الماء ما عدا رأسه ويمشي نحو الطير ببطء وسكينة إلى أن يكون في متناول يده، فيقبض



منمنمة من الفترة الإسلامية تصور رجلاً يصطاد

على رجليه ويسحبه إلى الماء ويكسر جناحه أو ينتف من ريشه ما يعيقه عن الطيران ويتركه يطفو مرة أخرى، ويتحرك باتجاه طائر آخر.

وهناك نوع آخر من أساليب الصيد باستخدام الزُّبَى والأُكَر. والزبى حفر عميقة تصنع في الأماكن المرتفعة حتى لا يبلغها السيل فيطمرها، وتغطى بما يسترها من أغصان وقش، ويوضع فوقها أو بالقرب منها طعم للحيوان المراد صيده، فإذا رأى الصيد الطعم وأقبل ليأكله سقط في الزُّبْيَة وبقي بها إلى أن يأتي صاحبها. أما الأكر فهي الحفر التي تجعل في الأماكن المنخفضة ووظيفتها لا تختلف عن وظيفة الزبى. ويعمد

الصيادون في أغلب الأحيان إلى استخدام وسيلة الصيد بالزبى والأكر لصيد الوحوش مثل النمور والأسود.

كما عرفوا الصيد باللبّاد، وهو الشعر والصوف الكثيف الذي يربط بعضه ببعض ويلبد بعضه فوق بعض. ويرتديه الأشداء من الصيادين ليواجهوا به مخالب السباع وأنيابها إلى أن يتمكنوا من الإجهاز عليها وقتلها، وكانت هذه الطريقة منتشرة بين الأعراب في الجاهلية لأنهم كانوا يأكلون لحوم السباع.

الأسلحة

ذكر ابن منظور أن السلاح هو آلة الحرب، وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه وهو عدة الحرب وعتادها. وربما أطلق على نوع منه كالسيف، قال الأزهري: والسيف وحده يسمى سلاحاً، وقال الأعشى:

ثلاثاً وشهراً، ثم صارت رذية
طليح سفار كالسلاح المفرد

يعني السيف وحده. والأعم الشائع لدى علماء اللغة أن السلاح يشمل كل وسيلة تمكّن صاحبها من الدفاع عن نفسه أو الهجوم على عدوه. وفي ضوء هذا المفهوم تعد قوة البنية وحسن اللياقة والمهارة في استعمالها السلاح الأول الذي تمكن به الإنسان من معايشة بيئته والصمود أمام تقلباتها الطبيعية.

أما عن الأسلحة في عصر الممالك العربية، فعلى الرغم من تقدمها قياساً بالعصور التي سبقتها، فإنها بقيت متأخرة بنسب متفاوتة عن أسلحة الحضارات المعاصرة لها في مناطق أخرى من الشرق الأدنى.

والسلاح أداة للهجوم أو الدفاع، يستعمل في القتل أو تدمير حصون العدو. وقد عمل الإنسان طوال حياته لتحسين سلاحه، ليزيد قوته المدمرة وسرعة حركته، في الدفاع عن نفسه وممتلكاته ومنشآته.

وقد تطور السلاح ببطء على مر التاريخ الحربي القديم، فكان الفرس الذين غزوا اليونان (٤٨٠ق.م) مسلحين بسهام رؤوسها من الظران وهي حجارة حادة، والرماح الخشبية والمقاليع حسبما أشارت المصادر الفارسية واليونانية، وأكدتها الكشوفات الأثرية. وفي الفترة نفسها عرف استخدام الحراب البرونزية، والسهام المُسْتَدِقَّة، والسيوف والدروع البرونزية. وعلى الرغم من استخدام البرونز في صناعة الأسلحة خلال الألف الثاني قبل الميلاد في أماكن قليلة من الشرق الأدنى، فإن التطور السريع الذي

تلا اكتشاف معدن الحديد (١٥٠٠ق.م تقريباً) أسهم إسهاماً واضحاً في زيادة فاعلية الأسلحة وتنوعها. ويحدثنا القرآن الكريم في أكثر من موضع عن أهمية الحديد وشدة بأسه وتعدد منافعه، بل وسميت إحدى سوره الكريمة به، وجاء فيها ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ (الحديد: ٢٥). وقال تعالى ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾ (سبأ: ١١)، أي نسج الدرع، وقيل لصانعها سرّاد أي جعله مُسْرَدًا بحيث تتناسب حلقه.

ولم يفصّل القرآن الكريم في نوع الأسلحة التي كانت شائعة الاستعمال في عصر داود وسليمان، عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، إلا أن



أسلحة إسلامية من العصر المملوكي

الدروع المصنعة من الحديد لابد أن تكون لمقاومة أسلحة قوية البأس وشديدة الفتك.

كما استعملت الخيّالة والعجلات لزيادة فعالية الجيوش القتالية وسرعة تحركاتها. وتألفت فيالق المقدونيين من المشاة المسلّحين بالسريسة والمزران. واستخدم قدماء الأغريق المنجنيق في حصار المدن، وعرفوا الحرب الكيميائية (النار الإغريقية)، واستخدم الرومان السيوف الحديدية، والرماح المقذوفة، والدروع لوقاية الجسم، وأدخلوا تحسينات كثيرة على مدفعية الحصار.

ويرتبط السلاح بأمر الهجوم والدفاع على مستوى الفرد أو الجماعة، وهو وسيلة لتحقيق الغاية سواء في زيادة النفوذ وبسط السلطة أو الدفاع عن الذات وحفظ المكتسبات. وقد كانت الحروب والغزوات من أهم العلامات البارزة في تاريخ الجزيرة العربية في عصر ممالكها القديمة، وهي سمة لم ينفرد بها عرب الجزيرة وحدهم. ويلفت النظر أنه على الرغم من استمرار الحروب وتتابعها في معظم فترات تاريخ الجزيرة العربية القديم، فإن الأسلحة لم يطرأ عليها تطور يتناسب وطول زمن تلك الحروب. وحتى تنظيم الجيوش لحقه ما لحق الأسلحة، فظل يعاني من رتابة وضعف في أدائه. ويحدثنا سترابو عن الجيوش العربية الجنوبية ويصفها بأنها لم تكن مدربة على القتال، ولم تكن مجهزة بأسلحة حسنة.

وعرف العرب بحب السلاح منذ أقدم العصور، ومن المعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا أهل فروسية وأهل سلاح. وكان السلاح يرافقهم في حلهم وترحالهم، فكانوا يفخرون بمعداتهم الحربية ويقدسونها لحاجتهم إليها لحماية أنفسهم وصون شرفهم وجلب معاشهم.

وقد عُرف عرب ما قبل الإسلام بأنهم أهل غزوات، لذلك كانوا بحاجة إلى السلاح للدفاع ضد هجمات قد تشنها عليهم قبائل أخرى مما دعاهم إلى الاهتمام بالسلاح بيعاً وشراءً وصناعة. وتعتمد صناعة السلاح في المقام الأول على الحدادة، وهي من الصناعات المنبوذة عند العرب، وكان معظم من يمتهنون الحدادة من الرقيق ممن ينتمون إلى أصل غير عربي، ولذلك كان العرب يسمون الحداد القين زيادة في الازدراء.

وقد احتكر اليهود هذه المهنة في الحجاز أيام الرسول ﷺ، وكان لديهم مختلف أنواع السلاح من سيوف، ورماح، وقسي، ونبال، ودروع، وحراب وغيرها، يصنعونها ويتاجرون بها. ففي اليمن استمرت صناعة الأسلحة من السيوف، والدروع، والخناجر، والسكاكين، والنصال المعدنية، مزدهرة. كما حاز المسلمون مصانع السيوف المشرفية، والأرحبية، والدمشقية، والأريحية، وغيرها من الصناعات الحديدية في الشام والبلاد المفتوحة. وكان هناك الرماح الخطية، نسبة إلى مدينة الخط التي يعتقد أنها تقع في محافظة الأحساء على البحر بين عُمان والبحرين، والرماح الردينية، والرماح السمهرية -نسبة إلى صانعيها- والنبال اليثربية. ومع قيام الدولة الإسلامية ورفع راية الجهاد أصبح المسلمون بحاجة للسلاح بمختلف أنواعه وإمكاناته. وقد وضع الرسول ﷺ أسس الاهتمام بالسلاح وإعداد القوة فازدهرت صناعته في المدينة. واستخدم المسلمون أسلحة كثيرة ومتنوعة في القتال، اشتهروا ببعضها، كالسيوف والرماح والأقواس والنبال، وأخذوا عن غيرهم بعض أنواع الأسلحة التي لم يعرفوها من قبل.

ومن الأسلحة المحمولة السيف والرمح والقوس والترس والديّوس والفأس والخنجر:

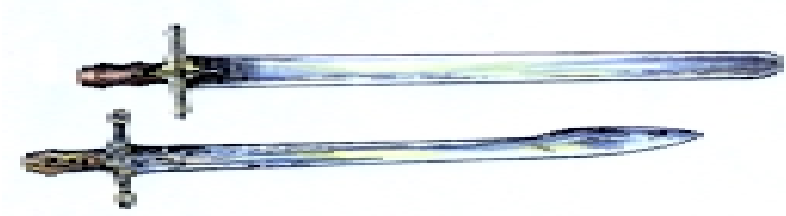
السيف. من الأسلحة اليدوية المعروفة في التاريخ الحربي العربي، ويعد من أشهر وأهم أدوات الحرب في عصر الممالك العربية، بل هو أشهرها. ويستعمل السيف في الاشتباك القريب في حالتي الهجوم والدفاع، وهو أشرف الأسلحة عند العرب. والسيوف أنواع كثيرة تنسب إلى مكان صناعتها، فمنها السيوف القساسية المنسوبة إلى جبل قساس معدن الحديد باليمامة، والسيوف الحنفية التي ترجع نسبتها إلى قبيلة بني حنيفة، وقد كان للنبي ﷺ سيف حنفي. وكذلك السيوف الهندوانية، ولعلها تنسب إلى الهند التي يستورد منها الحديد وتصنع منه السيوف في اليمامة. وهناك السيوف اليمانية والبصرية والكوفية.

كانت السيوف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام مستقيمة، وهي تنقسم إلى قسمين: ذات حد واحد، وذات حدين. وقد تفنن العرب بتزيين نصالها بأشرطة الفولاذ، أما مقابضها فكانت

بسيطة، وهي غالباً من الخشب عدا بعض السيوف اليمانية التي تزين وتزخرف ببعض الصور والرسوم والتماثيل. وكان السيف منتشراً عند عرب الحجاز، وكانت معظم السيوف تجلب من اليمن، وبعضها يصنع في الحجاز. فقد اشتهر عن خباب بن الأرت # أنه كان قيناً بمكة، وكان أهل الحجاز يعرفون صقل السيوف وشحذها. وثمة مجموعة من السيوف، محفوظة في متحف طوب قبو سراي باستنبول، يعتقد أن تاريخها يعود إلى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي. ومن أهم هذه السيوف سيف مستقيم النصل ينسب إلى الصحابي سعد بن عبادة. وفي المسجد الحسيني بالقاهرة سيف ينسب إلى الرسول ﷺ، وقد درسته سعاد ماهر محمد من الناحية التاريخية والأثرية والفنية وتوصلت إلى أن السيف المذكور يعود إلى عصر الرسول ﷺ، وقد يكون هو السيف الذي أهداه سعد بن عبادة للرسول. وهناك سيفان مستقيما النصل ينسبان للعصر الأموي، وهما محفوظان في متحف طوب قبو سراي باستنبول، يحمل الأول كتابة تشير إلى تاريخه، وهو سنة ١٠٠هـ، وعليه اسم الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز، والثاني مؤرخ سنة ١٠٥هـ وعليه اسم الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك. ولكن يعتقد أن النصوص الكتابية المنقوشة عليهما تعود إلى تاريخ متأخر. كما أظهرت المسكوكات الإسلامية المضروبة في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان صورة لما كانت عليه السيوف في هذه الفترة، وهي سيوف مستقيمة. أما في العصر العباسي فكانت السيوف المستقيمة أيضاً هي النوع السائد في الاستعمال. وهي سيوف عريضة النصال، بعضها له حد واحد، إلا أن أكثرها ذو حدين، وينتهي النصل بطرف مدبب. وقبضة السيف مستقيمة تعلوها قبيعة كروية الشكل. وفي أسفل المقبض حديدة معترضة على فم الغمد لها طرفان ينتهيان بقطعتين كرويتين.



دينار ضرب في القرن الرابع الهجري عليه صورة سيف مستقيم



سيفان إسلاميان –متحف طوب قبو سراي باستنبول

وتسمى هذه الحديدة الشاربان أو واقية السيف.

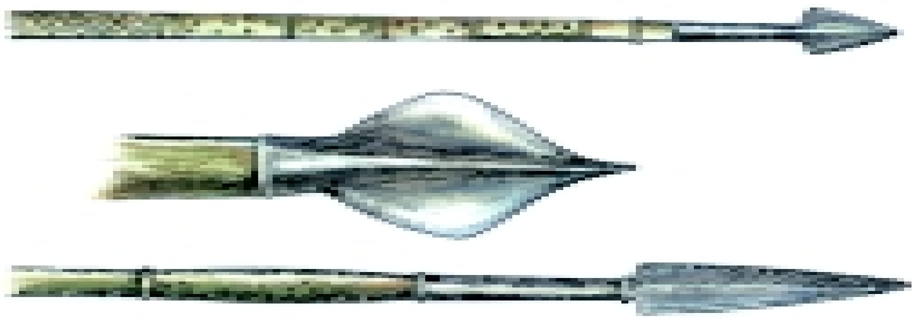
والنوع الثاني من السيوف الإسلامية هي السيوف المقوسة، وقد تطور السيف من الاستقامة إلى التقويس ببطء ماراً بمراحل مختلفة.

أما فيما يتعلق بالدلائل الأثرية فقد وصل إلينا سيف واحد ينسب إلى الفترة العباسية، محفوظ في متحف طوب قبو سراي باستنبول، وقد نقش على نصله اسم الخليفة العباسي المعتصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين. وهو سيف مستقيم النصل له واقية مصنوعة من الحديد، ومقبضه من الذهب. كما نجد نماذج مصورة للسيوف في العصر العباسي على بعض القطع الأثرية، مثل درهم فضي للخليفة المقتدر بالله محفوظ في المتحف العراقي، وهو أيضاً مستقيم النصل، وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة شمعدان من النحاس الأصفر المكفت بالذهب يرجع تاريخه إلى القرن السابع الهجري، ويزين بدنه أشرطة زخرفية نقشت عليها مجموعة من الدوائر وصورة للمير أو قائد عسكري يجلس القرفصاء ويحتضن سيفاً مستقيم النصل.

الرمح. من الأسلحة المعروفة عند العرب منذ أقدم العصور، ويتألف من قناة، وهي عود من شجر صلب أو من القصب المجوف، ويركّب في رأسها نصل من حديد، وإلى هذا المعنى أشار الشاعر المتنبي في قوله:

كلما أنبت الزمان قناة
ركّب المرء في القناة سنانا

وتختلف تسمية الرمح باختلاف طوله، فالقصير، وهو ما دون أربعة أذرع، يسمى النيزك أو الحربة أو العنزة أو المزراقة أو المطرد. وما كان أطول من ذلك يسمى حسب طوله، فالمربوع مثلاً هو ذو أربعة أذرع، والمخموس خمسة أذرع، وإذا زاد عن عشرة أذرع سُمي الخطل لاهتزازه في يد صاحبه

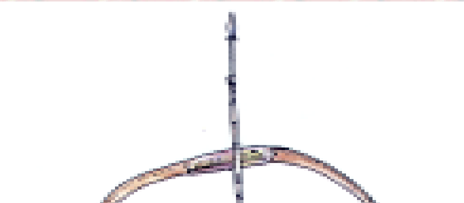


رؤوس رماح ذات أشكال مختلفة

بسبب طوله. كما عرف العرب الرماح ذات القناة الصماء والقناة الجوفاء، وسمى العرب الرماح بأسماء مصادرها. وتتخذ الرماح من شجر النبع ونحوه من الأشجار، وهي تستخدم في القتال بالرمي عن بُعد كما تستخدم في الصيد. وترفع عليها الرايات، فقد كان المسلمون زمن الرسول ﷺ يرفعون راياتهم على أطراف الرماح. كما تستعمل الرماح أيضاً في اللعب ورقصات الحرب.

وفي منطقة الخليج صنعت الرماح وبعض أدوات الحرب. وقد اشتهرت البحرين قبل الإسلام بصنع الرماح، واستمرت هذه الشهرة بعد الإسلام. وكان من أشهر ما تصنعه على الإطلاق الرماح الخطية التي نسبت إلى منطقة الخط، وكانت بعض موادها الأولية تجلب من الهند ثم تصنع في البحرين. وهناك أنواع أخرى من الرماح أطلق عليها الرماح الردينية والسمهرية.

القوس. وهي أداة نصف دائرية تُرمى بها السهام، وتصنع في الغالب من خشب صلب يحنى طرفاه بقوة ويشد بينهما وتر من الجلد أو عصب عنق البعير. وتصنع الأقواس من شجر ينبت في جبال السراة يسمى النبع، ومن شجر السدر والحماط. وقد عرف العرب على عهد الرسول ﷺ نوعين من القسي العربية وهما الواسطية والحجازية، وقد فضلهما العرب على

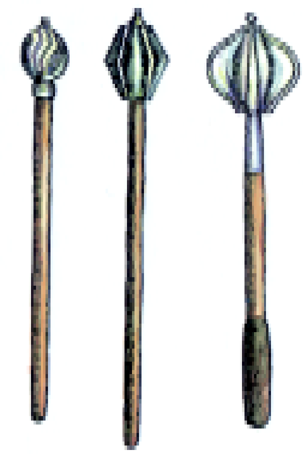


قوس من الفترة الإسلامية الوسيطة

القوس الفارسية، لأن القوس العربية إذا انقطع وترها كانت لصاحبها عصا يدافع بها عن نفسه. والقوس الحجازية أيضاً نوعان، إحداهما يبرونها قضيباً واحداً وقضيبين ويسمونها شريحة، أما الثانية فيكسى داخلها بفروة الماعز. كما عرف أهل الحجاز قوس الرِجْل وقد نهى الرسول ﷺ أصحابه عن استعمالها. وذخيرة القوس العربية السهام والنبال والنشاب، وقد اشتهرت اليمامة ويثرب بإعداد السهام الجيدة، ووصفت بدقة الصناعة، وكانت تصنع من شجر التَّنضب. ومن صناعة النبال تربيش النبال، وهي مأخوذة من وضع الريش في آخر السهم بعد صنعه. وتحفظ السهام في محفظة يحملها الرماة على ظهورهم وتسمى الكنانة أو الجعبة أو الجفيرة.

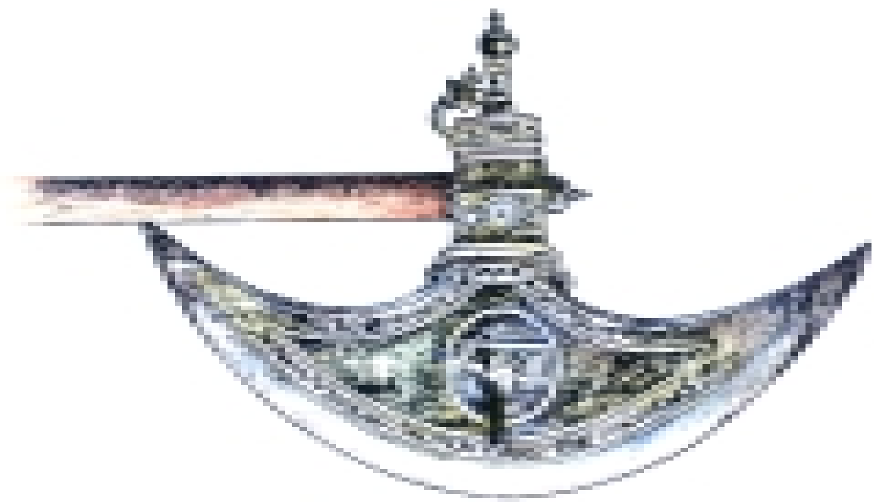
الترس. ويسمى أيضاً المِجَنّ أو الدَّرَقة أو الجحفة، ويستخدم لصد ضربات الخصم من سهام أو رماح أو سيوف. وأنواع التروس هي المسطح، ويستخدم لصد الرماح، والمستطيل المخصّر الوسط ويستعمل أيضاً لصد السهام؛ لأنه يستر رأس الفارس وجسمه، أما الجزء المخصّر منه فيسمح بالنظر والمراقبة. أما النوع الأخير فيسمى المقبب وهو المنحني الأطراف للخارج ويُتّقى به السهم والسيف دون الرمح.

الدبّوس. عصا قصيرة من الحديد ذات رأس مصنوع من كتلة حديدية مكعبة أو كروية، وهو سلاح يحتفظ به الفارس في سرج حصانه ليستخدمه عند الالتحام إن فقد سيفه، وهو سلاح فارسي الأصل.



دبابيس كانت مستخدمة في العصر المملوكي، فيما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين

الفأس. ويشبه الدبوس في الشكل والاستخدام إلا أنه يختلف عنه بشكل رأسه الحديدي المؤلف من كف حديدية مسنونة ومشحوذة تنتهي في الجهة المقابلة بسن حديدية مروَّسة.



طبر (فأس للقتال) من العصر المملوكي

الخنجر. وهو سكين مسنونة ومشحوذة الجانبين، وله غمد يودع فيه. ويتمنطق العرب عادة بالخنجر في أوقات السلم والحرب، كما أن بعض النساء يتمنطقن به في الغزوات للدفاع عن أنفسهن. والخنجر من الأسلحة التي تصنع محلياً، وقد انتشرت صناعته في الحجاز لوجود حدادين في مكة كانوا يصنعون السيوف. ولأن اليهود كانوا يقومون ببعض الصناعات الحديدية في المدينة، فقد صنعوا الدروع والسيوف والخناجر. وما تزال الخناجر تستعمل في كثير من بلدان الجزيرة العربية للزينة، لاسيما لدى قبائل الطائف وما حولها، وقبائل جنوب غرب المملكة.

ومما يلبسه المحارب اتقاء سلاح عدوه الدرع والبيضة لوقاية الرأس وسائر الجسد.

الدرع. ثوب مصنوع من مجموعة حلق رفيعة من الحديد أو الفولاذ أو النحاس، وتلبس كما يلبس الثوب أو القميص لتحمي جسم المقاتل من ضربات السيوف. وقد عرف العرب أنواعاً كثيرة من الدروع، مثل السابغة، وهي درع تغطي البدن بأكمله، ولها أكمام طويلة وحاشية تصل إلى منتصف الساق، والبتراء وهي درع قصيرة بلا أكمام، وغيرها.

البيضة. وهي خوذة مستديرة من الحديد أو الفولاذ تلبس على الرأس



أنواع من الخوذ الإسلامية

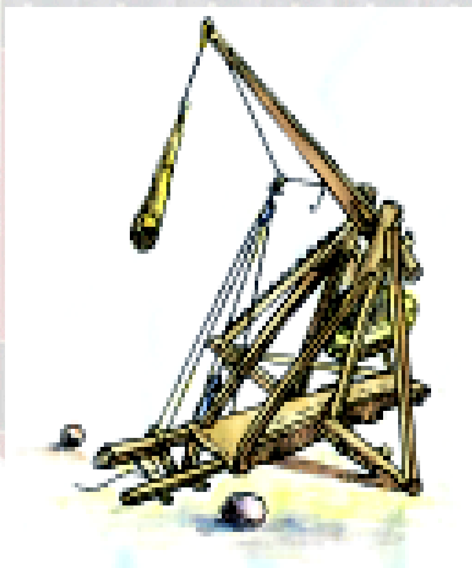
لحمايته من ضربات الخصم، ولها جزء يغطي الرقبة يسمى السابغ.

ولم يكتف المحارب القديم بأسلحة خفيفة محمولة بل استخدم أسلحة ثقيلة، وهي المنجنيق والدبّابة، واستخدم في قذائفها النفط والبارود.

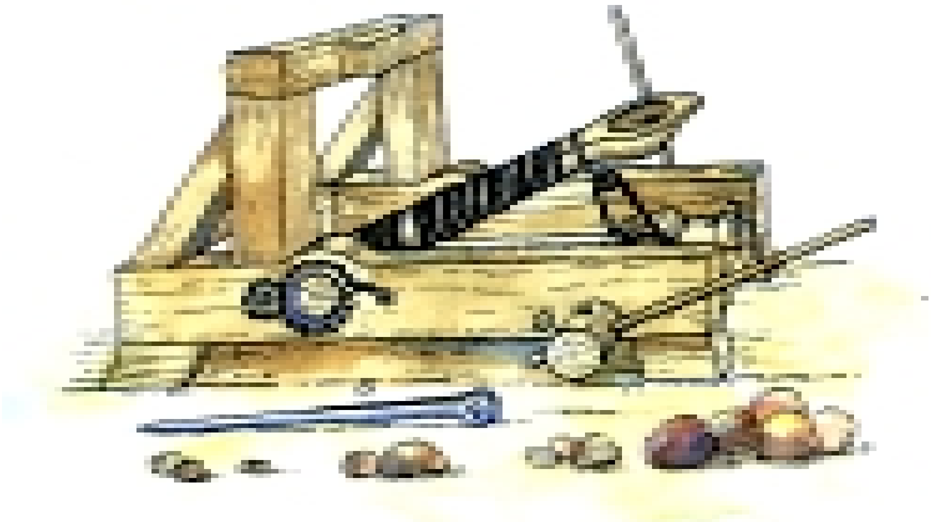
المنجنيق. المنجنيق آلة تُرمَى بها الحجارة، وهي فارسية الأصل، وتستخدم لهدم الحصون المبنية بالحجارة الضخمة، أو لرمي الأعداء بالنبال أو لإحراق مواقعهم بالنفط ونحوه. ويتكون المنجنيق من قاعدة خشبية سميكة مربعة الشكل يرتفع في وسطها عمود خشبي قوي، يُركّب في أعلاه ذراع قابل للحركة بحيث يرتكز الذراع على عمود المنجنيق من ربعه تقريباً، ويتدلى منه صندوق خشبي مملوء بالرصاص أو الحجارة والحديد. ويختلف حجم الصندوق باختلاف حجم المنجنيق، وتكون ثلاثة أرباع الذراع من الناحية الأخرى تتدلى من نهايتها شبكة مصنوعة من حبال قوية توضع فيها الحجارة أو ما يراد قذفه.



آلة لهدم التحصينات



منجنيق من فترة متقدمة

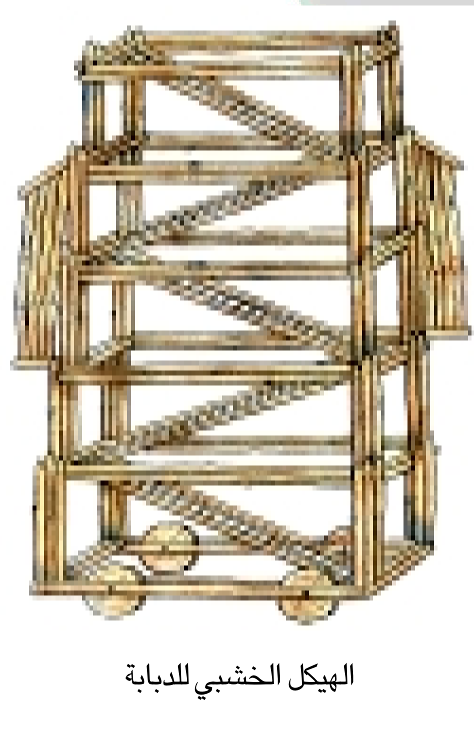


منجنيق من فترة متأخرة

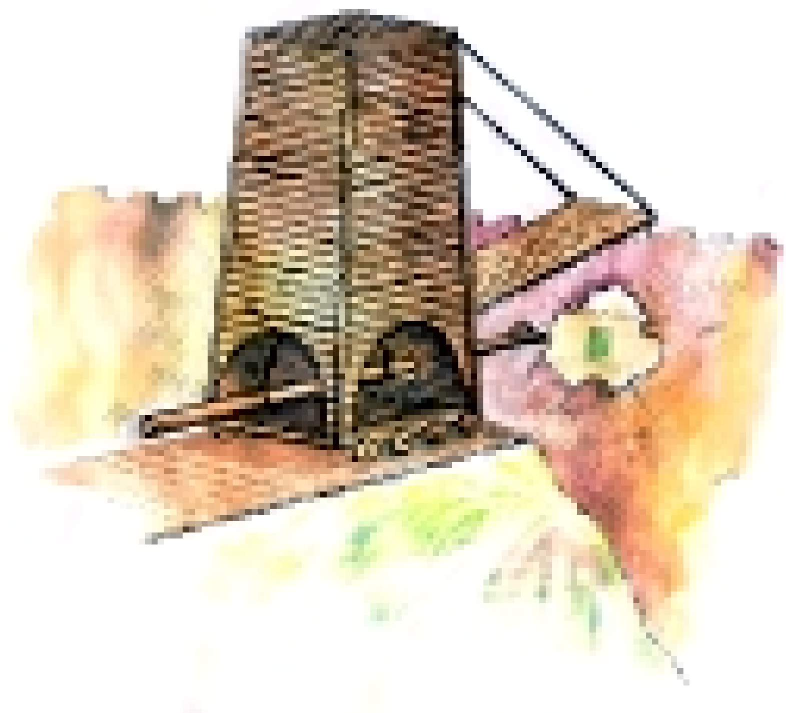
وعند القذف يجذب الذراع إلى أسفل من ناحية الشبكة إلى الأرض فيرتفع الثقل المقابل، ثم تترك الذراع فجأة فيهوي الثقل ويرتفع أعلى الذراع المقابل الذي يحتوي على الحجارة قاذفاً بالشبكة وما تحويه من حجارة إلى الهدف المراد إصابته.

الدبّابة (الضَّبْر). صندوق خشبي كبير أشبه ببرج مربع مسقوف لا أرض له. وهي تسير على عجلات ويدفعها رجال بداخلها نحو أسوار الأعداء لكي ينقبوها، تمهيداً لإحداث فتحة في الأسوار تمكن المقاتلين من الدخول عبرها إلى الحصن. فهي تحمي المقاتلين من ضربات السهام ونحوها أثناء الهجوم.

وقد عرف المسلمون هذا السلاح في عهد النبي ﷺ أثناء حصار خيبر،



الهيكل الخشبي للدبابة



دبابة مغطاة

ثم طور المسلمون الدبابة بعد ذلك وأدخلوا عليها تعديلات وتحسينات؛ فغطيت أخشابها بالجلد المشبع بالخل كي لا تشتعل النار فيه، وأصبح صندوق الدبابة أشبه بعمارة ضخمة تسير على عجلات وتنتهي ببرج مرتفع بارتفاع السور المحصن. كما تثبت في داخلها سلالم تنتهي بشرفات تقابل شرفات الحصن، ويصعد الرجال على السلالم فيتسلقون بها أسوار الأعداء.

النفط. تطلق كلمة نفط على صفوة قار Bitumen في بلاد ما بين النهرين، ولونه في الطبيعة أبيض، يكون أحياناً أسود، ومن خصائصه اجتذاب النار عن بعد من دون أن يمسها مباشرة. وإذا خلط بمواد أخرى كالدهن والزيت والكبريت وغيرها، اشتد التهابه ولزوجته. وقد استخدمه المسلمون في حروبهم ضد المغول والصليبيّين.

البارود. وهذا النوع من الذخيرة صنع في الجزيرة العربية منذ القدم، ويتكون من المَلَخ الذي يوجد في الدُّمُون التي تجتمع فيها فضلات البقر والحمير

والغنم، كما يوجد في السباخ، وتضاف إليه كمية من الكبريت الأصفر المعروف باسم خَـفَّان والفحم الـناتج عن حرق الأعواد من الخـشب الخفيف. ويـكون غالباً من شجر العُـشَرَ والعنب والغَرَب فإن تعذر وجود هذه الأنواع فمن أعواد شجر الشفلَّح أو من أعواد شجر القبب إذ تجمع هذه المواد الخام المكونة للبارود، ويخلط بـعضها ببعـض بنسب محددة لتصبح بودرة سوداء اللون.

المسكوكات والأختام

يتناول هذا الفصل المسكوكات القديمة والإسلامية التي جرى التعامل بها في الجزيرة العربية، إذ تنوعت النقود في أحجامها وأشكالها وأنماط كتاباتها من عصر إلى عصر. كما يشمل أيضاً حديثاً موجزاً عن الأختام التي تصنف ضمن المنقوشات، وكانت تصنع من مواد مختلفة، وكان لها شأن مهم خاصة في عصور ما قبل الإسلام.

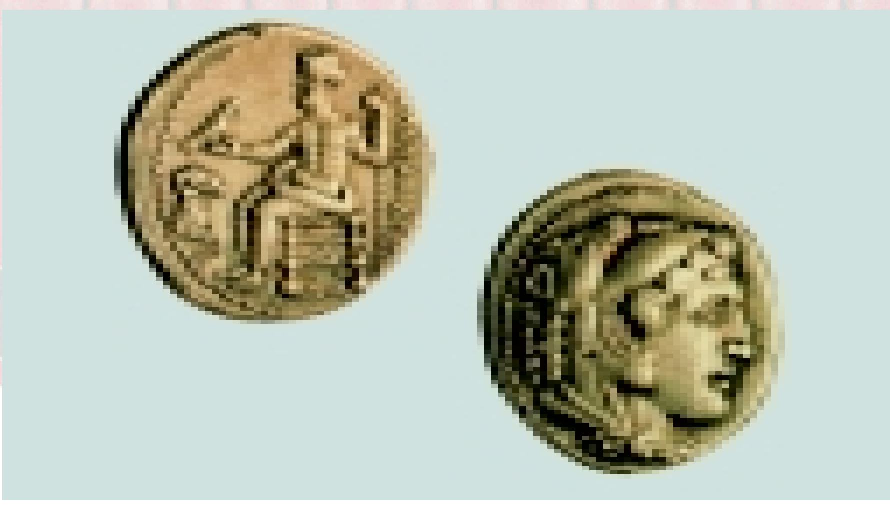
ويعد سكّ النقود من أهم المبتكرات الحضارية التي استعان بها الإنسان لتسهيل العمليات التجارية. وأصبحت ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها أي مجتمع حضاري.

ولمّا كان الإنسان البدائي يعتمد في معاملاته في نقل الملكية أو الحيازة على طريقة المقايضة، أي تبادل سلعة بسلعة مما سبب له متاعب ومشكلات كثيرة فقد بحث عن وسيلة سهلة تمكنه من التجزئة ونقل الأموال بيسر وسهولة، فاستعمل الصينيون المحار وجعلوه الوسيلة الرسمية للتبادل حتى القرن الرابع قبل الميلاد، كما استخدم الصوف وجلود الحيوانات في الإمبراطورية الروسية. ولم تلبث المعادن أن غلبت عليها في هذا المضمار من حيث فائدتها وطبيعتها. وقد أشار الفيلسوف اليوناني أرسطو في نظريته لنشأة النقود إلى أن المعادن هي أكثر السلع إزالة للمتاعب. ولكن يصعب تحديد الوقت الذي بدأ فيه الإنسان في استخدام المعادن طريقة للدفع، وإن كان من المؤكد أن ذلك حدث في عصر متأخر عن عصر أرسطو. أما النقود الحقيقية فإن بعض الباحثين ينسبون فضل هذا الابتكار إلى مملكة ليديا في آسيا الصغرى، اعتماداً على قول زينوفون (٤٢٧-٣٥٥ق.م.)

وبعضهم ينسبه إلى فيدون الأرجوسي كما يذكر آخـرون أن قدماء الفينيقين قلدوا الليديين، كـما عرف الآراميون أشكال النقود وتداولوها. وكانت نقود الليديين قطعاً مستديرة الشكل سكَّت من سبيكة معدنية.

وهكذا توارثـت الأجيال المتعاقبة هذا الابـتكـار الحضـاري وطورتـه، وأخذت الممالك في مختلف الأقـطار تسك نقـودها معتمدة في ذلك عـلى أمهر الفنانين والصناع، حماية لها من التزوير والـغش من معادن مختـلفة، أهمـها الـذهب والـفضـة والبـرونز والنحاس.

وانتشر استخدام النقود المعدنية في جميع أرجاء العالم الإغريقي بعد أن ظهرت النـقود في اليونان في القـرن السابع قبل الميلاد. وسكَّت كل مدينة عملاتها الخاصة بها وفق نظام خاص بأوزان المـعادن، وقد كانـت العملـة الأساسـية في الـبلاد اليـونانيـة هي الدراخـما وكـان لهـا مضاعـفاتـها وكسورهـا، وظلت القاعدة الـنقدية المـتبـعـة علـى الـدوام الـدراخمـة والـدراخمـتـين. وهـكذا ظـهـرت دراخمات الإسكندر في مقدونيا، ثم دراخمـات فـيـليـب وغيـرها، وقد اختـلفت الأخـتام والدمـغات على النقود، واتخذ عليها شعارات مختلفة. وفي مقدونيـا عمد خلفاء الإسكندر إلى سك نماذج تحمل صورهم وصوراً للمعبود الخاص بهم. ولقد استخدمت



عملة فضية من العصر اليوناني (ضرب دمشق)

هذه العملات في بلاد العرب وغيرها من الأقاليم الشرقية.

المسكوكات القديمة

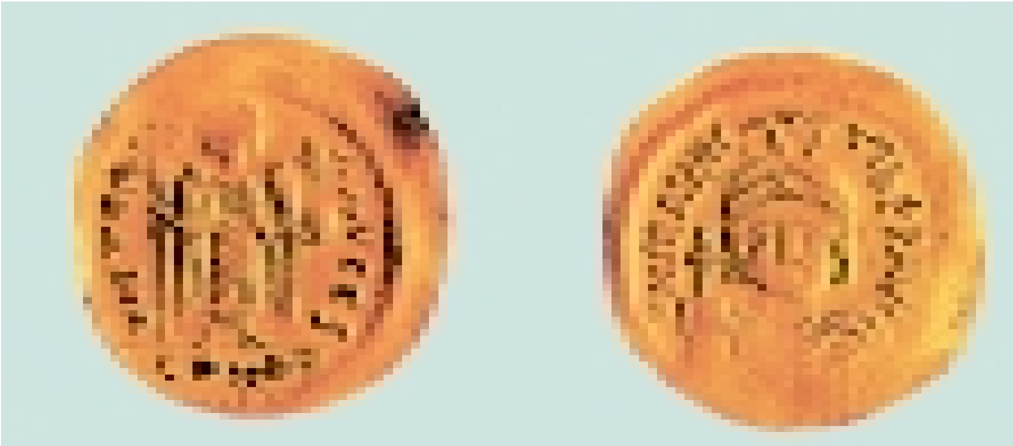
كان العرب في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام يتداولون ثلاثة أنواع من النقود بصفة رئيسية، كانت أساساً في معاملاتهم التجارية، وهي النقود البيزنطية والساسانية والحميرية. ويمكن استعراض هذه المسكوكات بإيجاز على النحو التالي:

النقود البيزنطية. المسكوكات البيزنطية استمرار للمسكوكات الرومانية، مع اختلاف في الشكل والمضمون، وإن كانت أقل جمالاً من المسكوكات اليونانية والرومانية. فهي رديئة النقش عكست إهمال القائمين على سكّها. واستمرت المسكوكات البيزنطية في الشرق تحمل الكتابة بحروف لاتينية، ثم حملت بالتدريج الكتابة اليونانية.

ومن المسكوكات البيزنطية الصولد وهي عملة ذهبية ظلت مستخدمة حتى بداية القرن الحادي عشر الميلادي. وفي سنة ٣٣٠م ضرب الإمبراطور قسطنطين نقوده في عاصمته الجديدة القسطنطينية، وأصبحت أقاليم الإمبراطورية الرومانية الشرقية تحت نفوذه المباشر ومن ضمنها الشرق العربي. وأصبح ضرب النقود وقفاً على الإمبراطور والدولة فقط. وباشرت العاصمة ضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية وجرى تبادلها في أنحاء الإمبراطورية المسيحية البيزنطية الشرقية. واستمر تداول هذه النقود في المنطقة العربية لمدة ثلاثة قرون ونصف حتى سك الخليفة عبدالملك بن مروان النقود العربية الإسلامية سنة ٧٧هـ.

وكانت النقود المسيحية تؤدي دوراً مهماً في الحياة الاقتصادية في كافة أنحاء الشرق العربي الخاضع لنفوذ الدولة البيزنطية، وحملت هذه النقود مواصفات محدده من شارات مسيحية، كالصليب والعبارات الدينية والشعارات وصورة الإمبراطور البيزنطي منفرداً أو مع أحد أولاده، ونقشت عباراتها بالحروف اللاتينية.

ويُطلق اللفظ اليوناني اللاتيني Denarius - aureus على الدينار البيزنطي، الذي اشتق منه العرب كلمة دينار، وهو قطعة مستديرة من الذهب الخالص يحمل على أحد وجهيه صورة الإمبراطور البيزنطي تارة وحده، وأخرى مع ولديه. وقد عاصرت



دينار ذهبي من العصر البيزنطي

الدنانير البيزنطية الدنانير الهرقلية في الفترة الإسلامية الأولى، وكانت تحمل صورة هرقل وحده أو صورته وإلى جواره، من اليمين والشمال كل من هرقليانوس وقسطنطين، ولداه. كما يظهر إلى جانب كل منهما صليب، بالإضافة إلى صليب آخر يتوج الرأس، وعلى الوجه الثاني للدينار رسم للصليب قائم على أربع درجات، مع بعض العبارات المسيحية، وكتابة تشير لمكان السك بالأحرف اللاتينية واليونانية. وكان للدينار أجزاء من النصف والثلث والثلثين والربع سكت لأغراض إتمام العمليات التجارية البسيطة، وتسهيل أمور الشراء والبيع. أما الفلوس البيزنطية فهي المضروبة من البرونز أو النحاس نقشت عليها صورة الإمبراطور البيزنطي على الوجه، وعلى الظهر الحرف اللاتيني M الذي يرمز لقيمة القطعة، وتساوي أربعين نُمِّيّاً. وقد اشتق اسم الفلس من اللفظ اللاتيني Follis. وهذا النوع من النقود ليست عليه قيود، إذ يضرب في جميع ولايات الدولة البيزنطية.

النقود الساسانية. الدرهم كلمة أعجمية اشتقت من اللفظ اليوناني الدراخما Drachma، ويقابلها بالفارسية دراخم وديران Drachm. والدرهم عملة فضية استخدمها العرب في بداية العصر الإسلامي في معاملاتهم التجارية، وعلى الخصوص في الأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي التي كانت تتبع قاعدة الفضة، وباعتبار الدرهم الفضي هو نقدها الرئيسي. والدرهم

الساساني قطعة مستديرة ضرب من الفضة، ونقش على أحد وجهيه صورة نصفية بوضع جانبي للملك الساساني، وعلى رأسه التاج المجنح، وحوله نصوص باللغة الفهلوية تذكر اسم الملك وعبارات أخرى دعائية. أما الوجه الآخر فعليه رسم لمعبد النار، وعلى جانبيه حارسان مدججان بالسلاح، وحوله نصوص باللغة الفهلوية تذكر مكان السك. وعلى مدار الهامش أربعة أهلة بداخل كل منهما نجمة خماسية موزعة على الجهات الأربع.

وقد استخدم العرب الدرهم نقلاً عن الفرس، وأدخلوا عليه بعض الإصلاحات النقدية في العصر الإسلامي قبل مرحلة التعريب. وظل المسلمون يتداولون هذه الدراهم مع إضافة عبارات إسلامية عليها. وكانت النقود الفضية المتداولة على نوعين: السُّود الوافية (البغلية) وتزن ثمانية دوانق، والطبرية العُتُق وتزن أربعة دوانق. وقد أوجد هذا الاختلاف مشكلة في دفع الزكاة مما أدى إلى مساواتهما، على أن يصبح كل منهما ستة دوانق.

وفي زمن الرسول ﷺ أصبح استمرار تداول هذه النقود في الجزيرة العربية أمراً لا مفر منه نظراً لانشغال الرسول ﷺ وأصحابه بنشر الدين الإسلامي، وتوطيد دعائم الدولة



درهم ساساني كان مستخدماً في الجزيرة العربية منذ فترة ما قبل الإسلام، وحتى بداية العصر الإسلامي

الإسلامية الفتية. وبعد قيام الدولة الإسلامية، وجعل عاصمتها المدينة المنورة، استمر تداول النقود التي كانت سائدة من قبل وأقرها الرسول ﷺ على ما كانت عليه وبما تحمله من شعارات مسيحية ومجوسية تتعارض مع روح الإسلام. وأقبل عليها أصحابه وتعاملوا بها ولم يفكر المسلمون في تبديل هذه النقود، حتى بعدما سيطروا على الأقاليم التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية في الشام ومصر، وكان مرد ذلك لأسباب سياسية واقتصادية. فهذه النقود مألوفة لدى العرب وبقاؤها يساعد على استقرار البناء الاقتصادي للدولة الإسلامية وتنظيم جباية الضرائب والزكاة.

النقود الحميرية. أقر الرسول ﷺ بالإضافة للدنانير البيزنطية والدراهم الساسانية التعامل بالدراهم الحميرية التي كانت ترد من اليمن. وقد امتازت هذه النقود بسمكها، وهي مسكوكة من معدن الفضة، وقد نقشت على أحد وجهيها صورة البومة، على غرار الدراخما الإغريقية، وبجوارها رسم الخنجر مع نقش لاسم ولقب الملك. وعلى الوجه الآخر صورة إنسان بوضع جانبي حليق الوجه محاط بغصن من الأشجار. وأقدم ما وصل إلينا من هذه النقود ما يعود تاريخه لسنة ١١٥ ق.م.

كما تداول العرب النقود النبطية، وهي قطعة مستديرة من المعدن تحمل على أحد وجهيها صورة للملك النبطي وعلى الوجه الآخر كتابات باللغة النبطية تشير إلى مكان السك وتاريخه، وفي الغالب كانت النقود النبطية تسك



عملة حميرية



عملة عربية قديمة من موقع قَرْيَة (الفاو)، يعود تاريخها إلى فترة ما قبل الإسلام

في البتراء، كما تداول عرب الجزيرة النقود السبئية التي تظهر على أحد وجهيها صورة البومة وكتابات سبئية عبارة عن رموز ربما تشير لمكان السك، وعلى الوجه الآخر صورة لرأس المعبودة أثينا.

كما كشفت التنقيبات الأثرية في قرية الفاو عن نقود محلية ضربت في قَرْيَة تحمل على أحد وجهيها رمز المعبود كهل وهو اسم المعبود، كتب بطريقة متصلة على هيئة توقيع، وعلى الجانب الآخر صورة شخص واقف يمسك بيده اليمنى سلاحاً.

المسكوكات الإسلامية

استمر التعامل بالنقود البيزنطية والساسانية بعد وفاة الرسول ﷺ ولم يحدث أي تغيير عليها نتيجة لانشغال الخليفة أبي بكر الصديق # بإخماد الفتن وحروب الردة وتوطيد أركان الدولة الجديدة.

وفي ولاية الخليفة عمر بن الخطاب # أراد المسلمون إبراز شخصيتهم في هذه المرحلة، فعمدوا إلى وضع بصماتهم على النقود، خاصة على الدراهم الساسانية. فضربوا نقوداً مشابهة للنقود الساسانية في كتاباتها ونقوشها، مع إضافة نقوش عربية إسلامية لتمييزها عن النقود الأخرى التي كانت ترد إلى الجزيرة العربية من الأقطار المجاورة. وبذلك بدأت الخطوات الأولى لتعريب النقود، كما أضيف اسم الخليفة عمر وكلمة جايز أو كلمة طيب أو واف، وفي سنة ٢٠هـ

ضربت نقود حملت العبارات التالية «بسم الله ربِ» أو «بسم الله ربي» ونقشت في بعض الأحيان أسماء الخلفاء أو الأمراء بالحروف البهلوية وعلى بعضها بالحروف الكوفية.

وفي خلافة عثمان بن عفان # ازداد اتساع الدولة الإسلامية، واستمر تداول النقود الأجنبية ذات العبارات العربية، خاصة الفضية منها التي كانت تضرب على الطراز الساساني فنجد العبارات السابقة أو عبارة «الله أكبر» أو «بركة».

واستمرت هذه الطرز أثناء ولاية الخليفة علي بن أبي طالب # مع إضافة لقب جديد «ولي الله».

وبذلك تعدّ فترة الخلفاء الراشدين مهمة في مسار المسكوكات الإسلامية، إذ نتج عنها تحول كبير يعد البداية الحقيقية للاستقلال الاقتصادي عن الدول الأجنبية. إن ظهور العبارات العربية على المسكوكات المضروبة على الطراز الساساني وقبول الساسانيين لهذا الوضع، لدليل على قوة نفوذ الدولة الإسلامية. وبذلك فقدت القوى الخارجية السيطرة على النظام النقدي السائد في الجزيرة العربية، وانتهت بالإصلاح النقدي في عصر الدولة الأموية أيام الخليفة عبدالملك بن مروان.

وقبل أن يُجري الخليفة عبدالملك بن مروان إصلاحه الشهير سنة ٧٧هـ لتخليص النقود الإسلامية من النفوذ الأجنبي، سك بعض ولاة الحجاز نقوداً خاصة بهم على الطراز الساساني. ففي سنة ٦٤هـ أعلن عبدالله بن الزبير نفسه خليفة في مكة والمدينة، أيام الخليفة الأموي مروان بن الحكم وسك نقوداً في مكة والمدينة في السنوات من ٦٤-٧٢هـ وقد سُكت هذه النقود على الطراز الساساني ونقشت عليها عبارات عربية. كذلك ضربت نقود من نفس الطراز وبنصوص فهلوية مثل: عبدالله أمير أوروشنكان بمعنى عبدالله أمير المؤمنين بالإضافة للبسملة بسم الله.

وبذلك استمر استخدام النقود المسكوكة على الطراز الأجنبي المحور في الدولة الإسلامية، بما فيها الحجاز والجزيرة العربية، حتى سنة ٧٧هـ. حين استكملت النقود الإسلامية عناصرها من حيث الإصلاح والتعريب في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان. واستطاع عبدالملك أن يضرب



وجه دينار من العصر الأموي



ظهر الدينار السابق

الدينار على الطراز الإسلامي خالصاً من التأثيرات المسيحية ويحمل نصوصاً عربية إسلامية نقشت بالخط الكوفي، وحدد وزنه الشرعي بمثقال واحد، أي ما يعادل ٤,٢٥ غرام قد يزيد أو ينقص. وجعل لهذا الغرض صنجاً زجاجيةً مخصصةً لوزن النقود بأنواعها، وفي سنة ٧٨ هـ ضرب أول نقد إسلامي من الفضة بأرمينية بعد أن تخلص من الطراز الساساني، ونقشت نصوصه وعباراته العربية الإسلامية بالخط الكوفي وحدد وزنه الشرعي بما يعادل ٢,٧٩ غرام قد يزيد أو ينقص.

لقد تخلصت النقود الإسلامية من جميع التأثيرات الأجنبية في سنة ٧٧هـ. واتخذت الطابع الإسلامي الجديد بحيث اشتملت على نصوص عربية إسلامية خالصة. فحمل الدينار المعرّب سنة ٧٧هــ على مركز الوجه عبارة «لا اله الا-الله وحده-لا شريك له»، وعلى الهامش ورد اقتباس من معنى الآية الكريمة ٣٣ من سورة الفتح ﴿محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾، أما مركز الظهر فقد نقش عليه أجزاء من سورة الإخلاص ﴿الله احد الله-الصمد لم يلد-ولم يولد﴾ وفي الهامش «بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سبع وسبعين».

أما نصوص الدرهم العربي الإسلامي فقد أصبحت على النحو الآتي في مركز الوجه «لا اله الا-الله وحده-لا شريك له»، وفي الهامش ﴿محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره

المشــركون﴾ وفي مركــز الظهر ﴿الله احد-الله الصمد-لـم يلد ولم يولد- ولم يكن له-كفوا احد﴾، وفي الهامش «بسم الله ضرب هذا الدرهم بارمينية سنة ثمان وسبعين».

كمــا نُقش علــى النقود الــذهبية المضــروبة فــي الحجــاز عبارة «أمــير المــؤمنـين» أيام الخـليـفة هـشام بــن عبدالملك، ومكــان الضرب «الحجاز»



درهم من العصر الأموي ضرب كرمان سنة ١٠٠ هجرية

كما نقشت عبارة «معدن أمير المؤمنين بالحجاز» في مركز الظهر.

كما حــملت بعضُ الـفلوس في العصر الأموي عبارة «ضُرب هذا الفلس بمعدن أمير المؤمنين بالمدينة»، وأصبح للمسلمين نقودٌ خــاصة بهم، تعاملوا بها بدلاً من النقود الأجنـبية. ووضع لهذا الغــرض أحكام وعقوبات حتــى يتسنى لــلدولة سحب النقود الســابقة وإعادة صهرها وسكها من جديد على النــظام العــربي الإسلامــي. وكانت الدنانير تضرب في الفســطاط ودمشق بأمر من الخليفــة وتوزع بعد ذلك في جميــع أنحاء الدولة الإســلامية، أما الدراهم فكانت تضرب في عدة مدن أخرى غير العاصمة. وقد اتبع الخلفاء الأمويون سك الدنانير والدراهم الأموية على طراز الخليفة عبدالملك بن مروان حتى نهاية حكمهم وسقوط دولتهم سنة ١٣٢هـ.

وبسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية تولى الخليفة أبو العباس السفاح سك دنانير ودراهم للدولة الجديدة على غرار النــقود الأموية، حمــلت عبارة «محمــد رسول اللّه» بدلاً مــن سورة الإخلاص في نصوص مركز الــدنانير والدراهــم. وقد تشــابهــت الدنانــير



فلس من العصر الأموي ضرب بعلبك

العباسية مع الدنانير الأموية، إذ لم تحمل الدنانير العباسية اسم مدينة الضرب أو اسم الخليفة، واستمر هذا الطراز في خلافة أبي جعفر المنصور. وفي سنة ١٣٩هـ أضيفت عبارة «لله جعفر» في نصوص مركز الظهر على بعض الدنانير، وترمز الكلمة إلى ابن الخليفة المنصور (جعفر) أمير الموصل في الفترة من ١٤٥-١٤٧هـ. وفي خلافة المهدي استمرت الطرز السابقة مع ظهور طرز جديدة عليها شكل هلال فوق مركز الظهر.

وقد أراد الخليفة المهدي تمييز دنانيره المضروبة في قصر السلام، العاصمة الجديدة، عن نقوده المضروبة في مدينة السلام. وفي عهد الخليفة الهادي عادت الطرز الأولى التي تخلو من رسم الهلال عليها. وفي خلافة هارون



دينار عباسي باسم الخليفة المتوكل بالله



دينار عباسي باسم الخليفة المعتز بالله

الرشيد سكّت نقود نقش عليها اسمه ولقبه «أمير المؤمنين»، وكان ذلك في أوائل توليه الخلافة. ويعد الرشيد أول خليفة يضع اسمه ولقبه على الدنانير الإسلامية لتأكيد سلطته الشرعية خليفة للمسلمين. كما نقش اسمه ولقبه على الدراهم. وظهرت أسماء أخرى على الدنانير العباسية مثل «علي، موسى، عمر، داود، إبراهيم، جعفر». وفي سنة ١٧٩هـ ظهر اسم «محمد الأمين» على الدنانير العباسية بعد أن نُصّب ولياً لعهد المسلمين. ومنذ سنة ١٨٧هـ حتى نهاية عصر هذا الخليفة لم تحمل الدنانير أي اسم، عدا بعض الحروف التي ربما كانت رموزاً لأسماء المشرفين على دور السك.



درهم من العصر العباسي

واشتهرت الجزيرة العربية بعدد من مراكز السك في العصر الإسلامي، منها: مكة والمدينة واليمامة وحَجْر وبيشة وعثّر. وعلى الرغم من تعدد مراكز السك في الجزيرة العربية فإن النقود المضروبة في هذه المراكز نادرة جداً، وهي في الغالب ضربت في هذه المراكز في القرن الرابع الهجري في العصر العباسي، والقليل يعود إلى القرن الثاني الهجري، ونقشت عليها أسماء الخلفاء العباسيين. وبعض منها سجلت عليه أسماء الولاة المحليين في الفترة من ٣٥٩-٦٣٦هـ.

كما ظهرت دنانير ضربت بمكة في العصر العباسي سنة ٢٤٩هـ باسم الخليفة المستعين بالله، وأخرى باسم الخليفة المكتفي بالله سنة ٢٩٢هـ وجميع هذه النقود المضروبة بمكة تصنف على أنها نادرة جداً.

أما بيشة، وهي إحدى دور السك الإسلامية في العصر العباسي، فقد سك العباسيون فيها درهماً سنة ١٨٦هـ، أيام الخليفة هارون الرشيد، باسم أحد أمرائها، العطاء الكندي، وقد نقش اسمه الأول «عطاء» على الدرهم، ويعد من النقود الإسلامية النادرة جداً. كما ظهر أيضاً لأحد أمرائها



دينار مضروب في عثّر بمنطقة جازان مؤرخ بسنة ٣٧٣هـ

دينار مضروب زمن الدولة العباسية أيام الخليفة المطيع لله سنة ٣٣٧هـ، كذلك ظهرت مجموعة من الدنانير المضروبة بمركز عثّر ضربت في أواخر القرن الرابع الهجري باسم الخليفة العباسي الطائع لله، والخليفة القادر بالله في السنوات التالية: ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢هـ باسم الأمير فرج الطرفي، وهو حاكم محلي.

وعثر على مجموعة من الدراهم ضربت باليمامة في السنوات: ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨هـ في عصر الخليفة المهدي، وحملت عبارة «حجر» وهو حَجْر اليمامة، في أسفل مركز الوجه. ودرهم آخر ضرب سنة ١٦٨هـ نقش عليه اسم والي اليمامة عبدالله بن سعيد (في الفترة من ١٦٨-١٦٩هـ).

كما عثر أحد المزارعين على كنز من النقود الفضية التي تعود للعصر الأموي والعباسي في شبرية الصفراء، أحد المراكز التابعة لمنطقة حائل، ويتكون هذا الكنز من ٤١٤ مسكوكة فضية، منها ٧ قطع ضربت في العصر الأموي، وواحدة ضربت بمدينة جي



درهم مضروب في اليمامة مؤرخ بسنة ١٦٨هـ



درهم عباسي مضروب بمكة المكرمة مؤرخ بسنة ٢٩٣هـ

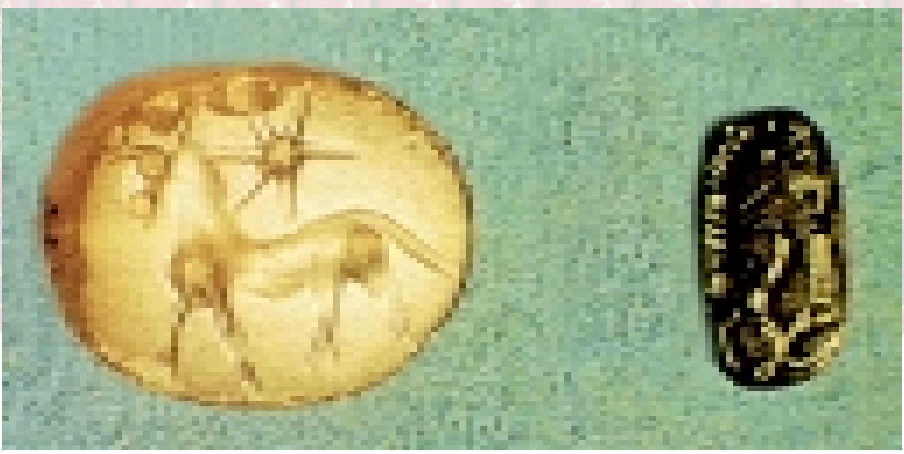
سنة ١٢٩هـ تعود لفترة الخوارج، والباقي ضرب في العصر العباسي. وتعود أقدم مسكوكات هذا الكنز للعصر الأموي، وبالتحديد إلى سنة ١٢٥هـ عهد الخليفة هشام بن عبدالملك، وأحدثها للعصر العباسي سنة ١٩٣هـ، أيام الخليفة هارون الرشيد. كما عثر المواطن نفسه في مزرعته على أربع قطع أخرى تعود للفترة الإسلامية المبكرة. وقد عُثر على بعض العملات الإسلامية في مواضع أخرى من درب زبيدة في كل من معدن النقرة والربذة وفيد وسميرا، وهي ملتقطات سطحية عُثر عليها أثناء المسوحات الأثرية. ومن خلال التنقيبات الأثرية في موقع الربذة عُثر على عملات ذهبية وفضية وبرونزية تعود للعصرين الأموي والعباسي ضربت في مدن واسط، ومدينة السلام، والكوفة، والمحمدية، ونيسابور، وهي تغطي مرحلة تاريخية من بداية ظهور الإسلام حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

الأختام

تعد الأختام من العلامات المخصصة والمميزة لملكية الأشياء، سواء الخاص منها أو العام. وهي تمثل كذلك إشارات لعلامات تصديق من قبل جهات مسؤولة عن صلاحية شيء معين أو إثبات شرعيته وسوف نتحدث في هذا القسم عن الأختام وصناعتها وأشكالها وما نقش عليها من كتابات وعلامات وصور.

الأختام في العالم القديم. كان للاستقرار ولظهور رموز العبادات خلال العصر الحجري الحديث، أي في أواخر الألف السادس وأوائل الألف الخامس قبل الميلاد، أثر رئيسي في الحاجة إلى استخدام الأختام، عندما ظهرت في القرى المركزية جهات لها حق التشريع والتنظيم والتنفيذ. وظهرت في هذه القرى صراعات وخلافات غير مألوفة، مما أدى إلى العمل بالأختام لحفظ الأشياء، مثل الأملاك والاختراعات والصناعات التي وجب تسجيلها بأسماء أصحابها لحفظ حقوقهم، لذلك فإن الأختام، كغيرها من الأدوات الأخرى قد استمرت أهميتها واستخداماتها في ملكية الأشياء والتصديق على الأوامر والأحكام منذ القدم حتى العصر الحالي.

أما صناعة الأختام في القديم فكانت، كما في عصرنا الحالي، تراعي عدم تكرار العلامات المميزة لها من خلال حفظ العلامات، واحتكار صناعتها في مراكز معينة، خاصة داخل المجتمعات المنظمة ذات الكثافة السكانية العالية. ومن الشواهد الأثرية فإن الختم الدائري البسيط العائد تقريباً إلى الألف السادس قبل الميلاد هو أقدم الأختام، إذ استمر استخدامه حتى ظهور الختم الأسطواني الذي تميز عنه بسهولة الاستخدام. ثم توالت بعد ذلك الأنواع الأخرى التي تدرجت في أشكالها تبعاً لتطور الفن بشكل عام. ويظن العلماء أن طينة الصلصال كانت المادة الأساسية المستخدمة في صناعة الأختام، لأن أغلب المكتشف منها مصنوع من تلك



أختام دلمونية من حفريات مقابر جنوب الظهران

المادة. وقد عثر على أختام مصنوعة من الصخر العادي أو النفيس ومن الأصداف البحرية والأخشاب.

وتدل الدراسات الأثرية على أن الأختام تنقسم إلى ثلاث فئات. الفئة الأولى هي الأختام التي اقتصرت استخداماتها على الدولة بمختلف مؤسساتها ودوائرها. والفئة الثانية الأختام الخاصة بدور العبادة والآلهة المقدمة كقرابين أو هدايا، وهي التي تستخدم في شؤون المعبد الاقتصادية أو تعليماته الدينية الصادرة عنه. وتشتمل الفئة الثالثة على الأختام الشخصية التي تستخدمها فئات المجتمع لتمييز الملكية أو إنهاء المعاملات التجارية. وتجدر الإشارة إلى أن الأختام تستخدم في بعض الأحيان تعاويذ تعلق إما في الرقبة أو اليد.

الأختام في المواقع الأثرية في المملكة. الأختام التي عثر عليها في المواقع الأثرية بالمملكة جاء أغلبها من حفريات مقابر جنوب الظهران، بالإضافة إلى أعداد قليلة من مواقع أخرى. فقد عثر على ختم واحد في كل من دومة الجندل وجزيرة تاروت. كما عثر على ثلاثة أختام من جنوب نادقان، وختمين من شمال الظهران.

وعلى الرغم من ندرة الدراسات عن الأختام في هذه البلاد، فإن من المؤكد أن أقدمها يعود للألف الرابع قبل الميلاد. ويستمر تداولها، كما هو متوافر لدينا من معلومات، حتى العصر الحديدي، ولا يعني هذا عدم تداولها في الفترات اللاحقة.

وأمّا صناعة الأختام في هذا الجزء من الشرق الأدنى القديم، فقد استخدمت فيها مواد متنوعة، مثل الصلصال المحروق، والحجارة التي تشتمل على الحجر المرقط، والحجر الأسود، والحجر الرمادي، والحجر الصابوني الصلب، والعقيق، والحجر نصف الشفاف، والحجر الرسوبي البني الفاتح، والحجر الصابوني الأخضر الباهت، والحجر الصابوني المزجج، وحجر الديورايت، واستخدم الجص ويشمل الجص الملون بالأزرق الباهت، والجص القاتم اللون، والجص العادي والجص المطلي باللون الأخضر مع التزجيج، واستخدم الخشب ويشمل خشب الساج، وخشب السيسم المصقول، واستخدم الرصاص، والصدف، والصدف القوقعي المقطوع.

وقد ظهرت الأختام في هذه المنطقة بأشكال متنوعة، أهمها وأكثرها شيوعاً

الشكل الأسطواني، وأشكال بهيئة خف الجمل، أو بهيئة حيوان رابض، والشكل المخروطي من الجهتين، والشكل المتوازي المستطيلات، والشكل المعين، وأشكال بهيئة الجمل برأسين في طرفيه وسنام في وسطه، والشكل الدائري، والشكل الجملوني، والشكل المزدوج التَّحَدُّب. ولقد أثبتت الدراسات الأثرية لهذه الأختام تعدد المشاهد التي تحملها، وهي تتمثل في التالي:

١) آدمي يقف أمام حيوانات من ذوات القوائم الأربع.
٢) مشهد لحصان مرسوم بأسلوب فني.
٣) إحدى واجهات المباني مصحوبة بإشارات من جنوب الجزيرة العربية من الداخل.
٤) مشهد لتيس جبلي.
٥) منظر لحصان يعدو.
٦) منظر لشجرة وحيوان غامض.
٧) منظر يمثل وحشاً مجنّحاً.
٨) منظر لطير غامض.
٩) منظر يجمع حصاناً ونجمة فوق كتفه.
١٠) منظر يمثل حروفاً آرامية.
١١) منظر لأسد ووحشين مجنحين يرتديان تاجي مصر العليا ومصر السفلى، ويصحبهما زهرة اللوتس في لوحتين منفصلتين.
١٢) مشهد لنباتات بحرية أو أسماك داخل شبكة صيد تصحبها تموجات لسطح البحر.
١٣) منظر لمربعات وعددها أربعة وعشرون.
١٤) منظر لحروف عربية.
١٥) منظر لإنسان.
١٦) منظر لمجموعة من الدوائر.
١٧) منظر يجمع دوائر ونقطاً تشكل مراكز تلك الدوائر.
١٨) منظر حورس وهو واقف، وإطار زخرفي تحت قدميه عليه خمس علامات هيروغليفية.
١٩) منظر لأبي الهول مستلقياً ومرتدياً تاج مصر العليا، وتبدو أمامه علامة (عنخ) وفوق أبي الهول الرموز الهيروغليفية.
٢٠) منظر يمثل تقاطعات هندسية بلا علامات مميزة.

ومن دراسة العلامات والمناظر المرسومة على هذه الأختام يمكن القول إنها تعكس الاتصال الذي كان سائداً آنذاك، إذ يلاحظ أن من بين المجموعة ما يحمل رموزاً مصرية واضحة، ومنها ما يحمل مشاهد من جنوب الجزيرة

العربية، وبعضها يحمل تأثيرات من بلاد الرافـدين. ويلاحظ أن الاتـصال بين الجزيرة العربية وبقية أجزاء العالم القديم قد استمر لفترات زمنية طويلة متوالية.

النقوش القديمة

اكتشاف النقوش ودراستها

تدل مادة نقش في اللغة على جملة من المعاني، منها ما يحدثه الصانع على الأجسام الصلبة من أشكال رمزية أو صور ورسوم. جاء في لسان العرب لابن منظور «نقشه ينقشه نقشاً وانتقشه: نمنمه، فهو منقوش... والنقّاش صانعه، وحرفته النِّقاشة، والمنقاش الآلة التي ينقش بها، أنشد ثعلب:

فوا حزناً إنّ الفراق يروعني
بمثل مناقيش الحليّ قصار

والنمنمة التي أشير إليها في النص السابق هي كما يقول ابن منظور «خطوط متقاربة قصار شبه ما تنمنم الريح دقاق التراب، ولكل وشي نمنمة. وكتاب منمنم: منقّش».

والنقش بهذا المعنى يشمل ما نقش من أختام وما نقش من كتابات وخطوط على الحجارة، وما أبرز من كتابات إسلامية على جدران المساجد وغيرها.

تعد الجزيرة العربية من المراكز الأساسية التي كان لها شأن مهم في العالم القديم؛ وذلك لسببين: أحدهما الموقع الاستراتيجي، إذ هي تقع بين مراكز حضارية كان لها شأن مشهود في الصرح الحضاري، ففي الشرق توجد أراضي إمبراطورية عيلام التي تقود إلى مواقع الحضارات الهندية والصينية وغيرها. أما من الشمال فتحدها أراضي الرافدين وبلاد الشام، ومن الغرب توجد مصر بحضارتها العريقة. والسبب الآخر: أنها مخزن لشعوب وقبائل دفعتهم ظروف متعددة، مثل الحروب الداخلية وتغيرات المناخ وتزايد أعداد السكان وغيرها، إلى الاستقرار والاستيطان في مناطق خارج الجزيرة العربية. وقد أثبتت هذه الشعوب والقبائل، عند استقرارها، أهليتها ليس

فقط في المشاركة بل في نشر سيطرتها السياسية والثقافية والدينية. ومن نماذج هذه الشعوب والقبائل: الأكادية والبابلية والآرامية التي أثبتت آثارهم صنيعهم المتميز في الصرح الحضاري. ومن أبرز ما خلفته لنا هذه الشعوب والقبائل في مواطنها الأصلية الكتابات والنقوش. فقد حفظت لنا الأيام نماذج هائلة من أنماطها وأنواعها.

وتعدّ المملكة العربية السعودية أكثر المواقع في الجزيرة العربية احتواءً لمثل هذه الكتابات والنقوش الساميّة، كالرموز الأكادية المكتوبة على الأختام التي عثر عليها في مواقع متعددة من المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية، وبعض الكتابات ذات الأشكال والرموز الهيروغليفية (الأنصاري ١٩٧٩ ج١: ٧٢)، والنقوش الإغريقية (أطلال ١٤١٠: ع ١٢). بالإضافة إلى الكم الهائل من الكتابات والنقوش السامية الغربية والجنوبية بمختلف أنواعها، مثل النقوش الآرامية القديمة، الواسعة الانتشار الموجودة فقط في تيماء القديمة، والكتابات النبطية المنتشرة بشكل مكثف في المنطقتين الشمالية والغربية، ونقوش البادية العربية (الثمودية/ الصفوية). والمملكة العربية السعودية من أكثر المواقع ثراءً بمثل هذا النوع من الكتابات إذ هي موجودة في معظم مناطقها، وخاصة في شمال المنطقة الوسطى (نجد) وشمالها الغربي، والنقوش الديدانية واللحيانية التي لم يعثر عليها إلا في شمال الحجاز وعلى الطرق التجارية المتصلة بها إلى بلاد الشام وإلى العراق. كما انتشرت كذلك نقوش المسند الجنوبي القديم المعيني والحميري والسبئي في أجزاء مختلفة من مناطق المملكة العربية السعودية.

هذه الأنماط والنماذج من العلامات الكتابية لفتت انتباه العلماء العرب المسلمين الأوائل أمثال ابن الكلبي الذي قال إن كتاب المسند حرف لا يلتزق ولا يتصل حرف بحرف وإذا انقضت الكلمة عملت علامة عند منقطعها. ويقول ابن النديم:

> إن حمير كانت تكتب بالمسند على خلاف أشكال ألف وباء وتاء ورأيت أنا جزءاً من خزانة المأمون ترجمته ما أمر بنسخه أمير المؤمنين عبدالله المأمون أكرمه الله من التراجم وكان في جملته القلم الحميري (١٩٧٨ : ٨).

وقد شرح الهمداني في الجزء الثامن من كتاب الإكليل أصول كتابة الخط المسند وقراءته وأوضح كيفية كتابة الحروف وقراءتها واختلاف أشكال بعضها ورسمها

وألفاظها. وبذلك أصبحت المعلومات التي ذكرها الهمداني الأساس الذي اعتمد عليه العلماء فيما بعد في فك رموز وطلاسم هذه الكتابات المسماة بالكتابات الحميرية.

وبعد غياب طويل عاد الاهتمام في بداية القرن التاسع عشر الميلادي بمثل هذه الدراسات عندما قام الرحالة الغربيون أمثال بوركهارت Burchardt (١٨٢٨م) وروميل ومورلي وويلستيد Wellsted (١٨٣٨م) والسويدي فالين Wallin (١٨٤٥-١٨٤٨م) وبيرتون Burton (١٨٥٥-١٨٧٩م) بزيارة لبعض مناطق المملكة، وسجلوا مشاهداتهم وأحاسيسهم عن المناطق التي مروا بها كلٌ حسب ميوله واهتماماته. وتنامى هذا الاهتمام في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عندما جاءت دفعة أخرى منهم فيها الرحالة الإنجليزي داوتي Doughty (١٨٧٩م)، الذي سجل عدداً من النقوش العربية القديمة، والرحالة الفرنسي هوبر Huber (١٨٨٣م)، الذي نقل مسلة تيماء المشهورة إلى متحف اللوفر، والرحالة الألماني إويتنج Euting (١٨٨٤م). وقد قاموا باستنساخ قدر صالح من النقوش العربية المختلفة اللهجات. وعند الانتهاء من إنشاء سكة حديد الحجاز (١٩٠٤-١٩٠٦م) تزايد قدوم الرحالة إلى المنطقة حيث وصل مورتيز Muritz (١٩٠٦م) إلى موقع قُرَيَّة في الشمال وتمكن من جمع عدة نقوش منها. تلاه الأبوان الفرنسيان جوسين Jaussen وسافيناك Savignac (١٩٠٩-١٩١٤م) اللذان تمكنا من الحصول على كمية هائلة من النقوش العربية القديمة ضمنت في كتابهما المتميز المعروف باسم بعثة آثارية إلى الجزيرة العربية. وتعد دراستهما وأبحاثهما الرائدة لهذه الكتابات الأساس الذي انطلق منه العلماء المهتمون بدراسة هذه النوعية من النقوش والكتابات، خصوصاً النقوش اللحيانية. ويعد فيلبي Philby، برحلاته وزياراته المتعددة التي غطت أجزاءً كثيرة من المملكة العربية السعودية (١٩٣٩-١٩٥١م)، أحد أبرز الرحالة في رصد وتسجيل الكتابات العربية بأنواعها المختلفة. والجدير بالذكر أن العالم البلجيكي ركمانز Ryckmans والفرنسي ليبنز Lippens رافقا فيلبي (١٩٥١م) عند زيارته لجنوب المنطقة الوسطى والمنطقة الجنوبية الغربية من المملكة.

وفي بداية منتصف القرن العشرين أصبحت الرحلات الاستكشافية ذات صفة علمية. فقد تمكن الباحث الكندي ونيت Winnet والأمريكي ريد Reed عند

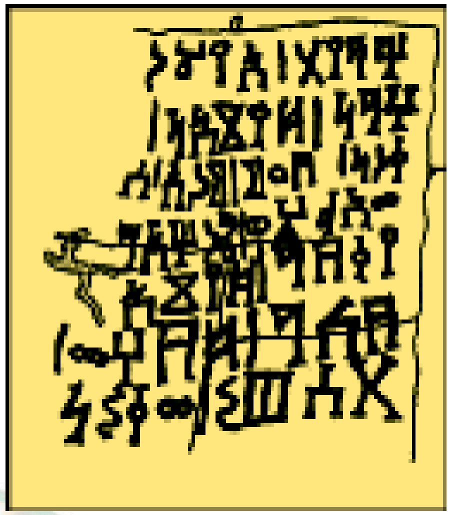
زيارتهما للمنطقتين الشمالية والشمالية الغربية (١٩٦٢م)، من تصوير كم غير قليل من النقوش العربية القديمة وتسجيلها، وضمنت في كتابهما سجلات قديمة من شمال الجزيرة العربية. ثم تمكنت الباحثة الألمانية روث شتيل أثناء زيارتها للمملكة العربية السعودية (١٩٦٦م) من الحصول على بعض النقوش العربية القديمة، كاللحيانية والآرامية القديمة. وفي سنة ١٩٦٨م حصلت بعثة معهد الآثار بجامعة لندن خلال زيارتها للمنطقة الشمالية على عدد من هذه الكتابات والنقوش. وأخيراً وفق العالم البلجيكي جام Jamme، أثناء زيارته لمدينة عرعر (١٩٧٠م)، في الحصول على نقوش صفوية. كما درس نقوشاً خطت بالقلم الجنوبي القديم (المسند) أرسلت إليه من منطقة الأحساء. وقام أيضاً برحلة إلى الفاو سنة ١٩٧١م ومسح معظم النقوش التي على سفح جبل طويق المطل على الفاو. ويعتبر المؤرخان السعوديان، حمد الجاسر وعبد القدوس الأنصاري، من أوائل الذين سعوا في رصد هذه الكتابات والنقوش، ويعد عبدالرحمن الطيب الأنصاري أول السعوديين الدارسين لهذه الكتابات في رسالته للدكتوراه عن الكتابات اللحيانية. ثم تلاه الباحث محمود الروسان في رسالته للماجستير النقوش الثمودية والصفوية، ثم تلاهما الباحثان محمد حمد السمير النجم الذي درس عدداً من نقوش البادية العربية الثمودية، أطلال (١٤١٠ : ١٢) وسليمان بن عبد الرحمن الذييب الذي نشر العديد من الأبحاث عن هذه الكتابات. وكان الباحث عبدالله آدم نصيف قد سبقهما في تسجيل وتصوير العديد من الكتابات العربية القديمة عند مسحه لمنطقة العلا (١٩٧٨م). كما قام الباحث حسين أبو الحسن بدراسة ما يزيد عن مائتي نقش لحياني جديد من جبل عكمة بالقرب من العلا خلال إعداده لرسالته للماجستير. ودرس الباحث خالد إبراهيم اسكوبي ما يقارب ثلاثمائة نقش جمعها من منطقة رم جنوب غربي تيماء في الطريق إلى الحجر ودادان (العلا) للحصول على درجة الماجستير.

ومنذ عام ١٣٧٥هـ تبنت الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية مشروع المسح الأثري الشامل لحصر وتسجيل كافة المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات حضارية مختلفة (عصور حجرية، ما قبل الإسلام، إسلامية)، ويشمل المسح تسجيل ما تحويه هذه المواقع من معثورات أثرية، كالكتابات العربية

القديمة وغيرها. ومع تزايد المواقع التي تضم كتابات ونقوشاً رأت الإدارة العامة للآثار ضرورة تخصيص بعثات خاصة لحصر الرسوم الصخرية والكتابات والنقوش ورصدها وتسجيلها. وقد أُنجز حتى الآن من هذا المشروع خمسة مواسم، غطت أجزاءً من المناطق الشمالية، والشمالية الغربية، والغربية، والجنوبية، والمنطقة الشمالية من المنطقة الوسطى. وقد حصرت البعثة ألفاً وتسعة عشر موقعاً خاصاً بالنقوش، وجد فيها ما يزيد على خمسة آلاف وخمسمائة نقش من نقوش البادية العربية، منها ٥٤٣٨ نقشاً لحيانياً وثمودياً، والباقي صنف نقوشاً صفوية، ومنها ٣٧٤ نقشاً لحيانياً و١٠٧ نقوش جنوبية قديمة، و٥٢٤ نقشاً نبطياً و١٥ نقشاً إغريقياً. والملاحظ أنه على الرغم من أن الأجزاء الشمالية من نجد فيها أكثر نقوش البادية العربية (الثمودية) إذ بلغت ٢٣٦٧ نقشاً، فإنه لم يعثر بها على أي من النقوش اللحيانية أو الإغريقية، غير أنه عثر على أربعة نقوش من النقوش النبطية، على ثلاثة نقوش ومن المسند الجنوبي. وسجلت البعثات ٤٦٠ موقعاً في المنطقتين الشمالية الغربية والغربية، احتوت على كافة النقوش العربية القديمة، مثل نقوش البادية ١٨٤٥ نقشاً، والإغريقية أربعة عشر نقشاً بالإضافة إلى تميز هذه المنطقة بالنقوش اللحيانية. أما المنطقة الشمالية فقد وصلت مواقع النقوش بها إلى ٣١١ موقعاً، ضمت ٩٧٩ نقشاً ثمودياً من نقوش البادية العربية (الثمودية) ثم ما يزيد على ٢٠٠ من نقوش البادية العربية المعروفة باسم الصفوية و١١٩ نقشاً نبطياً، ونقشاً واحداً إغريقياً، ولم يعثر بها على أي من النقوش العربية الجنوبية (المسند). وأما المنطقة الجنوبية من المنطقة الغربية فحوت ٧٤ موقعاً، بها ٢٧٤ من النقوش الثمودية و٤١ نقشاً جنوبياً، ونقشاً نبطياً واحداً. ومع ذلك فما يزال مسح النقوش القديمة وتسجيلها أمراً قائما عند إدارة الآثار والمتاحف.

نقوش المسند

هي تلك النقوش التي يعتقد أنها تطورت في جنوب الجزيرة العربية وأنها ولدت في مكان ما خارج الإقليم الجنوبي للجزيرة العربية. وتنقسم هذه النقوش استناداً إلى بعض خصائصها اللغوية، إلى لهجات ست هي: السبئية والمعينية والقتبانية والحضرمية والأوسانية والحميرية، وإن كان هناك رأي بأن الحميرية



صورة مفرغة لنقش عربي جنوبي، كتب بالقلم السبئي - المنطقة الجنوبية

هذا التقسيم إلى المواقع الجغرافية وإلى القبائل (الدول) التي تحدثت بتلك اللهجات. وتبلغ حروفها تسعة وعشرين حرفاً صامتاً، بزيادة حرف واحد عن الهجائية العربية المعروفة، وتقرأ نقوشها من اليمين إلى اليسار، لكنها في بداياتها كانت تقرأ أحياناً على نسق محراثي، أي من اليسار إلى اليمين وبالعكس وهكذا. وأبرز ما يميزها عن غيرها من النقوش السامية الأخرى، غير خصائصها اللغوية وأشكال حروفها، استخدامها للفاصل الذي يفصل بين كلمات السطر الواحد مما سهل الكثير على القارئ.

ومن هذه الخاصية أطلق على هذا النوع من الكتابات اسم المسند، أي من

ليست لهجة قائمة بذاتها وإنما هي اسم لقبيلة كتبت نقوشها بلهجة سبئية، ويضاف إليها أحياناً الكتابة الحبشية القديمة. ويعزى



نقش بخط المسند - منطقة الأخدود بنجران

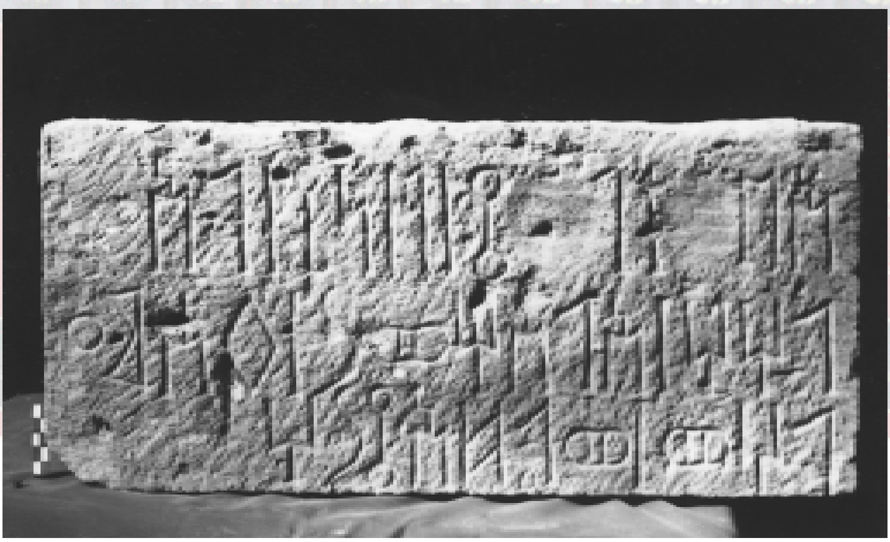
استناد الحـروف إلى هذه الفواصل، أو استناد حروفها بعضها إلى بعض. وهناك من يرى أن كـلمة سند تعـني: كَتَبَ، وعليه يكون المسند هو الخـط المكتوب، علـى الرغم مـن أن بيسـتون أسمـاها الكتابات الصيـهدية لأن حواضر ممالك هذه النقوش تركزت فـي منطقة عرفت عند الهمداني باسم صيهد، وتسمّى اليوم رملة السبعتين.

إنّ الطبيعة المتناسقة لأشكال حروف المسند جـعلت بعض العلمـاء يميل إلى الاعتقاد بأن المسند إما أن يكون قد جاء عن طريق الكتابة السينائية، أو عن طريق الجـزر المواجـهة لـلـساحـل السـوري (اليونان)، إذ إنه من المفترض والطبيعي أن تكون لهذه الأشكال المتناسقة بدايات، ولذا لا نستبعد أن تـكون نقوش البادية هي بدايـات المسند. ويجـب ألا تُغفل حقيقة أنّ القبائل العربية الجنوبية هاجرت من الشمال، وهناك من يقول إنهم قدموا من موطنهم الأصلي في جنوب العراق ويدلل على ذلك بـتشابه بعض الأنماط المعمارية بين الحضارتين، حضارة جنوب الجزيرة العربية وحضارة بلاد الرافدين، كأسلوب بناء المعابـد المبكرة في جنوب الجزيـرة الذي يشـابه بنـاء الزقـورات. بالإضافة إلى التشابه في بعض الأنظمة السياسية، مثل دور المكرب اليمني ودور الباتزي في بلاد الرافدين. كما أن هناك من يقول إنهـم قدموا من شمال غرب الجزيرة العربية، ويدلل على ذلك بتميز قبائل وشعـوب هذا الجزء بقبول حكم المرأة، مثل الملـكات الشماليات اللاتـي ظهرن في دومة الجندل؛ شمـس وزبيبة وغيرهــما، ولم نجد أي دليل مـادي أو كتـابي علـى قيام المـرأة بنفـس دورها السياسي في الجـنوب. ومن قائل إنهم جاءوا من شـمال نجد لأن هذه المنطـقة تعد من المناطق التي تحتوي على مواقع من العصور الحجرية بكافة فروعها، وقد دفعت التغيرات الجوية قاطنيها إلى تركها بحثاً عن مواقع أكثر مـلاءمة، فهاجر بعضــهم إلى الشـمال؛ مثل الآرامـيين وآخرون إلـى الجنـوب، مثل الـقبائـل الجنوبية. ومن قائل إنهم قدموا من مكان ما في سوريا، وذلك للتطابق الكبير بين أسماء الأعلام الـسبئية المبـكرة وأسماء الأعلام الأوغاريـتية مما يـوحي بوجود علاقة عرقية بينهما. وعلى أي حال فإنه نظراً لقلـة مواقع آثار العصور الحجريـة في الجنوب ولإبهام بدايات هذه الحضارة المتميـزة، مال كثيرٌ من العلـماء إلى أن هذه القبائل قد تركت موطـنها الأصلي في الشمال لظروف سياسية ونزحت إلى

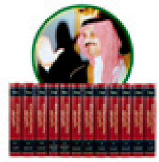
الجنوب في فترة تسبق القرن التاسع قبل الميلاد.

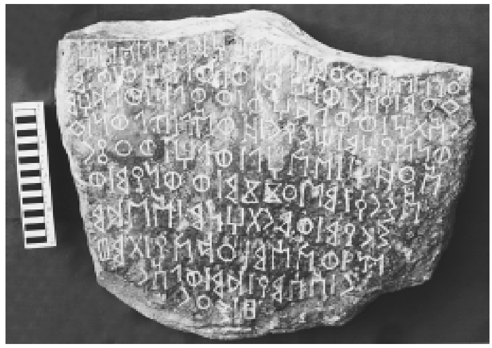
وتمتاز النقوش العربية الجنوبية، بعدم وجود حروف لأصوات لينة فيها، وانفصال الحروف بعضها عن بعض. وعدم تغير شكل الحرف بتغير مكانه، وأن أداة التنكير هي حرف الميم في آخر الكلمة، كما في الأوجاريتية والأكادية، وأن أداة التعريف هي حرف النون في آخر الكلمة. وهذه النقوش قسمت من حيث موضوعاتها إلى عدة أقسام، أهمها نصوص لتنظيم الحياة العامة؛ وهي، على العموم، المراسيم التي يصدرها الملك أو القبيلة أو المعبد لمعالجة موضوعات مختلفة، مثل أنظمة السوق، واستئجار الأراضي وتوزيعها وغيرها من الأمور التنظيمية الأخرى، ثم النصوص الدينية، وهي نصوص الهبات والقرابين، وهي أكثر النصوص القديمة، والنصوص التذكارية، والنصوص التي تمجد الملك أو الشخصيات المهمة -خصوصاً في الفترة الحميرية- والنصوص المتعلقة بالممتلكات العامة والخاصة، مثل إقامة المنشآت الدفاعية والآبار والسدود والقنوات والأعمال الزراعية والمساكن، والمعابد.

ولم يعثر في المملكة العربية السعودية حتى الآن إلا على بعض هذه النصوص المعينية، وعددها مائة وثمانية وأربعون نقشاً في غرب المملكة في منطقة العلا في موقعي الخريبة والمزاحم، وكذلك

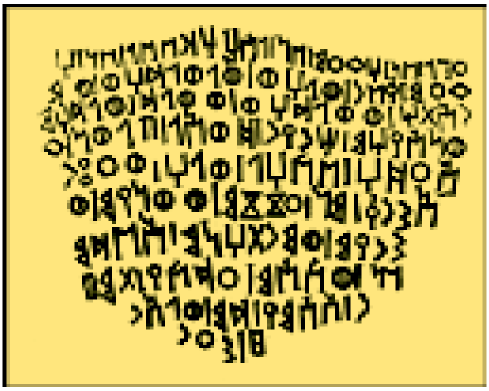


نقش تذكاري على الحجر الجيري يحمل كتابة عربية جنوبية قديمة بالخط المسند الجنوبي





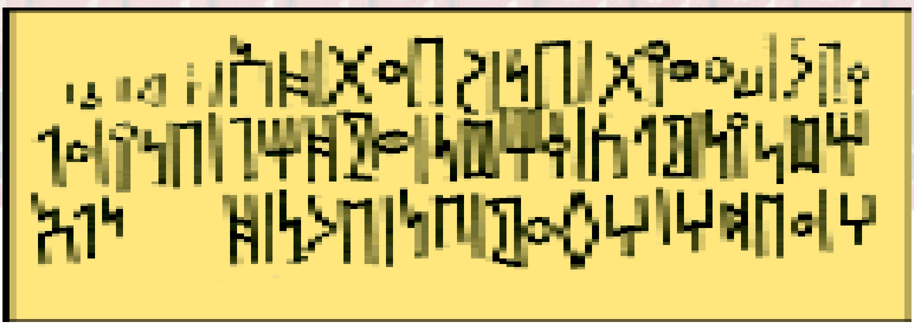
نقش بالقلم المسند الجنوبي، وهو تسجيل بناء مقبرة لعجل بن هفعم



صورة مفرغة لنقش عجل بن هفعم

وجدت خمسة نقوش جنوبية بشكل عام في موقعي نقع بني مر وروافة في الشمال الغربي. أما في الجنوب الغربي فقد عثر على واحد وأربعين نقشاً متنوعاً، منها سبعة عشر نقشاً في الطائف، ونقش واحد في كل من رنية والنماص، واثنين وعشرين نقشاً في منطقة بيشة؛ في عرق الطابق، والصقور، وتين. أما في الجزء الأوسط فقد عثر في شماله على ثلاثة نقوش، وفي جنوبه على عشرات المخربشات، وفي المواقع المحيطة بقرية الفاو عثر على مئات من النصوص والمخربشات التي تحوي أسماء أعلام وقبائل عربية هي في الأصل قبائل جنوبية.

كما تبدو في هذه المجموعة بعض الظواهر اللغوية التي نجدها لدى كتاب الشمال والجنوب (الأنصاري د.ت، مج٣). وفي المنطقة الشرقية من المملكة عثر على ما يزيد على ثلاثة وعشرين



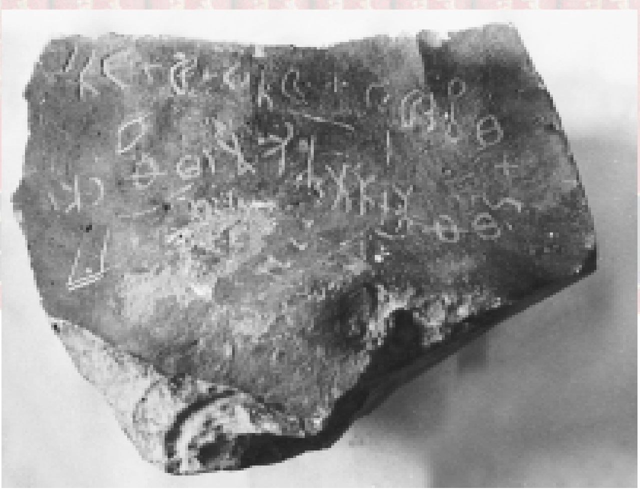
صورة مفرغة لنقش معيني لمعاوية بن ربيعة (قرية الفاو)

نقشاً بخط المسند (النقوش الحسائية) حوت أسماء أعلام وقبائل وآلهة. كما وجد على صخرة في وادي ماسل الجمح، على بعد خمسين كيلاً من الدوادمي، نص حميري يتحدث عن أن الملك الحميري أبي كرب أسعد بن الملك حسان، «ملكي كرب يهامن»، مر من هنا في طريقه إلى موقع ما في الشمال من هذا الموقع.

النقوش الثمودية والصفوية

هي النقوش والنصوص المستخدمة من قبل القبائل العربية التي قطنت الصحاري، خاصة وسط وشمال المملكة العربية السعودية وجنوب بلاد الشام. ولكنها تنسب خطأً إلى ثمود التي أدّت دوراً حضارياً، فقد ذكرت في القرآن الكريم (الأعراف آية ٧٣ و٧٤)، وعرفت أيضاً في الحوليات الآشورية باسم ثمودي (نقش سرجون الثاني ٧٢١-٧٠٥ ق.م). وكذلك النقوش أو النصوص التي وجدت مكتوبة على صخور سوداء ملساء، ولأن معظمها وجد في منطقة عُرفت بالصفا -وردت في أحد النقوش اليونانية باسم صفائن- في جنوب بلاد الشام؛ نسبها بعض العلماء خطأً إلى الصفا فأصبحت تسمى الصفوية على الرغم من عدم وجود أي دليل كتابي أو مادي يدعم هاتين التسميتين.

وقد عثر في المملكة العربية السعودية، وفي شمالها بالتحديد على ما مجموعه ٣٩٤ نقشاً من هذا النوع الأخير في الصفوي (الذييب ١٩٩١، مج٦، جـ١). وما زال بعض المهتمين يستخدم مصطلح النقوش الصفوية رغم



نقش عربي شمالي كتب بالقلم الصفوي
شمال المملكة العربية السعودية



نصوص عربية كتبت بالقلم الثمودي في موقع تبحر على بعد ٢٠٠ كم إلى الشمال الغربي من مدينة تبوك

أنه لا اختلاف بين الصَفوية والثمودية يمكن الاعتداد به، فأشكال حروفهما تقريباً متطابقة. وينحصر الاختلاف البسيط بين أشكال حروف النصوص المكتوبة على صخر الصفا (الرّجم) وبين النقوش المكتوبة على الجبال والصخور الثابتة في أنّ الكتابة على النوع الأول أبسط وأسهل، لأن الكاتب يسيطر على موضع الكتابة. ولهذا فغالباً ما تكون أشكال الحروف المنقوشة على الرّجم أكثر رونقاً وتهذيباً وأفضل أسلوباً. كما لا يوجد اختلاف كبير في المظاهر والخصائص اللغوية بين ما يعرف بالصفوية والثمودية إلا بقدر الفوارق اللهجية بين القبائل؛ ذلك أن الفعل وصيغه المختلفة من الماضي والمضارع والأمر، وصيغة اسم الفاعل، والأفعال المبنية للمعلوم أو المجهول معروفة في كلا النوعين. ومن دون الخوض في تفاصيل إضافية، فإن الاختلاف البسيط بين طبيعة النقوش المكتوبة على الرّجم وأسلوبها، وتلك المكتوبة على الجبال والصخور الثابتة لا يوحي بضرورة فصل بعضهما عن بعض، وما الاختلاف بينهما إلا كالاختلاف بين لهجتين لقبيلتين عربيتين، مثل قريش وتميم. لذا فإن التسمية الأكثر قبولاً هي نقوش البادية أو نقوش أرباب القوافل لأن

معظم هذه النقوش تقع على طرق القوافل، وهي تعبر عن مشاعر القبائل التي قطنت هذه المناطق من الجزيرة العربية.

وتنتشر هذه النوعية من النقوش في معظم مناطق المملكة، ويصل عدد نقوشها المعروفة حتى الآن إلى ما يزيد على ستة آلاف نقش. فقد عثر على ما يزيد على ٥٧٨ نقشاً في المنطقة الشمالية الغربية، أبرزها موزع بين مواقع مر بطينة ونقع بني مر وقحازه وروافة والرايس وبقار والعصافير والديسة ووادي السخنة. أما في المنطقة الشمالية فقد سجل أكثر من ٩٩٩ نقشاً في مواقع متعددة حول الجوف وسكاكا والقريات. وفي منطقة شمال الوسط من المملكة وصل عدد النقوش المسجلة إلى ما يزيد على ٢٣٦٠ نقشاً. ولذا فهي تعد من أكثر المناطق غنى بمثل هذه النوعية من النقوش، وأبرزها وجد في حائل والمواقع المجاورة لها مثل جبّة، وجبل ياطب، والقصيم، وقرب المدينة المنورة، مثل الحناكية ومواقع في مهد الذهب. أما جنوب نجد فقد عثر فيها على نقوش في مواقع مختلفة حول ليلى، وكذلك في مواقع أخرى مثل جبل عرفاء والحفنة ووادي ماسل. وقد سجل ما يزيد على١٢٦٧ نقشاً في المنطقة الشمالية الغربية، أهمها مواقع الخبو الغربي وحسو أبامغير وخبو خولة وجبل غنيم في تيماء. وكذلك مواقع طور الباشا وشخنب وخبو الخويرة في العلا، بالإضافة إلى مواقع أخرى بخيبر. أما في المنطقة الغربية الجنوبية فقد سجل ٢٤٧ نقشاً في مواقع أهمها: وادي ألاب ودنن والطور وعرق الطابق والظباة بوادي بيشة، ووادي قار في تبالة، وجبل سليطينة في الطائف.

وتكتب هذه النقوش من اليمين إلى اليسار أو العكس، أو على شكل دائري، ويبلغ عدد حروفها ثمانية وعشرين حرفاً. وقد تصور بعض الباحثين، نظراً لمشابهتها أشكال حروف المسند الجنوبي، أنها قد اشتقت منه وأعادوها من دون دراسة معمقة إلى الفترة الواقعة بين ٥٠٠ق.م-٥٠٠م. إلا أن احتمال قدم خط نقوش البادية عن خط المسند غير مستبعدٍ خصوصاً وأن الفترة الزمنية لظهور القبائل العربية ونشاطها أقدم من الفترة الزمنية لظهور القبائل العربية الجنوبية التي هاجرت في الأساس من شمال نجد أو شمال غرب الجزيرة العربية أو جنوب بلاد الرافدين. ولذا فإنه من المقبول القول إن أشكال أحرف المسند

اشتقت من الشمالي. وهذه النقوش الشمالية جاءت معبرة عن خلجات القبائل العربية ورغباتها، فقد أعطت فكرة جلية وواضحة عن أمور كثيرة حول المجتمع البدوي ولم يكن بالإمكان معرفتها لولا ما تضمنته هذه النقوش التي بينت كونه مجتمعاً قبلياً يتكون من عشائر وأهل، والأهل أكبر من البيت وأصغر من العشيرة، وبيوت والبيت هو ما يمثل الأسرة والعائلة في هرم النسب العربي القديم، وأنهم قد زاولوا الزراعة والصيد. كما تدل الرسوم الصخرية بجانب هذه النقوش على اشتغالهم بالرعي؛ فقد رعوا أنواعاً من الحيوانات مثل الإبل والخيل والماعز. وتدل ظهور مفردات وألفاظ نحو «س ق م»، سقم، «ع ل»، عَلّ، «د أ»، داء، «ب ر ص»، برص، على معرفتهم بالداء والدواء. وقد أفادتنا هذه النقوش بكم هائل من أسماء الأعلام المنتشرة عندهم، وتعد دراستها ذات فائدة كبيرة في استخلاص جوانب عدة لهذه القبائل العربية، مثل الجوانب اللغوية والاجتماعية والدينية، ولذلك قسم العلماء هذه النقوش إلى عدة أنواع نحو النقوش التذكارية ونقوش المودة والمحبة ونقوش الحرب حيث تذكر المعارك والغزوات والانتصارات.

النقوش اللحيانية

هي النقوش والنصوص التي كتبت من قبائل عرفت في المصادر الإسلامية باسم قبائل لحيان، ويعتقد بأنهم من قبيلة جرهم العربية، وذكر المؤرخ الروماني بليني أنها قبيلة عظيمة سيطرت على خليج العقبة. ولعل أول من جمع هذه النقوش خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي تشارلز داوتي Doughty أثناء زيارته لمنطقة العلا شمال المدينة المنورة، إذ تمكن من استنساخ حوالي ثلاثين نقشاً لحيانياً. إلا أن



نقش لحياني – منطقة العلا

الدراسة التي قام بها في بداية هذا القرن الأبوان الفرنسيان جوسن Jaussen وسافنياك Savignac تعد القاعدة التي انطلق منها العلماء المهتمون بدراسة هذه النوعية من الكتابات. فقد جمعا من موقع الخريبة حوالي ٣٧٩ نقشاً نُشرت في كتابهما المتميز بعثة آثارية إلى الجزيرة العربية. ثم أعادت الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية تصوير ما سبق أن جمع جوسن وسافنياك ضمن برنامجها العام للمسح الشامل لمواقع الكتابات والنقوش اللحيانية، وتمكنت من حصر ما يزيد على أربعمائة نقش وجدت في شمال الحجاز في مواقع عدة أهمها تلعة الحماد وأم درج وعكمة بمنطقة العلا، ومواقع في وادي السخنة والديسة والزاوية وروافة بمنطقة تبوك.

ويبلغ عدد أحرف الهجاء اللحيانية، المشابهة أشكالها مثيلاتها في المسند الجنوبي ثمانية وعشرين حرفاً. وهذا مما قاد العلماء إلى الاعتقاد بوجود علاقة بينهما، وأن إحداهما قد تطورت عن الأخرى. واستناداً إلى أشكال هذه الحروف قسمت هذه النقوش إلى نقوش لحيانية مبكرة ومتوسطة ومتأخرة (القرن الأول الميلادي). ويضيف بعض العلماء نقوشاً لحيانية مبكرة متوسطة ومتوسطة متأخرة، فعندما يكون مثلاً حرف الميم مفتوحاً إلى الأسفل يعدّ النقش لحيانياً متأخراً، وإذا كان مقفلا كان النقش مبكراً. ويبدو أن هذه النوعية من الكتابات انتشرت على شكل مخربشات انتشاراً واسعاً في الجزيرة العربية، فقد وجدت منتشرة في شمال غرب المملكة حتى دومة الجندل شرقاً، وفي مناطق مختلفة من شمال الحجاز، وفي الأحساء، وفي قرية الفاو، إلى جانب بعض الكتابات اللحيانية التي وجدت على عملات لحيانية عُثر عليها في اليمن أو ما يعتقد بأنه أشكال لحيانية وجدت على زهرية في تل أبي الصلابيخ بجنوب العراق (علي ١٩٧٢، مج٢: ٢٥٥)، على الرغم من الفترة الزمنية الطويلة نسبياً التي عاشتها المملكة اللحيانية ما بين القرن الخامس وحتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد.

ومن دراسة هذه النقوش والنصوص استطاع العلماء أن يعرفوا الكثير من المعلومات عن حياة اللحيانيين. فالألماني كاسكل، مثلاً، تمكن من إبراز الجانب السياسي لدولتهم حين قدمت له هذه النصوص أسماء بعض ملوكهم (اثني عشر ملكاً) مثل تخمي Tachmi، بتخمي Ptachmy وتلمي Tulmi، وكذلك الجانب الاقتصادي مستفيداً من النقش اللحياني

الذي أورد حادثة الزلزال في مدينة ديدان، حيث أدى سقوط سقف معبدها إلى وفاة عدد من أعضاء مجلس المدينة. وتدل نصوص لاحقة على أن إعادة البناء استغرقت فترة زمنية، وهو ما يدل على أن الظروف الاقتصادية لم تكن مناسبة. وقد تمكن عبد الرحمن الأنصاري، بعد دراسة أسماء الأعلام التي وردت ضمن هذه النقوش في أطروحته للدكتوراه <u>دراسة نقدية مقارنة لأسماء الأعلام اللحيانية</u>، من استخلاص نتائج ذات قيمة لغوية. كما أبرزت هذه النقوش عدداً من الآلهة، مثل الإله ذوغابت، وسليمان إله القوافل وحارسها، وإله الحكمة كاتب، المقابل للإله المصري توت وغيرهم.

النقوش الآرامية

استُخدم هذا النوع من الخطوط، المكون من اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً والمتطور عن الخط الفينيقي، لدى قبائل أطلق عليها قديماً وحديثاً اسم الآراميين وكلمة أرامو أو أرامي وتعني العلو والارتفاع. وقد ظهر الاسم في المصادر الكتابية القديمة، خصوصاً الآشورية خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، مرتبطاً باسم الأخلامو أي الرفاق أو المتحالفين، وهو حلف من القبائل الآرامية التي هاجرت من الجزيرة العربية. وفي القرن التاسع قبل الميلاد بدأت الإمبراطوريات والممالك المحيطة في مصر وبلاد الرافدين تنعتهم باسم الآراميين، لكنهم عرفوا قبل ذلك خلال القرون السابقة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد باسم «سوتو»، وسوتي أي: الرحل. وهو كذلك تحالف بين القبائل الآرامية القديمة التي هاجرت في فترات زمنية متقاربة من الجزيرة العربية.

ويظهر لنا من خلال المصادر الكتابية التي تعود إلى تلك الفترة أن الآراميين كانوا قبائل بدوية متنقلة ذات بطون وأفخاذ، تسللت وتغلغلت في بلاد الرافدين وسوريا الداخلية حوالي أواخر الألف الثاني قبل الميلاد لظروف طبيعية واجتماعية صعبة دفعتهم، كما دفعت أبناء عمومتهم الأكاديين العموريين، إلى ترك موطنهم في شمال الجزيرة العربية ووسطها. وقد خلقوا بهجرتهم الكثير من القلق والصعوبات للممالك والشعوب في تلك المناطق. وعندما بدأت هذه القبائل بالتكاثر لم تجد القبول الكافي من الشعوب المحيطة بها، لذلك قررت القبائل الآرامية في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد استخدام الوسائل العسكرية، التي تصفها المصادر الكتابية

المضادة بالقرصنة، لمضايقة هذه الشعوب والممالك وإزعاجها. فبدأت بالتحرش والهجوم على قوافلهم التجارية والمستوطنات السكنية القريبة منهم، حتى إن حاكم دلمون في أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد اشتكى إلى والي نضر -جنوب بغداد حالياً- من أن الأخلامو (حلف القبائل الآرامية) ينهبون تمور بلاده. واشتكى الملك الحيثي حاتوشيل الثالث في رسالة رسمية إلى ملك بابل قداش-من-انليل-نحو ١٢٧٥ق.م من أن حلف الأخلامو أصبح يشكل خطراً على الطريق بين المملكتين. وعثر في مدينة دور كوري كالصو عاصمة الكوشيين على رسالة فحواها أن عصابة آل حيرانة (وهي العشيرة التي طاردها وحاربها تجلات نصر الأول ١١١٢ق.م) تساندهم مجموعة من آل خصمي حاولت الاعتداء على التجار، فلاحقتهم الدوريات الآشورية. وتوضح الحوليات الآشورية أن شلمناصر الأول (سنة ١٢٧٣ق.م) شن هجوماً عسكرياً على الحيثيين والأخلامو لأنهم اقتطعوا أجزاء من مملكة خاني جليات خليفة الدولة الحورية الميتانية. ولمضايقتهم وتدخلاتهم في شؤون الحكام المحليين. وعلى كل فقد أدى استمرار هذه الحملات الآرامية إلى إزعاج الممالك المحيطة، وتكليفهم الكثير من الأموال والرجال. فدفع ذلك الدولة الآشورية إلى إرسال الحملات والبعثات العسكرية المتعددة لتأديب هذه القبائل والعشائر، مثل حملات الملوك الآشوريين أريك دين أيلو (١٣١٧-١٣٠٦ق.م) وتيكولة نينورتا الأول (١٢٤٣-١٢٠٧ق.م) وغيرهم.

وهكذا استمر الوضع بين القبائل الآرامية (الأخلامو-السوتو) والممالك المحيطة بها سجالاً، رفض وقبول، حرب وسلم، حتى وجدت هذه القبائل فرصتها المواتية لتحقيق أحلامها ببناء ممالكها السياسية. وجاءت الفرصة عند دخول شعوب البحر، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، المنطقة مستفيدين من ضعف الدولتين الميتانية والحيثية وتأرجح الظروف السياسية في آشور بين الضعف والقوة بسبب الحروب والمشكلات الداخلية (١٠١٢-٩٧٢ق.م) بالإضافة إلى الضعف السياسي الذي ساد مصر إبان فترة حكم تحوتمس الثالث. وفي ظل هذه الأوضاع استولى الآراميون على المزيد من الأراضي والمواقع السكنية وأسسوا، في الفترة ما بين القرن الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد دولهم وممالكهم التي لم تصل في يوم ما إلى الوحدة

الكاملة على الرغم من أنها قبائل ذات عرق واحد. وربما كان سبب ذلك الإمبراطوريات المحيطة بتدخلاتها المستمرة في الشؤون الداخلية لهذه الدويلات والمشيخات الصغيرة. ومع تطورهم الثقافي الكبير، لم يتخل الآراميون عن النظام القبلي الذي جلبوه من موطنهم الأصلي، وإن كانوا في أحيان مختلفة يقومون بإنشاء أحلاف بينهم للوقوف ضد الهيمنة الآشورية. وعلى كلٍ استطاع الآشوريون أخيراً القضاء على آخر معاقلهم، مملكة دمشق، على يد الإمبراطور الآشوري تجلات بلاصر سنة ٧٣٣ق.م، حيث دمرها وضمها إلى مملكته وحولها إلى مقاطعة آشورية.

وأبرز ما خلفته لنا هذه القبائل السامية المهاجرة من وسط الجزيرة العربية لغتهم، وهي أقرب اللغات إلى العربية، وخطهم الذي أصبح فيما بعد أصل الخطوط السامية المختلفة. وهي، بعد العربية، من أقدم اللغات القديمة وأوسعها انتشاراً. فأول نقوشها هو نقش تل الفخرية الذي يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، ومن خلال أنماط حروفها وأشكالها وتطوراتها اللغوية قسمها العلماء إلى ثلاث مراحل:

الأولى، هي الآرامية القديمة، التي استمرت من الألف الأول إلى سنة خمسمائة قبل الميلاد، وهي في معظمها نصوص ذات طابع سياسي، وانتشرت فقط في الممالك الآرامية في كل من بلاد الرافدين وبلاد الشام.

والمرحلة الثانية، هي الآرامية الدولية التي تعد نقوشها بالآلاف منتشرة في معظم بلاد الشرق الأدنى القديم وهي التي ظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد (أقدم نصوص هذه المرحلة هو النص الذي يعود إلى سنة ٤٩٥ق.م عندما استولت الدولة الأخمينية على الأراضي الكلدانية في بلاد الرافدين، حتى سقوط الدولة الفارسية (٣٣٠-٣٣١ق.م). وفي هذه الفترة (٥٠٠-٣٠٠ ق.م) حلت الآرامية كلغة عالمية في العالم القديم تدريجياً محل الأكادية لسهولتها وبساطتها، وبالذات عندما اتخذها الملك الفارسي داريوس (٥٢٢-٤٨٦ق.م) لغة رسمية للإمبراطورية. ولكن بعد سقوط الدولة الأخمينية على يد الإسكندر الأكبر، حلت اليونانية تدريجياً كلغة عالمية محل اللغة والكتابة الآرامية في العالم القديم. إلا أن الآرامية تطورت محلياً في الشرق الأوسط والجزيرة العربية وانقسمت إلى مجموعتين آرامية دولية إمبراطورية غربية، وآرامية دولية شرقية.

واشتملت المجموعة الأولى الغربية على النبطية، والتدمرية وهي لغة مملكة تدمر، واستمرت من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي حين قضى عليها الإمبراطور الروماني أورليان. ولم يعثر حتى الآن منها إلا على نقوش قليلة جداً في المملكة العربية السعودية، ومنها نقش وادي السرحان. والآرامية الفلسطينية اليهودية وهي لغة يهود فلسطين خلال القرون الأولى من اليهودية، وأشهر بقاياها الترجوم الفلسطيني. والآرامية الشامية المسيحية، وهي لغة مسيحيِّي بلاد الشام الأرثوذكس التي استمرت من القرن الخامس إلى الثامن الميلادي. والآرامية السامرية، وأهم بقاياها الترجوم السامري، وتعود إلى القرن الرابع الميلادي. وبقايا الآرامية الغربية، وهي اللهجة التي ما زالت مستخدمة عند بعض الطوائف المسيحية، وخصوصاً مناطق معلولا، وجبعدين، ونجعة.

أما المجموعة الثانية، الآرامية الدولية الشرقية، فهي كذلك توزعت إلى عدة لهجات، هي السريانية وهي لغة الرها التي اتخذها المسيحيون لغة أدب ودين، إلا أن انتشارها ظل محصوراً نتيجة ظهور العربية، ولكنها ما تزال مستخدمة حتى الآن وبشكل مكثف لدى مسيحيِّي الهند



نقش آرامي – قصر الحمراء بتيماء

والعراق وسوريا. واللهجة الآرامية البابلية وهي لغة أحبار يهود بابل واستمرت من القرن الرابع إلى السادس الميلادي، وأشهر بقاياها التلمود البابلي. واللهجة المندعية وهي لغة القنوصة وقد استمرت من القرن الثالث إلى الثامن الميلادي. واللهجة الحضرية وهي نقوش عثر عليها في موقع على بعد خمسين كيلاً جنوب غرب الموصل يعرف باسم الحضر. وقد استمرت هذه الكتابة خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين. وبقايا اللهجة الآرامية الشرقية وهي المنتشرة، حتى يومنا الحاضر، في شمال العراق، وبالذات حول بحيرة أرميا وطور عابدين وجورجيا (السونيتة سابقاً).

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة آرامية العهد القديم التي ظهرت في أسفار العهد القديم، سفر التكوين (٣١:٤٧)، وسفر

عزرا (٤: ٨-٦: ٨) (٧: ٢٢-٢٦)، وسفر أرميا (١٠-١١)، وسفر دانيال (٢: ٤-٧: ٢٨). وهذه الآرامية استمرت من القرن الخامس إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

ومعظم النقوش المكتوبة بالخط الآرامي الدولي الواسع الانتشار ظهرت في المملكة في منطقة تيماء فقط عندما اتخذها نبونيد الكلداني عاصمة له، إذ نقل معه هذا النمط من الكتابة الذي استهوى الأهالي المحليين فكتبوا به نصوصهم ونقوشهم.

ويبلغ عدد النصوص الآرامية المعروفة لدينا حتى الآن ثلاثة وثلاثين نصاً، لكن لا ينفي هذا وجود نصوص آرامية في مناطق أخرى من الجزيرة العربية. فقد عثرت إحدى البعثات الفرنسية على نقش آرامي دولي في أحد المواقع بالإمارات العربية المتحدة. أما النصوص التي يُذكر أنه عثر عليها في الساحل الشرقي، فأحدها -وهو الذي عثر عليه في البحرين- يعود إلى اللهجة الآرامية الحضرية (Potts 1990: 278) وأما النقش الذي عثر عليه في موقع ثاج الأثري فيصعب تحديد نوعه لعدم وضوح الصورة الفوتوغرافية.

والنتيجة المهمة التي نخرج بها من دراسة هذه النصوص الثلاثة والثلاثين هي أنها كتبت بمفردات عربية لكن بأحرف وقواعد آرامية. وأن أقدمها يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، وآخرها إلى القرن الثالث قبل الميلاد. ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن جزءاً من مشكلة دراسة النقوش



نص آرامي يشير إلى تشييد معبد للإله (ص ل م ذو دب) - مدينة تيماء

الآرامية الإمبراطورية (الدولية) هو كونها لغة لم تكن مرتبطة بشعب أو أمّة أو جنس واحد. فمعظم نقوش هذه المرحلة المعروفة لدينا لم يكتبها الآراميون أنفسهم، بل أقوام وأمم أخرى مثل الآشوريين والفرس واليهود والعرب وأكثر هذه النقوش عثر عليها في الهند. ولذا فإن تحديد الموقع الأصلي للنقش يكون بمعرفة الأخطاء اللغوية التي يرتكبها كاتب غير آرامي، ومن دراسة أسماء الأعلام والألفاظ المستخدمة. وأمّا النقوش الآرامية المعروفة في تيماء فقد قدمت العديد من أسماء الأعلام العربية الأصل التي تظهر للمرة الأولى في نقوش آرامية دولية مثل «م ع ن ت ن»، «ب ع ت و»، «ع ت ع ق ب»، «ت ي م و»، «ش ج ع ن»، «ع ب د و»، «ز د ن»، «م ع ن ن»، «ع م ر ن». وقدمت لنا كل هذه النصوص، المكتوب معظمها على شواهد قبور، ألفاظاً تظهر للمرة الأولى مثل «م ح ر ن أ» المنجرة، «ط ب ن ت أ» البيت، «ح ج ر أ» الحجر، «ن ج ر أ» النجار، «أو ن ج ر أ» الموظف، «ص د ق هـ» أعَطى-وَهَب، «ح ق ل ا» الحقل. أما المعبودات التي ظهرت في هذه المجموعة فعددها خمسة، وهي على النحو التالي «م ن و هـ» وهي الإلهة مَنَاة، «ص ل م» معبود الحرب لدى الثموديين والأنباط، لكنه عرف لدى الآراميين بأنه إله الزراعة، «س ت ج ل ا» وهي معبودة تعادل الإلهة المعروفة لدى البابليين «ش ج ل» القمر، «ا ش ي م ا» وهي معبودة عرفت في سوريا خلال القرن الثامن قبل الميلاد خصوصاً في حماة، و «ر ع ا» غير معروف.

النقوش النبطية

استخدم هذا النوع من الخطوط القبائل المعروفة باسم القبائل النبطية، وهي تلك القبائل العربية التي قطنت مواضع في شمال وشمال غرب الجزيرة العربية وسيناء. وحين ظهر الأنباط على مسرح التاريخ، خلال القرن الرابع قبل الميلاد، كانت الدولة الكبرى التي أنشأها الإسكندر المقدوني قد اقتسمها خلفاؤه، فوقعت مصر من نصيب البطالمة، أما بلاد الشام فكانت مجالاً للصراع بين السلوقيين والبطالمة. وعلى وجه التحديد حاول السلوقيون سنة ٣١٢ ق.م، وهو بداية التقويم السلوقي، إخضاع القبائل النبطية عندما حاولوا السيطرة على عاصمتهم البتراء، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل. فلم يتمكن القادة العسكريون من النيل من استقلال البتراء التي يبدو أن الأنباط استقروا بها بعد اختفاء الأدوميين الذين قضى عليهم نبونيد سنة ٥٥٢ق.م. فحل

الأنباط محل بني قيدار الذين ظهروا في القرن السابع ق.م.

ولكن أين الموقع الأصلي للأنباط؟. وما علاقتهم ببني قيدار؟ وكيف ظهر مسمى الأنباط؟ جواب ذلك بإيجاز هو أن الأنباط، من خلال ما تبينه الكتابات الكلاسيكية، كانوا في بداياتهم ذوي عادات وتقاليد وممارسات وأفكار أقرب إلى البداوة؛ بشهادة ديودور الصقلي، فقد كانوا لا يحبذون الاستقرار في مساكن ويمقتون الزراعة والصناعة، مثلهم في ذلك مثل القبائل السامية الأخرى، كالعموديين مثلاً. ولعل موطنهم الأصلي الصحاري العربية؛ إذ كانوا يعرفون باسم آخر غير الأنباط، لكنها حتماً ليست الصحاري الشمالية، وإلا لتأثروا بالقيم والمفاهيم الحضارية لدول القومية الواقعة إلى الشمال من الجزيرة العربية. كما نستبعد أنهم هاجروا من الساحل الشرقي للجزيرة العربية، وإلا لأثرت عليهم مفاهيم جنوب بلاد الرافدين لوجود علاقات بين الموقعين، أو هاجروا من جنوب الجزيرة العربية، حيث ربط الباحثون بين نظام الري المائي لدى الأنباط ولدى دول الجنوب. وعليه فمن المرجح أن تكون صحاري وسط الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي لهذه القبائل العربية النبطية. أما علاقتهم ببني قيدار فهي حتماً علاقة استغلال المكان، حيث دفعت الهجرات النبطية هذه القبائل (بنو قيدار) إما إلى الرحيل إلى الشمال، أو الذوبان داخل شريحة المجتمع النبطي.

أما ظهور مسمى الأنباط، فيرجع إلى أنّ كلمة نبط تعني في العربية: استخراج الماء، فعندما تمكنت هذه القبائل من استحداث نظام مائي خاص بها امتازت بهذه المهارة عن غيرها من القبائل العربية الأخرى ممن كانوا يعتمدون على المصادر التقليدية للمياه. فنعتتهم هذه القبائل بالأنباط؛ لتفوقهم بهذا الفن الجديد، وهو المشابه لأنظمة الري المعروفة لدى دول الجنوب وفي عمان والإمارات العربية المتحدة وأماكن أخرى. ويبدو أن هذا الفن أو النظام المائي قد انتشر بشكل واسع بين الأنباط فيما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي خصوصاً في عهد ملكهم الوطني المعروف الحارثة الرابع (٩ق.م-٤٠ق.م) الملقب بمحب شعبه الذي بوفاته بدأت الدولة النبطية في الاضمحلال والتراجع، ثم جاءت الفرصة للإمبراطورية الرومانية فقامت بضم هذه المملكة العربية الفتية التي ظهرت على أكتاف رجالها الأقوياء، سنة ١٠٦م، منهين بذلك الوجود السياسي لهذه الدولة.

وقد أمدتنا المصادر التاريخية الكلاسيكية، بالإضافة إلى الكتابات النبطية، بمعلومات مهمة عن هذه الحضارة وتاريخها السياسي. ومن المصادر التي أمدتنا بالمعلومات التي نعرفها حتى الآن عن الأنباط، نقوشهم التي خلفوها لنا، وما تزال مجال دراسة الباحثين. ويمكن تمييز هذه النقوش بعدة نماذج -كما اقترح ليتمان-، فالنموذج الأول نقوش تذكارية قصيرة، وهي الغالبية العظمى من النقوش النبطية المعروفة حتى الآن. وهذه النقوش على سفوح الجبال في معظم المناطق النبطية الممتدة من دمشق والرقيم وصحراء النقب جنوب فلسطين شمالاً، إلى صحراء سيناء والصحراء الشرقية لمصر غرباً، وإلى العلا وحتى قرية الفاو جنوباً، وإلى حوران في الشمال الشرقي.

والنموذج الثاني نقوش الدفن، وهي النصوص التي تظهر فيها إحدى الكلمتين الدالتين على القبر، وهما «ق ب ر ا» أو «ن ف ش ا». والنموذج الثالث نقوش معمارية، وهي التي يذكر فيها اسم المبنى والباني والتاريخ. والنموذج الرابع نقوش وقفية، وهي النقوش التي يذكر فيها الشيء الموقوف واسم الإله والشخص الذي قدم الوقف. والنموذج الخامس يتمثل في النصوص النادرة جداً المعروفة بالنقوش التكريمية، فمن خلال هذه النقوش عرفنا عروبتهم الخالصة التي لا مجال للشك فيها. فهذه النصوص تعرفنا على أسمائهم الشخصية ذات الأصل العربي الخالص، سواء منها المؤنث أو المذكر مثل «و ا ل و» وائل، «ا و ش و» أَوْسُ، «ا ش د و» أسد، «ز ي د و» زيْد، «ح م ي د» حَميد، «ك ل ي ب و» كُلَيْب، «م ن ص و ر و» مَنْصُور، أو «ح ن و» حنان، «م ل ح و» مليح، «ف ت ح ت» فَتْحية، وغيرها كثير. ونجد كذلك أسماء أعلام لاتينية ويونانية وعبرية لكنها قليلة جداً.

كما عرفتنا هذه النصوص النبطية على دياناتهم وآلهتهم التي عرفت لدى قبائل مختلفة في الجزيرة العربية، مثل «ذو الشرى» ويعني «ذلك الذي من شرى» وقد لقب فيما بعد «سيد العالم»، و «اللات» والتي قيل إنها معبودة القمر أو الشمس، وهي أم المعبودات و«الخرى» التي تمثل معبودة الحرب، ورمز إليها بالأسد، و«مناة» معبودة المصير، و«قيس» معبودة الجبل، وهو المعبود الدولي «هبل» أحد معبودات مكة الذي انتقل من الفينيقيين والكنعانيين إلى هذه القبائل، «شيع القوم» أي «الذي رافق القوم»، وهو معبود القوافل الذي وُصف في أحد النصوص بأنه الإله الذي لا يشرب الخمر،

ودلت هذه النصوص على أن لغة الحديث لدى القبائل النبطية كانت عربية خالصة مثل الألفاظ «ر هـ ن» رَهَنَ، «غ ي ر» غير، «ض ر ي ح» ضريح، «ب ي ت ا» البيت، «م س ج د ا» المسجد، «ا ف ك ل ا» الكاهن، «ب ل ي» بلى، وغيرها الكثير. وقد استخدم الأنباط في كتاباتهم بعض الظواهر اللغوية العربية، وعلى سبيل المثال لا الحصر «ال» التعريف العربية، بالإضافة إلى «ال» التعريف الآرامية وهي الألف في آخر الكلمة، كما استعمل الضمير «هـ م» للغائب الجمع، سواء المذكر أو المؤنث، أما ضمير المتكلمين فجاء بصيغة «ف ا». وظهرت الأداتان «د ي» كاسم موصول، و«د ت هـ» كاسم إشارة.

وظهرت كذلك أفعال بصيغة «هـ ف ع ل» المعادلة لـ «أفعل» العربية.

كما قدمت لنا النصوص النبطية المعروفة حتى الآن، خصوصاً نصوص مقابر الحجر (مدائن صالح)، البالغ عددها خمسة وثلاثين نقشاً منها ثمانية وعشرون نقشاً مؤرخاً، معلومات ومفاهيم اجتماعية وقانونية مخالفة لمفاهيمهم خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، مثل استقلال النساء في ملكية المقابر التي تدل على استقلالهن من الناحية القانونية، وأنهن يستطعن تملك أشياء خاصة بهن.

وهذه الظاهرة معروفة في الممالك الشرقية مثل زنوبيا التدمرية، وتوجد دلائل



نقش نبطي من الحجر ـ مدائن صالح



نقش نبطي مبكر – مدينة تيماء

على وجودها لدى شعوب شمال الجزيرة العربية خلال العصور الآشورية-البابلية. وما ظهور ألفاظ «ق ي ل» أي الصانع «و ص ي غ ا» أي الصائغ إلا دليل على انتشار حرفة الصناعة بمختلف أنماطها وأشكالها. كما أن ظهور النصوص المعمارية دينية أو غيرها دليل على تغير مفهومهم عن الاستقرار في مساكن مستقلة. وامتهن الأنباط مهنة الزراعة مخالفين بذلك آراء أجدادهم عنها. وتدل هذه النصوص في مدائن صالح على وجود مبدأ الثواب والعقاب، إذ يضطر المخالف أو العابث بالمقبرة أو نصها إلى دفع غرامة معينة إلى الملك أو الوالي، وأحياناً أخرى للكاهن. والكلمة الخاصة بالقانون هي «ن س خ ت» أي سجل حكومي. وأبرز ما يمكن قوله عن الخط النبطي، المؤلَّف من اثنين وعشرين حرفاً، أنه هو أصل الخط العربي الحالي، ويمكن القول إن فترة استخدام الخط النبطي المتطور عن الخط الآرامي قد امتدت منذ ظهورها في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد إلى سنة ٣٥٠ ميلادية.

وفي المملكة تركزت مواقع هذه النصوص والمخربشات في شمالها وشمالها الغربي، إذ وصل عددها في شمال الحجاز إلى ما يزيد على ١٧٦ نصاً، وحظيت منطقة تبوك بمجموعة لا بأس بها من هذه النصوص فبلغت حوالي ٨٩ نقشاً.

وحوت منطقة الوسط الشمالي لغرب المملكة على نصيب الأسد فبلغت النصوص النبطية فيها حوالي ٣٠٤ نقشاً. وقد عثر على ما مجموعه ١١٦ نقشاً في منطقة الجوف. وأسفر المسح في الوسط الشمالي عن العثور على أربعة نقوش نبطية، وعلى نقش واحد في الجنوب الغربي للمملكة العربية السعودية (أطلال ١٣، ١٩٩٠: ٤٧). وعثر حتى الآن على ثلاثة نقوش نبطية في قرية الفاو جنوب وسط الجزيرة العربية.

الخط العربي: نشأته وتطوره

العرب من الشعوب التي عرفت الكتابة ومارستها قبل الإسلام بزمان طويل، بل عرفوا الكتابة قبل الميلاد ببضع مئات من السنين، وقد عثر في مواضع من جزيرة العرب على كتابات دونت باليونانية وبلغات أخرى. وتبين من دراسة النصوص الجاهلية أن العرب كانوا يدونون قبل الإسلام بقلم ظهر في اليمن بصورة خاصة، هو القلم الذي أطلق عليه أهل الأخبار القلم المسند أو قلم حمير، ثم تبين أنهم صاروا يكتبون بقلم آخر، أسهل وألين في الكتابة من المسند، أخذوه من القلم النبطي المتأخر، وذلك قبيل الإسلام على ما يظهر، كما تبين أن النبط وعرب العراق وعرب بلاد الشام كانوا يكتبون بالآرامية وبالنبطية. ويظهر من عثور الباحثين على كتابات مدونة بالمسند في مواضع متعددة من جزيرة العرب، ومنها سواحل الخليج العربي، بعضها قديم وبعضها قريب من الإسلام، أن قلم المسند، كان هو القلم العربي الأصيل والأول عند العربي (علي، ١٩٧٢ : ج٨/ ١٥١-١٥٣).

غير أن معظم الدراسات الحديثة نتيجة للدراسات والمقارنات العلمية الدقيقة للنقوش النبطية المتأخرة والعربية الجاهلية تؤكد على اشتقاق الخط العربي من الخط النبطي. فقد أظهرت هذه الدراسات أن الخط النبطي أخذ في التطور تجاه الشكل اللين خلال القرون الثاني والثالث والرابع الميلادية، وذلك اعتماداً على أكثر من عشرين نقشاً تعود للفترة من تاريخ سقوط البتراء عام ١٠٦م، إلى فترة ظهور الكتابة العربية. وأهم هذه النقوش العربية في فترة ما قبل الإسلام ثمانية نقوش عثر عليها في مواضع مختلفة وأصبحت الأساس الذي اعتمد عليه العلماء في

دراسة تطور الكتابة العربية في فترة ما قبل الإسلام.

ومن هذه النقوش نقش أم الجمال الأول ٢٥٠ م-٢٧٠م، وهو نقش نبطي على قبر فهر مربي جذيمة ملك تنوخ. والنقش الثاني هو نقش النمارة ٣٢٨م على قبر امرىء القيس أحد ملوك الحيرة، ويتكون من خمسة أسطر. والنقش الثالث هو نقش زبد ٥١٢م، وقد عثر عليه في خربة زبد جنوب شرق حلب على حجر مثبت في بناء كنسي، وكتب النقش باللغات العربية المبكرة وباللغتين اليونانية والسريانية، وتظهر في النقش أسماء الأشخاص الذين أسهموا في البناء.

أما النقش الرابع فهو نقش حرّان المؤرخ بعام ٥٦٨م. وقد كتب النص باللغتين اليونانية والعربية. ويختص هذا النقش بأمير عربي من كندة وضعه على باب كنيسة يوحنا المعمدان بعد افتتاحها تخليداً لهذه الذكرى. والنقش الخامس الأخير من مجموعة هذه النقوش النبطية هو نقش أم الجمال الثاني، الذي يؤرخ بالقرن السادس الميلادي، إذ تقترب لغته إلى العربية القرآنية مبتعدة عن النبطية لغة وكتابة.

وتوضح هذه النقوش الأساس الذي نشأ عليه الخط العربي بعد ذلك في بداية العصر الإسلامي، إذ إنّ كثيراً من الكلمات في هذه النقوش تنطق بلغتها العربية ما بين الأسماء والكلمات والمصطلحات والتعبيرات، وقد استمر تأثير الخط النبطي على الخط العربي في العصر الإسلامي بعد ذلك لفترة من الزمان.

وفي الآونة الأخيرة عثر على نقشين عربيين جاهليين في موقع القلعة على مسافة ٥ كم إلى الشمال من مدينة سكاكا بمنطقة الجوف، ويعدان من أوائل النقوش العربية المبكرة المكتشفة داخل الجزيرة العربية.

وأُرخت هذه النقوش بالقرن الخامس الميلادي بناء على تطور أشكال حروفهما، وقد أكدت الدراسة المقارنة لأشكال الحروف أهميتهما. فقد أظهرت معظم الحروف في النقشين تطوراً نحو الشكل العربي، وهو تطور يأتي في مرحلة بين نقش النمارة وأم الجمال الثاني وزبد، ومن هنا تأتي أهميتهما، إذ إنّ هناك فارقاً زمنياً كبيراً بين نقش النمارة ٣٢٨م ونقش زبد ٥١٢م وحرّان ٥٦٨م.

والنقش الأول من سطرين، يحوي الأول منهما كلمة واحدة من ثلاثة أحرف، والسطر الثاني يضم كلمتين تتكونان من ستة أحرف، والكلمة الثانية

في السطر الثاني «ج ر م و» تظهر تطوراً واضحاً نحو العربية، خصوصاً حروف الجيم والميم والواو، ويقرأ النص:

١) ح م أ

٢) ب ر ج ر م و

القراءة:

١) حمأ.

٢) بن جرم.

ويعد هذا النقش من النقوش المهمة المكتشفة في شمال المملكة، وتنبع أهميته من تطور بعض أشكال حروفه نحو الشكل العربي المبكر.

أما النقش الثاني فقد عثر عليه بالقرب من النقش السابق على واجهة صخرية واحدة. والنقش من ثلاثة أسطر، يحوي الأول كلمة واحدة من أربعة أحرف، والثاني من أربع كلمات: الأولى حرفان، والثانية ثلاثة أحرف، والثالثة حرفان، والرابعة من خمسة أحرف. السطر الثالث يحوي كلمتين، الأولى من حرفين والثانية من أربعة أحرف. أما النص فهو:

١) ب ع ص و

٢) ب ر ع ب د م ر ا ل ق ي س

٣) ب ر م ل ك و

ويقرأ النص:

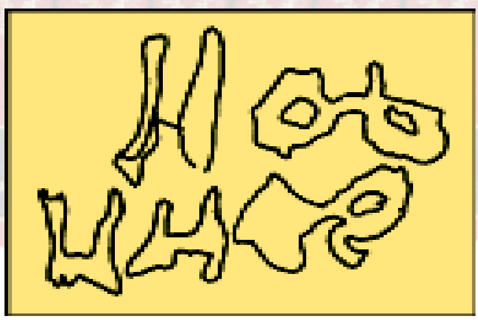
١) بعص

٢) بن عبد أمرو القيس

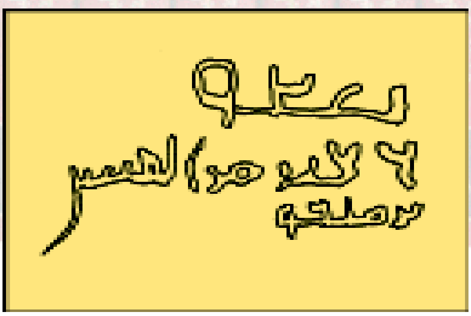
٣) بن ملك (مالك)

ويعد هذا النقش أكثر أهمية من النقش السابق بسبب التطور الواضح في أشكال الحروف من أصولها النبطية.

ولا شك أن اكتشاف هذين النقشين يجعل منهما مادة مهمة في إبراز دور الجزيرة العربية في تطور الكتابة العربية، خاصة أن معظم النقوش النبطية المكتشفة في شمال الجزيرة العربية والحجاز تمتاز عن غيرها من النقوش النبطية الأخرى



صورة مفرغة لنقش عربي جاهلي
القلعة - سكاكا



صورة مفرغة لنقش عربي جاهلي
القلعة - سكاكا

باتجاهها السريع نحو الشكل اللين وارتباط حروفها بعضها ببعض، وهذا يمثل بداية تطور الشكل النبطي نحو تشكل الحروف العربية. لذا فإن الاكتشافات المستقبلية سوف تظهر لنا عدداً من النصوص الجاهلية التي ربما تؤكد نظرية تطور الكتابة العربية داخل الجزيرة العربية وفي بلاد الشام في الوقت نفسه.

الكتابات في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

تعد فترة صدر الإسلام من أهم الفترات في تاريخ الكتابة العربية، حيث شهدت هذه الفترة بداية مرحلة التدوين العربي المتمثل بتدوين الوحي. وكانت المدينة تعج بالكتبة الذين دفعهم الدين الإسلامي لتعلم الكتابة، فظهرت بوادر ذلك منذ وصول الرسول ﷺ مهاجراً من مكة إلى يثرب. وتتميز هذه الفترة فيما يتعلق بالكتابة بقلة ما وصل إلينا من كتابات تبين لنا مراحل تطور الكتابة العربية خلال هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الإسلام.

وتنحصر النقوش الصخرية التي عثر عليها في المملكة، وهي قليلة جداً، في مجموعة نقوش جبل سلع التي نشرها محمد حميد الله عام ١٩٣٩م، وفي النقش المؤرخ لسنة أربعين هجرية الذي عثر عليه في وادي الشامية في منطقة مكة المكرمة. هذه النقوش تعد أقدم ما وصل إلينا من كتابات إسلامية عثر عليها في أراضي المملكة. ومع أن قلة الكتابات المكتشفة لا تعكس، بأي حال من الأحوال، المراحل المهمة لتطور الكتابة خلال الفترة المبكرة، لكننا سوف نحاول من خلال هذه النقوش إعطاء لمحة عامة عن نمط الكتابة الإسلامية المبكرة.

كتابات جبل سلع: عثر في الواجهات الصخرية لجبل سلع، الواقع غرب المدينة المنورة، على مجموعة من النقوش العربية المبكرة. وبعض هذه الكتابات طمست حروفها، خاصة النقوش المكتشفة في سفوح الجبل الغربية. أما النصوص التي قرأها محمد حميد الله فتقع أغلبها عند الزاوية الجنوبية من الجبل. وتحتوي هذه المجموعة على ثلاثة نصوص:

أ- النص الأول:

١/ امسى واصبح عمر

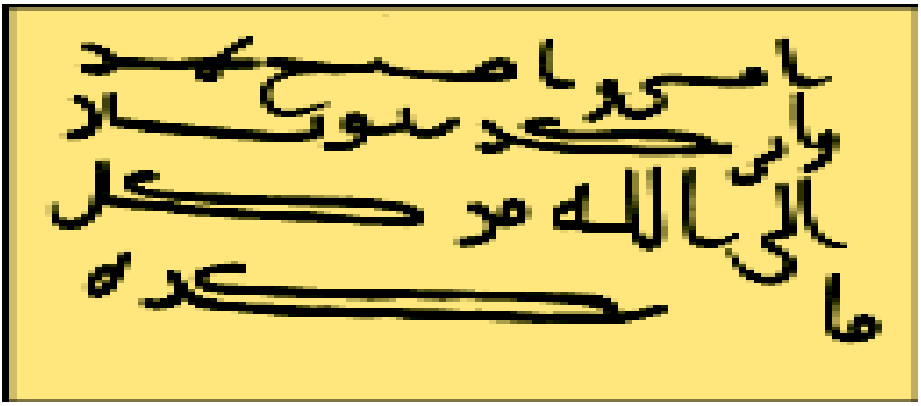
٢/ وابو بكر يتوبان

٣/ الى الله من كل

٤/ ما يكره

ب- النص الثاني:

يتكون من كتابتين:



صورة مفرغة لكتابة حجرية من جبل سلع – المدينة المنورة

أولاً: الكتابة على الجهة اليسرى من الصخرة:

١/ حكيم

٢/ ويومن (بالله)

٣/ عمر ابن ال

٤/ بكر

ثانياً: مجموعة كتابات على يسار الكتابة السابقة وهي أسماء شخصيات:

انا عمارة بن حزم انا ميمون انا محمد بن عبدالله انا و ... بن عوسجة انا خلف انا سلمين الاحفر انا ... انا سهل ابن ... انا معقل الجهني ياالله انا انا سعد بن معذ ... ابن ع ... انا ... انا علي بن ابو طالب ومحمد

جـ) النص الثالث:

١/ اشهد ان لا اله

٢/ (الا الـ)له واشهد ان محمداً عبده

٣/ (ورسولـ)ـه برحمتك ياالله لا اله الا

٤/ (هو علـ)ـى الله توكلت وهو رب

٥/ العرش العظيم

هذه النقوش غير مؤرخة إلا أن حميد الله أرجعها للسنة الخامسة للهجرة. وربما كان عدم تأريخ هذه النقوش أمراً طبيعياً لأن المسلمين لم يبدأوا باستخدام التاريخ الهجري إلا في السنة السادسة عشرة للهجرة، خلال خلافة عمر بن الخطاب #. واعتمد حميد الله في تأريخه لهذه النقوش على ورود أسماء عدد من الصحابة، إضافة إلى أن جبل سلع كان قاعدة للمسلمين في معركة الخندق، إذ أن ورود أسماء أبي بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعمارة بن حزم #، وجلهم كان يعرف الكتابة، دعّم رأي الباحث في تأريخ هذه النقوش.

وقد حاول عـدد من الباحثين عـرب وغربيين الـتشكيك في صحـة نسبة هذه النقوش للمرحلة المبكرة من تاريخ الإسلام دون الاستناد إلـى أدلة دامغة تنفي نـسبة هذه النقوش للسنة الخامسة للهجرة. وقد أشار صـلاح الدين المـنجد إلى أن هـذه الكتابات هي من بواكير الخط الإسلامي، ولا يمكن في الوقت الحاضر التشكيك في صحتها إلا إذا ظهرت كتابات أخرى بخط أبي بكر وعمر وعلي تخالفها في شكلها.

كـتـبت نقـوش جبل سـلع بـالخط المدني، الذي يعد مع الخط المـكي أقدم أنواع الخطوط العربية التي أشارت إليها المصادر. فقد ذكر ابن النديم خصائص هذيـن الخطين فـي قوله «فـفي ألفاتـه اعوجاج إلى يمنة اليد وأعلى الأصابع، وفي شكله انضجاع يسير». هذا الوصف يكاد ينطبق على بعض خصائص كتابات سلـع، وهذا يؤكد أنـها كتبـت بالخط المدني. وتعد مجموعة هذه الكتابات أقدم الكتابات الإسلامية المكتشفة حتى الآن، وتمتاز بـحسن الخط وبـتطور كبـير في أشكـال الحروف إذا ما قـورنت بـأقدم النقوش المؤرخة وهو شـاهد قبر أسوان المؤرخ بسنة ٣١هـ، وهذا ما جعل بعض الدارسين يشـكك في صحة نسبـة هذه النقوش للفترة الإسلامية المبكرة. ونحن نعلم أن حسن الكتابة وجودتها يرتبطان بالكـاتب ومهارته، إضـافة إلى أنه لم تكتشف حتى الآن كتابات أخرى تـعود للفترة الإسلامية المبكرة. ويعود أقدم نص إسلامي عثر عليه بعد هذه المجموعة في الحجاز لسنة أربعين هجرية. لذلك يصبح من الصعوبة بمكان مناقشة تطور الكتابات في الحجاز خلال الفترة الإسلامية المبكرة في غياب الأدلة الكتابية. ولابد أن تكون الكتابـة في الحجاز خلال هذه المـرحلة أكثر تطوراً من كتابات المناطق الأخرى، مثل مصر وبـلاد الشام، إضافة إلى أن المدينة في هذه المرحلة كانت تزخر بأعداد من الكتبة الذين اختار الرسول صلى الله علـيه وسلم أفـضلهم لـكتابـة الوحي والرسائل والغنائم والمعاهدات.

د - نقش عبد الرحمن بن خالد بن العاص:

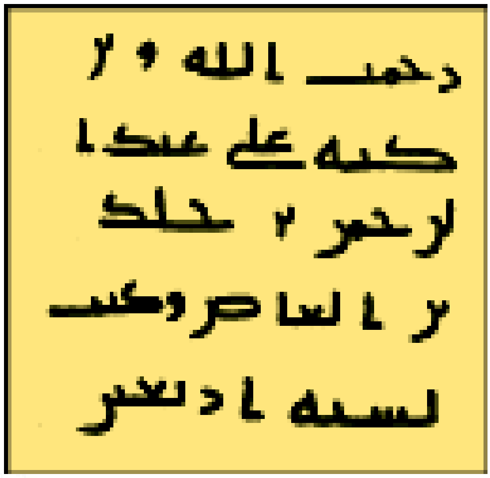
عثر علـى هذا النقش المؤرخ لسـنة أربعين للهجرة في موضع يسمى صـنق الزرقا) على بعد ٢كم جنوب غرب مركز المطـارفة بوادي الـشامية بمـنطقـة مكة المكرمة، ويتكون هذا النقش من خمسة أسطر ومؤرخ لسنة أربعين للهجرة.

قراءة النقش:

١) رحمت الله وبر

٢) كته على عبدا

٣) لرحمن بن خلد



صورة مفرغة لنقش صنق الزرقاء، يعود تاريخه لعام ٤٠هـ –وادي الشامية – مكة المكرمة

٤) بن العاص وكتب
٥) لسنة أربعين

يعد هذا النص أقدم النقوش المؤرخة المكتشفة في المملكة حتى الوقت الحاضر، وثالث نقش مؤرخ بعد شاهد قبر أسوان (٣١هـ) على مستوى العالم الإسلامي، لذا فإنه ذو أهمية في دراسة تطور الكتابة العربية خلال الفترة الإسلامية المبكرة. ويمتاز هذا النص بحسن الخط وبأشكال حروفه التي تتوافق مع بعض أشكال حروف كتابات جبل سلع، خاصة حرف الألف والراء والكاف والحاء. وهذا يؤكد ما أشرنا إليه سابقاً من أن نقوش الحجاز خلال الفترة المبكرة أكثر تطوراً من غيرها. لذلك يجب أن يدرس تطور الكتابة العربية المبكرة من خلال النصوص المبكرة المكتشفة في الحجاز وألا تخضع نصوص الحجاز للمقارنة مع النصوص الأخرى المكتشفة خارج الجزيرة العربية. وسبب ذلك أن ما عثر عليه من نقوش مبكرة في الحجاز أكثر تطوراً من تلك التي عثر عليها خارج الجزيرة العربية، وتؤرخ لمرحلة متأخرة عنها.

الكتابات في العصر الأموي

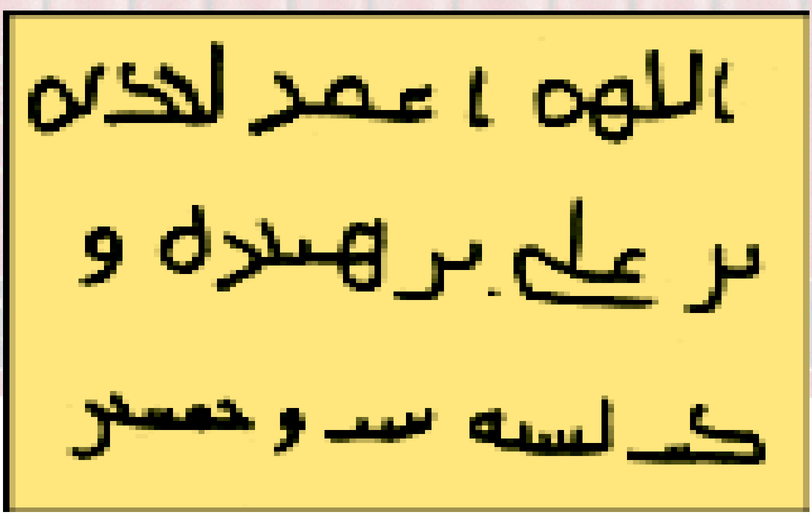
امتاز العصر الأموي بازدهار في مختلف الجوانب الحضارية الإسلامية. وقد حظيت الكتابات بنصيب وافر من هذا الازدهار، فتطورت الكتابة وانتشرت انتشاراً كبيراً. وقد عثر في المملكة على مجموعة من كتابات العصر الأموي بالقرب من مكة والطائف والمدينة المنورة والجوف ومدائن صالح، معظمها نقوش صخرية. فمن هذه الكتابات نصان تأسيسيان لإنشاء سد في شمال شرق الطائف، وآخر بالقرب من المدينة المنورة. أما النقوش الأخرى فهي من طراز النقوش التذكارية لطلب المغفرة والدعاء وتأكيد الإيمان بالله. ولم يكتشف في المملكة أي نقوش مكتوبة على مواد أخرى، عدا بعض المسكوكات الأموية، وإن كنا نركّز هنا لكتابات العصر الأموي على النقوش الصخرية فقط. ومن أحدث النقوش الأموية المكتشفة تلك

التي عثر عليها بالقرب من مكة المكرمة، وتشتمل، في معظمهـا، على نصوص قرآنيـة، مثل نقش عبـدالله بن عمارة المؤرخ سنة ٨٤هـ ونقش أبي جعفر بن حسـن الهاشمـي المؤرخ سنـة ٩٨هـ، ويشتمل على بيتين من الشعر الجاهلي. وقد عثر بموقع العسيلة شمال مكة على بعض النقوش المؤرخة من الفترة الأموية، منها نقشـان مؤرخان سنة ٨٠هـ باسم عثمان بـن وهرن (وهران) ونقش أمية بن عـبد المـلك المـؤرخ سنـة ٩٨هـ. فالكتابات الأمويـة المؤرخة، التي تعود للفترة الواقعة بين سنتي (٤٠-١٣٢هـ) وهي المنتـقاة في هذا العرض، عُرفـت بأنها كتبت بالخـط الحجازي الذي يمتاز بمرونة أشكال الحروف وميلها للاستدارة وتناسق حروف الكلمة الواحدة، إضافة إلى أن بعض هذه النقوش، مثل نقش سد معاويـة المؤرخ بسنة ٥٨هـ ونـقش عفير بن المضارب المؤرخ بسنـة ٨٣هـ، أظهرت استخدام نقط الإعجام المستديرة وهذه ميزة اختصت بهـا نقوش الحجاز لأن نقش سد الطائف يعد أقدم النقوش الإسلامـية التـي استخـدم فيـها نقْـط الإعجام.

ونورد فيما يلي نماذج من الكتابات الأموية المـؤرخة المكتشـفة في المملـكة العربية السعودية.

أ) نقش الخشنة:

عثر على هذا النقش على بعد ٦ كم شمـال شرق البرود، إحـدى محطات طريق درب زبيـدة شمال غرب منطـقة



صورة مفرغة لنقش الخشنة، مؤرخ بعام ٥٦هـ

الشرائع بمكة المكرمة. والنقش من ثلاثة أسطر ومؤرخ لسنة ٥٦هـ وكتب بخط حجازي. ويمتاز بأن أشكال حروفه تميل للاستدارة.

قراءة النقش:

١) اللهم اغفر لحدبة

٢) بن علي بن هبيرة و

٣) كتب لسنة ست وخمسين

ب) نقش سد معاوية:

عثر على هذا النقش التأسيسي محفوراً على صخرة كبيرة طولها ٢م وعرضها ١,٩م بالقرب من سد أثري يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة الطائف على بعد ٢٠ كم. ويتكون النقش من ستة أسطر، ومؤرخ لسنة ٥٨هـ وكتب بخط حجازي مزوى. وهذا النقش ذو أهمية كبيرة لأنه يعد أهم النقوش المكتشفة في المملكة حتى الآن. وتنبع هذه الأهمية من عدة جوانب: أولها أن هذا النقش هو أقدم النصوص الإسلامية التأسيسية الذي يرتبط بمنشأة معمارية (سد)، وثانيها نص النقش حيث أن باني السد هو معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية، وهذا يظهر اهتمام معاوية بن أبي سفيان بتشييد المنشآت المائية في الحجاز خلال هذه المرحلة المبكرة من تاريخ بني أمية. وثالثها أهمية النقش في دراسة تطور الكتابات الإسلامية، فهذا النقش يعد رابع أقدم نقش مؤرخ في العالم الإسلامي بعد شاهد قبر أسوان (٣١هـ) ونقش عبدالرحمن بن خالد بن العاص (٤٠هـ)، ونقش الخشنة (٥٦هـ). ورابعها استخدام نقط الإعجام في هذا النقش لأول مرة.

قراءة النقش:

١) هذا السد لعبدالله معاوية



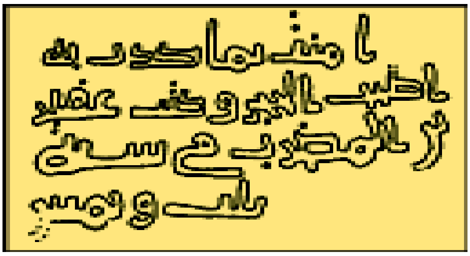
صورة مفرغة لنقش سد معاوية،
مؤرخ بعام ٥٨ هـ – الطائف

٢) أمير المؤمنين بانيه عبدالله بن صخر
٣) باذن الله لسنة ثمان وخمسين ا
٤) للهم اغفر لعبد الله معاوية ا
٥) مير المؤمنين وثبته وانصره ومتع ا
٦) لمؤمنين به كتب عمر بن خباب (جناب)

وتجدر الإشارة إلى أن سعد الراشد عثر على نقش تأسيسي مهم لمعاوية بن أبي سفيان على سد وادي الخنق إلى الجنوب الشرقي من المدينة المنورة، ويعد السد والنقش من الإضافات التي توضح الدور الحضاري الذي قام به الخليفة معاوية بن أبي سفيان في الحجاز.

جـ) نقش عفير بن المضارب:

عثر على هذا النقش في منطقة الأقرع على مسافة ٥كم جنوب محطة قطار المطلع، إحدى محطات سكة حديد الحجاز شمال مدائن صالح. والنقش من أربعة أسطر ومؤرخ بسنة ٨٣هـ وكتب بخط حجازي. وأهم ما يميز هذا النقش خطه المستدير اللين، واستخدام نقط الإعجام في بعض حروف كلماته، مثل: الباء والتاء والجيم والضاد والياء. وهذا النقش مع نقش الخشنة وسد معاوية تمثل نماذج لما كانت عليه الكتابة الحجازية في العصر الأموي، إذ إن ظهور الخط الكوفي لم



صورة مفرغة لنقش عفير بن المضارب في موقع الأقرع في طريق الحج الشامي

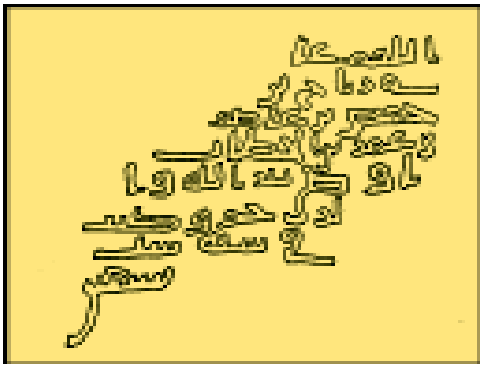
يؤثر على استمرار الكتابة الحجازية المائلة للاستدارة.

قراءة النقش:

١) امنت بما كذب به
٢) اصحب (أصحاب) الحجر وكتب عفير
٣) بن المضارب في سنة
٤) ثلث (ثلاث) وثمنين (ثمانين)

د) نقش رباح بن حفص بن عاصم:

عثر على هذا النقش ضمن مجموعة كبيرة من النقوش في موضع رواوة إلى الجنوب الغربي من المدينة المنورة، وتبعد حوالي ٥٠كم من المسجد النبوي الشريف. والنقش من ثمانية أسطر ومؤرخ لسنة ٩٦هـ. وهو غير واضح تماماً، إذ إن واجهة الصخر المكتوب عليها النقش تأثرت بعوامل التعرية فأضحت بعض أحرف النقش غير واضحة. ويمتاز هذا النقش، إلى جانب خطه الحجازي، بأن الشخصية الواردة فيه، رباح بن



صورة مفرغة لنقش رباح بن حفص بن عاصم
مؤرخ بعام ٩٦هـ رواوة – المدينة المنورة

حفص بن عمر بن الخطاب من الشخصيات المعروفة، وقد ذكرت كتب الطبقات أنه أحد الرواة المحدثين، وأن رباحاً هو لقبه، واسمه عيسى بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب العدوي أبو زياد. وتوفي صاحب هذا النقش سنة سبع وخمسين ومائة عن عمر بلغ ثمانين سنة.

قراءة النقش:

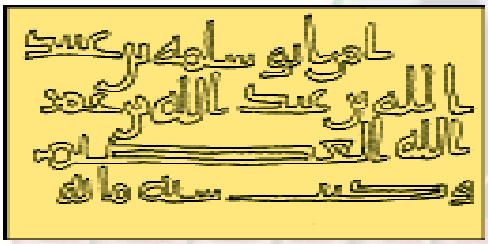
١) اللهم عا
٢) في رباح بن
٣) حفص بن عاصم
٤) بن عمر بن الخطاب
٥) أوحى (سد) الله وا
٦) لرحم وكتب
٧) في سنة ست
٨) (و) وتسعين

هـ) نقش أبي سلمة بن عبيدالله:

عثر على هذا النقش في موضع رواوة أيضاً. ويتكون النقش من أربعة أسطر ومؤرخ بسنة ١٠٠هـ. وكتب بالخط المدني الحجازي. ويشبه خط النقش إلى حد بعيد مجموعة كتابات جبل سلع حيث تظهر بعض حروفه ممدودة وتميل إلى الاستدارة.

قراءة النقش:

١) امن ابو سلمه بن عبيد
٢) الله بن عبدالله بن عمر



صورة مفرغة لنقش أبي سلمة بن عبيدالله،
المؤرخ بعام ١٠٠هـ رواوة – المدينة المنورة

٣) بالله العظيم
٤) وكتب سنة مايه

و) نقش الحارث بن صاغر:

عثر على هذا النقش على الواجهة الصخرية لجبل النيصة على مسافة ١٢كم شمال شرقي محافظة دومة الجندل بمنطقة الجوف. والنقش من تسعة أسطر ومؤرخ سنة ١٢١هـ. وكتب هذا النقش بالخط الكوفي البسيط، وهو أمرٌ ربما يعكس

مدى انتشار هذا الخط خلال نهاية العصر الأموي خارج الحجاز. وأهمية هذا النقش في حسن خطه، وبأنه مؤرخ سنة ١٢١هـ، إضافة إلى أنه يُعد أقدم ما عثر عليه حتى الآن من كتابات إسلامية في شمال المملكة. وقراءة النقش:

١) بسم الله الرحمن الرحيم
٢) اللهم اغفر للحارث
٣) بن صاغر ما تقدم من ذ
٤) نبه وما تاخر امين ثم ا
٥) مين رب محمد وا
٦) براهيم رب العالمين و
٧) كتب في وحدة و
٨) عشرين وماية سنة
٩) ان الحكم لله

من خلال هذا العرض السريع لبعض الكتابات الأموية تبدو لنا الأهمية الكبيرة لنقوش الجزيرة العربية في دراسة تطور الخط العربي خلال العصر الإسلامي المبكر. ذلك أن مجموعة النقوش الأموية المكتشفة حتى الآن في المملكة تمثل أكبر مجموعة من الكتابات الأموية على مستوى العالم الإسلامي، وهذا ليس بمستغرب إذا أخذ في الحسبان الدور الذي أدته الجزيرة العربية في تطور الكتابة خلال فترة صدر الإسلام وانتشار التعليم والكتابة بين أوساط سكان الجزيرة العربية. وإضافة إلى ذلك فإن الحجاز كان -وما يزال- البقعة التي تهفو إليها قلوب المسلمين في جميع أصقاع الأرض، ومن ثمّ خلف المسلمون الذين كانوا يفدون إلى الحجاز للعمرة وللحج مجموعة كبيرة من الكتابات الإسلامية.

الكتابات في العصر العباسي

أثمرت الدراسات والبحوث الأثرية في المملكة عن كشف وتسجيل مئات من النصوص الكتابية التي يعود تاريخها، أو يمكن إعادة تواريخها، إلى الفترة العباسية بمراحلها الثلاث. ويمكن تصنيف الكتابات والنقوش المكتشفة في ثلاث فئات، هي: الكتابات التأسيسية، والكتابات الشاهدية، والنقوش الصخرية. ولا يدخل ضمن هذا العرض الموجز المخطوطات بمختلف أنواعها.

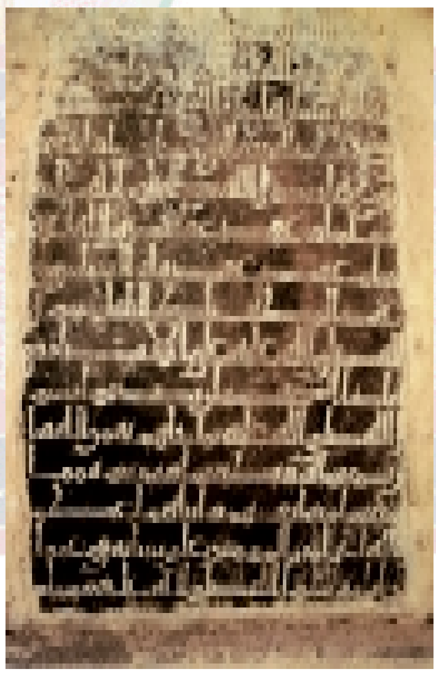
الكتابات التأسيسية. يوجد عدد ليس بالقليل من الكتابات التأسيسية التي توثق لإقامة المنشآت العامة والمرافق التي تهم المسلمين، التي أمر بإنشائها الخلفاء والأمراء والوزراء وفاعلو الخير في العصر العباسي. وتُشكل هذه الكتابات مصادر مهمة لتحديد تاريخ إنشاء أو ترميم أو إعادة بناء تلك المباني. وتتركز

هذه الكتابات التأسيسية التي عثر عليها، في منـطقة الحجاز، خـاصة في مكة المكرمة. وبـعضها مؤرخ وبعضـها لا يحمل تأريخاً ولكن يستدل على تاريخها من الأسماء الـواردة فيها، ومن ذلك نقشان تأسيسيان لعمارة مـسجد البيعة بمنى، حيث يوجد لوحان حجريان من الرخام، أحدهما عليه نص من خمسة عشـر سطراً مـحفورة حـفراً غائـراً، والنقش غير مؤرخ ولكن تأريخه يعود لعصر الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أنشأ المسجد سنة ١٤٤هـ. ويصل حجم الحجـر الذي عـليـه النقـش حوالـي ٩٦×٥٨سم. ويقُرأ النص على النحو التالي:

١) بسم الله الرحمن الرحيم أمر عبد
٢) [ا] لله عبدالله أمير المؤمنين اد
٣) [ا] مه الله ببنيان هذا المسجد
٤) مسجد البيعه التي كانت أول بيعه
٥) بويع بها رسول الله صلى الله عليه
٦) [و] سلم أو [ل] عقد عقده الله للا
٧) سلام عقد عقده لـه العباس بن
٨) عبـد المطلب تـلك اليلـه -هكذا- لرسول
٩) الله صلى الله عليه على الأنصار في
١٠) هذا المسجد أن يصدقوا رسو
١١) ل الله بما جاهم به من الله وا
١٢) ن يسمعوا له ويطيعوا ويمنعوه مما
١٣) يمنعوا منه أنفسهم وأبناهم أعظم
١٤) الله أجر اميـر المؤمنين على بنيانه في عمرا
١٥) نه اياه -هكذا- رسول الـله صلى الله عليه وسلم

أما الـلوح الحجري الآخـر فيصـل حجمه إلى حوالي ٦٠×٤٤سم، وعليه نقش محفور حفراً غائراً من تسعة أسطر، ويقرأ على النحو التالي:

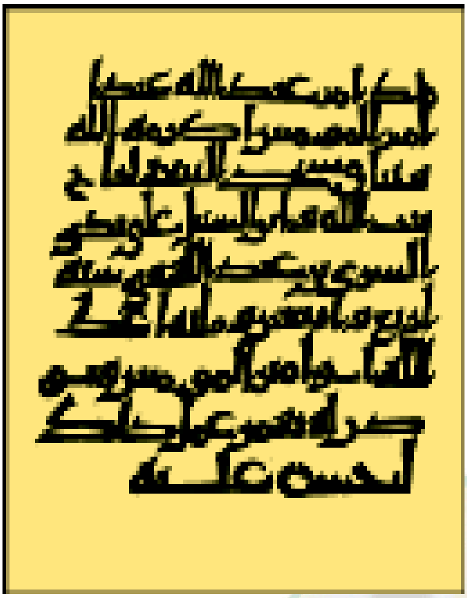
١) هذا ما امر عبد الله عبد
٢) امير المومنين أكرمه الله
٣) ببنيان مسجد البيعه لحاج



نقش بمسجد البيعة بمنى



صورة مفرغة للنقش السابق بمسجد البيعة بمنى



صورة مفرغة لنقش آخر بمسجد البيعة بمنى

٤) بيت الله وابن السبيل على يدى

٥) السرى بن عبدالله في سنة

٦) اربع واربعين ومائة أعظم

٧) الله أجر امير المومنين فيما

٨) اذن له به من عمل صالح

٩) احسن -هكذا- عليه

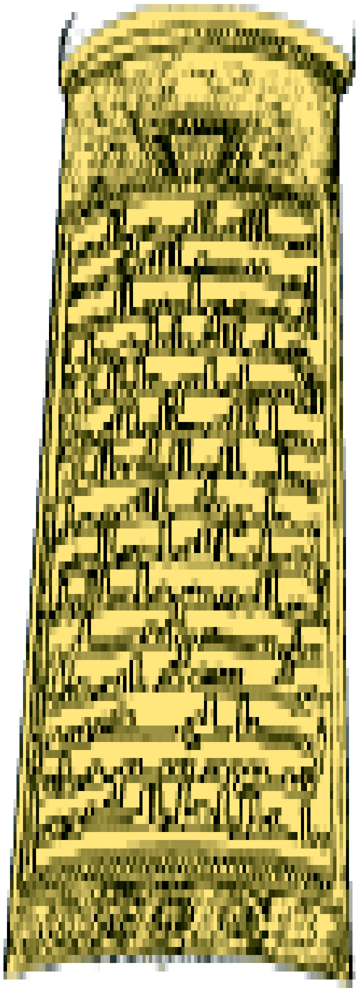
ومنها نقش تأسيسي لحفر بئرين لأبناء السبيل في منتصف القرن الثاني الهجري، وكُتب هذا النقش على لوح حجري جرانيتي (١١٠×٤٧سم) عثر عليه في نخلة الشامية بالشرائع بمكة المكرمة، وهو محفوظ في متحف قسم الحضارة بجامعة أم القرى. ويتكون النقش من أحد عشر سطراً، وكتب بخط كوفي مزوي. ويفيد النص المكتوب بأن سليمان بن مهران حفر بئرين وجعلهما صدقة على أبناء السبيل.

ومنها أربعة نقوش تأسيسية في الحرم المكي الشريف من عهد الخليفة المهدي العباسي ويشاهد زوار الحرم المكي حتى اليوم أربعة نصوص منقوشة بالحفر البارز على أربعة أعمدة أسطوانية الشكل في الجهة الجنوبية من الحرم المكي الشريف في الجهة المطلة على صحن الكعبة بالقرب من شرفة المؤذنين. ويرد في هذه النقوش ذكر الخليفة المهدي العباسي، وعلى أحدها جاء ذكر الوزير يقطين بن

موسى وإبراهيم بن صالح بن علي بن عبدالله بن العباس. ووجود هذه النقوش في تلك الجهة من الحرم المكي الشريف ما هو إلا توثيق لإقامة الأسطوانات وتوسعة الطريق الذي كان يسلكه الرسول صلى الله عليه وسلم من الحرم إلى الصفا. وتلك الأعمال كانت من عمل أهل الكوفة.

وأحد هذه النقوش من ١٥ سطراً، كتبت بالخط الكوفي البارز من دون نقط أو شكل. ويُقرأ النقش على النحو التالي:

١) بسم الله الرحمن الرحيم
٢) امر عبدالله محمد
٣) المهدي أمير المومنين
٤) حفظه الله باقامة هاتين
٥) الاسطوانتين علما لطريق
٦) رسول الله صلى الله عليه
٧) وسلم الى الصفا ليتاسا
٨) به حاج بيت الله وعماره
٩) اعظم الله اجر المهدي
١٠) أمير المؤمنين وأطال بقاه
١١) على يدي يقطين بن
١٢) موسى وابراهيم
١٣) بن صالح في سنة
١٤) سبع وستين ومائه
١٥) مما عمل اهل الكوفة



صورة مفرغة لنقش تأسيسي في عمارة الحرم المكي الشريف، مؤرخ بعام ١٦٧هـ

ويدخل في الكتابات التأسيسية الأحجار الميلية التي تحدد المسافات بين البلدان، وقد عثر حتى الآن على خمسة أحجار منها تعود إلى العصر العباسي المبكر، توضح المسافة على طول طريق الحج من العراق إلى مكة. وتحدد المسافة



حجر ميلي –درب زبيدة

على هذه الأحجار بوحدة قياس الميل والبريد. وأحد هذه الأميال عثر عليه في حفائر الربذة وقد كتب عليه «عشرة أميال من البريد».

غير أن أهم حجر مسافة بين هذه المجموعة هو الحجر الذي تحتفظ به بلدية



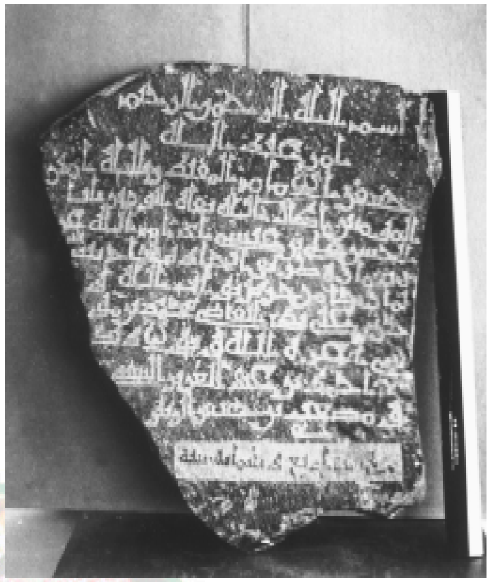
حجر ميلي عثر عليه في الربذة – درب زبيدة

جدة، وهو يجمع بين نقش تأسيسي وحجر مسافة. ويرد فيه اسم الخليفة المهدي العباسي ووزيره يقطين بن موسى، الذي أشرف على عمارة طريق الكوفة –مكة المكرمة– لمدة عشر سنوات. كما يرد في هذا النقش ذكرُ أحد مراكز البريد وهو بريد أسود العشاريات.

ومنها حجر تأسيسي لإصلاح طريق الحج في عهد الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٠٤هـ. وعُثر على هذا النقش في النفايات القديمة لمهد الذهب (معدن بني سليم)، ويتكون من ١٢ سطراً منقوشة بالحفر الغائر. ويفيد النقش بأن



حجر تأسيسي من عهد الخليفة المهدي، يحوي تحديداً للمسافة بالأميال – درب زبيدة

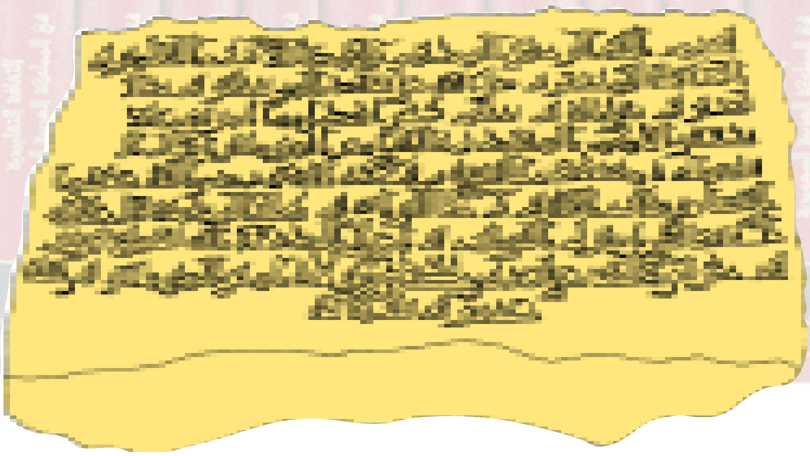


حجر تأسيسي، مؤرخ بعام ٣٠٤هـ – درب زبيدة

الخليفة المقتدر بالله أمر وزيره أبا الحسن علي بن عيسى بعمارة طريق الجادة لحجاج بيت الله رجاءً في ثواب الله. كما يرد في النقش أسماء ثلاث شخصيات أشرفت على عمارة الطريق. والنقش مؤرخ بسنة ٣٠٤هـ.

ومنها حجر تأسيسي لعمارة مسجد أم المؤمنين عائشة بالتنعيم مؤرخ بسنة ٣١٠هـ. ويُعد من النصوص التأسيسية المهمة، وهو حجر بازلتي كبير (٧٧×٣٦سم) عليه تسعة أسطر تحمل أمراً من الخليفة عبدالله جعفر الإمام المقتدر بالله بعمارة مسجد عائشة $ زوج النبيﷺ. وأن البناء أنجز على يدي شجى مولاة أمير المؤمنين في سنة عشر وثلاثمائة.

وعثر أيضاً على ثلاثة أحجار عليها نقوش تأسيسية لعمارة عين عرفة ومصانعها، محفورة حفراً بارزاً. ومجموع سطورها حوالي ٤٠ سطراً.



صورة مفرغة لنقش على حجر تأسيسي في عمارة مسجد أم المؤمنين عائشة،
مؤرخ بعام ٣١٠هـ التنعيم – مكة المكرمة

وتوضح النصوص المنقوشة المراحل التي قام بها الخليفة أبو العباس أحمد الناصر لدين الله في عمارة عين عرفة ومصانعها، خدمة لحجاج بيت الله الحرام. وتقع تواريخ هذه النقوش التأسيسية في السنوات: ٥٨٣هـ، ٥٨٤هـ، ٥٩٤هـ.

وهناك نقوش تأسيسية أخرى عثر عليها في مكة. منها نقش تأسيسي لوقف

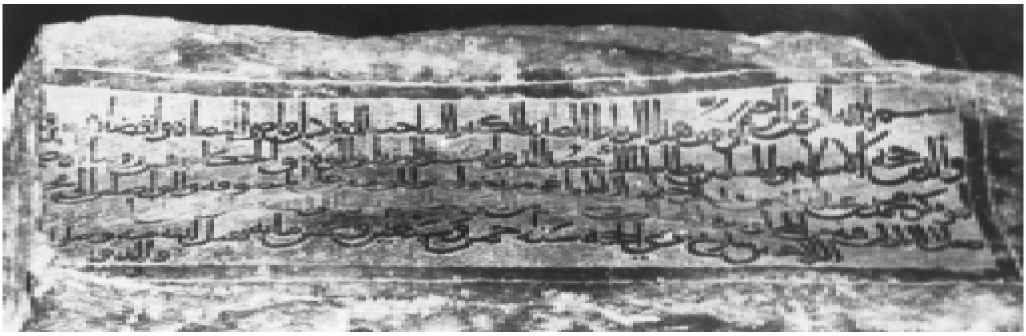


صورة مفرغة لنقش تأسيسي لعمارة عين عرفة ومصانعها، مؤرخ بسنة ٥٨٤هـ

رباط المراغي سنة ٥٧٥هـ، ونقش تأسيسي لوقف رباط المغاربة، ونقش تأسيسي لعمارة مدرسة وميضأة وسقاية أنشأها مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل سنة ٦٠٥هـ. ومن النقوش التأسيسية الأخرى نقش مؤرخ بسنة ٦١٩هـ يوثق لعمارة مسجد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالتنعيم بأمر السلطان صلاح الدين يوسف (الملك المسعود).

ومن النقوش التأسيسية المهمة المكتشفة خارج مكة المكرمة، ذلك النقش الذي اكتشف في موقع عشم المؤرخ بسنة ٤١٤هـ. ويوثق هذا النقش أن من عمر مسجد عشم هو الأمير يعلى بن عبدالله بن عويد.

الكتابات الشاهدية. أثمرت الدراسات الأثرية الحديثة في كشف عدد كبير من النقوش على شواهد القبور المنتشرة في مواقع مختلفة من أرجاء المملكة وتوثيقها. فبعض الكتابات الشاهدية محفوظة ضمن مجموعات متحفية منقولة أو باقية في مواقعها الأصلية. وهناك مئات من الشواهد لم تجد طريقها للدراسة والتوثيق. وكانت مقابر المدن الكبيرة والمنازل مليئة بالنقوش الشاهدية، مثل مكة والطائف والمدينة ومواضع أخرى متفرقة، مثل مخلاف عشم



نقش رباط المراغي، مؤرخ بعام ٥٧٥هـ

والسرين والربذة وبدر وغيرها من المواضع. فالنقوش الشاهدية -لا شك- تتضمن معلومات تاريخية وحضارية مهمة. فنجد



شاهد قبر منقوش باسم جعدة بنت ياسر، مولى كلاب بن محمد الهزاني، مؤرخ بعام ٤٠٣هـ موقع السرين - مكة المكرمة

في نصوصها معلومات عن المتوفين، رجالاً ونساء، وتواريخ وفياتهم المحددة أحياناً باليوم والشهر والسنة. إضافة إلى أنها تعرفنا أيضاً بالانتماء القبلي أو العائلي لشخصية المتوفى، أو الإشارة إلى مدينته أو بلدته التي جاء منها، أو إلى وظيفته التي اشتهر بها أو كنيته.

وتشتمل الشواهد أيضاً على آيات قرآنية وأدعية مأثورة لطلب المغفرة والرحمة والتوبة للشخص المتوفى، كما أن الكثير من الأحجار الشاهدية نفذت فيها أساليب هندسية وزوّقت حروف النصوص بأنماط وعناصر زخرفية متنوعة توضح لنا التطور الفني والرقي الحضاري لخطاطي هذه الشواهد وصنّاعها.

وبين أيدينا عدد من شواهد القبور التي عثر عليها في مكة والطائف وعشم والأحسبة والسرين، ومواضع متفرقة من منطقة الحجاز. ويصعب تحديد أقدم



شاهد قبر محفور، مؤرخ بعام ٢٦٨هـ
مدينة جازان العليا

الكتابات الشاهدية في العصر العباسي، لأن المبكر منها غير مؤرخ، مع أنه بالإمكان تحديد تواريخ كتابتها تقريباً من واقع دراسة أسلوب الخط والفترة التاريخية للموضع الذي عثر فيه على تلك الشواهد.

ويمكن إعطاء أمثلة لبعض الأحجار الشاهدية على النحو التالي:

أولاً: شاهد قبر من منطقة بني سليم (القرن ٢-٣هـ/ ٨-٩م) نصُّه:

١) بسم اله الرحمن الرحيم
٢) لا إله إلا الله محمد رسول
٣) الله صلى الله على المصطفى
٤) وعلى اله وسلم تسليما
٥) اللهم يارحمن يارحيم
٦) ارحم محمد بن اسحاق
٧) بن سليمن بن سالم يا
٨) جواد

ثانياً: شاهد قبر من قرية عشم (مؤرخ بسنة ٢٦٢هـ) نصّه:

١) بسم الله الرحمن الرحيم
٢) شهد الله انه لا اله
٣) الا هو والملائكة واو
٤) لو العلم قائما بالقسط
٥) لا اله الا هو العزيز الحكيم
٦) هذا قبر عبدالله بن
٧) داود بن سعيد
٨) رحمه الله توفى سنة
٩) اثنين وستين
١٠) ومائتين والسلام

وكتب في الجزء العلوي من الإطار (نقش احمد الحفار).

ثالثاً: شاهد قبر من منطقة مكة المكرمة (القرن ٣هـ/ ٩م) جاء فيه:

١) بسم الله الرحمن
٢) الرحيم اللهم
٣) إذا جمعت الا
٤) ولين والاخرين
٥) لميقات يوم معلو
٦) م فاجعل يزيد

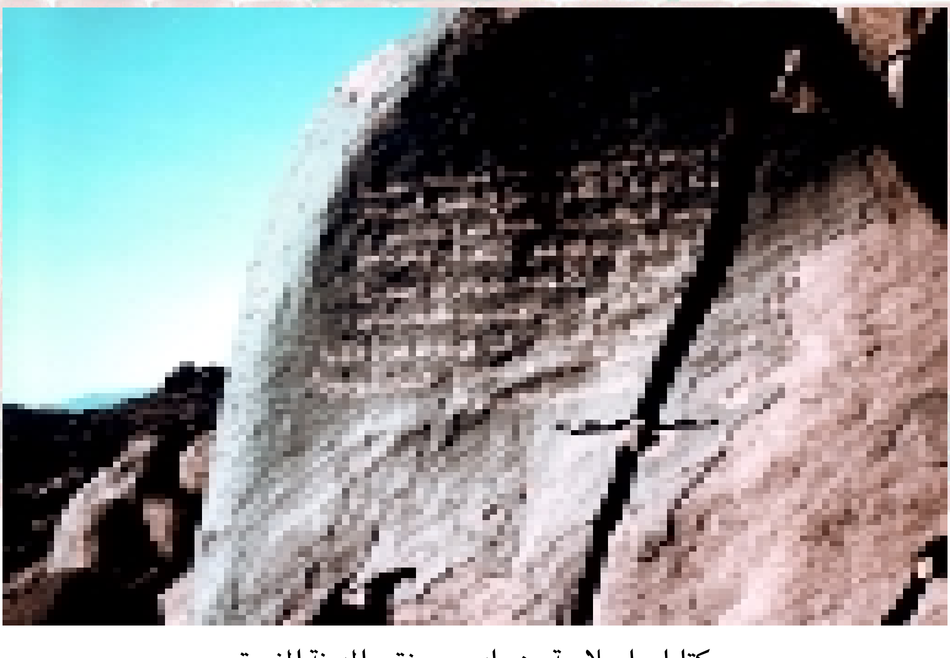
٧) بن عبد الحكيم بن
٨) ابرهيم الطائفي من
٩) رفقاء محمد النبي في
١٠) جنات النعيم

رابعاً: شاهد قبر من المابيات منطقة العـلا (القرن ٣-٤هـ/ ٩-١٠م) يقـرأ كالآتي:

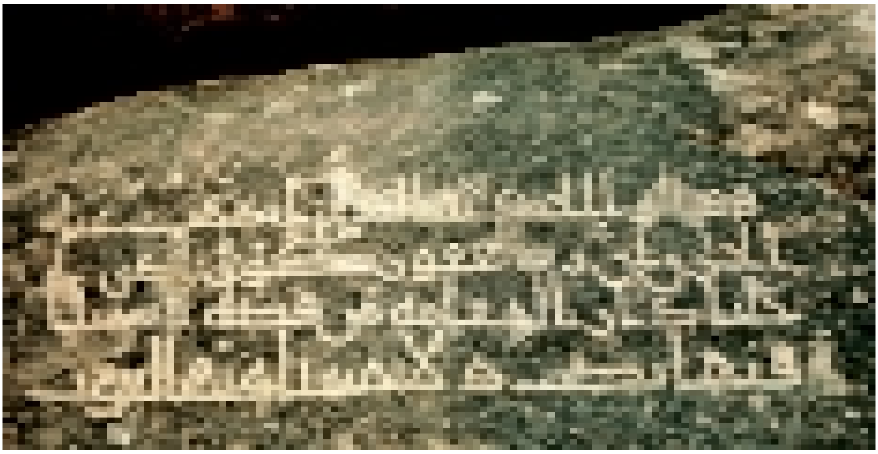
١) بسم الله الرحمن الرحيم
٢) هذا قبر حازم عبدالله
٣) بن ابراهيم بن الفضل بن أبي ح
٤) زم رحمه الله ...
٥) وزكا(٥)

وهنـاك أمثلة كـثيرة مـن الأحجار الشاهدية المؤرخـة وغير المؤرخة، وهي كما ذكرنا تعد مصدراً مهماً لدراسة تاريخ الإسلام وحضارته في الجزيرة العربية.

النقـوش الصخريـة. تشكل الـنقوش الصخريـة مادة وثائقية مهـمة في العصر العباسي. وتنتـشر الكتابات المنقورة على الصخور في مناطق مـتفرقة من المملكة، فمنـها ما نجده علـى امتداد طرق الحج، ومنها ما نجده في المناطق القريبة من مكة المكرمة والطـائف والمدينة المنورة ومناطـق الحرار، مـثل: حرة فـدك وخيبـر وحرة رهاط، وفي المناطـق الصخرية في الدرع العـربي فـي شمـال المملـكة ووسـطهـا وجنوبها، مثل تبوك والعلا وحائل والقصيم والقـويعية وأبـها والباحـة، وكذلك فـي



كتابات إسلامية من وادي حرزة - المدينة المنورة



كتابات إسلامية من ضرية – منطقة القصيم

الواحات الصحراوية وعلى ضفاف الأودية، مثل منطقة الصويدرة. وبعض تلك النقوش كتبها إما السكان المقيمون، أو المارة القادمون للحج والعمرة والتجارة. ونجد في بعض مجموعات النقوش التي عثر عليها تسلسلاً للفترات التاريخية، حيث تبدأ من القرن الأول الهجري حتى الفترات المتأخرة من العصر العباسي. ومعظم النقوش الصخرية أدعية لطلب المغفرة والرحمة والعفو والتوبة، أو طلب الثقة بالله للشخصيات الواردة أسماؤها في النصوص المكتوبة. ونجد بعضها ينتهي بعبارة: وكتب فلان، وأحياناً تكون مؤرخة.

وقد لا تكون هذه النقوش بمستوى الكتابات الشاهدية (شواهد القبور) من حيث جودة الخط وتنميق الحروف وتزويقها، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دقة في فن الخط، ومهارة في تنفيذ النصوص، ولمسات هندسية وتحكم في المساحة المتاحة للكتابة على الواجهات الصخرية. ولعلّ من المناسب إعطاء أمثلة من النقوش الخطية التي عثر عليها في بعض مناطق المملكة.

أ) نقش من «رواوة» المدينة المنورة (مؤرخ بسنة ١٤٠هـ) جاء فيه:

١/ انا منصور ابن عطا ابن

٢/ ربيعه امنت بالله ورسوله

٣/ وكتب سنة اربعين وميه

ب) نقش من نقع بني مر: طريق الحج المصري (مؤرخ بسنة ١٤٢هـ) نصُّه:

١/ انا الوليد بن كثير

٢/ البربري من أهل طنجه

٣/ حج سنة اثنين وأربعين ومايه



نقش مؤرخ بعام ١٤٠هـ –رواوة – المدينة المنورة

٤/ وهو يسال الله المغفرة

جـ) نقش من قرية الصمخ بمنطقة بيشة (القرن ١–٢هـ) يقول:

١/ اللهم ابعث سليمان بن سعود واياس

٢/ بن يسار وسعد بن أبي هند مقا

٣/ ما محمودا في رضوانك امين

٤/ رب العالمين

د) نقش من الصويدرة (مؤرخ سنة ٢٠٥هـ) يقرأ كما يأتي:

١/ اللهم صلي على محمد

٢/ مرَّ احمد بن ايوب

٣/ الاهوازي ومعه ولد

٤/ الفضيل بن إبراهيم سنة

٥/ خمس ومائتين.

هـ) نقش من الحويط / حرة فدك (القرن ٢–٣هـ) كتب فيه:

١/ يامنتصرا

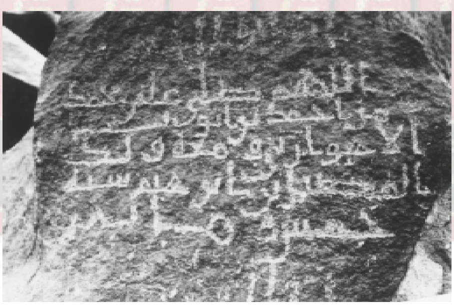
٢/ لعبد ضعيف

٣/ ورب غفو

٤/ ر رحيم.

الكتابات في العصر المملوكي

تمتاز الكتابات في العصر المملوكي بأنها تتركز في منطقة الحجاز في المدينتين المقدستين، مكة المكرمة والمدينة المنورة على نحوٍ خاص. ومعظم النصوص الكتابية المكتشفة لوحات تأسيسية تتعلق بعمارة الحرمين الشريفين والمرافق العامة، كالمساجد والأربطة والعيون، وبعضها مراسيم سلطانية بإبطال المكوس، وبعضها رنوك وهي شارات معدنية تحوي رموزاً أو كتابات مختصرة متداخلة، عليها أسماء السلاطين.



نقش مؤرخ بعام ٢٠٥هـ
الصويدرة – المدينة المنورة

وهناك أمثلة عديدة من النصوص الكتابية ما تزال باقية داخل الحرم المكي الشريف. منها -على سبيل المثال- مرسوم سلطاني بإبطال المكوس منقوش بالخط البارز على عشرة أعمدة رخامية متفرقة في بابي الزيارة والصفا تعود إلى عهد السلطان شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، ومؤرخة في يوم الإثنين الثالث من جمادى الأولى سنة ٧٦٦هـ. والملاحظ أن هذا المرسوم يتكرر على أكثر من عمود، ويصل عدد أسطر النص إلى ٢٩ سطراً بحيث قسم النص على عمودين. وكتب النص بخط الثلث، ويتضمن إبطال سائر المكوس عن مكة المكرمة على جميع الأصناف التي بها والواردة إليها على اختلاف أنواعها، وعلى ما يباع بأسواقها من المأكول والمشروب والنيئ والمطبوخ وجميع الحبوب من الحنطة والسيال والذرة والدخن والحمص والأرز والعدس والشعير والدقيق، والحيوانات من الأبقار والأغنام والجمال، وما يصل إليها في البر والبحر وساير المشاعر العظام. ونجد في النص عدداً من الألقاب والوظائف مع وجود عناصر زخرفية مكونة من ورود وفروع نباتية ووريقات زخرفية.

وفي متحف الحرم المكي الشريف عدد كبير من اللوحات التأسيسية مؤرخة في عهد عدد من السلاطين، ومنها:

- لوح تأسيسي لعمارة مئذنة الحزورة سنة ٧٧٢هـ.
- لوح تأسيسي لعمارة مقام الحنفية سنة ٨٠١هـ.
- لوح تأسيسي لعمارة باب الحزورة سنة ٨٠٤هـ.
- لوح تأسيسي لعمارة باب النبي سنة ٨٢٥هـ.
- لوح تأسيسي لعمارة إحدى مآذن الحرم سنة ٨٣٨هـ.
- لوح تأسيسي لعمارة بعض الأعمدة سنة ٨٥٢هـ.
- لوح تأسيسي لعمارة المقام سنة ٨٥٨هـ.
- (رنك) مكتوب من عهد السلطان قايتباي.
- لوح تأسيسي لعمارة مقام إبراهيم سنة ٩١٥هـ.
- لوح تأسيسي لعمارة عين عرفة سنة ٨٧٥هـ في عهد السلطان قايتباي.
- لوح تأسيسي لعمارة مسجد الإجابة بمكة المكرمة سنة ٨٨٩هـ في عهد السلطان قايتباي.

نص تأسيسي خلف المحراب النبوي في المسجد النبوي الشريف، مؤرخ بسنة ٨٨٨هـ في عهد السلطان قايتباي.

ومن النقوش التأسيسية التي عرفت في المدينة المنورة ذلك النص الـذي كان مثبتاً على مدخـل رباط مظفر في حارة الأغوات، وقد كتب بخط الثلث الغائر ومؤرخ بسنة ٧٠٦هـ في عهد السلطان المملـوكي الناصر محـمد بن قلاوون. ويمكن إعطاء المثال التالي لأحد النصوص الكتابية من العصر المملوكي:

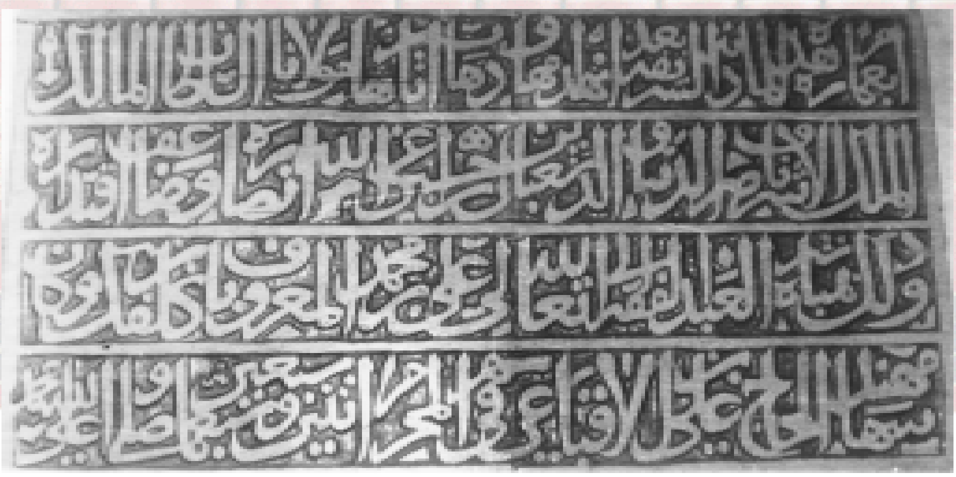
لوحة تأسيسية لعمارة مئذنة الحزورة جاء فيها:

١) امر بعمارة هذه المئذنـة الشريفة بعد انهـدامهـا وذهاب اثـارها مـولانا السلطان المالك.

٢) الملك الاشرف نـاصر الدنيا والدين شعبان بـن حسين اعز الله انصـاره وضاعف اقتداره.

٣) وذلك بمباشـره العبد الفقير الـى الله تعالى علي بن محمد المـعروف بابن كلفك وكان مـهندسها والحاج علي الاقباعي في شهر المحرم اثنين وسبعين وسبعمائة وصلى الله على محمد.

ومن المواد الأخرى التـي نجد عليها كتابات توثيقية من العصر المملوكي المفاتيح التي كانت تصنع لباب الكعبة الشريفة. وهذه المـفاتيح مـصنوعة مـن النحـاس الأصفر ومكفـتة بالفضة وحفرت عـلى جوانب المفاتيح بخط الثلث البارز آيات قرآنية وأسماء لسلاطين المماليك وتواريخ صناعة تـلك المفاتيح وتـزين المساحات



نقش يؤرخ لعمارة مئذنة الحزورة بالحرم المكي الشريف في سنة ٧٧٢هـ، في عهد السلطان المملوكي الأشرف شعبان

الضيقة أشكال من ضفائر وفروع نباتية صغيرة. وغالبية هذه المفاتيح محفوظة في متحف طوب قبو سراي باستنبول، وبعضها في متحف الفن الإسلامي.

ونجد التواريخ على بعض هذه المفاتيح تتراوح ما بين سنة ٦٥٩-٦٦٠هـ وحتى سنة ٨٠٤هـ، وتغطي فترات حكم الظاهر بيبرس، والسلطان الصالح عماد الدين إسماعيل، والسلطان حسن بن محمد، والسلطان برقوق.

الكتابات في العصر العثماني

شهدت الفترة العثمانية ازدهار الكتابة التوثيقية وتطورها على المشاريع التي كان يقيمها سلاطين بني عثمان أو الأمراء والوزراء والقادة والولاة. ومن الإنجازات التي تمت في هذه الفترة التجديدات والإصلاحات المتعلقة بالمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة والمرافق العامة من مساجد وخانات ومنشآت مائية وقلاع وحصون.

ومعظم هذه المشاريع كانت توثق على الأحجار والأعمدة الحجرية والبلاطات المعمارية والخشب والمعادن، بالإضافة إلى انتشار الرنوك في تلك المباني وعلى وجه الخصوص في الحرم المكي الشريف والمسجد النبوي.

وهناك أمثلة من الأحجار الشاهدية المنقوشة في الحجاز في العصر العثماني.

وتشتمل النصوص الكتابية على أسماء السلاطين والوزراء والمهندسين والصناع والألقاب والمهن وغير ذلك، بالإضافة إلى توثيق الكتابة بذكر تواريخ إنجاز الأعمال المنفذة وأحياناً تذكر الفترة التي أنجز فيها العمل.

وقد استخدم خط الثلث في غالبية النصوص الكتابية سواء على المباني أم على المواد المصنعة، مثل الأقفال والمفاتيح التي كانت تصنع للكعبة أو للحجرة الشريفة في المسجد النبوي.

ولم يغفل الخطاطون أو النقاشون عن إضافة لمحات جمالية للنصوص الكتابية. فقد تفننوا في وضع الأسطر داخل إطارات مستطيلة ومقوسة ونصف دائرية وزخارف نباتية متعددة، تشتمل على أنصاف مراوح نخيلية وأفرع نباتية وأشكال هندسية. بالإضافة إلى ملء الفراغات بين الأسطر بما يناسبها من زخارف وعلامات نقط وإعجام في بعض الأحيان.

والأمثلة كثيرة على انتشار الكتابات في العصر العثماني على الأحجار وعلى المنشآت الدينية والمدنية والحربية.

وهناك عدد من النقوش و(الرنوك) في هذا العصر يمكن مشاهدتها داخل الحرم

المكي الشريف أو محفوظة في متحف الحرم، منها نقش تأسيسي لعمارة باب السلام مؤرخ بسنة ٩٣١هـ في عهد السلطان سليمان القانوني. وللسلطان نفسه رنك محفور على باب السلام يتكون من ثلاثة أسطر تقرأ «السلطان المظفر سليمان خان عز نصره» ويوجد رنك آخر باسم السلطان مراد بن سليم يقرأ:

١) عز لمولانا السلطان الملك المظفر مراد
٢) خان بن السلطان سليم خان بن سليمان خان
٣) عز نصره
٤) في سنة ٩٨٤

وفي متحف الحرم المكي مجموعة من الكتابات والنقوش تتعلق بعمارة الحرم وبعض المرافق، منها:

١) نص تأسيسي مؤرخ بسنة ٩٤٥هـ لتجديد مسجد جعفر بن أبي طالب.
٢) حجر تأسيسي لعمارة المسجد الحرام في عهد السلطان سليم الثاني.
٣) عدد من النصوص القرآنية منقوشة على ألواح رخامية، وأسماء الصحابة منقوشة على تيجان الأعمدة والشرفات. وفي متحف طوب قبو سراي باستنبول مجموعة من أقفال ومفاتيح الكعبة عليها نصوص قرآنية وأسماء السلاطين وتواريخ صناعتها، وقد كتبت تلك النصوص بخط الثلث.

وتعود التواريخ الواردة على تلك الأقفال والمفاتيح للسنوات ٩١٥هـ و٩٤٣هـ و٩٩٦هـ و١٠٠٢هـ و١٠٠٨هـ و١٠٢٢هـ و١٠٣٩هـ وسنة ١٠٥٦هـ.

وهناك نص تأسيسي كتب شعراً لإنشاء سبيل السلطان مراد بباب الصفا، وكذلك نص تأسيسي لعمارة تكية السيدة فاطمة مؤرخ بسنة ١٠٨٦هـ. وفي متحف الحضارة بجامعة أم القرى نص تأسيسي لعمارة عين حنين وتجديد بركة السلم بطريق منى مؤرخ سنة ٩٣٥هـ في عهد السلطان سليمان القانوني.

أما شواهد القبور المنقوشة في العصر العثماني فلدينا حجر محفوظ في مكتبة عبدالله بن عباس في الطائف مؤرخ بسنة ٩٩٤هـ باسم الشريف حراز بن أحمد بن أبي نمي.

وفي متحف الآثار بجامعة الملك سعود حجر شاهدي محفور بالخط البارز باسم قايتباي، أحد أفراد أسرة بني قتادة أمراء مكة، والنقش مؤرخ بسنة ١٠٠٥هـ.

أما المسجد النبوي الشريف فما يزال يحتفظ بنصوص قرآنية مكتوبة على البلاطات الخزفية التي تحلي جدران المسجد من الداخل، بالإضافة إلى أسماء



نص من العصر العثماني منفذ على بلاطات خزفية، يؤرخ لتجديد قعلة تبوك في عام ١٠٦٤هـ

الله الحسنى، وأسماء الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام التي تتكرر في أرجاء التوسعة العثمانية.

وهناك آيات قرآنية في صدر المحراب السليماني وحول عقده. كذلك يوجد نص تأسيسي على حائط المحراب الخلفي مؤرخ سنة ٩٤٨هـ ويقرأ على النحو التالي:

«جدد هذا المكان الشريف السلطان الملك المظفر سليمان خان بن السلطان سليم خان بن بايزيد خان فخر آل عثمان خلد الله ملكه بمحمد وآله وصحبه وسلم، تاريخ إتمامه شهر جمادى الآخرة سنة ٩٤٨».

وفي متحف طوب قبو سراي قفلان ومفتاحان للحجرة النبوية الشريفة عليهما نصوص تركية، وصنعا سنة ١٠٠٢هـ و١٠٠٣هـ، ويقرأ النص المنقوش على المفتاح «بسم الله يافتاح». ونفذت الكتابة بخط الثلث والتعليق. ويوجد عدد من النصوص التأسيسية على عدد من المباني العامة التي خدمت طريقي الحج الشامي والمصري، بعضها كتب باللغة التركية وبعضها ورد على شكل أبيات شعرية. وتوضح تلك النصوص -وقد نفذت كتابتها بخط الثلث البارز- اهتمام السلاطين العثمانيين بطرق الحج، إذ قاموا بتعمير القلاع والآبار والبرك. ونجد من تلك النصوص على قلعة ذات الحاج (٦٦٢هـ) و(٩٧١هـ) وقلعة تبوك (١٠٦٤هـ) و(١٢٦٠هـ) وقلعة

الأخضر (٩٣٨هـ و ١٠٣١هـ). وبئر الواردة في المويلح (٩٦٧هـ) وقلعة المويلح (٩٦٨هـ) ونقش تأسيسي لعمارة قلعة الزريب مؤرخ بحساب الجمَّل «قلعة السلطان وجه للصفا» ويساوي (١٠٢٦هـ).

وفي جامع علي باشا بالهفوف المسمى مسجد إبراهيم نقش تأسيسي مؤرخ سنة ٩٧٩هـ كتب بخط الثلث البارز ويتكون من خمسة أسطر هي:

١) إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى (أولئك) أن يكونوا من المهتدين.

٢) أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك السعيد من ماله مولانا السلطان الأعظم.

٣) والخاقان المكرم والملك المفخم سليم بن سليمان خان أعز الله تعالى أنصاره ورحم سلفه.

٤) العبد الفقير إلى رحمة ربه الغني القدير علي باشا لطف الله تعالى به.

٥) بتاريخ أوائل شهر رجب المرجب والمعظم قدره وحرمته سنة تسع وسبعين وتسعماية.

ونستخلص من هذا العرض الموجز عن الكتابات في العصور الإسلامية المختلفة أن المملكة تحتضن بين مناطقها الشاسعة كنوزاً من النقوش الإسلامية والكتابات الشاهدية والنصوص التأسيسية التي توثق لإقامة المنشآت الدينية والمدنية والعسكرية. وتشكل هذه الكتابات مصدراً مهماً من مصادر دراسة التاريخ الحضاري والفني والاقتصادي والسياسي واستنباط معلومات مختلفة اجتماعية وثقافية. ويضاف إلى ذلك تكوين صورة شاملة عن تطور الخط على المستوى المحلي داخل الجزيرة العربية بأقاليمها المختلفة مع معرفة عامل التأثير والتأثر وسيادة فن على فن، وكذلك معرفة مدارس الخطاطين والحفارين من خلال أعمالهم. ولدينا على سبيل المثال أسماء بعضٍ منهم من خلال أعمالهم في نقوش عشم والأحسبة، مثل أحمد الحفار، وأحمد بن الحسين، ويعلى بن موسى.

وتضاف أعمال هؤلاء إلى خطاط مكي اشتهر بنقوشه الفريدة في الأحجار الشاهدية التي كان يكتبها وهو مبارك المكي، وقد عثر على أمثلة من أعماله في مجموعة شواهد القبور المحفوظة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة. وتمتاز أعماله بتسجيله نصوصاً مطولة على الأحجار، إما بالحفر الغائر أو البارز، مع تعميق وتزويق للحروف، وهندسة فريدة في التناسب بين الأحرف والكلمات والأسطر، حتى كوّن بذلك مدرسة خاصة به في القرن الثالث الهجري.



نقش تأسيسي مؤرخ بعام ٩٧٩هـ من جامع علي باشا، المسمى بمسجد إبراهيم – الهفوف

والأمثلة المكتشفة بتوقيع المكي أربعة أحجار، ثلاثة منها عليها تاريخ سنة ٢٤٣هـ والرابع مؤرخ سنة ٢٤٦هـ.

فالنقش رقم (٤٦٢) مكوّن من ١٨ سطراً وفوق الإطار كُتب «بركة من الله عمل مبارك المكي».

النقش رقم (٤٦٩) من ٢٦ سطراً وفوق الإطار أعلى الشاهد الأيسر «وكتب المكي».

النقش رقم (٤٩١) من ٩ أسطر، وينتهي السطر الأخير داخل الإطار بعبارة «من عمل مبارك المكي». وفي أعلى الشاهد خارج الإطار عبارة «وكتب المكي».

النقش رقم (٥٨٧) من ١٩ سطراً، وفوق الإطار عبارة «وكتب المكي».

ومن هذه الأعمال الفنية الراقية وغيرها من الآثار الخطية المكتشفة وما يتوقع اكتشافه مستقبلاً سنجد –بإذن الله– رافداً مهماً من روافد المعرفة لتاريخ الحضارة الإسلامية في الجزيرة العربية.

المصادر

الإبراهيم، محمد، وآخرون

١٤٠٥/ ١٩٨٥ «تقرير مبدئي عن نتائج الاستكشافات الأثرية في موقع المابيات الإسلامي: الموسم الأول ١٤٠٤/ ١٩٨٤». أطلال ع٩، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص١١٣-١٢٣.

ابن الأثير المؤرخ، عزالدين أبو الحسن علي الشيباني الجزري

١٣٨٥/ ١٩٦٥ الكامل في التاريخ. دار بيروت، لبنان.

إدريس، عبدالله عبدالعزيز

١٤٠٢/ ١٩٨٢ مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، الرياض.

الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن حمد

١٤٠٩/ ١٩٨٩ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. عالم الكتب، بيروت.

آدمز، روبرت، وآخرون

١٣٩٧/ ١٩٧٧ «الاستكشاف الأثري للمملكة العربية السعودية ١٣٩٦/ ١٩٧٦: تقرير مبدئي عن المرحلة الأولى من برنامج المسح الشامل». أطلال ع١، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٢١-٤٥.

أرسلان، شكيب؛ رضا، محمد رشيد

١٣٥٠/ ١٩٣١ الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف. مطبعة المنار، القاهرة.

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله

١٣٨٥/ ١٩٦٥ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق رشدي الصالح ملحس. دار الثقافة، مكة المكرمة.

إغلان، إبراهيم

١٤١٥/ ١٩٩٥ البحث الآثاري في الجزيرة العربية واتجاهاته: دراسة تقويمية. رسالة ماجستير. قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، الرياض.

الألفي، أبو صالح
د.ت. الفن الإسلامي أصوله، فلسفته، ومدارسه. دار المعارف، القاهرة.

أنجراهام، مايكل، وآخرون
١٤٠١/ ١٩٨١ «التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الشمالية الغربية، مع لمحة موجزة عن مسح المنطقة الشمالية». أطلال ع٥، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٥٣-٧٦.

الأنصاري، عبدالرحمن بن محمد الطيب
١٣٩٠/ ١٩٧٠ «كتابات من الآب». مجلة كلية الآداب ع١، جامعة الملك سعود (الرياض سابقاً)، الرياض. ص ص١١٣-١٢٤.
١٣٩٠/ ١٩٧٠ لمحات عن القبائل العربية البائدة. جميعة التاريخ والآثار، الرياض.
١٣٩٣/ ١٩٧٣ «كتابات من قرية الفاو». مجلة كلية الآداب ع٣. جامعة الملك سعود (الرياض سابقاً)، الرياض. ص ص٢٧-٧٠.
١٣٩٥/ ١٩٧٥ «لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال وغرب الجزيرة العربية». الدارة ع١. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض. ص ص٧٤-٨٧.
١٣٩٧/ ١٩٧٩ «أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها». دراسات الآثار في الجزيرة العربية. الرياض.
١٤٠٢/ ١٩٨٢ قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية. جامعة الرياض، الرياض.
١٤١٢/ ١٩٩٢ «قصة الآثار في جامعة الملك سعود - ربع قرن من العمل الدؤوب». دراسات في الآثار (الكتاب الأول). قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود. الرياض.

الأنصاري، عبدالرحمن بن محمد الطيب، وآخرون
١٤٠٤/ ١٩٨٤ مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية: العلا (ديدان)، الحجر (مدائن صالح). جامعة الملك سعود، كلية الآداب-قسم الآثار، الرياض.

الأنصاري، عبد القدوس
١٩٦٣/١٣٨٣ تاريخ مدينة جدة. دار الأصفهاني، جدة.
١٩٧٣/١٣٩٣ آثار المدينة المنورة. المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
١٩٧٧/١٣٩٧ بين التاريخ والآثار. مطابع الروضة، جدة.

بار، بيتر، وآخرون
١٩٧٨/١٣٩٨ «المسح الأثري الشامل لأراضي المملكة العربية السعودية: التقرير المبدئي عن الموسم الثاني لمسح المنطقة الشمالية ١٣٩٧/ ١٩٧٧». أطلال ع٢، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٣١-٥٨.

الباشا، حسن
١٤١٠/ ١٩٩٠ الآثار الإسلامية. دار النهضة العربية، القاهرة.

الباشا، عبدالرحمن رأفت
١٣٩٤/ ١٩٧٤ الصيد عند العرب أدواته وطرقه، حيوانه الصائد والمصيد. مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٣٩٤/ ١٩٧٤ شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري. مؤسسة الرسالة، بيروت.

بافقيه، محمد عبدالقادر
١٣٩٢/ ١٩٧٣ تاريخ اليمن القديم. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١٤٠٥/ ١٩٨٥ مختارات من النقوش اليمنية القديمة. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

باقاسي، عائشة بنت عبدالله
١٤٠٠/ ١٩٨٠ بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ٥٦٧-٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠). دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

الباقوري، أحمد حسن
١٣٩٣/ ١٩٧٣ في عالم الصيد. د.ن، القاهرة.

البتنوني، محمد لبيب
د.ت. الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

بدول، روبن
١٤٠٩/ ١٩٨٩ الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. ترجمة عبدالله آدم نصيف. المترجم، الرياض.

بدين، محمد أحمد، وعبدالرحمن بكر كباوي
١٤١٢/ ١٩٩١ دراسات في آثار المملكة العربية السعودية. الحرس الوطني، الرياض.

بركاتي، ناصر عبدالله
١٤٠٨/ ١٩٨٨ دراسة تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة: مسجد الخيف- مسجد البيعة بمنى. دار المدني، جدة.

ابن بطوطة، محمد عبدالله
١٣٩٨/ ١٩٨٧ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق محمد عبدالمنعم العريان. دار إحياء العلوم، بيروت.

بكر، سيد عبدالمجيد
١٤٠٠/ ١٩٨٠ أشهر المساجد في الإسلام. مطابع سحر، جدة.
١٤٠١/ ١٩٨١ الملامح الجغرافية لدروب الحجيج. دار تهامة، جدة.

البكري، عبدالله بن عبدالعزيز
١٤٠٣/ ١٩٨٣ معجم ما استعجم. تحقيق مصطفى السقا. عالم الكتب، بيروت.

البلوي، أبو البقاء خالد بن عيسى
د. ت. تاج المفرق في تحلية علماء المشرق. صندوق إحياء التراث الإسلامي. الرباط.

بوتس، دانيال
١٣٩٨/ ١٩٧٨ «التقرير المبدئي عن الموسم الثاني لمسح المنطقة الشرقية ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م». أطلال ع٢، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض.

١٤٠٣/ ١٩٨٣ «ثاج في ضوء الأبحاث الحديثة ١٤٠٢/ ١٩٨٢». أطلال ع٧، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٦٩-١١٥. ص ص٣١-٧٤.

بودن، جارث
١٣٩٩/ ١٩٧٩ «موقع خفيف الزهرة وطبيعة السيادة الدادانية في واحات العلا». أطلال ع٣، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٧٣-٨٣.
١٤٠١/ ١٩٨١ «دراسة على نتيجة التأريخ بطريقة كربون ١٤ من تيماء». أطلال ع٥، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض.

بيرين، جاكلين
١٤٠٦/ ١٩٨٦ «الفن في منطقة الجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام». دراسات يمنية ع٢٣.

بيستون أ. ف. ل. وآخرون
١٤٠٢/ ١٩٨٢ المعجم السبئي. مكتبة لبنان، بيروت.

الجار الله، عبدالعزيز بن جار الله بن إبراهيم
١٤١٧/ ١٩٧٧ الاستيطان والآثار الإسلامية في منطقة القصيم. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

الجاسر، حمد
١٣٩٠/ ١٩٧٠ في شمال غرب الجزيرة نصوص، مشاهدات، انطباعات. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.
١٣٩٦/ ١٩٧٦ «منازل الحج الشامي لابن شجاع الدمشقي». العرب مج ١٠، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض. ص ص٨٦٩-٨٧٦.
١٣٩٧/ ١٩٧٧ المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: شمال المملكة. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.
١٤٠٢/ ١٩٨٣ ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي. دار الرفاعي، الرياض.

١٤٠٤/ ١٩٨٤ مقتطفات من رحلة العياشي. دار الرفاعي، الرياض.
د.ت. لمحة تاريخية وجغرافية وانطباعات خاصة. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.

الجبوري، سهيلة ياسين
١٣٩٧/ ١٩٧٧ أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي. جامعة بغداد. بغداد.

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد
١٣٨٨/ ١٩٨٦ رحلة ابن جبير. دار التراث، بيروت.

الجزيري، عبدالقادر بن محمد عبدالقادر
١٤٠٣/ ١٩٨٣الدرر الفرائد (صح: الفوائد) المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة. دار اليمامة للبث والترجمة والنشر، الرياض.

جليمور، مايكل، وآخرون
١٤٠٢/ ١٩٨٢ «تقرير مبدئي عن استكمال مسح المنطقتين الشمالية الغربية والشمالية ١٤٠١/ ١٩٨١». أطلال ع٦، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٦-١٩.

جولدنج، مارني
١٤٠٤/ ١٩٨٤ «ملتقطات من مستوطنات ما قبل الإسلام بشرق الجزيرة العربية». أطلال ع٨، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص١٥٩-١٦٤.

الحارث، ناصر بن علي
١٤١٥/ ١٩٩٤ النقوش العربية المبكرة بمنطقة الطائف. دار الحارث، الطائف.

حافظ، علي
١٣٨٨/ ١٩٦٨ فصول من تاريخ المدينة المنورة. شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة.

ابن الحائك، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني
١٣٩٤/ ١٩٧٤ صفة جزيـرة العرب. تحقيق مـحمد بن علي الأكـوع. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.
١٣٩٩/ ١٩٧٩ كتاب الإكليل. تحقيق محمد بن علي الأكوع. مطبعة الكاتب العربي، دمشق.

الحربي، أبو إسحق إبراهيم بن إسحق
١٣٨٩/ ١٩٦٩ كتاب المناسـك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيـرة. تحقيق حمد الجاسر. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.

حسن، سليمان محمود
١٤٠٩/ ١٩٨٩ الأواني الخشبية التقليديـة عند عرب الجزيرة مدخل لدراسة الفولكلور العربي. نادي جازان الأدبي، جازان.
١٤١٣/ ١٩٩٣ «البيت الشعبي التقليدي في تهامة بالمملكة العربية السعودية». المأثورات الشعبية ع٢٩. مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر. ص ص٧-٢٥.

الحسين، فهد بن علي
١٤١٦/ ١٩٩٥ الآثار الإسلامية بقرية البطاليه. المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية. رسالة ماجستير. قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

حلاق، حسن علي
١٤٠٠/ ١٩٨٠ تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي. دار النهضة العربية، بيروت.

الحمود، محمد سعود بن صنداح
١٤١٤/ ١٩٩٣ الشواهد الأثريـة والتاريخية في المملكـة العربية السعودية. المؤلف، الرياض (مطابع الفرزدق التجارية).
١٤١٩/ ١٩٩٨ من آثار الرياض وما حولها. المؤلف، الرياض (مطابع الفرزدق التجارية).

خان، مجيد
١٩٩٢/١٤١٣ نشأة وتطور الكتابة في الجزيرة العربية. ترجمة عبد الرحمن الزهراني. وزارة المعارف، الإدارة العامة للآثار والمتاحف، الرياض.
١٩٩٣/١٤١٤ الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ في شمال المملكة العربية السعودية. وزارة المعارف، الإدارة العامة للآثار والمتاحف، الرياض.

ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيدالله بن أحمد الخرساني
١٨٨٩/١٣٠٦ المسالك والممالك. تحقيق م.ج. دي غويه. مطبعة بريل، ليدن.

الخطيب، عبدالكريم محمود
١٩٨٥/١٤٠٥ تاريخ ينبع. المؤلف، الرياض.

ابن خميس، عبدالله بن محمد
١٩٨٠/١٤٠٠ المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية: معجم اليمامة. مطابع الفرزدق، الرياض.
١٩٨٢/١٤٠٢ الدرعية العاصمة الأولى. مطابع الفرزدق، الرياض.

الخياري، أحمد ياسين
١٩٩٤/١٤١٤ تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً. تحقيق عبدالله أمين كردي. دار العلم للطباعة والنشر، جدة.

الدايل، خالد، وآخرون
١٩٧٩/١٣٩٩ «المسح الأثري الشامل لأراضي المملكة العربية السعودية: التقرير المبدئي لمسح درب زبيدة، المرحلة الثالثة ١٩٧٨/١٣٩٨». أطلال ع٣، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٤٩-٧١.

الدباغ، تقي
١٩٨٨/١٤٠٨ الوطن العربي في العصور الحجرية. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

أبو درك، حامد إبراهيم
١٤٠٤/ ١٩٨٤ «الاستكشافات والتنقيبات الأثرية في موقع الثمامة الذي يرجع تاريخه إلى العصر الحجري الحديث». أطلال ع٨، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٩٧-١٠٣.
١٤٠٥/ ١٩٨٥ «تقرير مبدئي عن التنقيبات بقصر الحمراء بتيماء، الموسم الثاني لعام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م». أطلال ع٩، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٥٥-٦٧.
١٤٠٦/ ١٩٨٦ دراسة نقدية ومقارنة لبعض المعالم الأثرية في تيماء بشمال الجزيرة العربية من خلال الاستكشافات الأثرية. الإدارة العامة للآثار والمتاحف، وزارة المعارف، الرياض.
١٤١٠/ ١٩٨٩ «تقرير مبدئي عن حفرية الصناعية بتيماء الموسم الأول ١٤٠٨هـ». أطلال ع١٢، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٩-٢٤.
١٤١٤/ ١٩٩٤ «تقرير من موقع البجيدي الإسلامي بتيماء». مجلة كندة ع١. ص ص٩-١٢.

دقن، السيد محمد
١٤٠٥/ ١٩٨٥ سكة حديد الحجاز الحميدية. دراسة وثائقية. مطبعة الجبلاوي، القاهرة.

ديماند، م.س
١٤٠٢/ ١٩٨٢ الفنون الإسلامية. ترجمة أحمد محمد عيسى. دار المعارف، القاهرة.

الذييب، سليمان بن عبدالرحمن
١٤١١/ ١٩٩١ «نقوش صفوية جديدة من شمال المملكة العربية السعودية». العصور ج١. دار المريخ للنشر، لندن. ص ص٣٥-٤١.
١٤١٣/ ١٩٩٢ «نقوش صفوية جديدة من متحف دار الجوف للعلوم». الدارة ع٤. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض. ص ص١٣٠-١٦٠.
١٤١٣/ ١٩٩٢ «نقوش نبطية جديدة من قارة المزاد سكاكا- الجوف، المملكة العربية السعودية». العصور ج٢. دار المريخ للنشر، لندن. ص ص٢١٧-٢٥٣.

١٤١٤/ ١٩٩٤ «دراسة تحليلية جديدة لنقوش نبطية من موقع القلعة بالجوف بالمملكة العربية السعودية» . مجلة جامعة الملك سعود، الآداب١ ، جامعة الملك سعود، ع٦ ، الرياض. ص ص١٥١-١٩٤ .
١٤١٤/ ١٩٩٤ «دراسة لنقوش نبطية من جبل النيصة بالجوف، المملكة العربية السعودية» . الدارة ع٢ . دارة الملك عبدالعزيز، الرياض. ص ص٨-٢٤ .
١٤١٤/ ١٩٩٤ دراسة تحليلية للنقوش الآرامية القديمة في تيماء: المملكة العربية السعودية. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
١٤١٥/ ١٩٩٥ دراسة تحليلية لنقوش نبطية قديمة من شمال غرب المملكة العربية السعودية. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

الراشد، سعد عبدالعزيز
١٤٠٦/ ١٩٨٦ الربذة: صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية. جامعة الملك سعود، الرياض.
١٤١٣/ ١٩٩٣ كتابات إسلامية غير منشورة من «رواوه» المدينة المنورة. دار الوطن للنشر والإعلام، الرياض.
١٤١٤/ ١٩٩٣ درب زبيدة، طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة: دراسة تاريخية وحضارية أثرية. دار الوطن، الرياض.
١٤١٦/ ١٩٩٥ كتابات إسلامية من مكة المكرمة: دراسة وتحقيق. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض

ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر
١٤٠٢/ ١٩٨٢ الأعلاق النفيسة. تحقيق م. ج. دي غويه. مطبعة بريل، ليدن.

رسلان، عبدالمنعم عبدالعزيز
١٤٠١/ ١٩٨١ «الأزنم خانا وبرجا». مجلة البحث العلمي ع٤ . جامعة أم القرى، مكة المكرمة. ص ص٣٦٧-٤١٠ .

رشيد، صبحي أنور
١٣٩٣/ ١٩٧٣ «دراسة تحليلية للتأثير البابلي في آثار تيماء». سومر ع٢٩ .
١٤٠٠/ ١٩٨٠ «دراسة لفخار تيماء». سومر ع٣٦ .

ابن رشيد، محب الدين أبو عبدالله محمد بن عمر
١٤٠٨/ ١٩٨٨ ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجه الوجيه إلى الحرمين مكة وطيبة. الشركة التونسية للتوزيع، تونس.

الرفاعي، وهبى الحريري
١٤٠٧/ ١٩٨٧ عسير تراث وحضارة. شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض.

رفعت، إبراهيم باشا
١٣٤٤/ ١٩٢٥ مرآة الحرمين. دار الكتب المصرية، القاهرة.

الروسان، محمود محمد
١٤٠٧/ ١٩٨٧ القبائل الثمودية والصفوية دراسة مقارنة. جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، الرياض.

زارينس، يوريس
١٣٩٩/ ١٩٧٩ «الرجاجيل: موقع فريد من الألف الرابع قبل الميلاد». أطلال ع٣، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٨٥-٩٠.

زارينس، يوريس، وآخرون
١٣٩٨/ ١٩٧٨ «قائمة الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني بمتحف الآثار والتراث الشعبي بالرياض». أطلال ع٢، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٧٥-١٠٨.
١٣٩٩/ ١٣٧٩ «التقرير المبدئي لمسح المنطقة الوسطى ١٣٩٨/ ١٩٧٨». أطلال ع٣، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٩-٤٩.
١٤٠١/ ١٩٨١ «التقرير المبدئي الثاني عن مسح المنطقة الجنوبية الغربية ١٤٠٠/ ١٩٨٠». أطلال ع٥، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٩-٣٦.
١٤٠٣/ ١٩٨٣ «تقرير مبدئي عن مسح وتنقيب نجران، الأخدود ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م». أطلال ع٧، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٢١-٤٢.

١٤٠٥/ ١٩٨٥ «الاستكشافات الأثرية الحديثة في سهل تهامة الجنوبي: موقعي عثر وسهي ١٤٠٤/ ١٩٨٤». أطلال ع٩، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٦٩-١١١.

زرة، فريدريش، وأرنست هرتسفلد

١٤٠٥/ ١٩٨٥ «فخاريات سامراء المترجمة». ترجـمة علي يحيى منصور. تنقيبات سامراء ج٢. المؤسسة العامة للآثار. بغداد.

زكي، عبدالرحمن

١٣٧٠/ ١٩٥١ السلاح في الإسلام. دار المعارف، القاهرة.

الزواوي، عبدالله بن صالح

١٣٣٠/ ١٩١١ بغية الراغبـين وقرة عين أهل البلد الأمين فيما يتـعلق بعين الجوهرة السيدة زبيدة أم الأمين. المطبعة الخيرية، مكة المكرمة.

الزيلعي، أحمد بن عمر

١٤٠٠/ ١٩٨٠ مكة وعلاقاتها الخارجية. جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، الرياض.

١٤١٥/ ١٩٩٥ نقوش إسلامية من حمدانة بوادي عليب. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

١٤١٧/ ١٩٩٦ الآثار الإسلامية بمنطقة الباحـة - الخلف والخليف: آثارهما ونقوشهما الإسلامية. مطابع الخالد للأوفست، الرياض.

١٤١٧/ ١٩٩٧ الخلف والخليف. د.ن.

زين الدين، حسين فرج

١٣٩١/ ١٩٧١ صيد الوحوش. دار الفكر العربي، القاهرة.

ساعاتي، يحيى محمود

١٤٠٠/ ١٩٧٩ «الآثار في المملكة العربية السعودية: ببليوجرافيا». الدارة ع٢. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض. ص ص٢٩٦-٣٢٣.

السبيت، عبدالرحمن، وآخرون

د.ت. المصمك رمز من التراث. المهرجان الوطني للتراث والثقافة، الرياض.

السلم، أحمد سعيد
١٤١٤/ ١٩٩٣ المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري. دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

السمهودي، نور الدين أبو الحسن علي بن عبدالله بن أحمد
١٣٧٤/ ١٩٥٥ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة، القاهرة.

ابن سيده، علي بن إسماعيل الأندلسي
١٣٢١/ ١٩٠٣ المخصص. دار الفكر، بيروت.

السيف، عبدالله محمد
١٤٠٣/ ١٩٨٣ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي. مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٤٠٥/ ١٩٨٥ «الصناعة في الجزيرة العربية في العصر العباسي». مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود ع٢، الرياض. ص ص٣٢٥-٣٥٢.

أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل
١٩٧٤ تراجم رجال القرنين السادس والسابع يعرف بالذيل على الروضتين. دار الجيل، بيروت.
د.ت. الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. دار الجيل، بيروت.

الشايع، عبدالله بن محمد
د.ت. نظرات في معاجم البلدان تحقيق مواضع في نجد. المؤلف، الرياض (مطابع مرامر).

الشيخ، نورة بنت عبدالملك
١٤٠٣/ ١٩٨٣ الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة في صدر الإسلام. دار تهامة، جدة.

صادق، محمد باشا
١٣١٣/١٨٩٦ دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج. المطبعة الكبرى، بولاق، القاهرة.

صالح، عبدالعزيز
١٣٩٦/ ١٩٧٦ الشرق الأدنى القديم. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
١٤٠٨/ ١٩٨٨ تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

الصفدي، هشام، وآخرون
١٤٠٨/ ١٩٨٨ الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي. مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض.

الصمد، واضح
١٤٠١/ ١٩٨١ الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

ضو، جورج
١٣٩٠/ ١٩٧٠ تاريخ علم الآثار. منشورات عويدات، بيروت.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد
١٣٩٢/ ١٩٧٢ تاريخ الأمم والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، القاهرة.

عباس، إحسان
١٤٠٧/ ١٩٨٧ تاريخ دولة الأنباط. دار الشروق، عمان، الأردن.

عبدالحميد، سعد زغلول
د.ت. العمارة والفنون في دولة الإسلام. منشأة المعارف، الإسكندرية.

عبدالخالق، ضياء
١٣٩٤/ ١٩٧٤ «مميزات الزجاج العراقي القديم وصفاته». سومر ع ٣٠.
١٣٩٦/ ١٩٧٦ الزجاج الإسلامي. دار الحرية، بغداد.
١٤٠٨/ ١٩٨٨ كيف نؤرخ باستخدام الزجاج. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

عبدالله، يوسف محمد
١٣٩٠/ ١٩٧٠ نقوش صفوية في متحف جامعة الرياض. رسالة ماجستير. الجامعة الأمريكية، بيروت.

١٤٠٤/ ١٩٨٤ أوراق في تاريخ اليمن وآثاره بحوث ومقالات. د.ن.
١٤٠٧/ ١٩٨٧ «الآثار في منطقة عرعر». العرب، ع١-٢، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض. ص ص٦٦-٨٦.
١٤٠٨/ ١٩٨٧ «عم تتحدث النقوش اليمنية». مؤتمر الآثار في الوطن العربي الأول ١٨-٢٢/ ١٠/ ١٤٠٧هـ: النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

عبدالنعيم، محمد
١٤١٦/ ١٩٩٥ آثار ما قبل التاريخ وفجره في المملكة العربية السعودية. ترجمة عبدالرحيم محمد خبير. المؤلف الرياض (مطابع التقنية للأوفست).

العبودي، أحمد بن محمد
١٤١١/ ١٩٩١ الأنماط المعمارية وأثر البيئة بالمنطقة الجنوبية في المملكة العربية السعودية. نادي أبها الأدبي، أبها.

عثمان، محمد عبدالستار
١٤١٣/ ١٩٩٢ سدوس وتحصيناتها الدفاعية دراسة تاريخية أثرية معمارية. كلية الآداب، جامعة الكويت، كلية الآداب، الكويت.

عجيمي، هشام محمد
١٤٠٣/ ١٩٨٣ قلعة المويلح: دراسة معمارية حضارية. رسالة ماجستير. جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
١٤٠٦/ ١٩٨٦ قلاع الأزنم والوجه وضباء. رسالة دكتوراه. جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
١٤٠٩/ ١٩٨٩ «قلعة تبوك». مجلة جامعة أم القرى ع٢. جامعة أم القرى، مكة المكرمة. ص ص١٣١-١٩٦.

عرام بن الأصبغ، عرام ابن الأصبغ السلمي
١٣٧٣/ ١٩٥٤ كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى. المحقق، القاهرة (مطبعة أمين عبدالرحمن).

أبو عساف، علي
١٤٠٨/ ١٩٨٨ الآراميون. دار أماني للطباعة والنشر، طرطوس، سوريا.

العش، محمد أبو الفرج
١٩٦١/ ١٩٦٢ «الفخار غير المطلي في المتحف الوطني بدمشق». مجلة الحوليات الأثرية السورية مج١١-١٢. دمشق.
١٤٠٤/ ١٩٨٤ النقود العربية الإسلامية المحفوظة في متحف قطر الوطني. وزارة الأعلام، الدوحة، قطر.

علام، نعمت إسماعيل
١٤٠٩/ ١٩٨٩ فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية. دار المعارف، القاهرة.

علي، جواد
١٣٩٢/ ١٩٧٢ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . دار العلم للملايين، بيروت.

العلي، صالح أحمد
١٤١٠/ ١٩٩٠ الحجاز في صدر الإسلام دراسة في أحواله العمرانية والإدارية. مؤسسة الرسالة، بيروت.

عمارة اليمني، نجم الدين علي أبو محمد الحكمي
١٤٠٥/ ١٩٨٥ تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها. تحقيق محمد بن علي الأكوع. المكتبة اليمنية للنشر، صنعاء.

عمر، جمال سعد
١٤١٢/ ١٩٩١ التجارة في الخليج العربي في الألف الثالث قبل الميلاد. توثيق المعثورات الأثرية من شرق المملكة العربية السعودية. رسالة ماجستير. قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

العمري، عبدالعزيز بن إبراهيم
١٤٠٥/ ١٩٨٥ الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول. مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر.

عون، عبدالرؤوف

١٣٨٠/ ١٩٦١ الفن الحربي في صدر الإسلام. دار المعارف، القاهرة.

الغامدي، عبدالعزيز بن صقر، وآخرون

١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م مكة المكرمة العاصمة المقدسة. المؤلفون، مكة المكرمة.

غباشي، عادل محمد نور

١٤٠٦/ ١٩٨٦ دراسة لبعض العمائر العثمانية بالهفوف في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري. رسالة ماجستير. جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

غبان، علي إبراهيم حامد

١٤١١/ ١٩٩١ نقشان من شبه جزيرة سيناء يؤرخان لعمارة السلطان قانصوة الغوري لطريق الحج المصري والأماكن المقدسة في الحجاز. مركز البحوث بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

١٤١٣/ ١٩٩٣ «الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة العربية السعودية بمناطق تبوك والعلا وما حولها». المحاضرات مج١٢. النادي الأدبي الثقافي بجدة.

١٤١٤/ ١٩٩٣ شمال غرب المملكة العربية السعودية: بحوث في التاريخ والآثار. مطبعة سفير، الرياض.

١٤١٤/ ١٩٩٣ شمال غرب المملكة العربية السعودية: الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة؛ مدخل عام. مطبعة سفير، الرياض.

الغزي، عبدالعزيز بن سعود

١٤١٣/ ١٩٩٢ «شواهد أثرية على استمرار الاستيطان في واحة الخرج في فترات ما قبل الإسلام». العصور ج٢. دار المريخ للنشر، لندن. ص ص١٧١-١٩٢.

١٤١٣/ ١٩٩٣ «تأريخ وتأصيل فخار فترة أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي (المدهون): الإقليم الشمالي الغربي، المملكة العربية السعودية». العصور ج١. دار المريخ للنشر، لندن. ص ص٧-٢٤.

١٤١٣/ ١٩٩٣ «أنماط فخارية جديدة من الموقع ٢١١-٢٢ (الأقليم الأوسط)». الدارة ع١. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض. ص ص٩-٢٦.

١٤١٤/ ١٩٩٣ الآثار والتاريخ القديم في المملكة العربية السعودية: مصادر ومراجع. المؤلف، الرياض (مطابع الخالد).

١٤١٦/ ١٩٩٦ التحول الاستيطاني في محافظة الخرج في العصور القديمة. الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض.

١٤١٦/ ١٩٩٦ «تقرير عن حفرية أثرية في موقع ٢٠٧/ ٢٦ واحة الخرج المنطقة الوسطى». أطلال ع١٤. ص ص٣٧-٤٢.

الفارسي، زكي محمد

١٤١٣/ ١٩٩٣ الدليل الشامل للمملكة العربية السعودية. شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة.

الفاسي، تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد

١٣٧٥/ ١٩٥٦ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحاق

١٤٠٧/ ١٩٨٦ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه. دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبدالله بن دهيش. مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

أبو الفداء، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل

د. ت. تقويم البلدان. دار صادر بيروت.

فرانكفورت، هنري

١٣٧٨/ ١٩٥٩ فجر الحضارة في الشرق الأدنى. ترجمة ميخائيل خوري. دار مكتبة الحياة، بيروت.

فرج، محمد

د. ت. السلاح والحرب في الإسلام. دار الفكر العربي، القاهرة.

الفعر، محمد بن فهد

١٤٠٥/ ١٩٨٤ تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري. دار تهامة، جدة.

١٤٠٦/ ١٩٨٦ الكتابات والنقوش في الحجاز في العصرين المملوكي والعثماني من القرن الثامن الهجري حتى القرن الثاني عشر الميلادي. رسالة دكتوراه. قسم الحضارة والنظم، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

الفقيه، حسن بن إبراهيم

١٤١٣/ ١٩٩٢ مخلاف عشم قرية عشم-قرية مسعودة-محلة النصايب-محلة الأحسبة الشمالية-محلة الأحسبة الجنوبية. المؤلف، الرياض (مطابع الفرزدق).

١٤١٣/ ١٩٩٢ مدينة السرين الأثرية. المؤلف، الرياض (مطابع الفرزدق).

فيلبي، عبدالله

١٣٨١/ ١٩٦٢ أرض الأنبياء ومدائن صالح. ترجمة عمر الديراوي. المكتبة الأهلية، بيروت.

القلندوري، عبدالقادر

١٣٤٥/ ١٩٢٧ الخلاصة المفيدة لأحوال عين زبيدة. د.ن.

كباوي، عبدالرحمن، وآخرون

١٤١١/ ١٩٩٠ «تقرير مبدئي عن مسح الرسوم والنقوش الصخرية :(الطائف، الباحة)؛ «الموسم الخامس ١٤١٠». أطلال ع١٣، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٤١-٥١.

الكتاني، محمد بن عبدالحي بن عبدالكبير بن محمد

د.ت. نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية (طبعة مصورة). دار الكتاب العربي، بيروت.

كحالة، عمر رضا

١٣٤٧/ ١٩٥٨ أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. المطبعة الهاشمية، دمشق.

الكرخي، أبو بكر محمد بن الحسن

١٣٥٩/ ١٩٤٠ إنباط المياه الخفية. مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن (الهند).

الكردي، محمد طاهر

١٤١٢/ ١٩٩١ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم. مكتبة النهضة، مكة المكرمة.

كريستي، أ.هـ، وآخرون

د.ت. تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة. دار المعارف، مصر.

كشاجم، أبي الفتح محمد بن الحسين بن السندي
د.ت. المصايد والمطارد. تحقيق محمد أسعد طلس. دار اليقظة، بغداد

كفافي، زيدان
١٤١٠/ ١٩٩٠ الأردن في العصور الحجرية. المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، الأردن.

الكلابي، حياة
١٤١٦/ ١٩٩٥ الآثار الإسلامية ببلدة بدا محافظة الوجه شمال غرب المملكة العربية السعودية. رسالة ماجستير. قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

ابن الكلبي، أبو منذر هشام محمد بن السائب
١٣٤٣/ ١٩٢٤ الأصنام. تحقيق أحمد زكي. دار الكتب المصرية، القاهرة.

كونل، أرنست
١٣٨٥/ ١٩٦٦ الفن الإسلامي. ترجمة أحمد موسى. دار صادر، بيروت.

لوكاس، ألفريد
١٤١١/ ١٩٩١ المواد والصناعات عند قدماء المصريين. ترجمة زكي إسكندر ومحمد غنيم. مكتبة مدبولي، القاهرة.

ليفين، بونفارد
١٤٠٨/ ١٩٨٨ حول الشرق القديم. ترجمة جابر أبي جابر وخيري الضامن. دار التقدم، موسكو.

مازندراني، موسى الحسيني
١٤٠٨/ ١٩٨٨ تاريخ النقود الإسلامية. د.ن.

ماهر، سعاد محمد
١٤٠٦/ ١٩٨٦ كتاب الفنون الإسلامية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

محمد، عبدالرحمن فهمي
١٣٨٤/ ١٩٦٥ موسوعة النقود العربية وعلم النميات فجر السكة الإسلامية. مطبعة دار الكتب، القاهرة.

مرزوق، محمد عبدالعزيز
١٤٠٧/ ١٩٨٧ الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

مري، مرجريت
١٣٧٦/ ١٩٥٧ مصر ومجدها الغابر. ترجمة محرم كمال. مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة.

المزروع، حميد
١٤١٣/ ١٩٩٣ «دراسة تصنيفية مقارنة لمجموعة غير منشورة من الدمى الجنوبية». العصور ج٢. دار المريخ للنشر، لندن. ص ص٢٨٩-٣١٠.

المصري، عبدالله حسن
١٣٩٧/ ١٩٧٧ «مقدمة عن آثار الاستيطان البشري بالمملكة العربية السعودية». أطلال ع١، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٩-٢٠.
١٤٠٤/ ١٩٨٤ «ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها». دراسات في تاريخ الجزيرة العربية: الجزيرة العربية قبل الإسلام مج٢. مطابع جامعة الملك سعود، الرياض.

مصطفى، صالح لمعي
١٤٠١/ ١٩٨١ المدينة المنورة تطورها المعماري وتراثها المعماري. دار النهضة العربية، بيروت.

مظلوم، طارق
١٣٩٣/ ١٩٧٣ «تنقيبات البعثة الآثارية العراقية في منطقة مليحة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة». سومر ع٢٩.

المعيقل، خليل بن إبراهيم
١٤١٤/ ١٩٩٣ «نقشان عربيان مبكران من سكاكا». الدارة ع٣. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض. ص ص١١٢-١٣٢.

المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد
١٤٠٨/ ١٩٨٧ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق م. ج. دي غويه. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي
١٣٧٤/ ١٩٥٥ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك. تحقيق جمال الدين الشيال. مكتبة الخانجي، القاهرة.
د.ت. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. دار صادر، بيروت.

المنجد، صلاح الدين
١٣٦٨/ ١٩٤٩ ولاة دمشق في العهد العثماني. تحقيق رسلان القاري ومحمد المقار، المحقق، دمشق.
١٣٩٩/ ١٩٧٩ دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي. دار الكتاب الجديد، بيروت.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد
١٤٠١/ ١٩٨١ لسان العرب. دار صادر، بيروت.

مورتكات، أنطون
١٣٩٥/ ١٩٧٥ الفن في العراق القديم. ترجمة وتعليق عيسى سلمان وسليم طه التكريتي. مديرية الثقافة العامة، بغداد.

موسكاتي، سبتينو
١٣٧٦/ ١٩٥٧ الحضارات السامية. ترجمة السيد يعقوب بكر. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

موسى، علي
١٤١٢/ ١٩٩٢ «وصف المدينة المنورة». رسائل في تاريخ المدينة (قدمها وأشرف على طباعتها حمد الجاسر). دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.

النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل
د.ت. الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز (طبعة مصورة عن مخطوطة دار الكتب المصرية). القاهرة.

نامي، خليل يحيى
١٣٥٣/ ١٩٣٥ «أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام». مجلة كلية الآداب مج ٣ ج١. الجامعة المصرية. ص ص١-١١٢.

ابن النديم، محمد بن إسحق

١٣٩٨/١٩٧٨ الفهرست. دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت.

نصيف، عبدالله آدم

١٤٠٦/١٩٨٦ تاريخ وحضارة. مطابع بحر العلوم، الرياض.

١٤٠٦/١٩٨٦ «القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنورة». العصور ج٢. دار المريخ للنشر، الرياض. ص ص١٩٩-٢١٢.

النعيم، نورة عبدالله العلي

١٤١٢/١٩٩٢ الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي. دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض.

النقشبندي، ناصر السيد محمود

١٣٧٩/ ١٩٦٠ الدينار الإسلامي في المتحف العراقي. المجمع العلمي العراقي، بغداد.

١٣٩٠/ ١٩٧٠ الدرهم الإسلامي. المجمع العلمي العراقي، بغداد.

هوجز ك.م. وكاولت أ.ج.

١٤٠٧/١٩٨٧ «التأريخ بالكربون المشع بالاعتماد على مطيافية الكتلة واستخدام المسارعات». مجلة العلوم ج٢، ع١. الكويت. مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت. ص ص٨٢- ٩٠.

هودجز، هنري

١٤٠١/١٩٨١ الخزفيات. ترجمة محمد يوسف بكر. معهد الإنماء العربي، بيروت.

هويلن، نورمان، وآخرون

١٤٠٣/١٩٨٣ «تقرير عن التنقيب في المواقع الأثرية قرب صفاقة بالدوادمي ١٤٠٢/١٩٨٢». أطلال ع٧، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٩-٢٠.

١٤٠٤/ ١٩٨٤ «حفرية في المواقع الأشولية قرب صفاقة بالدوادمي في المملكة العربية السعودية ١٤٠٣/١٩٨٣». أطلال ع٨، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٩-٢٤.

١٤٠٦/ ١٩٨٦ «تقرير من موقع يعود للعصر الحجري الحديث الأدنى (البليستوسيني) قرية الشويحطية في شمال المملكة العربية السعودية». أطلال ع١٠، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص١١٥-١٢٤.

١٤٠٩/ ١٩٨٨ «مجموعة من المواقع في جدة ووادي فاطمة». أطلال ع١١، وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص٩٣-١٠٢.

هويلن، نورمان، وبيتس ديفيد

١٤١٣/ ١٩٩٣ «الإنسان الأول في الجزيرة العربية». ترجمة حمدي يوسف الكتوت. القافلة ع٤١.

وافي، عبد المجيد

١٤١٤/ ١٩٩٤ «عمارة المسجد النبوي الشريف بين روايات كتب السنن وافتراءات مستشرقي العمارة». الفيصل ع٢٠٧. دار الفيصل الثقافية، الرياض. ص ص٧٥-٨٤.

وزارة المعارف إدارة الآثار والمتاحف الرياض

١٣٩٥/ ١٩٧٥ مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية. إدارة الآثار والمتاحف، الرياض.

١٤٠٣/ ١٩٨٣ الحصون والقصور التاريخية بالهفوف، الأحساء. إدارة الآثار والمتاحف، الرياض.

١٤٠٣/ ١٩٨٣ سور وأبراج حي الطريف بالدرعية. إدارة الآثار والمتاحف، الرياض.

د.ت. حمام الطريف وملحقاته: حي الطريف، الدرعية. إدارة الآثار والمتاحف، الرياض.

الوشمي، صالح بن سليمان

١٤٠٣/ ١٩٨٣ الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القصيم. رسالة ماجستير. قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

١٤١٢/ ١٩٩١ ولاية اليمامة: دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري. مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض.

الوليعي، عبدالله بن ناصر

١٤١٦/١٩٩٦ «بحوث في الجغرافيا الطبيعية للمملكة العربية السعودية». جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية: السطح. المؤلف، الرياض.

١٤١٦/١٩٩٦ «بحوث في الجغرافيا الطبيعية للمملكة العربية السعودية». الجغرافيا الحيوية: المناخ، التربة، موارد المياه والبيئات المختلفة. المؤلف، الرياض.

الوهاب، فرج مجاهد

١٤١٢/١٩٩١ «ماذا عن الزجاج منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد». المجلة العربية ع١٦، الرياض. ص ص٤٦-٤٩

ويتكمب، دونالد

١٣٩٨/١٩٧٨ «آثار واحة الأحساء في العصر الإسلامي». أطلال ع٢. وكالة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، الرياض. ص ص١٠٩-١٣٢.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله

١٣٩٩/١٩٧٩ معجم البلدان. دار صادر، بيروت.

يلحاز، طرجان

١٤١٤/١٩٩٣ الكعبة المشرفة دراسة أثرية لمجموعة أقفالها ومفاتيحها عن المخطوطة المحفوظة في متحف طوب قبوسراي بإسطنبول. ترجمة تحسين عمر طه أوغلي ومراجعة أحمد عيسى. مركز الإيمان للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استطنبول.

يوسف، عبدالرؤوف علي

١٣٧٧/١٩٥٨ «خزافون من العصر الفاطمي وأساليبهم الفنية». مجلة كلية الآداب مج٢٠، ع٢. جامعة القاهرة، القاهرة. ص ص١٧٣-٢٧٩.

Adams, P. J

1961 *Geology and Ceramics*. Her Majestys Stationery Office, London.

Adams, Robert McC., and others

1977 *Sa'audi Arabian Archaeological Reconnaissance 1976*"Preliminary Report on the First Phase of the Comprehensive Archaeological Survey Program". *Atlal* vol. 1. P. P 21-40.

Anati, E.

1968-1974 *Rock Art in Central Arabia.* (4 vols.). Inst Orientaliste, Louvain.

Anderson, A.

1984 *Interpreting Pottery*. B.T. Batsford Ltd., London.

Ansary, A. R. al

1966 *A Critical and Comparative Study of Lihyanite Personal Names*. Ph. D. Thesis. University of Leeds, Leeds.

Artuk, I. & Artuk, C.

1970-1974 *Istanbul Arkeoloji Muzeleri Teshirdeki Islami Sikkeler Katalogu*. Milli Egitim Basimevi, Istanbul.

Assaf, A. Abou, and others

1982 "Statue de Tell Fekherye et Son Inscription Bilingue Assyro-Araméenne". *Etudes Assyriologrques*. Paris.

Bahgat, Ali & Felex Massoul

1930 *La Céramique Musulmane de L'Egypte.* Musée Arabe du Caire.

Beyer, K.

1986 *The Aramaic Language* (tran. J. Healey). Guttingen.

Bibby, T. G.

1973 "Preliminary Survey in East Arabia 1968". *Jutland Archaeological Society Publications* vol. 2. Copenhagen.

1986 "The Origins of the Dilmun Civilization". *Bahrain Through the Ages: the Archaeology* (H. A. al-Khalifa and M. Rice, eds.). KPI, London.

Binford, L.

1983 *In Pursuit of the Past: Decoding the Archacological record*. Thames and Hudson, London.

Bowen, R. le Baron, et al.

1950 "The Early Arabian Necropolis of Ain Jawan". *Bulletin of the American School of Oriental Research, Supplementary Studies*, nos 7-9.

Brian. D.

1971 *Southern Arabia*. Thames and Hudson, London

Broome, M.

1985 *A Handbook of Islamic Coins*. London.

Brown, D.

1975 *Principles and Practice in Modern Archaeology*. Hodder and Stoughton, London.

Chapman, R. W.

1978 "Climatic Changes and The Evolution of Landforms in the Eastern Province of Saudi Arabia". *Bulletin of the Geographical Society of America*. Washington.

Childe, V. G.

1951 *Man Makes Himself*. Mentor Books, London.

Dickson, H. R. P. & V. P. Dickson,

1948 Thaj and Other Sites. *lraq* vol 10.

Dossary, A. al

1991 *Carte Archéologique Médiévale de la Région d'al-Sharquiyya en Arabie Séoudite*. Thèse Université Lyon II, Françe.

Duruk, H. Abu

1986 *Introduction to the Archaeology of Tayma*. National Offset Printing Press, Riyadh.

Edens, C.

1982 “Towards Definition of the Western ar-Rub al-Khali Neolithic”. *Atlal* vol. 6. P. P 109-124.

Esine, Emel

1974 *Mecca the Blessed, Madinah the Radiant*. Elek, London.

Fagan, B. M.

1981 *In the Beginning: An Introduction to Archaeology*. Little and Brown Company, London.

Field, H.

1956-1961 *Ancient and Modern Man in Southwestern Asia*. University of Miami Press, Coral Gables, Fla.

1958 “Stone Implements from the Rub al-Khali; Southern Arabia”. *Man* 121.

Gazdar, M. S.

1982 *A Comparative Study of Pottery from Arabia in the Pre-Islamic Period 500 B.C. to A.D. 600*. Ph. D. Thesis. Universityof London, London.

Geoffrey, V.

1983 “An Archaeological Re-asscssment of Some Pre-Islamic Byzantine and Early Islamic Sites In Jordan”. *Journal of The College of Arts,* King Saud University, Riyadh. P. P 15-33.

Ghabban, A. H.

1988 *Introduction à l’étude archéologique des deux Routes Syrienne et Egyptienne de Pélerinage au Nord-Ouest de l’ Arabie Séoudite*. Université de Provence Aix Marseille 1, France.

Ghamdi, A. K. A. al

1983 *The Influence of Environment on Pre-Islamic Socio-Economic Organization in Southwestern Arabia*. Ph. D. Dissertation. Arizona State University, Arizona.

Ghazzi, A. S. al

1990 *A Comparative Study of Pottery from a Site in the al-Kharj Valley*, *Central Arabia*. Ph. D. Theis. University of London, London.

Gilmore, M., and others

1982 "Preliminary Report on the Northwestem and Northern Regions Survey 1981/1401". *Atlal* vol. 6. P. P 9-25.

Glueck, Nelson

1965 *Deities and Dolphins*. Cassell, London.

Grohman. A.

1959 "Arabian Pre-Islamic Art". *Encyclopedia of World Art*. McGraw-Hill Book, London. vol. 1.

Groom, Nigel

1981 *Frankincense and Myrrh: A study of the Arabian Incense Trade*. Longman, London and New York.

Hamidullah, Muhammad.

1933 "Some Arabic Inscriptions of Madinah of the Early Years of Hijrah". *Islamic Culture* vol. 13. P. P 7-21.

Hariri, Wahbi, & Mokhless Rifai

1990 *The Heritage of the Kingdom of Saudi Arabia.* GDG Publications, Washington.

Healey, J.

1993 *The Nabateaan Tomb Inscriptions of Mada'in Salih*. Oxford University Press. Oxford

Hodder, I.

1991 *Reading the Past*. Cambridge University Press, Cambridge, Cambridge.

Ingraham, M., and others

1981 "Preliminary Report on a Reconnaissance Survey of the Northwestern Province With a Note on a Brief Survey of the Northern Province". *Atlal* vol. 5. P. P 50-84.

Jamme, A.

1966 *Sabaean and Hasaean Inscriptions from Saudi Arabia*. Instituto di Studi del Vicino Oriente, Roma.

1967 "Safaitic Inscriptions from Saudia Arabia". *Oriens Antiquus* vol. 612.

1969 "New Safaitic and Hasaean Inscriptions from Northern Arabia". *Sumer* vol. 25. P. P 141-151.

Jaussen, Savignac

1909-1914 *Mission Archéologique en Arabie.* Paris.

King, G.

1986 *The Historical Mosques of Saudi Arabian*. Longman, London.

Lane Poole, Stanley

1967 *Catalogue of Oriental Coins in the British Museum*. Forni Bologna, London.

1984 *Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library in Cairo*. London.

Lann, Carl

1945 *Glass from Iran, in the National Museum Stokholm*. Upsala.

Lapp, P.

1963 "Observation on the Pottery of Thaj". *Bulletin of the American School of Oriental Research* no. 172. P. P 8-12.

Levinson, H.

1974 *The Nabataean Aramaic Inscriptions*. New York.

Littmann, E.

1909 *Nabataean Inscriptions from Southern Hauran*. Leiden.

Mandaville, J. P.

1963 "Thaj: A Pre-Islamic Site in Northeastern Arabia". *Bulletin of the American School of Oriental Research* no. 172. P. P 20-24.

Mannoni, T.

1982 “Present Knowledge of Mediterranean Pottery After Ten Years of Thin-Sectioning at University of Genoa”. *Current Research in Ceramics: Thin-Section Studies*. British Museum, London.

March, B.

1934 *Standards of Pottery Description*. University of Michigan Press, Michigan

Mauger, Thierry,

1993 *Undiscovered Asir*. Stacey International, London.

Mazroo, H. I. al

1990 *A Stylistic and Comparative Study of Unpublisheed Pre-Islamic Stone Sculptures From Arabia*. Ph. D. Thesis. University College, London.

Mc Clure, H.

1971 *The Arabian Peninsula and Prehistoric Population*. Field Research Projects, Miami.

1976 “Radiocarbon Chronology of Late Quaternary Lakes in the Arabian Desert”. *Nature* no. 265. P. P 683-686.

Muaikel, K. al

1994 *A study of the Archaeology of the Jawf Region*. King Fahad National Library Publications, Riyadh.

Nasif, A.

1988 *Al-Ula, An Historical And Archaeological Survey, with Special Refernce to Its Irrigation System*. King Saud Uneversity Press, Riyadh.

Nielsen, Kjeld

1986 *Incense in Ancient Israel*. Leiden.

Oates, J.

1986 “The Gulf in Prehistory”. *Bahrain Through the Ages; the Archaeology*. (H. A. al-Khalifa and M. Rice, eds.). Sydney and Henley, London.

Omeir, A. el

1991 *Los Metales Islamicos Medievales En Espana*. Ph. D. Thesis. Madrid University, Madrid.

Parr, P. J.

1964 "Objects from Thaj in the British Museum". *Bulletin of the American School of Oriental Research*, no. 176.

1978 "Preliminary Report on the Second Phase of the Northern Province Survey" 1977. *Atlal* vol. 2. P. P 29-50

1988 "The Pottery of the Late Second Millennium B.C. from North West Arabia and Its Historical Implications". *Araby the Blest: Studies in Arabian Archaeology* (D. Potts, ed.). CNI Publications, no. 7. Museum Tusculanum Press, Copenhagen.

Parr, P. J., and Gazdar, M.

1980 "A Report on the Soundings at Zubaida (al-^{c}Amara) in the al-Qasim Region 1979". *Atlal* vol. 4. P. P 107-117.

Parr, P. J., and others

1970 "Preliminary Survey in North Arabia". *Bulletin of the Institute of Archaeology* nos. 8-9.

1970 "Preliminary Survey in North-Western Arabia 1968". *Bulletin of the Institute of Archaeology*, nos. 8-9.

Peacock, D.

1970 "The Scientific Analysis of Ancient Ceramics: A Review". *World Archaeology* vol. 1(3).

Petrie, W. M. F.

1900 "Sequences in Prehistoric Remains". *Journal of the Royal Anthropological Institute* vol. 29.

Philby, H. St. J. B.

1969 *Arabian Highlands*. Dacapo Press, New York.

Piesinger, C. M.

1983 *Legacy of Dilmun; the Roots of the Ancient Maritime Trade in Eastern Coastal Arabia in the 4th/3rd Millennium BC*. Ph. D. Thesis. University of Wisconsin, Madison.

Potts, D. T.

1990 *The Arabian Gulf in Antiqity*. Clarendon Press,Oxford.

Potts, D., and others

1978 "A Comprehensive Archaeological Survey Programme: Preliminary Report on the Second Phase of the Eastern Province Survey 1977 ". *Atlal* vol. 2. P. P 7-28.

Powers R., and others

1966 *Geology of the Arabian Peninsula, Sedimentary Geology of Saudi Arabia*. US. Govt., Printing Office, Washington.

Qazan, W.

1983 *The Coinage of Islam*. Bank of Beirut. Beirut, Lebanon.

Rashid, Saad, al

1980 *Darb Zubaydah: The Pilgrim Road From Kufa to Mecca*. King Saud University, King Saud University Library Riyadh.

Saud, A. S.

1991 *Central Arabia During the Early Hellinistic Period, with Particular Reference to the Site of al-Ayun in the Area of al-Aflaj in Saudi Arabia*. Ph. D. Thesis, Edinburgh University, Edinburgh.

Savignac, R, Starcky, J.

1957 "Une Inscriptions Nabateene Provenant du Djof", *RB* 64.

Sharekh, A. M. al

1989 *The Palaeolithic Period of Saudi Arabia: an Assessment.* MA Dissertation. Department of Archaeology. University of Cambridge, Cambridge.

Sharer, R. J.

1987 *Archaeology: Discovering Our Past*. Mayfield Publishing Campany, Mountain View.

Shepard, A.

1956 *Ceramics for the Archaeologist*. Carnegie Institute of Washington Publication, Washington.

Szentleleky, T.

1978 *Ancient Lamps*, Budapest.

Theeb, S. A. al

1993 *Aramaic and Nabatean Inscriptions from North-West Saudi Arabia*. King Fahad National Library Publication, Riyadh.

Thenyan, M. al

1994 *An Archaeological Study of the Yemeni Highland Pilgrim Route between San'a and Mecca*. Ph. D. Thesis. Manchester University, Manchester

Tite, M. S.

1972 *Methods of Physical Examination in Archaeology*. Seminar Press, London.

Tosi, M.

1976 "The Dating of the Umm an-Nar Culture and a Proposed Sequence for Oman in the Third Millennium BC.". *Journal of Oman Studies* vol. 2. P. P 81-92.

Walker, J. A.

1941-1959 *Catalogue of the Muhammadan Coins in the British Museum*. London.

Winnett, F. V.

1970 *Ancient Records from North Arabia*. University of Toronto Press, Toronto.

Zarins. J.

1979 "Rajajil; a Unique Arabian Site from the Fourth Millennium BC.". *Atlal* vol. 3. P. P 73-78.

1982 "Early Rock Art of Saudi Arabia". *Archaeology* vol. 35, No. 6.

Zarins, J., and others

1979 "Comprehensive Archaeological Survey Preliminary Report on the Program of the Central Province 1978". *Atlal* vol. 3. P. P 9-42.

1981 "The Comprehensive Archaeological Survey Program (The Second Preliminary Report on the Southwestern Province)". *Atlal* vol. 5. P. P 9-43.

Zaylai, A. O. al

1993 *The Southern Area of the Emirate of Makkah (3rd-7th A. H./9th-13th A.D): Its History, Archaeology and Epigraphy*. Ph. D. Thesis. Durham University, Durham.

